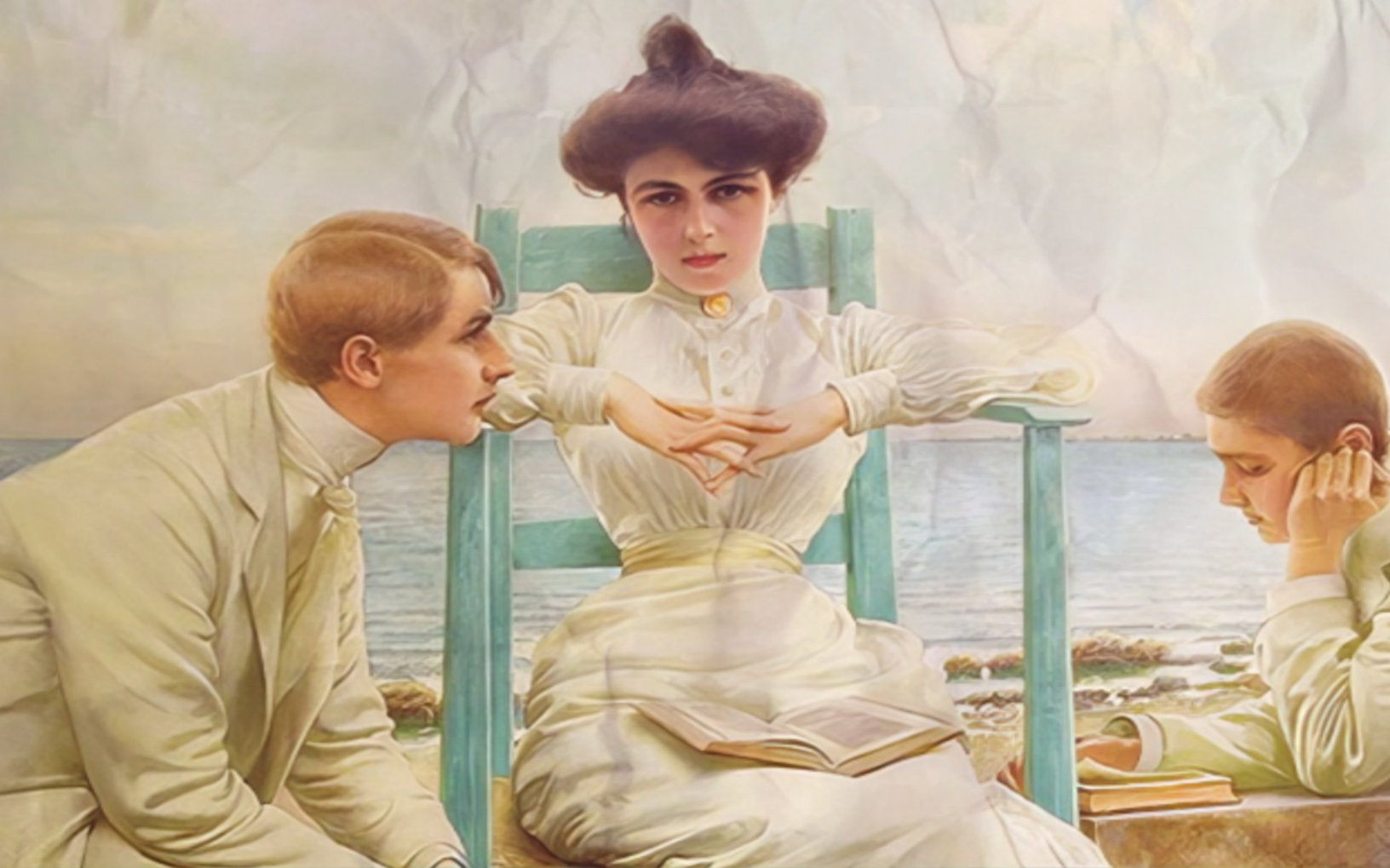


”الرواية التي باعت أكثر من 70 ألف نسخة في أسبوع واحد من صدورها“



فريق
متميزون



E-BOOK

العربي
للطباعة والنشر

أسود صقلية

ستيفانيا أوشي

ترجمة: ليلي البدرى

روايات مترجمة

مكتبة فريق (متميزون).

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:



كلمه مهمه:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

أسود صقلية رواية مترجمة..

الرواية التي باعت أكثر من ٧٠ ألف نسخة في أسبوع واحد من
صدورها..

الكاتبة: ستيفانيا أوشي
ترجمة: ليلى البدرى

الإهداء..

إهداء إلى
"فديريكو" و"إينورا"
وللسجاعة والمجازفة والجنون
التي تشاركنها معاً على مرّ الأيام والتي فُقدت منا، ثم عادت إلينا من جديد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



حتى لو ضاع الميدان؟ فكل شيء لم يُفقد بعد؛
فما زالت الإرادة التي لا تُقهر باقية،
ومداواة الكره الأزلي الكامن في الانتقام،
والشجاعة التي لم ترضخ يوماً أو تلين،
هل من شيءٍ آخر لا يمكن التغلب عليه؟
جون ميلتون - "الفردوس المفقود"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



مقدمة

«بانيارا كالابرا»، 16 أكتوبر 1799

«هؤلاء الذين يرحلون، ينجحون»

- مثل شعبي صقلي

للزلازل صوت صدع يشبه صوت حشر الأسافين، يبدأ من البحر وتزداد وتيرته وتتصاعد ليتحول في النهاية إلى زئير مرعب يمزق حاجز الصمت في ظلمة الليل.

الناس نيام في البيوت، أيقظ بعضهم صوت تخبُّط الأواني والمقالي، والبعض الآخر استيقظ فرعاً عند سماع صوت الأبواب وهي تنغلق بقوة. بمرور الوقت، بدأت الجدران في الاهتزاز، وبالرغم من كل ذلك، بقي الجميع بالأعلى.

تصيح الماشية داخل الحظائر بصوت عالٍ من شدة الخوف، والكلاب تنبح من ورائها، تعالت أصوات الصلوات مختلطة بأصوات اللعنات، وباتت الجبال تلقي مرغمة بعضاً من حجارتها وطينها. كان المشهد كله عبثياً كأن العالم بأسره فجأة انقلب رأساً على عقب.

امتد تأثير الزلزال حتى وصل حدود مقاطعة «بيتراليسيا»، وما إن وصل هناك حتى أمسك بأساس أحد المنازل وهزه بعنف.

في تلك اللحظة، فتح «إجنازيو» عينيه وهو مذعور كشخص تم إيقاظه من نوم عميق بالقوة، ليُفاجأ بمشهد الشقوق وهي تنتشر على جدران البيت، وفي الأعلى كان سقف البيت على وشك أن ينقض فوق رأسه.

«إنه ليس حُلماً كما كنت أعتقد، إنما هي الحقيقة في أبشع صورها».

يقع أمامه مباشرة سرير ابنة أخيه «فيتوريا»، يتأرجح بين الحائط ووسط الحجرة، وعلى الأريكة علبة المشغولات المعدنية تهتز، لتسقط بعدها على الأرض بجوار المشط وموس الحلاقة.

في اللحظة نفسها، يتردد صدى صوت صرخات امرأة في كل أنحاء المنزل، وهي تصيح:

- ساعدوني! ساعدوني! إنه الزلزال!

صوت الصراخ والعيويل دفع «إجنازيو» ليقفز من على سريره ويقف في مكانه، لكنه تذكر في خضم هذه الفوضى والارتباك أنه يجب عليه أن يتأكد أولاً أن «فيتوريا» بأمان، فهي ما زالت طفلة صغيرة لم تبلغ من العمر سوى تسع سنوات فقط وكانت تبدو خائفة ومذعورة. جذبها «إجنازيو» من ذراعيها برفق، وأجلسها تحت السرير كي يحميها من خطر الانقراض التي بدأت تتساقط هنا وهناك.

- ابق هنا حتى أعود إليك، هل تسمعيني؟ لا تتحركي من مكانك.

أومأت الطفلة الصغيرة برأسها بالموافقة، لأنها كانت خائفة لدرجة أنها لم تستطع أن تجيبه بالكلام.

- «باولو»، «فينسينزيو»، «جيوسبينا»!

خرج «إجنازيو» فرعاً من الحجرة. بدا الرواق أمامه بلا نهاية على الرغم من أن طوله لا يتعدى بضع خطوات. بدأ ينتابه شعور مخيف بأن الجدران تتحرك من مكانها وتقلت من بين يديه، حاول أن يثبتها بيديه مرة أخرى لكنها كانت تتحرك كأنها كائن حي.

وصل أخيراً لباب غرفة نوم أخيه «باولو». بدأ شعاع من الضوء يتسرب عبر الأبواب الكبيرة. ففرت زوجة أخيه «جيوسبينا» من سريرها بعد أن أيقظتها غريزة الأمومة لتتفقد أحوال رضيعها

“فينسينزيو” البالغ من العمر بضعة شهور، كان الخطر يحيط بالطفل من كل جانب، حاولت الأم أن تلتقطه بيديها لأنه كان نائمًا في أرجوحة مصنوعة من الخوص معلقة بالسقف ومتدلّية لأسفل، لكن الأرجوحة المصنوعة من الخوص لم تستطع الصمود في وجه الزلزال وبدأت تهتز بشدة. بكت المرأة بياس محاولة الوصول إليه لكن دون جدوى، لأن السقيفة كانت تتأرجح بشدة مانعة إياها من الوصول إليه.

سقط الشال من على كتفيها كاشفًا عن ذراعيها العاريتين.

- طفلي الحبيب! يا أم الرب الطاهرة، ساعدينا!

في النهاية، تمكنت “جيوسينا” من التقاط الرضيع بصعوبة، حينها فقط فتح “فينسينزيو” عينيه وانفجر في البكاء. في وسط هذه المأساة، رأى “إجنازيو” شبح شخص قادم من بعيد؛ إنه شقيقه الأكبر “باولو”، الذي قفز هو الآخر من على مرتبته ليدفع بزوجته نحو الرواق وهو يصيح:

- اذهبي إلى الخارج!

عاد “إجنازيو” وصاح:

- انتظري يا “فيتوريا”!

وجد “إجنازيو” الفتاة الصغيرة مختبئة في الظلام الدامس تحت السرير، مطوية على نفسها وقد وضعت يديها فوق رأسها لتحميها، فحملها على الفور وجرى بها بعيدًا. في تلك اللحظة، انفلتت بعض أجزاء من الجص الذي يغطي الجدران وسقطت على الأرض مع استمرار ضجيج الزلزال.

كان “إجنازيو” يشعر بالفتاة الصغيرة “فيتوريا” وهي ترتعد من شدة الخوف كمشرّد يبحث عن مأوى، وقد تعلقت بكل قوتها بقميصه أو بالأحرى كانت تعتصره اعتصارًا بين يديها من شدة الرعب؛ لقد كانت الفتاة خائفة لدرجة أنها كانت تخدشه بأظفارها دون قصد.

دفع “باولو” بالجميع نحو عتبة البيت كي ينزلوا على السلام.

- تعالوا إلى هنا!

توجه الجميع بسرعة نحو الفناء لأن الهزات الأرضية وصلت إلى ذروتها. جلس الجميع معًا، رؤوسهم متلامسة وعيونهم مغلقة؛ هناك خمسة جالسين، الكل كان موجودًا في الفناء.

جلس “إجنازيو” يصلي في مكانه وهو يرتعد أملًا في النجاة للجميع. أوشك الزلزال على الانتهاء؛ كان لا بد أن تأتي لحظة وينتهي.

مرّ الوقت طويلًا كأنه قد تجزأ لملايين الثواني، لينتهي الزلزال كما بدأ؛ بدأ صوته العنيف يهدأ رويدًا رويدًا إلى أن توقف بالكامل.

للحظة، لم يبق سوى الظلام.

لكن “إجنازيو” يعلم جيدًا أن هذا الهدوء خادع، وأنه الهدوء الذي يسبق العاصفة، فقد درس الزلزال منذ فترة.

نظر للأعلى، كان يشعر بما تشعر به “فيتوريا” من خوف من خلال قميصه؛ بأظافها التي انغرزت في لحمه من شدة الذعر وبارتعاشتها.

رأى كذلك الخوف ظاهر في عينيّ زوجة أخيه وعلى العكس رأى الراحة ظاهرة في عينيّ أخيه، في الوقت الذي كانت فيه “جيوسينا” تمد يدها كي تحتمي بذراع زوجها، كان “باولو” يبتعد عنها ليقترّب أكثر من البيت.

- نحمد الرب أن البيت لم يَنْهَرْ! في الغد، وفي ضوء النهار، سوف يتضح لنا مدى الضرر الذي لحق به.

انتقى "فينسينزيو" تلك اللحظة كي ينفجر في البكاء.

- هشش...! اهدأ يا حبيبي، اهدأ.

كانت "جيوسبينا" تهزه وتهدهه وهي تسير ناحية "فيتوريا" و"إجنازيو". ما زالت "جيوسبينا" تشعر بالرعب؛ عرف "إجنازيو" ذلك من تنفسها السريع، ورائحة عرقها التي كانت عبارة عن خوف متمزج برائحة الصابون التي كانت تكسو ثوب نومها.

تساءل "إجنازيو":

- ماذا عنك يا "فيتوريا"؟ هل أنت بخير؟

أومأت الفتاة له برأسها كعلامة تدل على أنها بخير، لكنها مع ذلك بقيت متعلقة بقميصه. جذب "إجنازيو" يدها بقوة بعيداً عنه... كان يتفهم سبب خوفها، فالبنات الصغيرة يتيمة؛ إنها ابنة أخيه "فرانشيسكو" الذي توفي هو وزوجته منذ سنوات قليلة، تاركين وراءهما هذه الفتاة المسكينة في رعاية "باولو" وزوجته "جيوسبينا"، لأنهما الوحيدان القادران على منحها جو الأسرة والشعور بالأمان.

- لا تقلقي يا صغيرتي، أنا هنا من أجلك.

حدقت فيه "فيتوريا" وهي صامتة، ثم وبمجرد أن رأت "جيوسبينا"، تعلقت بها على الفور كما فعلت معه منذ لحظات، تمامًا كالمنبت.

كانت "فيتوريا" تعيش مع عمها "باولو" وزوجته "جيوسبينا" منذ أن تزوجا؛ أي منذ قرابة الثلاث سنوات، ومنذ ذلك الحين وهي ترعى عمها "باولو"؛ إنها فتاة معروف عنها قلة الكلام، والاعتزاز بالنفس والمحافظة، لكنها رغم كل هذا تبدو الآن مجرد فتاة صغيرة مرتعدة، فللخوف وجوه عدة.

"إجنازيو" يعلم أن أخاه لن يقف مكتوف اليدين يبكي ويضع يده على فخذه متجهماً؛ لقد بدأ بالفعل تقصص أحوال الفناء والجبال المحيطة بالوادي.

- يا أم الرب المقدسة، كم من الوقت استمر هذا الزلزال؟

غرق السؤال في بحر من الصمت، إلى أن أجاب عليه "إجنازيو" وهو يحاول أن يهدئ أعصابه:

- لست أدري على وجه الدقة، لكنه استمر لوقت كافٍ ليحدث كل هذا الدمار.

بدا وجه "إجنازيو" عابساً، كان شعر وجهه خفيفاً؛ يبدو في الحقيقة أصغر من "باولو"، بينما يبدو الأخير أكبر منه.

ذاب الشعور بالقلق والتوتر وتحول لنوع من أنواع الإرهاق والتعب، مفسحاً الطريق أمام الأحاسيس المادية كي تتطلق؛ الشعور بالرطوبة، الغثيان والقرف، الشعور بالأحجار التي كانت تعلق بأحذيتهم طوال الوقت دون أن يشعروا. أما عن "إجنازيو"، فقد كان يسير على الأرض حافي القدمين بملابس النوم، أو بالأحرى شبه عار. مشط شعره بيديه وأبعده عن وجهه ونظر لأخيه ثم إلى زوجة أخيه.

لم يستغرق اتخاذها للقرار سوى ثانية واحدة، ليتوجه بعدها على الفور إلى المنزل. اندفع "باولو" وراءه وأمسك بذراعه.

- إلى أين أنت ذاهب؟

أشار إلى "فيتوريا" و"جيوسبينا" التي كانت تهدي الرضيع.

- إنهم بحاجة إلى بطانيات، ابق إلى جوار زوجتك وأنا سأذهب لأحضر البعض.

لم ينتظر إجابة أخيه؛ تحرك بسرعة ولكن بحرص ليصعد الدرج ويتوقف لبرهة في الرواق، معطياً الفرصة لعينيه كي تعناد على الظلام الذي لف المكان.

الأطباق، الخزف، الكراسي؛ كل شيء سقط وتحطم على الأرض بجوار منضدة الزينة، وما زالت مجموعة من الدقيق المسكوب منتشرة في الجو من جراء السقوط. فجأة، شعر "إجنازيو" بغصة في قلبه وهو ينظر إلى حال المنزل الذي قدمته "جيوسينا" لأخيه "باولو" كمهر له؛ هو في الحقيقة منزلهم ولكنه في الوقت نفسه يتميز بكونه مكاناً مريحاً يشع بالدفء والحب والحنان، ويشعر فيه الجميع بالراحة وأنهم مرحب بهم. رؤيته وهو في هذه الحالة يثير في النفس الشجون.

تردد لبرهة، لكنه يعرف ما الذي قد يحدث إذا حدثت هزة أخرى. في لحظة واحدة، توجه مسرعاً إلى الغرف وأخذ بسرعة بعض البطاطين من على الأسرة، ثم توجه بعد ذلك نحو غرفته وأحضر حقيبة الظهر التي كان يحتفظ فيها بأدواته. في النهاية، وجد صندوقه الحديدي وفتحه، ليجد أمامه خاتم زفاف أمه يلعب أمامه في الظلام، كأنه يرسل إليه رسائل اطمئنان ليهدئ من روعه. وضع الصندوق داخل حقيبة الظهر.

في الردهة، رأى شال "جيوسينا" الذي سقط منها على الأرض؛ لا بد وأنه قد سقط منها أثناء هرولتها نحو الخارج، فهي لم تتخل عنه يوماً، لقد كانت ترتديه منذ اللحظة الأولى التي رأوها فيها وحتى بعد أن صارت فرداً من أفراد العائلة.

التقطه "إجنازيو" وعاد مسرعاً نحو الباب الأمامي، وقفز بسرعة قبل أن يجد نفسه مصلوباً على أحد النوافذ أو على حلق الباب. بعدها بلحظة واحدة، عادت الأرض لتتهتز من جديد.

- نشكر الرب أن هذه الهزة لم تكن طويلة كسابقاتها.
بدأ "إجنازيو" في توزيع البطاطين عليهم، فأعطى واحدة لـ "فيتوريا" وتشارك هو وأخوه واحدة، وأعاد الشال إلى "جيوسينا".

عندما أعاد الشال لـ "جيوسينا"، انتبهت إلى أن رداء النوم الذي كانت ترتديه شفاف، وأنها تقريباً عارية.

قال "إجنازيو" وقد نظر إلى الأسفل:

- لقد وجدته ملقى على الأرض.

تمتت "جيوسينا" في سرها قائلة:

- أشكرك.

ولفت نفسها بالشال لكي تدفع عنها هذا الشعور الغريب بالبرد الذي سيطر عليها؛ لقد كانت ترتعد من الخوف والقلق وعودة الذكريات.

قال "باولو" وهو يفتح باب حظيرة الماشية.

- لا جدوى من البقاء في العراء هكذا.

أصدرت الماشية أصواتاً غريبة و"باولو" يجرها من الحبل ليربطها في الجدار المقابل، كأنها أصوات اعتراض على فكرة استضافتهم في حظيرتها. أشعل "باولو" المصباح بالقداحة ووضع بعض الأكوام من القش جهة الحائط ليجلسوا عليها.

- هيا، تعال يا "فيتوريا" و"جيوسينا"، واجلسا هنا على كومة القش.

بدا الأمر كمشهد من مشاهد الاهتمام البالغ، لكن نبرة صوته كانت أمرة. اتسعت أعين الفتاتين وحدقتا في السماء والطريق. لولا أن "باولو" أمرهما بالتوجه لحظيرة الماشية لكي تقضيا ليلتهما هناك،

لكانتا قد قضيتا الليلة في العراء، وهذا هو دور رب الأسرة؛ أن يظهر بمظهر الشخص القوي في المصائب ليحمي العائلة، هذا هو شأن الرجال خاصة مع رجل كـ"باولو فلوريو". نظرت "جيوسبينا" إلى "فيتوريا"؛ كانت تنظر إليها وفي الوقت نفسه تحاول ألا تتذكر، لكن الذكرى بدت كندل مستتر يزحف بداخلها، ليمسك بها من الحلق ويلقي بها في نيران الماضي المرير؛ ذكريات الطفولة ووفاة والديها.

فركت عينيها بيديها في محاولة لدفع الأفكار المؤلمة بعيداً عن رأسها وأخذت نفساً عميقاً، هكذا تصورت. ضمت صغيرها الرضيع "فينسينزيو" لصدرها بقوة، وسحبت الجزء العلوي من ثوب النوم لأسفل كي تخرج صدرها ليتعلق الطفل بحلمته على الفور. يدها الصغيرتان تمسكان ببشرتها الرقيقة، وأظفاره تخدش الهالة البنية المحيطة بحلمة الصدر... على الأقل، ما زالت باقية على قيد الحياة وطفلها الصغير لن يشعر باليتم.

وقف "إجنازيو" في مكانه على عتبة البيت لكي يتحصنه. على الرغم من الظلام الحالك، فإنه ظل يبحث عن أي هبوط أو شقوق أو جدران محطمة، لكنه لحسن الحظ لم يجد أي شيء. لم يصدق نفسه في البداية، ولم يجرؤ أن يأمل في عدم حدوث أي شيء، فمن الممكن أن تتقلب الأمور في أية لحظة رأساً على عقب.

كانت ذكرى أمه تمر في مخيلته كعاصفة ليلية؛ يتخيلها وهي تضحك وتمد ذراعيها نحوه وهو طفل صغير يهرول إليها، وفجأة شعر بثقل الصندوق المعدني الذي سبق ووضعه في حقيبة ظهره. قرر "إجنازيو" إخراج الخاتم الذهبي المزخرف لكي يحتضنه بيديه ويضعه فوق قلبه. "أمي"، قالها بهمس، كأنها صلاة أو رغبة في البحث عن سلوى وتعزية، أو ربما عن حضن دافئ منذ اللحظة التي ماتت فيها أمه "روز" وهو في السابعة من عمره.

وقع ذلك الحادث المرير في عام 1783، "عام انتقام الرب" الذي اهتزت فيه الأرض بقوة تدميرية هائلة، لدرجة أنها لم تبق حجراً على حجر بشكل سليم في "بانيارا"؛ دُمّرت البلدة بكل ما فيها، ولم يبق سوى تلال من الأنقاض والأطلال، هذا الزلزال المدمر الذي ضرب "كالابريا" وجزيرة صقلية، أطاح في ليلة واحدة بألاف الأرواح وأطاح بالعشرات من البشر في "بانيارا" وحدها.

في ذلك الوقت، كان هو و"جيوسبينا" قريبين جداً من بعضهما بعضاً، يتذكراها "إجنازيو"، يتذكراها جيداً؛ عندما كانت فتاة صغيرة وشاحبة تقف محشورة بين أخيها وأختها، تحديق في جبلي الطين المميزين بصليب واحد؛ كان والداها يرقدان في سلام تحت هذين الجبلين، وكانا قد قتلا أثناء نومهما، أو بالأحرى ماتا تحت الأنقاض في حجرة نومهما جراء الزلزال.

كان "إجنازيو" هو الآخر يقف إلى جوار أبيه وأخته، أما أخوه "باولو" فيقف بعيداً عنهم بعض الشيء وقبضتاه مطبقتان، وقد ارتسمت ملامح الحزن على وجهه اليافع. في تلك الأيام، لم يكن أحد ينعى موتاه سواهم، فجنائز والدي "جيوسبينا" و"جيو فانا" و"فينسينزيو سافوتي"، تمت في اليوم نفسه الذي تمت فيه مراسم دفن والدته "روز بلانتوني" والكثير من سكان "بانيارا". لم تختلف أسماء العائلات؛ «باربارو»، «سبيلوتي»، «دي مايو»، «سيرجي»، «فلوريو».

نظر "إجنازيو" لزوجة أخيه، بمجرد أن رفعت رأسها والنقت أعينهما، عرف لتوه أنها هي الأخرى تذكرت الذكريات المؤلمة نفسها؛ كلاهما يتحدث باللغة نفسها، ومسكون بالألم نفسه، ويسير في الحياة حاملاً الشعور نفسه بالوحدة والعزلة.

أشار "إجنازيو" إلى التل الموجود وراء "بانيارا":

- يجب أن نذهب لنرى ما الذي حدث للأخريين.

- في هذا الظلام الدامس؟

- يشير الضوء إلى وجود المنازل والناس. ألا ترغب في أن تطمئن إذا ما كانا "ماتيا" و"باولو باربيرو" بخير؟

كان هناك ارتباك طفيف في صوته. على الرغم من أنه قد أتم عامه الثالث والعشرين وأصبح رجلاً ناضجاً، فإن حركاته ذكّرت شقيقه "باولو" بذلك الطفل الصغير الذي كان يختبئ خلف بيت العائلة وورشة الحدادة الخاصة بوالدهما كلما وبخته أمه، لكن فيما بعد؛ ومع تلك المرأة الأخرى، زوجة أبيه الجديدة، لم يكن "إجنازيو" يبكي على الإطلاق، كان فقط يحدق بها بامتعاض وسخط شديدين ولا يقول شيئاً.

قال "باولو" بلامبالاة:

- لا داعي لذلك؛ ما دامت منازلهما قائمة في مكانها ولم تتأذ، فهذا يعني أنهما بخير. الوقت متأخر والظلام دامس، والطريق إلى "باليريا" طويل وشاق.

لكن "إجنازيو" ظل ينظر للطريق وما وراءه من تلة مرتفعة تحيط بالقرية بحنق وعصبية.

- لا، سأذهب لأعرف ما الذي حدث لهما بالضبط.

انطلق "إجنازيو" نحو الطريق المؤدي لوسط "بانيارا"، وسط سيل من اللعنات التي كان يصبها عليه شقيقه الأكبر.

صاح "باولو":

- عد إلى هنا!

لكن "إجنازيو" لوح له بإشارة ما بيديه تؤكد أنه سيستمر في السير.

سار "إجنازيو" حافي القدمين ومرتدياً ملابس النوم، لكنه لم يهتم؛ كل ما كان يفكر فيه هو أن يطمئن على أخته. توجه نحو الأرض المرتفعة حيث توجد "بياتر أليسكيا" ووصل إلى القرية في وقت قصير. أول ما رآه هو الأنقاض المنتشرة هنا وهناك، وأجزاء من السقف وبقايا بلاطات محطمة، رأى كذلك رجلاً مصاباً بجرح غائر في رأسه يهرول، والدماء تسيل من رأسه وتلمع في ضوء المصباح الذي كان يحمله ليضيء الحارة التي يسير فيها. مرّ "إجنازيو" من الميدان وتوجه إلى الشوارع الضيقة والأزقة التي كانت تسدها جموع من الدجاج والماعز والكلاب الهاربة؛ الفوضى عارمة وتعم كافة الأرجاء.

في الساحات والأفنية، جلست النساء والأطفال يتلون الصلوات أو ينادون على بعضهم بعضاً لمعرفة الأخبار، وبحث الرجال على الجانب الآخر عن المجارف والمعاول ليلتقطوا الحقايب المملوءة بالأدوات؛ الأشياء الوحيدة التي يمكنها أن تضمن لهم البقاء أحياء والتي هي أغلى عندهم من الطعام والملابس.

أخذ "إجنازيو" الطريق لأعلى متجهاً نحو منطقة "جرانارو"، حيث يقطن "البارباروس". يوجد على جانب الطريق أكواخ مصنوعة من الحجارة والخشب.

في يوم من الأيام، كانت هناك بيوت في هذا المكان - كان مجرد طفل صغير لكنه يتذكرها جيداً - أطاح بها زلزال 1783 ودمرها، وقد استطاع البعض أن يعيدوا بناء البيوت قدر استطاعتهم وتمكنوا من إنقاذها، بينما نجح الآخرون في إعادة استخدام الأنقاض في بناء منازل أخرى أكبر على مساحات أكبر وأكثر ثراء، مثل زوج أخته "ماتيا"؛ "باولو باربيرو".

في الواقع، كانت "ماتيا" هي أول شخص رآه؛ جالسة على مقعدٍ بقدمين حافيتين وعيناها غائرتان وملامحها عابسة، وابنتها "أنا" تتعلق بملابس نومها وابنها "رافاييل" نائم بين ذراعيها. في تلك اللحظة، رأى "إجنازيو" فيها صورة أمه بألوانها الداكنة. ذهب إليها ولفها بذراعيه دون أن ينطق بكلمة واحدة، توقف الشعور بالقلق والتوتر الذي كان يجتاح قلبه عليها.

- كيف حال "باولو" و"فينسينزيو" و"فيتوريا"؟

ضمت وجهه بين راحتيها وظلت تقبل جفونه. كان صوتها ممتزجًا بالدموع:

- كيف حال "جيوسبينا"؟

احتضنت أختها مرة أخرى، شمَّ فيها رائحة الخبز والفواكه؛ رائحة بيت من الحنان والعطف.

- الجميع بخير؛ حمدًا للرب! وضع "باولو" زوجته في حظيرة الماشية هي والأطفال، وجئت أنا إلى هنا كي أطمئن عليك. كيف حالكم جميعًا؟

ظهر شبح «باولو باربيرو» قادمًا من وراء البيت، وهو يجر حمارًا بحبل. توترت «ماتيا» عند رؤيته وابتعد عنها أخوها «إجنازيو».

ربط «باولو» حماره بالعربة الكارو، وقال:

- عظيم، لقد كنت على وشك الحضور لكي آخذك أنت وأخاك؛ يجب أن نذهب جميعًا إلى الميناء كي نتفحص حالة المركب. ما من مشكلة لو كنت وحدك.

في تلك اللحظة، فتح "إجنازيو" ذراعيه وأسقط البطانية.

- هكذا؟ أنا تقريبًا نصف عار.

- وماذا في ذلك؟ هل تشعر بالإحراج؟

كان "باولو باربيرو" قصيرًا وممتلئ الجسم، بينما كان أخو زوجته نحيلًا بجسد صغير وقوي. أنت "ماتيا" أمامهما، تجاهد كي تتخلص من الأطفال المتعلقين بثوبها.

- هناك بعض الملابس في الخزانة؛ يمكنه أن يرتدي أحدها.

أسكتها زوجها.

- من الذي سألك؟ لماذا تتدخلين في شئون الآخرين؟

قال "إجنازيو" وهو يحاول أن يدافع عن أخته:

- "ماتيا" تحاول فقط أن تساعدني.

لم يحتلم "إجنازيو" أن يرى أخته وقد طأطأت رأسها في الأرض، والتهبت وجنتاها بحمرة الخجل والكسوف والإهانة، فقفز زوج أخته على العربة وقال:

- زوجتي ثرثرة، تتحدث كثيرًا. والآن دعونا نذهب.

كان "إجنازيو" على وشك الرد عليه، لكن "ماتيا" أوقفته بنظرة رجاء. يعلم "إجنازيو" جيدًا أن زوج أخته "باربيرو" لا يحترم أحدًا.

كان البحر عميقًا وأمواجه المتلاطمة مصطبغة بلون الحبر الأسود، يبدو للناظرين كقطع من الليل. نزل "إجنازيو" من على العربة بمجرد وصولهما للميناء. يظهر أمامه مباشرة خليج تجتاحه الرياح الهائجة، محاط بجدران عتية من المنحدرات الصخرية الصلدة والرمال، ومحصنٌ بكتل حادة من

جبال ومرتفعات "كيب مارتورانو".

حول القوارب، وقف الرجال يصيحون بصوت عالٍ ويتفحصون البضائع ويشدون وثاق الحبال؛ حالة الصخب التي كانت سائدة عند الميناء تعطيك الشعور بأنك في وضوح النهار.

- دعنا نذهب.

انطلق "باربيرو" و "إجنازيو" جهة برج "الملك روجر" حيث كان البحر عميقاً؛ هذا هو المكان الذي كانت ترسو فيه السفن الأكبر حجماً.

وصل الاثنان إلى موضع مركب راسية ذات صالب منبسط؛ إنه مركب "سان فرانسيسكو دي باولو"، المركب الخاص بعائلة "فلوريو ز باربيرو". يهتز الصاري الرئيسي فيها تبعاً لحركة الأمواج، والصاري المائل في مقدمة السفينة ممتد في البحر، والأشرعة مطوية والحبال في مكانها. برز شعاع من الضوء عبر فتحة صغيرة من المركب. مال "باربيرو" إلى الأمام ليستمع لصوت الصرير الصادر من المركب بمزيج من الدهشة والاستياء.

- زوج أختي، هل هذا أنت؟

أخرج "باولو فلوريو" رأسه من الفتحة وأجاب:

- ومن غيري؟

- وما الذي يدريني أنك هنا؟ مع كل هذه الفوضى والجلبة التي جرت الليلة...؟

لكن "باولو فلوريو" لم يكن منصتاً إليه، بل كان مشغولاً أكثر بشقيقه الأصغر "إجنازيو":

- وأنت؟! ولا كلمة! فقط انطلقت هكذا واختفيت! والآن تعال إلى هنا.

اختفى في بطن المركب وقفز أخوه إلى جواره، وبقي زوج أختها على ظهر السفينة وحده يتقحص الجانب الأيسر من السفينة التي جنحت نحو المرفأ.

انسل "إجنازيو" داخل غرفة قيادة السفينة بين الصناديق وأشولة القماش، والتي كانت ستبحر من "كالابريا" إلى "باليرمو".

هذه هي حرفتهم؛ التجارة وخاصة عبر البحر. لكن اجتاحت ثورات عارمة مملكة نابلس واشتعلت جذوتها منذ عدة أشهر، وكانت النتيجة عزل الملك ونفيه خارج البلاد، وإعلان المتمردين "الجمهورية النابولية"؛ حيث قام عدد من النبلاء والمتقنين بنشر شعارات الحرية والديمقراطية بين الناس 7654 في البلاد على النحو الذي حدث في فرنسا خلال الثورة الفرنسية، والتي كلفت "لويس السادس عشر" وزوجته "ماري أنطوانيت" رأسيهما تحت المقصلة، لكن "فرديناند" و"ماريا كارولين" كانا أكثر حيطة وحذراً ودهاء، لأنهما وعيا الدرس ولاذا بالفرار في الوقت المناسب مع عدد من الخونة والعملاء في الجيش، الذين كانوا يدينون بالولاء لبريطانيا وفرنسا أعداء إيطاليا التقليديين، أما العامة والدهماء فلو كانوا ظفروا بهم لكانوا دهسوهم بأقدامهم من شدة الغضب.

وصلت الموجة الأخيرة فقط من الثورة إلى هنا، تحديداً فوق جبال "كالابريا". كانت الظروف سيئة للغاية فلا يوجد أمن ولا أمان، ووقعت جرائم قتل كثيرة، والجنود كانوا في حيرة من أمرهم لا يعرفون ممن يجب أن يتلقوا الأوامر. استغل قطاع الطرق الذين كانوا يسكنون الجبال الفرصة، وبدؤوا في سلب ونهب التجار على الساحل، أما التجار فكانوا كمن وقع بين المطرقة والسندان، فمن ناحية هناك قطاع الطرق ومن الناحية الأخرى هناك الثوار والمتمردون. لم تعد الطرقات آمنة، على الرغم من أن البحر لا يحوي كنائس أو بارات، إلا إنها قد وفرت ملاذات أكثر أمناً للناس من شوارع مملكة "بوربون".

لقد كان الجو خانقاً داخل غرفة القيادة الصغيرة؛ خشب الأرز محفوظ داخل سلال الخوص، فهو مطلوب من قبل صناع العطور، السمك؛ سمك القديد المملح على وجه الخصوص، والرنبجة المملحة. في الداخل أكثر، توجد مزاليج من الجلد جاهزة للنقل إلى "مسينا".

تفحص "باولو" أكياس البضاعة. انبعثت رائحة الأسماك المملحة في كل مكان في العنبر، والأمر نفسه ينطبق على تلك الرائحة الحامضة التي تتبعث من الجلود. لكن التوابل لم تكن مخزنة داخل العنبر، فالتوابل على وجه الخصوص تُترك في البيت حتى يحين موعد الرحيل، لأن رطوبة البحر والملح قد يفسدها، لهذا السبب يتم تخزينها بمنتهى الحرص. تحمل التوابل أسماء عجيبة وغريبة تجلب المذاقات الرائعة والمختلفة للطعام وتستدعي صور الشمس والحرارة؛ الفلفل، خشب الصندل الهندي، القرنفل، الانجبار، القرفة؛ إنها الثروة الحقيقية. لاحظ "إجنازيو" فجأة أن "باولو" منزعج بعض الشيء؛ يمكنه أن يعرف ذلك من حركاته ومن نبرة صوته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



التوابل والبهارات

نوفمبر 1799 - مايو 1807

“مَن يشمرون عن سواعدهم، لا يصبرون”.

- مثل شعبي صقلي

بدأت رياح الثورة تهب على إيطاليا بقوة في وقت مبكر من عام 1796، حاملةً معها قوات فرنسية كبيرة يقودها القائد الطموح “نابليون بونابرت”، وتلاها في عام 1799 ثورة “اليعاقبة” ضد الحكم الملكي المستبد لأسرة “البوربون” وتأسيسهم للجمهورية النابولية، ونُفي “فرديناند السادس” حاكم مملكة نابلس وزوجته “ماريا كارولينا” من النمسا إلى “باليرمو”، التي لم يعودا إليها إلا في عام 1802، بعد أن نجحوا عبر المؤامرات والدسائس في سحق التجربة الجمهورية الوليدة بكل قوة وعنف واستعادة دولتهم القديمة.

وفي عام 1798، قامت العديد من الدول؛ من بينها المملكة المتحدة والنمسا ومملكة نابلس، بتشكيل تحالف أوروبي واسع في مواجهة فرنسا وثورتها، هدفه الرئيسي هو الحد من المد الثوري الفرنسي وإعاقة عن الوصول إلى بلادهم. لكن بعد هزيمة التحالف على يد الفرنسيين في موقعة “مارينجو” في 14 يونيو 1800، اضطر النمساويون إلى توقيع معاهدة “لونفيل” مع الفرنسيين في 9 فبراير عام 1801، وبعدها بعام واحد فقط في ٢٥ مارس ١٨٠٢، وقعت المملكة المتحدة هي الأخرى اتفاقية سلام مع الفرنسيين تسمى اتفاقية «أمينس»، إذ نجحت المملكة المتحدة من خلالها في الحصول على بعض الامتيازات، مثل تأمين مستعمراتها في العالم القديم، وبهذه الطريقة، أمن الأسطول الإنجليزي والبحرية الملكية البريطانية وجودهما في مياه البحر المتوسط خصوصاً على سواحل جزيرة صقلية. وفي الثاني من شهر ديسمبر عام ١٨٠٤، بعد أن نجح «نابليون» في تحقيق انتصار حاسم على الحلفاء في معركة «أوسترليتز»، نصب «نابليون بونابرت» نفسه إمبراطوراً على فرنسا في ٢ ديسمبر ١٨٠٥، وأعلن نهاية حكم أسرة «البوربون»، وأرسل الجنرال «أندريه ماسينييه» إلى مملكة نابلس لإجلاس شقيقه «جوزيف» على عرش المملكة، وتم إرغام «فرديناند» على الفرار مرة أخرى لـ«باليرمو» ليحظى مرة ثانية بالحماية البريطانية، ويستمر في حكمه لجزيرة صقلية رغم النفي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القرفة، الفلفل، الكمون، اليانسون، الكزبرة، الزعفران، السماق، القرفة...

بالطبع لا، التوابل والبهارات لا تستخدم في الطبخ وحسب، فهي كنز من كنوز الطبيعة ولها استخدامات هامة ومفيدة، فهي تستخدم للعلاج، ومستحضرات التجميل، والسموم أحياناً، وتحمل ذكريات جميلة ورائحة عن الرحلات الطويلة لتلك البلدان البعيدة التي تنمو فيها لإحضارها للعالم المتحضر كي يستفيد منها، وهي رحلات لم يتسنّ سوى للقلائل من البشر القيام بها.

قبل أن تستقر التوابل المختلفة على منضدة البيع لدى التجار، تنتقل أعواد القرفة وجذور الزنجبيل في رحلة طويلة عبر عشرات الأيادي، وتسافر لمسافات كبيرة على ظهور البغال أو الجمال في قوافل كبيرة وممتدة، وتعبّر بحار ومحيطات واسعة حتى تصل لوجهتها الأخيرة وهي الموانئ الأوروبية. في الماضي، كان الأثرياء فقط هم مَن يستطيعون شراءها لغلو ثمنها، وبالتالي كان كل مَن يغامر ليحصل عليها ويبيعها لهم يصبح هو الآخر من الأثرياء. والاستخدام الشائع للتوابل عند العامة يكون

عادةً في الطهي، لكن للتوابل استخدامات أخرى عديدة لا تقل أهمية عن الطهي كالأستخدامات الطبية، فالتوابل كنز لا يمتلكه سوى صفوة القوم.

“فينيسيا” على سبيل المثال، تلك المدينة الساحرة الغنية، بنّت مجدها وشهرتها التجارية الواسعة وثرأها الفاحش من تجارة التوابل والجمارك، لكن الآن؛ أقصد في مطلع القرن التاسع عشر، دخل البريطانيون والفرنسيون بكل ثقلهم في هذا المجال، وسيطروا بأساطيلهم الضخمة التي تجوب البحار والمحيطات على تجارة التوابل في العالم بأسره، فسفنهم التجارية تجوب البحار شرقاً وغرباً لتعود من رحلاتها البحرية محملة بالأعشاب الطبية والسكر والشاي والقهوة وحبوب الشوكولاتة من مستعمراتهم المنتشرة في ربوع العالم بكميات هائلة إلى سواحل العالم المتحضر.

والنتيجة هي انخفاض الأسعار، وتنوع الأسواق وانتشارها، وافتتاح الموانئ الجديدة وتدفق التوابل بكميات كبيرة، ليس فقط على سواحل مدن “نابلس” و”ليفورنو” و”جنوة”، بل وأيضاً على مدينة “باليرمو”، لدرجة أنهم أنشأوا نقابة للقطارين لكثرة عددهم، وبنوا كنائس خاصة بهم ككنيسة القديس “أندرو من أمالفي”، وازدادت أعداد من يتاجرون في التوابل والبهارات بكثرة. حبس “إجنازيو” أنفاسه.

- تسير الأمور دائماً على المنوال نفسه.

كلما اقترب القارب من ميناء “باليرمو”، يبدأ “إجنازيو” في الشعور بالألم المفاجئ نفسه في معدته، وهو شعور يشبه شعور رجل سقط لتوه في حبال الحب. يبتسم، ويشد على ذراع شقيقه “باولو”، وشقيقه يفعل الشيء نفسه.

- لا، إنه لم يرغب في أن يتركه في “بانيارا”؛ لقد أراد أن يصطحبه معه. قال “باولو”:

- سعيداً الآن؟

أوماً “إجنازيو” برأسه، ولمعت عيناه وغشي سحر وجمال المدينة صدره. تشبث بالحبال وتمدد على الصاري المائل الموجود في مقدمة السفينة، تاركاً وراءه “كالاباريا” وأسرته، أو ما تبقى منهما. لكن الآن، بعدما امتلأت عيناه بالسماء والبحر، ولم يعد يخشى المستقبل، أصبح شبح العزلة والوحدة مجرد وهم بالنسبة له.

يحبس أنفاسه بصدرة قبل كل التفاة للسفينة مقابلة لحوائط الميناء. في منتصف الظهر، تشبثت عينا “إجنازيو” بالجبال من فرط روعتها وجمالها الخلاب، فرك “إجنازيو” خاتم زفاف أمه الموجود بإصبعه الثاني، لقد أصر على أن يرتديه في إصبعه لأنه لا يحتمل فكرة ضياعه؛ في الحقيقة، كان يشعر في كل مرة يلمس فيها الخاتم أن روح أمه الحبيبة تفيض منه وتصبح قريبة منه، ويُهَيَأُ له أنه يسمع صوتها الحنون وهي تتأديه، وأنها تستمع إليه.

تخيل الشاب اليافع من فرط سعادته أن المدينة تفتح ذراعها له وتزينت لاستقباله، فها هي قباب “ماجوليكاً” ذات الأبراج الشاهقة والشرفات الكبيرة، وقرميد أسقفها الرائع، “الحدائق الغناء”، الميناء المزدهم بالسفن وبالمراكب الشراعية ذات الصاري والصاريين؛ الكل يقف أمامه في شموخ بديع معبراً عن جمال مدينة “باليرمو”.

دهش “إجنازيو” عندما شاهد من على ظهر السفينة تجويفاً كبيراً على شكل قلب يقع بين شريطين من الأرض، يمر عبر غابة الصواري وأشعة السفن المتكدسة أمام رصيف الميناء، وأبواب المباني الأثرية منتصبة بالضبط فوق رؤوسهم في “بورتا دوجانيللا”، و”بورتا كالسينا”، و”بورتا كاربوني”.

بدأت بيوت "باليرمو" عن قرب كما لو كانت معلقة واحدًا فوق الآخر، ومتراصة بجوار بعضها بعضًا كما لو كانت تتدافع كي تتمكن من اختلاس النظر للبحر. على اليسار، يقف جرس كنيسة القديسة "ماريا دي بورتو سالفو" الضخم، وقد أخفت أسطح المنازل جزءًا منه، ومع السير أبعد بقليل، تجد كنيسة "ماسميليانو" والبرج الضيق لكنيسة "أنونزياتا"، وبعدها بقليل خلف حوائط وجدران الكنائس، تقف القبة التراثية لكنيسة القديس "سانت جيورجيو دي جينوفيسي". على اليمين منها، توجد كنيسة أخرى قصيرة؛ هي كنيسة القديسة "ماريا دي بيايجيروتي"، والشكل الهندسي المهيب والعظيم لقلعة "كاستيلو ماري" المحاطة بالخندق، وعلى بُعد قليل منها؛ على شريط من الأرض المتجه نحو البحر، توجد مستشفى المصابين بالبرص والجذام، والحجر الصحي للبحارة المرضى، وفوق الجميع تعلو أبراج "مونت بيليغرينو" شامخة، ومن ورائها حزام طويل من الجبال المغطاة بالغابات.

وفجأة، فاح عبير جميل من الأرض لينتشر بعد ذلك في الجو يدور فوق الماء؛ كان العبير عبارة عن مزيج فريد وثرى من رائحة الملح المختلطة بروائح الفواكه المختلفة، ورائحة الخشب المحترق والطحالب والرمل. قال "باولو":

- إنها رائحة الأرض الجافة.

لكن "إجنازيو" يعتقد أنه عبق المدينة نفسها وليس عطر الأرض.

كان صوت الحركة التي تدب في الميناء مسموعًا بوضوح بالنسبة لهم. وفجأة؛ عندما اقتربت السفينة أكثر فأكثر من الميناء، استبدلت برائحة الميناء الجميلة الفواحة، رائحة كريهة تشبه رائحة الروث والعرق والزفت المختلطة برائحة المياه الراكدة.

لم يلحظ أيٌّ من "باولو" أو "إجنازيو" أن عيني "جيوسبينا" ما زالت مثبتة على البحر المفتوح، وكأنها ما زالت ترى "بانيارا"، فكلاهما لا يدرك أنها ما زالت تعيش في عقلها الباطن لحظة احتضان "ماتيا" لها. "ماتيا"؛ التي هي أكثر بكثير من مجرد أخت زوج بالنسبة لها، فهي صديقتها وسندها، والصوت الذي أُرشدها في الشهور الأولى الصعبة من زواجها بـ "باولو".

كانت "جيوسبينا" تأمل من أعماق قلبها أن تلحق "ماتيا" و"باربيرو" بهما ليستقرا معًا في مدينة "باليرمو"، وهو أمل سرعان ما تبدد لأن "باولو باربيرو" كان قد قال كلمته وأصر على البقاء في "بانيارا"، على أن يتحرك جيئةً وذهابًا ما بين "باليرمو" و"بانيارا" ليتمكن من المتاجرة مع الشمال، وفي الوقت نفسه يحتفظ بميناء آخر آمن له، ولهذا السبب فهو بحاجة لزوجه معه كي ترعى شئونه هو والأولاد.

تشككت «جيوسبينا» في أن هدف «باربيرو» الحقيقي ليس التجارة ومراعاة شئونه هو وأولاده كما يدعي، بل غرضه الحقيقي هو أن يبعد زوجته عن أخيها، فهو لا يطيق تقاربهم، خاصة العلاقة الوطيدة التي تربط «ماتيا» بشقيقها الأصغر «إجنازيو».

فرت دمعة وحيدة من عيني «جيوسبينا» وسالت على خدها ونزلت حتى سقطت على شالها. تذكرت حينها حفيف الأشجار المنتشرة في شوارع «بانيارا» الذي صاحبها على طول الطريق وصولاً إلى البحر، حتى بلغت برج الملك «روجر». هناك؛ في هذا المكان البديع، تتكسر أشعة الشمس بين الماء والحصى على الشاطئ، هناك؛ على الرصيف البحري تحت البرج، قبلت «ماتيا» وجنتيها وقالت: «لا تعتقدي أنك وحيدة، سأطلب من الساعي أن يرسل لك خطابات باستمرار وأنت كذلك. والآن أرجوك توقفي عن البكاء».

هزت «جيوسبينا» رأسها، لأنها لم تكن أبدًا تتصور أن تجتث جذورها من أرضها التي تحبها بهذه الطريقة، لكن الواقع يقول إن النساء ملكية خاصة لأزواجهن، وأن الرجال هم المسؤولون، وأنهم في العادة ليس لديهم أدنى فكرة عن الطريقة التي يجب أن يعاملوا بها زوجاتهم؛ وهذا هو الحال بالنسبة لـ«جيوسبينا» و«باولو». تغيرت ملامح وجه «ماتيا» وتبدلت حينذاك. ودعت «جيوسبينا»، وصعدت عند شقيقها «إجنازيو» لتودعه هو الآخر:

- كنت أعلم أن هذا اليوم سيأتي؛ الأمور كلها كانت مجرد مسألة وقت لا أكثر.

قبلت «ماتيا» جبهة أخيها «إجنازيو» وباركته بقولها:

- فليحفظك الرب، ولترعاك العذراء الطاهرة!

- آمين.

مدت «ماتيا» يدها واحتضنت كلاً من «إجنازيو» و«جيوسبينا» في حضن واحد. قالت «ماتيا»:

- عليك أن تعتني بشقيقنا «باولو» يا «جيوسبينا».

- أعلم أنه حاد الطبع مع الجميع وخاصة معي أنا. أخبره أنت يا «إجنازيو» أن يكون صبوراً، فأنت شقيقه ورجل مثله، لأنه بالتأكيد لن ينصت إليّ.

شعرت «جيوسبينا» بألم في معدتها، وزرقت الدمع الغزير على كتف أخت زوجها، ومسحت دموعها بالجزء الخشن من عباءتها.

- شكراً لك يا حبيبة قلبي.

وأتى الرد في صورة عناق.

تغيرت ملامح وجه «إجنازيو» عند سماعه لتلك الكلمات، والنقت كي ينظر إلى «باولو باربيرو».

أضاف وهو ينفخ بسخط وحنق:

- ماذا عن زوجك يا «ماتيا»؟ هل يحترمك؟ أنت لا تدريين كمّ الحزن والأسى الذي أشعر به وأنا أتركك وحدك معه.

نظرت إلى الأسفل وقالت:

- لا فرق! دعه يتصرف بالطريقة التي يريد.

ولم تقل شيئاً آخر، لكن الكلمات خرجت من جوفها حارقة كأعواد الحطب المشتعلة. رأت «جيوسبينا» في تلك الكلمات ما كانت تعرفه بالفعل؛ كان «باربيرو» حاداً وقاسياً معها، ويعاملها بخشونة وعنف. لقد تم ترتيب هذا الزواج بواسطة عائلتيهما للحفاظ على الثروة والمال، تماماً مثل زواجها من «باولو»، ولم يستطع الرجلان أن يدركا أن كل ما يجمع بينهما هما وزوجتيهما هي القلوب المكسورة.

نادت «فيتوريا» على عمتها «جيوسبينا»:

- عمتي، لقد أوشكنا على الوصول!

كانت الفتاة سعيدة ومتحمسة، فمشهد المدينة الجديدة والبعد عن «بانيارا»، ملأ قلبها بالفرحة والسعادة من البداية. قالت «فيتوريا» قبل أن يسافروا بيوم واحد: «ستكون رحلة رائعة يا عمتي».

ردت «جيوسبينا» بوجه عابس:

- ما زلت صغيرة جداً كي تفهمي؛ الأمر يختلف عن الوضع هنا في القرية...

أجابت «فيتوريا» رافضة أن تشعر بالإحباط:

- هذا بالضبط ما أعنيه.

هزت "جيوسبينا" رأسها، بينما كان الغضب والحزن والأسى يتصارعون داخلها. قفزت الفتاة الصغيرة وأشارت لشيء ما. أوما "باولو" برأسه وبدأ "إجنازيو" في التلويح بيده. جاء قارب كبير من بين حشود السفن الموجودة في الميناء وأرشدهم لرصيف الميناء. بمجرد وصولهم للميناء، تجمع حشد صغير من المتفرجين. مد "باربيرو" يده ليمسك بالحبل ويؤمّنه حتى الوصول للمربط. أتى رجل لكي يرحب بهم.

- "إميديو"!

قفز "باولو" و"باربيرو" من على متن السفينة وحيّاه بود واحترام. رآهم "إجنازيو" وهم يتحدثون بينما كان يسحب لوح العبور كي يساعد زوجة أخيه لتنزل من على متن السفينة. وقفت "جيوسبينا" بلا حراك على الرصيف حاملة الطفل بتوتر، وكأنها تحاول أن تحميه من تهديد ما، لذا قام "إجنازيو" بإنزالها برفق وأوضح لها.

- هذا هو "إميديو باربيرو"؛ ابن عم "باولو"، إنه الشخص الذي ساعدنا في إتمام عملية شراء "متجر العطارة".

قفزت "فيتوريا" وجرت نحو "باولو". أشار إليها بحدة أن تلتزم الهدوء.

رأت "جيوسبينا" الفلق مرتسماً على وجه زوجها؛ ليس قلقاً على قدر ما هو هزة عميقة قد أحدثت شرخاً قوياً في "باولو" الذي يتسم دائماً بالثقة بالنفس، إلى الحد الذي يدفعها عادة إلى كظم صرخة غضب حادة في صدرها. لكن هذا التعبير الذي ارتسم على وجهه، قد استمر للحظة ليعود وجه "باولو" من جديد إلى شدته المعتادة. يبدو "باولو" خشناً، متحفظاً، وإن حدث وشعر بالخوف، فإنه ماهر في إخفاء هذا الشعور بشكل جيد.

هزت "جيوسبينا" كتفيها بلا مبالاة، واتجهت نحو "إجنازيو" وتحدثت معه بهدوء حتى لا يسمعها أحد، وقالت:

- أنا أعرف هذا الرجل، لقد اعتاد الحضور إلى "بانيارا" منذ عامين، عندما كانت أمه لا تزال على قيد الحياة.

ثم أصبحت نبرة صوتها أرق، ثم تمتت بما يشبه الهمس:
- أشكرك.

حركت رأسها بطريقة تضمن له إلقاء نظرة خاطفة على المنطقة الواقعة بين حلقها وعظمة الترقوة. أبطأ "إجنازيو" بعض الشيء ثم تبعها. وضع قدمه على رصيف الميناء. انتقلت "باليرمو" من عيني "إجنازيو" لمعدته، لقد أصبح داخل المدينة الآن. تدفق بداخله شعور غريب بالتعجب، والدفء الذي يتذكره بشيء من الشوق عندما - أي بعدها بسنوات قليلة - بدأ يتعرف عليها عن قرب.

نادى "باولو" على "إجنازيو" ليساعده في إنزال أشياءهم من على العربة التي أحضرها "إميديو باربيرو".

- لقد وجدت لك منزلاً بجوار بعضٍ ممن حضروا من "بانيارا" لكي يعيشوا في "باليرمو"، سوف تحبهم بشدة.

ألقي "باولو" سلة مصنوعة من الخوص مملوءة بالأواني الفخارية بعنف على العربة، فحطم إحدى الأواني وهو ما أحدث بعض الجلبة.

- هل هو منزل كبير؟

قام عاملان بحمل الأثاث وجهاز العروس.

قطب "إيميدو" حاجبيه وقال:

- توجد ثلاث غرف بالطابق السفلي. بالطبع المنزل ليس كبيراً مثل منزلكم في "بانيارا"؛ لقد أخبرني عنه أحد أصدقائي الكليبيين بعدما التقى بأحد أصدقائه العائدين من صقلية، والأهم أنه يقع على بعد خطوات من "بوترا".

كل ما كانت "جيوسبينا" تفعله وهو يتحدث، هو أن تحمق في صخور رصيف الميناء وتظل صامتة. لقد اتخذوا قراراً بكل شيء.

ازداد غضبها وأصبح يزأر بداخلها، التصق بقلبها المجرأ الذي جمع أشلاءه مرة أخرى ولكن بعشوائية، لدرجة أن الشظايا التي التصقت بصلوعها وحلقها أصبحت تؤلمها. تمننت أن تعيش في أي مكان آخر، حتى ولو كان في الحميم، إلا "باليرمو".

بقي "بولو" في الجزء الخلفي من العربة حتى يفرغ البضاعة على الرصيف. اصطحب "باربيرو" "جيوسبينا" و"إجنازيو" إلى "بورتا كالشينا".

طوال الطريق، كانت تشعر "جيوسبينا" بأن الأصوات الصاخبة للمدينة تهاجمها؛ كانت أصواتاً همجية وخرقاء، والهواء معبأ برائحة العفن، والمدينة قذرة. ألقت نظرة واحدة عليها كافية لتقرر بعدها أن "باليرمو" مدينة بائسة. رأت هناك في الشارع ابنة إحدى أخواتها التي كانت تضحك بصوت مرتفع وهي ترقص على قدم واحدة؛ «ما الذي يجعلها تشعر بهذا الكم من الفرح والسعادة؟» كانت تفكر بتذمر وهي تجر قدميها في الحصى المغطى بالطين: «هذا قمة العدل؛ إنها لا تمتلك أي شيء من الأساس، وبالتالي لا تخسر أي شيء في الحقيقة».

بالنسبة لـ "فيتوريا" فالأمر يختلف عن "جيوسبينا"، إذ ترى مستقبلها في هذه المدينة وبدأت بالفعل تحلم بالمستقبل؛ على سبيل المثال أنها لن تصبح يتيمة بعد الآن، وأنها ستمتلك القليل من المال، وربما زوجاً ليس من أقاربها، كما أنها ستمتع بالمزيد من الحرية أكثر بكثير مما كان ينتظرها في تلك القرية المحشورة ما بين البحر والجبال.

لكن "جيوسبينا" على النقيض؛ كانت تشعر بالبوؤس والجنون.

يرى العابرون من بوابة المدينة الشوارع الممتدة بين المحال التجارية، والمخازن المؤدية إلى الحارات المترابطة بجوار بعضها بعضاً، والبيوت التي تشبه الأكواخ. لاحظت "جيوسبينا" وجود بعض الوجوه المألوفة بالنسبة لها، والتي بادرت بإلقاء التحية عليها لكنها لم ترد التحية، فأصبحت تشعر بالعار الآن. إنها تعرف الناس، تعرفهم جيداً؛ هؤلاء الذين تركوا "بانيارا" منذ عدة سنوات مضت، كانت تطلق جدتها عليهم كلمة "شحاذين": "بائسون هؤلاء الذين يتركون العيش الهانئ في القرى، ليذهبوا للعيش في المدن".

أضاف عمها الذي فضل العيش بجوار العقلاء في أرض غريبة، أن يجبر زوجته على العمل كخادمت في البيوت وغسل الصحون، لأن صقلية بلد آخر؛ عالم آخر بعيد كل البعد عن الوطن الأم. وما زاد من غضبها وسخطها أنها - أي "جيوسبينا سفايوتي" - ليست بائسة ولا محبطة ولا فقيرة كي تذهب للبحث عن لقمة العيش، فهي تمتلك أراض ولديها أثاثها ومهرها. كلما ضاقت الشوارع، ثقل الحزن في قلبها، فهي لن تستطيع أن تتكيف مع الآخرين، ولا تريد ذلك.

وصلت العربة عند أرض واسعة. على اليسار، توجد كنيسة ذات رواق محاط بالأعمدة. قال "إيميدو" لـ "جيوسبينا":

- هذه كنيسة القديسة "ماريا لانوفا" وهذه كنيسة القديس "جياكومو"؛ لن تجدي مشكلة على الإطلاق في الحصول على مكان للصلاة.

قالها "إيميديو" برضا.

شكرته، وعبرت بنفسها، لكن الصلاة لم تكن هي الشاغل الذي يسيطر عليها الآن، فبدلاً من ذلك، تذكرت كيف أنها قد أجبرت على ترك المكان الذي نشأت فيه خلف ظهرها. نظرت لحجارة التبليط حيث بقايا الفواكه والخضروات تغرق في مياه البرك الموحلة؛ ليس هناك ريح أيًا ما كانت قوتها وشدتها تستطيع أن تطيح برائحة الموت والروث.

في النهاية، خطى الجميع نحو أحد جوانب الميدان. أبطأ بعض المارة ورمقوا أولئك الوافدين الجدد بنظرات وكأنهم لصوص، بينما كان الآخرون أكثر وقاحة، فقد ألقوا التحية على "إيميديو" وهم ينظرون إلى المتعلقات الشخصية للوافدين، ويقيّمون ملابسهم ويتطفلون على أسلوب حياتهم.

تمنت "جيوسبينا" في تلك اللحظة لو استطاعت أن تصرخ بكل ما أوتيت من قوة: "أذهبوا جميعًا بعيدًا! بلا رجعة!". قال "إيميديو":

- ها قد وصلنا.

باب خشبي، سلال من الفاكهة والخضروات والبطاطس في كل مكان تسد الطريق. اقترب "إيميديو" وركل إحدى السلال. وضع يده على فخذه وتحدث بصوت عالٍ:

- سيد "فيليبو"، أن تحمل هذه السلال بعيدًا! لقد وصل المستأجرون الجدد من "بانيارا".

حضر البائع - كان رجلاً عجوزًا أهدب بعينين دامعتين - من وراء المخزن وهو يسير ببطء مستندًا إلى الجدران:

- حسنًا حسنًا، سأتي.

نظر العجوز إلى الأعلى، وكشف عن عينه الثانية التي كانت أفضل حالًا من الأولى، وتفحص على الفور ملامح وجه "إجنازيو"، واستقرت عيناه لبعض الوقت على "جيوسبينا".

قال "إيميديو":

- أخيرًا، لقد أخبرتك أن تحمل هذه الأغراض بعيدًا منذ الصباح.

فتش العجوز في السلال، وأخذ واحدة منها ووضعها بالأسفل. حاول "إجنازيو" أن يساعده، فوضع "إيميديو" يده على كتفه وقال:

- إن العم "فيليبو" يتمتع بصحة ممتازة وهو أقوى مني ومنك.

كانت كلمات "إيميديو" تحمل الكثير من المعاني الأخرى، هذا هو الدرس الأول الذي تعلمه "إجنازيو"؛ أن نصف جملة في "باليرمو" تحمل معانٍ أكثر بكثير من خطبة مطولة.

نفخ العجوز وأزاح أغراضه، ومهد طريقًا للمارة كي يستطيعوا أن يعبروا للداخل، وترك وراءه الأوراق وقشر البرتقال على الأرض.

وبنظرة واحدة من "إيميديو"، فهم الجميع أن عليهم حمل أغراضهم نحو الداخل، يمكنهم الآن المرور أخيرًا.

نظرت "جيوسبينا" حولها وأدارت عينيها في المكان؛ أدركت بحسها أن المكان كان شاغراً مدة لا تقل عن شهرين، فموقد طهي الطعام موجود بجوار الباب، وأنبوبة المدخنة معطلة، والحائط مسود، والبلاطات مكسرة ومغطاة بالسخام، لا يوجد سوى طاولة واحدة من دون كراسٍ للجلوس، مجرد كرسي واحد بلا ظهر، والقليل من الخزائن المثبتة على الجدران نصف مغلقة، والأبواب الخشبية

كانت مشققة. غطت بيوت العناكب على الشعاع الصادر من الباب، وحشرة السمك الفضي تملأ المكان، والأرضية تصدر صريراً تحت أقدامها.
المكان مظلم، مظلم.

تحول الغضب إلى شعور بالاشمئزاز استقر فيها وتحول إلى مرارة، لقد كان الألم قوياً؛ استحوذ عليها بالكامل لدرجة أنها كانت على وشك التقيؤ.

- هل تسمي هذا بيتاً؟ هل هذا بيتي؟

توجهت إلى غرفة النوم حيث يقف "إيميديو" و"إجنازيو"، فوجدتها مجرد غرفة ضيقة أقرب ما تكون إلى الرواق منها إلى الغرفة، يتسلل عبر نافذتها ذات القضبان القصيرة ضوء سقيم يطل على البهو الداخلي، يمكنها سماع صوت النافورة الموجودة بالخارج. كانت هناك غرفتان أخريان أصغر في الحجم وأشبه بخزانة من دون أبواب؛ فقط ستائر.

ضمت "جيوسبينا" الرضيع إلى صدرها بقوة وظلت تنظر حولها، لا تستطيع أن تصدق عينيها، لكن الحقيقة والواقع يؤكدان أن كل ما تراه حقيقي؛ القذارة، والفقير. استيقظ "فينسينزو" من نومه وكان جانحاً.

عادت للمطبخ، أصبحت بمفردها الآن. كان "إجنازيو" و"إيميديو" واقفين بالخارج بعيداً عن المدخل. شعرت أن قدميها لم تعودا قادرتين على حملها، وغرقت في الكرسي قبل أن تنهار وتسقط على الأرض.

بدأت الشمس تغرب على مدينة "باليرمو"، وسرعان ما سيحل الظلام وهذه الأكواخ المترامية ستتحول إلى مقابر. هكذا وجدها "إجنازيو" عندما عاد؛ منشغلة ببكاء الطفل الرضيع وأنيبه. ألهى نفسه في ترتيب الحقائق. قال "إجنازيو":

- هل تسمحين لي أن أساعدك؟ سيحضر "باولو" سريعاً ومعه باقي السلال والحقائب.

كل ما أراد "إجنازيو" هو أن يخفف من حدة الشعور بالرعب الذي تعاني منه "جيوسبينا"، أراد أن يصرف انتباهها ويشغلها بشيء ما، وأراد أن...

- توقف!

كانت نبرة صوتها حزينة وبائسة. رفعت رأسها وقالت:

- هل يمكننا أن نحصل على مكان أفضل من هذا المكان الموحش البائس؟

ألقت عليه السؤال فجأة وبلا غضب.

- ليس هنا في "باليرمو"، فالمدينة... حسناً، إنها مدينة كما ترين، والمعيشة هنا غالية، فهي ليست قرية كقربتنا.

حاول "إجنازيو" أن يشرح لها الموقف، ولكنه كان يعلم أن كل كلمات الأرض لن تكون كافية لإقناعها بأي شيء.

- هذه زريبة بهائم، حظيرة خنازير، إلى أين أحضرتني أخوك؟

كانت عيناها زائغتين وحائرتين.

أوشك الفجر على البروغ. يكاد يكون ميدان "بيانو سان جياكومو" ومكان المتجر الخاص بـ"بفلوريو" و"باربيرو" مهجورين. كانت حالة المتجر يرثى لها، فالباب يصدر صريراً، وبمجرد دخول "باولو" للمتجر، تستقبله رائحة العفن المنتشرة في المكان و"إجنازيو" من خلفه كاتم أنفاسه،

ومنضدة البيع قد انتفخ خشبها بسبب الرطوبة. كانت هناك زجاجات وجرار غريبة في كل مكان تقريباً حولهم.

انتقل الشعور بخيبة الأمل من شخص لآخر، وظل يدور بينهم إلى أن استقر بين ضلوعهم وحلوقهم. حاول الولد الذي يعمل في المحل أن يفسر لهم الأمر:

- الحقيقة أنه لم يخبرني أحد أنكم قادمون، والسيد "بوتاري" كما تعلمون مريض منذ فترة، ولأنه فقد شغفه بالمكان فقد أهمله، فهذا الوضع السيئ ليس وليد أيام.

لم يعلق "باولو" على ما سمعه، وقال بدلاً من ذلك:

- أعطني المكنسة، واذهب وأحضر براميل من الماء.

أمسك "باولو" بالمكنسة وبدأ في كنس الأرض؛ كان يقوم بالعمل وهو كاظم للغضب. لم يكن المتجر يبدو هكذا في آخر مرة حضر فيها إلى "باليرمو". تردد "إجنازيو" في البداية، لكن في نهاية الأمر توجه إلى الغرفة ولمح من وراء الستارة قاذورات وفوضى وأوراقا مكومة في كل مكان، وكراسي قديمة، ومدقات مكسرة.

استولى عليه الشعور بأن كل شيء قد حدث بالشكل الخاطئ، وأنهم وضعوا كل رهانهم على حصان خاطئ ويستطيعون السيطرة على الأمور. صوت مكنسة "باولو" يؤكد أنه لديه الشعور نفسه.

وووش، وووش...

كل كنسة بمثابة صفة. لم تسير الأمور كما كان مخططاً لها أو كما كانت متوقعة، لا شيء على الإطلاق سار كما توقعوا.

بدأ "باولو" في التقاط الأوراق، وتفرغ سلة القمامة كي يجمع المزيد منها. في تلك اللحظة، وقف صرصور ضخم على قدميه.

وووووش، وووووش...

كان قلبه قد تحول لحصاة صغيرة يستطيع أن يسحقها بأنامله.

أطاح بالحشرة بعيداً.

بحلول الظهر، كان "باولو" و"إجنازيو" قد أنجزا كل أعمال التنظيف. على المدخل، يقف "باولو" حافي القدمين وقد شمر عن ساعديه ليجفف عرقه من على وجهه المحققن بالحرمة.

والآن أصبحت "الأروماتوريا" تفوح منها رائحة الصابون، والفتى الذي يعمل بالمتجر ينفض الأتربة عن الزجاجات والجرار، ويرتبها وفقاً لتعليمات "باولو".

- آه، الأمر كذلك إذاً، وأنه سيعيد فتح المتجر من جديد.

تلفت "باولو" حوله ليعرف من أين يأتي هذا الصوت.

الصوت صادر من رجل متوسط العمر بعينين زرقاوين باهتتين شاحبتين، يكسو رأسه خط شعر ضئيل يشكل رقعة صغيرة على جبهته، ويرتدي ملابس مصنوعة من قماش سميك، وصدريّة معلق فيها مشبك ربطة عنق ذهبي.

من ورائه، تقف فتاة ترتدي قبعة أنيقة وأقراطاً من اللؤلؤ، مستندة على كتف رجل شاب.

- ما الذي حدث لـ "دومينيكو بوتاري"؟

تساءل الرجل:

- هل قام باستئجار المتجر؟

تحولت عينا "باولو" للرجل الآخر؛ كان أصغر من الرجل الأول، ذا صوت ولكنه قوي وجهور، ووجه مليء بالنمش.

- أنا المالك الجديد للمكان؛ أنا وأخي وزوج أختي.

مسح "باولو" يديه في بنطاله المبلل المُشَمَّر للأعلى حتى كاحله، ومد يده كنوع من أنواع التحية. قطب الرجل حاجبيه وابتسم ساخرًا:

- هل أنت المالك؟ أي نوع من الملاك أنت وأنت لا تستطيع أن تستقدم أحدًا لينظف لك الأرض؟
- "كاليري" جديد.

استفسرت الفتاة.

- حقًا، كم عددهم؟ عندما يتحدث هؤلاء الناس، أشعر كأنهم يغنون.

- ما الذي ستفعله هنا؟ هل ستستمر في تجارة التوابل؟

تجاهل الرجل الأكبر سخرية الفتاة؛ ربما تكون ابنته... رأى "باولو" أن هذا ممكن، إذ إنها تشبهه كثيرًا. اقترب الرجل الآخر منه ونظر إليه باهتمام.

- أم ستبيع أشياء أخرى؟ من أين سنأتي بالمون؟

- عليك أن تتواصل مع الكاليرييين والنابوليين الآخرين. هل سيبيعون لك التوابل؟
تساءل الرجل الأكبر سناً.

- أنا... نحن...

أراد "باولو" أن يوقف هذا السيل من الأسئلة. مد يده باحثًا عن "إجنازيو"، ولكن الأخير كان قد ذهب ليبحث عن "نجار" ليحضر الأخشاب، ويصلح الأرفف والكراسي المتهالكة.

رأى الفتى الذي يعمل في المتجر واقفًا في أحد الأركان، كان يحمل في يديه دلوًا ويشاهد الرجلين في صمت وسكون. أشار إليه أن يقترب، لكنه لاحظ أن الفتى لم يستجب. تقدم الرجل الأكبر نحو الباب.

- هل سمحت لي بالدخول؟

دخل الرجل المتجر دون أن ينتظر الإجابة.

- لقد حقق "بوتاري" أرباحًا جيدة من وراء هذا المتجر، لكن انظر إليه الآن، لقد مرَّ وقت طويل منذ...

كل ما كان يريده هو لمحة.

- عليك أن تعمل في هذا المتجر باجتهاد قبل أن تتمكن من أن تباع أي شيء دون أن تتورط.

فرك الرجل يديه:

- إذا لم تكن تعرف ممن ستشتري وكيف تستطيع أن تباع، سوف ينتهي بك الحال بأن تفتح متجرًا للبيع في أعياد "الكريسماس"، وحتى "يوم القديس ستيفان".

ركن "باولو" المكنسة على الحائط وشمر عن ساعديه. لم تعد نبرة صوته ودية:

- بالطبع كلامك صحيح، لكننا لدينا مصادرنا وسمعتنا الطيبة.

- سوف تحتاج كذلك للكثير من الحظ.

تبع الشاب الصغير الرجل الأكبر في تقييم الأرفف وعد الجرار وقراءة العلامات الموجودة على الزجاجات، كأنه يضع سعرًا على كل عبوة يراها.

- لن تحقق أي شيء بهذه الأدوات؛ أنت لست في "كالابريا"، أنت في "باليرمو" عاصمة صقلية، ولا مكان هنا للشحاذين والفقراء.

أمسك الرجل بإحدى الزجاجات وتتبع شقاً فيها:
- هل تعتقد أنك ستنتج بهذه العبوات المكسورة؟

أجاب "باولو":

- لدينا موردونا الذين يجلبون لنا احتياجاتنا من البضائع، فنحن في الأساس تجار توابل ولدينا سفينة، وسوف يأتي لنا زوج أختي بكل ما نحتاجه من معدات وبضائع مرة كل شهر. نحن فقط بحاجة لبعض الوقت كي نستقر وسنجهز كل شيء.
كان "باولو" محشوراً في زاوية الدفاع عن النفس رغماً عنه، فهذا الرجل كان يستفزه ويسخر منه ويضعه على المحك.

- إذاً، أنت في الأساس بائع ولست عطاراً.

رافق الشاب الأصغر الرجل الأكبر في السن، ولم يتكبد عناء الحديث برفق:

- ما الذي أخبرتك به؟ كنت أعتقد أن الأمر غريب. لم تكن هناك طلبات تقدم لكلية العطارين، أو حتى الصيدلة؛ كلهم في النهاية بائعون.

أجابه الرجل الآخر:

- معك حق.

تمنى "باولو" أن يلقي بهم خارج المتجر، لأنهم أتوا ليدسوا أنوفهم في شئونه، وأمطروه بوابل من الأسئلة، وسخروا منه. قال لهم:

- والآن أعتذر لكم، فأنا بحاجة لأن أكمل باقي أعمالي.

وأشار إلى الباب:

- مع السلامة.

تأرجح الرجل على كعب الحذاء ورمق "باولو" بنظرة ازدراء، وخبط بكعب الحذاء كأنه يتبع تعليمات محددة، وترك المتجر دون أن يرد السلام. أما الرجل الآخر، فقد تمهل في الرحيل أثناء نظره للأرفف.

- ستغلق هذا المتجر خلال شهرين.

عندما عاد "إجنازيو"، وجد "باولو" كالغريق؛ يدها ترتعشان من شدة الخوف. بدأ يحرك الجرار وينظر إليهم ويهز رأسه.

تساءل «إجنازيو»:

- ما الذي حدث؟

يعلم أن شيئاً ما قد حدث، فأخوه يبدو حزيناً وفي حالة غير طبيعية. قال "باولو":

- حضر إلى هنا منذ قليل ثلاثة؛ رجلان وامرأة، طرحوا عليّ عشرات الأسئلة "من أنت؟ وما الذي تفعله هنا؟ وكيف تبيع...؟".

حمل "إجنازيو" بعضاً من الأخشاب التي أحضرها من نجار السفينة كي يصلح الكراسي والأرفف، وقال:

- أشخاص فضوليون.

أخذ "إجنازيو" مسماراً ثبته في اللوح، وبدأ في الدق.

- ماذا يريدون؟

- الأمر لا يتعلق بماذا يريدون، بل بمن هم في الأساس؟

توقف "إجنازيو" للحظة؛ هذا الضيق الموجود في صوت أخيه ليس مجرد نفور أو بغض، هذا شعور بعدم الارتياح وربما الخوف. قطب "إجنازيو" حاجبيه وسأل "باولو":

- مَنْ هؤلاء الناس يا "باولو"؟ وما الذي يريدونه منّا بالضبط؟
- لقد أخبرني الولد الذي كان يعمل في متجر "بوتاري"، كان خائفاً لدرجة أنه لم يستطع حتى أن يقترب من المتجر.

وضع يده على كتف أخيه وأكمل:

- "كانزونيري" وابن أخيه "كاميلو ساجوتو"، كان يجب أن تأتي لترى بنفسك كيف كانا يتصرفان. وضع "إجنازيو" الشاكوش على المنضدة، وقال:

- عائلة "كانزونيري"؛ تجار التوابل بالجملة الذين يبيعون التوابل للجيش الملكي؟
- ولكل أبناء الطبقة الأرستقراطية، صحيح.

- لكن ما الذي يريدونه منّا بالضبط؟

أشار "باولو" إلى متجر العطارة، وقد ملأه الفراغ مع ظلمة الخريف المظني ذاك.

- لكي يخبرونا أننا لن ننجح في تجارتنا.

لمس الإحباط وخيبة الأمل والاستسلام الذي سكن صوته قلب "إجنازيو". لم يحتمل أن يرى أخاه بهذه الحالة. التقط الشاكوش وأخذ المسامير وقال:

- دعهم يتحدثون.

ونزل بالشاكوش على المسمار، حينها تذكر الفكرة التي تشاركها معاً في "بانيارا" عندما أخبره أخوه أنه يرغب في الرحيل.

- دعهم جميعاً يتحدثون يا "باولو"؛ لم نأتِ إلى هنا كي نموت من شدة الجوع، أو لكي نهرب في جنح الظلام إلى "كالابريا" مثل الشحاذين.

كان صوته أجش ولا يوحى بالغضب، بل فقط بالاستياء والامتعاض أو العزة والكبرياء والكرامة. مسمار آخر وضربة أخرى.

- لقد أتينا إلى هنا ولن نهرب وسنبقى.

بعد زيارة الـ"كانزونيري"، أتى إلى المتجر المزيد من العطارين؛ يتسكعون خارج المتجر ويتلصصون عبر النوافذ، ويرسلون الأطفال الذين يعملون عندهم لكي يلقوا نظرة على المتجر ويأتونهم بالأخبار.

كانت وجوههم عدوانية مليئة بالازدراء والرتاء.

أتى أحد العطارين لكي يخبرهم بطريقة ودية ألا يشعروا أنهم ماهرون، لأن "باليرمو" مدينة قاسية.

كانت "باليرمو" تتفحص "الفوربين"، تدرسه عن قرب، ولا تسمح بالإعانات. كان هناك القليل من الزبائن ويمتلكون التوابل، ومن أفضل الأنواع كذلك. ونتيجة لذلك، عندما سمعاً طرقاً على الباب بعد مرور عدة أسابيع، لم يصدقا عينيها.

كانت امرأة ترتدي وشاحاً فوق رأسها وثوباً حول فخذيهما، تحمل في يدها قصاصة من الورق سلمتها لـ"باولو" الذي كان الأقرب إليها.

- لا أدري ما المدون في تلك القصاصة بالضبط.

استقرت السيدة:

- لقد أخبروني أن أشتري هذه الأشياء ولكنني لا أملك المال الكافي، لذا لا يمكنني التوجه إلى الصيدلية. ذهبت إلى "جوليز" ولكنه أخبرني أن ما أملكه من مال لن يكفي لأي شيء من المدون هنا. هل يمكنك أن تبيع لي إياها؟

تبادل الأخوان النظرات. قرأ "باولو" كل ما هو مدون بالقصاصة:
- أدوية للإمساك. دعنا نرى ماذا يمكننا أن نفعل.

عدّ الأعشاب كالآتي:

- حرمل، زهور الملوخية...

تسلق "إجنازيو" الأرفف وأحضر الجرار. انتهى الحال بالأعشاب في "الهون"، بينما كان "باولو" يستمع للسيدة.

- زوجي طريح الفراش منذ أربعة أيام.

ألقت السيدة نظرة على "إجنازيو" الذي كان منهمكًا في طحن الأعشاب بيد الهون.

- هل هذه الأشياء ستشفيه؟ لأنني لا أعلم إلى أين أذهب ولمن ألقها، ولم يكن أمامي سوى أن أرهن الحلق كي أستدعي الطبيب له، لأن الحلاق لم يدرك أي شيء في حالته.
فرك "باولو" ذقنه:

- هل يعاني زوجك من ارتفاع في درجة الحرارة؟

- لقد أخذناه إلى فراشه، وهو إلى الآن لم يفيق من شدة المرض.

- بالطبع، ما دامت حرارته مرتفعة لهذا الحد، فليس من الممكن أن يستريح، يا له من مسكين!

أشار "إجنازيو" إلى جرة كبيرة خلفه، التقط "باولو" الإشارة على الفور وفهم مقصده؛ ملعقة من لحاء الشجر الأسود انتهى بها الحال إلى الهون. نظرت المرأة إلى "إجنازيو" بنشكك، وقالت:
- ما هذا؟

- إنه لحاء الشجر.

بدأ "باولو" في توضيح الأمر لها بصبر:

- إنه يأتي من شجرة تنبت في "بيرو" تسمى "الكينو"، وهي تساعد على خفض درجة الحرارة.

إلا إن المرأة بقيت قلقة، ووضعت يدها على جيوبها. سمع "إجنازيو" صوت خشخشة النقود وهي تعدها.

- لست بحاجة لأن تدفعي أي شيء هذه المرة، لا تقلقي.

لم تصدق المرأة ما سمعته. أخذت النقود ووضعتها على المنضدة وقالت:

- لكن الآخرين...

وضع "باولو" يده على ذراعها.

- دعي الآخرين يفعلون ما يحلو لهم، لكن نحن أبناء عائلة "فلوريو".

ومن هنا بدأ كل شيء. مرت الأسابيع واحدًا تلو الآخر، واقترب موعد أعياد الميلاد "الكريسماس". وفي يوم من الأيام، أتت "جيوسينا" لتراهم بعد الظهر بقليل، فوجدت زوجها وأخاه يضعان الجرار والميزان على جانب.

- لقد أحضرت لكم الغداء.

كانت "جيوسينا" تحمل سلة من الخبز، ومعها جبن وزيتون. قرّب "إجنازيو" كرسيًا إليها لتجلس، لكنها لوحت برأسها وقالت:

- عليّ أن أذهب، فـ"فيتوريا" وحدها مع "فينسينزو".
أمسك "باولو" بمعصمها وقال:
- أتمنى أن تبقى قليلاً، فأنتِ دوماً متعجلة.
قالها بنبرة عطف غير معتادة، فقامت بحرص بالعودة لزوجها، فناولها قطعة من الخبز المغموسة في الزيت.
- لقد تناولت طعامي بالفعل.
ضغط على يدها وقال:
- لا ضرر من تناول المزيد.
قبلت "جيوسبينا" ما قدمه لها، ولكنها أبقت عينيها تنتظران نحو الأسفل. بدأ "إجنازيو" في تناول الطعام ببطء وهو يشاهدهما.
كانا يغازلان بعضهما بعضاً، أو بالأحرى كان "باولو" يغازل "جيوسبينا". تناولت "جيوسبينا" اللقيمات التي أعطاهما لها ولكنها لا تزال تعقد حاجبيها.
طرق أحدهم على الباب، مسح "باولو" فمه بكفه:
- ألا يمكننا أن نحظى ببعض السلام والهدوء؟
توجه "باولو" إلى العمل، بينما بقي "إجنازيو" يلتهم آخر لقمة من الجبن وعاد ليقف على قدميه.
أمسكت "جيوسبينا" بكفه:
- "إجنازيو!"
كان صوتها عنيفاً مثل أخيه.
- ما الأمر؟ أريد مساعدتك. أنا...
كان هناك صوت صادر من الزجاجات في الغرفة المقابلة.
- أريد أن أرسل جواباً لـ"ماتيا"، هل يمكن أن تكتبه لي؟
عاد إليها "إجنازيو" وقال:
- ألا يمكن لـ"باولو" أن يكتبه لك؟
- لقد طلبت منه.
وضعت "جيوسبينا" يدها على الطاولة. أطبقت قبضتها ومدتها حتى لمستته.
- لقد أخبرني أنه ليس لديه وقت، ويجب عليّ ألا أجعله يهدر المزيد منه؛ الحقيقة أنه لا يريد أن يكتب إليها، أعلم ذلك، وعندما أخبرته ثار وغضب. "ماتيا" لا تدري ما هي أحوالنا: هل استقر بنا المقام في "باليرمو"؟ قبل ذلك كنا نرى بعضنا بعضاً كل يوم في الكنيسة، أما الآن فأنا حتى لم أعد أدري إن كانت على قيد الحياة أم لا، وأريد على الأقل أن أكتب لها جواباً.
تنهد "إجنازيو"، وقال لنفسه: "تأنك الاثنتان تماماً كالماء والزيت؛ يمكنهما أن يكونا في الوعاء نفسه ولكنهما لن يمتزجا أبداً".
خضت "جيوسبينا" من نبرة صوتها المنفصلة، ولمسته واعتصرت يده بين يديها:
- لست أدري ممن أطلب؛ أنا لست قريبة من أي شخص هنا، ولا أريد لأي شخص غريب أن يطلع على أسرارنا الشخصية. على الأقل، عليك أن تساعدني.
بقي "إجنازيو" صامتاً لبعض الوقت يفكر، "لا"، قالها لنفسه؛ عليها أن تطلب هذا الطلب من الساعي. لا يريد أن يعرف لماذا تبدو "جيوسبينا" حزينة طوال الوقت، أو لماذا يحاول "باولو" أن

يتقرب منها طوال الوقت وهو يعرف أنها ستلفظه.
لقد أصبح الأمر مملاً وسخيفاً، فهو يراها ويستمتع إليهما كل يوم، حتى وإن كانا لا يتجادلان بصوت عالٍ، لكن هناك أموراً يمكنك أن تشعر بها بروحك وبفطرتك، إنه يحبهما، ولكنه عالق بينهما؛ ذلك عندما يشعر الأخ الوديع الكريم والعطوف أن هناك ثعباناً خفياً، ثعباناً عشباً ساماً يتسلل ويرفع رأسه ليخس سمومه. تعلم "إجنازيو" أن عليه أن يلقي الأحجار لأنه لا يحق له أن يخرج من حجره، وهو لا يستطيع أن يخبر "باولو" ما الذي يجب عليه أن يفعله مع زوجته. أصبحت "جيوسبينا" الآن قريبة جداً من وجهه وهي تقول:
- أتوسل إليك أن تفعل ذلك!

يعلم "إجنازيو" أنه لا يجب عليه أن يتدخل في شؤون الآخرين، وأن عليه أن يذهب ويخبرها أن تذهب إلى زوجها «باولو» وتطلب منه هذا مرة أخرى، لكن عندما لاحظ أن أصابعهما بدأت تتشابك، ابتعد عنها بسرعة، وقال وقد أدار لها ظهره:
- حسناً، اذهبي الآن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما سأله "باولو" لماذا أحضر معه ورقاً وحبراً إلى المنزل، أخبره بالحقيقة. رأى وجه أخيه وقد اسود:

- أنت وشأنك، أنا لا أريد أن أدون شكواها في الجواب.
لم يتحدثا كثيراً على العشاء. تناول الكل بعض اللقيمات من طبق واحد موجود على المائدة، بعد ذلك، تناولوا بعض العنب والفواكه المجففة الموجودة على المائدة. كانت "فيتوريا" تتمشى و"فينسينزيو" في يدها وهي تغني:
- "انظر إلى ذلك الولد الصغير، هذا الطفل الصغير اللطيف، نعم، نعم، نعم يا صغيري، نعم بسلام ووداعة، لأن وقت النوم قد حان، حان وقت النوم، تعال أيها النوم، وخذ هذا الولد الصغير".
جفت "جيوسبينا" يدها في مِيدَعَتِهَا، وذهبت لـ "فيتوريا" تقبلها.
- اذهبا لفراشكما أنتما الاثنان، فلديّ ما أقوله لعمكما.
جلست على المقعد ومشطت شعرها بالفرشاة ورفعته بعيداً عن جبهتها.
- ماذا؟

- سوف أحضر الورق.
ذهب "إجنازيو" إلى الغرفة التي يتشاركها مع "فيتوريا" ليحضر الحبر، واستمع إلى كل ما كان يدور في المطبخ.

- لماذا لم تطلبي مني أن أكتب لك الجواب؟
- لقد أخبرتني أنك مشغول وليس لديك وقت.
كان صوت "جيوسبينا" مليئاً بالمرارة.
- هذا صحيح.

صوت صرير الكرسي.
- في هذه الحالة سأذهب لأخذ إلى النوم.
في تلك اللحظة، اندفع "إجنازيو" بسرعة ليعترض طريق أخيه:
- ها هي الأوراق والحبر يا "باولو"، تعال، لماذا لا تملّي عليّ بعض عبارات التحية؟

نظرت "جيوسبينا" إلى زوجها وقالت له:

- اجلس.

جلس "باولو" وتنازل وبدأ يكتب. كان "باولو" شخصًا صعب المراس والمزاج، وكيف لا بالنسبة لإنسان مثله نشأ وتربى على حياته تلك؟ لقد نشأ على الكبرياء والعزة، شأنه شأن آل "فلوريو" جميعًا. وما لبث أن بدأ، حتى أعاد الورقة لـ "إجنازيو"، الذي أمسك القلم وشجع "جيوسبينا" على البداية:

- عزيزتي "ماتيا"...

توقفت لتنتفس، ثم انطلقت مرة واحدة، ومن بعدها لم تستطع أن تتوقف:

- "فينسينزو" بخير ويكبر بسرعة، وأخوك يعمل من الصباح وحتى حلول الظلام، البيت صغير لكنه قريب من متجر العطارة، ليس لديهم في هذه المدينة البائسة الخضروات الطازجة التي كنا نقطفها معًا من الجبال. "باليرمو" مدينة كبيرة وأنا لا أعرف فيها سوى الطرق التي تؤدي إلى الميناء. كان "إجنازيو" منتبهًا، ويشعر بما تحاول "جيوسبينا" أن تقول:

- "فينسينزيو" هو الشيء الوحيد الذي يجعلني سعيدة، فكل من "إجنازيو" و"باولو" يتركني وحدي طوال اليوم، وأكاد أفقد صوابي من شدة الشعور بالوحشة في هذا الحجر. هذا صحيح، لأن البيت لا يعدو كونه أكثر من مخزن يخدم المتجر. أقضي أيامي الطويلة وحيدة بين الجدران، بائسة وحزينة مع ابني الصغير و"فيتوريا"، وليس لي موطئ قدم في هذه المدينة الضخمة، فأنت لست هنا، وأنا أكاد أضيع وسط هذه الجدران، والطين، والفراغ.

في النهاية، صمتت "جيوسبينا". اقترب "باولو" من زوجته وضغط على كتفها:

- سأرسل هذا الجواب لـ "ماتيا" في الصباح.

فرك "باولو" شعرها برفق وداعبها مداعبة تتم عن شعور بالندم واللفظ والخوف. فتح فمه ليتحدث ولكنه لم يقل شيئًا، وخرج من الغرفة أمام عيني زوجته المذهولة.

"كان عليه أن يفعلها"، هكذا اعتقد "إجنازيو"؛ كان على "باولو" أن يتحدث معها وينصت إليها، أليس هذا هو المغزى الحقيقي من الزواج؟ أليس الزواج هو أن نتحمل أعباء الحياة معًا؟ أليس هذا هو ما كان "إجنازيو" سيفعله لو كان في مكانه؟

- أشكرك مرة أخرى يا سيد "فلوريو"، طاب يومك.

- دومًا في خدمتك، إلى اللقاء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مرَّ عيد الميلاد في عام 1799 سريعًا، ومر عام آخر ومتجر العطارة بدأ يكبر ويزدهر شيئًا فشيئًا، فقد نجح أبناء "فلوريو" بعد كثير من العناء والمشقة في أن يصبحوا معروفين. لوقتٍ طويل، سحقتهم عدم ثقة أهالي "باليرمو" بسبب الشائعات التي نسجها حولهم "ساجوتو" وابن أخي "كانزونيري"، التي اعتمدت جزئيًا على التخويف، ولكي لا يثيروا - جزئيًا - غضب "كانزونيري" عليهم، وبقيت متاجر العطارة الأخرى بعيدة عنهم. ما زال "باولو" يتذكر الأيام التي قضاها على مدخل المتجر في انتظار مجيء زبون واحد، أو أي بائع لكي يحجز من عندهم طلبية توابل، وفوق كل هذا، كان عليهم أن يحتملوا نظرات "ساجوتو" كلما مرَّ بهم؛ كان يشمت بهم لعدم وجود زبائن. أقسم "باولو" بينه وبين نفسه أنه يومًا ما سوف يمحو تلك الابتسامة من على وجهه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أتى العام الجديد؛ 1801، وجلب معه موجة شديدة من الصقيع والأمطار. كان الباب ينغلق بالصرير نفسه المعتاد. للحظة، سُمع صوت هطول الأمطار داخل المتجر، جنبًا إلى جنب مع رياح الشتاء ورائحة الخشب المحترق. نظر "باولو" حوله، ووضع الزجاجات المتبقية على طاولة العمل. في نهاية ذلك العام الصعب، اجتاح المدينة وباء حمى عنيف، واستبدلت بترانيم عيد الميلاد فواجع الكثير من الجنازات. نفذت كل احتياطات لحاء الخشب في متاجر العطارة الكبرى، مثل متجر "كانزونيري" الذي كان يبيعه بسعر الذهب نفسه والعديد من الناس بحاجة إليها.

أحضر "باربيرو" بشكل غير متوقع شحنة كبيرة من التوابل أتت مع دخول العالم الجديد، وانتشر خبر وصول الصناديق المملوءة بالتوابل في المدينة كالنار في الهشيم. لا شك أن للأقدار أحكامها في الحياة، وأن ما يجعل إنساناً يضحك يجعل الآخر يبكي؛ هذا ما حدث بالضبط في اليوم التالي، كان المتجر "أروماتوريا" مزدهمًا، ليس فقط بالفقراء والبؤساء الذين كانوا بحاجة للأعشاب الطبية المختلفة، ولكن بالعديد من أصحاب الصيدليات الصغيرة، والقليل من الأطباء.

كان جميعهم واقفين أمام باب المتجر بلا قبعات، وأموالهم تملأ نقودهم، يتوسلون من أجل شراء لحاء الخشب. دخل "ساجوتو" وهو منشغل بمجيء وذهاب بائعي التوابل، الذين أتوا لمتجر هؤلاء الكالبيريين الذين لم يتفوا فيهم يومًا، وهم بدفع الزبائن الآخرين بعيدًا عن طريقه، وهو يطلب من "باولو" أن يريه لحاء الشجر الذي يبيعه للناس، لأنها لا يمكن أن تكون حقيقية وهي بكل تأكيد مغشوشة. صرخ الرجل وقال:

- لا بد أنهم يخدعون الناس!

أمسك "باولو" بحفنة من لحاء الشجر ونثرها على طاولة البيع:

- لحاء شجر بوليفي، وصل للتو وتم بيعه بالكامل. مت بغيظك يا "ساجوتو"!

ترجع الرجل إلى الخلف بضع خطوات، وهو محاط بنظرات الاحتقار والخزي من طرف تجار العطارة الآخرين والأطباء، فتورم وجهه من الخجل وانهار من شدة الخجل. وقف في مكانه دون حراك، وصرخ فيهم وقال:

- يا طين الأرض!

وفي اليوم التالي، أشاع "كانزونيري" خبر وصول شحنة من التوابل الأخرى إليه، وأنه قد خفض الأسعار، وقدم عروضًا خاصة لعملائه وزبائنه المخلصين، لكن سبق السيف العزل، ووقعت الواقعة وتحققت الخسارة على الأرض. قال "باولو":

- لا يهم من يموت ما دمت أنت تعيش.

هكذا لاحظ كيف تسير الأمور. لقد أتت أخيرًا اللحظة التي أصبح فيها السيد "فلوريو"، بعد أن كان الناس يطلقون عليه اسم الفلاح الساذج الذي أتى من قرية "بانيارا".

والآن أصبح يُكتب هذا الاسم على فواتير التبادل والمستندات، وتوقيع على العقود التي يتم إبرامها مع أصحاب المتاجر، الذين أخذوا عينات من بضاعتهم وعادوا ليشتروا منهم بكميات أكبر. وضع "باولو" الجرة الأخيرة على الرف. في الواقع، كانت هذه الشحنة من لحاء الخشب ضربة حظ، لكن ما حدث بعدها لم يكن وليد الصدفة.

خارج النوافذ، كان "ميشيل" العامل بمتجرهم يجري وهو يحمل صندوقًا مغطى بمشمع إلى صدره، ويتجه به نحو المتجر بسرعة. دخل إلى المتجر وأزاح ماء المطر من عليه وقال:

- إن الأمطار تنهمر بشدة.

وضع الصندوق على طاولة البيع:
- ها هي جوزة الطيب والكمون، لقد أحضرت أيضًا بعضًا من "الدريدار" لأنني لاحظت أنه بدأ ينفد من المخازن.

- كيف هي الأوضاع في المخزن؟
- الطقس بارد وهناك بعض الرطوبة، ولكن ليس هناك ما يمكننا أن نفعله بشأنها.
قال "باولو" وقد ارتسمت على وجهه تكشيرة:
- لكن الرطوبة تقصد رائحة التوابل. اسمع يا "ميشيل"، في وقت لاحق اليوم، اذهب أنت و"دومينيكا" وخذنا كل الحقائب والصناديق، ضعا الكثير من الورق في الفتحات الموجودة أسفل الأبواب كي تقللا من نسبة الرطوبة.

أوما الفتى برأسه، ودخل في الحجرة الخلفية للمتجر ولم يظهر مجددًا. لقد استبدلت عائلة "فلوريو" الستائر القديمة بأبواب، وقاموا بطلاء المصاريع، ليس هذا هو التغيير الوحيد الذي طرأ على أعمالهم، فالمخزن القديم لم يعد يكفي كمية البضائع المخزنة فيه، لذلك قام كل من "باولو" و"إجنازيو" باستئجار مخزن آخر في ضاحية "في دي ماتيراسي" في منطقة "كاستيلاماري"، كي يخزنوا بها البضائع التي تصل إليهم من جميع أنحاء البحر المتوسط، فالجودة العالية للتوابل مهمة وضرورية خاصة بعدما أصبحوا يبيعون التوابل لغيرهم من التجار، والجودة تعتمد بشكل أساسي على جودة التخزين.

نادى "باولو" على "ميشيل".
- نعم يا "دون باولو".

- أنا ذاهب إلى الخارج، وقد تأخر "إجنازيو" كثيرًا في الجمارك، أمل أنه لم يواجه مشكلات تتعلق بالجمارك. اعتنِ بالمتجر جيدًا حتى نعود.
زجرة الريح التي كانت تحببه أرسلت رعشة قوية في بدنه. مرَّ "باولو" في طريقه بـ"بيانو سان جياكومو" ونظر لبينه؛ تسرب شعاع من الضوء عبر النافذة.
- في الغالب تطهو "جيوسبينا" الطعام.

و"فينسينزو" ... "فينسينزو" الصغير، يا له من طفل ذكي! في المساء، يجلس ليراقبه وهو يلعب مع "فيتوريا"، أو ليشاهد شقيقه "إجنازيو" وهو يحاول أن يعلمهما هو و"فيتوريا" بعض حروف الهجاء. وبعدها، رأى زوجته "جيوسبينا" تخرج من البيت كي تلقي بطست من الماء المتسخ، لقد لمحته، ما من شك في ذلك، لكنها لم تفعل أي شيء ولم تحاول حتى أن تلوح له بيديها.

مط رقبتة ومال بها على كتفه وأسرع الخطى تجاه "بلازو شيارامونت". يعلم "باولو" جيدًا أن "جيوسبينا" لا تحبه، لكن هذا الأمر لم يزعجه قط ولم يمثل له أي مشكلة حقيقية، فلديه عمله في المتجر الذي يحبه، ويسافر من آن لآخر هنا وهناك ويجوب البحار بشكل معتاد، ومتجر التوابل والبهارات يملأ عليه حياته وأيامه.

لكن "باولو" مثله مثل بقية الرجال، قد يتوق في بعض الأحيان للحصول على حزن ما أو معانقة ما، حتى يذهب بعدها في سبات عميق وهو يشعر بالدفء والحب.

أغلقت "جيوسبينا" الباب وراءها بقوة، و"باولو" لا يزال في الخارج. تساءلت بينها وبين نفسها إلى أين سيذهب، وشعرت فجأة بثقل ما قد جنم على صدرها:

- قلبي مملوء بالسواد، هكذا يقولون في "بانيارا".

أصبح قلبها أسود منذ أن حضرت إلى هذه المدينة البائسة، وهذا البيت الموحش الذي تكرهه، وهذه المدينة القذرة وهذا الجو الرطب، وهذا الشتاء القارس، وهذه الأمطار المنهمرة التي كانت تجبرها على غلق النوافذ طوال الوقت وإضاءة اللمبات، وإلى جانب ذلك، كان يومها تغييبًا؛ تشعر منذ الصباح أنها ليست على ما يرام، ولهذا تضطر للبقاء في الفراش لبعض الوقت، وبعدها تتادي "فيتوريا" كي تعاونها في قضاء بعض الأعمال المنزلية.

"جيوسبينا" حامل؛ لقد تأكدت من ذلك بنفسها منذ عدة أيام. تخطت موعد الدورة الشهرية، وصدرها يؤلمها، وبدأت تظهر به بعض البثور، وكأن ما حدث لها لم يكن كافيًا كي تكتمل الصورة المأساوية بمولود جديد آخر من "باولو"، وأين؟ هنا في "باليرمو"، في هذا البيت الموحش المظلم الذي تكرهه. فكرت "جيوسبينا" وقالت:

- عليّ أن أخبر "باولو".

لكنها في الوقت نفسه، أقنعت نفسها أنها لم تخبره حتى الآن لأنها لم تصادف الوقت المناسب للقيام بذلك، لكن الحقيقة أنها لا تريد أن تخبره على الإطلاق، لأنها لا تدري إن كانت تريد الاحتفاظ بهذا الطفل أم لا، فهي بشكل عام لا تثق في "باولو"، وتأخذ حذرًا منه كثيرًا، وفي بعض الأحيان تخاف منه، وفي أحيان أخرى، ترى أن الاحترام والتقدير الواجبين للذين يجب أن تشعر بهما المرأة من زوجها، قد تحولا عندها إلى جذوات من الكراهية المشتعلة، أو إلى سكين حاد يقطع جوفها، والآن؛ ماذا عن طفله؟ طفله الآخر؟ إنها تشعر بالعار بمجرد التفكير في الأمر، ورأت أن هذا الطفل يجب ألا يأتي إلى الحياة ويجب ألا يرى النور.

ألقت بالشال على رأسها وارتدت حذاءها، وخرجت تسير في محيط "بيانو سان جياكومو" ومنه إلى الميناء. هناك؛ في أحد الأكواخ الموجودة خلف حائط الميناء، تسكن "ماريوشيا كولوسيمو" القابلة التي كانت تعيش معهم في "بانيارا" قبل أن تنتقل للعيش في "باليرمو". ينبعث من باب بيتها نسمات محملة برائحة الصابون. ترددت "جيوسبينا" في الدخول... نادى عليها فجأة:

- السيدة "ماريوشيا"، هل أنت موجودة بالداخل؟

نظرت السيدة إلى الخارج؛ كان وجهها قد حُفر كالصخور البركانية، وشفتها أصبحتا رقيقتين وبشرتها متعركة:

- السيدة "جيوسبينا"، عذرًا، فقد كنت أقوم بعمل بعض صودا الغسيل. ما الذي يمكنني أن أقوم به من أجلك؟

قالت هذه العبارة وهي تمسح يديها المصبوغتين باللون الأحمر بميدعَتها. ترددت "جيوسبينا" للحظة، لأنها تعلم علم اليقين أن ما تفكر في فعله ليس صحيحًا، وأنه يعتبر خطيئة كبرى. لقد اعتادت جدتها أن تقول: إن السيدة العذراء الطاهرة، تشيح بوجهها بعيدًا عن الأم التي تلقي بطفلها وتتخلى عنه، ولكنها اقتربت من السيدة وهمست في أذنيها ببعض الكلمات.

- هل يمكنني أن آتي لأراك في أحد هذه الأيام؟

أمالت المرأة رأسها قليلًا؛ كانت تشع منها رائحة بدائية، مزيج من رائحة القش واللبن.

- في أي وقت تشائين. ما هذا؟ بيضة في العش؟

أومأت "جيوسبينا" برأسها وقالت:

- زوجي لا يعلم حتى الآن.

همست مرة أخرى في أذنها.

اعتدلت القابلة، ولم تسأل عن شيء، وقامت فقط بفتح يدها، فهي تعرف كل الأشياء التي لا تستطيع النساء أن تفصح عنها، والتي هي أكثر بكثير مما يمكن للرجال فهمه:
- أنتِ تعلمين أين سأكون، سأنتظركِ.

أومأت "جيوسبينا" برأسها واختفت القابلة خلف الباب. عادت "جيوسبينا" إلى البيت بخطى متناقلة، وقد تشبع شالها بمياه الأمطار وأصبح الماء يقطر من صدرينها. كانت قطرات المطر ثقيلة ومعيقة جعلت من الصعب عليها أن تسير، وبمجرد وصولها لضاحية "بيانو سان جياكومو"، ألقت نظرة سريعة على متجر العطارة، فلمحت بعض الأشكال عبر النوافذ التي قد تكون هيئة بعض الزبائن. تنهدت بقوة؛ كان يجب أن تتزوج فردًا من عائلة "فلوريو"! فلماذا لم تختَر لها جدتها "إجنازيو" زوجًا بدلًا من "باولو"؟ ربما لو فعلت ذلك لكانت الأمور كلها قد اختلفت الآن.

تذكرت منذ سنوات عندما كانوا يدفنون أقاربهم بعد وقوع الزلزال الرهيب الذي دمر "بانيارا"، استدعت من الذاكرة وجه ذلك الفتى ذي العينين الرقيقتين والوجه النحيل الذي تحول للون الأحمر من كثرة البكاء، وهو يحرق في كومة التراب التي دُفنت أمه "روزا" تحتها، وهي التي فقدت والديها حينها، كانت تبدو في فستانها أرفع من فرع جاف نحيل متقوس من إثر قبضة، غاضبة من العالم كله لأنه حرّمها من أبيها وأُمها. اقتربت منه وأعطته منديلًا كي يمسح المخاط الذي يسيل من أنفه. أخبرته بأن "يتوقف عن البكاء، لأن الفتيان لا يبكون" قالتها بتذمر وقسوة، ربما لأنها حقدت على تلك الدموع التي انهمرت بحرية لأنها لم تعد تملك المزيد منها لتذرفها، نظر إليها بغطرسة وتكبر ولم يرد عليها. عادت إلى المنزل وقد تبلل طرف تنورتها بالكامل، وشالها كان بحاجة إلى العصر. سألتها "فيتوريا":

- أنتِ مبللة بالكامل يا عمتي! هل أنتِ على ما يرام؟

- نعم، نعم؛ كان عليّ أن أذهب إلى العمة "ماريوشيا" في أمر ما.

شنت "فينسينزو" انتباهها وهو يجذب تنورتها قائلاً:

- ماما، احمليني.

حملته "جيوسبينا" بقوة وشمّت رائحة عنقه، فطفلها الصغير هو الشيء الوحيد الجيد الذي منحها إياه زوجها، وهو كافٍ بالنسبة لها، فهي لا ترغب في إنجاب المزيد من الأطفال، وهذا الجنين الذي ينمو في أحشائها ويجعلها تشعر بالإرهاق والتعب وبأنها غير قادرة حتى على التنفس قد يصبح مثل أبيه. على ذكر أبيه، اشتعلت جذوة الكره الموجودة بداخلها تجاه زوجها مرة أخرى؛ إنه استياء قديم، تحمله في صدرها، تحت قلبها مباشرة، فهي ككل الفتيات في مثل عمرها ترغب في زوج وفي أبناء، لكن إن كانت تعلم أن هذا هو الزواج، لهربت إلى الجبال قبل أن تقدم عليه.

ما من شك في أن "باولو" شخص جدير بالاحترام، رجل مخلص، لكن لا يدور بداخله أي شيء سوى العمل والمال، لدرجة أنه ذهب في إجازة أعياد "الكريسماس" إلى متجر العطارة ليطمئن على العبوات، تاركًا إياها و"فيتوريا" وحدهما يأكلان "أبا فروة" ويحدقان في بعضهما بعضًا؛ إنه لا يشبه "إجنازيو" في أي شيء.

ازداد هطول الأمطار مع انتصاف النهار. في الوقت نفسه، جاء "باولو" من مدخل العربة الموجود على جانب مكتب الجمارك داخل "بلازو ستيري"، ويشبه مكعبًا مثقوبًا بنوافذ ذات عمدان نحيلة ثنائية الفتحة. كان يُستخدم ذلك المبنى في الماضي كحصن داخل المدينة، وهو مبنيّ على الطراز نفسه الذي بُني عليه بيت عائلة "شيارامونت"، وقد سبق وتم استخدامه كسجن في عهد محاكم التفتيش، وبعدها استخدمت ككنائس عسكرية، والآن كشاهد صامت على تاريخ المدينة. سار على الممر

الواقع بين فنائي "بازيلو ستيري"، ورأى العديد من الرجال والحمالين والتجار الذين يعج بهم المكان. بقي هناك إلى أن رأى "إجنازيو" وهو يتبع رجلاً آخر ويتناقش معه. تعرف إليه في التو ونادى عليهما:

- "باولو!" "إجنازيو!"

لم يسمعه، فجأة دفع "باربيرو" "إجنازيو" في صدره، وما كان من "إجنازيو" إلا أن فتح له ذراعيه. عندما رأى "باولو" هذا المشهد، خرج من تحت المظلة مسرعاً نحوهما.

- ما الذي أصابكما؟ ما الذي يحدث هنا؟

أتى إليه "باربيرو" مسرعاً:

- وأنت أيضاً، اللعنة عليكما، كأنتي ربيت أفعى في صدري؛ هذا ما حدث. أهكذا تشكرونني على ما فعلته معكما؛ وأنا الذي تشاركت معكما اللقمة عندما كنتما تتضوران من الجوع؟ أهذه هي مكافأتكما

لي؟ أن تذهبا وتقوموا باستئجار أشياء دون أن تخبراني، وتوقعان عليها باسمكما؟

لم يستوعب «باولو» ما الذي يقصده «باربيرو» بالضبط:

- ما الذي تعنيه بالضبط؟

ونظر إلى زوج أخته ثم إلى «إجنازيو»:

- ما الذي يتحدث عنه «باربيرو»؟

حاول «إجنازيو» أن يشرح لأخيه الموقف:

- الأمر وما فيه أن أحد العاملين عند «كانزونيري» وشى بنا عنده، وأخبره بأننا استأجرنا مخزناً للبضائع، وهو يعتقد أننا نحاول أن نخدعه ونغشه.

رد «باربيرو» سريعاً:

- أليست هذه هي الحقيقة؟ هل من الطبيعي أن أعرف بشأن هذا الأمر من الغرباء؛ أنكما تقومان بعمل الكثير من الأشياء من وراء ظهري؟ ألسنا في الأصل أقارب وشركاء في العمل؟ اللعنة عليكما!

تتلاعبان بي؟ أنسيتما من الذي كان وراء كل هذا النجاح والنعمة التي حظت عليكما؟! يمكنني أن أنتزع كل شيء منكما وسينتهي بكما الحال إلى الإفلاس.

أطبق «باولو» يديه على «باربيرو»:

- وما الذي تفعله أنت؟ من هم الذين يعملون هنا ليل نهار؛ أنت أم نحن؟ نحن من أصلحنا المتجر وأعدناه إلى العمل. أتتذكر عندما كنا في "بانيارا"؟ أنت من أخبرتنا أن كل شيء على ما يرام، ولكننا

فوجئنا عندما حضرنا أن المتجر ما هو إلا حجرة بائسة تعج بحشرة السمك الفضي والرطوبة في الداخل، والآن وبعد أن عرفنا الناس ووثقوا بنا وأصبحنا نجني الأرباح، وبدلاً من أن نشكرنا تريد أن

تنسب كل شيء لنفسك؟ حاول أن تأتي إلى هنا وتعمل، وترى هل كنا على صواب عندما قررنا أن نستأجر مخزناً جديداً أم لا؟ لماذا تصرخ في وجوهنا الآن؟

- أنصت إليّ جيداً يا "باولو"؛ كان عليك أن تخبرني من البداية.

- لماذا؟ هل عليّ أن أخذ الإذن منك؟

ضرب "باربيرو" "باولو" في صدره. وقف "إجنازيو" بين الاثنين ليفصل بينهما قبل أن يقتص أخوه منه.

- ليتوقف كلاكما، الكل ينظر إلينا!

كانت العشرات من العيون الشامتة المملوءة بالغضب والحقد تنظر إليهم بنهم شديد.

- دعونا نذهب جميعًا إلى البيت، ونحدث هناك على انفراد.
ساروا بعيدًا عن الميناء، يتقدمهم "باربيرو" متبوعًا بـ"بولو" و"إجنازيو"، وبعد قليل ساروا جنبًا إلى جنب. رأى "كارميلو ساجوتو" كل شيء بعينه من الرواق المعمد، لم يشمت فيما رآه أو يظهر أي علامة من علامات الراحة أو السرور.

في النهاية، بعدما ترك آل "فلوريو" "بازيلو ستيري"، جاء "الدون كانزونيري" إليه:
- هل رأيت المعركة التي دارت بين الكالبيريين؟ قد يتعاركون مع بعضهم بعضًا في أي لحظة الآن؟
أوما برأسه وأكمل:
- هل لك أي علاقة بالأمر؟

فتح "كارميلو" ذراعيه؛ كانت التعبيرات المرسومة على وجهه تشي بالبراءة المغلفة بالسم.
- أنا؟ أنا لم أفعل شيئًا، إنه "ليوناردو" المسئول عن أعمال تفريغ البضائع في الميناء، وهو الذي تحدث بصوت عالٍ.

لكنه بالطبع لم يذكر أنه هو من حفزه على الحديث بهذه الطريقة، وأنه هو من قام بنشر الشائعات بين عمال الجمارك بالميناء أن آل "فلوريو" اختلفوا مع بعضهم بعضًا وأن الديون بدأت تتراكم عليهم، ولم يذكر أيضًا أن سلاحه المفضل هو النميمة، لكنَّ حَمَاهُ يعرف كل ذلك عنه، ولهذا السبب يقربه منه أكثر حتى من أبنائه. ضحكا ثم أشار "كانزونيري" للعربة:
- دعنا نعود للمنزل.

ثم التفت لكي ينظر إلى زوج ابنته، وقال:
- انظر كيف تسيير الأمور عندما تعمل مع أقاربك، عليك أن تنتبه لتصرفاتك ولا تتعدَّ حدودك.
توقف "ساجوتو" فجأة عن الضحك، وقال:
- هل تقصد أنني لا أنتبه لتصرفاتي ولا أعرف حدودي؟ هل سبق وتعديت حدودي معك أو مع أخي زوجتي؟

- بالضبط، أنا أنبهك بشأن هذه الأمور لأنها لا تُنسى.
خبط الرجل على العربة فانطلقت من فورها:

- أنت ذكي بما يكفي لتعرف كيف تتصرف بطريقة صحيحة. أنت تابع جيد لسيدك، أليس كذلك؟
رد بالإيجاب وهو يبتلع ريقه لأن هذه هي حقيقته على وجه التحديد؛ كلب حراسة لا أكثر، إنه يعلم ذلك جيدًا ويكره لنفسه كل يوم عندما يرى انعكاس وجهه في المرأة كل صباح، فهو ليس حرًا مثل "الكالبيريين" اللذين لا يخشيان أي شيء وليسا بحاجة لأي شخص، وهذا هو سبب كرهه لعائلة "فلوريو"، لأنهم - باختصار وبالنسبة له - كل شيء لن يكون عليه أبدًا مهما فعل.
في تلك الليلة، لم يقض "باربيرو" وقته كعادته - عندما يأتي إلى "باليرمو" - في بيت عائلة "فلوريو"؛ احتدم الجدل بينهم ووصل في بعض الأحيان إلى العنف، واستمر لوقت متأخر من الليل. في مرحلة ما، وقف "بولو" وترك المتجر وقد أغلق الباب خلفه بعنف، بعد أن سئم من سماع الكلام نفسه مرة بعد أخرى. بقي "إجنازيو" جالسًا في الخلف واستمر في محاولاته لشرح الموقف بصبر وهدوء.

في النهاية، ودع "باربيرو" "جيو سبينا" ووقف عند باب المنزل، وقال:
- أخبرني زوجك أن يكون أكثر حكمة وإلا سنتتهي الأمور إلى ما لا تُحمد عقباه، وسيفلسان ويعودان بخفي حنين لأنني لن أتعاون يومًا مع شخص خدعني وغرر بي.

لم تجبه "جيوسبينا"، لأن ربة المنزل والزوجة المحترمة لا يجب أن ترد في هذه المواقف. "باولو" و"إجنازيو" مخلصان، وزوجها وفيّ وملتقن في عمله أكثر من أسرته، و"إجنازيو" لن يقدم على خداع أحد بأي حال من الأحوال، وإن حاول فلن يستطيع.

تناولوا طعام العشاء في وقت متأخر من الليل عندما عاد "باولو". لم يأت أحد على ذكر ما حدث. كان "إجنازيو" يبدو مرهقاً، لم يكمل طعامه وقرر أن يذهب ليخلد إلى النوم متعمداً ألا يقول شيئاً، وتبعه كل من "فينسينزو" و"فيتوريا". بقي كل من "باولو" و"جيوسبينا" وحدهما. شبك "باولو" الكوب في شباك القل.

- هل سنذهب للنوم؟

استمرت "جيوسبينا" في التنظيف ولم تجبه.

وضع الكوب، ثم وضع يده على فخذيها؛ تعرف "جيوسبينا" جيداً ما الذي يريده "باولو" منها.

- اتركني وشأني.

ضغط على فخذيها أكثر.

- أنتِ دوماً تقولين لا، لم لا؟

- أنا مرهقة الليلة.

ضغط "باولو" على فخذيها أكثر فأكثر.

- ما الذي يجب عليّ أن أفعله؟ هل أتوسل من أجل الحصول على القليل مما يحق لي؟ ما الغريب فيما أطلبه؟

كان صوته يحمل بالفعل بعض التوسل. لقد كان عملياً يسحقها ما بين الموقد وجسده، فكرت "جيوسبينا" للحظة أنه يريد أن يحصل عليها، والآن، حتى ولو على حساب أن الآخرين سيسمعون كل شيء. رفع "باولو" بالفعل تنورتها بينما كانت تكافح ضده بكل ما أوتيت من قوة كي تخلص نفسها منه، ولكنها شعرت برعشة تسري في هذا الجزء منها؛ الجنس الخائن الذي لا يمكن أن يحتفظ بالرغبة عند حد.

- لا، لقد أخبرتك أن تتركني وشأني.

توقف "باولو" فجأة؛ لم يكن يدري ما الذي يجب عليه أن يفعله في تلك اللحظة: هل يصرخ في وجهها، أم يصفعها على وجهها، أم يترك لها البيت ويغلق الباب خلفه بقوة، ويفرغ تلك الشحنة من الرغبة في أول امرأة يجدها متاحة أمامه؟ هذا بالضبط ما يحتاج إليه، القليل من الراحة هو كل ما يريده.

سحبها من معصمها وقادها رغماً عنها إلى غرفة النوم، ألقى بها على الفراش وجردها من ملابسها، أبقّت "جيوسبينا" عينيها مغلقتين في الوقت الذي كان زوجها يبحث فيه عن الحب بداخلها، وعليها أن تعطيه ما يريده وهي ذليلة، شاعت أم أبت.

في الغرفة المجاورة، وخلف الستائر التي تعمل عمل الباب، استيقظ «إجنازيو» فجأة من نومه بسبب البرد، حملق في الظلام، وأنصت لما يجري.

في اليوم التالي، استيقظت «جيوسبينا» من نومها قبل بزوغ الشمس، حيث كانت السماء ما زالت مظلمة. ارتدت ملابسها بسرعة... كان زوجها ما زال مستغرقاً في نومه، ولم تنظر إليه.

فتحت الباب؛ كان البرد القارس يهاجم مدينة «باليرمو» ويحاصرها من كل جانب بلا رحمة وبلا هوادة، وحي «بيانو سان جياكومو» مهجور إلا من بعض المارة المتجهين إلى «لاكالا». أضاعت

الللمبة من أجل الحصول على بعض النور، وأعدت شرائح من الخبز كستها ببعض الجبن والعسل، وأخذت المقلاة ووضعت بها قطعاً من الجبن أحضرتها من على الرف ووضعتها على المائدة. استيقظت «فيتوريا» وظهرت عند مدخل الباب، قالت بصوت هامس:

- صباح الخير.

وذهبت لترتدي ملابسها.

شعرت «جيوستينا» فجأة بألم لا يحتمل في بطنها جعلها تثبت في مكانها، وضعت يدها على بطنها. لقد تعلمت منذ وقت طويل أن الأطفال هبة من الله وأن رفض هذه الهبة خطيئة مُهلكة، وهي تؤمن في أعماقها أن الرب هو الوهاب وهو الذي يمنح ويمنع، وأنه سيعاقبها بشدة إن أدت هذا الجنين بأي طريقة أياً ما كانت، ولكن ما الذي يجب عليها أن تفعله وهي تشعر أن هذا الطفل ليس طفلها؟ فهو ليس كـ«فينسينزو» الذي تعلق بها حتى قبل أن يولد، لكن هذا الكائن غريب عنها! لكن ربما الأمر لا يعدو كونه مسألة وقت وقد يزول هذا الشعور بالنفور من هذا الطفل، ظلت تفكر وهي تحاول أن تقنع نفسها؛ يجب أن تعتاد على هذا الأمر، وتدع الطبيعة تقوم بدورها وتعلمها مرة أخرى أن تصبح أمًا، أو ربما تكون قد ارتكبت جرماً وخطيئة بمجرد تمنيتها ألا تصبح أمًا مرة أخرى، ستحمل هذا الفكر بداخلها طول عمرها؛ فكلما تذكرت هذا الأمر، ينغرس ظفر حاد عميق بداخلها. شعرت بألم آخر حاد، أجبرها على الجلوس والتنفس بعمق. انضمت «فيتوريا» لها فيما بعد.

- عمتي؟

- الألم الذي يأتي للنساء.

لم تبلغ «فيتوريا» بشكل كامل بعد، لكنها تعلم الألم الذي تعانيه عمتها.

- ابق هنا يا عمتي وسوف أجهز كل شيء.

«فيتوريا» فتاة ذكية وواعية؛ تفهم ما حدث بين عمها «باولو» وعمتها «جيوستينا» في غرفة نومهما، وسمعت الأصوات التي صدرت من وراء باب حجرة نومهما. هناك شيء واحد تعلمه «فيتوريا» جيداً؛ أنها لا تريد أن يأمرها أي رجل مثل عمها «باولو»، إنها تريد زوجاً يحترمها، يعطي لها المجال كي تتحدث وتعبر عن نفسها، ولا تعير انتباهاً لعمتها عندما تقول إن الأمور تسير هكذا في الواقع.

بعد ذلك بقليل، تجمعت كل العائلة حول مائدة الطعام. هبت موجة من البرد القارس واقتحمت الحجرة من الباب، خفضت درجة حرارة الغرفة أكثر فأكثر. تناول الجميع طعامهم بسرعة، ودفنوا رؤوسهم بين كتفيهم من شدة البرد، بينما قام «إجنازيو» و«باولو» بارتداء معطفيهما وخرجا؛ أحدهما توجه إلى مكتب الجمارك، والآخر إلى متجر العطارة.

توقف «باولو» فجأة ورجع إلى البيت. اقترب من زوجته وربّت عليها، لم تستجب له «جيوستينا» بأي شكل من الأشكال، وراقبته وهو يخرج من البيت.

حان وقت القيام بالواجبات المنزلية، فهناك أرضية يجب أن تكس، وأسيرة يجب أن ترتب، وخضروات يجب أن تجهز، ومقالٍ يجب أن تدعك وتنظف. جاءت «فيتوريا» وهي تحمل إناء من الماء من النافورة، كانت يداها زرقاوين شاحبتين من شدة البرودة. اعترضها «فينسينزو»، لأنه كان يريد الخروج. ازداد شعور «جيوستينا» بالألم، وبدأ وخز الألم في بطنها يزداد، وتمنت أن تجلس لترتاح لكنها لم تستطع، فهناك تل من الغسيل يجب أن يغسل ويُغلى في الصودا. بدأ العرق يتصبب

منها وينساب في ظهرها وبين ثدييها. وفتت فجأة «فيتوريا» في مكانها، وهمست وهي تضع يدها على فمها:

- عمتي، ما الذي أصابك؟

نظرت «جيوسبينا» إلى الأسفل، كانت هناك بقع داكنة اللون على تنورتها.

- ما الأمر؟

فجأة لاحظت أن الحرارة التي تشعر بها بين رجليها لم تكن عرقاً بل كانت دمًا. استحال ارتباكها إلى شعور بالرعب، بالكاد استطاعت أن تهمس وتقول:

- فليذهب أحدكم لينادي القابلة.

وسقطت مغشياً عليها بعدها على الأرض.

جرت «فيتوريا» على البلاط المغطى بمياه المطر حافية القدمين متجهة نحو «سان سيياستينو»، انزلقت على الأرض ولكنها قامت من جديد وتابعت السير، كانت تبحث عن «ماريوشيا»؛ القابلة التي أتت من «بانيارا»، والتي كان «باولو» يطلب من السيدات والفتيات أن يذهبن إليها من أجل الحصول على الأعشاب. وصلت الفتاة الصغيرة إلى بيتها ونادت عليها:

- عمتي «ماريوشيا»، عمتي «جيوسبينا» تنزف بشدة!

كانت الفتاة تصرخ وهي تخشى أن تنتزع منها عمتها؛ آخر فرد في العائلة التي تركتها.

- لقد سقطت مغشياً عليها. تعالي، تعالي معي بسرعة!

نظر وجه مغطى بغطاء الرأس من النافذة وقال:

- من؟ من هناك؟

- السيدة «جيوسبينا»؛ زوجة السيد «فلوريو»، تعالي!

- يا إلهي! أيتها القديسة «أنا» الحبيبة!

اخنقت المرأة لبعض الوقت في الداخل. سمعت صوت ضوضاء على السلم، وبعد بضع ثوانٍ، كانت «ماريوشيا» تقف أمام «فيتوريا» تحمل في يدها سلة.

- اهدئي يا فتاة، وأخبريني ما الذي حدث بالضبط.

- لقد كنا على وشك القيام بتنظيف الغسيل عندما شاهدت بعض بقع الدم الداكنة على تنورتها.

في تلك اللحظة، سمعت صوتاً أوقفها في مكانها:

- فيتوريا! ما الذي تفعلينه هنا؟

- عمي «إجنازيو»!

ألقت الفتاة بنفسها بين ذراعيه وانفجرت في البكاء.

- ما الذي حدث؟

أخبرته «فيتوريا»، وعند سماعها أصبح وجهه شاحباً:

- لكن، هل كانت حاملاً؟

هزت الفتاة رأسها وقالت:

- لست أدري، أنا لا أعلم أي شيء يا عمي.

أمسك «إجنازيو» بيد ابنة أخيه وضمها إليه وغطاها بمعطفه:

- «ميشيل»، خذ البضاعة إلى المخزن، وأخبر «باولو» عندما يعود أن يأتي إلى البيت على الفور، هيا اذهب!

وهرعوا جميعًا إلى "بيانوسان جياكومو".

سبقتهما "ماريوشيا" إلى البيت. عندما وصلا، وجداها جالسة على ركبتها بجوار "جيوسبينا" التي كانت مستيقظة وتبكي بهدوء وتتورتها مرفوعة إلى فخذها. أتى صوت "فينسينزو" من الغرفة المجاورة وهو يصرخ من الخوف. كانت هناك بقعة دم كبيرة على الأرض.

همست "جيوسبينا" في أذن "فيتوريا":

- اذهبي وهدئي من روع "فينسينزو".

ذهبت الفتاة على الفور، ولكنها كانت مذهولة من كمية الدم الموجودة على الأرض. عندما رأى الطفل "فيتوريا"، توقف على الفور عن البكاء. نظرت "ماريوشيا" إلى الأعلى وقالت:

- هل أنت هنا بمفردك؟

- إن أخا زوجها، يجب...

لوححت بيدها:

- لا يهتم، تعال، حتى وإن كنت رجلاً، ساعدني على حملها؛ علينا أن نضعها في الفراش.

لكن "إجنازيو" لم يستطع أن يتحرك من مكانه:

- هل كانت حاملاً حقاً؟

أومات القابلة برأسها. أخذت قطعة من القماش من سلتها، وبدأت في تنظيف "جيوسبينا" التي أطلقت تهيبة من شدة الخجل والإحراج، وأخفت وجهها في ثنية ذراع "ماريوشيا".

- هذا صحيح، ما كان لها أن تجهد نفسها بهذا الشكل، ليس هناك ما يمكن فعله الآن.

ألقي "إجنازيو" معطفه وحمل "جيوسبينا":

- اذهبي أنت وأنا سأحملها.

قالها بنغمة لا تحتمل أي رفض.

همست "جيوسبينا":

- لكن ملابسك ستتسخ.

أمسكت "جيوسبينا" بقميصه وقالت:

- إنه أنت دائماً من يقف إلى جانبي، أنت وليس هو.

قالت بصوت خافت لدرجة أنه اعتقد أنه لم يسمع جيداً ما قالت، لكن الأمر لم يكن كذلك، وهذا ما أضاف المزيد من الحزن والأسى إليه. وضعت "ماريوشيا" بعض الملايات والقوط على الفراش لكي تحمي المرتبة من بقع الدم، لأن دورها الآن أن تنهي ما بدأته الطبيعة. همس "إجنازيو":

- ألا يعلم "باولو" بهذا الأمر؟

هزت رأسها وظلت تبكي، وكل ما فعله هو أنه ظل يهمس بالاعتذار في شعرها الذي كان مبللاً بالعرق. ساعدها على الاستلقاء على الفراش وهمَّ بعدها بالرحيل، ولكنه عاد وأمسك بيدها وقبَّل راحتها، وخرج قبل أن تلاحظ القابلة الجحيم المستعر بداخله.

عندما عاد "باولو" إلى البيت، كانت "فيتوريا" جاثمة على ركبتها تنظف الأرضية من أثر الدماء.

قالت بصوت خافت:

- عمتي في الغرفة المجاورة.

وغمست يدها في الماء الملطخ بالدم، تعتصر الخرقة وتمسح الأرض مرة أخرى. ذهب "باولو" إليها:

- ما كان عليك أن ترهقي نفسك وتقومي بمثل هذه الأعمال.
ردت عليه بعنف:

- ومن غيري سيقوم بها إذا لم أقم بها أنا؟
لاحظ "باولو" فجأة إلى أي حد نضجت "فيتوريا"، لقد أوشكت على أن تصبح امرأة، إلا إنها لم تدعه يكمل:

- لقد كانت تعاني منذ عدة أيام؛ تنقياً ومتعبة طوال الوقت، ألم تلاحظ ذلك؟
كانت نبرتها جادة وحادة وهجومية. تلعثم "باولو" وهز رأسه، وفجأة، طوق الشعور بالذنب قلبه، واعتصره مثل القبضة؛ الآن فقط فهم العديد من الأشياء، مثل تمرداها ورفضها لمحاولاته ليلة أمس. راقبته "فيتوريا" دون أن تتطرق بكلمة واحدة، وقامت وهمت بالذهاب لإلقاء الماء المتسخ خارج البيت، ولكن الحزن اختفى من عينيها المظلمتين الهادئتين، نعم؛ وحل محلها العطف والرحمة، وحتى التفهم لموقفه.

- أين "إجنازيو" و"فينسينزو"؟
أمسكت بأحد الأطباق وبدأت في تقطيع الخضروات، لكي تصنع مرق اللحم الذي يطهونه للسيدة التي أنجبت طفلاً.

- عمي "إجنازيو" أخذ "فينسينزو" للخارج، حتى لا يعيق "دونا ماريوشيا" عن أداء عملها.
أصبح صوتها أكثر رقة ورفقاً:

- اذهب إلى عمتي، يجب ألا تترك وحدها الآن، المسكينة، وإلا ستعتقد أن الخطأ خطأها.

- بل هو خطئي أنا، لأنني لم ألاحظ أنها لم تكن على ما يرام.
على عتبة باب الحجرة، نظر إلى زوجته بندم كبير؛ لو كان يعلم أنها حامل، ما كان أصرَّ على فعل ما فعله ليلة أمس. اقترب "باولو" منها بحذرٍ شديد:

- كان عليك أن تخبريني.

قالها بلا تعنيف، فقط بشعور بالمرارة والحزن اللذين حطماه. ولأول مرة تمتلئ عيناها بألمها، وينال منه الشعور بالذنب. تساءل "باولو":

- لماذا لم تخبريني؟

انهمرت الدموع الغزيرة من عيني زوجته وجرت على خديها، كأنها تسير في ممر محدد. جلس إلى جوارها على الفراش.

- لا تبكي، ربما كان ولدًا آخر، في الحقيقة لم يكن الأمر مقصودًا.

بقيت "جيوسينا" في مكانها بلا حراك تحملق بالجدران، لم ينطق "باولو" بكلمة واحدة عن الغفران والسماح، ولا اعتذار واحد خرج من فمه، على العكس من شقيقه "إجنازيو".

خرجت "ماريوشيا" من الغرفة. كان الجو باردًا، و"لاكالا" أشبه بمدينة مهجورة، إلا من عدد قليل من الحماليين والبحارة النشطين المتجولين حول السفن، كانت الرياح تصفع جدران المدينة ومصاريع النوافذ بقوة وعنف، وتلوي الغسيل بقوة ليجف.

- المركب يقف هناك!

أشار "فينسينزو" لإحدى السفن وهو متشبث بعنق عمه "إجنازيو". لفه "إجنازيو" بمعطفه كي يحميه من عاصفة "ترامونتانا". تم إغلاق كنيسة "بياديجروتا"، وحتى الشحاذون اختفوا من أمامها من شدة

البرد. قام أحد الخفر بنوبة الحراسة الخاصة، ودار حول الكنيسة ممسكا بقبعته وإلا طارت من شدة الريح.

- هذا يسمى قاربًا، لقد أتينا إلى هنا على متن أحد هذه القوارب عندما كنت صغيرًا.

- صغيرًا إلى أي حد؟

- صغيرًا جدًا، لدرجة أننا كنا نملك في سلة.

تلوَّى "فينسينزو" فأنزله "إجنازيو"، وذهبا إلى الحافة الصخرية للعمود ونظرا إلى الأسفل نحو المياه الداكنة المضطربة والمتقلبة. كانت قمة الهلب مغطاة بالطحالب ومغموسة في ظلام الماء.

- ما عمق البحر؟

أجاب "إجنازيو"، وهو يمسك بيده الصغيرة:

- عميق جدًا.

كان شعر "فينسينزو" داكنًا، ويمتلك عينين واثقتين وشعرًا أشقر مثل "باولو".

- أكثر مما تتخيل. هل تعرف ماذا يوجد خلف البحر هناك، حيث لا تستطيع أن ترى؟ هناك أرض أخرى.

- نعم، أعرف، توجد "بانيارا"، تخبرني أمي بذلك دومًا.

- لا، ليست "بانيارا"، هناك ما هو أبعد من "بانيارا"؛ فرنسا وإنجلترا وإسبانيا، وحتى هناك ما هو وراءهم، مثل الهند والصين وبيرو، وهم يمتلكون توابل مثل التي أبيعها أنا ووالدك، وحرير وأقمشة وأشياء لا يمكن لك أن تتخيلها.

ملأت الدهشة والعجب وجه الطفل. كانت يده ترتجف في يد عمه من شدة البرد. أراد أن يجري لكن "إجنازيو" أمسك به بشدة لأن الأرض زلقة، وكان يخشى عليه من التزحلق والسقوط في الماء.

- ما هو الحرير يا عمي "إجنازيو"؟

ما زال حرف "ز" الذي ينطقه غير مضبوط.

- الحرير... الحرير، إنه قماش غالي الثمن يرتديه الأثرياء.

كان للكلمة اكتشاف جديد عند الطفل، أخذ يرددها بشفتيه:

- الحرير... وأنا أيضًا أريد أن أرتدي الحرير يومًا ما، وأصنع فساتين من الحرير لأمي كذلك.

التقطه "إجنازيو" مرة أخرى. شم الطفل ملابسه واستنشق عبق التوابل العالق بها ورائحتها الدافئة التي تشعره بالأمان. سارا معًا في اتجاه "فيا دي ماتيريسي".

- إذا عليك أن تعمل باجتهاد، فهذه الأشياء تتكلف الكثير من المال.

لم يكن يجد "إجنازيو" أي عوائق في التحدث لـ "فينسينزو" بهذه الطريقة، فافتى ذكي، ذكي جدًا.

أجاب "فينسينزو" بعد توقف طويل، بطريقة غريبة وبرقة، وكأنه وعد:

- سأفعل يا عمي «إجنازيو»، سأفعل.

استمر باب متجر التوابل في إصدار هذا الصرير المزعج، على الرغم من وجود طاولة جديدة للبيع وجرار جديد للأعشاب والتوابل. تمت إعادة دهان المصاريح. يحمل المتجر اسم "فلوريو" فقط.

حل شهر فبراير لعام 1803 ولم تدم شراكة "باولو باربيرو" و"باولو فلوريو" لأكثر من شهر، فبعد المعركة الأخيرة التي وقعت في الميناء عند مكتب الجمارك، وقعت مشادة أخيرة بينهما منذ عدة أسابيع، كانت بسبب شحنة من العاج المصقول والقرفة التي أحضرها "باربيرو" إلى الميناء.

ذهب "باولو" إلى "لاكالا" لأنه علم من "ميشيل" أن زوج أخته وصل إلى الميناء، لكنه لم يأتِ إلى المتجر كعادته، وهنا وجده "باولو" يتحدث إلى أحد البائعين يُدعى "كوراتولو"، عقد اتفاقاً معه وباع له الشحنة مقابل مبلغ زهيد من المال.

بعد أن أتم "كوراتولو" الصفقة مع "باربيرو"، ذهب دون وداع وقد كسى الخجل والإحراج الشديديان وجهه. لم يكن بمقدور "باولو" في هذا الموقف أن يفعل شيئاً سوى أن يشاهد بضاعته وهي تذهب معه، ولكن بعد ذلك بقليل، هجم على "باربيرو".

- ما الذي فعلته بحق الجحيم؟ أتعطي كل العاج الخاص بنا لمنافسينا؟
لم يصدق "باربيرو" نفسه.

- وما الذي يجب علينا أن نفعله الآن؟
- بضاعتنا؟ هل هناك شيء يشبه علاقتنا؟
- لقد كانت شحنتنا، لماذا فعلت ذلك؟ ومن أجل ماذا؟
- أليس هذا ما فعلته أنت؟

أجابه "باربيرو" بصوت بغيض.
- أنت لم تكترث لما أريده، وأنا كذلك لن أكترث لما تريده.
وربت على النقود الموجودة في جيبه.
- وأنا أحتفظ بها.

تركه "باولو"، وعاد إلى البيت وقد تحطم كبرياؤه. أخبر "إجنازيو" و"جيوسبينا" بكل شيء، ومنع "جيوسبينا" من الاتصال بـ"باربيرو"، و«ماتيا» من بينهم.
تم فض الشراكة التي كانت بينهم حتى قبل أن يتم توثيقها؛ اتفق الثلاثة على بيع القارب وجزء من البضاعة الموجودة في المخزن، وقاموا بتقسيم الأموال فيما بينهم، ووقع الثلاثة على الورقة دون أن ينظر أيٌّ منهم في وجه الآخر. اشترى «باولو» متجر العطارة وتنازل له «باربيرو» عن «فيا دي ماتيريسي»، وذهب ليبحث عن مكان آخر في «فيا دي لاتريني» المجاورة لمخازن بعض ممن قدموا من «بانيارا».

لقد كانت حرباً حقيقية ما زال كل منهم يحمل جراحها في صدره؛ ما زال «باولو» يعاني من ذلك الشعور بالغضب المكتوم الذي حل محل الغضب المستعر في صدره.
مشي «فينسينزو» خلف أمه، ووقف ليتلفت حوله؛ كان مأخوذاً بكل شيء، يود أن يلحس حلوي العرقسوس، ولم لا وقد أصبح الآن قادراً على المشي والجري بنفسه؟ يبدو العالم من حوله هائلاً وضخماً. كان على وشك أن يلطخ نفسه بالطين عندما جذبته «جيوسبينا» بشدة:

- انتبه! لماذا لا تنظر إلى موضع قدمك؟ أنت الآن في الرابعة من عمرك ولم تعد طفلاً.
نظر إليها وقد شعر بالندم وأنه مخطئ، وعندما رأته أمه على هذه الحالة، ذابت في تنهيدة من الحب، فما زال «فينسينزو» هو الحب الوحيد في حياته. سمع الاثنان ثلاث لهجات مختلفة من حولهما؛ لهجة فلاح يحاول أن يبيع شحنة من البرتقال لتاجر إنجليزي يرتدي معطفاً طويلاً ورسمياً وحذاءً طويلاً. كانت العربية تسد طريق المارة وبدأت الناس تشتكي.
- لا، لن أشتري هذا البرتقال؛ إنه عفن.

- ماذا تريد؟ إنه جيد، انظر كيف تبدو رائحته حلوة وجميلة.
انتقى الفلاح واحدة وأراها للرجل الإنجليزي، لكن الأخير ظل يعترض، وأشار إلى حفنة من ذباب الفاكهة الذي كان يحوم حولها. تدخل في المشهد أحد المتابعين وهو بحار «نبوليتاني»، رفع يديه إلى السماء وقال:

- هل تعتقد أن الناس أغبياء لكي تستغلهم بهذه الطريقة؟ هناك الكثير من ذباب الفاكهة يحوم فوق البرتقال.

أصبح ميناء «باليرمو» يعج بالناس الذين حضروا من كل بقاع الأرض والذين يتحدثون لغات مختلفة وجديدة، منذ اللحظة التي قرر فيها الفرنسيون السعي للسيطرة على «البحر التيراني»، والتي ولى عهد السلام والأمان فيها. ورداً على ذلك التحرك، أعلن البريطانيون شن الحرب على الفرنسيين مرة أخرى، ما دفع «نابليون» إلى استئناف أعماله العدائية ضد السفن المبحرة في المتوسط، ومنذ ذلك

الحين لم تعد السفن التجارية آمنة، والبريطانيون الذين اعتادوا أن يكونوا سادة البحار تم حصارهم في أحد الأركان. تحولت «باليرمو» وصقلية إلى ميناء مفتوح يستقبل جميع القادمين من كل حذب وصوب، لأنهما كانا بعيدين عن سطوة الفرنسيين، وفوق كل هذا، وفي مركز البحر المتوسط، كان لهذه التطورات الجديدة على الساحة السياسية أبلغ الأثر على مدينة «باليرمو» التي أصبحت مركز جذب للتجار والبحارة من جميع أنحاء أوروبا، وكذلك للتوابل الفرنسية التي كانت تأتي من موانئ إيطاليا الشمالية، والتوابل الإنجليزية التي تأتي من جزيرة «مالطا»، لكن هذا ليس كل شيء، فهناك الكثير من البضائع التي تأتي من تركيا ومصر وتونس وإسبانيا.

كانت «جيوستينا» لا تعرف الكثير عن كل هذا، فهي ليست سيدة أعمال وليس لها أي دراية بشئون التجارة كما كانت تخبر «فيتوريا» دائماً، التي تصر على معرفة كل ما يدور وتعذب كذلك «إجنازيو» بالأسئلة.

توجهت «جيوستينا» إلى متجر العطارة، رغم أنها رأت «باولو» يتحدث من وراء الطاولة إلى أحد النبلاء الذين يرتدون ملابس مصنوعة من القطيفة. أبعد بقليل؛ تقريباً خارج الكنيسة، سيارة مدهونة باللون الأخضر والذهبي.

سارت الأم وابنها. لَوْح "باولو" لـ "فينسينزو" بيده لكي يلتزم الصمت، واستمر في حديثه مع الزبون. - يتميز لحاء الخشب الذي نبيعه بأنه شديد النقاء والجودة، لأنه يأتينا مباشرة من بيرو، ونحن نزود أغلبية الصيدليات الموجودة في "باليرمو" بكل احتياجاتها منه، شم الرائحة.

أخذ حفنة من اللحاء الداكن المفتت ليعطيه للرجل ليشمه، فسقطت بعض الرقائق على سطح طاولة العمل. جعد الرجل أنفه وقال:

- يالها من رائحة قوية!

- هذا لأننا نخزنها بالطريقة الصحيحة، لهذا السبب تحتفظ برائحتها القوية.

خفض "باولو" صوته وقال:

- هل تحب أن أخلط لك بعضاً منها مع الحديد؟ هل أنا على صواب هكذا؟

- بالتأكيد، أنت تعلم كيف تصير مثل هذه الأمور، فما زالت روعي تتمتع بشبابها، ولكن جسدي لا يتواكب مع رغباتي ولا يعينني عليها، فأنا لم أعد أتمتع بالقوة ذاتها التي كنت عليها، ولك أن تتخيل إلى أي مدى أصبح الأمر مخزياً عندما تضطر إلى التقاعد بسبب بعض الظروف.

ختم الرجل كلامه بإيماءة من شدة الحرج.

- لا بأس، سوف يعيد لك الحديد قوتك السابقة، وسوف نضيف له بعض حبوب الشمر وقشر الليمون لكي يحميك من الحمى. هل أضيف ذلك لفاتورة الأسبوع الماضي؟

- لا، لا داعي لذلك.

مرت لحظة من الإحراج تبعثها لحظة من العزة والكبرياء.

- ها هو ثمن البضاعة التي أخذتها منك حديثاً؛ بهذا لا يتبقى أي شيء لم يسدد.

لمعت النقود في يده.

- ها هي النقود. أعلم أنه يمكنني الاعتماد دائماً على فطنتك؛ أنا أتى إلى هنا بدلاً من الذهاب لرفاقتك المؤهلين بشكل أفضل، لأنني أعرف أنك شخص كتوم.

- ثق فيّ.

كان "باولو" رجلاً مهذباً، ولكنه ليس صاعراً ذليلاً، فنبلأه "باليرمو" بالنسبة له أناس غرباء متعلقون بواجهاتهم الاجتماعية كالظفر في اللحم، وعلى الرغم من أنهم غارقون في الديون من رؤوسهم حتى أخامص أقدامهم، فإنهم يصرون على ارتداء ملابس من قماش القטיפه والمجوهرات الثمينة، ويبيعون منازلهم وممتلكاتهم التي لم يعودوا قادرين على الاحتفاظ بها، ويبدلونها مثل حزمة من الأوراق المزورة.

انتقى "فينسينزو" هذه اللحظة كي يحرر نفسه من أمه:

- أبي، أبي.

نادى على والده، وتشبث بحافة طاولة البيع بيديه.

التفت "باولو" لطفله وبدت على وجهه علامات الانزعاج:

- ليس الآن يا "فينسينزو".

انزقت أصابع الطفل من على الخشب، وذهب خلف طاولة العمل، وتسلل إلى داخل الحجرة الخلفية حيثما يعلم أنه سوف يجد "إجنازيو". وبالفعل وجده هناك منكباً على دفاتر الحسابات.

- عمي!

- ما الذي فعله هنا؟

أجلسه على الطاولة، ونقل المحبرة بعيداً عنه واستمر في الكتابة، كان يمرر طرف إصبعه على أكوام الفواتير المكدسة أمامه.

- هل أتيت مع أمك؟

- نعم.

استمر الطفل في لعق حلوى العرقسوس، بينما يمرح قدميه في الهواء.

- ما هذه الرائحة الذكية التي تعبا المكان؟ هل هذه رائحة "القرنفل"؟ استنشق الهواء، ثم قال:

- القرنفل؛ نعم بالفعل، لقد وصلتنا أمس شحنة منه، ومع ذلك ما زالت رائحتها تعبا المكان.

وضع "إجنازيو" يده على ركبته وتحولت الحركة إلى عناق.

- إلى أين ذهبت أمك؟

- أحضروا ورقة، كان بحاراً أتى بها، حزنْتُ بشدة عندما رأتها.

- ورقة؟ هل تعني جواباً؟

- نعم.

عند هذه النقطة، نظر "إجنازيو" إلى الأعلى، وإذا باضطراب وألم يسري في ظهره.

- إلى من أخذت أمك الجواب ليقراء لها؟

- لإحدى الفتيات في "بلازو فيتاليا"؛ تلك التي تعلم كل شئون سيدتها وتخبرها للجميع وللعمة "ماريوشيا".

نفخ "إجنازيو" في الهواء في تهيدة واحدة بعد أن كتم أنفاسه وأفكاره لبعض الوقت.

لقد مرَّ على حادثة إجهاض «جيو سبينا» أكثر من سنتين، ومنذ ذلك الحين وهو يرى أن الهوة تتسع بينها وبين أخيه أكثر يوماً بعد يوم، صحيح؛ قد يبدو ظاهرياً أنهما يعيشان معاً لكن حياتيهما نادراً ما تتلاقى، كأنهما لا ينتميان لبعضهما بعضاً ولا يرغبان في بعضهما بعضاً كما لو كانا غربيين يتشاركان المنزل نفسه.

بمرور الوقت، خضعت «جيو سبينا» واستسلمت للأمر الواقع ولحياتها الجديدة في «باليرمو»، ولكن ببطء، وازداد شغفها بـ«ماريوشيا» التي أصبحت أقرب ما تكون لصورة الصديقة التي رسمتها «جيو سبينا» في مخيلتها. وصلت إلى «باليرمو» بعد ذلك فتاتان من «كالابريا» من بينهما «روز»؛ الفتاة التي كان «فينسينزو» يتحدث عنها. يعتقد «إجنازيو» و«باولو» أنها تحب النميمة كثيرًا، في الواقع، «باولو» لا يحبها.

- إذا ما الذي حدث؟

ترك الطفل حلوى العرقسوس، ورسم على وجهه تعبيرًا جادًا وتأنبيًا:

- ثم انفجرت في البكاء، وسحبتي طوال الطريق إلى هنا كي تتمكن من التحدث إلى أبي. توقف «إجنازيو» لبرهة، علق الريشة التي كان يكتب بها في الهواء للحظة قبل أن يضعها مرة أخرى في المحبرة. ليس من طبع «جيو سبينا» أن تبكي بلا سبب، أنصت «إجنازيو» لما يجري في الخارج، وعندما سمع «باولو» يودع زبونه، سمع بعد ذلك مباشرة صوت زوجة أخيه. أشار لابن أخيه كي يهدأ، واقترب من المدخل وظل واقفًا خلف الباب. قال «باولو»:

- ما الأمر؟

أخرجت «جيو سبينا» ظرفًا وسلمته له:

- إنه من «ماتيا»، إنها حقًا في حالة بائسة وتطلب منا أن نساعد زوجها. إنه موجود هنا في المدينة، وهو مريض ووحيد وليس هناك أحد ليرعاه، ولقد حضروا إلى «باليرمو»... غرق المتجر في حالة من الصمت الرهيب، وبقيت يد «جيو سبينا» ممددة لفترة طويلة قبل أن يقرر «باولو» أن يلتقط الخطاب، وما إن أخذه من يدها إلا ومزقه إلى قصاصات صغيرة.

- لكنك حتى لم تقرأه.

تلعثمت «جيو سبينا» لأنها شعرت بالضعف أكثر من الذهول مما فعله «باولو».

- لكنها في النهاية أختك!

أدار «باولو» ظهره لها:

- كانت أختي حتى اختارت أن تأخذ صف ذلك المحتمل الذي قررت أن تتزوجه.

فتحت «جيو سبينا» ذراعيها وقالت:

- أقول قررت أن تتزوجه؟ وهل كان أمامها خيار آخر؟! لقد كانت في الرابع عشرة من عمرها حينذاك، عندما قرر أبوك أن يزوجه لـ«باربيرو» ليتخلص منها، وهل للمرأة حق الاختيار في الزواج؟ هل كنت أستطيع أن أرفض حينما أتيت بي إلى هنا رغماً عني؟ لم يتوقع «باولو» منها أن توجه له هذا الاتهام الصريح.

- هل ما زلتِ تلقين باللائمة عليّ حتى الآن؟ لقد تحسنت ظروف معيشتنا، أم أنكِ عمية لم تلاحظي؟ هل أردتِ البقاء في «بانيارا» كي تصبحي فلاحاً؟ وهنا؟ ألا ترين أننا نجني الكثير من المال؟ من أين تعتقدين أن ملابسك الجديدة والخزانة الجديدة التي صنعتها لك قد أتت؟

- بالطبع، بدليل أننا ما زلنا نعيش في حظيرة الخنازير تلك؛ المسماة بالمنزل.

- سوف ننتقل إلى منزل جديد قريباً!

- متى ذلك؟ فأنا أشعر أنني خادمة في بيتي!

- انتبهي لما تقولينه وإلا أقسم بالرب سأضربك، لم أضربك من قبل ولكن...

أحكمت «جيو سبينا» قبضتها قبالة فخذها.

- "ماتيا" لا شأن لها بما دار بينك وبين زوجها، وشئت أم أبيت فسيفي "باربيرو" زوج أختك، لقد سبق وعملت معه وتقاسمتما معًا الطعام والعرق، والآن عليك اللعنة! ألا يمكنكما أنتما الاثنان أن تحاولا أن تسامحا بعضكما بعضًا؟ من أجل أختك المسكينة؛ إنها أختك يا "باولو".
رمقها "باولو" بنظرة جمدها في مكانها، وقفته، حركاته، وجهه، كل شيء قام به ينطق بحالة الاستياء الذي لن يتزعزع شعوره به، حتى إن "إجنازيو" نفسه شعر بحجم الغضب الذي يسيطر عليه:

- إنه خطأه هو؛ إذا خنتِ ثقتي مرة واحدة فإنها كعشر مرات. هل تعرفين ما الذي أراده مني "باربيرو"؟ ها! أموالتي التي انقسم ظهري في الحصول عليها، هل هي دون عناء؟ عرقي وشقائي؟ أنا وأخي، ألا تتذكرين ما الذي فعله بنا؟
يزداد السم الذي يسري في عباراته كلما رفع صوته.

- لقد أوقع بيننا وبين موردينا وجعلنا نتشاجر معهم، وأخبر التجار الآخرين أننا تابعون له ونعمل لديه، وأن علينا أن نخضع له، أنا أعمل لدى "باربيرو"؟ أنا من حول هذا المكان إلى ما هو عليه الآن وأوصله لهذه المرحلة.
شعرت "جيوسبينا" بالخوف منه الآن، وعادت بضع خطوات إلى الوراء ناحية الأرفف.
- لكن أختك...

- كيف تجرئين على أن تطلبي مني قراءة جواب، كتبتة امرأة خانته رابطة الدم التي بيننا؟ من الآن فصاعدًا، جميعهم بمثابة الأموات بالنسبة لي ما دمت حيًا.
أصبحت "جيوسبينا" الآن محاصرة بين زوجها والأرفف.
- انتظري، لقد كانت جدتك تنتمي لعائلة "باربيرو". ماذا تقولين؟ هل أتيا ليطلبنا منك المعونة؟ من هذه اللحظة، أمنعك من أن تتواصلي مع أحدٍ منهم بأي شكل.
- "باولو"، كفى.

دخل "إجنازيو" إلى المتجر ووضع يده على كتف أخيه فهو يعرف كيف يهدئه. لم يستطع هو أيضًا أن يسامح "باربيرو" على فعلته؛ ليس فقط بسبب الألم والحزن الذي تسبب فيه لهما، ولا بسبب التلميحات التي كان يلقيها عليهما هنا وهناك بين التجار، والتي كادت أن تطيح بكل شيء حقاها، ولكن بسبب بُعد الهوة والشقاق والشرخ الذي أحدثه بينهما وبين أختها المسكينة. انتقلت عينا "جيوسبينا" الحائرتان من زوجها إلى "إجنازيو"، وما لبثت حتى جرت نحو "فينسينزو" وحملته وانطلقت به مسرعة، وكان آخر شيء لمحاه منها هو طرف معطفها وهي تصفع الباب.

- لماذا صببت كأس غضبك على زوجتك؟ أنت تعلم جيدًا أنها و"ماتيا" تحبان بعضهما بعضًا.
ابتسم "باولو" بمرارة:

- حب! لكنها لا يعنيه ما قاله وما فعلاه بزوجها.
ومرر أطراف أنامله في شعره ليخفي غضبه.

تمنى "إجنازيو" لو استطاع أن يحتضن أخاه ويُسِرِّي عنه ويسترضيه، لكنه كان يعلم أنه لا فائدة من ذلك، ف"باولو" متشبث بحنقه وغضبه. انحنى "إجنازيو" على الأرض ليجمع القصاصات الممزقة من جواب "ماتيا". رأى اسمها مكتوبًا على إحدى القصاصات، واسم "باولو" على القصاصات الأخرى، عندئذٍ شعر بأن عائلته تمزقت هي الأخرى إلى قصاصات صغيرة تشبه هذه الورقة الممزقة، وهو يقف عاجزًا لا يستطيع فعل أي شيء حيال ذلك.

عادت "جيوسبينا" للمنزل وهي بحالة نفسية سيئة ممسكة بيد ابنها الصغير بقوة وغضب، أما "فينسينزو" فظل يراقبها طوال الطريق من المتجر للبيت دون أن يحاول أن ينطق بكلمة واحدة، وشغل نفسه بلعق حلوى العرقسوس. وعندما وصلا إلى البيت، جرت "فيتوريا" نحوه لتحتضنه بشدة بين ذراعيها وتدغدغه وتغمر عنقه الصغير بالقبلات، بينما ألقّت "جيوسبينا" بنفسها على الكرسي من شدة التعب.

- لا جدوى!

كانت تقلد حركات "باولو" وهي تتحدث:

- لقد مزق جواب "ماتيا" أمامي، إنه لا يعبأ بعمتك يا "فيتوريا".

وضعت "جيوسبينا" يدها فوق فمها لكي تكبح جماح نفسها وتلجم لسانها، لأن المرأة الصالحة يجب ألا تتحدث بسوء عن زوجها خاصة أمام أقاربه، على الرغم من أنه لو كان الأمر بيدها لكانت صرخت كالمجنونة من شدة الغيظ. قطبت "فيتوريا" حاجبيها وارتسمت على وجهها علامات الحزن والأسى، وأنزلت "فينسينزو" على الأرض ليجري نحو غرفة النوم:

- لا تحزني يا عمتي، فما من شيء يمكنك القيام به حيال ذلك الأمر.

وأزاحت خصلة شعر كانت تغطي وجه "جيوسبينا" المرهق.

- هذا هو عمي "باولو" وهذه طبيعته، ولا تتسي أن عمي "باربيرو" جرحه بشدة، ويحق له التصرف بهذا الشكل لأن الجرح عميق وغائر.

لم تُجبها "جيوسبينا". ما الذي يمكن أن تعرفه "فيتوريا" عن شعور الإنسان عندما لا يجد شخصًا في الحياة يمكنه الوثوق به؟ وكيف لها أن تعرف كيف رحبت بها "ماتيا" وساعدتها في بداية حياتها مع "باولو"؟

أمام متجر آل "فلوريو"، توقفت عربة فارهة، من فرط ضخامتها سدّت الطريق أمام المارة داخل حي "فيا دي ماتيريسي"، الذين كانوا يعبرون بصعوبة بالغة عبر الممر الضيق الذي تركته لهم السيارة. تبعاً الهواء المحيط بالمتجر برائحة العطر الجميل المنبعث من داخل العربة؛ كان عطراً فريداً، مزيجاً من رائحة الفس وعبير بعض الزهور الرقيقة الناعمة. داخل المتجر، يجلس رجل ينتمي لطبقة الحرفيين، حضر خصيصاً لشراء الرصاص الأحمر ويتولى خدمته "ميشيل"، بينما كان "إجنازيو" يهتم بزبون آخر. وبعد لحظات، نزلت سيدة أرستقراطية جميلة وجذابة تنتمي لطبقة النبلاء من العربة لتدخل المتجر، كانت ترتدي معطفاً ملوناً مغطى بفراء الثعلب الثمين ليحميها من برد شهر مارس القارس، كشفت بشرتها البيضاء الناعمة عن سنوات عمرها الحقيقية التي تم إخفاؤها بمهارة بواسطة مساحيق التجميل. ابتسم «إجنازيو» في وجهها واستمر في طحن الشاي وغيرة الأيل والينسون.

لقد أصبح من النادر رؤية "إجنازيو" خلف طاولة البيع، تحديداً منذ أن فض شقيقه الأكبر "باولو" الشراكة مع زوج أخته "باربيرو" في عام 1803، ومنذ ذلك التاريخ، عمل آل "فلوريو" بازدهار مستمر، إذ اتسعت دائرة علاقاتهم وتوطدت مع الكثير من التجار النابوليين والإنجليز على حدّ سواء؛ في الواقع، لقد أصبح الإنجليز مورداً ممتازاً لهم، وأصبحوا يتمتعون بالسمعة الطيبة وبتقّة العملاء. وبمرور الوقت، ومع تراكم الخبرة، وجدوا أن من مصلحتهم ومصلحة العمل أن يقيموا علاقات طيبة مع التجار الصقليين الذين يحصلون على التوابل الجيدة من الفرنسيين، نظراً لهيمنة الفرنسيين على باقي أنحاء إيطاليا، فمذ أشهر قليلة فقط، تمكن "نابليون" من غزو مملكة نابلس، ودارت بين الجيشين معارك طاحنة انتصر فيها في النهاية القائد الفرنسي "نابليون"، وفرت أسرة "البوربون"

الحاكمة إلى جزيرة صقلية وهي تجر أذيال الخيبة لتطلب الحماية البريطانية. وبسبب الأحداث السياسية المتصاعدة، أصبح ميناء "باليرمو" آخر الموانئ في إيطاليا الذي لم يخضع لسطوة "نابليون"، ولهذا السبب تحديداً، أصبح ميناء "باليرمو" أهم ميناء للتبادل التجاري والمقايضة بين المشاركين في تحالف معاداة الفرنسيين.

نجح الأخوان "فلوريو" بجهدهما في خلق كيان تجاري ناجح، يتولى فيه "إجنازيو" الشق الخاص بالإدارة والحسابات، بينما يتولى شقيقه الأكبر "باولو" شئون الزبائن والموردين، لكن "إجنازيو" ربما يعود من وقت لآخر إلى طاولة البيع عند غياب "باولو" أو عندما يحضر للمتجر بعض الزبائن المهمين.

- إن الحضور لمتجر كان دومًا أمرًا مدهشًا ومميزًا يا سيد "فلوريو"، فهو دومًا مملوء بالروائح المميزة القادمة من الأراضي البعيدة. بالمناسبة، أين "دون باولو"؟

- سيحضر شقيقي سريعًا بمجرد رؤيته لعربتك الشريفة، لقد ذكر لي أنك قد تكونين مهتمة بأحد المنتجات التي عرضها عليك في زيارتك السابقة.

أبدت السيدة النبيلة اهتمامًا كبيرًا بما ذكره "إجنازيو"، وأجابت:

- الكهرمان، أليس كذلك؟

أومًا "إجنازيو" برأسه واستمر في طحن الأعشاب في الهون.

- الكهرمان البلطقي النقي، الذي يأتي من سهوب آسيا ويوضع في مسابح وعقود. فجأة قطع حديثهما صوت صرير مفصلات الباب عند الفتح.

- سيدتي، مرحبًا بك.

حيا "باولو فلوريو" السيدة بانحناءة، ووضع صندوقًا مصنوعًا من الخشب والعاج على الطاولة.

- اعذريني على التأخير، لكنني كنت أبحث عن شيء يليق بك وبمقامك الرفيع.

مطت السيدة رقبتها بفضول كي تكشف عما بداخل الصندوق.

- إذن؟

- لنبدأ من الصندوق، فهو في حد ذاته جوهرة نفيسة، لكن هذا لا يساوي شيئًا أمام ما يحتويه.

فتح "باولو" الصندوق لينتشر بريق ذهبي على الطاولة.

- انظري، أليس جميلًا؟ إنه مناسب جدًا لك. هل تعلمين أن الكهرمان يعالج اضطرابات المعدة ويمد

الجسم بالطاقة؟

- حقًا؟

لمست السيدة الخرز بأناملها، ثم فجأة أبعدت يدها بعيدًا وتساءلت بدهشة:

- إنه دافئ.

- لأنه ليس حجرًا بل صمغ. يقول البعض إن هناك بريقًا من الحياة يسكن في لمعانه، ولكن اسمحي

لي!

مال "باولو" بعض الشيء إلى الأمام وقدم لها عقد الكهرمان.

- تفضلي يا سيدتي، فلتجربيه.

عندما ارتدته حول عنقها، أضاء ثوبها ببريق العقد. مررت السيدة أناملها على العقد لتلمس حباته

الرائحة بخفة وعيناها مملوءة بالإعجاب والانبهار، تبع حالة الانبهار رغبة شديدة لدى السيدة في

امتلاك هذا العقد الرائع.

- كم يبلغ ثمنه؟
عقد "باولو" حاجبيه واصطنع التحفظ، وفي النهاية نطق بالسعر.
فلوّتّ فمها وقالت:

- هذا جنون! سيعنفني زوجي لعدة أيام إذا دفعت لك هذا المبلغ الكبير مقابل الحصول على العقد.
إلا إنها ظلت تتلمس العقد بأناملها، وخفضت من نبرة صوتها وقالت بأسف ومرارة:
- لقد أضاع مهري على طاولة القمار، ولم يسمح لي حتى ولو بنزوة صغيرة.
- حسناً، ولكنك لا تتفقين أموالك على نزوة؛ أنت تشترين علاجاً لك، كالمقوي والمنشط الذي يحضره لك أخي. بالمناسبة، كيف حال الانتفاخ الذي كنت تعانين منه؟
- أفضل بكثير، لقد تحسنت بفضل الدواء الذي أعطيته لي، لقد كنت على صواب، لم يكن الأمر جلاً.
- أنا سعيد لسماح ذلك، هذا علاج قديم، أصفه فقط لصفوة عملائي. لو كان الأمر يستحق، لكنت أول من أرسل يطلب "دون ترومبيتا" من "بورتا كاريني" لك؛ إنه صيدلي ممتاز مثل زبائننا، وهو أحد الذين توقفوا عن شراء احتياجاته من التوابل والبحارات من "كانزونيري" وقرر أن يتعاون معنا.
كان "باولو" يفكر، لكن السيدة لم تكن منصتة له، لأن عينيها منشغلان بالبريق الذي يتقد من عقد الكهرمان. تنهدت بشدة وقالت:

- حسناً فليكن، سأترك لك عربوناً وخطاب نوايا، وسيأتي زوجي ليعطيك بقية المبلغ.
أخفى "إجنازيو" خيبة أمله بالسعال؛ المزيد من خطابات النوايا، والدفع بالتقسيت! بعض الصقاليين أثرياء ظاهرياً فقط، وألقابهم النبيلة لا تساوي قيمة الحجر الذي نقشت عليه. لم يندش "باولو" وقال:
- سأكون في انتظاره هنا.

ذهب "باولو" للغرفة الخلفية لكي يحضر الورق والمحبرة، في الوقت ذاته، كان "إجنازيو" قد سكب الأعشاب داخل زجاجة بها بعض الكحول، ثم حرك الخليط بقضيب من الزجاج ونادى على خادمة السيدة.

- اسمعيني جيداً؛ هذا المنشط يكفي لثمانية أيام، يجب أن تعطي سيدتك كأساً منه كل مساء بعد أن تصفيه، هل فهمت ما أقوله؟

أغلق "إجنازيو" غطاء الزجاجة بإحكام، وغطاها بقطعة من القماش الداكن. سلمها للخادمة بينما كانت سيدتها مشغولة بالتوقيع على خطاب النوايا. عدل "باولو" من صدريته وقال:
- من الجيد أن نحظى بعملاء لا يطلبون تخفيضاً في الأسعار.

كان "إجنازيو" يرتدي لباساً مشابهاً لما يرتديه شقيقه، فوق قميص أبيض ذي أكمام طويلة مشمرة حتى الكوع.

- أتمنى ألا يحدث "كافالير ألبرتيني" جلبته المعهودة كلما حضرت زوجته لشراء بعض الأشياء من هنا، ليشتكى بعد ذلك أنها تقضي على كل أمواله.

قرأ "باولو" خطاب النوايا الذي وقعته السيدة.

- يمكنه أن يقول إنه لم يعط لزوجته الحق في إنفاق مثل هذا المبلغ الضخم، هل تعرف ذلك؟
- وأكد لك أنه لن يفعل، لأن "ألبرتيني" ينتمي لفئة كتاب العدل؛ القضاة، ويمتلك فندقاً في "باجيريا" وسوف يدفع المبلغ المتبقي في النهاية، لأنه لا يريد أن يتعرض لأي إحراج.
نظر إلى أخيه وقال:

- لا تشمر أكمامك فنحن لسنا عمالاً.

لكن الطريقة المتدنية التي ينظر بها الناس إليهما ما زالت كما هي؛ كلاهما يعرف ذلك ولكن لا يعترفان بهذا صراحة أمام الآخر، ربما كان هذا هو السبب وراء اهتمامهما الكبير بديكور المتجر وملابسهما ومظهرهما الاجتماعي.

يعرف "إجنازيو" جيدًا حقيقة ما يقوله الناس عنهما، وما من شك أن هذا الأمر يؤلمه بشدة، فبعض الذكريات جروح مفتوحة لا تشفى أبدًا. تذكر منذ أسبوعين فقط أحد المواقف المؤسفة التي حدثت له أثناء وجوده داخل مكتب جمارك "ستيري" الكبير، ذي الغرفة المثلثة المفتوحة على فناء الدور الأرضي المربع، وأمام مكتب المحاسبة، حيث يتم الاحتفاظ بدفتر تسجيل التوابل وحسابات البضائع الواردة والصادرة، كان "إجنازيو" ينتظر كالعادة كي يمرر البضائع التي تم إنزالها من على ظهر السفينة مؤخرًا من مكتب الجمارك، ليذهب بعدها إلى مكتب كاتب العدل ليسدد قيمة الضرائب. في تلك الأثناء، توقف "إجنازيو" لتبادل أطراف الحديث مع شاب إنجليزي يُدعى "بن إنجهام" وصل مؤخرًا للمدينة "باليرمو"، لئسرّيا عن نفسيهما لحين أن يأتي دورهما:

- أعتقد أن مدينة "باليرمو" مدينة حيوية، لكن كيف يمكنني أن أصيغها لك؟ إنها فوضوية، هل تفهم ما أقصده؟

ابتسم "إجنازيو" ابتسامة مقتضبة:

- بالطبع أعني ما تقصده، لكن ليس من السهل عليك أن تعيش هنا، فأناؤكد لك من واقع خبرتي أنها مدينة ناكرة للجميل، أكثر من النساء؛ تنثني عليك وتتملقك في البداية ثم...

فتح دفتره ولوح به، ثم أكمل:

- ...تعدك بالكثير ولا تعطيك شيئًا في النهاية.

- نعم بالفعل، لاحظت هذا، وبالتالي يجب أن تكون حريصًا. ما التعبير المناسب؟ "انظر إلى المعطف دائمًا؟"

عبس وجه الرجل الإنجليزي، وهو يحاول أن يفهم معنى الجملة التي أطلقها "إجنازيو"، لكنه استطاع أن يستنبط معناها وحاول أن يكررها. انتابت الرجل نوبة من الضحك لأنه لم يستطع أن ينطقها بشكل صحيح.

- العبارة تعني "كن يقظًا"، أليس كذلك؟

فجأة، ملأ صوت صياح "كارميلو ساجوتو" الحجرة، وراه "إجنازيو" وهو يقفز من الطابور ويتجه مباشرة نحو مكتب كاتب العدل الذي حياه بكل تبجيل وتقدير. تذر بعض الواقفين في الطابور لكن لم يتجرأ أحد على الاعتراض، لم يُسمع سوى صوت تمتمات وهمسات البعض؛ أن "ساجوتو" هو زوج ابنة "كانزونيري" ولم يقف أحد لتحيته. بعد ذلك بقليل، أتى دور "إجنازيو". بمجرد إنهاء "ساجوتو" لإجراءاته وخروجه من مكتب المدير، بدأ في التهكم على "إجنازيو" والسخرية منه.

- انظر من يقف هنا؛ السيد "فلوريو" الأصغر!

وبدأ يحرك يديه بإشارات ساخرة من "إجنازيو"، وتفحص كل الموجودين معه بعينه.

- كيف حال العمل؟ أتبلون بلاءً حسنًا؟

- على ما يُرام، شكرًا لك.

- هذا صحيح، أنتم بالفعل تبلون بلاءً حسنًا.

اقترب "ساجوتو" من المكتب واطلع على الأرقام والحسابات:

- نعم، يا إلهي، كل هذه النقود!

سمع الموظف تعليقات "ساجوتو".

- آل "فلوريو" يعملون بجد واجتهاد، فلتخبر حماك أن يتوخى الحذر!
- ها ها، عليهم أن يتناولوا الكثير من الخبز والبصل قبل أن يصلوا المكانة حماي السيد "كانزونيري".
أضاف كاتب العدل:

- لا أقصد الإهانة بالطبع، فأنتم عائلة محترمة لا شك. ما زلت أتذكر والد حماك السيد "كانزونيري"؛
كان رجلاً مكافحاً ومجتهداً.

كان الجميع يتحدثون كما لو كان "إجنازيو" غير موجود، وكأن الأمر لا يتعلق به ولا بعمله وأمواله،
وكان وجوده بالنسبة لهم ليس له قيمة، فما كان من "إجنازيو" تقريباً إلا أن انتزع الإيصال من يد
الكاتب.

- هل انتهيت؟

لكن "ساجوتو" لم يكن له أية نية في تركه يذهب بسلام، على العكس، رفع صوته واعترض طريقه
ومنعه من الخروج.

- لكن أخبرني يا سيد "فلوريو"، كيف حال زوج أختك المريض؟ أقصد هذا الرجل القادم من
"بانيارا" الذي يعيش في حي "فيا دي لاتاريني"، واضطر لبيع كل ما يمتلكه بعد أن خسر كل شيء،
أليس لديك ما تقوله بهذا الشأن؟

بدأ بالضحك ضحكة جافة لها صوت حاد يشبه صوت حك المبرد في الحديد.

- حتى الحيوانات لا تتصرف هكذا.

استدعى "إجنازيو" العون من كل القديسين كي يحتفظ بهدوئه أمام هذا السيل من الإهانات:

- نحن بخير، أشكرك على اهتمامك، وأرجو منك ألا تتدخل في شئوننا، في النهاية أنا لا أتدخل في
كيفية تعاملك مع أقاربك.

انخفض حجم الجلبة والضوضاء والحوارات التي تدور من حولهما. تقدم "إجنازيو" بضع خطوات
لكي يخرج من المكتب، إلا إنه ما لبث أن عاد إلى الخلف:

- من تظن نفسك، أنت أيها الفلاح؟ من سيعلمني كيف تتصرف العائلة مع أفرادها؟ أنت أيها الكلب
الأجرب، أنت الذي تختار المال عندما يتعلق الأمر بروابط الدم! هل تعلم كم من النقود هنا؟
وأشاح برزمة من الإيصالات في وجهه.

- إن رزمة الإيصالات الموجودة في يدك لا تبدو في واقع الأمر أكثر مما في يدي، وفي نهاية
المطاف أنا وأخي من ندير هذا العمل الناجح، لكن كم عددكم أنتم؟ أربعة؟ خمسة؟ كم عدد من
سينشركون هذه الأموال؟ هذا بالإضافة إلى أنك لا تعدو كونك سكرتيراً عند السيد "كانزونيري"،
ولست صيدلاً مثلاً أبناؤه، عفواً فأنت مجرد رسول.

هربت الدماء من وجه "ساجوتو" من شدة الخجل، فلقد كان وقع الكلمات عليه شديداً ومدوياً، ثم فجأة
تحول وجهه إلى اللون الأحمر القاني من شدة الغضب، لأن كلمات "إجنازيو" الهادئة أصابته في
مقتل.

- اللعنة عليك! قد أكون رسولاً لحماي السيد "كانزونيري"، وهذا شرف كبير في حد ذاته، ولكن ماذا
عنك أنت وشقيقك؟ أنتما مجرد عاملين، ما زلت أذكر شكل أخيك وهو يكنس المتجر بنفسه.

ساد صمت عميق من كل المتواجدين في مكتب الجمارك وبدوا كأن على رؤوسهم الطير، كما بدأ
الحضور من وراء "إجنازيو" يتمتمون ويهمسون كثيراً.

- كل ما ذكره "ساجوتو" صحيح، هذان الفلاحان اللذان أتيا من "بانيارا" كانا في الأصل مجرد عاملين.

وقال آخر:

- الرب وحده يعلم من أين أتيا بكل هذه الأموال.

بجوار الباب، يقف تجار وبحارة وموظفون من كل شكل وصنف كأنهم كلاب ضالة ينتظرون عظمة، واللعب يسيل من أفواههم، ومستعدون لالتقاط القصة ونشرها في كل أرجاء "كاستيلامار" بعد تتميقها وتزيينها ببعض الأكاذيب كي تصبح ممتعة. شعر "إجنازيو" في خضم هذا البحر اللجّي بيد تمتد لتمسك بذراعه ويقول صاحبها:

- هل انتهيت يا "دون إجنازيو"؟ لأن دوري حان.

التف "إجنازيو" ليتعرف على صاحب هذا الصوت، ففوجئ بأنه الرجل الإنجليزي "بن إنجهام" الذي كان يتحدث معه منذ قليل.

- أنا مدين لك بخدمة.

تمتم "إجنازيو" بهذه العبارة عندما خرجا معًا من مكتب الجمارك.

- سوف تردها لي في الوقت المناسب، وأنا أعلم أنني لو كنت في مكانك لكنت فعلت الشيء نفسه معي، لكن أن تتعدى على هذا البائس التعيس باليد والقول، وأن تجعل من نفسك أضحوكة أمام هذا الحشد من المنقرجين ليس بالفكرة الجيدة على الإطلاق.

ما زال "إجنازيو" يرتجف كلما تذكر هذا المشهد المزري الذي كان فيه؛ كان المشهد قائمًا في ذاكرته لا يغادرها أبدًا كأنه وصم، في الوقت ذاته، ما زال يشعر بالعرفان بالجميل لـ "بن إنجهام" بسبب تدخله الذكي، الذي منعه في اللحظة المناسبة من تهشيم رأس "ساجوتو" وتشويه وجهه أمام الجميع ثارًا لكرامته وهيئته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خلع "إجنازيو" ميدعته وارتدى معطفه.

- أنت تعلم أنني لا أطيق العمل وأكمامي مفرودة لأنها تتلطح بالحبر وتتسخ بسرعة. على أية حال، عندما أتت تلك السيدة النبيلة إلى المتجر لم تكن تسعى للحصول على المنشط الذي كنت أحضره، فهي لم تعرني أي اهتمام ولم تكثر كثيرًا لوجودي، لأنها حضرت لكي تحصل على عقد الكهرمان. ضحك "بولو":

- كان عليّ أن أصف عقد الكهرمان بهذه الطريقة المغرية حتى يسيل لعابها وتشتريه بالسعر الذي أحده، ولقد أحدث هذا الأسلوب جدواه وحقق النتائج المرجوة، أليس كذلك؟

انبعث من الحجرة الخلفية صوت المدقات في الهون الحجري، بإيقاع متفاوت ومتباين يعبر عن أحوالهم الميسورة في هذه الأيام؛ لقد نما العمل وكبر واتسع، وأصبح لديهما الآن عاملان مسؤولان عن إعداد المساحيق، بالإضافة لـ "ميشيل" لتلبية طلبات الزبائن المتزايدة، وهناك أيضًا "موريزو ريجيو" المحاسب الذي يعاون "إجنازيو" في عمل الفواتير. كان "إجنازيو" على وشك الرحيل، عندما التفت فجأة للخلف، وقال:

- لكن انتظر؛ أريد أن أفهم منك شيئًا، لم يكن عقد الكهرمان موجودًا في الصندوق، أليس كذلك؟ والسؤال الآن: ماذا يوجد في هذا الصندوق؟

كان "بولو" يداعب الصندوق الذي ما زال موجودًا على الطاولة، وفتحه.

- بالطبع لا.

وأخرج من الصندوق زوجًا من الأقراط مصنوعًا من حبات اللؤلؤ والمرجان.
- لقد طلبت من القبطان "بانتيرو" أن يأتيني بهدية خاصة لـ "جيوسينا" بمناسبة حلول عيد القديس "يوسف"، وعثر لي على هذين القرطين الجميلين، أتمنى أن ينالا إعجابها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مرت الأيام والسنون وبقيت "جيوسينا" كالصخرة الصلبة أمام "باولو"، ولكنها بدأت في الآونة الأخيرة تلين بعض الشيء؛ ربما كان هذا اللين المحدود علامة على أن الشعور بالاستسلام للواقع المضني التي تتقاسمه مع "باولو" قد تمكن منها، فلا سبيل أمامها لتغيير القدر الذي يمليه عليها واقعه المرير كامرأة متزوجة من رجل لا تحبه، لكنها بدأت تتعلق به بعض الشيء بحكم التعود. في تلك اللحظة، أتى زبون آخر إلى المتجر، كان هذه المرة خادمًا فقيرًا يرتدي رداء رثاء، انتهز "إجنازيو" هذه الفرصة كي يتسلل عائداً إلى الغرفة الخلفية ليلحق بالمحاسب.

منذ فترة وأل "فلوريو" يستأجرون مخزنًا خلف مكتب الجمارك داخل حي "بلازو ستيري" الكبير، وهذا المخزن عبارة عن حجرة واحدة جيدة التهوية وباردة ومؤمنة بشكل جيد، تطل على الممر الطويل الذي يفضي في النهاية إلى ساحة الخدمة الموجودة خلف مكتب المحاسبات، هناك في هذا المكان الاستراتيجي، يحتفظ آل "فلوريو" بتوابلهم ليتم نقلها بعد ذلك للموانئ الأخرى، أو لتبقى في انتظار البيع للتجار الآخرين. يتم دفع جمارك الدخول عندما تدخل البضائع بالفعل ميناء "باليرمو" وليس قبل ذلك. بالطبع من الأفضل لآل "فلوريو" أن يدفعوا مقابل استئجار غرفة واحدة تستغل كمخزن، بدلاً من دفع المزيد من الضرائب عند بقاء البضائع في الميناء. بعض التوابل تم جلبها من الهند بواسطة الإنجليز، والبعض الآخر أتى من المستعمرات الفرنسية ليُباع في "ليفورنو" وعلى طول موانئ "البحر التيراني"، ليتم شراؤها من قبل البحارة الإيطاليين وبيعها في مدينة "باليرمو". أصبح لدى آل "فلوريو" رصيد كبير من الموردين، الذين يجلبون لهم بضائع تتمتع بجودة عالية من جميع بلاد البحر المتوسط، بالطبع ما زال الوقت مبكرًا على أن يدعوا بأنهم أصبحوا ملوك التوابل في "باليرمو" وأنهم في الغنى نفسه لآل "كانزونيري"، لكنهم يحققون نجاحات وقفزات كبيرة في العمل، فعملهم يسير على قدم وساق.

على أية حال، لقد ضاقت الغرفة الموجودة في ضاحية "فيا دي ماتيريبي" بالبضائع المحفوظة بها. عندما وصل "إجنازيو" إلى مكتب المحاسبة، اكتشف أن "موريزو" أوشك على الانتهاء من العمل كله.

- لقد قمت بتنظيم الشحنات الواردة ورتبت الأمور المتعلقة بإرسال لحاء الشجر إلى "مسينا" و"باتي"، وستوجه الأكياس إلى هناك مساء الغد.

وقدم لـ "إجنازيو" الإيصالات الخاصة بالشحنات، ووفر عربة لنقل البضائع يقوم عليها أحد العاملين في متجر العطارة.

- في هذه الحالة، ارجع إلى المتجر وسجل كل ما تم إرساله من بضائع، وأخبر أخي أنني سأعود بسرعة.

بعد أن رحل "موريزو"، وجد "إجنازيو" نفسه وحيدًا وليس هناك ما يفعله، فقرر أن ينغمس في رفاهية التجول في "لاكالا". كان الأفق صافيًا كخط أزرق والنور يشع بضياؤه، لم تعد الرياح

والعواصف قاسية كما كانت عليه في الأسابيع القليلة المنصرمة، وقد حل الربيع ليملاً الهواء بأريجه الجميل.

اتخذ "إجنازيو" قراراً سريعاً، فقد وجد قدمه فجأة تسوقه ناحية ضاحية «فيكولو ديلا نيفا»، مصحوباً بهواء بارد أطاح بروائح البشر التي تعج بهم الحارات. مر عبر الباب الصغير الذي يباع فيه الثلج القادم من جبال «مادونيا»، وفي مكان ما بالأعلى، سمع صوت آلة الكمان وصوت أحد معلمي الموسيقى وهو يصحح لتلميذه بعض الأخطاء. ينتشر في شوارع مدينة «باليرمو» في المؤسسات والمتاجر مزيج من الأصوات واللهجات، بعضها من «چنوة»، وبعضها من «توسكان»، والبعض الآخر إنجليزي، نابولي، وهكذا.

استمر في سيره حتى عبر ضاحية "فيا أورو" دون الالتفات لحي "باليرمو بلازي"، حتى وصل إلى "سترادا دي زجاريلي"، تلك الضاحية التي تعج بالنسوة اللاتي يحملن سلالاً مخروطية الشكل أو يجرن خلفهن أطفالاً يصرخون، ويقفن أمام نوافذ المتاجر ليقمن ما بها من المعروضات ويشترين. اقترب "إجنازيو" من الطاولة الموجودة أسفل القوس الحجري، حيث تُعرض كل أنواع الشرائط الحريرية، وأربطة الأحذية المطرزة، والقفيفة. لفت انتباهه أحد الأشرطة الذهبية، واكتشف أنها تتماشى مع الصدرية المضلعة التي اشتراها "باولو" حديثاً لزوجته منذ فترة. قررت المرأة الواقعة خلف الطاولة أن تقدم له يد العون بعد أن رأته متردداً.

- ماذا تريد يا سيدي؟ هذا الشريط؟

- نعم.

سَعَلَ ليصفي حلقه وليصبح صوته واضحاً ومسموعاً.

- هل هي هدية؟ كم شريطاً تحتاج ليتناسب مع الصدرية؟ هذا يعتمد على مَنْ تكون؛ هل هي زوجتك؟ تبادلت النسوة الموجودات بالمتجر من حوله بعض النظرات الحائرة. رفع يده لأعلى وأشار بالنفي ليؤكد أنه غير متزوج، فلفت نظر السيدة خاتم أمه الذي يرتديه في إحدى أصابعه.

- إنه لأختي.

هكذا سارت الأمور وجرت الكلمات على لسانه مُرتجلاً بلا تفكير، وبلا سبب، كان وجهه مغطى بحمرة الخجل كالأطفال. نظرت المرأة إليه وهي متشككة:

- كم شريطاً تريد؟

قال مرتبكاً:

- كم شريطاً أريد!

- هذا يعتمد على حجمها.

حاول أن يجيب، لكن لم تكن لديه فكرة محددة؛ كيف أوقع نفسه في هذه الورطة؟

- هل نهدها مستدير؟ هل أختك تفضل الأشياء الملونة أم لا؟

سألت امرأة أخرى وهي تعبت بالدانتيل:

- هل سترتديها بشكل مقوس أم على شكل ربطة فراشة؟

وفجأة قامت مجموعة من النساء بالتدخل معه في الحوار:

- بحق السماء! إنه لا يعلم أي شيء عما نتحدثن عنه.

حاول "إجنازيو" أن يوضح:

- جسمها صغير؛ مثلك.
وأشار إلى فتاة تجرب أحد الحبال، ابتسمت الفتاة له، فكشفت ابتسامتها عن صف كامل من الأسنان المسوسة.

- "كريستين"، أعطيه لفتين، ستكونان كافيتين بالنسبة له.
كان هذا الصوت لسيدة كبيرة تتحدث وهي جالسة في أحد الأركان، وجهها يشبه لحاء الشجر، يبدو من طريقة حديثها أنها مالكة المتجر.
- وخذ معك مشبكًا.

قامت "كريستين" التي كان يتحدث معها بإحضار مشابك مصنوعة من العظم، لقد كانت السيدة العجوز محقة؛ البعض منها كان غاية في الجمال والروعة. اختار "إجنازيو" واحدًا منها مزينًا بعروس البحر.

بعد قليل، عاد "إجنازيو" بعلبة أخفاها جيدًا تحت معطفه خشية أن يراها أحد. لم يكن المكان بعيدًا عن "فيا دي ماتيريسي"، لقد سار الطريق كله دون أن يشعر حتى وصل إلى "فيكولو دي شيفاتاري"، حيث رائحة الحديد وصخب المخارط يحيط بالناس من كل جانب، وقال لنفسه: "هذه الهدية بمناسبة عيد القديس يوسف، لقد عملت "جيوسبينا" باجتهاد من أجل عائلتنا، وهي تستحق هذه الهدية وأكثر منها بكثير، لقد أرغناها على الحضور إلى هنا وكانت دومًا لطيفة ومحترمة معي لأبعد الحدود و...".

لكن "إجنازيو" لم يستطع إقناع نفسه بهذه المبررات التي ساقها لنفسه، وشعر فجأة بأن العلبة المخبأة تحت معطفه غير ملائمة وأنها عبء ثقيل، والحقيقة أنه لا يحق له أن يقدم لها مثل هذه الهدية، فهو ليس أخاها... أو في الواقع، ماذا في الأمر؟ ولماذا كل هذه الحساسية؟ هي زوجة أخيه، وهما يعرفان بعضهما بعضًا منذ وقت طويل، فما المشكلة؟ أليسا من عائلة واحدة؟

حل عيد القديس "يوسف"، وتلقت "جيوسبينا" هدية "باولو" بابتسامة مصحوبة بقدر كبير من الدهشة، التي ما لبثت أن تحولت إلى شكر وعرفان. أخذت القرطين، ورفعتهما عاليًا حتى تمنع "فينسينزيو" من انتزاعهما من يدها، وارتدتاهما.

ظل زوجها يبتسم وهي تنظر إلى نفسها في المرأة بحالة من الدهول، كانت سعيدة، سعيدة حقًا.
والآن حان دور "إجنازيو" ليقدّم هديته، لكن العلبة التي تحتوي على الشريط والمشبك بقيت في يد "إجنازيو" يخفيها خلف ظهره. ابتسم هو أيضًا وشعر كم هو أحمق، كغريب حل في الوقت والمكان غير المناسبين. ذهب بعيدًا، وبعد ذلك بقليل عاد إلى غرفة نومه، وقرر أن يخفي العلبة في صندوق تحت السرير حيث ستجدها "جيوسبينا" بعد وفاته.

كبر "فينسينزيو" وصار صبيًا جميلًا يركض بين الحارات، غير عابئ بالطين المتطاير على سرواله، حتى وصل إلى "في ديلا تافولا توندا" وطرق بشدة على أحد الأبواب.

- "بيبينو"، تعال؛ وصلت السفينة الشراعية المحملة بالبضائع إلى الميناء! هيا بنا نذهب لنراها.
فجأة ظهر على عتبة أحد المنازل صبي صغير يبلغ من العمر سبعة أو ثماني سنوات على الأكثر، كان في عمر "فينسينزيو" نفسه تقريبًا، وعيناه تشعان بالتأهب والحماسة، وشعره أشعث، وقدماه قدرتان. ضحك الصبيان وانطلقا معًا يمرحان في الفضاء الفسيح، كان الصبي يجري بقدم حافية والأخرى بها حذاء جلدي، كانت عيونهما تعكس حجم الفرح والسعادة التي كانا يشعران بها وهما بصحبة بعضهما بعضًا.

- ماذا ذكر والدك عن المكان التي أتت منه السفينة؟

- يقول إنها أتت من "مارسيليا"، حيث يبيع الفرنسيون التوابل للبحارة النابوليين الذين يقومون بدورهم بإعادة بيعها لأبي الذي يبيعها في المتجر.

مر الطفلان من بوابة الجمارك متعلقين بإحدى العربات، وعندما لاحظ السائق وجودهما هدهما بعضا، ففرا هارين وهما يضحكان. وصلا إلى رصيف الميناء وهما متعرقان ووجهاهما كسّته الحمرة من كثرة الجري. كان شعر "فينسينزيو" ناعماً ومسترسلاً، يلمع تحت أشعة شمس سبتمبر، يرى عمه "إجنازيو" وهو واقف على رصيف الميناء يتفحص الشحنات الواردة من البضائع عندما يتم إخراجها من الميناء، و"ريجيو" يسير خلفه حاملاً الأوراق، ويعد الصناديق بصوت مرتفع.

أما التجار الآخرون، فكانوا يقفون على الرصيف في طابور بانتظار دورهم في تسلم البضائع، لكن آل "فلوريو" الذين أصبحوا الآن يملكون نصيب الأسد من السوق والبضائع... هذا ما سمعه "فينسينزيو" من أبيه عندما كان يعلنها بفخر ليلة أمس؛ يعرف جيداً أنه إذا لم تتم عملية البيع على ما يرام، فإنهم سينتقلون لبيت جديد؛ هذا ما قالتها والدته.

ومن وراء "فينسينزيو"، أتى "بيبينو" متسلقاً على أحد الحبال.

- انظر، إن عمك يرتدي الـ"بوت" مثل عليّة القوم.

- يقول عمي إن المظهر شيء هام للغاية، فالناس يمكنها أن تتعرف على شخصيتك من حديثك، لكنها لن تستمع إليك إلا إذا كنت ترتدي ملابس أنيقة وقيمة.

كان "فينسينزيو" يحجب ضوء الشمس بعيداً عن عينيه بيديه، ورائحة التوابل التي تحملها الريح نحوه أقوى من رائحة ملح البحر؛ رائحة أقل ما توصف بها أنها مزيج فريد من رائحة القرنفل والقرفة ونسمات الفانيليا. لاحظ "إجنازيو" وجوده هو والفتى الذي كان بصحبته عندما التقت ليتحدث إلى "ريجيو"، وهو يُدعى "جيوسيب باستور" ابن أحد البحارة الذين وفدوا إلى "باليرمو"، وعاش وتزوج من امرأة من "باليرمو".

أه لو رآه أخوه "بولو" وعرف بعلاقته بهذا الصبي وأنه يلتقي بهذا القنفذ الصغير بشكل متكرر! فإنه قد يفقد أعصابه ويضربه بالعصا بسبب هذه العلاقة. يتكسب "فرانشيسكو باستور" - والد "بيبينو" - لقمة عيشه بالحيلة والخداع؛ الحقيقة أن زوجته هي من كانت تتفق على البيت من عملها كطباخة في البيوت، لكن "إجنازيو" لا يتفق مع أخيه بهذا الشأن؛ على العكس، فهو يرى أن على "فينسينزيو" أن يخالط كل المستويات من البشر، ويحافظ على كرامته وعزة نفسه مع الجميع أيّاً من كان. ثم، ماذا عنهم؟ ألم يعتادوا وهم في مثل سنه على الجري واللعب في شوارع وحارات "بانيارا" حفاة؟ جاء "ريجيو" إليه:

- لقد انتهينا يا سيدي من استلام كل البضائع وتسجيلها، هل أقوم بإرسال كل الشحنات الجديدة إلى مكتب الجمارك؟

- كل شيء ما عدا صناديق "النيلة الزرقاء" و"الزعفران"؛ خذهما إلى المخزن في "فيا دي ماتيريسي".

سرت بعض الهمهمات بين المتواجدين على رصيف الميناء، فسرّها "إجنازيو" على أنها شيء جيد وهي بمثابة تهيدة الخلاص لهم، لأنهم سيبدأون في تمرير بضائعهم... ما الخطأ في أن ينجح آل "فلوريو"، ويحصلون على نصيب الأسد من البضائع التي تأتي إلى الميناء؟ عليهم أن يتقبلوا هذا ويعملوا بجد ويواجهوا الصعوبات والتحديات، حتى يصبحوا مثلهم بدلاً من الحقد عليهم. كان حكم

“إجنازيو” على الأمور نابغاً من نظرات الحقد والعنف التي تملأ عيون التجار الآخرين المتواجدين على رصيف الميناء؛ يرى أنها نابعة ليس من الحقد والحسد، بل من قلة الهمة والسعي.

- هل انتهيتم من عملكم هنا؟

إنه صوت “ميمو روسيلو”؛ أحد أصحاب المحلات في ضاحية “في دي لاتاريني”، وهو أحد الذين اعتادوا على بيع البهارات المغشوشة، وفضل أن يأكل لقمة عيشه في ظل وتحت جناح “كانزونيري” و “جولي”.

- أنا حقا أسف على جعلك تنتظر يا سيد “روسيلو”، تفضل.

صحب “إجنازيو” كلماته بانحناءة متصنعة لـ “روسيلو”، فضحك البعض وسعل الآخرون في أيديهم. ذات يوم، كان آل “كانزونيري” هم من يضعون القوانين هنا، أما الآن بعدما أنيتما أنت وشقيقك إلى هنا ووصلتما لما وصلتما إليه، لم نعد نستطيع العمل. ما هذا؟ هل أنتما الاثنان على تعاون وثيق؟ غمغم “روسيلو”:

- نحن؟ مع “كانزونيري”؟!

ضحك “إجنازيو” من أعماقه:

- ولا حتى في الأحلام!

- أنت وأمثالك تضحكون، والآخرون يتضورون جوعاً من قلة العمل والزبائن؛ بمجرد وصولكما أنت و “ساجوتو” إلى مكتب الجمارك، كل شيء يصاب بالشلل، أنت تضع الأسعار وتأخذ أفضل البضائع وتتصرف أنت وشقيقك كالأسياد علينا.

توقف “إجنازيو” عن الضحك.

- هذا عملي، والذنب ليس ذنبي أن الناس لا يأتون إلى متجرك يا سيد “روسيلو”.

وركز على كلمة “سيد” حتى يبرر للآخرين الفارق بينهما.

- أسعارنا أعلى لأننا الأفضل، وكل الناس يعرفون ذلك. إذا كنت تريد المزيد من البهارات وأشياء أخرى، فلتحضر لمكتبنا ونتناقش في الأمر.

- هذا صحيح، أئدار الأمور بهذه الطريقة؟ أنت و “كانزونيري” تسحقوننا فيما بينكما.

- إذا، لا تشتك هكذا.

حلت السخرية محل البرود.

- نحن لا نسرق شيئاً منك، هذا عملنا وتجارتنا واجتهادنا.

قالها “إجنازيو” بلهجة أهل “باليرمو” ففزع “روسيلو” وهمس:

- ما هذا؟ نعم، فهمت.

تفحص الرجل ملابس “إجنازيو” ونظر إلى “البوت” الذي يرتديه، وأشار إليه بذقنه.

- ألا ترى بأن هذا الحذاء ضيق بعض الشيء؟ يقول الناس إنك عندما تسير حافي القدمين لوقت طويل، يصعب عليك ارتداء الأحذية المغلقة.

غرق الجميع في صمت مطبق، وثبتوا نظراتهم على “إجنازيو” وهم مذهولون؛ كانت نظرات قاسية، البحارة فقط هم من استمروا في النداء على بعضهم بعضاً بصوت عالٍ غير عابئين بما يحدث. جاء الرد على ما قاله “روسيلو” وهو في منتصف الطريق نحو اللوح الخشبي المخصص للعبور من السفينة:

- بالطبع لا؛ فقدماي لا تؤلماني على الإطلاق، لأنني أستطيع أن أدفع ثمن الجلد الناعم الرقيق، ولكن أؤكد لك أن جيبيك أنت هو من سيعاني وستبكي وتصرخ وتئن كالنساء، وأحذرك أن تتجراً يوماً أنت أو غيرك من لمس ممتلكاتنا وثوراتنا.

استخدم "إجنازيو" نبرة الصوت الهادئة، كأنه شخص يبدي بعض الملاحظات وليس شخصاً يتهدد ويتوعد من أمامه، لكنَّ التجار المحيطين به تراجعوا بضع خطوات إلى الخلف وهم مرتبكون، إذ إنَّ "إجنازيو" الفرد الهادئ الرقيق من عائلة "فلوريو" نادراً ما يلجأ لاستخدام لغة التهديد.

غادر "إجنازيو" الميناء دون أن يلتفت لأحد؛ كان يشعر بالغضب يستعر بداخله بسبب تلك المعاملة الظالمة التي يلقاها من تجار "باليرمو"، ففي "باليرمو" لا يكفي أن تعمل وتجتهد حتى ينكسر ظهرك من شدة العمل، فأنت بحاجة دوماً لأن ترفع صوتك وتقرض سيطرتك وقوتك بشدة، سواء كنت صادقاً أم مدعيّاً، وعليك أن تقا تل هؤلاء الذين يتحدثون كثيراً أو خارج سياق المنطق، والمظاهر هامة جداً، وكذلك الكذب المشترك، فذلك يمثل الخلفية الورقية التي تلعب عليها؛ لن ينسى الآخرون حقيقتك وأصلك مهما فعلت.

التقت عيناه بعيني "فينسينزيو" الذي كان ما يزال يتأرجح على الحبال هو وصديقه. احتقن وجه ابن أخيه من شدة الخوف قبل أن يتمكن من قول أي شيء، أمسكه "إجنازيو" من ذراعه.

- من الذي أخبرك أن تأتي إلى هنا؟ ومعه في هذا الوقت! ما الذي سيظنه الناس بنا؟ وأشار إلى "بيبينو". استياء الطفل بدأ يدفعه نحو التوجه إلى طريق الهروب.

- لو عرف والدك أنك تجوب الشوارع بهذه الطريقة المهجبة، فسيضربك بالعصا.

غمغم الصبي بالاعتذار، لكن ما الخطأ الذي ارتكبه؟ وقف "بيبينو" على بعد خطوات خلفه بعد أن نزل من على الحبل الذي كان ممسكاً به، استمر "فينسينزيو" في الالتفات والنظر لصديقه و"إجنازيو" يجره للبيت، ظل ينظر مرة لـ"إجنازيو" ومرة أخرى ناحية "بيبينو"؛ إنه لا يفهم ما الأمر.

نوبة أخرى من السعال الجاف، جعلت "باولو" ينهض من فراشه ليطوف بأرجاء البيت ويده على فمه، حتى لا يوقظ صوت سعاله المتكرر "إجنازيو" و"فينسينزيو" و"جوسبينا" و"فيتوريا" من نومهم، وظل وحده يرتعش رغم أنه لف نفسه جيداً بإحدى البطاطين، وفي الوقت نفسه كان يتصبب عرقاً. ذهب لغرفة الطعام؛ كانت هناك طاولة ومنضدة زينة استند إليهما كي يتمكن من التقاط أنفاسه. كانت هناك ستارتان ملونتان معلقتان على الحائط، ذهب ناحية النافذة بحثاً عن بعض الهواء النقي، ولكنه توقف فجأة، لأن الجو كان بارداً جداً. في الأسفل، ينتشر ضوء القمر الأبيض على بلاطات الشارع التي كانت تلمع بسبب الرطوبة، وكانت سلال بائع الفاكهة التي كانت تسد بوابة منزلهم القديم فارغة.

كان البيت الجديد الذي انتقلت إليه العائلة جميلاً؛ بالطابق الأول... وله نوافذ، وأبواب حقيقية، ومطبخ به موقد للطهي. انتابته نوبة جديدة من السعال، ذلك «باولو» صدره، كان يشعر بعد كل نوبة سعال وكأن صدره سينفجر؛ لا بد أنه أصيب بالبرد الذي يشعر أنه لن يذهب أبداً، كيف حدث هذا، وهو يجلس دوماً في الشمس والهواء والأمطار؟

سمع صوت أقدام من خلفه، التفت ليرى وجه من في الظلام؛ كان وجه شخص يرتدي رداء النوم، وبالكاد يغطي قدميه الحافيتين التي يسير بهما على البلاط. نظر ابنه «فينسينزيو» إليه وهو في هذه الحالة، فعندما يكبر «فينسينزيو» ويصير شاباً يافعاً، ستبقى هذه الصورة لوالده البائس عالقة في

ذهنه، وليس صوته وحركاته وعواطفه، ذاكرته القاسية سوف تظهر له أباه دومًا في صورة رجل محني للأمام كالأحدب، ينظر إليه بعينين محمومتين وعلامات المرض بادية عليه، سيلازمه دومًا ذلك الشعور بالحزن والألم الذي شعر به عندما كان يصاب باضطرابات في المعدة، وكأن حياته على وشك أن تتغير، سيشعر بالصوت الطفولي الرفيع الذي خرج من حلق أبيه في حلقه هو، ويشم رائحة المرض الذي تعلم أن يكرهه.

- ما الخطب يا أبي؟

أصبح "فينسينزيو" كبيرًا الآن؛ لقد بلغ السابعة من عمره وعينه تستطيعان أن تريا كل شيء الآن. شعر "باولو" بخوف لا يمكن وصفه في صوت ابنه.

- إنها مجرد نوبة بسيطة من السعال وستنتهي، عد إلى فراشك.

لكن الفتى الصغير هز رأسه، وجرّ كرسيًا من أحد الجوانب كي يتمكن من النظر من النافذة المجاورة له. وقف الاثنان وقد اتكأ إلى بعضهما بعضًا، أنفاسهما خرجت مترامنة مع بعضهما بعضًا، وعيونهما حامت حول الأحجار نفسها.

أمسك "فينسينزيو" بيد والده وقال:

- هل يمكنني أن أحضر إلى متجر العطارة غدًا؟

- وماذا عن معلمك؟ ماذا سنخبر المعلم عندما يأتي ولا يجده؟

أصر الصبي على طلبه، وقال:

- فيما بعد، فليأت فيما بعد.

- لا.

منذ اللحظة التي قرر فيها والده له أن يدرس ويتعلم، ذهبت أيام مرحة مع "بيبينو" والأطفال الآخرين الذين أتوا من "بانيارا" بين "لاكالا" وحارات الميناء بلا رجعة، فهو لا يتورع أبدًا عن الذهاب لـ "لاكالا" للقاء أصدقائه كلما سنحت له الفرصة، ليلعب معهم بالنحل الدوار على بلاط ساحة "بيازا سانت أوليفا" الكبيرة ذات الأحجار الناعمة، هو المكان نفسه الذي قامت أمه بشد أذنه فيه وإعادةه إلى البيت مرة أخرى عندما رأته هناك. كل يوم يحضر "أنطونيو جاجليانو" - وهو شاب على وشك أن يصبح قسًا - ليعلمه الكتابة والحساب والقراءة، هو بالطبع لا يستمتع بالدراسة كثيرًا ويفضل أن يقف خلف طاولة البيع بالمتجر، ليستمتع لعمه وهو يتحدث مع الموردين وقباطنة السفن، ويتعلم أسماء الأماكن والتميز بين السفن الراسية في الميناء، وتمييز رائحة التوابل المختلفة؛ لحاء الخشب، القرنفل، تبغ الجبل، وحتى عشبة أبي كبير.

كان والده يقرأ أفكاره:

- عليك أن تتحلى بالصبر، وأن تكون صبورًا ومحافظًا؛ إذا لم تذاكر وتتعلم لن تتمكن من القيام بالعمل الذي أقوم به.

- ولكنك لم تدرس ولم تتعلم يومًا يا أبي.

- هذا صحيح.

وتتهد تتهيدة حزينة.

- لهذا وجب عليّ العمل بشكل أكبر وتمّ خداعي عدة مرات، ولكن إن كنت تعرف طبيعة الأمور، لن يحدث لك ما حدث لي؛ كلما تعلمت، قل عدد الناس الذين قد يدوسون عليك بأقدامهم ويتعدونك.

لم يكن "فينسينزيو" مقتنعًا بما قاله أبوه.

- بل يجب عليك أن ترى الأشياء يا أبي لا أن تتعلمها وحسب.
- عندما تصير أكبر...

حاول أن يحمله ويرفعه عاليًا لكنه لم يستطع، فأجبرته نوبة دوار قوية على الاستناد إلى النافذة:

- هيا بنا نعود إلى الفراش، فأنا أشعر بالتعب والإرهاق الشديد.
بدلاً من ذلك، احتضنه "فينسينزيو" بقوة وقد أخفى وجهه في انحناء رقبة أبيه وشم رائحته، كانت رائحته تشبه رائحة الأعشاب الطبية والعرق، وقد أخفى في هذه الروائح شيئاً جديداً غير سار ولاذعاً لا ينتمي لهم، فسوف يتذكر هذا الحزن لبقية حياته.

أوشك عام 1806 على الانقضاء، ولم ينقض السعال الذي كان ينتاب "باولو"، بل على العكس لقد ازداد عمقاً وإصراراً وهو لا يريد أن يقصد الطبيب كي يتابع حالته المرضية، على الرغم من أن شقيقه "إجنازيو" طلب منه ذلك عدة مرات، فقد كان "باولو" يشعر دوماً بالتعب والإرهاق ولا يقضي سوى القليل من الوقت في المتجر، ثم يعود مرة أخرى إلى المنزل.

أصبح أغلب العمل مقسماً بين "موريزو ريجيو" الذي يتولى الحسابات، و"إجنازيو" الذي يدير دفعة العمل كله؛ أصبح هو من يعتاد الزبائن على أن يجدوه واقفاً خلف طاولة البيع، وهو الذي يرجع إليه تجار التجزئة عند طلب البضائع. سمات لهجته القديمة مُحيت بمرور أيام وسنين العمل المرهقة، ف"إجنازيو" هو الشاب "الفلوري" صاحب الصوت الهادئ والمشاعر المجردة، ووجهه لا يعكس حجم القلق الذي يشعر به على أحوال العمل، ولا الخوف الكبير الذي يشعر به من أن يكون البرد الذي يعاني منه "باولو" منذ فترة أكثر من مجرد نزلة برد قوية، وأن الأمور أسوأ من ذلك بكثير، لكنها كذلك، هي بالفعل سيئة؛ أدرك هذا عندما حضرت "أورسولا" - الخادمة التي عينها "باولو" لتعين زوجته، وتعاونها في شؤون المنزل - مسرعةً إلى المتجر ذات يوم:
- تعال معي بسرعة يا سيد "إجنازيو".

كانت الفتاة تتحدث وهي ترتعد وتمسح يدها في ثوبها:

- شقيقك السيد "باولو" مريض جداً.

على الرغم من برودة الجو القارصة - فإنه فصل الشتاء، وقد اقترب موعد عيد الميلاد - لم يتوقف "إجنازيو" ليرتدي معطفه، بل جرى بأقصى سرعة وقفز على السلالم وتوقف أمام باب حجرته. كانت "فيتوريا" جالسة على أحد الكراسي ويدها على فمها تهتز مرة للأمام ومرة للخلف، وتغمغم بعبارة:

- أيتها العذراء المباركة، يا لها من مصيبة!

ولم تستطع أن تنطق بكلمة أخرى خلاف ذلك.

كانت "جيوسبينا" تقف متجمدة في مكانها، وتحمل في يدها وعاءً به مجموعة من المناديل المتسخة وتبدو كمن تعلم الحقيقة، ولكنها من هول الصدمة لا تستطيع أن تعترف بها. بهدوء، تقدم "إجنازيو" وأخذ الطبق من يدها، لأن أصابع "جيوسبينا" كانت ترتعد، وغطاها بأصابعه للحظة.

- عودي إلى المطبخ، وأخبري "أورسولا" أن تحضر الطبيب "كاروسو" على الفور، واستحمي أنتِ والصبي، وأنتِ كذلك يا "فيتوريا"، قومي على الفور بغسل كل الملابس في ماء مغلي وبوطاس.

غادرت النسوة الحجر، وبقي "إجنازيو" وحده مع أخيه يستجمع ما تبقى من قواه لكي يراه. سقط "باولو" على الوسادة من شدة التعب والإرهاق، وشفقاه وشاربه كانوا ملطخين بالدم، عندما رأى

أخاه، حاول أن يبتسم ابتسامة مصطنعة.

- هكذا هي إذن؛ كنت أعرف منذ البداية أنها ليست نزلة برد قوية.
تردد "إجنازيو" للحظة قبل أن يجلس إلى جوار أخيه على الفراش، واحتضنه بقوة؛ إنه شقيقه وهو لا يهتم إلى أي حد هو مريض.

- لا تحزن ولا تهتم، سأتولى أمر كل شيء، أسمعني؟
ووضع جبهته في جبهة أخيه كما كان "باولو" يفعل معه دومًا منذ سنوات وهو صغير.
- لن أتركك أبدًا.

وضغط على رقبتة من الخلف.

- سأحضر لك بعض القنفذية على الفور، وسأبحث عن منزل خارج المدينة، ربما في "نوتشي" أو "سان لورنزو" لتتعم بالجو الدافئ والهواء النقي العليل، أقسم لك أنك ستتحسن!
في المطبخ، كانت "فيتوريا" والخادمة يعدان أو ان من الماء لكي ينقعوا أغطية الأسرة والملابس بها، كان وجه الفتاة باهتًا وشاحبًا، وشفاتها مطبوقتان، كالجرح.

لم تتمكن يدا "جيوسبينا" حتى هذه اللحظة من التوقف عن الارتعاش، كانت ملفوفة ببشكير كبير، و"فينسينزيو" جالس في المطبخ على طاولة الطعام يضع قدميه في حوض ماء ساخن، كان يرى أمه وهي حزينة وجائعة، ولكنه لا يعرف السبب. دخل "إجنازيو" إلى المطبخ، وقد بدا فجأة أكبر سنًا.
- يجب أن يتم فحصنا جميعًا من قبل الطبيب.

كان متوترًا، وقد صوته دفاه المعتاد. تمت "جيوسبينا" لو استطاعت أن تقول شيئًا، ولكن بدت كما لو كان أحد قد ألحمها حجرًا، وخلفها يقف "فينسينزيو" وهو يشعر بأن هناك أمرًا جلا يحدث، لكن لا يعرف ما هو على وجه التحديد؛ يستطيع الأطفال بنقائهم وبراعتهم أن يستشعروا الأشياء ببصيرة اليقين.

- هل والدي مريض؟

التفت كل من "جيوسبينا" و"إجنازيو" في اللحظة نفسها إليه، كان الصبي يفهم أن ثمة شيئًا ما يدور من حوله، وهو متعلق بحالة والده الصحية.

حاولت "جيوسبينا" أن تقترب منه فمنعها "إجنازيو"، كان "إجنازيو" يتحدث إليه كرجل كبير ناضج.

- نعم يا "فينسينزيو".

انطفأ بريق عين الصبي من شدة الحزن، ونزل من على الطاولة وذهب لحجرتة. هناك لوح للكتابة على سريره، كتب عليه معلمه فروضه المنزلية، جلس الصبي وبدأ يكتب.

لم ينم أحد في تلك الليلة، لا "باولو" صاحب الروح المفقودة المستمر في السعال، ولا "فينسينزيو" الذي لا يستطيع أن يتخيل ما الذي سيحدث لو والده المريض وكان يخنق بكاءه بوسادته، ولا "فيتوريا" التي ترى شبح عزلة جديدة يقترب منها شيئًا فشيئًا، ولا "جيوسبينا" التي أدارت ظهرها لزوجها وبقيت تحمق في الظلام حابسة خوفها داخل صدرها، ولا بالطبع "إجنازيو" الذي كان يسير حافي القدمين، وقميصه خارج بنطاله، وصدريته مفتوحة، محاولًا أن يستمد بعض المتعة من برودة الأرضية؛ لقد غير مرض "باولو" كل شيء. هو يعلم جيدًا أن خبر مرض "باولو" سينتشر في ربوع "باليرمو" كالنار في الهشيم، وأن آل "كانزونيري" سينتهزون الفرصة، فالعمل كله أصبح يقع الآن

على عاتقه، وسيحتاج "إجنازيو" بلا شك أن يستعين بعاملٍ آخر كي يتفرغ "فينسينزيو" لدراسته بلا أية معوقات، وعليه أن يعتني بـ"جيوسينا" كذلك.

هذا الكم من المسؤوليات يجعله يرتعد من الداخل، هذا بخلاف أنه لا يستطيع أن يخمن ما الذي ستجلبه له رياح الشهور القليلة القادمة من مفاجآت، وإلى أي مدى حالة "باولو" متدهورة وطبيعية الآثار التي ستترتب على مرضه.

دار بخلد "إجنازيو" في تلك اللحظة ذكرى ما حدث في صباح أحد أيام الخريف، عندما كان شقيقه "باولو" ما زال مراهقاً، وكيف جره جرّاً إلى بيت "ماتيا" و"باولو باربيرو"، لكي يحميه من سخط زوجة أبيه ولامبالاة والدهما؛ لقد أنقذ حياته، لاحظ ذلك الآن.

"ماتيا".

انتقلت "ماتيا" مع أطفالها الصغار إلى مدينة "مارسالو". اعتاد "إجنازيو" أن يرسل لها من حين لآخر في الخفاء بعض النقود، كي تسدد نفقات دراسة "رافاييل"، أو لتتمكن هي وأبنائها من العيش وسد احتياجاتهم الأساسية، إذ إن مرض "باولو باربيرو" الأخير جعله غير قادر على العمل، وقد تمكن أخيراً من العثور على أحد المنازل الرخيصة كي يعيش فيه هو وأسرته، أو ربما كان يرسل لها النقود، كي يريح ضميره في قرارة نفسه، بعد أن تملكه الخجل.

عليه أن يخبر أخته بحالة "باولو" الصحية، بالطبع لن يعلم "باولو" شيئاً عن هذا الأمر، ولكن زوجته خالفت أوامره ولم تقطع علاقتها معها. كانت "جيوسينا" تطلب منه المال على استحياء في البداية لتعطيه لـ"ماتيا"، ثم ما لبثت أن بدأت في كتابة الخطابات لها بشكلٍ معتاد، وقد وافقها "إجنازيو" على ذلك.

بهذه الطريقة، نجح في أن يحافظ على هذا الجزء من العائلة؛ هذا الجزء من الحياة القريب منه، إنه سره الدفين الذي يتشاركه مع زوجة أخيه، وهو أحد الأشياء الخفية التي طالما شككت روابط قوية بينهما.

بعدها بعدة أيام، سنحت له فرصة الاتصال بـ"ماتيا". كان "باولو" قد انتقل بالفعل إلى البلدة، وذهبت معه "جيوسينا" كي تبحث له عن خادمة لتعتني به ليلاً ونهاراً، بينما سيبقى كل من "إجنازيو" و"فينسينزيو" في المدينة لمتابعة شئون العمل.

في وقتٍ مبكر بعد الظهر، ذهب عامل المتجر لتناول الغداء.

- هل يمكنني الدخول؟

كان "فينسينزيو" يقوم ببعض الحسابات على منضدة البيع، رفع رأسه ونادى بصوتٍ عالٍ:

- عمي، هناك شخص ما يريدك.

نظر "إجنازيو" من باب الغرفة الخلفية؛ إنه أحد وكلاء الشحن التابعين لهم الذين يبحرون على متن مركب شراعي؛ أتى لكي يُحمّل بعض "اليانسون".

- سيد "سالفاتور"، تفضل بالدخول.

- ليكن الرب في عونك يا سيد "فلوريو"، نحمد الرب أنك بخير، لكن كيف حال أخيك؟ أخبروني عند الميناء أنه ليس على ما يرام.

تلفظ الرجل بالكلمات برفق وباحترام، وتبع كلامه بنظرات جانبية للطفل.

- أشكرك، نحن بحاجة لكل دعوة يمكننا الحصول عليها، فأخي... إنه... لقد أصيب بنزلة برد في صدره، ولكنه بالتأكيد ليس على أعتاب الموت، إنه يُعالج خارج المدينة وينتظر رحمة الرب.

- يا إلهي! لقد سمعت بعض الأشياء السيئة؛ بعض النميمة!
- من الواضح أن الناس ليس لديها ما تقوم به غير ذلك. تفضل بالدخول.
دفع "إجنازيو" الرجل برفق داخل المكتب الموجود في الغرفة الخلفية، التي تملأها رائحة الملح والشمس وتذكره بذكريات المراهقة.
يتساءل "إجنازيو" بينه وبين نفسه: هل ما زال أخوه يفكر في البحر، والأيام الخوالي التي قضياها معًا على ظهر المركب "سان فرانسيسكو" بين "نابلس" و"ماسينا"؟ وإذا به وهو يوقع على بواليص الشحن، يسأل الرجل أين سيتوقف خلال الرحلة.
- سأعود من "ماسينا"، لذلك كنت أفكر في الذهاب إلى "مازارا ديل فالو" ثم "بجيلا"... لكن لماذا؟
نظر إليه "إجنازيو"، وقد سند ذقنه على يديه المطبقتين.
- لو طلبت منك أن تتوقف في "مارسالو" لتوصيل أحد الجوابات، هل تقوم بهذه الخدمة لي؟
- بالطبع، هل الأمر هام؟
أخرج "إجنازيو" ظرفاً من درج المكتب.
- هام جداً؛ يجب أن تسلم هذا الظرف ليد "ماتيا فلوريو"، زوجة "باربيرو" دون غيرها. انظر، لقد كتبت على الظرف آخر عنوان لهم، إن لم يكونوا هناك، فإنهم بالتأكيد لم يذهبوا بعيداً.
أوماً البحار برأسه، وعبس وجهه، وتذكر شيئاً ما؛ بعض النميمة التي تقولها الألسنة عن صهر عائلة "فلوريو"، الذي تم طرده وإبعاده من أعمالهم دون النظر في أعين بعضهم بعضاً، والذي لم يعبأوا بخبر إفلاسه، كالغرباء. دس الرجل الخطاب في جيب معطفه؛ لم يسأل ولم يرغب في أن يعرف شيئاً، فهذا ليس من شأنه، وتبعه "إجنازيو" للباب.
- فليكن الرب في عونك، والعذراء المباركة معك يا "دون فلوريو". وتحياتي لأخيك، سأصلي للقديس "فرانسيس من باولا" كي يرحاه.
- وأنت أيضاً يا سيد "سلفاتور"، أنت أيضاً.
ظل "إجنازيو" يراقبه وهو يبتعد؛ كان الرجل يتميل في مشيته على الأرض وكأنه على ظهر المركب. يشعر "إجنازيو" بالأسف لأنه طلب منه أن يوصل الرسالة، ولكن لم يكن أمامه خيار آخر، فهو لا يعرف على وجه اليقين كم تبقى له من الوقت.
كانت جبهة "جيوسبينا" مضغوطة بين يديها، وعيناها مثبتتان على أفق السماء الذي كانت تراه من النافذة بلونه الأزرق اللامع، وقد جعل الربيع يبدو كفتاة عنيدة وغازبة وصغيرة.
ساء وضع "باولو" الصحي كثيراً، فالسعال تمكن منه لدرجة أنه أصبح يمنعه من التنفس في بعض الأحيان. أرسلت "جيوسبينا" "أورسولا" لتخبر "إجنازيو" عن حالة أخيه الصحية.
لمست يد "ماتيا باربيرو" كتف "جيوسبينا"، فأمسكت بها وقبلتها... جلست أمامها بهدوء. ظلت المرأتان تنتظران إلى بعضهما بعضاً دون أن تتبسا ببنت شفاه. كانت "ماتيا" قد وصلت منذ يومين من "مارسالو" بصحبة ولدها "رافاييل"، تحمل "إجنازيو" نفقات الرحلة، كانت حياتهم صعبة على نحو متزايد لكن العودة إلى "بانيارا" أصبحت مستحيلة. كان "باولو باربيرو" يبدو متقاعراً وهو يستعرض إلى أي حضيض قد وصل، وإلى جانب ذلك أصبح لا يتحمل حديث الناس الدائم في "بانيارا" عن نجاحات عائلة "فلوريو".
كان على "ماتيا" أن تتحمل تلك المناقشات الحادة والالتهامات من زوجها، والتي كانت الأولى من نوعها بعد سنوات من الخضوع، لأن زوجها لم يأذن لها بالذهاب بحجة أنهم لا يمتلكون المال الكافي،

وأن «باولو» لا يستحق هذه التضحية، ولكن «ماتيا» جزء من عائلة «فلوريو»، وآل «فلوريو» لا يتخلون أبدًا عن رابطة الدم. بدا وجه «ماتيا» كقناع من الخنوع والاستكانة والوهن وتهدلت ملامحها، وقد صبغ الزمن شعرها باللون الأبيض وأثقلت الأحزان جفونها.

تعالت أصوات الأطفال من الجانب الآخر من الحجرة؛ كان الصغير «فينسينزيو» يستعرض كتبه أمام ابن عمه «رافاييل» الذي كان يكبره ببضع سنوات، و«فيتوريا» بصحبتها ترعاهما وتعتني بهما، وتحاول جاهدة أن تسترق السمع لحديث عمته. كانت هي أيضًا مصدومة بحجم التجاعيد التي كست وجه عمته «ماتيا» بفعل الزمن والعمل الشاق، بينما تنظر «جيوسبينا» إليهم وهي حزينة ومكتئبة.

- ألم يلاحظ أن والده يحتضر؟

قالت «ماتيا» هذه الكلمات بقلقٍ مصحوب بالقليل من الاستياء.

- كنت أراه في بعض الأحيان يقف ساكنًا خارج غرفة نوم أبيه، وكأنه لا يجرؤ على الدخول حتى عندما يشير إليه «باولو» كي يدخل، كأنه لا يريد أن يرى الرجل وهو في هذه الحالة المزرية، دون أن يدرك أن هذا الأمر يُحزن قلب أبيه البائس التعيس.

- إنه مجرد طفل؛ وهو خائف في الوقت الراهن مما يحدث، لكن يجب عليك ألا تياسي؛ هذا هو الوقت الذي يجب أن تتسمي فيه بالشجاعة وأن تطلبي من الرب المعونة.

- الرب لا يكثر لحالي، لو كنا بقينا في «بانيارا» ما كان حدث أي من هذا.

- وما يدريك؟ ربما كانت إحدى السفن قد تحطمت بزوجينا أو وقع زلزال آخر؛ هل اطلعت على الغيب؟ وما أدراك بما يدور من خلفنا؟

لطالما كانت «ماتيا» متأقلمة مع الألم والحزن، وهذا ما يجعلها على وجه الدقة مدركة لحجم الألم الذي قد تنتسب فيه.

- يجب أن تتوقفي على الفور عن التفكير فيما كان وما قد يحدث، وأنا مثلك لم أكن أرغب في الحضور إلى «مارسال»، ولكنني وجدت نفسي مضطرة للقيام بذلك، فزوجي مريض. نسيت أسرتي بسبب زوجي؛ أما بالنسبة لأخي، فأنا أعلم أنني لم أعد موجودة. انظري إلينا الآن؛ ها نحن ذا، معًا مرة أخرى.

حاولت «جيوسبينا» أن تربط شعرها بلا جدوى، فكلما حاولت انفلتت الخصلات وسقطت على جبهتها.

- أما أنت، فما زال لديك زوجك و«إجنازيو»؛ هما لحمك ودمك، لكن أنا صرت كالشجرة النائية، لم يعد لي أحد في هذا العالم، فكل أقربائي ماتوا.

خرجت الكلمات من فمها حزينة، سقط شالها بوقاحة عن إحدى كتفيها، وحرقت الكلمات حلقها بلا حول ولا قوة منها.

- ما الذي حصلت عليه؟ أخبريني.

أغلقت «ماتيا» عينيها في لحظات الصمت التي تلت هذا الحديث، وقالت وهي تبتسم بحزن:

- لديك ابنك الجميل وكذلك «إجنازيو»، ألم تلاحظي ذلك؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما أخبرت «جيوسبينا» «إجنازيو» أن حالة «باولو» تسوء، أرسل لاستدعاء «كاروسو» الطبيب، طمأنه الأخير أنه سيأتي على الفور بمجرد أن يتمكن من الحصول على عربة ذاهبة إلى

«نوتشي». قد لا يتعدى الأمر تجمعاً للبلغم والمخاط، وأنه بمجرد أن يستمع لصوت رئتيه، سيكون قادرًا حينها أن يخبره بكل شيء.

كان «إجنازيو» يفكر في استئجار عربة ليصطحب «فينسينزيو» ليرى والده، ويخبره أن «ماتيا» قد حضرت لتراه؛ ربما تمنح هذه الزيارة لـ«باولو» بريقاً من الأمل، ورغبة في النجاة، والمزيد من القدرة على مواجهة المرض والتشبث أكثر بالحياة رغم الألم والمعاناة؛ كل هذه الأفكار وغيرها كانت تجول في خاطر «إجنازيو»، وهو جالس في العربة متوجهاً للبيت الذي استأجره لـ«باولو» في بساتين الزيتون في ضاحية «نوتشي» بصحبة الطبيب.

- لا بد من وجود أمل.

في تلك الليلة المظلمة، عاد «إجنازيو» للبيت متأخراً؛ كانت خطواته ثقيلة، وعيناه محققتان بالدماء من شدة الحزن. كان «فينسينزيو» و«رافاييل» نائمين بالفعل بعد أن استحوذ عليهما التعب، لما استنفدوه من مشاعر مؤلمة في هذا اليوم، أما «فيتوريا» المسكينة، فقد كنست الغرف ثم ذهبت هي الأخرى لتنام في حجرتها، بينما بقيت كل من «جيوسينا» و«ماتيا» مستيقظتين بالمطبخ تنتظران عودة «إجنازيو» بالأخبار. بمجرد أن رأت «جيوسينا» وجه «إجنازيو» المليء باليأس والحزن، توجهت نحوه وتوقفت أمامه ويدها ممسكتان بأطراف شالها بقوة.

- ما أخبار «باولو»؟ ماذا قال الطبيب؟

كانت «ماتيا» بصحبتها. هز «إجنازيو» رأسه وقال:

- لا شيء، إنه فقط لا يرغب في رؤية «ماتيا».

لم تتمالك «ماتيا» نفسها عند سماع كلمات «إجنازيو»، ووضعت يدها على فمها لتكتم تأوهاتنا الحزينة وهي مذهولة من هول ما سمعته من «إجنازيو»، وبدأت تترنح يميناً ويساراً، فلم تعنقد أبداً أن «باولو» سيرفض رؤيتها في مثل هذه الظروف.

- ما الذي تعنيه بكلامك هذا؟ حتى وهو مريض؟ لم يرق قلبه لي؟

احتضنتها «جيوسينا»، ولكنها دفعتها بعيداً عنها:

- لا قلب ولا ضمير يقبلان هذا؛ ألا أستحق العفو والسماح؟

أخذها «إجنازيو» وضمها بقوة لصدره:

- أنا حقاً أشعر بالأسف، لكنني عندما أخبرته برغبتك في رؤيته، أصابه الهياج وبدأ يصرخ بصوت عالٍ، ولم يتوقف إلا بعد أن اندفعت الدماء من فمه، ولم يكن أمامي أي خيار لأهدئه سوى أن أعطيه بعضاً من صبغة الأفيون، كي يهدأ ويتوقف عن الصراخ.

حاول أن يبحث عن بعض الطمأنينة في وجه «جيوسينا»، التي كانت تقف خلف «ماتيا» وقد أطبقت قبضتها وامتلات عينها بالدموع، لم يستطع أن يخبرها بحجم السخط الحقيقي والهياج الذي انتاب «باولو» عند سماعه خبر حضور «ماتيا» ورغبتها في رؤيته، ولا حجم الغضب الذي تقيأه مع الدماء التي كانت تخرج من فمه، ولا مدى الحزن والألم الذي شعر به «إجنازيو» عندما أخبره «باولو» أن «ماتيا» ماتت بالنسبة له وأنها لم تحضر لتراه، ولكن لكي تشمت به وتشهد وفاته وترث بعض المال بعدما يموت لتعطيها لزوجها البائس «باربيرو»؛ إن كانت قد حضرت من أجل ذلك فلتذهب بعيداً ولتمت كمدًا، لأنه قام بالفعل بكتابة وصيته ولم يذكرها بالوصية، ولم يترك لها ولا لهذا الكلب البغيض زوجها قرشاً واحداً من أمواله.

لم يكن بحاجة لأن يخبر "جيوسبينا" بكل هذه التفاصيل، فهي تعرف كل شيء، ولم يستطع أن يخبرها كذلك إلى أي مدى كان الطبيب مستاء من التدهور الكبير في صحته، عندما وقع عليه الفحص الطبي واستمع لصوت صدره، على الأقل ليس الآن. تراجعت "ماتيا" وانسحبت بعيداً من حضن أخيها:

- آه، يا ويلتي! سأحمل آثمي كاملة أمام الرب، ولكن ليس أمام هذا الكم من العداوة والبغض. ودبت بقبضتها على صدرها وصاحت بالعويل:

- إنه أخي وأحبه كثيراً، وسأصلي للرب ليعفو عنه لأنه ظلمني وحطم قلبي، لقد تشاجرت مع زوجي من أجله لكي يسمح لي أن آتي إلى هنا، والآن وبعد كل هذا، يرفض أن يراني بهذه القسوة كما لو كنت مجذومة!

ذرفت "ماتيا" المزيد من الدموع، وأطلقت المزيد من الأهات والتهديدات المصحوبة بالحسرات. ربتت "جيوسبينا" على كتفيها على أمل أن تهدأ من روعها واصطحبتها لغرفتها. همست لها:

- هدئي من روعك يا حبيبتني، تعالي إلى غرفتك واخذي قليلاً إلى النوم. بدتاً كشقيقتين على الرغم من أن الدماء التي تجري في عروقهما ليست واحدة، فهكذا رأهما "إجنازيو".

التفتت "جيوسبينا" لـ "إجنازيو" وقالت:

- لقد احتفظت بطبق من المعكرونة والبروكلي لك، ما زال الطعام دافئاً. لماذا لا تأكل وتخذ للراحة لبعض الوقت؟

هز رأسه بطريقة تعبر عن الرفض، لكن "ماتيا" توقفت خارج غرفة النوم.

- لقد وقع الضرر وضاع كل شيء، هناك أشياء تدفع ثمنها الأجيال جيلاً بعد جيل، إنه لم يجرحني ويحطم قلبي فحسب، بل جرحنا جميعاً وحطم قلوبنا التي تحبه، عليه أن يتذكر ذلك إلى الأبد. ارتعدت "جيوسبينا" عند سماعها لهذا الكلام، وكذلك "إجنازيو"، لأن هذه الكلمات ليست كلمات عادية؛ إنها أشبه بلعنات، ما إن تطلق سهامها فلا سبيل لردّها والتراجع عنها، لعنات تتوارثها الأجيال جيلاً بعد جيل حتى تصبح حقيقة. انتظرت "جيوسبينا" بجوار "ماتيا" حتى تأكدت أنها نامت لكي تقوم وترتب المطبخ، وبقيت «ماتيا» تردد هذه العبارات:

- أنا لا أستحق منه كل هذه القسوة؛ لطالما أطعمته بيدي كما لو كنت أمه، وغسلت ملابسه، وحميته بين ضلوعي كما لو كان ابني وليس شقيقي، والآن يلفظني هكذا بمنتهى البساطة وبهذه الطريقة القاسية!

سال المزيد من الدمع من عينيها على وجهها البائس الحزين، مسحتها "جيوسبينا" بيدها وتساعد من صدرها صدى تنهيدات حزينة كاللهيب؛ ماذا الآن؟ ما الذي تريد "جيوسبينا" أن يحدث لزوجها القاسي، الذي لم تحبه يوماً ولا ترغب في أن تراه يسترد عافيته مرة أخرى ويعود إلى البيت؟ الرجل بالنسبة للمرأة هو صمام الأمان، وهو السند والحماية الوحيدة التي تمتلكها المرأة أمام تقلبات الزمن وتغيراته، وهو كطبّق طعام على المائدة التي تحمي الزوجة وأبناءها من خطر الجوع والمذلة، ووعاء الفحم اللازم لإشعال النار للطهي، ووعاء النحاس العميق الذي يجهز فيه الطعام، الرجل بالنسبة للمرأة هو كل شيء، وهي من دونه لا شيء. لملمت أطراف شالها ولفته بإحكام حولها، فلم يكن هذا ما يخيفها، فهناك شيء آخر لا يهم أحداً غيرها أبعد مما يمكنها أن تتخيل.

أثناء وجود "جيوسبينا" بالمطبخ، باغتها ظل أسود؛ إنه شبح "إجنازيو" الحزين المنكسر، سحب أحد الكراسي ليجلس عليه ووضع رأسه على الطاولة، كانت أكتافه ترتعد، انهار وبدأ يبكي بحرقة شديدة

بأنين محبوس ونشيج، تصاعد صوت الأنين المكبوح ونشيج الرجل الذي عجز عن أن يكبت هذا البركان الرهيب من الحزن الذي يستعر بداخله، على الرغم من الهدوء والرصانة المعروفين عنه، لأنه كان ببساطة أكبر من أن يكبت ألمه، في الوقت ذاته كان يخشى أن يسمع أحد صوت أنينه، فقرر أن يضع رأسه بين ذراعيه ليكبت صوت بكائه، وعندما رأته «جيوسبينا» على هذه الحال، عادت خطوة إلى الخلف، وتوجهت دون أن يشعر بها لغرفة نومها.

في تلك الليلة، نام «إجنازيو» نومًا متقطعًا من شدة الحزن والخوف وكثرة التفكير، لطالما أمل في الحصول على بعض الراحة لكنه لم يستطع، فعلى العكس؛ ازداد خوفه من الفشل في تحمل واجباته والوقوع كفريسة سهلة في براثن الضياع، لكنه قرر أن يتحامل على نفسه ويستجمع ما تبقى من قواه التي تغلب عليها الحزن بسبب حال شقيقه «باولو»، وقرر ألا يسمح لنفسه حتى بمجرد التفكير في الأمر، ومن الآن فصاعدًا، سيكي وحده دون أن يخبر شخصًا آخر بما يشعر به.

استيقظ «إجنازيو» من نومه مبكرًا، ارتدى ملابسه بحرص حتى لا يقول أحد أن آل «فلورينو» قد انهاروا، ولن تقوم لهم قائمة بعد ما أصاب «باولو». كان الوقت مبكرًا؛ مبكرًا جدًا لدرجة أن ضوء الفجر لم يكن قد بزغ بعد، ولم تمتد أشعة النهار بضيائها لتبدد ظلام الليل، لكنه كان يشعر أن متجر العطارة ينتظره؛ هو فقط، فعاد إلى المطبخ ليكتشف أن «جيوسبينا» ما زالت هناك.

- أين «ماتيا»؟

- ما زالت التعيسة نائمة، ظلت تعاني من الكوابيس المزعجة طوال الليل.

راقبها وهي تجهز له قديمًا من الحليب الدافئ.

- ماذا عنك؟ هل استطعت أن تنام؟

- لبعض الوقت.

أخذت المكنسة وبدأت في كنس الأرض، في الوقت الذي كان يغمس فيه هو الخبز في كوب اللبن. توقفت فجأة عن الكنس وتصلبت في مكانها، وتحدثت دون النظر إلى «إجنازيو».

- أرجوك، أخبرني بالحقيقة.

كان يفهم ما تعنيه كما كان دومًا يفهمها، فجأة تغير طعم اللبن الموجود في فمه وتحول إلى علقم مر.

- إن صحته تتدهور بشدة، ولا أرى داعيًا لكي أخفي عنك هذا الأمر.

- هل أخبرك الطبيب بشيء؟

- نعم.

- أتريد أن تخبرني أن «باولو» يحتضر؟

لم يجبها «إجنازيو» على هذا السؤال؛ بدأت تتشكل أمام عينيه خيالات غير محددة، لا صوت لها، ولا دفء فيها. بقيت «جيوسبينا» بعدما سمعت هذا الكلام متصلبة في مكانها كالتمثال، إذ إنها لم تحتمل وقع كلمات «إجنازيو»، وانطلقت من داخلها تهديدات متسارعة واحدة تلو الأخرى، تحطمت على إثرها المكنسة التي كانت تحملها في يدها، تقجر اليأس بداخلها كالبركان، وفاض على وجهها وجسدها من فمها المفتوح على مصراعيه من هول الصدمة والذهول.

تعلم «إجنازيو» شيئًا مهمًا من العلاقة التي تربطه بشقيقه؛ أن الناس عندما يعيشون مع بعضهما بعضًا فترة ما، ينتهي بهم الحال في الغالب بتشكيل روابط قوية بينهم لا انفصام لها، ليكتشف الإنسان بعد حين أنه لا يحب الشخص نفسه، لكنه يحب الصورة التي رسمها في مخيلته عن هذا الشخص،

والشعور الذي يحركه بداخله عندما يراه، حتى كرهه له، ويعرف بعد حين أنه مغرم بشيطانه على الرغم من أنه يعرف أنه شيطان.

- أتوسل إليك ألا تفعل شيئاً!

توسل إليها ألا تفعل شيئاً، لم يشعر بنفسه إلا وهو يضمها لصدره لأنها كانت على وشك السقوط مغشياً عليها على الأرض، كم كانت تأوهاتا عنيفة وقوية!

كتم صوت بكائها وعويلها في عنقه، وقد وجد نفسه هو الآخر يبكي. بدأ بيكيان معاً، وذراعا كل منهما تحتضن الآخر. عندما توقف انهمار الدموع، وتنبها إلى وضعيتهما معاً، شعر "إجنازيو" بـ"جيوسبينا" وقد بدت عليها علامات التوتر وعدم الراحة. رفعت "جيوسبينا" رأسها إلى الأعلى فكانا على وشك الالتحام ببعضهما بعضاً.

فجأة، بدأ يشعر أن هذا الشبح الذي طالما كان يحمله بين ذراعيه في أحلامه، أصبح حقيقة وتحول إلى جسد حقيقي من لحم ودم، لم يكن هذا الشبح في تلك اللحظة ملكاً لأخيه، ولا لابن أخيه، بل ملك له هو، كان دوماً يقف خلفها، وعلى الرغم من ذلك، لم يحاول يوماً بأي شكل من الأشكال أن يلمسها بطريقة غير مهذبة، لكنه يفعل ذلك الآن عندما أصبح "باولو" بعيداً وملازماً للفرش.

كانت "جيوسبينا" تبدو مرتبكة ومتوترة، ولكنه عندما أطل النظر في عينيها، تلاشى بداخلها كل شعور بالوحشة، وضعت يدها على خديه ولمست بأناملها شفثيه. تخيل "إجنازيو" للحظة كيف كانت ستسير الأمور لو أن «جيوسبينا» زوجته هو لا «باولو»، و«فينسينزيو» ابنه، وهذا البيت بيتهما، تخيل لو هلة روعة الأيام والليالي التي كانا سيحظيان بها معاً، وكَمَّ السعادة التي كانت ستغمر قلوبهما، والأطفال الذين كان من الممكن أن ينجباهما في «بانيارا» أو حتى هنا في «باليرمو»، فيا لها من حياة بسيطة وسلسلة كانا سيستمتعان بها معاً! كانت من دون شك ستخلق منه إنساناً سعيداً، أو على الأقل شخصاً راضياً وهانئاً، لكن كل هذا محض خيال وليس حقيقياً؛ الواقع يقول إن «جيوسبينا» زوجة أخيه؛ هذه هي الحقيقة، وأنه في هذا الموقف يُعتبر شخصاً خائناً ووضيعاً. أغلق عينيه للمرة الأخيرة، ولوقت أطول، احتضن الحياة التي طالما حلم بها بقوة، قبل أن يتخلى عنها فجأة ليرحل بعيداً، قبل أن تتمكن منه الغواية مرة أخرى ولا يستطيع أن يقاومها.

بعد مرور بضعة أيام، قررت «ماتيا» العودة إلى «مارسالو» على متن قارب السيد «سالفاتور»، فلم تعد هناك حاجة لبقائها. أعطاه «إجنازيو» بعض النقود، وعانقتها «جيوسبينا» عناقاً طويلاً. غادرت «ماتيا» «باليرمو» بقلب مثقل بالهموم والأحزان، ولم يخفف من وطأة هذا الحزن لا لطف وعطف «فيتوريا»، ولا براءة «فينسينزيو» وهو يودعها بخجل وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة جميلة كشفت عن فكين بلا أسنان؛ إنها تعلم جيداً أنها لن ترى أباها «باولو» مرة أخرى، وأن هناك جراحاً لا يمكن أن تُشفى، لقد حان وقت انتهاء كل هذا الألم وكل تلك المعاناة.

في غرفة النوم، تبدو رائحة المرض خانقة كرائحة العفن، في المقابل، تهب من جهة النافذة رائحة زهور البرتقال من الخارج، مدت إحدى أشجار الليمون أغصانها ناحية النافذة، الشمس أصبح لها صوت كصوت الصراخ على الأغصان. بجوار الباب، وقفت «جيوسبينا» تراقب حركة صدر «باولو» وهو يعلو ويهبط بصعوبة، وتعض على شفثيتها من شدة الخوف، فكل شيء يسير نحو النهاية المحتومة بخطى متسارعة، وإذ بها تقاجاً بشخص يقف إلى جوارها ويده تلمس كتفها بحنان؛ إنه «إجنازيو» يهمس في أذنيها:

- ها أنا ذا حضرت بأقصى سرعة ممكنة، قمت بعمل كل الترتيبات المطلوبة في المتجر، سيحل «موريزيو» مكاني في المتجر حتى أعود إليه.

لكن «جيوسينا» لم تكن منصته له، لقد رأى «إجنازيو» ذلك في عينيها الشاردتين.

- لقد أحضرت «فينسينزيو» معي، تركته يلعب تحت الشجرة، اذهبي لتقضي بعض الوقت بصحبته. تلقت «جيوسينا» الاقتراح براحة بالغة ونفذته على الفور. أرادت أن تبكي ولكنها لم تستطع، فكم كانت تعاني بسبب هذا الزوج الذي لم تحبه يوماً، لكنها في الوقت ذاته، أصبحت تعاني لأنها ستفقد؛ عاشت «جيوسينا» مع «باولو» سنوات طويلة دون حب، وأحياناً كانت تكرهه، لن تتمكن من طلب السماح منه مقابل الإيذاء البدني والنفسي الذي أحدثاه في بعضهما بعضاً، لقد وصل «باولو» لوضع صحي متدهور جعله لا يتمكن من التحدث معها، ما عادا يقويان على ذلك، والشعور بالذنب الذي تحمله بداخلها سيكون نصيبها للتطهر منه على الأرض.

دخل «إجنازيو» إلى الحجرة التي ينام فيها أخوه «باولو»، وصرف الخادمة التي تسهر على رعايته. عندما سمع «باولو» صوته، حرك رأسه وتلألأت عيناه بالفرح من شدة الحمى. جلس شقيقه على الفراش، لم يعد يسأله عن أحواله؛ لقد ولّى عهد هذا السؤال، توقف عن طرح تلك الأسئلة الرسمية المناقفة منذ آخر زيارة للطبيب إلى المتجر. قبلها بعدة أيام، أخبره الطبيب أن المرض القاتل قد أصاب رئتيه بشكل كامل، وأنها مسألة أيام لا أكثر؛ ربما أسبوعان على الأكثر، فدفعت «إجنازيو» الأتعاب له وشكره وعاد إلى العمل، لكن «باولو» قاوم لوقت أطول من الأسبوعين، بسبب ما ورثه من عناد آل «فلوريو» وثباتهم وعزيمتهم التي أبقتة يحيا لعدة أيام أخرى. أمسك بيده وقال:

- لقد أجلسنتي الخادمة اليوم تحت شجرة الليمون، إلا إنني بدأت أسعل من جديد وقد تقيأت دمًا من فمي، لدرجة أنني أغرقت ملابسها كلها بالدم وقرروا تغييرها بالكامل لي.

كان «باولو» يعاني بشدة حتى يستطيع أن يتكلم.

- الرب وحده بيده كل شيء، أليس كذلك؟ هكذا يقولون؟

حاول أن يطلق ابتسامة ساخرة.

- لقد أخذ الرب مني كل شيء، أليس كذلك؟

بدأ في السعال من جديد، وعاد ليتحدث، كان صوته حاداً يشبه صوت حجر ضبط الحديد. قال من خلف المنديل، وبشفاه ظمئة:

- هل أخبرك المحامي «ليون» أنني كتبت وصيتي؟

- نعم.

كان «باولو» يكافح من أجل التنفس. رفع «إجنازيو» رأسه من على الوسادة وساعده كي يشرب. قال «إجنازيو»:

- لن يستطيع أحد أياً من كان أن يضايق «فينسينزيو» بكلمة أو بلفظ ما دمت حياً، لقد عثرت له على معلم جديد كي يعلمه اللغة اللاتينية وغيرها من العلوم، بدلاً من «أنطونيو جالجيليانو» الذي سيصبح قساً قريباً...

قاطعت إشارات «باولو» حديث «إجنازيو» عن «فينسينزيو»:

- حسناً، حسناً.

ضغط «باولو» على ذراع «إجنازيو»، فشعر «إجنازيو» بمدى الضعف الذي حل بأخيه، لقد سلبه المرض قوته وصلابته فلم يعد يقوى على شيء.

- أنصت إليَّ جيِّدًا، الأفضل من ذلك أن تقدم له ما لا يمكنني القيام به الآن.
غطى "إجنازيو" يد أخيه بيده:

- أنت تعلم أنني ما كنت لأحبه أكثر لو كان ابني ومن صليبي.

- لا، بل عليك أن تحبه أكثر، أتفهمني؟ عليك أن تحضره لي، عليك أن تصبح والده، أتفهمني؟
نظر "إجنازيو" إلى "باولو" كما لو كان يريد أن يفهم ما الذي يشير إليه بالتحديد، لم يحتمل
"إجنازيو" الفكرة، فوقف. في الخارج، كانت "جوسيبينا" و"فينسينزيو" يلعبان تحت شجرة الليمون.
تحدث، وكان يزن كل كلمة يقولها بميزان من ذهب، فلم يكن "إجنازيو" يريد أن يزعجه ويتسبب له
في أي ضيق أو أذى.

- لقد التقيت أحد أبناء عم "باربيرو"، وأعطاني رسالة لك من زوج أختنا "باولو".
ضرب "باولو" على السرير بقوة، وقال وهو يبكي:

- يا إلهي! لقد كنت أفكر بهما هو و"ماتيا"، لاحظت أن هذا العقاب الذي أنزله الرب بي كان بسبب
عدم مساعدتي له وهو مريض، كان بإمكانني أن أساعده، ولكن بدلًا من ذلك، وبدلًا من أن ألتقي أختي
المسكينة، رفضت لقاءها.

ثم جفف دموعه.

- عليك أن تخبر "ماتيا" أنني سامحتها، ستخبرها أليس كذلك؟ وأخبرها أن تسامحني، يجب أن
تسامحني، لأنني لم أفعل شيئًا، لقد أوقع بي الشيطان، ولعنني.

نظر "إجنازيو" إليه؛ أراد أن يقول شيئًا كي يهدئ من روعه، لكن العبارات أبت أن تخرج من حلقه،
ضاق صدره حتى أضحي كقبضة طفل صغير. كان أخوه "باولو" مرعوبًا؛ لقد رأى الخوف في
عينيه، لا بد أنه شعر باقتراب موته لأنه طلب السماح بهذه الطريقة، لأنه طلب التوبة والسماح على
هذا الزمن. رفع "باولو" رأسه من على الوسادة؛ شعره مجعد من العرق وملتصق بجبهته.

- حسنًا، ما رسالة "باربيرو"؟

أرغم "إجنازيو" نفسه على الرد، تردد "إجنازيو" في البداية ثم ما لبث أن انطلق بتتهيدة:
- يقول إنه يصلي من أجلك ويتمنى لك الشفاء العاجل.

لم يعرف لماذا وجد هذه العبارات سخيفة، بدأ يضحك، وبعدها بلحظة تبعه أخوه، ضحكا معًا على
عبارات "باربيرو" السخيفة، كأنهما اكتشفا للتو أن الحياة مجرد مزحة كبيرة، وأن إصابة "باولو"
بمرض السل الرئوي ما هي إلا خدعة كبرى من الرب، كي يعودا وينهيا خلافهما معًا وكان شيئًا لم
يكن، ويكتشفا أن كل ما حدث كان خدعة من الرب ولم يصب "باولو" حقًا بالسل الرئوي ولم يكن
"باربيرو" مريضًا، وأن الرب أتى بهذه الخدعة كي يتصالحا وتعود المياه لمجاريها، لكن للأسف
الشديد الواقع غير ذلك، وهذا هو الأمر المثير للضحك والسخرية! لن يكون هناك سلام حقيقي،
وستبقى الأمور معلقة ومنتاثرة! تحولت ضحكات "باولو" فجأة إلى نوبة من السعال، أسرع
"إجنازيو" كي يناول أخاه الوعاء ليصبق فيه المزيد من كتل الدم والبلغم. احتضنه "إجنازيو"، لقد
أصبح "باولو" نحيلًا، تغلب عليه المرض ولم يترك منه سوى النذر اليسير؛ مجرد بقايا جلد على
عظم، كتلة من العظم تحوي روحًا لا تهزم، ليس الآن علي الأقل.

عندما فتح "فينسينزيو" الباب منذ عدة أيام، رأى رجلًا يرتدي رداء الكاهن الأسود ومعه رداء
أرجواني؛ إنه السيد "سورس" قس "أوليفيوزا"، كان وجهه متعبًا من شدة الحرارة.

- لقد أرسلت أمك لاستدعائي، أين المريض؟

أتت الخادمة بسرعة وقالت له:

- من هنا، تفضل.

رأهما الطفل الصغير وهما يختفيان في الجوانب. رائحة الصيف ونسمات الحرارة الآتية من الحديقة وفتت خارج الباب، فهرب "فينسينزيو" لأنه لم يرغب في سماع ولا رؤية المزيد. بعد ذلك بقليل، حضر "إجنازيو" بعد أن انتهى من تجهيز الترتيبات الخاصة بالجنائز، ليجد "جيوسبينا" جالسة على طرف السرير لا تتنطق ولا تبكي، تعض على أناملها، تائهة، ربما كانت كذلك، تحملق في جسد "باولو" المسجى أمامها على الفراش. تمتت "جيوسبينا" وهي ممسكة بمسبحة الخرز:

- نحن بحاجة للحصول على ملابسه.

فأجابها بحزن:

- بالطبع، سأذهب إلى "ماتيراسي" لأرتب الأمر. يجب أن أخبر "موريزيو ريجيو" أن يغلق المتجر ليومين.

صمت لبرهة، ثم قال:

- عليّ أن أخبر "ماتيا" وأقاربنا في "بانيارا"، سوف أصطحب "فينسينزيو" معي.

حاولت "جيوسبينا" أن تجيبه بوضوح، لكنها لم تقوَ سوى على الهمس:

- فليصلوا من أجله جميعاً، عليهم أن يصلوا من أجل روحه كي تنتظر من الآثام. في النهاية، تاب "باولو" من كل الآثام التي ارتكبها في حق أخته، لقد أخبرني بذلك عندما كنت أغير له ملابس النوم، بعد أن أتم اعترافاته أمام القس وتاب من كل ذنوبه وآثامه، وتبرع كذلك بجزء من أمواله للفقراء واليتامى، نحن بحاجة لهؤلاء، أخبر "فيتوريا" أن تهتم بهذا الأمر.

هز "إجنازيو" رأسه، وكتم الهواء في صدره، ليخرجه فجأة بقوة لينأكد أنه ما زال على قيد الحياة. اقترب من جثمان شقيقه؛ ما زال جسده دافئاً، وبشرته شفافة ونقية، ويداه اللتان كانتا يوماً قويتين وصلبتين أصبحتا نحيلتين وضعيفتين، كسا شعره ولحيته الشيب. مد يده ليداعب خصلات شعره، وفجأة، جثا على ركبتيه وقبل جبهته وبقي هكذا لبعض الوقت؛ شفتاه ملتصقتان ببشرته وآهات الحزن تمزق حلقة، ما من شك في أن "إجنازيو" سوف يحمل هذه اللحظة بداخله لبقية حياته، القبلية التي طبعها على جبهة أخيه هي ختم الوعد، وقسمٌ يخرج من فمه لا يسمعه سواه هو و"باولو". استقام "إجنازيو" ووقف على قدميه وخرج من الحجر؛ ذهب في اتجاه شجرة الليمون التي ينتظر الطفل بجوارها.

- هل قلت وداعاً لأبيك؟

لم ينظر له، كان يلعب بقطعة من الخشب وقد شققها لعدة أجزاء.

- نعم.

مدّ "إجنازيو" يده فالتقطها "فينسينزيو"، وسارا باتجاه العربة التي كانت تنتظرهما في الحارة. كان هناك حشد صغير من الـ"كاليبريين" خارج المتجر، وقف "موريزيو ريجيو" على العتبة، احتضن "إجنازيو" وأخذ منه التعليمات، وبعد ذلك بدقائق، أغلقت الأبواب الخشبية للمتجر، وعلقت شارة الحداد عليها. لم يتمكن "إجنازيو" من الهروب من نظرات الناس، رشم البعض الصليب على جسداهم، والبعض الآخر تقدموا بعبارات العزاء لـ"إجنازيو". سار "إجنازيو" في طريقه وهو ممسك بيد ابن "أخيه" بقوة. على عتبة الباب، وفتت "فيتوريا" تبكي بصمت، جذبت ابن أخيها وقبلته واحتضنته بقوة.

- أنت الآن بلا حماية مثلي.

وقف "فينسينزيو" في مكانه صامتًا. عند البيت، وجدوا "جيوسيب باربيرو" في انتظارهم - وهو أحد أقارب "أميديو" - ليعرض عليهم المساعدة لإتمام إجراءات الجنازة.

- فليرحمه الرب!

أجابه "إجنازيو":

- أمين.

كل شيء هادئ في الشقة. أخذت "أورسولا" "فينسينزيو" لغرفة النوم ليرتدي ملابس الحداد. خزنة الملابس الموجودة في غرفة نوم والديه قلبت رأسًا على عقب، يرافق صوت حفيف القماش مقتطفات من الحوار الذي دار بين "فيتوريا" و "إجنازيو" و "أميديو":

- لقد كانت حالته متأخرة للغاية.

- أيها الرب الرحيم!

- علينا أن نجهز الكفن.

- يجب أن يتم تزيين الكفن بواسطة أحد الفنانين، وتُتلى عليه الصلوات. لم يكن أخي "باولو" رجلاً عاديًا، فشققي هو السيد "باولو فلوريو" صاحب أكبر متجر عطارة هنا في "باليرمو"، فهو من أسس هذا المتجر وهذه السمعة الطيبة.

فجأة، فهم "فينسينزيو" كل شيء، وأن كل شيء قد ضاع؛ راحة كف والده عندما كان يضع يديه على كتفه، قبضته القوية، ذقنه التي كان يحكها في وجهه وهو يداعبه، نظرتة الحادة، يداه اللتان كانتا تضعان لحاء الشجر على الميزان، رائحة التوابل التي كانت عالقة دومًا بملابسه. أسرع "فينسينزيو" نحو حجرة نوم والديه ليكتشف أن والده لن يعود مرة أخرى إلى المنزل، وعندما تمكنت الحقيقة منه، التفت عيناه عيني "إجنازيو" التي كان يسكنها الألم نفسه الذي يسكن عينيه، وفجأة، قرر "فينسينزيو" أن يهرب وعيناه مملوءتان بالدموع، وقدماه تنزلق على بلاطات الطريق، هرب من البيت وهو يخدع نفسه أنه إن هرب من المنزل سيخلع عنه هذا الحزن المقيم ويرمي وراء ظهره. نادى عليه "إجنازيو"، أسرع الفتى في الركض كأنه يطير فوق جمرات نار، واختفى في شوارع "في سان سيبياستيانو" حتى إن "إجنازيو" لم يعد قادرًا على رؤيته.

- توقف يا "فينسينزيو".

قالها ويداها على ركبتيه.

- هذا كل ما أريده.

تمتم "إجنازيو" هكذا ووقف ليلتقط أنفاسه، وبدأ في البحث عنه في وسط الميناء المزدهم، حاول أن يتجنب رؤية المعارف الذين أتوا لتقديم واجب العزاء أثناء خوضه وسط البضائع المعدة للشحن، حتى وصل لوسط "لاكالا" ومسحها بعينيه، ومن كنيسة "بيدجروتا" وحتى "لازاريتو"، ألفت "كاستيلو ماري" ظلالها على الميناء لتجذب العشرات من الأشرعة قدرته على الرؤية. في النهاية، وجده جالسًا على حافة الرصيف البحري، قدماه متدلّيتان وهو يبكي. اقترب منه بحرص ونادى عليه، لم يلتفت الصبي حوله ولكنه حرك كتفيه، أراد "إجنازيو" أن يعنفه - وهذا حقه - بعد كل ما حدث، لم يكن لهروب معنى سوى التبحر، إضافةً إلى أنه صبي والصبيان لا يبكون، ولكنه لم يعنفه، بل جلس إلى جواره. بقيا بجوار بعضهما بعضًا صامتين لبعض الوقت. أراد "إجنازيو" أن يطمئنه ويخبره كيف كان شعوره عندما ماتت والدته بعد الزلزال، لقد كان في عمره نفسه، وشعر بعد وفاتها آنذاك

بالضياع والخواء والوحشة، لكن ماذا عن فقد الأب؟ لم يستطع "إجنازيو" أن يتخيل كيف يكون شعور الإنسان عندما يبنتلى بفقد الوالد، لأن السيد "ماسترو فينسينزيو فلوريو" حداد قرية "بانيارا" كان مجرد ذكرى باهتة في مخيلته، لأن "باولو" كان دومًا هناك، لقد كانا دومًا معًا، كان "باولو" كل شيء بالنسبة له خاصة عندما بدأ يذهب إلى العمل عبر البحر معًا.

هو الآن يخشى المجهول الذي ينتظره، مرعوب، لكنه لا يستطيع أن يخبر أحدًا بحقيقة شعوره، عليه أن يتقمص دومًا صورة الشخص الصلب القوي المتماسك حتى في أصعب الظروف، لأن الجميع يعتمد عليه بعد وفاة "باولو"، لكنه في قرارة نفسه يشعر أنه طفل ضائع ووحيد لا يدري ماذا يفعل، لا فرق بين "فينسينزيو" الصغير و"إجنازيو" الكبير، فكلاهما فقدا والديهما ومصدر الأمان لهما في الحياة. كسر "فينسينزيو" حاجز الصمت أولاً وقال:

- ماذا سأفعل من دونه؟

- هذا قدر والدك؛ إنها إرادة الرب.

بهذه الكلمات، أراد "إجنازيو" أن يقدم تفسيرًا مناسبًا للصبي، وله هو أيضًا.

- سوف نكمل المسيرة في الحياة وفقًا لما قدره الله لنا، هذه الأقدار مسطورة على عظامنا منذ اللحظة الأولى التي أتينا فيها إلى هذا العالم، ليس هناك ما يمكننا أن نفعله حيال أقدارنا.

حل الصمت بينهما، لم يخترقه سوى صوت اصطدام موجات البحر للرصيف البحري.

- لا.

قالها وهو يحاول أن يسيطر على دموعه.

- إن كانت هذه هي إرادة الرب، فأنا لا أريدها.

- ما الذي تقوله يا "فينسينزيو"؟!!

إنها كلمات عنيفة، تتعدى على الرب، وقوية بالنسبة لطفل صغير لم يبلغ من العمر سوى ثماني سنوات.

- لا أريد أن أرزق بأبناء، إن كنت سأموت بهذه الطريقة في النهاية، فأمي تبكي، وأنت أيضًا حزين، يمكنني أن أرى ذلك بوضوح.

كانت نبرة صوته عنيفة. رفع رأسه لأعلى وقال:

- والآن أنا مجبر على أن أكمل بقية حياتي وحيديًا من دونه، ولا أدري ما الذي يجب عليّ أن أفعله.

حدق "إجنازيو" في ماء البحر الأسود، كانت تحلق فوقهم طيور النورس البيضاء في دوائر يحملها هواء الظهيرة.

- لست أدري ماذا يجب عليّ أن أفعل، لقد سحبت البساط من تحت أقدامه، لقد كان دومًا هناك والآن...

أخذ الصبي نفسًا عميقًا وأردف:

- ... والآن أنا ووحيد، نحن وحيدون.

مال الصبي على كتف عمه واحتضنه. لقد تغير كل شيء الآن، لم يعد "إجنازيو" يتمتع برفاهية أن يصبح الابن والأخ، لقد أصبح هو المسئول عن كل شيء؛ العمل والتجارة والعائلة، كل شيء أصبح من مسؤوليته، هذا هو الشيء الوحيد المؤكد بالنسبة له.



الحرير

صيف 1810 - يناير 1820

“يمدح البائع دومًا بضاعته”

- مثل شعبي صقلي

ما إن أُجِيسَ “جوزيف بونايرت” شقيقُ الإمبراطور والقائد العسكري الفرنسي الفذ “نابليون بونايرت” على عرش إسبانيا، حتى قام “نابليون” نفسه بخلعه من منصبه، وتنصيب صهره “جواشيم مورات” ملكًا على “مملكة الصقليتين” في الأول من أغسطس عام 1808، ليشهد العام 1812 اندلاع العديد من المظاهرات والاحتجاجات في صقلية، بسبب ضريبة الدخل التي فرضها “فرديناند السادس” تزامنًا مع قيام الحكومة الصقلية بإصدار دستور جديد - تمت صياغته وفقًا لنظام “الوستمنستر” - بهدف تجريد الملك “البوربوني” من كافة سلطاته، وإلغاء الإقطاعيات، وإصلاح الجهاز الحكومي. كان الدستور الجديد يناشد بالأساس تحديث مجتمع الجزيرة، فضلًا عن تدشين علاقة أكثر حميمية مع البريطانيين المهتمين بالحفاظ على جزيرة صقلية مستقلة بعيدًا عن يد الفرنسيين.

في العام نفسه، قرر “نابليون” أن يشن حملته الكارثية على روسيا، ولكن بعد هزيمته في موقعة “لايبزيغ” (19 أكتوبر 1813)، قرر صهره “مورات” بعد الهزيمة أن ينشئ تحالفًا مع النمسا على أمل الاحتفاظ بالعرش، لكن “مورات” سرعان ما غير موقفه ونقض تحالفه مع النمساويين وقرر العودة مرة أخرى لأحضان “نابليون”، حدث هذا في عام 1815، وفي الواقع لم يقف النمساويون وقفة المتفجع أمام هذه التصرفات الفوضوية، ودارت معركة كبرى بين النمساويين (حلفاء الأوس) و«مورات» ملك «الصقليتين» (أعداء اليوم)... ألحق فيها النمساويون هزيمة نكراء ب«مورات» في موقعة «تولينينو» (٢ مايو ١٨١٥)، وقد تم على إثرها توقيع معاهدة «كازالانزا» (٢٠ مايو ١٨١٥) التي نصت على عودة «فرديناند السادس» ملكًا على عرش مملكة نابلس، وتنصيب ابنه «فرانشيسكو» قائدًا عامًا على المملكة في «باليرمو».

لم ينته الأمر عند هذا الحد، ففي الثامن من ديسمبر 1816 بدأ الملك “فرديناند السادس” التحضير لانقلاب عسكري، لتوحيد مملكتي نابلس وصقلية معًا تحت لوائه، وعندما نجح في مخططه، استولى على العرش وأطلق على نفسه اسم الملك “فرديناند الأول” ملك الصقليتين، وتم إلغاء دستور عام 1812، والتعامل مع الجزيرة كمستعمرة وإخضاعها لنظام ضرائب شديد القسوة.

لم أسمع من قبل أن “باليرمو” تنتج الحرير، وكل ما أعرفه أن مدينة “ماسينا” هي التي تشتهر بإنتاج وتجارة الحرير الطبيعي، أو ربما كان هذا الكلام صحيحًا، إلا إذا كنت تقصد العائلات التي تسكن في المنطقة المحصورة ما بين المضيق وسهل “كاتانيا”، فهي حقًا بارعة في تربية دود القز باستغلال أشجار التوت القديمة التي تنتشر في هذه المنطقة بكثافة، والتي يعود تاريخ زراعتها إلى ما يقرب من قرن من الزمان. تستخدم هذه العائلات أوراق هذه الأشجار في تغذية اليرقات حتى تكبر وتنتج الحرير، وتعتمد تربية يرقات دودة القز على النساء المتواجديات هناك بشكل أساسي، ويتم منح العاملات في هذا المجال أجورًا مقابل العناية بهذه اليرقات واحتمال رائحتها الكريهة. تتمتع النسوة اللاتي يعملن في هذا المجال بفرصة أكبر من الفلاحات والفتيات، اللاتي يخدمن في قصور العائلات

الأرستقراطية بالحرية والاستقلال، بالإضافة إلى السماح لهم بالاحتفاظ بمدخراتهم لأنفسهم، لكن هذا صار دربًا من دروب الماضي، فبعد اكتشاف حرير مستعمرات الشرق الأقصى الذي كان أرخص بكثير من مثيله في "باليرمو"، انتهت هذه الأسطورة واندثرت بالكامل.

كان أول من مد يده بقوة وشرع في هذه التجارة هم التجار الإنجليز، الذين اجتهدوا في شراء غزل المستعمرات وإرساله إلى مصانعهم بالمملكة المتحدة لتصنيعه، ثم نقله إلى موانئ إيطاليا ليتم تصديره لجميع أنحاء العالم، أو استيراد الأقمشة الملونة من هناك مباشرة وبيعها.

بهذا الاكتشاف الجديد، نعلن انتهاء عصر المنسوجات الأوروبية المقلمة بألوانها الباهتة، ودخول عصر المنسوجات الحريرية المزركشة، فبعد مرور سنوات عديدة على نهاية الحرب ضد "نابليون"، كان الناس بحاجة ماسة لإطلاق عنان الخيال والإبداع والتجديد في حقبة ما بعد "نابليون"، ولهذا السبب، بدأت تتقلص صادرات صقلية لإيطاليا شيئًا فشيئًا، حتى توقفت تمامًا، وهو ما نتج عنه إهمال كبير في أشجار التوت التي كانت تتغذى عليها يرقات دودة القز من أجل إنتاج الحرير، وبدأ الهوس بالخزف الصيني المزركش يستشري في سائر أنحاء أوروبا عامة وفي "باليرمو" خاصة، وانتشرت كل أنواع الأثاث والخزف والعاج الصيني المنحوت وبالطبع المنسوجات، إلى درجة أن أسرة "البوربون" الحاكمة تبنت اتجاهها وسايرت الموضة الحديثة، فقرر الملك "فرديناند" بناء بيت الصيد الخاص به على الطراز الصيني، أما الأثرياء من أبناء الطبقة الأرستقراطية، فاعتبروا أن الاحتفاظ ولو بحجرة واحدة في قصورهم على الطراز الصيني دليل على الثراء والعزة، وارتدى الأثرياء الملابس المصنوعة من الحرير الصيني المزركش.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انفتح الباب؛ لم تعد الأبواب الزجاجية للمتجر تصدر صوتًا كما كانت من قبل، والمفصلات الموجودة بالباب تم تشحيمها بشكل جيد، ما جعلها تنزلق بهدوء وسلاسة.

مرر "إجنازيو" يده على طاولة البيع المصنوعة من خشب "الماهوچني" القوي وقطعة الرخام الناعمة المثبتة فوقه، تفحص "إجنازيو" بتأنٍ بلاط الأرض، ثم نظر إلى الأعلى تجاه مجموعة الأدرج المصنوعة من خشب الجوز المنقوش عليها أسماء التوابل، كان المكان معبأ برائحة الخشب والطلاء. وقف "إجنازيو" في منتصف الغرفة وحيدًا، ولكن ما باليد حيلة، لقد ظل يحلم بهذا اليوم وبتلك اللحظة منذ عامين، تحديدًا منذ أن وافق "فينسينزيو رومانو" المالك السابق للمتجر أن يبيعه إياه. في ذلك الوقت، كان جرح وفاة شقيقه "باولو" ما زال ينزف بشدة وأثره لم يُشَفَ، كان ذلك في فصل الصيف الماضي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان وجه "فينسينزيو رومانو"؛ مالك المبنى القائم في ضاحية "فيا دي ماتيريسي"، مضيئًا كالبدر وهو يقول:

- الآن وقد تفحصت كل شبر في المتجر، ما رأيك يا سيد "إجنازيو"؟
جلس "إجنازيو" على مكتب "فينسينزيو رومانو" وتفحصه بالكامل من أعلى لأسفل، ثم دعاه بعدها إلى الذهاب والجلوس للاتفاق على كل التفاصيل في مكتبه الخاص.

هناك في "الأروماتوريا"، دخل "إجنازيو" وجلس على مكتبه، لكنه لم يأذن لـ "فينسينزيو رومانو" بالجلوس، تركه عن عمد واقفًا لبعض الوقت كالمتموّل كي يربكه ويجعله يشعر بعدم الراحة، حتى انتهى من توقيع بعض الأوراق؛ أراد "إجنازيو" بذلك أن يرسل رسالة واضحة لـ "فينسينزيو" وهي،

أن آل "فلوريو" لم يعودوا هم أنفسهم الذين وفدوا إلى "باليرمو" منذ بضع سنوات، لقد أصبح لديهم الآن الكثير من العمل والطلبات والقليل من الوقت، وما عادوا متلهفين على امتلاك المتجر كما يعتقد، لكي يُخفوا عقدة نقصهم ويتساووا مع "كانزونيري".

تحدث "رومانو"، وهو يلامس حافة المكتب:

- هل أصابك مس من الجنون يا سيد "إجنازيو"؟ بهذه الطريقة، لن أبيع لك هذا المتجر أبدًا مهما حدث، على جثتي!

كان "إجنازيو" يعرف جيدًا مدى ولف "فينسينزيو" بالمال، وتوقع منه أن يثور في وجهه هذه الثورة العارمة، لكنه كان يعرف كيف يلجمه ويبتلع ثورته ويسيطر عليها، دون اللجوء إلى استخدام لغة التهديد والوعيد ردًا على ثورة "فينسينزيو"، بل على العكس تمامًا، بدا هادئًا واثقًا ومتحليًا بالصبر والأدب كعادته.

- فلتهذا قليلًا يا سيد "فينسينزيو"، حاول أن ترى الأمر بشكل موضوعي؛ هل تتكر أن هذه الغرف والموازين بحاجة إلى التجديد؟ فالكثير من الأبواب تصدر صريرًا.

- وماذا في ذلك؟ كل ما يحتاجه المتجر هو إعادة طلاء وتشحيم جيد للأبواب، وتنتهي المشكلة.

- ليست هذه هي المشكلة؛ المشكلة الحقيقية هي المياه التي تنشع من الأرضية، هناك الكثير من العمل والترميمات التي يجب القيام بها وبسرعة، وبعدها قمت بعملية المعاينة بنفسي، أشك في أنك قد تجد مستأجرين آخرين غيرنا لاستئجار هذا المكان، هذا بالإضافة إلى أننا إن لم نتم الصفقة معك، فستجد نفسك مجبرًا على القيام بكل تلك الإصلاحات بنفسك والتي ستكلفك بالطبع الكثير من الأموال، حتى تتمكن من البيع أو التأجير لغيرنا.

تمكن الغضب من "فينسينزيو رومانو" وقرر الرفض، لكنه توقف في اللحظة الأخيرة، لأنه يعلم أن "إجنازيو" على حق في كل ما قاله بشأن العيوب الموجودة بالمتجر.

إنه الشك يا سادة؛ شرخ في جدار الرفض، كان ذلك واضحًا في عينيه المرتبكتين وفمه نصف المفتوح من الذهول، كان يعتقد أن لديه ورقة ضغط قوية يلعب بها مع آل "فلوريو" ليحصل على الكثير من المكاسب، كان يعتقد أن آل "فلوريو" الفلاحين لن يصدقوا أنفسهم من الفرح، لمجرد أنه سيبيع لهم المتجر حتى بحالته المزرية تلك، وأن النقص الذي يعانون منه بسبب أصولهم الفقيرة ستجعلهم يدفعون أي مبلغ يطلبه مقابل إرضاء شعورهم بالنقص، وإرضاء غرورهم في أنهم أصبحوا أخيرًا يقفون على قدم المساواة مع "كانزونيري" و"ساجاتو"، لكنه فوجئ بردة فعل "إجنازيو" وزهده في المتجر وذكائه الحاد وحنكته ودهائه.

- لدي اقتراح لك يا سيد "فينسينزيو" أعتقد أنه سيكون مرضيًا لكلينا، أنت تقول إنك لن تباع لنا المتجر، أليس كذلك؟

في تلك اللحظة فقط، سمح له "إجنازيو" بالجلوس.

- وما هو؟

- أن نوقع عقد إيجار طويل الأمد.

- حسنًا، فهمتك؛ تريدني أن أبقى المالك على الورق وتصبح أنت بموجب هذا العقد صاحب الحق الكامل في التصرف، أي أنني سأكون المالك اسمًا، ولكن من دون أي صلاحيات.

في تلك اللحظة، أطلق "رومانو" تهديداته لـ "إجنازيو" بصوت هادئ:

- أريد أن أخبرك أن هناك فرقاً كبيراً بين الكلب وخطم الكلب، سأكون بموجب هذا العقد مجرد واجهة لا أكثر، هناك فرق شاسع بين الوضعين.

- لا تؤاخذني يا سيد "رومانو"، فالأمور ليست كذلك، اهدأ قليلاً ولا تتسرع في الجواب. انظر دوماً إلى الجانب المشرق من الموضوع أو إلى نصف الكوب الممتلئ، فبموجب هذا العقد، ستبقى على الأقل أمام الآخرين المالك الحقيقي للمتجر، وأنا بتجارتني سندفع تكاليف تجديد وترميم المتجر، وسنتحمل كافة النفقات في سبيل تحقيق ذلك، ما لم يكن لديك رغبة حقيقية في البيع.

فتح "إجنازيو" يديه بحركات معبرة وأكمل:

- الأمر كله يعود إليك، ونحن كذلك أحرار في البحث عن مكان آخر.

تحدث "إجنازيو" بصراحة، ونجح في كبح جماح مخاوفه لأنه في الحقيقة كان يخاطر بمخاطرة كبيرة، فإذا ما أصر "رومانو" على الرفض، فسيتوجب عليه البحث عن مكان آخر ومخازن أخرى لتخزين بضائعه، وسيتوجب عليه كذلك أن يترك المكان الذي بدأ فيه هو و"باولو" سيرتهما الأولى، عندما حضرا معاً من "بانيارا" بحثاً عن لقمة العيش في هذا البلد الموحش، لكنهم ما عادوا بإمكانهم البقاء في مكان تستشري رائحة العفن في حجراته الخلفية وفي ظل وجود هذه الأبواب المتهالكة، لأنها ما عادت تتلاءم مع الوضع الجديد لصاحبة "كازا فلوريو". انتهى الحديث عند هذا الحد دون التوصل لاتفاق.

بعد فترة وجيزة، عاد "رومانو" ليحصل الإيجار من "إجنازيو"، فانتهاز "إجنازيو" فرصة وجوده وقدم له عرضاً غير متوقع بشراء المتجر، جعله يفكر وهو يسير في الغرفة جيئة وذهاباً قبل أن يطرح هذه الأسئلة على "إجنازيو"، كان مذهولاً أكثر منه ساخرًا:

- هل تشعر بالغيرة من آل "كانزونيري" و"جوليز" لأنهم يمتلكون متجرهم "البوترا"؟

- لا لا، على الإطلاق، ولكنني أحب أن أحصل على بعض الطمأنينة؛ أن أتأكد أن كل عرقي وجهدي ودموعي لي دون غيري، دون أن يأتي شخص آخر ليقدر لي ماذا يجب عليّ أن أفعل، ولن أنفق أموالاً على متجر قد تقرر في يوم من الأيام أن تبيعه لشخص آخر، هل تفهمني؟

نعم بالفعل، إنه يفهم. خرج "رومانو" وهو يقول:

- سأفكر في الأمر.

لكن التفكير في الأمر لم يأخذ منه وقتاً طويلاً كما كان يخشى "إجنازيو"، وفي النهاية وافق على العرض. في البداية، كان توقيع عقد الإيجار طويل الأمد، بعدها بدأ العمل، فحضر الغطاس، والنجار، وعامل البلاط والنوافذ الجديدة لمباشرة أعمالهم، بعد مرور عدة أشهر قليلة، تخلص "إجنازيو" من فكرة الإيجار وأصبح المالك الأوحدمتجر التوابل.

إن تذكره للنجاحات التي حققها المتجر تحت إدارته في الستة أشهر الأخيرة من العمل، كفيلاً بأن يجعل قلبه يقفز من مكانه من فرط السعادة. اكتظت الأرفف بأوعية "المايوليا" المزخرفة المذيلة باسم "فلوريو" من الأسفل. في داخل مخازن "فيا دي ماتيريسي"، الموجودة في ضاحية "بيانو سانت جياكومو" وبجوار مكتب الجمارك، أجولة من لحاء الخشب القادم من بيرو في انتظار أن يتم إنزالها من أجل استخلاص بودرة "الكينوا" منها، لقد أصبحت "أروماتوريا فلوريا" على النحو الذي حلم به "إجنازيو"، أضحت صيدلية كبيرة كما كان يحلم بها. هناك شيء واحد فقط احتفظ به "إجنازيو" من مقتنيات المتجر القديم، وهي الموازين التي كان يستخدمها شقيقه "باولو" في وزن التوابل في بداية عملهما.

خارج باب المتجر، يقف جمع من خدم الأرستقراطيين يشاهدون عبر النوافذ، وهم يهمسون أن "البيوتيدا" أصبحت ملك الفلاحين اللذين وفدا من "بانيارا"، كانت وجوههم تظهر حقدهم وحسدهم، و"إجنازيو" مستمتع برؤيتهم وهم ممزقون ما بين الفضول والشك؛ لن يعترفوا أبدًا بأن الحقد يأكل قلوبهم ويدفعهم إلى الوقوف هناك ينتظرون.

بالنسبة له، جلس في انتظار الشخص الذي سيحاول أن يقف في طريقه. هناك لعبة جديدة تحاك في الخفاء ليس فقط ضد "كانزونيري" و"ساجوتو"، ولكن ضد كل محال العطارة في "باليرمو" الذين بدؤوا بالفعل يتهايمسون فيما بينهم متعجبين وخائفين، ولأن آل "فلوريو" لم يعودوا تجارًا عاديين بعد الآن، فقد أصبحوا تجارًا عظماء الآن وموزعين، يمكنهم أن يقولوا ذلك بملء الفم وهامتهم عالية.

فتح الباب، ودخل أحدهم المتجر، التفت "إجنازيو"؛ إنها "جيوسينا".
- ما هذا؟ لا أكاد أصدق ما أراه! المتجر أصبح رائعًا، أصبح رائعًا حقًا!

كانت تتحدث وهي مذهولة، وفمها مفتوح نصف فتحة من شدة الدهشة والذهول، كانت الخطوط القائمة بين حاجبيها منبسطة، وهو دليل على الراحة والسكينة، وقد ارتدت في يديها قفازات ملونة لكسر حدة ثوبها الداكن.

- لم أكن أعتقد أبدًا أن المتجر سيتغير كثيرًا عما كان عليه، وسيصبح هكذا كما أراه.

تغيرت هي الأخرى بشدة، فلم تعد "جيوسينا" القديمة ابنة قرية "بانيارا" البسيطة؛ الرفاهية والثراء غيرا كثيرًا من ملامحها وطريقة ارتدائها للملابس، أصبح البيت يعج بالخدم، وأصبح لها خياطها الخاص الذي يحيك لها كل ما تريده من الثياب، ولم تعد تحيك ثوبها على ضوء الشموع، لأن خزانتها قد امتلأت بكل أصناف الملابس والأحذية الجديدة والمعاطف، وازدادت أصناف الطعام التي توضع على المائدة، أما "فيتوريا" فما زالت تعيش معهم، على الرغم من أنها عبّرت عن رغبتها في تكوين أسرة خاصة بها، لكن المشكلة ليست في المزيد من الملابس الأنيقة ولا الأيدي الناعمة التي لم تعد مشققة من كثرة العمل والعناء، لكن في البريق الجديد الموجود في عيني "جيوسينا"، وقد حلت عليها السكينة بدلًا من القلق والتوتر اللذين غرقت فيهما طوال فترة حياتها مع "باولو". شاهدتها "إجنازيو" وهي تسير حول المتجر، وتتلمس الأدرج بأناملها، وتفتح أحدها لتستمتع برائحة التوابل، رفعت رأسها وابتسمت له، لم يستطع أن يبعد عينيه عنها. فهمت مع نفسها:

- عمل رائع حقًا.

تمنى بينه وبين نفسه لو استطاع أن يلمس وجنتيها ليشعر بدفئتهما، لكنه بدلًا من ذلك مرر ذراعيه ليرتدي المعطف الجديد، مع حرصه ألا يكرمش المعطف، لأنه قد فصله خصيصًا ليرتديه في حفل افتتاح المتجر بعد التجهيزات والتعديلات التي أجريت عليه، ليتأكد كل من يأتي للمتجر؛ أيًا من كان هذا الشخص، أنه لم يعد يتعامل مع عامل بالمتجر بأكمام مطوية، ولكن مع سيد من أسياد «باليرمو» وأحد التجار المعروفين بها.

في تلك اللحظة، وصل «فينسينزيو»:

- أمي، عمي! لماذا لم تنتظري؟

بدا الصبي أطول بكثير من أقرانه في مثل هذه السن؛ يا للعجب! لقد بدا كشاب يافع على الرغم من أنه ما زال في الحادي عشر من عمره! مرر «إجنازيو» أصابعه في شعر الصبي ليذاعبه.

- نحن لم نذهب لأي مكان، بالإضافة إلى أن ما أتيت لرؤيته موجود في الخلف، لكن الطلاء لم يجف بعد.

سار عبر الممر المؤدي إلى غرفة الحسابات، وعلى المكتب وجد الكثير من المحابر الجديدة، وكميات كبيرة من الورق والمناشف.

أشار «إجنازيو» لللافتة كبيرة مصنوعة من الخشب وموضوعة بعناية على الأرض في آخر الحجرة، كانت الألوان الموجودة على اللافتة جميلة وبراقة، ما زالت النقوش والرسومات حديثة، وفي الأسفل توقيع الرسام «سيلفاتور بوررجاريلو» المعروف في جميع أنحاء «كاستيلامارا»، الذي انتهى من تنفيذها صباح اليوم، وقال إنها يجب أن تجف بعيداً عن الشمس وإلا سيتشقق الطلاء. وضعت «جيوسبينا» يدها على فمها وكأنها ستطلق صرخة ما، وعينا «فينسينزيو» دارت من اللافتة إلى عمه، وأشار إلى الكلام المكتوب على اللافتة «صيدلية فلوريوز لصاحبها إجنازيو وفينسينزيو فلوريو».

- هل أضفت اسمي كذلك؟! لماذا؟

وضع «إجنازيو» ذراعه حول كتفيه.

- لأنك ابن أخي ووريث والدك العزيز، ولأنك...

فكر بحنان وعطف أشعره بالدفء والحميمة من الداخل.

- ... ولأنك ابني في قلبي حتى وإن لم تكن من صلبتي.

زين الفنان اللافتة بغابة جميلة في أسفل اللوحة، وبينابيع تفيض من جذور الأشجار يشرب منها أحد الأسود؛ إنها شجرة «الكينوا».

- إلى اللقاء يا «دونا مارجرىتا»، يسعدني دائماً أن أخدمك.

استندت السيدة العجوز إلى ذراع «فينسينزيو» وهي تتمايل حتى وصلت إلى طاولة البيع كي تخرج، كان الفتى طويلاً برأس ذي زاوية مكتمل، وكان رغم حداثة سنه أطول من السيدة. هزت رأسها وقامت بعمل إشارات غامضة للمباركة.

- أيها الولد الطيب! لقد كنت أراقبك وأنت تكبر، حتى عندما كنت صغيراً برأس مستوية، والآن كبرت، وأصبحت إنساناً مهذباً ومحترماً. أحسنت يا صغيري، سيكافئك الرب.

استمر «فينسينزيو» في الابتسام حتى أغلق الباب. ما إن خرجت الزبونة حتى وضع يده على وجهه.

- أيتها الأم المقدسة! لم تتوقف ولو للحظة عن الثرثرة!

ضحك موظفو المتجر، فالكل يرى «مارجرىتا كونتشييلو» قطعة من التحف الأثرية من منطقة «تريبونالي» ومن الصعب احتمالها، كان «فينسينزيو» يقوم على خدمتها وتلبية طلباتها منذ أن كان مبتدئاً، كانت لعبة يخرج منها «فينسينزيو» خاسراً.

صدر صوت ثرثرة من ناحية مكتب المحاسبات؛ كان «إجنازيو» وبصحبه رجل أحرقت الشمس جبهته يدعى «فينسينزيو مازا»، وقد حضر من «بانيارا» ليستقر في «باليرمو».

- حسناً، سوف أخبرك.

كان يتحدث بلكنة كالبيرية ثقيلة. سلم على «إجنازيو» بعدة خبطات على الظهر.

- انظر إلى نفسك يا «فينسينزيو» كم كبرت، ماذا يطعمونك؟

- خبز وزيتون وبصل.

- وأمك ترش قدميك كل ليلة بالماء حتى صرت هكذا في الصباح.

مزيد من الضحك، وبعد التحية، عاد «إجنازيو» فاستوقفه الصبي.

- عمي، هل يمكن أن أتحدث معك؟

تتهد "إجنازيو"، فهو يستطيع أن يخمن ما الذي يريد ابن أخيه أن يقوله له:
- تعال.

جلس الصبي ودعك جبينه. كان "إجنازيو" يرهق نفسه في العمل، لكن "فينسينزيو" لم يلاحظ هذا، فهو ما زال في الخامسة عشرة من عمره، ويتمتع بذلك النوع من الأناية التي يتمتع بها الأشخاص الذين خرجوا لتوهم للعالم الخارجي لكنهم يعتقدون أنهم يعرفون كل شيء. أشار له أن يجلس، فجلس "فينسينزيو" مثله مثل الكرسي.

- لقد كانت دونا "كونتشييلو" هنا مرة أخرى.
غطى وجهه بيديه.

- أصبحت أعرف عن التهاب مفاصلها أكثر من الطبيب، وتريد أن تتم خدمتها إما بواسطة أو بواسطة، فهي تريد أن تتحدث للملاك وليس مع الموظفين.
دعك "إجنازيو" شفثيه:

- وما المشكلة؟ المسكينة تريد أن تجد شخصًا تتحدث إليه، ومن الواضح أنها معجبة بك، قل نعم على كل شيء تقوله وهي ستكون سعيدة، وليس هناك وقت للجلوس؛ قف وعيناك في وسط رأسك ويداك على فخذيك، كم مرة يجب عليّ أن أخبرك بذلك؟
وقف "فينسينزيو"، ولكنه لم يُزل يده من على وجهه. في المقابل، نظر إلى عمه نظرة استعطاف وتوسل.

- هل يجب عليّ أن أفق طوال الوقت خلف طاولة البيع؟ فأنا لا أحتمل هؤلاء الناس الذين يأتون إلى هنا ليشتكوا، أشعر أنني على وشك أن أغرقهم في البحيرة، سأساعدك بشكل أفضل إن بقيت في مكتب المحاسبات مع السيد "ريجيو"، فأنت تعلم كم أنا ماهر في الحسابات، من فضلك!
نظر له "إجنازيو" بطريقة حادة جعلته يتسمر في مكانه.
- لقد سبق وأوضحت السبب.

- بالطبع، لأنني بهذه الطريقة سأتمكن من تخمين ما الذي يريده الناس بالفعل، وسأتعلم الانضباط وأكتسب القدرة على مقاومة الشعور بالتعب، وبهذه الطريقة سأحترم عمل الآخرين وأقدر مجهودهم.
قام "فينسينزيو" بسررد قائمة الأسباب على أصابع يده وعبس وجهه.
- هل نسيت أو أغفلت سببًا من الأسباب؟
- نعم.

أشار "إجنازيو" إلى الغرفة.

- أنا وأبوك ربنا كل هذه الأموال من هذه الغرفة التي لا تعدو كونها أكثر من سقيفة تخزين، أريدك أن تعرف أن هذا المكان يعني الكثير لنا نحن آل "فلوريو".
شعر الفتى بالخجل من نفسه، وتسارعت أنفاسه ولم يقل شيئًا، فأمره «إجنازيو»:
- والآن، عد إلى عمك.

بعد أن اختفى خلف الأبواب، لم تهدأ ملامح وجه «إجنازيو»، فابن أخيه يشبه «باولو» تمامًا، ولكن في الوقت نفسه لم يكن يستطيع أن يصبح شخصًا آخر، فهو مهذب، مرح، شجاع، ولا يخشى الحياة، «فينسينزيو» هو فرحته وعزه، وهو ذكي ويتعلم بسرعة، ولكن هذا غير كافٍ، فما زال عليه أن يتعلم كيف يقف على أرض ثابتة. كان «إجنازيو» ما زال غارقًا في أفكاره عندما فتح الباب مرة أخرى. قال «فينسينزيو»:

- هل لك أن تخبرني على الأقل ماذا يريد السيد «مازا»؟

أدار «إجنازيو» عينيه:

- أهذا هو ما يدور برأسك حقاً؟

لم ينتظر «فينسينزيو» ليتم إخباره بالأمر مرتين، قام على الفور بالتقاط قلم وأوراق ونظر فيهما.

- بوليصة تأمين؟

- هذا صحيح؛ أنا و«مازا» نريد أن نؤمن على شحنة كبيرة من السماق؛ عملياً، عن طريق دفع حصة من المال نحمي بها أنفسنا من الخسارة إذا ما فقدت الشحنة.

- كي لا نكرر ما حدث لنا في سفينة الكابتن «أوسلين»، عندما اضطررت لدفع فدية لعبوات التوابل، هذا لن يحدث مجدداً؟

أشار «إجنازيو» إلى فقرة ما في البوليصة.

- بالضبط، ها أنت ذا ما زلت تذكر ما حدث، كنا مضطرين لتفريق الكثير من الأموال حتى نستعيد البضاعة.

- في الواقع، لا أحد في «باليرمو» يفعل هذا، لكن الفكرة تبدو جيدة.

أنهى «فينسينزيو» كلامه، وأعاد الأوراق. لقد أصبح تقريباً في طول عمه نفسه، وهذا شيء غير شائع بالنسبة لمراهق.

بدأ «إجنازيو» يشرح الأمر ببساطة وبصبر لابن أخيه.

- بالضبط؛ لن يتركك التأمين بائساً ومعدماً، ولكن البضائع ربما تفعل ذلك، ولا يفهم هذا كل الناس. ما أفتعني بالأمر هو أن «أبراهام جيبس» هو المسئول عن الشركة، والبريطانيون يعرفون كيف يحصلون على ثقة واحترام الآخرين، وهم يمتلكون أسطولاً يحميهم من هجمات الفرنسيين؛ شيء لا نملكه نحن. علينا أن نحمي مصالحنا ونتعلم من النموذج البريطاني، لقد قام البريطانيون باستئجار مخازن وفنادق تسمح لهم بالتجارة مع كل الموانئ الموجودة على البحر المتوسط، و«باليرمو» ومالطا يعتبران ملاذين جيدين وأمنين لإنزال بضائعهم بعيداً عن سطوة الفرنسيين، وهم يعرفون جيداً كيف يحمون سفنهم التجارية، ولديهم خبرة في التأمين على البضائع والشحنات التجارية لعقود، و«جيبس» له باع طويل في هذا المجال، والأهم أنه ليس تاجرًا ولكنه القنصل البريطاني في «باليرمو»، وهذا يمنحنا ضمانات أكبر وأوسع. في الواقع، كنت الآن أفكر في الأمر.

ثم بدأ يبحث عن أحد المستندات لكي يريها لـ«فينسينزيو».

- بما أنك متحمس للابتعاد عن طاولة البيع، فلن تمنع في أن تكون مبعوثي الخاص للسيد «إنجهام».

قم بتسليم هذه الورقة لـ«إنجهام»، وتأكد أنه قد قرأها على أفراد وبشكل شخصي.

- هل سأقوم بإيصالها لـ«بنيامين»؟

أضاعت حدقة عينيه من فرط السعادة؛ إن هذا الرجل يمثل لغزاً لـ«فينسينزيو» لأنه يتحدث بلكنة أجنبية ثقيلة، ويدير الناس وكل شيء آخر بإشارة واحدة من إصبعه، وهو ثري جداً ويمتلك الكثير من الأموال، لدرجة أنه يستطيع وحده أن يتحمل نفقات إرسال سفن محملة بالبضائع من ميناء «باليرمو» بصقلية إلى بريطانيا، وهو الأوسع شهرة بين التجار الإنجليز الكبار أمثال «جون وودهاوس»، و«جيمس هوبز»، وحتى «جيبس»، في الواقع هو ليس أكثرهم ثراءً - لم يصل لهذه المكانة حتى الآن - ولكنه بلا شك أكثرهم مكرماً ودهاءً وحزمًا.

- تذكر أن تناديه باسم السيد "إنجهام"، وتعامل مع الآخرين باحترام إذا أردت أن يعاملوك باحترام؛ كونه جارنا لا يعطينا أبدًا الحق في أن نسقط الحدود بيننا وبينه ونعامله بشكل لا يليق، والآن اذهب. اختفى الفتى من أمامه في لحظة. تنهد "إجنازيو"؛ يشعر أنه أبوه الحقيقي وكوالد له، فهو يُدّله ويحبه بشدة، ولكن "إجنازيو" يشعر في داخله أن هناك جانبًا معتمًا في شخصية هذا الفتى شعر بوجوده مرات قليلة، وبدخله نوع من أنواع القلق والتوتر الخفي وروح متمرّدة، ولأنه ليس لديه خبرة سابقة في التعامل مع مثل هذه المشاعر، فهو لا يعرف على وجه اليقين كيف يتعامل معها. في ضاحية "فيا دي ماتيريسي"، يتفجر الربيع بألوانه الزاهية في شرفات الحارات الضيقة؛ الزهور وأصص الزرع المنتشرة في كل مكان، والغسيل المنشور بالخارج كي يجف بين المباني، ورائحة الصابون وعصير الطماطم الطازج، وقد حلت الستائر البيضاء المموجة محل النوافذ المغلقة المرتبطة بهبوب عواصف الشتاء.

هناك نوعان من الرجال؛ نوع أتى ونوع راحل، خصوصًا بين التجار الذين يرتدون ملابسهم وفقًا للموضة الإنجليزية؛ بصدريّة ومعطف مغلق. يمكنك أن تسمع صوت صياح البائعين من "بيانوسان جياكومو" وما وراءها باتجاه "فيا دجلي أرجنتياري"، وصوت مطارق الحرفيين، وترى البحار ذا البشرة الداكنة يتحدث إلى رجل ذي شعر أحمر وبشرة حرقنها أشعة الشمس، ومزيجًا من العرب والصقليين.

سار "فينسينزيو" الأمتار الأخيرة بين المتجر وبيت "بنيامين إنجهام" ويده في جيبيه وقلبه خالٍ. الرجل الإنجليزي هو أكثر الناس ثراءً في هذا الشارع، وهو أغنى من العديد من النبلاء في "باليرمو".

قبل أن يصل إلى منزل السيد "إنجهام"، عدل "فينسينزيو" ياقة المعطف الذي يرتديه... سمح له كبير الخدم بالدخول إلى البهو وحضر "إنجهام" لتحيته والترحيب به شخصيًا. - مرحبًا بك "فلوريو الصغير"، تفضل بالجلوس.

- سيدي.

وتبع "فينسينزيو" "إنجهام" إلى غرفة الدراسة، وكانت عيناه مثبتتين على ظهره. هناك ما لا يقل عن خمسة عشر عامًا كفارق في العمر بينهما، ولكن الرجل الشاب استطاع أن يكتسب خبرات كبيرة في الحياة والعمل، جعلته يبدو أكبر من عمره الحقيقي.

كان السيد "إنجهام" يرتدي صدريّة أنيقة ورصينة، ووجهه بدا مبعثًا بسبب شمس صقلية، ويوحى بالمتابعة والصرامة والانضباط. لقد رأى "فينسينزيو" القوة التي رشحت عن ذلك الرجل؛ تشبه الحرارة المطوّقة لكل من حوله، أو كعاصفة شديدة تجبر الناس على الابتعاد عنه على الأقل لمسافة أمنة؛ شيء مادي ومعنوي في الوقت نفسه، على النقيض من غيره من التجار، لم يكن أبدًا يرفع صوته أو يفقد أعصابه، إذ هو في الحقيقة ليس بحاجة لأي منهما.

"فينسينزيو" لا يعلم كمّ المعاناة التي مر بها "إنجهام" كي يصل لهذه المكانة؛ وصل إلى ميناء "باليرمو" بعد فقد السفينة التي كانت تحمل البضائع التي تصنعها عائلته وغرقها في "ليدز" وتدمير البضائع، ووجد "إنجهام" نفسه وحيدًا في مدينة غريبة بالنسبة له، وبدون أي شكل من أشكال الدعم. عندما التقى به "إجنازيو" في مكتب الجمارك أول مرة، كان يحاول أن يجد لنفسه مكانًا في عالم تجارة الملابس في صقلية، فالقماش والمنسوجات والحريز والقطن هي كل ما يعرف وما يستطيع

الحديث عنه. المهم أنه تعلم بسرعة، ويستطيع الآن أن يبيع الكبريت، والسماق، وغيرهما من الأشياء غير المعروفة للتجار البريطانيين.

- هل لديك شيء من أجلي؟

سلمه "فينسينزيو" خطابًا، وبدأ "إنجهام" يقرأ الخطاب.

في تلك الأثناء، بدأ الفتى ينظر حوله في الأرجاء؛ لم يأتِ إلى هذا المكان من قبل، وفي الحقيقة وجده مكانًا رائعًا ومدهشًا ومختلفًا تمامًا عن "الأروماتوريا" وضوضائها. كان الصمت مطبقًا، والهواء كأنه مغموس في أريج حلو يشبه رائحة التبغ بنكهة ورائحة النعناع. كانت الغرفة مضيئة، ومملوءة بالكتب والجلود والأخشاب، وهناك أختام أجنبية على الأوراق والمستندات.

سمع صوت خفيف أحد الأوراق وأصواتًا خافتة قادمة من الباب الموجود على يمينه؛ دخل رجل الغرفة، وقدم الرجل مستندًا للسيد "إنجهام" وطلب منه شيئًا باللغة الإنجليزية. كان "فينسينزيو" يعرف القليل من الكلمات الإنجليزية، لكنها بالطبع لم تمكنه من فهم الحوار الذي دار بينهما. تبع "فينسينزيو" السكرتير بعينه حتى اختفى بهدوء كما دخل. لاحظ "إنجهام" حجم الفضول الذي يسيطر على الفتى فبادره "إنجهام" بالتجهم:

- هل هناك ما يمكنني القيام به من أجلك؟

شعر "فينسينزيو" بالحرج الشديد، وحاول أن يبرر موقفه للسيد "إنجهام".

- لا، عذرًا، هذه الدراسة المتفحصية هي...

وأشار بأصابعه للجدران وقال:

- تبدو بالنسبة لي مختلفة.

فقال "إنجهام":

- قطعة من إنجلترا في صقلية.

وشجعه على الاقتراب أكثر.

- النظام هو كل شيء يا "فينسينزيو". أترى كل هذه الكتب المرصوفة على الأرفف؟ تم ترتيبها بالتاريخ وتحتوي على أقسام للديون والاعتمادات، أعتقد أن السيد "إنجازيو" يستخدم نظامًا مماثلًا. بالطبع.

قرأ "فينسينزيو" الكتابة الموجودة على الواجهات الخلفية للكتاب.

- أتمنى أن أزور بلادكم قريبًا يا سيدي.

تحدث دون تفكير.

- لا بد أنها مختلفة عن بلادنا هنا.

- لماذا لا تذهب وترى بنفسك؟ تأتيك شحنات من إنجلترا، أليس كذلك؟ فلماذا لا تطلب من عمك أن يعطيك الإذن بالسفر على متن أحد المراكب التي تحمل بضائعكم، من الممكن أن تصبح التجربة ثرية للغاية.

أصبحت نغمة الفتى في التحدث أكثر حرصًا وحذرًا.

- نعم، هناك بعض الأشياء الأخرى.

إن كان هناك من شيء تعلمه "فينسينزيو" من عمه ومن عمله معه، فهو ألا يناقش شئون العائلة أو أسرار العمل أمام الغرباء.

التف "إنجهام" حوله وتوقف في مواجهته تمامًا.

- بالتأكيد أكثر من أشياء قليلة؛ إذا ما أسعفتني ذاكرتي، لقد كنتم تتاجرون فيما هو أكثر من التوابل لفترة طويلة.

- بالطبع، نحن نتاجر في بضائع كثيرة تأتينا من موانئ عديدة، ونشاطنا التجاري غير قاصر على موانئ البحر المتوسط.

- يمكنني تصور ذلك؛ إنه أمر بديهي ولا يحتاج لذكاء كبير، فأنتم يا آل "فلوريو" لم تصلوا لما وصلتم إليه الآن من وراء بيع القرفة والقرنفل لصنع الحلوى والكعك.

أعاد إليه المستندات بعد أن دون شيئاً عليها.

- نعم، بالمناسبة، أخبر عمك أنه ما من مشكلة، فالأشخاص الذين ذكرهم موضع ثقة.

أزاح الفضول حرص "فينسينزيو" السابق، وحاول أن ينتزع بعض المعلومات من السيد "إنجهام".

- هل ما دونته هو مجموعة من المسودات المقطوع به، أليس كذلك؟

خفض "إنجهام" جفونه خافياً أفكاره الحقيقية.

- واحدة منها، ولكن إن لم يكن عمك "إجنازيو" قد تحدث معك في الأمر، فأنا بالتأكيد لن أفعل.

والآن فقط، فهم "فينسينزيو" لماذا بعث به عمه "إجنازيو" إلى هذا المكان، والفكرة رسمت ابتسامة بسيطة على شفثيه.

عندما رجع "فينسينزيو" من منزل السيد "إنجهام" إلى المتجر، عاد ليقف على طاولة البيع واستأنف عمله مع الآخرين، لم يحتج ولم يتمرد هذه المرة؛ كانت رأسه حينذاك تموج بالأفكار وبقيت عيناه معلقتين بمكتبة "إنجهام"، وأنفه ما زال يحمل رائحة التبغ التي اشتمها هناك، وفي صدره حنين غير عادي للبحر والسموات المفتوحة التي تنتمي لجذوره وماضي عائلته.

في حجرة الدراسة، قرأ "إجنازيو" رد التاجر الإنجليزي عليه، واستثار السطر الأخير منه ابتسامة خفيفة ارتسمت على شفثي "إجنازيو".

- "فينسينزيو" شاب واعد، عاجلاً أم آجلاً سيطيح بك من العمل.

غادر "فينسينزيو" و"إجنازيو" المتجر عند حلول المساء؛ سماء الربيع تحولت من اللون الرمادي للون الأزرق الغامق، وما تبقى من المارة في الطريق كانوا يسرون على أرضيات البازلت عائدين إلى بيوتهم بعد انتهاء العمل.

كتم "فينسينزيو" رغبته في التثاؤب وقال:

- هل تمنع يا عمي لو ذهبت لأتمشى قليلاً قبل العودة إلى المنزل، فرأسي مشوش بعض الشيء.

أجابه "إجنازيو" وهو يربت على ظهره:

- ما دمت ستعدني بأنك ستعود قبل أن تدق أجراس "سان دومينيكو" كي نتناول طعام العشاء معاً، وأنت تعرف أمك؛ إن لم تعد في موعد العشاء ستبدأ في فقد أعصابها والتحدث بصوت عالٍ.

- أعلم، على كل حال سأعود مبكراً، لأنه مازال هناك بعض المذاكرة التي يجب عليّ القيام بها قبل أن يحضر السيد "سالبياتيرا" غداً.

- حسناً، إن كان الأمر كذلك فإذهب.

ظل "إجنازيو" يراقبه بعينه وهو يبتعد، وقد أسدل ستارا من التساهل والتسامح والتدليل على عينيه، وطوى الأمتار القليلة التي تفصل بين "الأروماتوريا" والبيت طياً، وفتح الباب بهدوء، وإذ برائحة يخنة اللحم تخترق أنفه لتذكره بوجبة الغداء التي أغفلها.

كانت "جيوسبينا" تجلس في المطبخ وهي تحمل مسبحة في يديها، ورأسها مستند لقبضتها المغلقة، راق وجهها بسبب النوم. كانت الطاولة الموجودة أمامها مملوءة بأشكال وأنواع الطعام بصورة مبالغ فيها، لكنها غفلت أثناء تلاوتها للصلوات.

وضع "إجنازيو" معطفه العلوي على ظهر الكرسي. كانت تتلو صلاة قصيرة، وتهمهم:
- أمين.

عندما انتهت من أداء صلواتها، قبلت المسبحة، ونظرت لوجه أخي زوجها مرة أخرى، لترى في عينيه الرقة التي جعلت قلبها يرتجف ويجبرها أن تحوّل عينيه عنه.
اقترب منها "إجنازيو" وقال:

- هل تشعرين بالتعب؟ ألا تساعدك "أوليمبيا" بشكل كافٍ؟ هل ترغبين في أن أحضر لك خادمة أخرى في البيت؟
وأضاف باهتمام ووعي:
- يمكننا فعل ذلك، أنت تعرفين.

هزت رأسها ولفت شالها حول نفسها، وأمسكت به بشدة فوق صدرها.
- لا، أنا لست بحاجة للمزيد من الخدمات، أنا أعرف أن الأمور لم تعد كما كانت، والآن، ولهذا السبب، كنت أفكر في الماضي وفي "باولو"، كنت أفكر في كيف كنا وفي كل ما مررنا به، وبدأت أصلي له.
"باولو"

لقد مر على وفاة شقيقه "باولو" ما يقرب من السبع سنوات، إلا إن "جيوسبينا" استمرت في الصلاة لروحه وفي ارتداء ملابس الحداد، لم يكن الأمر بدافع الحزن عليه أو الأسف، لكن بسبب تلك الرغبة الخفية والعنيدة في التكفير عن خطاياها التي لم ينسبها إليها أحد، فهناك حاجة داخلية تدفعها لأن تعاقب نفسها على كل العذاب والألم الذي تسببها فيه هي و"باولو" لبعضهما بعضًا.
- لم أكن... بالفعل أنا لم أكن سعيدة معه.

رددت هذه الكلمات فجأة، وكأنها ترد على الأفكار التي تدور في رأس "إجنازيو".
- ولكنه في الوقت نفسه، كان الزوج والعائلة التي وهبني إياهما الرب وأنا قبلتهما، وربما لو كان عاش أكثر، لكنك تعلمت كيف أحبه، لأنه لم يكن بالرجل السيئ؛ لقد كان إنسان جيدًا حقًا، يُعتمد عليه، ومكافح ومجتهد، لم يكن يستطيع أن يعيش دون عمل، وإن كنا نتشاجر مع بعضنا بعضًا في بعض الأحيان فهذا لأننا - أنا وهو - متشابهان.
أجاب "إجنازيو" عليها وهو مذهول:

- هذا غير صحيح؛ لقد كنت تتشاجرين معه لأنك كنت تريدين أشياء مختلفة، ولأنكما مختلفتان، لأنك عندما كنت تقولين أبيض كان يقول هو أسود، وأنت لم تستطعي أن تحتلميه لأنه كان يجبرك على فعل أشياء لم تكوني تريدين أن تفعلها، وهذا بالطبع أحزنك وفطر قلبك.
لم يستطع "إجنازيو" أن يتوقف؛ لطالما أحب شقيقه "باولو" أكثر من نفسه وما زالت ذكراه حية في قلبه، لكنه لا يستطيع أن يسمح لـ "جيوسبينا" أن تحوله لقديس وتتحمل أخطاء لم ترتكبها. فرفعت يدها، وكانت على وشك الرد عليه، وهزت رأسها.
- نعم، هذا حقيقي، ولكنك تعرف، لا يحق للإنسان التحدث عن الموتى بسوء.

مرة أخرى، شعر «إجنازيو» بالأمل، لكنه كان يعلم أنه سرعان ما سيتلاشى أمام «جوسيبينا»، وكالعادة سينتزع بقوة قبضته، وشاهد «جوسيبينا» وهي تتحرك بين الغرف، ولكنه لم يستطع أن يكظم الشعور بالظلم الذي يعتصره من الداخل، وهمس في أذنيها:
- لقد مات «باولو». هو الآن يشعر بالراحة والسلام، وأنتِ كذلك يجب أن تهوني على نفسك، وتمنحي نفسك بعض السكينة والسلام.
أمسكت «جوسيبينا» بالمقالي، وتوقفت للحظة وهي تهز كتفيها وتلعن نفسها بصمت. في النهاية قالت:

- لا أستطيع، أنا فقط لا أستطيع.
سكنت «جوسيبينا» في هذه الكلمات القصيرة كل الألم والغضب الذي تحمله بداخلها طوال تلك السنوات، فضلاً عن الشعور بالندم، والوحدة، وعدم القدرة على أن تسامح وتعفو أو أن يُعفى عنها.
عندما عاد «فينسينزيو» إلى البيت، وجد كلاً منهما يجلس بعيداً عن الآخر منغلِقاً على نفسه في صمت، لم يستطع أن يفك شفرة هذا الموقف الغريب الذي يراه. تناول الجميع يخنة اللحم وتبادلا بعض الكلمات القليلة عما قاما بعمله اليوم.
بعد الانتهاء من تناول العشاء، كان «إجنازيو» أول المغادرين، ربت على ظهر ابن أخيه واقترب من زوجة أخيه، وكان على وشك أن يلمسها. كانت يداها ممتلئتين بالأطباق التي تحملها بعد الانتهاء من العشاء، توقفت «جوسيبينا» لوهلة عند باب المطبخ، وقال:
- تصبحين على خير.

كانت الأنفاس الخارجة من صدره تداعب شعرها، شعرت بعدها بشيء ما يستعر داخل صدرها؛ صدى الذكرى لم يحيي يوماً لحياة ما كان لها أن تحلم بها، وعندما انحنت «جوسيبينا» قليلاً للأمام، أدار وجهه وذهب.
راقب «فينسينزيو» المشهد دون أن يعي مضمونه، هكذا اعتقد الفتى؛ أنهما على خلاف في أمر ما، أو ربما انزعجت والدته من شيء ما قاله عمه، من يدرى؟ لقد اعتاد على رؤية هذين الاثنين معاً دون أن يتساءل بشأن هذا الأمر، لقد كانا وسيطان عائلته، لقد ربياه معاً بطريقته وطريقتها، وهذا صحيح. إلا في تلك الليلة، لأول مرة بدأ يشعر أن الوضع ليس كما يعتقد، بطريقة مشوشة ولكن واضحة، كان يشعر أن هذين الشخصين غير منفصلين عن بعضهما بعضاً، ولكنهما زوجان، ولهذا استطاعا أن يصنعا له ما يشبه جو العائلة الحقيقية من حوله، ربما كانا يضحيان بنفسيهما وسعادتهما في هذه العملية لأنهما يحبان بعضهما بعضاً بشعور لا علاقة له بالزواج؛ أقل متانة وقوة واستمرارية، لكن هناك شبح ما يقف بينهما؛ شبح أبيه «باولو».
هذا عندما بدأ يعي ويفهم أن هناك نوعاً من أنواع الحب الذي لا يشبه علاقات الحب العادية، لكنه رغم ذلك عميق للغاية، ويستحق عناء التجربة رغم كونه مؤلماً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كنيسة «القطارين» - «سانت أندريا ديلي أمالفيتاني» - تمر بالرجال الذين يرتدون البِدَل ذات الألوان الداكنة، والنساء القليلات الموجودات هناك كن يرتدين البرقع الأسود الخاص بالحداد، ويمكنك سماع الأصوات والروائح المنبعثة من سوق «فيوشيريا» المجاور عبر النوافذ. خارج المدخل، تقف عربة جنازات تجرها أحصنة بألجمة وريش أسود، ويقف خلفها مجموعة من الأيتام،

وإثنان من المشيعين يخطبون على صدورهم، وأعينهم موجهة نحو الباب، وقد زادوا من رثائهم بمجرد وصول الجنان.

إنها جنازة "سلفاتور ليون"؛ تاجر التوابل القديم في "باليرمو" وأحد أفضل زبائن "كازا فلوريو". وقف "فينسينزيو" في أحد الصفوف الخلفية، خلف عمه، كان يتصبب عرقاً؛ فما زلنا في شهر سبتمبر وما زال الجو حاراً ورطباً كالصيف.

همس "فينسينزيو":
- إنها جنازة على أعلى مستوى؛ الأطفال الأيتام، جوقة أطفال المذبح... عربة الموتى وحدها كلفته الكثير.

وضع إصبعين من أصابعه تحت الياقة حيث تحكه لحيته الصغيرة وتزعجه، لقد وهبه عامه السابع عشر هبة شعر اللحية الخشن الذي ما زال يتعلم كيفية التعامل معه.

هز "إجنازيو" رأسه، وقال:
- هل تعتقد أن عائلته بوضع يسمح لها بتحمل نفقات مراسم هذه الجنازة المبالغ فيها، بالرغم من الأزمة الاقتصادية الحالية؟ على كل حال، يجب أن يكون هناك كرامة للشخص في الموت كما كان في الحياة.

صعد الولد وعمه لتقديم واجب العزاء لأسرة الفقيد. كانت النسوة الثلاث يتلقين واجب العزاء وهن غارقات في البكاء والنحيب.

وبينما كان المشيعون منهمكين في حزنهم، حضر ممثلو مدرسة "القطارين" حاملين رايتهم، وتحلقوا حول الأقارب. شاهد "إجنازيو" و"فينسينزيو" هذا المشهد وبدأ يتهامسان:
- انظر يا عمي إلى هؤلاء.

هز "إجنازيو" رأسه.
- هل تعتقد أنهم سمعوا بخبر اتفاقنا مع زوج أخت "بن جوزيف ويتكر" على صفقة الفلفل السومطري؟

- من المحتمل، وهي ليست مشكلتنا بالطبع يا "فينسينزيو"! سوف ندفع مبلغاً ضخماً نظير الحصول على هذا الفلفل، فعلى الأقل نحن من اكتشفناه وليس هم.

تلا إطلاق المشيعين لصرخة عالية انفجاراً أرملة الفقيد في البكاء. اهتزت عربة الموتى وبدأت بعدها مراسم التشييع. احتفظ آل "فلوريو" بمسافة بينهما وبين بقية التجار.
- أيها السادة، كنت أبحث عنكما.

أتى الصوت من جانب "جيوسيبي باجنو"؛ وهو رجل طويل قوي البنية، تفوح منه رائحة خشب الصندل. وقف الرجل خلف آل "فلوريو" دون أن يشعر به، إنه أحد تجار الجملة الذين يشتري منهم آل "فلوريو" ويبيعون لهم، إنهم يعرفون بعضهم بعضاً جيداً وتعاملوا مع بعضهم بعضاً فيما سبق في عدة مناسبات، وهم يحترمون بعضهم بعضاً بشكل كبير... بما في ذلك شراء منتجات المستعمرات التي تُتهب من قبل رجال القطاع الخاص في صقلية ليتم بيعها في "باليرمو".

صافح بعضهم بعضاً وتبادلوا أطراف الحديث:
- كيف حالك؟

- بالتأكيد أفضل حالاً من "دون ليوني".

وحشر "باجنو" نفسه بينهم، وبدأ يتحدث بصوت هادئ:

- يا له من رجل مسكين! بعد حياة مديدة حافلة بالعمل... كان أحد زبائنكم، أليس كذلك؟
- أحد أفضل زبائننا على الإطلاق، على الرغم من تعثره في السداد في الفترة الأخيرة.
- الأسي يسري على الجميع في هذه الأيام.
- دق جرس التنبيه في رأس "إجنازيو":
- إن لم أكن مخطئاً، فهو أحد أفضل زبائنك، أليس كذلك؟
- هذا صحيح، هل تعلم أن السيد "ليونى" قد باع متجره للسيد "نيتشي" منذ عدة أيام فقط؟
- لم يكن "إجنازيو" يعرف ذلك ولكنه لم يُظهر هذا.
- لقد سمعت عن مثل هذا الشيء، لقد كنت أخطط للذهاب للقاء أقارب السيد "ليونى" خلال عدة أيام، لأن الظروف لا تسمح الآن للحديث في العمل.
- أبطأ "باجنو" الخطى بشكل تدريجي.
- أنت إنسان مهذب حقاً يا سيد "إجنازيو"، وتختلف عن الآخرين.
- وأشار بذقنه لراية الكلية.
- فهم "فينسينزيو" ما يشير إليه السيد "باجنو".
- آها، والآن، أخبرنا ماذا قالوا؟ كل ما يقولونه هو في النهاية مجرد نميمة ولا يؤدي إلى شيء سوى افتعال المشاكل، كما حدث من قبل في مكتب المحاسبة.
- وضع "باجنو" يده على ذراعه.
- للأسف الشديد، ليس كل مَنْ يعمل في مجالنا هذا يحترمك، كلما نجحت وذاع صيتك، ازداد حجم المعوقات التي تقابلك، وفي الغالب هذه المعوقات تكون البشر الذين يثرثرون كثيراً ويتسببون في وقوع الضرر والمشاكل. أترى؟ أنا تاجر مثلك؛ كل ما يهمني هو الناس الذين يعملون والناس الذين يدفعون لي، والعلاقة التي تربط بيننا تحتّم عليّ أن أخبرك أن هناك أشياء سيئة وشريرة تقال عنك وعن عمّلك في الخفاء.
- استمر "إجنازيو" في السير وعيناه تتظران إلى عربة الموتى، ووجهه هادئ.
- أي نوع من الأشياء تقصد؟
- يشيعون أنك لا تمتلك قرشاً واحداً في درج الخزينة، وأن صفقة الفلفل السومطري مجرد شائعة لكي تشجع الناس على الشراء منك، وأصبحت "باليرمو" كمشرحة للموتى منذ رحيل الإنجليز عنها، وتصورنا جميعاً أن هزيمة الفرنسيين ستحيي العمل من جديد، ولكن بدلاً من ذلك، بقي كل شيء كما هو، بالرغم من أنهم نفوا "نابليون" في منتصف اللامكان. منذ أن دارت رحى الأزمة، أصبح من الصعب الحصول على التوابل المستوردة، ولم يعد السفر عبر البحر آمناً، وأصبح التاجر منا لا يدرى مع مَنْ يتاجر، وفي منتصف هذه العاصفة، نشرت لنا صفقة الفلفل السومطري.
- خفض "باجنو" من نبرة صوته وقال:
- عليك أن تعترف أن هذا الكلام غريب وغير حقيقي.
- ولكنه حقيقي! نحن...
- توقف "فينسينزيو" عن الكلام، وغرق في حالة من الصمت المطبق بعد أن نظر له عمه نظرة حادة كنصل السكين.
- سأرهن كل محتويات المخازن الخاصة بي في الجمارك، لكي أعرف مَنْ الذي يروج لتلك الأكاذيب والشائعات.

رد "إجنازيو" بصوت حاد كشفرة الموس:

- إنه "ساجوتو"، أليس كذلك؟

هز "باجنو" رأسه ببطء.

- لقد أكد أنك على وشك الإفلاس، ومنذ وقت ليس بالبعيد، سمعته يقول إنك غارق حتى عنقك في الديون، ولن يمر عليك هذا العام إلا وقد سقطت وأعلنت إفلاسك! هذا الرجل يشبه الحية الخبيثة، لست أدري لماذا يقوم بعمل هذه الأفعال الخبيثة معك بالتحديد، إنه نوع من البشر الذي يستخدم سلاح الجبناء؛ وهو النميمة، ويعرف كيف يستثير الناس ليشاركوه نميته، صدقني.

تحدث "إجنازيو" كعادته بهدوء، وأخفى شعوره بالغضب في قبضة يده التي أخفاها في جيبه.

- لقد تم توقيع العقد مع "وايتكر" بواسطة ممثل "إنجهام"؛ وهو زوج أخته، فضلاً عن كونه ممثله في "باليرمو"، هل تشكك في كلامه أيضاً؟

- أعرف ما هو أفضل من ذلك.

نظر "باجنو" إلى الحذاء.

- لكن "إنجهام" غريب، والعديد من الناس لا يثقون بالغرباء بشكل مطلق، حتى وإن كانوا أثرياء. "كاميلو ساجوتو" حشرة صغيرة، لكنه يعرض ويلسع بقوة لدرجة أن الناس تستمع له وتصدقه، ماذا عنك يا "باجنو"؟ هل تصدقه؟

وضع الرجل يديه خلف ظهره.

- أنت مدين لي بثمن بعض المواد التي استلمتها مني منذ شهرين، ولم تسدد لي ثمنها حتى الآن.

لم يرد "إجنازيو" على الفور.

- أتفهم ذلك، وفي النهاية، الاتفاق الذي وقعناه كما أتذكر يمنحني فترة سماح لمدة ثلاثة أشهر.

- هذا صحيح تماماً، لكن دعنا ننظر للأمور بهذه الطريقة؛ هذا الحوار الذي دار بيننا الآن هدفه أن تحذر وتنتبه لما يقال عنك من وراء ظهرك وفي الخفاء، أنت في النهاية تاجر محترم وموضع ثقة يا سيد "فلوريو" وشخص جاد ومسؤول يُعتمد عليه.

- إن كان ما تقوله صحيحاً، فلماذا جئت إلينا إذا؟

- لأن العيار الذي لا يصيب يقتل.

تدخل "فينسينزيو" في الحوار بعنف، وقال:

- إن كنت حقاً تكن لنا هذا القدر من الاحترام وترانا موضع ثقة كما تدعي، فلماذا لا تطلب منا بشكل مباشر أن نعيد لك أموالك بدلاً من هذا الخبث وهذه المسرحية المكشوفة؟

- "فينسينزيو"! انتبه لطريقة كلامك وتصرفاتك.

تبسم "باجنو" وحملت ابتسامته المفتعلة اعترافاً بالذنب.

- اندفاع الشباب وتهوره!

اعترف الرجل بتشككه في قدرة آل "فلوريو" على سداد الديون ولكن بنغمة اعتذار، محاولاً أن يكون متواطئاً.

- أنت أيضاً ربما تصبح حذراً إن كنت خائفاً من ضياع أموالك.

في تلك اللحظة، توقف موكب العزاء للحصول على التبريكات والمزيد من البكاء والنحيب والصلوات.

تباطأ "إجنازيو" بعض الشيء، وأخذ "باجنو" وتحنى جانباً وقال:

- ستحصل على أموالك وفقاً لما تم الاتفاق عليه يا "باجنو"، سواء كانت هناك أزمة أم لا، لأن آل "فلوريو" دوماً يسددون ديونهم ويعطون أصحاب الحق حقوقهم كاملة، وإن لم يكن توقيعي كافياً ليمنحك الثقة فأليك كلمتي وتعهدتي.
مد "إجنازيو" يده، وتلقاها "باجنو".
- هذا ما أثق به حقاً، وسوف أنتظر.

في طريق العودة من موكب الجنازة، لاحظ "إجنازيو" أن عمه كان يسير مطأطأ رأسه طوال الطريق، وكان يرى علامات السخط والغضب ظاهرة على وجهه، وسأل "فينسينزيو" بارتجال ودهشة:

- لماذا؟ لماذا يكرهنا بعض الناس إلى هذا الحد؟ وأنا لا أعني بقولي هذا "كانزونيري" على وجه التحديد، وهذا الثعبان الأرقط زوج ابنته، اللذين سأحطم رأسيهما في يوم من الأيام...
أبطاً "إجنازيو" في السير وقال:

- لست أدري، لطالما كنت أتساءل بيني وبين نفسي منذ وقت طويل عن السبب الحقيقي وراء كل هذا الكره والحقد؛ في البداية كنت أعتقد أن السبب هو كوننا غرباء عن المدينة، لقد اتهمونا بالبيع بسعر أقل لكي نوقف رزقهم، ثم ما لبثنا أن بدأنا نجني أرباحاً كثيرة ولن ينسوا لنا ذلك بالتأكيد. كنا دوماً نفعل كل شيء وندير ونتصرف في كل شيء وفقاً لرغباتنا ومصالحنا، ولم نطلب من أحد أن يمد لنا يد العون. هناك الكثيرون الذين يتمنون لو يستطيعون أن يضرمو النيران في محلنا التجاري، لكننا جميعاً غرباء هنا، وحتى "إنجهام"، لكن ما من أحد يتعرض لهم بسوء كما يفعلون معنا.

- لسبب بسيط؛ أنه حضر مع الإنجليز وهذا في حد ذاته قد منحه ميزة كبيرة، ما من أحد يرفض أحد الأطراف المحالفين للملك. ولكن الآن، بعد نهاية الحرب مع "نابليون"، أصبح "إنجهام" يواجه المصاعب نفسها مثلنا. في الواقع، لقد أصبت بالدهشة من إصراره على البقاء في "باليرمو" رغم رحيل كل أصدقائه وأبناء وطنه.

لقد استقبلته "بيانو يان جياكومو" منذ الوهلة الأولى بالترحاب وبالاحضان الدافئة والحنان.
تنفس "فينسينزيو" بعمق.

- أو ربما لأنه أصبح يشعر أن هذا هو موطنه.

أشعلت كلمات "فينسينزيو" في مخيلة "إجنازيو" جذوة ذكرى وصوله إلى "باليرمو"، عندما كان يأمل أن يجد مكاناً ما ينتمي إليه؛ تذكر اللحظة التي ترك فيها "بانيارا" عندما أبحر المركب الشراعي به هو وأخيه "باولو" تاركاً وراءه رصيف الميناء، لقد بدا المركب "سان فرانسيسكو دي باولا" متردداً في الرحيل، وظل المركب يكافح الأمواج حتى وصل إلى مدخل ميناء "باليرمو"، وشراعه يرفرف في الاتجاه المقابل للصارى بحثاً عن القليل من الريح لتدفعه.

كان تفسير "إجنازيو" أن "بانيارا" لم تكن ترغب في رحيلهم عنها، لكن بمجرد عبورهم للسان البري الموجود في البحر، هبت رياح شديدة واخترقت الأشرعة وجعلتها تصدر صوت صرير، تضخم الشراع من شدة الريح، وعمود السفينة المائل أبحر كطائر فاتحاً جناحيه، كان التغيير في السرعة فوراً.

نادى على شقيقه "باولو" الذي كان ممسكاً بالدفة بقوة ومتجهاً بالمركب ناحية البحر المفتوح، كان يفكر في الوعود والأمال التي أعدتها له المدينة بمجرد وصوله، وقد أغرته بثروتها من البشر والألوان والحياة، على الرغم من أنها كانت جافة معهم في البداية، وكذلك بذلهم للجهد، وأنه أول من

قرر أن يضحي بنفسه من أجل تأمين مستوى معيشة لائق وكريم لـ«فينسينزيو» و«فيتوريا» وجيوسبينا». كان «إجنازيو» سعيدًا، لطالما عمل بجد واجتهاد منقطع النظير، لكنه فعل ما فعل وهو سعيد ومسرور.

لكن «باليرمو» أدارت له ظهرها وتحولت لشخص خائن، لقد أعطته الكثير ولكنها أخذت الكثير في المقابل؛ أشياء ما كان لها أن تظهر حتى معها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت «جيوسبينا» واقفة بجوار باب حجرة ولدها «فينسينزيو»، تراقبه وهو يتفحص الشارع بعينه كما لو كان في انتظار شخص ما ليظهر، لقد أوشكت على الأربعين ولم تحب أحدًا بقدر ما أحببت «فينسينزيو»، فهو لحمها ودمها وقطعة منها، هكذا تراه؛ إنه غارق في الحب.

لأول مرة، تشعر «جيوسبينا» بعمرها الحقيقي، لقد تقبلت التجاعيد التي ظهرت في وجهها، واستهجنت ظهور أول شعرة بيضاء في رأسها، ولكن لم يكن هذا ما يشغل بالها حينذاك، بل كانت تلك المرأة التي ربما تخطف صغيرها من أحضانها، فهي لا تحتمل مجرد التفكير في هذا الأمر، لأن الأمر يعني أن الجزء الذي وضعت من روحها فيه لن يرتد إليها بعد ذلك أبدًا، وقد تترك وحيدة، لكن هذا قدر وسيقع عاجلاً أم آجلاً؛ هذه هي سنة الحياة وهي تعرف ذلك، لكنها ما زالت ترى أن الوقت ما زال مبكرًا على حدوث هذا الأمر.

قررت أن تنصرف، لكن السجاد أخفى وقع خطواتها وكتمته. احتمت بالمطبخ حيث كانت الطاهية «ماريانا» تعد طعام العشاء، تنهدت، لأنه لم يكن لها لا قريب ولا حبيب ولا صديق ليسري عنها وتثق به وتحكي له عما يجول بخاطرهما، ونسيت أمر «فيتوريا» التي قررت الزواج بأحد أقاربها من بعيد، والآن تعيش مع زوجها في «ميستاريتا»؛ زوجها يدعى «بياترو سبوليتي»، تاجر مثل آل «فلوريو» ويمتلك مركبًا يمكنه من الإبحار جيئةً وذهابًا بين الموانئ التيرانية، كان دومًا يطوف بـ«بانيارا» ويأتي منها بالأخبار وبكل جديد عن تزوج ومن مات أو رحل، و«جيوسبينا» كانت في أمس الحاجة لمن يأتيها بأخبار موطنها وعالم ذكرياتها الجميلة، لذا، كانت دومًا تدعوه على الغداء ليأكل ويتحدث ويروي لها كل جديد عن موطنها بلهجته المألوفة.

وذات يوم، طلب أن يتحدث مع «فيتوريا» على انفراد وعرض عليها الزواج، لقد كان يعلم أنه لن يستطيع في الوقت الراهن أن يقدم لها حياة مرفهة مثل التي تحياها في بيت أقاربها، لكنه وعدّها بأن يمنحها حياة كريمة وحرّة، ولن تكون في يوم من الأيام خادمة في بيت أحدٍ من كان، بل ستكون مستقلة بنفسها ومملكة في بيتها.

كانت «فيتوريا» مرتبكة بعض الشيء وحائرة وقلبها الصغير مضطربًا، ولكنها في الوقت ذاته كانت امرأة عملية وتزن الأمور بميزان العقل والمنطق. لقد أوشكت على بلوغ الخامس والعشرين من عمرها ولم يتقدم أحد لخطبتها، وكانت في الغالب الأعم تقضي وقتها بـ«باليرمو» في القيام بأعمال المنزل والتطيرز مع عمّتها «جيوسبينا»، وبدأت تشعر كما لو كانت راهبة الأسرة، مثلها مثل تلك الفتيات اللاتي يدفعن أجور غرفهن المستأجرة ومللن من أداء الأعباء المنزلية التي لا تنتهي، مخفيات أنفسهن عن أعين العالم كي لا يزعجن أحدًا بمشاكلهن، وسامحات لسنوات العمر أن تمر بسلام.

عندما عاد «بياترو» ليزورهم في البيت، أخبرته أنها وافقت على عرضه وأنها قبلت الزواج منه، وذهبا معًا ليخبرا «إجنازيو» و«جيوسبينا» بقرارهما. كان عمها «إجنازيو» كريمًا كالعادة، ومنحها مهرًا ضخمًا كهديّة زفافها واحتضنها طويلاً، وأخبرها أنها قد اتخذت القرار الصحيح، لكن نظرت

لها «جوسبينا» - على الجانب الآخر - نظرة لوم وعتاب، كما لو كانت «فيتوريا» بقرارها هذا قد خانت ما بينهما من عهد. سألتها بمنتهى الصراحة والوضوح:

- عزيزتي «فيتوريا» لماذا تريدين الذهاب والابتعاد عنا؟ هل شعرت يوماً أننا بخلنا عليكِ بشيء، أو قصرنا معك في أمر من الأمور؟

أجابتها «فيتوريا» وقد طأطأت رأسها:

- الحقيقة يا عمتي لا، لقد كنتِ دوماً بمنزلة الأم عندي، لكنني الآن كبرت، وأرغب في أن يكون لي بيتي الخاص، ولا يمكنني القيام بهذا هنا، أنا هنا مجرد ابنة أخ عزيزة ومكرمة، ولكن ليس لي سقف خاص بي ولا مصدر دخل لأعيش منه، ولا أريد أن أحصل على لقب «عانس العائلة» لنهاية العمر، فأنا أشعر أنني محظوظة، لأن «بياترو» رجل أمين ومخلص، وأعتقد أنه سيعاملني معاملة كريمة وسوف يحترمني ويمنحني ثقته وحبه.

ماذا يمكن لـ«جوسبينا» أن تقول بعد كل ما سمعته من «فيتوريا»؟ لقد كانت إجابتها واضحة وصريحة، فـ«فيتوريا» كانت دوماً أكثر منها جراً ووضوحاً، اختارت أن تعيش في بيت هي سيدهته حتى وإن كان بإمكانيات متواضعة وبعيداً عن «باليرمو»، لكنها ستكون قادرة حينئذٍ على تقرير مصيرها.

دارت حولها لتطرد تلك الأفكار الحزينة من رأسها، فبيتهم رغم كل شيء لا يمكن النظر إليه باعتباره مرفهاً، لكنهم على الأقل لديهم خادمة مقيمة، وأخرى تأتي لتعمل بالساعة لمساعدتهم عندما يكون حجم الأعباء المنزلية شاقاً ومرهقاً. بقي معها زهرة واحدة من شوارعها التي أتت بها من «بانيارا»، وكل شيء بخلاف ذلك حتى أغطية الأسرة قد تغير.

لقد أصبحوا يعيشون في راحة ورفاهية لم تكن تحلم منذ عشرين عاماً أن تصل إليها، وبالرغم من ذلك، فما زالت تفنق «بانيارا» ومشهد رضيعها «فينسينزيو» وهو متعلق بحلمة صدرها.

إنها تشعر بالوحشة والوحدة القاتلة في «باليرمو» وهي بعيدة عن موطنها الأصلي الذي تنتمي إليه. كم تتمنى لو تتخلى عن كل هذا في مقابل العودة لموطنها «بانيارا»، وأن يعود «فينسينزيو» متعلقاً بذيل ثوبها كما كان، حتى إنها ربما تحب «باولو»، من يعلم؟

ما عادت تتذكر نغمة صوت زوجها، لكنها ما زالت تتخيل أمامها وجهه الحاد، وحركاته الصارمة، وتقريعه القاسي، لقد ورث «فينسينزيو» عنه غضبه، ونظراته الحادة القوية، وهذا العزم والإصرار الذي لا يلين.

ولكن عندما تفكر في كل ما هو نقيض ذلك؛ كالدفع واللفتات الحنونة والتشجيع الصامت، يتجسد في مخيلتها وجه آخر مختلف تماماً، وجه ما زالت تمتلكه - وستظل - ومشاعر رقيقة وحنونة، وفي الوقت ذاته عناء وشقاء ترويض الحيوان البري.

«جوسيب باجنو» ليس الوحيد الذي سمع الشائعات التي أطلقت على آل «فلوريو»، ففي ظهيرة اليوم التالي للجنزة، حضر «جوليميلي لي فيجني» - سكرتير «نيكولا رافو» تاجر الجملة الآخر - إلى «الأروماتوريا»؛ كان يريد أن يعرف إن كان لديهم رصيد جيد في المخازن من السماق في الوقت نفسه ولو بالصدفة. واستفسر إن كانوا سيسوون فاتورة الشهر الماضي الخاصة بالسكر، هكذا اكتشف آل «فلوريو» أن شائعات «ساجوتو» وصلت لمكتب «رافو» وأنهم ينوون شراء اتفاقيات الائتمان. بهذه الطريقة التافهة والحقيرة التي يتبعها «ساجوتو»، كل التلميحات والأوهام التي أطلقها «ساجوتو»

عن عدم قدرة آل "فلوريو" على تسديد ديونهم، حاول بالتالي أن يقنع "رافو" بأن يشتري منه سندات الدين الخاصة بآل "فلوريو".

- كان هذا الأمر سيصب في مصلحتي كثيرًا يا سيد "إجنازيو"، و"ساجوتو" يحمل النقود في يده وعلى استعداد للدفع الفوري، لكنني ما كان لي أن أتسبب في إيذائك يا سيد "إجنازيو"، ولكنني حتى الآن لا أعرف لماذا يكرهك هذا الرجل إلى هذا الحد، فأنت رجل محترم وشريف!

- أنا ممتن لك يا دون "لي فيجيني"، السيد "كارميلو ساجوتو" يحيا على الحقد والحسد والغضب، وغيرته المحمومة لا تستعر بسببي أو بسبب ابن أخي؛ إنها شيء كامن ودفين بداخله لأنه كان يأمل... الله وحده يعلم ماذا كان يريد أن يصبح، وبدلاً من ذلك أصبح مجرد مرسل وسكرتاري تافه عند حميه السيد "كانزونيري" لا أكثر ولا أقل. هذه أيام صعبة على الجميع، ولكنني أقسم بشر في أنك ستحصل على كل مليم لك عندما يحل موعد السداد.

بعد أن ترك "لي فيجيني" المكتب، تساءل "فينسينزيو" بخوف:

- هل نحن حقاً نمر بضائقة مالية يا عمي؟

أغلق "إجنازيو" باب المتجر وذهب إلى مكان آمن وقال:

- نحن نمتلك القليل من المال في درج النقود، ولكن هذا لا يعني أننا في ضائقة مالية.

- ولكننا نمتلك فواتير المعاملات.

مال "إجنازيو" على المكتب وقال:

- ولكنها مبالغ بسيطة يا "فينسينزيو"، فالناس لا يسددون الكمبيالات والفواتير، وإن لم يسددوا فإننا سنفلس حقاً، فنحن لا يمكننا أن نأكل الكمبيالات والفواتير.

تحدث "إجنازيو" بشفاافية وبلا حرج ولم يخف شيئاً عن "فينسينزيو".

- نحن بحاجة لأن نقترض بعض المال، نحن بحاجة إلى سيولة مالية.

شعر "فينسينزيو" فجأة بضيق في معدته، حتى الآن، بقي عمه يحميه من كل الهموم والمشاكل، والآن...

- لكن الجميع سيكتشف أننا حصلنا على قرض! والحقير "ساجوتو" سيخبر الجميع وزوجته بهذا الأمر!

- أعرف هذا جيداً، اللعنة!

ضرب "إجنازيو" المكتب بقبضة يده وهز زجاجة الحبر.

- عندما لا يكون هناك خيار أمامك، فعليك أن تبتلع كبرياءك، كما يقول المثل الشعبي: "احن رأسك للريح حتى تمر بسلام"، وهذا بالضبط ما سنفعله.

مسح مقدمة أنفه وقال:

- عد أنت إلى البيت، وأنا سأتولى هذا الأمر، سأقوم بمحاولة مع مجموعة من الأشخاص لعلني أنجح في ذلك، لا تخبر والدتك بشيء.

اشتعلت وجنتا "فينسينزيو" من الحمرة وتمتم قائلاً:

- حسناً يا عمي.

سحب معطفه وانسل من الغرفة مسرعاً نحو البيت. كانت كل الأفكار التي في رأسه قد محيت بفعل القلق والتوتر، حتى صورة زوج العيون الأسود، الذي جعل وجنتيه يحمران من شدة الخجل مثل الطفل.

لكن المهمة ليست سهلة، إن المسألة ليست مسألة كبرياء؛ المشكلة الحقيقية هي أن العثور على شخص موضع ثقة في عالم التجارة ليس بالأمر السهل، من الصعب بل من المستحيل أن تجد شخصًا ما يقرضك ما تحتاجه من مال، خاصة في تلك الظروف وهذا الكساد الذي أصاب الجميع، دون أن يُنشر الخبر هنا وهناك.

لن يدرك «فينسينزيو» التكلفة الحقيقية لهذا القرار الذي اتخذه عمه «إجنازيو» إلا عندما يكبر ويصبح في سن عمه نفسها. كان الوقت متأخرًا عندما سمع صوت المفاتيح آتيًا من المدخل. «إجنازيو»

ساعدته «جيوسبينا» في خلع معطفه. بدأت تظهر بعض خصلات الشعر البيضاء في مقدمة رأسه هو أيضًا، وثقلت جفون عينيه بعض الشيء. سألته فجأة:
- هل حصلت على قسط كافٍ من الراحة والنوم؟
أراح ظهره للخلف قليلًا.

- كم أتمنى ذلك! لكن الوقت ضيق ولا يسعفني، خاصة بعد انتهاء الحرب ضد الفرنسيين العام الماضي.

وضع إحدى يديه على وجهها.

- على كل حال، شكرًا لك على عنايتك واهتمامك.

تهربت كالعادة من المداعبة. امتلأ حلقه بالمرارة، ووضع يده إلى جواره وقال:

- أين «فينسينزيو»؟

- في غرفته، لقد أردت أن أتحدث معك بشأنه.

أتى صمته المطبق مليئًا بالتساؤلات. تبعها «إجنازيو» إلى المطبخ. كانت «ماريانا» هناك تعد قطع التونة وتخفف من ملوحته بغسله بالماء؛ غيرت المياه وغطته بمياه نظيفة جديدة، هذه هي الطريقة الوحيدة لإزالة الملح الزائد الموجود به. حركت رائحة صلصة البطاطس شهيته للأكل.

أشارت «جيوسبينا» للفتاة، فتركت المكان على الفور وأغلقت الباب خلفها:

- ألم تلاحظ أنه يتصرف بغرابة هذه الأيام؟

غمس «إجنازيو» قطعة من الخبز في وعاء الصلصة ليحرب طعمها.

- بالتأكيد! لأنه يقضي معظم الوقت ووجهه مثبت على نافذة المتجر؛ كأنه ينتظر أحدًا.

لعم «إجنازيو» أصابعه وقال:

- هذه الصلصة شهية للغاية.

شحب وجه «جيوسبينا»، ولم يتبقَّ فيه نقطة دم واحدة وقالت:

- من هي؟ من تكون؟

- لم أعن شيئًا على وجه اليقين؛ إنها مجرد شكوك، فلا تبالغي في الأمر، في النهاية هو شاب يافع ككل الشباب.

تردد «إجنازيو» في البوح بالمزيد، لأنه لا يريد أن يفشي سر ابن أخيه، ولكن «جيوسبينا» أم كل الأمهات ولديها حدس قوي!

- من تكون؟

- ابنة البارون «بيليتريني»، لقد لاحظت أنه يجلس دومًا خلفها في الكنيسة، وقد منع موظفي المتجر من خدمتها حتى يعتني بها بنفسه، وبالطبع، هذا يجعله ينفر من الوقوف خلف طاولة البيع بالمتجر، ولكنه دفع أحد الشباب دفعًا بعيدًا عنها حتى لا يتحدث معها.

- أتقصد «إيزابيلا بيليتيري»؛ تلك الفتاة النحيلة ابنة أحد النبلاء الذي فقد كل أمواله على طاولة القمار؟

- نعم، بكل تأكيد، ولكن الفتاة تبدو كما لو كانت من مستوى اجتماعي أعلى، وتحدث برقة وحياء.

- لذا، فإن أمها البارونة تأمل بعد ما حدث لأبيها وأخيها وفقدهم لكل ما يمتلكونه على طاولة القمار وبيوت الدعارة أن يلقوا شباكهم على أحد النبلاء الأثرياء كي يزوجه البارونة الصغيرة الجميلة، ليدفع ديونهم المتركمة لدى الدائنين. أما بالنسبة للبارونة الصغيرة، فإما أن تنجح في إيقاع أحدهم في شباك جمالها وفتنتها كي يسدد ديونهم ويعيد لهم مكانتهم الاجتماعية المهذرة، أو أن تقبع داخل أحد أديرة الرهبنة؛ وحتى هذا الخيار قد يكون غير متاح من دون مهر.

بعد أن استمعت «جيو سبينا» لهذا الكلام، ظلت تسير جيئةً وذهابًا داخل المطبخ بعصبية وتوتر، وفجأة توقفت أمام «إجنازيو» وقالت:

- هل أنت واثق أنها هي؟

- لا، لست واثقًا، ولكن من المرجح أنها هي، لأنها تعيش خلفنا مباشرةً في ضاحية «بيازيتا دي سانت إليجو».

إلا أن «إجنازيو» أمسك لسانه عن الإفصاح على الأقل عن مناسبتين أخريين، عرض فيها «فينسينزيو» على عمه أن يقوم بتوصيل بعض الرسائل لبعض العملاء في هذه المنطقة؛ وهما ما أكدتا له أن هذه هي الفتاة التي يحبها «فينسينزيو».

دارت «جيو سبينا» حول المطبخ، وهي تخط على رأسها:

- ألم يكن من الأجدى بنا أن نزوجه فتاة من «بانيارا» على الفور؟

عاد «إجنازيو» بذاكرته للخلف بعض الشيء، وقال:

- أرجوك، لا تذكرني أمامي مرة أخرى «بانيارا» والزيجات المنظمة بين العائلات. لقد كبر «فينسينزيو»، ولم يعد باستطاعتك أن تربطيه بشرائط ثوبك إلى الأبد، فهو لم يعد طفلًا؛ لقد أوشك على بلوغ الثامنة عشر، هل لاحظت ذلك؟ بالمناسبة، هناك شيء أريد أن أخبرك به كنت أفكر فيه منذ فترة؛ لقد وافقت على سفر «فينسينزيو» إلى إنجلترا مع «إنجهام» وسكرتيره. سيكون السفر خلال بضعة أسابيع، ألح عليّ «فينسينزيو» في طلب السفر مع «إنجهام»، وها هو «إنجهام» قد وافق على اصطحاب «فينسينزيو» معه إلى إنجلترا في زيارة قد تمتد لعدة أشهر، ورأيت أن تغيير المكان ربما يفيد «فينسينزيو» كثيرًا ويساعده على التفكير بشكل جيد، وأنا شخصيًا أعتقد أن زيارته لإنجلترا سوف تنسيه كل الأوهام التي تملأ رأسه بشأن البارونة الصغيرة.

- ماذا تقصد بالسفر إلى إنجلترا؟

أفقدت الأخبار «جيو سبينا» توازنها، فسقطت من هول الصدمة على الكرسي ويدها على صدرها.

- أعني أن ولدي سيذهب بعيدًا عني وأنا آخر من يعلم؟ لهذا السبب يتعلم الإنجليزية مع سكرتير «إنجهام»؟

- صحيح، إن «فينسينزيو» بحاجة ليرى العالم ويتعلم قدر ما يستطيع، وسترين بنفسك أن ذهابه لإنجلترا سينسيه كل شيء يتعلق بالبارونة الصغيرة.

هزت "جيوسيبينا" رأسها، فهي غير قادرة على أن تستوعب أن صغيرها وفلذة كبدها "فينسينزيو" قد كبر، وأصبحت الفتيات من نوع البارونة "إيزابيلا" تستثيره؛ لقد أزعجها هذا الأمر أكثر من تلك الرحلة المفاجئة التي ترى أنها محفوفة بالمخاطر.

- عليه أن يُخرج هذه الفتاة من رأسه.

صاح "إجنازيو":

- كفى! نحن لا نعلم ما الأمر على وجه اليقين، وهل هذا الأمر حقيقي أم لا، وعلينا أن ننتج له فرصة التفكير بشكل منطقي، وأرى أن الرحلة إلى إنجلترا إن لم تنفعه فلن تسبب له أي أذى. والآن حضري لي الطعام، فما زال لدي الكثير من العمل لأقوم به بعد العشاء.

خيم الصمت المطبق على العشاء؛ هذا الصمت جعل "فينسينزيو" يشعر بالحيرة الشديدة، خاصة أنه ليس لديه ما يبرره. نظر لأمه، فوجدها عابسة وهو لا يعرف سبب هذا العبوس تحديداً، وبمجرد أن رُفِع الطعام من على المائدة، جلس مع عمه ليراجع معاً بعض حسابات المتجر.

فصل "إجنازيو" الفواتير عن الكمبيالات مستحقة الدفع، بينما كان "فينسينزيو" مشغولاً بإجراء الحسابات.

- هناك الكثير من العملاء الذين لم يسددوا ما عليهم من ديون ومستحقات. نشكر الرب أن حركة البيع في "الأروماتوريا" جيدة لأننا كموردين إن لم تكن حالة البيع جيدة، قد نضطر للتخلص من البضائع المكدسة في المخازن بثمان بخس، إذ إن الفترات التي تفصل بين الحروب تزداد فيها الديون وبرودة الجو، وينحدر الاقتصاد إلى أدنى مستوياته، وقد ينهار.

في الوقت الذي كان يهتم فيه "إجنازيو" بالرد عليه، دخلت عليهما الخادمة كي تضع المزيد من الفحم في المدفأة لتدفئة الغرفة، فعام 1817 قارس البرودة ولا دفع فيه.

انتظر "إجنازيو" خروجها من الغرفة وقد كسى وجهه التجهم والحزن، وكان يرتجف من شدة البرد.

- حتى وإن حصلنا على القرض، فإننا لن نتكمن من الخروج من هذه الأزمة دون أن تطيح بنا وتُسقطنا في هوة الخسارة والإفلاس إلا بمعجزة.

أجابه "فينسينزيو":

- لكننا لسنا الوحيدين يا عمي، فالكل يمر بأوقات عصيبة، حتى "ساجوتو" نفسه طلب تمديد فترة السداد بالنيابة عن حميه؛ مع الافتراض أن الرجل العجوز ما زال صاحب القرار، لكن الواقع يقول إنه وبعد ما ألم به من مصيبة التسمم، فإن ولده الأكبر أصبح المدير الفعلي لشئون العمل.

- الكل يعلم أن "ساجوتو" مجرد كلب؛ حتى بعد أن قبل "كانزونيري" أن يزوجه ابنته، لكنهم يحافظون عليه لأنه يجلب لهم الأموال، وهو في النهاية لا يعدو كونه مجرد خادم ذليل لهم، وكلب ينبح على الجثث ويلعق أحذية الأثرياء.

- هذا صحيح؛ هو لا يعدو كونه كلباً، لكن لم يبق الكثير لينبح عليه، فال "كانزونيري" أيضاً غارقون في الديون، وتوقفوا عن الإيذاء والتحريض ونشر الأكاذيب والشائعات بين الناس.

- المشكلة أن نصف سكان "باليرمو" غارقون في الديون، والنصف الآخر له مستحقات وديون ولا يمكنه أن يحصلها.

لم يُجب ابن أخيه على الجزء الأخير من حديث عمه، لأنه كان منهمكاً في إجراء الحسابات وامتلأ وجهه بالتجهم والاكتئاب.

في صباح اليوم التالي، قرر الشاب الصغير التوجه لضاحية "لاكالا"، وأثناء سيره في الطريق، رأى كم المحلات المغلقة التي جعلت المدينة تبدو كصحراء جرداء، فما من شيء هناك سوى نوافذ متاجر الإنجليز التي أغلقت أبوابها بعد رحيلهم. لم يختلف الوضع كثيرًا في ضاحية "فيا سان سيباستيانو" عن ضاحية "لاكالا"، فلقد رأى "فينسينزيو" متجر الخمر الذي كان يبيع الخمر للتجار مفتوحًا لكن دون زبائن، ومالك المتجر يكنس الأرض الخالية من الزبائن.

ببساطة، لأنه منذ هزيمة "نابليون" في معاركه مع التحالف، تحرر البحر المتوسط من طاعون الفرنسيين، وما عاد هناك سبب منطقي لبقاء الإنجليز في صقلية، فالحصار المفروض عليهم انكسر الآن، وأصبح لديهم القدرة على المتاجرة في أي ميناء، فما عاد هناك حاجة لقصر النشاط التجاري على ميناء "باليرمو"، فموانئ البحر المتوسط أصبحت كلها مفتوحة أمامهم بعد هزيمة الفرنسيين، وبهذه الطريقة، فقدت جزيرة صقلية - بنهاية الحرب وهزيمة «نابليون» وتحرر موانئ البحر المتوسط من قبضة الفرنسيين - أهميتها الإستراتيجية، باعتبار أنها كانت في يوم من الأيام الميناء الوحيد الذي لم يصل إليه الفرنسيون، لأن الموانئ أصبحت جميعها مفتوحة أمامهم. تبدو "باليرمو" بعد رحيل التجار الإنجليز كجثة هامدة، بعد أن كانت مفعمة بالحياة والنشاط والوضاء.

وفي طريق عودته من "لاكالا"، قرر أن يمر بمتجر "جولي" بدافع الفضول لا أكثر لمعرفة الأحوال عن كئيب، فرأى "البوتيا" ذات النوافذ المصنوعة من الأبنوس وأواني الألبستر مهجورة، وكان «جولي» نفسه يجلس مستندًا إلى طاولة البيع، وينظر للخارج وقد امتلأ وجهه بتعبيرات بائسة، وعندما رأى «فينسينزيو»، بصق على الأرض.

«فليبسك كما يشاء»، هكذا فكر «فينسينزيو» وهو يراجع مجموعة الكمبيالات مستحقة الدفع التي بحوزته، وارتسمت على وجهه ابتسامة ساخرة عندما وجد أن «جولي» وقع على أحد الكمبيالات بقلم الحبر الأسود على صفحة بيضاء.

فتح «إجنازيو» جزءًا من نافذة المتجر كي يحرر بعضًا من الدخان المنبعث من المدفأة. لم أر في حياتي كمّ المحال التي تم إغلاقها في هذه الفترة القصيرة، حتى «إنجهام» قد اشتكى من أن عدد الطلبات المطلوبة منه أقل بكثير مما كان في السابق. حسنًا، ما الذي يتوقعه؟ فتجارة العطارة والتوابل انتهت من «باليرمو» بمغادرة رفاقه وبنو وطنه منها؛ الأمر ببساطة كأنهم استأذنوا وذهبوا تاركين لنا المشاكل لنحلها مع النابوليين.

هز «فينسينزيو» رأسه، فالتغيرات التي وقعت في السنوات القليلة الأخيرة كانت سريعة ومتواترة. لم يستطع أحد التصدي لعودة أسرة «البوربون» الحاكمة إلى حكم الجزيرة مرة أخرى، فالصقليون منشقون على أنفسهم، و«باليرمو» تكره «ماسينا»، و«ترايبينا» حليف لـ «ماسينا» التي تكره «باليرمو»، و«كاتانيا» تبحث عن مصلحتها الخاصة، متفاخرين طوال الوقت بأنهم أصحاب أقدم برلمان في العالم، لكنهم لا يعرفون بالضبط ما الذي يجب أن يفعلوه به، ولكن يبقى شيء واحد يجمع كل هذه الفرق؛ ألا وهو الاشمزاز من شيء واحد «فيما وراء الفناء» ومضيق «نابلس».

- بحلول شهر ديسمبر 1816، أصبحت مكاتب الدولة والجمارك تدار من قبل النابوليين، وهم في الأصل قادة عسكريون، فـ «باليرمو» لم تعد تمتلك لا القوة ولا الاستقلال، وفرضت عليها ضرائب أثقل وقيود وتعقيدات أكبر، والمزيد من القيود الجديدة بشأن التجارة تعاملت مع الضربة النهائية. - والاقتصاد الذي كان يعرج قد شل تمامًا!

قام «فينسينزيو» بغلق دفاتر الحسابات بشكل مفاجئ وقال:
- لقد قمنا هذا الشهر بتحقيق أرباح أقل من المستحقات، ولكننا نمتلك خطابات سداد على وشك أن تفقد صلاحيتها.

خفض رأسه ومد ذراعيه وانبعث تثاؤبه عاليًا من فمه. نظر إليه «إجنازيو» نظرة سيئة، وتمتم واعتذر وتمدد، أشار إلى سجل الحسابات. التقط السندات الإذنية وقال:
- لسنا مؤسسة خيرية، لا مزيد من التمديد.

استمروا في العمل معًا وبصمت. في بعض الأوقات، عندما كان يغرق «إجنازيو» في أفكاره، كان يُخَيَّلُ إليه أن مَنْ يقف ويجلس إلى جواره هو أخوه «باولو»، ويبدأ في التحدث معه بلهجة أهل «كالابريا»، فكان ابن أخيه ينظر إليه باستغراب شديد، و«إجنازيو» يستغرق بعض الوقت حتى يتدارك الخطأ؛ يحدث هذا عندما تتمكن الذكرى منه ومن معدته وتتحول إلى ندم.

عندما استيقظ «فينسينزيو» في صباح اليوم التالي، وجد عمه مستعدًا للخروج؛ كان «إجنازيو» يسلي نفسه بالعبث بخاتم أمه ويشاهده وهو يلعب في ضوء النهار، وفي الوقت نفسه يتفحص وجه «فينسينزيو»؛ كان يتعجب أن «روز بالينتينو» قد يفكر في حفيده، كان يسمعه وهو يلعبه بلطف، ووجد نفسه يخبط في كوب الحلاقة بالموس، ويستخدم فوطة لتنظيف القطع تحت شفتيه.
- ماذا دهالك يا «فينسينزيو»؟ لماذا أنت متوتر هكذا في الصباح؟ اقترب، دعني أساعدك.
جلس «فينسينزيو» وهو ينفخ. كانت يد «إجنازيو» سريعة وثابتة، تحدث برفق لـ«جوسبينا» حتى لا يسمعهم أحد.

- ما الأمر يا «فينسينزيو»؟

يغسل الموس فيصدر معدنه صوتًا في سيراميك الكوب.

- لقد كنت تتصرف بشكل سيئ في الفترة الأخيرة، لدرجة أن أمك لاحظت الأمر.
تحرك «فينسينزيو» بعيدًا:

- هناك بعض الأفكار في مخيلتي يا عمي.

- اثبت في مكانك وإلا سأجرحك.

رفع ذقنه بأصابعه لأعلى.

- هل هو أمر هام؟ هل هو متعلق بالمشكلات الخاصة بالحسابات ولم تخبرني بها؟

- لا، لا شيء.

مرر «إجنازيو» موس الحلاقة على وجهه من تحت الصابون.

- هل هي فتاة؟

تردد للحظة، وبايماءة غير محسوسة:

- نعم.

احمرَّ وجه «فينسينزيو» من شدة الخجل.

- انتبه للفتاة التي تركض وراءها.

انزلق الموس حتى وصل لفكه.

- واهتم بما تفعله ومع مَنْ، من السهل القيام بشكل غبي، خاصة لو أن الدم هو ما يحكم عقلك.

كانت نظرة عيون الشاب الصغير خليطًا من الإحراج ونفاد الصبر.

- تعلم أنني لم أعد طفلًا يا عمي.

- هذا صحيح، لكن المرأة قد تجعل من الرجل أضحوكة، وأنت لست شخصًا غيبًا.
انتهى عمه من حلق ذقنه، وأعاد له الموس.

- سأنتظر في المتجر، أسرع.

تبلغ "إيزابيلا بيليتيري" 16 عامًا، وشعرها أسود وناعم كالحرير، وعيناها مشرقتان ولامعتان، ولها رقبة طويلة تشبه عنق البجعة، مدللة وأرستقراطية، وهي خليط مثير من خجل المترهبينات والشهوة المتدفقة.

- جميلة، جميلة جدًا.

لفت جمالها الأخاذ أنظارَ الكثيرين في "باليرمو"، رغم أنها لا تمتلك مليونًا واحدًا لأن والدها المتوفى كان مهووسًا بالقمار، وبعد أن فقد كل ثروته بسبب لعب القمار، تم الحجز على كل ممتلكاتهم من قبل الدائنين؛ بداية من قصرهم في "باجيريا" ووصولًا لمجوهرات أمها. وذات يوم، وُجد والدها ميتًا في سريره؛ تعلم "إيزابيلا" أن أباه انتحر بالسم، ولكن لا يمكن الإعلان عن هذا، لأن المتوفين بسبب جرائم الانتحار لا يتم مباركتهم من قبل الكنيسة.

وعلى الجانب الآخر، دُمر أخوها من قبل المرأة التي كان يرافقها، وهو في حالة جدل دائم مع والدته. ما من أحد يعطيهم أموالًا على سبيل الدين، والشخص الوحيد الذي يصدق وعودهم هو ذلك الشاب العاشق في "الأروماتوريا".

"إيزابيلا" تعلم جيدًا أن "فينسينزيو" يحبها وملتف للقائها، ولا تفاجئها رؤيته ليلاً ونهارًا منتظرًا خارج نوافذ منزلها في "بيازيتي دي سانت إليجو"، حيث تعيش في البيت الذي منحه خالها لأمها بدافع الشفقة أكثر منه بدافع العطف والحب.

"فينسينزيو" يكبرها في السن بقليل وعائلته من الطبقة المتوسطة؛ هذا ما تسمعه، ولكنها ليست شغوفة بهذا النوع من الخطاب، فإنها ابنة بارون، ولكنهم غارقون في الديون من رأسهم وحتى أخمص قدميهم، ولكنهم ما زالوا يحتفظون بطقم عشاء صيني فاخر، حتى وإن لم يكن هناك شيء يذكر ليوضع في هذه الأطباق سوى البروكلي والبصل، وهذا الشاب مجرد عامل في متجر، لكن ها هو ككل صباح يقف أمام بيت "إيزابيلا" لعله يراها، تلمحه الفتاة وتقف خلف الستائر.

- ها هو الشاب الذي حدثتُك عنه يا أمي.

اندفعت البارونة "بيليتيري" نحوها.

- ما هذا؟ يا له من شاب مزعج!

ودفعتا بعيدًا عن النافذة.

- لا تشجعيه، لسنا بحاجة لهذا النوع من الشباب، أنت الوحيدة التي في وضع يمكننا منه الحصول

على القليل من المال؛ عليك أن تجدي زوجًا مناسبًا لتتزوجي منه سريعًا لكي ينفذنا مما نحن فيه.

لكن "إيزابيلا" قاومت، وألقت نظرة ثانية لـ "فينسينزيو"، وهزت رأسها وهو يرد عليها بتحيةة، فجرت أمها بعيدًا عن النافذة وقالت:

- عار عليك!

أغلقت البارونة الستائر وهزتها.

- هل تحاولين إفساد كل شيء؟ لا يحق لك التصرف بهذه الطريقة مع شاب فقير يُقدَّرُ يديه بالعمل، هؤلاء الناس وضعاء وبلا أخلاق.

استسلمت "إيزابيلا" لحديث أمها وأطاعتها؛ تعلم جيداً أن الطبقة الأرستقراطية تتزوج من بعضها بعضاً فقط، وجمالها هو نوع الجمال المنشود بالنسبة لهم، وتعلم أيضاً أن الجمال كالزهور لا يدوم للأبد.

لكنها وبالرغم من كل ذلك، لا يمكنها أن تتجاهل نظرات "فينسينزيو فلوريو"، لأنها نظرات لا تشبه أية نظرات أخرى رأتها، لأن نظراته ببساطة تخترقها من الداخل، وتجعلها تبتسم بخجل، وتدهشها، وتطفئ ابتسامتها، وتجعلها تتألم.

وبحلول مساء يوم الأحد التالي؛ أثناء تأدية صلوات المساء في كنيسة "سان دومينيكو"، تمكن "فينسينزيو" من التسلل والجلوس خلف "إيزابيلا بيليتيري".

خرج عن صحبة أمه لضاحية "سانتا ماريا لا نونا". في هذا الصباح، أصبحت "جيوسبينا" مقهورة، وتساءل "فينسينزيو" باستمرار عن الذي يفعله وإلى أين هو ذاهب. كان "فينسينزيو" يفضل السير بصحبة عمه "إجنازيو" عن السير بصحبتها، والذي كان يسر وهو يشاهده بعينه الصارمتين. لا بأس، يمكنه احتمال كل شيء حتى غزو أمه وتدخلها في كل شيء، والصمت التام لعمه من أجل نظرة من عيني "إيزابيلا فليني".

تتمتع البارونة الصغيرة بجمال فتان، وبشرة شديدة البياض ناعمة كالرخام، وشعر أسود حالك السواد. كان "فينسينزيو" يشعر بدفئها والعطر المنبعث من البودرة المنتشرة على وجهها، وكانت قوة جاذبيتها له قوية جداً، لدرجة أنه كان يشعر بنبض العروق الزرقاء في عنقها من تحت ياقة ثوبها كأنه يمر تحت أصابعه.

كانت صورتها تسيطر عليه، ويتخيلها في أحلامه وهي ترتدي ملابس حريرية بفتحة كبيرة تكشف عن صدرها شديد البياض، تخيل «فينسينزيو» أنه يلمس بيديه فستانها الحريري وجسدها الأبيض، لتمتد يده بعد ذلك نحو الأسفل.

غطى وجهه بيديه من شدة الخجل؛ إنها من نوعية النساء التي قد تسوق من يعشقها بجمالها الفتان نحو الضياع.

بعد انتهاء الصلوات، اندفع "فينسينزيو" بين الجموع مهرولاً ليجد نفسه أمامها مباشرة، ولأن حجمها صغير مقارنةً به، فكان على "إيزابيلا" أن تنتظر لأعلى، فرفعت حاجبها قليلاً في تساءل صامت. شعر "فينسينزيو" أن اللحظة التي جمعتها معاً لأول مرة وجهاً لوجه مرت كألف لحظة. اصطنع "فينسينزيو" السعال ووقف جانباً لكي يسمح لها بالمرور.

- تفضلي، سأتبعك.

غمغم الشاب بصوت عميق أتى من حيث لا يدري. انفجرت الفتاة في نوبة من الضحك؛ شعر أن صوت ضحكها أجمل صوت سمعه في العالم.

كانت "إيزابيلا" على وشك أن تشكره، عندما حضرت والدتها ودفعتها بعيداً.
- ما الذي تفعلينه هنا؟ هيا بنا نذهب.

ما زالت عينا "فينسينزيو" ثابتتين على الفتاة التي كانت تلتف من حين لآخر للخلف كي ترى "فينسينزيو"، في تلك الأثناء لم يلاحظ "فينسينزيو" نظرة الاحتقار التي رمقته بها والدته "إيزابيلا".
لكن "إجنازيو" لاحظ الأمر لأنه كان يقف إلى جوار ابن أخيه، وفي المقابل رمقها "إجنازيو" بنظرة لا تقل عن نظرتها احتقاراً وامتهاناً.

- أما زلت تلاحقها وتسير خلفها؟
تحدثت "جيو سبينا" بطريقة حادة، كأنها تبصق الكلمات من فمها على طاولة العشاء، ليتدحرج بعد ذلك على الأرض من شدة الغيظ والغضب.

اختر "إجنازيو" أن يتجاهل ما فعله تمامًا في تلك اللحظة. وأمسك شوكرته وبدأ في تناول الطعام بعد قضاء نهار طويل في الإجابة على أسئلة الموظفين النابوليين، الذين كانوا على استعداد أن يجبروه على دفع ضرائب حتى على الحذاء الذي يرتديه إن وجدوا إلى ذلك سببًا، كان يشعر بالجوع والإنهاك الشديد.

توجهت "جيو سبينا" نحو النافذة لتجلس، وما إن تجلس إلا وتقوم لتقف مرة أخرى من شدة التوتر. تجاهلت طبق المكرونة بصلصة الطماطم الذي أمامها.

- أليس لديك ما تقوله؟

استمر "إجنازيو" في تناول الطعام وقال:

- كان عليه أن يكتشف من تلقاء نفسه أنها غير مناسبة له و...

- وماذا لو فعل فعلاً أحق؟ ماذا لو استيقظنا فجأة، فوجدنا أنه من الضروري أن نتعامل معها ومع ديونها وأخيها الوغد؟

- توقفي عن ذلك الآن.

رفع "إجنازيو" حاجبيه نحو الأعلى، وأمسكها ليجلسها على المائدة.

- حينها، وحينها فقط، سأتولى بنفسى التعامل مع الموقف. أنت أمه حقًا، لكنني رجل وأنا أعلم تمامًا كيف يفكر الرجل في تلك المواقف، هذا بالإضافة إلى أنها إن تصرفت كشخص ثرثار فهذا ليس خطأ "فينسينزيو"، فهو في النهاية رجل، وهذا طبيعي.

ثم تتحجج كي يعدل من نبرة صوته:

- إنه رجل، ومن الطبيعي أن يسعى وراء كل ما يسعى إليه كل الرجال.

احمرّت وجنتا "جيو سبينا" خجلًا تحت وطأة نظرات "إجنازيو" الثاقبة لها، فإنها تنسى أحيانًا أن أخت زوجها رجل أيضًا، وربما يكون له احتياجاته مثل كل الرجال.

دارت المفاتيح في قفل الباب؛ لقد وصل "فينسينزيو" وهو يلهث.

- أعتذر عن التأخير، فأنا...

- لن أقبل اعتذارك، أين كنت؟

- أمي، ما الأمر؟

- والآن، اصمت وأنصت إليّ جيدًا؛ أنا لا أريد أن أرى ابنة "بيليتيري" مرة أخرى هنا، هل تفهمني؟ ألا تعلم أن أختها ينفق أمواله على العاهرات في بيوت الدعارة؟ وأمها تأمل أن يتزوجها شخص ثري

وغبي كي يسدد ديونهم، ومن الطريقة التي تتصرف بها، يبدو أنك المخلص المنتظر.

- بحق القديس "فرانسيس من باولا"!

غطى "إجنازيو" وجهه بيده:

- لماذا لم تنتظري حتى أتحدث أنا إليه بطريقتي؟

ترك الفتى مائدة الطعام وقال:

- لا يحق لك أن تتحدثي معي بهذا الأسلوب، فـ"إيزابيلا"...

- "إيزابيلا"! دون أية ألقاب؟ هكذا؟

- اللعنة! نعم هكذا، واسمها هو "إيزابيلا"، وذهبت لكي أقف أمام بيتها، ما المشكلة؟ بدأت نبرة صوت "فينسينزيو" تملو بصورة غير مسبوقه.

- ما الذي يجعلك تفكرين أنها غير مخلصه؟

- الأمر لا يتطلب منك سوى أن تنتبه للطريقة التي تسير بها، لتعرف على الفور أي نوع من النساء هي.

عندما تسيطر على "جيوسبينا" هذه الحالة من الغضب، فما من قوة على وجه الأرض أو في السماء يمكن أن تعيدها لحالتها الأولى.

ورأى "إيجازيو" فجأة ذلك الجانب الخفي من شخصية "فينسينزيو"، الذي طالما كان يشك بوجوده؛ هذا الجانب المدمر، المشحون بالعزم، الذي تربي على الغضب، هناك، ينبض ويتأجج ويتقد.

- اهدأ يا عزيزي "فينسينزيو".

اقترب "إيجازيو" منه كي يهدئه، لكن "فينسينزيو" لم يكن منصتاً ودفعه بعيداً، وكأنه لم يعد يرى أمامه أمه بعد الآن، فلم تكن تعلم شيئاً عن الذباب التي صبت جام إهانتها وغضبها وسبابها عليه، وما يحزنه أكثر من أي شيء آخر، هو نظرة الاحتقار المرسومة على وجهها.

- وما هو الشيء الذي يعطيك الحق في أن تظني أنك أفضل منها؟ لطالما كنت انطباعية ومتحكمة ومنغلقة على نفسك، ولم ترغبي يوماً في الخروج من عالمك الخاص لتشاهدي العالم من حولك، أنت فقط تستمتعين بتعذيب الناس من حولك.

- هل نسيت أنني أمك؟!!

- لا، لم أنس.

التصق الغضب بحلقه ليمنعه من الكلام، ثم توجه مرة أخرى نحو الباب:

- لماذا لا تنتظرين إلى نفسك في المرأة، وترين حقيقتك قبل أن تشرعي في سب الآخرين؟

خرج "فينسينزيو" مسرعاً وأغلق الباب خلفه، قطع "فينسينزيو" المسافة التي تفصل بين البيت ومتجر العطارة في بضع خطوات، لحسن الحظ أنه وجد المتجر خالياً، لأنه كان وقت الغداء؛ حين يذهب الجميع في هذا التوقيت لتناول الطعام بالبيت.

حاول "فينسينزيو" أن يهدئ من نفسه عن طريق البحث في قائمة الأعشاب الموجودة كي يصنع شيئاً يهدئه:

عشب "الويتش هازيل" لتهدئة الأعصاب.

القرنفل لعلاج عسر الهضم والغثيان.

"تورمنتال" لعلاج التهاب الأمعاء.

جذر قسطل الحصان لتوسيع الأوردة.

لحاء الشجر لعلاج الحمى.

أنهى "إيجازيو" تناول طبق المعكرونة الذي أصبح بارداً، بينما كانت "جيوسبينا" تصرخ، إنه لن يصرح بها على الملأ، لكنه يعلم أن مخاوف زوجة أخيه ليس لها أساس من الصحة، وهذا الوغد هو آخر ما يريدانه، وتركها دون أن يودعها، وتوجه نحو "الأروماتوريا" فوجد ابن أخيه يجلس وحيداً في المكتب، منكباً على الدفاتر وقد وضع إحدى يديه على ظهره.

- هل تتق بي؟

هز الشاب رأسه.

- ما الذي يدور بينك وبين البارونة الصغيرة يا «فينسينزيو»؟

- لا شيء، أقسم لك يا عمي!

رأى «إجنازيو» في عيني «فينسينزيو» ذلك الجانب المظلم الذي لطالما كان يخشى من وجوده،
والآن ظهر على السطح ولا سبيل لعودته لمكانه مرة أخرى.

- هذا ليس كلام أمي، لقد قالت هذا بسبب...

حرك أصابعه في شعره الكثيف المموج.

- لست أدري لماذا قالت ما قالته.

- أنت ابنها، وهي تخشى أن يتسبب تعلقك بالبارونة الصغيرة في تحيها جانباً، فهي تشعر بالغيرة،
لأن أمك لا تحبك كابنها فحسب ولكن كقطعة منها، بطريقة لا تفسح مجالاً لأي حب جديد.

أراح «فينسينزيو» كوعه على المكتب:

- على كل حال، أعتقد أنها تحبني كذلك؛ أقصد «إيزابيلا». في ذلك اليوم، كانت تقف خلف الستارة،
وعندما مررت كالعادة تحت منزلها، لوحت لي بيديها، والآن صارت تنبسم لي دون خوف حتى وهي
بصحبة والدتها التي كانت تعنفها بشدة؛ تلك العجوز الشمطاء التي تتجاهلني كما لو كنت أبرص.

- تتمنى أمها لها الأفضل أيضاً.

- وأنا لا أستحقها، أليس كذلك؟

لم يجبه «إجنازيو» على هذا السؤال. الواقع يقول إن آل «فلوريو» أصبحوا في وضع مالي جيد، لكن
«فينسينزيو» ليس وريث أحد الأسر الأرستقراطية وليس سليل أحد النبلاء، فبالنسبة لهؤلاء الناس
الأمر كله يتعلق بالدم.

ربت «إجنازيو» على رأسه وقال:

- اصغ إلي جيداً يا «فينسينزيو»، ستسافر إلى إنجلترا الشهر القادم، وسوف تبقى هناك لعدة أشهر،
إذا ما وجدت نفسك بعد عودتك ما زلت متعلقاً بها، أعذك بأنني سأتكلم مع أمك في الأمر وأحاول أن
أقنعها، ولكن ليس قبل ذلك، لكن الآن، إذا ما وقفت أمك أمام البارونة الصغيرة، فإنها ستخفقها.

لم يستطع «فينسينزيو» أن يتمالك نفسه وانفجر في الضحك، لكن تعبيرات وجهه عادت لتكتسي
بالحزن مرة أخرى:

- هل تعلم يا عمي؟ لقد كنت أفكر في هذه الرحلة، لست واثقاً من أن ذهابي إلى إنجلترا فكرة جيدة.

تجمد «إجنازيو» في مكانه:

- ما الذي تقصده يا «فينسينزيو» بهذا الكلام؟ يجب عليك يا «فينسينزيو» أن تذهب.

ظل صوته هادئاً، لكن الدم كان يغلي في عروقه.

وضع الشاب القلم الحبر على المكتب، فسقطت منه قطرة حبر وانتشرت على الورقة.

- ماذا لو أن «إيزابيلا»...

- في الحقيقة لقد أصبحت امرأة مكتملة الأنوثة، جميلة وتستثير الدماء في العروق، لكن بعض
الأشياء لن تبقى في انتظارك إلى الأبد؛ ما يبقى في النهاية هو العمل يا «فينسينزيو».

- وماذا لو زوّجتها أمها لشخص آخر؟ سوف...

رفع «إجنازيو» من نبرة صوته وهزه وقال:

- لا، لا يمكنك أن تفعل هذا بي، لا يمكنك أن تكون ناكراً للجميل بعد كل تلك التضحيات التي قمت بها
من أجلك، وهذا العمل الذي سهرت من أجله وطورته لك، أنت أيضاً يجب عليك أن تعتني بـ«البوتيا»

وكل العاملين هنا، لا تكن أنانيًا وتهتم بشئونك وحسب. تكذبت الكلمات في عقل «فينسينزيو» وظل يفكر فيها أثناء سيره، وهو يخفض رأسه ويداه في جيبه. نزلت كلمات «إجنازيو» على رأسه كالأحجار الثقيلة؛ لقد ضحى عمه بنفسه لأجل العمل ومن أجله هو وأمّه، كان يختنق كحيوان داخل القفص، لم يشعر في حياته قط أنه ينتمي لعائلة إلا الآن. وصل إلى ضاحية «لاكالا».

منذ عام مضى، كان الميناء يعج بالمراكب وبصناديق البضائع المرصوفة على طول رصيف الميناء القادمة مع البريطانيين حاملّة ختم المستعمرات، أما الآن، فالمنطقة بدت وقد انقلبت رأسًا على عقب وتغيرت الأحوال تغيرًا جذريًا، وفقدت مدينة «باليرمو» بمينائها سمتها الأساسي وضجيجها، وأصابها صمت مطبق بعد أن كانت تعج بالضوضاء طوال الوقت، أصبح من السهل على من يسير الآن على طول رصيف الميناء أن يسمع صوت ارتطام الماء بالصخور بشكل واضح. منظور الرحلة لإنجلترا تظهر من جديد بقوة أكثر من ذي قبل.

«يا إلهي، إنني حقًا أريد أن أذهب»، إنه كل ما تمناه منذ أن التقى بالتاجر الإنجليزي «إنجهام»؛ وهو أن يسافر إلى إنجلترا. على الجانب الآخر، تقف «إيزابيلا» كرجبة أثيرة لهذا القلب الأحمر الذي أقنعتة وعود مخفية، ظهرت عبر نظرات قليلة تبدو كبريق لامع من وراء الستارة.

بليّ حذاء الفتى من كثرة السير نحو ضاحية «بيازيتا سانت إليجو» على الحصى جيئة وذهابًا، من أجل الوقوف تحت نافذة منزلها؛ فليذهب العرف إلى الجحيم، إنه بحاجة لأن يعرف. وقت الظهيرة؛ هذا هو الموعد الذي تظهر فيه «إيزابيلا» من وراء الستائر، وأول شيء تقع عليه عينها عندما تستيقظ من نومها هو «فينسينزيو»، تراه من وراء الستائر وهو واقف ينتظر رؤيتها وهو مستند إلى الجدار الموجود خارج الباب الأمامي لمنزلها.

سار إلى هناك حيث تسكن «إيزابيلا»، وتجراً واقتراب من باب منزلها وأمسك بيديها. سألتها بسرعة: -والآن، أخبريني الآن بحقيقة مشاعرك نحو.

جمعت شجاعتها وحاولت أن تجيبه ولكنها لم تستطع، حاولت: -أنا...

وفجأة خبطتها مروحة ما على فمها وخنقت رغبتها في الحديث؛ بسرعة كبيرة تسللت البارونة ووقفت بينهما.

-ماذا؟ ما الذي تريده بالضبط؟

-أحدث مع «إيزابيلا» وليس معك.

-كيف تجرؤ على النطق باسمها هكذا دون ألقاب؟! إنها البارونة «بيليتيري» أيها الوغد! هيا، هيا، اذهب من هنا قبل أن أخبر أخاها بوجودك، فينادي على أحد الخدم لكي يوجه لك عدة لكلمات تستحقها على جرأتك ووقاحتك.

وقفت الفتاة الصغيرة خلف أمها وهي شاحبة، مسلوبة الإرادة، وقد وضعت قبضتها على فمها. شعر «فينسينزيو» بالغضب يغلي في عروقه.

-ابنك يا سيده، «السينيور» على الأرجح لن يمنحها شرف الحفاظ على لقبها الأرستقراطي، لأنه قد يكون جالسًا الآن داخل أحد بيوت الدعارة يحتسي الخمر مع إحدى العاهرات، وينفق آخر قرش أعطيته إياه.

تجددت خدود المرأة عند سماعها لكلمات "فينسينزيو". من الواضح من ملامحها أنها كانت في درجة جمال "إيزابيلا" نفسها يوماً ما عندما كانت في عمرها نفسه، لكن الحياة سلبتها آخر بريق للنعمة.

- كيف تتجراً، وتحدثني بهذه اللهجة أيها الكلب البائس؟!

- لم أرغب في توجيه أي إساءة لك، لكن أنت من بدأت.

توقف بعض المارة لمشاهدتهما وهما يتجادلان، بالإضافة إلى بعض الرؤوس التي بدأت تطل من النوافذ لمتابعة الجدل الدائر بين "فينسينزيو" و"البارونة المفلسة".

- ألا تعلم أيها الحقيير أن أسلافي كانوا يجلدون أمثالك من العامة والغوغاء، لمجرد رفعهم لرؤوسهم وإطلاق عبارات أقل حدة من العبارات التي تحدثت بها؟ وإذ بك تتجراً وتحدث إليّ بهذه الطريقة؟! فلتعد أنت وعائلتك الحقييرة من الملاحين لقعر البرميل الذي خرجتم منه.

تفحصها "فينسينزيو" بدقة، فاكتشف أن شرائط الدانتيل التي تزين ثوبها مرتوقة، والكشكشة الموجودة على حافة الثوب بالية.

- هل أنت من اختار هذا الثوب قبل خروجك، أم خادمك؟ نعم، لقد تذكرت أنه لم يعد لديكِ خادمة، أليس كذلك؟ عليك أن تنتبهي أكثر للحريير الموجود على تنورتك لأنه بالٍ يا سيدتي.

تردد صدى الصفعة التي سقطت على وجه "فينسينزيو" ردًا على كلماته في أرجاء الشارع، وتوقف "فينسينزيو" متصلبًا في مكانه من هول الصدمة؛ لم يندكر آخر مرة صفعته أمه فيها على وجهه.

شحب وجهها من شدة الخجل، وتوجهت "إيزابيلا" إلى الباب الأمامي.

لاحظ "فينسينزيو" حركتها وأخذ خطوة للأمام متجاهلاً البارونة، متناسياً خدوده الملتهبة من هول الصفعة ونادى:

- "إيزابيلا"!

في البداية هزت الفتاة رأسها، ثم دوى رجع صوتها عاليًا عدة مرات قبل أن تختفي في ظلام الساحة.

- لا.

اقتربت البارونة من "فينسينزيو" ووقفت على أطراف أصابعها، وقربت شفيتها من أذنه، خرجت الكلمات من فمها حادة كالشفرات. تحركت البارونة من مكانها وسارت ثم بدأت تتكلم بحيث يتمكن الكل من سماعها.

- إن موت ابنتي أو تلوث شرفها أو حتى أن تعمل كعاهرة في أحد بيوت الدعارة أفضل عندي من أن يلمسها شخص حقير مثلك. حتى وإن امتلكت كل الأموال الموجودة في العالم، ستظل رائحتها غارقة في رائحة عفك النتنة، ولن ينظر الناس إليك مهما فعلت سوى باعتبارك عاملاً حقيراً؛ إن المسألة ليست مسألة مال، فالأمر كله يتعلق بالدم ونبيل النسب والأصالة.

جمدت كلمات البارونة "فينسينزيو" في مكانه بمنتصف الشارع، وشعر كأن "باليرمو" كلها تدور من حوله. أغلقت النوافذ وضاعت البسمة وسط صوت صرخات العربات. نظر البعض إليه بنوع من الشفقة والعطف والرحمة، والجزء الآخر لم يحاول أن يبذل أي جهد لإخفاء شعورهم بالاحتقار والازدراء له، إن الدم الذي يسري في العروق هو كل ما يهم.

ترك الساحة مرفوع الرأس وعاد مباشرة إلى البيت، لكنه كان يشعر أنه ثقيل كالرصاص، تحطم كل شيء بداخله؛ كل المشاعر الجميلة والأحلام والأمانى المدهشة، بقي شيء واحد فقط في مخيلته؛ ألا وهو الإهانة التي تلقاها من البارونة التي تركته ككيان واحد، قال لنفسه: "لقد انتهى الأمر عند هذا الحد، ولن يتكرر مرة أخرى".

- أخبرني، كيف وجدت مدينة "يوركشاير"؟
 جلس "إنجهام" في المقعد المقابل له في العربة، وتحدث بالإنجليزية معه، دس "فينسينزيو" أنفه في نافذة العربة الزجاجية حتى يتمكن من تفحص كل جزء من أجزاء المدينة.

أجاب أخيراً:

- جيدة، لكن كل شيء في إنجلترا مختلف تمامًا عن الصورة التي رسمتها لها في مخيلتي.
 نظر لـ "إنجهام" وقال:

- كنت أظن أن إنجلترا تكتظ بالمدن والبيوت. لم أرَ في حياتي هذا الكم الكبير من الأمطار، خاصة في شهر أغسطس.

أوضح "إنجهام":

- إن هذه الكمية الغزيرة من الأمطار أنت بها رياح المحيط. فليس لدينا هنا في إنجلترا جبال كي تعيق السحب مثل صقلية.

نظر "إنجهام" إلى بدلة "فينسينزيو" وهز رأسه مسرورًا:

- لقد قام الترتزي الخاص بي بعمل رائع، لأن ما أحضرته من ملابس معك من "باليرمو" لا يتناسب مع طبيعة الجو هنا.

لمس الشاب معطفه فوجده دافئًا وسميغًا، ويمنع الشعور بالرطوبة من المرور من خلاله، ولكن ما أذهله حقًا هو تلك القمصان البيضاء المصنوعة من القطن، وهذه الملابس الداخلية الناعمة المصنوعة من القطن مقارنة بملابسه الداخلية الخشنة؛ هذه الملابس تُصنع بواسطة مغازل خاصة تعتمد على طاقة البخار، هكذا وصفها "إنجهام" بحماس كبير.

ما من شك في أن "فينسينزيو" تعلم في الأسابيع القليلة الماضية أكثر مما تعلمه في سنة كاملة من الدراسة، فكل شيء في هذه الرحلة يعتبر اكتشافًا، بداية من المحيط الذي استثار شعوره بالرهبة من شدة اتساعه، ووصولًا إلى المنحدرات الصخرية المنتشرة على طول الساحل الفرنسي، والشمس ذات الحضور الباهت، والمصانع؛ الكثير من المصانع.

- قبل أن نعود إلى ديارنا في مدينة "ليدز"، سنمر على أحد مصانع الأقمشة التي امتلكها.
 وعده "إنجهام" بذلك عندما وصلوا إلى إنجلترا.

- مصانع الأقمشة تعمل بالمغازل التي تعمل بطاقة البخار؛ إنها رائعة، سترها كلها قريبًا.

إنهم في طريقهم لرؤيتها الآن. بمجرد خروج "فينسينزيو" من العربة، سيطرت عليه الرائحة الحادة للفحم المحترق المختلطة برياح الشمال، وكان العمال يشغلون أنفسهم بالالتفاف حول عربات البضائع والصناديق المغطاة بالقماش المصنوع من الكتان. نظر إلى الجدران المصنوعة من الطوب في الساحات؛ لا جص ولا زينة. يوجد في المركز مبنى ببوابة كبيرة ومدخنة على سطح من الأردواز.

أتى رجل للترحيب بـ "إنجهام"؛ إنه الخوّلي، رجل سمين يرتدي معطفًا على وشك أن ينفجر بسبب ضخامة جسمه، لقد أخبره أن هناك زوجًا من المحركات أصابه العطب وهو يسير معهما، طمأنه "بنيامين" وأكد له أنه سيتابع الأمر بنفسه وأشار لـ "فينسينزيو" أن يتبعه.

دخل الاثنان. كان هناك صوت صفيّر ودوي وصراخ مستمر يبدو أنه قادم من السقف، كان الرنين عاليًا لدرجة تصم الأذن. غاص "فينسينزيو" في الظلام والحرارة، وشعر بوجود حركة أجسام، وبالمقاطع الشعرية المأخوذة من "الجحيم" - "الكوميديا الإلهية" لـ "دانتي أليجيري" - التي تعلمها

على يد معلمه "دون ساليباتيرا"؛ المشهد الذي وجد فيه الشاعر النفوس الكسولة والمتناقلة تجري وتصطدم ببعضها بعضاً، تسعى خلف دوارة الرياح وتتدفع بلا هدف.

وبعد لحظات، لاحظ وجود العديد من الرجال والنساء والأطفال من كل الأعمار يدورون حول الآلات، الكثير منهم يمتلك بشرة تلهث بسبب العرق، ويرتدون مناديل حول العنق.

سحبه "إنجهام" من ذراعه وقال له:

- هناك أكثر من عامل هنا، والعمل يسير وفق تعليمات محددة. هناك، يتم إنتاج اليرقات التي توضع في هذا الجزء من المنشأة.

وأشار إلى جزء من المبنى مضاء بشكل جيد؛ في هذا المكان، رأى "فينسينزيو" مجموعة من الأطفال يجلسون ويحيكون الصوف.

- اعتاد هؤلاء أن يكونوا رعاة أو غزّالين في بيوتهم، والآن أصبح لديهم دخل ثابت ومكان يعيشون فيه بأمان.

سمع صوت صفير على يمينه، انثنى على البكرات الميكانيكية التي تدور بالأعلى وبالأسفل وكأنها تدور مع نفسها، تغزل الأقمشة وتلف. أراد "فينسينزيو" أن يلمس الخيوط، ولكنه توقف عندما رأى أصابع سيدة تدفع بالخيوط على طول النول؛ كان لديها عقلتان مفقودتان.

شعر بالعرق يتجمع بين كتفيه ويتدرج في ظهره، فخلع عنه معطفه.

- أنا غير قادر على التنفس هنا. كيف يمكن للناس أن يعملوا في مثل هذه الظروف الصعبة؟

أشار "إنجهام" بأن يتم فصل عشر أسطوانات من منطقة العمل وأن توضع بجوار الحائط، هذه الأسطوانات هي مصدر الصفير، كلما اقتربوا منها، ارتفعت درجة الحرارة. وجوه العمال تبدو محمومة، البعض منهم يعمل والجزء العلوي من جسده عارٍ من شدة الحرارة. لقد كان العاملون منهمكين في العمل لدرجة أنهم لم يلاحظوا وجود الزائرين، وبالرغم من ذلك، لاحظ "فينسينزيو" وجود مزيج من الاستياء والاستسلام في نظراتهم العابرة.

ها هو قلب المصنع؛ المحرك البخاري الضخم الذي يبدو للوهلة الأولى كوحش ضخم له درع أسود، يلمع من التشحيم، عليه لوحة تخفي صمامات ومكابس يتم تنشيطها بالحرارة. بحذر شديد يصل لحد التبجيل والوقار، وصل لواحدة من الأنابيب، كانت ساخنة، وبدأ يستشعر الحركة التي تهتز تحت كف يده وكأنها تتبض بنوع من الحياة الخاصة بها. كان "إنجهام" واقفاً إلى جواره عندما قال:

- إن شيئاً مثل هذا لا يمكن أن ينجح في صقلية، ففي إنجلترا لا يشتكي العمال أو يرتكبون أخطاء، ولا تقل المياه، ولا رجال العمال والمتعهدين...

- الناس هنا يفكرون بطريقة مختلفة.

شرح له هذا الأمر وهما في المكتب بعد انتهاء الزيارة. قاطعتهم الخادمة التي أتت لتقديم الشاي؛ وهو خليط بنكهة الزهور لم يجربه «فينسينزيو» من قبل. ترك فنجانه محاولاً التكيف مع الإتيكيت الإنجليزي، الذي يختلف بشكل كامل عن الطقوس البسيطة التي تمارسها أسرته.

- إن إنشاء مصنع كهذا في «باليرمو» لا يحتاج الكثير من الأموال فحسب، بل يحتاج إلى أفكار وشجاعة ومهارة كبيرة في الإدارة. دعني أعطيك مثالاً؛ من من بين كل متاجر العطارة والأعشاب في «باليرمو» لديه تجارة واسعة ومزدهرة مثل تجارتكم؟

اعترف «فينسينزيو»:

- في الواقع، القليل؛ واحد أو اثنان فقط، على وجه التحديد «كانزونيري» و«جولي» ربما.

- ولماذا؟ أتق أنك فكرت مراراً في هذا الأمر.

- لأنهم معتادون على هذا النوع من العمل لعقود وأجيال، وبالتالي هم مستمرين فيه، لأن هذا ما تعلموه وهذا ما يجيدون فعله.

الأفكار التي تعثر بها من قبل بدأت تترتب بشكل صحيح ومنظم وبدأت تبدو منطقية.

- أو ربما لأنهم لم يؤمنوا يوماً بأنهم قادرين على عمل أي شيء آخر، بخلاف ما يجيدون عمله بالفعل، وبالتالي...

- لقد توقفوا عند ما هو معروف بالنسبة لهم بالفعل؛ العطارة وتجارة العطارة والتوابل والأعشاب وعمل المتاجر، واكتفوا به.

من الغريب أن تستمع لهذه الكلمات وهي تتطرق بلكنة إنجليزية.

في الوقت الذي كان فيه «إنجهام» يشرب الشاي، نظر «فينسينزيو» في الأرض وبدأ يفكر بعمق، للحظة تلوثت أفكاره بذكرى «إيزابيلا»، لكنه سرعان ما طرد هذه الأفكار البائسة والمؤلمة من رأسه وكل العبارات القاسية التي دارت بينه وبين البارونة، وتحدث بإصرار:

- ماذا لو تم نصب مثل هذه الآلات هناك في صقلية؟ ألن تقلل من التكلفة؟

- نعم ولا في الوقت ذاته.

وضع «إنجهام» فنجاناً بعد أن ارتشف منه رشفة.

- حان الوقت لإكمال رحلتنا.

- لا تظن أنني لم أفكر في هذا الأمر، لكنني وجدت أن عليّ أن أستورد الغزل وقطع الغيار فضلاً عن الآلات نفسها، ناهيك عن أن الفحم موجود هنا بوفرة. المنطقي أن نؤسس مصنعاً لإنتاج هذه الآلات في «باليرمو».

- لكنه لا يوجد في صقلية أي مصنع.

قالها «فينسينزيو» بحزن وبخيبة أمل.

- من هذا المنطلق، لن يحقق العمل أية أرباح.

عندما كانا على وشك التوجه للعربة، شبك «إنجهام» يده في ذراع «فينسينزيو» وقال:

- على كل حال يا صديقي، أصبح يمكننا الآن أن نسقط الحواجز بيننا، وأن نتناديني باسم «بن».

تبدو رياح «الصبا» التي تهب على صقلية في فصل الصيف كبطانية ثقيلة رطبة تغلف المدينة بأسرها. في هذا الوقت من العام، يتوجه الأرستقراطيون لقضاء فصل الصيف، إما في ضاحية «سان لورينزو» أو في «باجيريا» داخل فيلاتهم الرائعة المحاطة بكل تلك الحدايق الغناء، أما الأفضل حظاً منهم، فيقضي أيامه محبوساً داخل المنزل يبذل الستائر حتى تبرد الهواء، أو أن يلجأ للغرف السفلية الموجودة تحت الأرض.

حتى الأطفال بدؤوا يفقدون رغبتهم في الجري واللعب بسبب لهيب الشمس، هم فقط يسبحون ويلعبون في البحر فيما وراء «لاكالا»، ويطاردون بعضهم بعضاً على الصخور.

أما هؤلاء المجبرون على التوجه للعمل، فهم يعبرون الشوارع متوجهين إلى مقار عملهم تحت لهيب الشمس القاسي. يكره «إنجازيو» الصيف وحرارة الجو العالية، فكل شيء في الصيف يحتاج إلى بذل مجهود مضاعف، يتركه غير قادر على التنفس، فيتوجه كل يوم إلى متجر العطارة من الفجر ولا يتركه إلا عندما يحل الظلام على «باليرمو».

فصل الصيف هو الوقت الذي يستعيد فيه أهل "باليرمو" مدينتهم خالصة لهم، تستأنف الحياة في الأزقة الضيقة والحارات ذات الجدران الحجرية، التي تقضي إلى الأبواب الخلفية لقصور أبناء الطبقة الأرستقراطية الفارهة ذات المصاريع المغلقة، لأن ملاكها ينتقلون إلى فيلاتهم المنتشرة على الشواطئ هروباً من جحيم الحرارة. تأتي هبات الرطوبة في الأصل من الميناء، لذا يفضل سكان "باليرمو" أخذ عرباتهم للتمشية على البحر بحثاً عن النسيم، يعج الميناء بالكثير من العربات اللامعة والسيارات المدهونة ذات الفرش المتواضع، المملوءة بالباحثين عن بعض البرودة والنسيم من سكان "باليرمو". بدأ مؤخرًا الاحتفال بعيد القديسة "روزاريا" راعية الكنيسة في "باليرمو"، ما جعل المدينة تبدو مرهقة ومتكاسلة بسبب كثرة الاحتفالات وانتشار حفلات السكر والمجون والألوان. كل المقاعد تم جرها إلى خارج المنازل ليجلس الناس في الشوارع والحارات بحثاً عن الهواء العليل، انتشرت النسوة في المدينة ليثرثرن ويراقبن أبناءهن وهم يلعبون، أما العمال فكانوا غارقين في سبات عميق على المراتب المصنوعة من القش الملقاة في البلكنات. و"جيو سبينا" كانت تجلس بجوار النافذة تنتظر عودته، وإبرة الغزل في يدها، تتاولا طعامهما في صمت وسكينة معتادين.

تنتهي أمسياتها عادة بالجلوس في الشرفات ومراقبة الناس وهي تسير في الشوارع، وفي يدها مروحة مصنوعة من جريد النخل وأمامها كوب من الماء بالينسون، والشيء نفسه بالنسبة لـ«إجنازيو» الذي كان يضع أمامه وعاء من حبوب «السيمنزا».

وفي ليلة من الليالي، تغيرت حالة «جيو سبينا» النفسية وأصبحت أكثر كآبة.

- ما الأمر يا «جيو سبينا»؟

طرح «إجنازيو» عليها السؤال عدة مرات على غير العادة.

- لا شيء.

كرر «إجنازيو» السؤال مرة أخرى:

- ما الأمر؟

هزت «جيو سبينا» كتفيها وقد كسا الحزن ملامحها، وأجابت بلطف:

- هل سبق وورد على خاطر ك صورة بيتنا القديم في «بيتر اليسكيا»؟

وضع «إجنازيو» وعاء الحبوب على الأرض.

- أحياناً، لماذا؟

- أفكر فيه طوال الوقت، وأتمنى أن أعود إليه، حتى لموت هناك.

ألقت بجسدها كله للخلف، وبدأت تنتظر نحو النجوم في السماء لكنها لم تبصر أيًا منها.

- لكم أتمنى أن أعود لموطني الأصلي وجذوري!

عاد «إجنازيو» قليلاً للخلف وقال:

- ما الذي تقولينه؟

كانت «جيو سبينا» بالكاد تسمعه.

- جميعكم استقرت أحوالكم هنا وأصبحت «باليرمو» موطنكم.

كانت تتحدث مع نفسها أكثر مما تتحدث معه.

- بينما لم يكن لديّ أدنى فكرة عن الدور الذي أقوم به هنا، ولا أعرف أحدًا سوى «ماريوشيا» التي

أصبحت عجوزًا الآن، والقليل من المعارف، ليس لديّ أحد. كان يمكنني أن أطلب من «فينسينزيو»

أن يأتي معي ويساعدك في التجارة هناك، ويرتب لك شئونك التجارية.
لم يستطع «إجنازيو» أن يستوعب ما تقترحه «جيو سيبينا» عليه فجأة، وقبض بكل قوته على سور الشرفة، وكان يبحث عبثاً عن الكلمات المناسبة للرد على ما تقوله.

- ما الذي تقولينه؟ وماذا تقصدين من وراء ذلك؟ أصبحنا نرسل سفناً ومراكب إلى «مارسيليا»، وأنت ما زلت تتحدثين عن «كالابريا»! هل تريدين «فينسينزيو» الذي أصبح يتحدث بالإنجليزية والفرنسية الآن أن يعود ليعيش في «بانيارا»؟ إنه ابن المدينة ومولود في «باليرمو»، وأنت تريدين أن يعود معك ليعيش في «بانيارا» ذات الأربعة شوارع؟!
بدا «إجنازيو» عدوانياً ومرتاباً وحنقاً.

- لقد قضيت في «باليرمو» أكثر من 18 عامًا كاملة، حتى زوجك دُفن هنا، وما زلت تفكرين في «بانيارا»؟!!

- كان أخوك رجلاً صالحاً! أخذ مني كل شيء ولم يمنحني في المقابل قدرًا من الحب، سحبني واستولى على مهري ووضعني في مركب وأتى بي إلى هذا المكان الموحش.

- هل ما زلت تفكرين بهذه الطريقة بعد كل تلك السنوات؟ إن مهرِك ملك له، وانظري إلى نفسك الآن والمكان الذي تعيشين فيه، إلى أين تظنين نفسك ذاهبة وحدك؟ ومن سيعتني بي وبابنك؟

تحولت الخطوط الموجودة على وجه «جيو سيبينا» إلى ابتسامة ساخرة، ثم وقفت، وقالت:

- أنت لا تختلف كثيرًا عن باقي عائلتك؛ بل إنك مثلهم بالضبط، أما أنا فعليّ أن أكون خادمتكم للأبد، أليس كذلك؟ كم كنت غبية عندما اعتقدت أنك تختلف عنهم، ولكنكم جميعًا متشابهون، أنايون وسيئون. وما أغضبني أكثر وأكثر وحطم قلبي، هو أن ابني ورث عنكما - أنتما الاثنتين - قسوة القلب.

- ماذا دهك الليلة يا «جيو سيبينا»؟ كيف تقولين هذا عن ابنك الوحيد؟

- لا يهم، إنه مجرد شيء جال بخاطري، ولا طائل من الحديث عنه بعد الآن، لقد نسيت كل شيء، كل ما تهتمان به هو المال والتجارة.

ثم اختفت وراء الستارة، وبقي «إجنازيو» جالسًا كبرميل من البارود على وشك الانفجار داخل الشرفة، ويده قابضة على «الدرابزين».

- إنه نكران للجميل، وهذا ليس خطئي.

أراد «إجنازيو» أن يصرخ كرجل مجنون؛ فاتهمات «جيو سيبينا» له قاسية وظالمة، وهي لا تريد أن تعترف ولو بشيء واحد من الأشياء الكثيرة التي فعلها من أجلها.

بدأ يتساءل إن كان الأمر حقًا يستحق كل هذا العناء الذي بذله من أجلهم، دون الحصول على قدر قليل من العطف والحب في المقابل، هو لا يعني اهتمام «جيو سيبينا» بشئونه واعتنائها به، فإنها لم تقصر يومًا في هذا الشأن، هو يعني شيئًا آخر؛ يعني تلك الرغبة المحمومة التي تجتاح جسده وتتركه لليالٍ طويلة وعديدة مستيقظًا.

- يكفي هذا.

اندفع نحو حجرة زوجة أخيه التي قامت بتغيير ملابسها وارتدت ملابس النوم، كانت تقف أمام المرأة، وقد فكت المشابك التي في شعرها... لم يستطع «إجنازيو» أن يكبح جماح نفسه.

- لماذا؟ ألا تعلمين ما الذي تعنيه بالنسبة لي؟ لماذا تتذكرين الماضي طوال الوقت؟

أنزلت «جيو سيبينا» ذراعيها.

- أخبرتك من البداية أن هذا لم يكن اختياري، ووجودي هنا في هذا المكان الموحش بعيدًا عن جذوري هو عقاب أبدي لي.

- أرجوك لا تتحلمي عليّ، فالناس قد تخطّوا هذا الأمر منذ أمد بعيد، واستقروا وخلقوا حياة جديدة لأنفسهم، والكثير منهم استقر في صقلية، حتى «فيتوريا» وزوجها «بياترو سبوليتي» يعيشان الآن بسلام في «ميسترينا»، ثم ما الذي تعتقد أن أنه قد تبقى من «بانيارا»؟
لم تجبه «جيوسبينا»، فهي تعلم أن «إجنازيو» محق في كل كلمة يقولها، وأنها من تمسك بهذا العناد الذي عذبها طوال تلك السنوات حتى أصبحت غير قادرة أن تحيا بدونه؛ عناد وتصلب في الرأي تمدد حتى أصبح شوكة في ضلوعها ومعدتها. أَلقت «جيوسبينا» المشابك الموجودة في شعرها لتمشطه.
- أرجوك، اذهب الآن يا «إجنازيو».

أَلقت الفرشاة على منضدة الزينة بقوة، ثم صرخت في وجهه بكل قوة:
- ارحل!

سمعت بعدها صوت خطوات أقدام تبتعد، لكن عنادها لم ينقص منه شيء، وعادت تصرخ من جديد:
- إنها حقيقتك، أنت أيضًا أناني ولا تبحث سوى عن مصلحتك وتجاركتك، في البداية كان أخوك والآن أنت؛ أنت من سحبني للقاع وصنعت من ابني هذا الوحش القاسي!
وفجأة سمعت صوت المزيد من الخطوات تقترب من باب حجرتها، وإذ بشخص ما يضمها ضمة قوية انفتح على إثرها رداء نومها، كاشفًا عن صدرها.

ضمها «إجنازيو» لصدرة بكل ما أوتي من قوة وهو يرتعد، نظر الاثنان لبعضهما بعضًا في المرأة؛ بدا «إجنازيو» في المرأة كشخص غريب عنها، تراه كما لو كانت تراه لأول مرة، فشعرت بالخوف، لأن الرجل الذي جرها بهذا الشكل وضمها لصدرة بهذه القوة، ليس هو الشخص نفسه اللطيف الرقيق الحساس الصبور الذي تعرفه، لقد بدا «إجنازيو» كرجل بائس، لن يوقفه أي شيء عن تحقيق ما يريد. همس «إجنازيو» في أذنها، ويداه أكدت على مقصده:

- لو كنت مثل الآخرين كما تدعين، لكنت حصلت على ما أريد منذ وقت طويل.

شعرت «جيوسبينا» بالخوف، فهي لم تره هكذا من قبل وهذه التعبيرات المرتسمة على وجهه جعلتها تشعر بثقل في قدميها، لكن الرغبة التي تسكن بداخلها بدأت تتحرك، جعلتها تشعر بالخجل وتتنفس بصعوبة، لم يستغرقا كثيرًا من الوقت، فكلاهما يعرف ما الذي يعنيه هذا الأمر، هي التي تمادت في غيها ودفعت «إجنازيو» لذلك. لا فائدة من الندم على ما حدث في صبيحة اليوم التالي، لقد ندم كلاهما على ما فعلا، وبقي غير قادرين على النظر لبعضهما بعضًا لبضعة أيام تالية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خزي يبقى للأبد في ذاكرته.

تسعة عشرة عامًا كاملة مرت على مولد «فينسينزيو».

شهد يوم الثالث من أبريل ١٨١٨ مرور تسعة عشر عامًا على ميلاد «فينسينزيو فلوريو»، وعلى أبوة عمه «إجنازيو فلوريو» له بعد وفاة أبيه الغالي «باولو فلوريو». ثمانية عشر عامًا قضاهما «إجنازيو فلوريو» مع «جيوسبينا» أرملة أخيه «باولو»، دون زواج رسمي وكأسرة واحدة في حالة من الغياب والصمت.

واليوم، ابتهاجًا بهذه المناسبة السعيدة، دعا «إجنازيو» العاملين بمتجر العطارة «أروماتوريا» لتناول الشراب. قدم «إجنازيو» الحلوى والبسكويت للعاملين بالمتجر، وبعد تناول الحلوى، توجه الجميع إلى البيت لتناول طعام الغداء الذي أعدته «جيوستينا» لهم احتفاءً بالمناسبة. في العام الماضي، وتحديدًا في الأول من شهر أكتوبر ١٨١٧، وقف كل من «جيوستينا» و«إجنازيو» على رصيف ميناء «باليرمو» في انتظار عودة «فينسينزيو» من أول زيارة له لإنجلترا، بعد خمسة أشهر كاملة قضاها هناك بصحبة التاجر الإنجليزي «بنجامين إنجهام». بمجرد وصول السفينة التي نقل «فينسينزيو» إلى الميناء ونزوله منها، احتضنته «جيوستينا» بحماسة الأم المتملكة، تصلب «فينسينزيو» في مكانه خجلًا، وبدأت عيناه في مسح رصيف الميناء بحثًا عن عمه «إجنازيو» الذي كان يقف بعيدًا بعض الشيء في انتظاره، هز الأخير له رأسه، وعندما اقترب منه سلم عليه فحسب.

اكتشف «إجنازيو» من الوهلة الأولى التي وقعت فيها عيناه على ابن أخيه أن الخمسة أشهر التي قضاها في إنجلترا قد أتت ثمارها؛ لقد عاد الشاب «فينسينزيو» بوجه جديد غير الذي ذهب به، فما عاد ذلك الشاب المجروح قلبه، المطعون في كرامته وكبريائه، كأنه تم استبداله بشخص آخر مختلف ذي أكتاف عريضة وتعبيرات وجه حازمة، ناضج ومملوء بالعزة والفخر والعزم. كل شيء يؤكد أن «فينسينزيو» نضج في تلك الفترة القصيرة التي قضاها في إنجلترا تحت عناية «إنجهام»، وأصبح رجلًا بمعنى الكلمة.

بمجرد وصولهما للبيت، جلس «فينسينزيو» وعمه «إجنازيو» يتحدثان في الصالون. قال «فينسينزيو»:

- ماذا أقول لك يا عمي! لن تصدق مهما أخبرتك بما رأيت في إنجلترا؛ لقد رأيت آلات ضخمة تعمل بقوة البخار تنجز العمل في نصف الوقت المقرر له، ومغازل ضخمة، وقاطرات بخارية ضخمة. أما «جيوستينا»، فقد كانت تخرج من وقت لآخر من المطبخ تدفعها اللهفة لتقف إلى جوار ولدها، وتقبل رأسه وتتصت له وهو يتحدث، بينما تشعر بالعزة والفخر بولدها الذي صار رجلًا. على الجانب الآخر، كان «إجنازيو» مشغولًا بتقحص ملامح وجه ابن أخيه بمنتهى الحرص، ومراقبة كل ما طرأ على شخصيته من تغير. قال «فينسينزيو»:

- لقد فهمت الآن لماذا تستطيع إنجلترا بيع منتجاتها بأسعار تنافسية، بسبب تلك الآلات الضخمة التي تنجز أعمالًا كثيرة في وقت أقل وبمجهود أقل.

- هذا صحيح، فهي تقدم لهم كل ما يحتاجونه.

أخرج «فينسينزيو» ظرفًا من جيبه وسلمه لعمه دون أن ينطق بكلمة. يحوي الظرف أسماء وعناوين المصانع المهمة التي شاهدها «فينسينزيو» هناك، والتي من الممكن أن يقيموا مع ملاكها علاقات تجارية، وكذلك أسماء المحامين التجاريين المهمين بإنجلترا. علق «إجنازيو» أثناء قراءته لمحتويات الخطاب بقوله:

- أنا سعيد جدًا بما وصلت إليه يا «فينسينزيو»، لقد كان «إنجهام» نعم المعلم لك.

شبك «فينسينزيو» يديه ووضعها تحت ذقنه، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة مقتضية.

- لقد آثرت البقاء في الثلث الأخير من الرحلة مع «إنجهام» في لندن، وحضرت الجلسة التي التقى فيها الممثلين التجاريين للشركات والمصانع المهمة في إنجلترا، وبقلة من ملاك المصانع. كان الجميع يتكلم بمنتهى الأريحية مع «إنجهام» أمامي، لأنهم كانوا يعتقدون أنني مجرد صبي صغير لا أفه

شيئاً، لكنني كنت أنصت بحرص شديد لكل كلمة كانوا يقولونها، واكتشفت السبب وراء عدم رغبتهم في الحصول على موردين مختلفين.

عندما سمع "إجنازيو" هذا الكلام من ابن أخيه، شعر أنه يمتلك شعلة الحماس والحيوية نفسها التي كانت تتقد بداخله وهو في مثل عمره.

- حسناً، ثم ماذا؟

- كنت أريد أن أقترح عليك أن نلعب دور الوكيل أو الممثل لهم ولمنتجاتهم هنا في "باليرمو"، فلنأخذ حمض "التانيك" - على سبيل المثال - الذي يستخدمه الدباغون في دباغ وصناعة الجلود وضبط الألوان. نحن هنا في صقلية نمتلك الكثير من السماق، أليس كذلك؟ فلنشتري كميات كبيرة منه ونطحنه ونحوه لحمض "التانيك"، ونرسله لدباغي الجلود هناك مباشرةً.

ألقى "إجنازيو" نظرة على قائمة الأسماء، ثم إلى ابن أخيه؛ لقد كبر فجأة ونبئت له ذقن خفيفة، وهو ما جعله يبدو كشخص ناضج ومتزن، وأصبح له توجه مختلف في الحياة، لقد أصبح جاداً وربما حاداً في بعض الأحيان.

- لكن "إنجهام" يقوم بهذا الأمر بالفعل.

- لكنه في النهاية شخص غريب، إنجليزي الجنسية، أما نحن فصقليون، وبالتالي يمكننا أن نقدم لهم المنتج نفسه بالجودة نفسها وبسعر أقل.

في تلك اللحظة، قاطعتهما "جيوسبينا" ودعتهما لتناول الطعام، أشار لها "فينسينزيو" أن تنتظر قليلاً. سحب "فينسينزيو" إحدى الحقايب وأخرج منها لفاقتين.

- هذه لك يا عمي، وهذه لأمي.

أخذت "جيوسبينا" منه الهدية بفرح شديد أشبه بفرحة طفلة صغيرة بملابس العيد؛ كانت الهدية عبارة عن قطعة راقية من الحرير المزركش ببعض النقوش الشرقية. حملتها "جيوسبينا" بيدها ووضعتها على جسدها وقربتها من وجهها وقالت:

- حرير! إنه حرير، كم دفعت فيها؟

- إنه حرير صيني فاخر، لا شيء أكثر مما يمكنني بالفعل دفعه.

نظر «فينسينزيو» إلى عمه وأشار له بذقنه:

- والآن حان دورك كي تفتح هديتك.

كانت تحتوي الهدية على قطعة من القماش الفاخر داكن اللون، التي تصلح لعمل بذلة رائعة وربطة عنق، أعجب «إجنازيو» بشدة بخامة القماش ونعومته.

- إنه أحد منتجات مصنع «إنجهام»، سوف أخبرك بكل شيء عنه ونحن نتناول الطعام.

وبدأ "فينسينزيو" يتحدث عن كل ما رآه في إنجلترا بإسهاب، وأطلع عمه "إجنازيو" على كافة التفاصيل.

جلس "إجنازيو" على المكتب، بينما شرع ابن أخيه في مراجعة كافة دفاتر الحسابات الخاصة بالسنوات الماضية ومقارنة كميات البضائع والمدخلات والمصروفات، فوجد بعد مراجعة كافة الدفاتر أن لحاء الشجر هو أكثر البضائع التي تم استيرادها من الخارج، نظراً لازدياد الطلب عليه بشدة من قبل أصحاب الصيدليات والعملاء، لكن هناك المزيد.

لاحظ "فينسينزيو" ازدياد مبيعات المتجر من السماق في العام الماضي، فمسح إصبعه وقَلَّب في الكتاب وقال:

- بيعت كلها تقريبًا في الأسواق البريطانية، وهناك أيضًا الشحنات التي وردتنا من الحرير الصيني، لقد اختفت بمجرد تسلمها من مكتب الجمارك.

- لقد كان الفرنسيون جادين إذا. في اليوم التالي، أرسل "جولي" شحنة كبيرة من السماق لـ "مارسيلا".

عض "إجنازيو" على شفثيه من الغيظ وفكر للحظة:

- هل تعرف يا "فينسينزيو" أنني كنت أفكر في توفير الجلود شبه المجهزة وإرسالها إلى إنجلترا فضلًا عن حمض "التتيك"؟ فالبريطانيون يستخدمون جلود الحملان والماعر الصغير في صناعة القفازات، ونحن لانعاني من أي عجز من هذه المنتجات، فماذا ترى؟
هز الشاب الصغير رأسه وقال:

- أعتقد أنه آن الأوان لذلك، لقد سبق وأخبرتني أنك أنت ووالدي بدأتما حياتكما العملية بمتجر صغير كان في الأصل مجرد مخزن، والآن، انظر إلى ما وصلنا إليه، لقد أصبحنا نستقبل شحنات من البضائع المختلفة من نصف دول أوروبا تقريبًا. هل نبدأ في عمل الصياغة الأولية للموضوع؟ لكن يا عمي لقد أخذتنا لموضوع الجلود عندما كنت على وشك أن أتحدث معك بشأن شراء الفرنسيين للكبريت، هل كنت تقرأ أفكارى؟ لماذا لم...؟

أشار عمه بصمت لحافظة أوراق موجودة على المكتب، وأضاف إليها مجموعة قليلة من الملاحظات المقدمة من قبل "موريزيو ريجيو".

- أحمًا فعلت ذلك؟ لقد قمت بمجهود كبير في التقصي عن التجار والمديرين، لجمع أكبر قدر من المعلومات عن ظروف بيع الكبريت، وها أنت قد أعددت كل شيء.

نظر إليه "إجنازيو" بنظرة ساخرة سريعة وقوية وقال:

- أتريد أن تبيع المياه في حارة السقاين؟!!

انفجر ابن أخيه في الضحك، أثلجت ضحكته القوية المرحلة صدر "إجنازيو" وأسعدته وطيبت روحه؛ إن "فينسينزيو" هو مصدر سعادته في الحياة.

حل عام 1820 ببرودته الفارسة، وطلب أن يتم إشعال المدفأة في المكتب خلف المتجر، لأنه بدأ يعاني من آلام الروماتيزم. بدأ "فينسينزيو" يقشر الفاكهة، وألقى قشرة البرتقال في الفحم لتنتشر رائحته العطرية في الهواء.

لقد نما "فينسينزيو" بشكل سريع وملحوظ في الثلاث سنوات الأخيرة الماضية، وليس جسم "فينسينزيو" الوحيد الذي نما وتغير ولكن عقله كذلك نضج وكبر، وأصبح أكثر هدوءًا ورصانة وثباتًا ومنطقية، يحسب لموضع قدمه ألف حساب.

على سبيل المثال، قرر "فينسينزيو" بعد التشاور مع عمه "إجنازيو" أن يستورد بوردرة لحاء الشجر من إنجلترا ويبيعهها في أسواق "باليرمو"، رغم معرفته المسبقة أن هذا الأمر لن يرضي الصيادلة في "باليرمو" ولن يستسيغوا تلك الفكرة الجديدة، وما شجعه على اتخاذ هذه الخطوة هو زيارة الطبيب الرسمي الذي يمثل السلطة الموجودة، والمسؤولة عن بيع الأدوية والعقاقير الجديدة ومنح تصاريح بيع العقاقير في صقلية، والذي منحه التصريح الذي يحميه من شكاوى الصيادلة، ولن يكون هناك عجز في زبائن هذا الصنف من العقاقير، لأنه مسحوق عالي الجودة والنقاء. قال "إجنازيو":

- ما زلت قلقًا يا "فينسينزيو" حتى بعد الحصول على التصريح، وستتطلق العديد من الاعتراضات ضدك عاجلاً أم آجلاً.

وفجأة أثناء حديثهما، طرق أحد الموظفين على باب المكتب كي يستأذن في الدخول؛ كان يريد أن يُعلمَ "إجنازيو" و"فينسينزيو" أن هناك وفدًا من الصيدلة وأصحاب الصيدليات قد وصل، ويرغب في لقائهما للحصول على تفسيرات منطقية ومقنعة بخصوص بيعهما للحاء الشجر. لم يحصل العم وابن أخيه سوى على القليل من الوقت، الذي لم يكفِ سوى لتبادل النظرات سريعًا فيما بينهما قبل دخول وفد الصيدلة، لأن وفد الصيدلة المرتدين للزبي الأسود كان بالفعل يقف على عتبة الباب، وعلى رأسهم "كارميلو ساجوتو" وأخو زوجته "فينزيو كانزونيري".

وقف "إجنازيو" لتحتيتهما، ودعاهم للدخول وجلس خلف مكتبه، بينما بقي "فينسينزيو" واقفًا ينظر إليهم نظرات تهديد ووعيد. بدأ "فينزيو كانزونيري" الهجوم على آل "فلوريو".

- أخبرنا يا "فلوريو".

كان "كانزونيري" يتمتع بصوت أجش معتاد على إعطاء الأوامر وشعر أشعث:

- ما الأمر؟ هل حصلتُم بالفعل على تصريح رسمي ببيع العقاقير والأدوية؟ لقد سمعنا هذا الخبر الذي نجد من الصعب علينا أن نصدق أنه حقيقي، ونحن هنا لننتبين مدى صحته.

أجاب "إجنازيو":

- صباح الخير يا "كانزونيري".

وآدار عينيه في وجوه الواقفين، وأكمل:

- تبدو بصحة جيدة، ويمكنني أن أخبرك بسهولة من الذي بث هذه السموم في أذنك.

دار "فينسينزيو" حول "كانزونيري"، ووقف خلف "ساجوتو" ومال عليه وهمس في أذنه ببعض الكلمات.

- كالعادة أنت أسوأ من الزوجات النّمّامات.

- هل هناك شخص قال شيئًا؟ هل هو هذا الولد؟

دار "ساجوتو" فجأة وحاول أن يمسك "فينسينزيو"، لكن "فينسينزيو" عاد خطوة للخلف وسخر منه، فأشار "إجنازيو" لابن أخيه أن يأتي لينضم إليه خلف المكتب، وما كان من الشاب اليافع إلا أن بلع كبريائه وامتنل لأوامر عمه، فأخر ما يريده "إجنازيو" هو أن يدور شجار بينهم داخل مكتبه، وفي الوقت نفسه لا يرغب في أن يبدو متخاذلًا أو خانعًا أمامهم.

- أعلم من الذي أخبرك بالأمر، لا يحتاج ذلك إلى بذل جهد؛ إنه زوج أختك "ساجوتو". بالمناسبة، ما هي أخبار والدك؟ لقد سمعت بما ألم به من مرض وأنه الآن مريض يصارع الموت منذ عدة أسابيع، إنها إرادة الله أن يبقى على قيد الحياة.

مرر "كانزونيري" يده على معدته. يعلم «إجنازيو» أن آخر ما يود «كانزونيري» الحديث عنه هو مرض والده «كانزونيري الأكبر» الذي أصبح نباتيًا، لأن هذا الأمر يجعله يشعر بالتوتر، بالرغم من أنه أصبح الآن المالك الوحيد للصيدلية.

- دعنا لا نتطرق لأية موضوعات فرعية ولنركز على موضوعنا؛ موضوع التصريح. أنت تعلم القوانين هنا، لا يمكنك أن تبيع العقاقير دون تصريح، وكلنا يعلم أنك لم تدرس علوم الصيدلة ولا ابن أخيك.

- تعلم أننا لا يمكن أن نقوم بعمل شيء مخالف للقانون، لكن الطبيب المسؤول عن منح التصاريح استجاب لطلبنا، ومنحنا تصريحًا موثقًا يُحوّل لنا بموجبه بيع العقاقير، ونحن ممتنون للغاية. والآن، دعني أسألك: ما الذي تفعله هنا في مكتبي؟

تململ «كانزونيري» وشعر بالضجر وهو جالس على الكرسي، وخلفه يقف «بياترو جولي» الصيدلي العتيق، الذي سخر من «إجنازيو» و«باولو» كثيرًا عندما حضرا إلى «باليرمو» من «بانيارا». جفف شفثيه، ثم قال «جولي»:

- نحن هنا يا سنيور «إجنازيو» لنُعَلِّمَكَ - إن لم تكن تعلم - أن هناك كلية يتم فيها تعليم علوم الصيدلة وطب الأعشاب ولها قواعد خاصة، وأنت لست صيدلانيًا ولم تكن يومًا طالبًا بهذه الكلية، والأسوأ أنك تقدمت بطلب الحصول على تصريح دون احترام للقواعد الخاصة بالنقابة ببيع الأعشاب الطبية.

أجاب «فينسينزيو» في التو:

- أتعرف ما هي مشكلتك الحقيقية يا «جولي»؟ أنك تعتقد أن القواعد قد وُضعت لك خصيصًا، وأنت قادر على اعتمادها أو خرقها وقتما تشاء.

أجاب «كانزونيري» برفق كي يكبح ردود «جولي» الغاضبة:

- هذا اللقاء هو لقاء تحذيري يا سنيور «إجنازيو»، و عليك أن تعتبره كذلك.

مال «فينسينزيو» للأمام قليلا، وبدأ يشعر بغضب يفور وينتفض بداخله:

- ماذا تقصد؟

- تقول إنك ما زلت تفكر كالغرباء، رغم أنك أمضيت ما يقرب من العشرين عامًا هنا، أليس كذلك؟ لقد كنت محظوظًا و عملت بجد واجتهاد حقيقي طوال تلك السنوات وأنا أقر لك بهذا، لكنك ما زلت غير قادر على فهم أن هناك بعض الأشياء التي لن تتغير بمجرد رغبة البعض في تغييرها بالحصول على تصريح رسمي، لكنها تتغير عندما تكون الظروف مواتية لذلك.

- والظروف مواتية الآن، لأن أكثر من نصف أطباء الأعشاب في «باليرمو» الآن هم عملاء حصريون لنا.

فتح «ساجوتو» ذراعيه بأداء مسرحي.

- بالطبع، لقد حصلت على كل هذا بسبب تزويركم للأوراق، ولكن ماذا لو نفذ المال؟

- أنا لا يعني ما تقوله يا «ساجوتو»، هناك أوقات...

وضع «إجنازيو» يده على ذراع ابن أخيه:

- لا يا عزيزي «فينسينزيو»؛ ليست هذه هي الطريقة التي يرد بها آل «فلوريو» على اتهاماتهم.

تراجع «فينسينزيو» خطوة للخلف واستمر في التحديق في «ساجوتو»، الذي استمر في السخرية من آل «فلوريو» وهو يشعر بسعادة، فالتفت «إجنازيو» أولاً لـ «جولي»، ثم لرجل آخر كان يقف في الجانب الآخر دون أن ينطق بكلمة حتى الآن، لكن «إجنازيو» يعرفه جيدًا؛ إنه «جاسبر بيتزيمنتي» الذي يعمل صيدليًا بالمحاكم. رجل طاعن في السن، مميز، ذو وجه شاحب، مليء بالحبوب كالأطفال المصابين بالجذري.

- أخبرني يا «جولي»، وأنت يا «بيتزيمنتي»، من أين حصلت على متطلباتك من لحاء الشجر طوال العامين الماضيين؟

تتحنح «بيتزيمنتي» وقال:

- منكم، ولكن...

- لطالما كنت تقول إن منتجاتنا هي أفضل منتجات بالسوق، وأنت قمت بتعبئة لحاء الشجر الإنجليزي الذي قمنا باستيراده دون تنقية، لا تخجل يا رجل من إخبار الجميع بذلك، أعلم أنك لن تتكر أيًا مما قلته. وفي النهاية، نحن جميعًا رجال شرفاء، أليس كذلك؟

ترك "إجنازيو" كلماته تعلو قليلاً في الهواء ليسمعها الجميع.
- هيا، لن يلقي عليك أحد باللائمة؛ لست الوحيد هنا الذي فعل ذلك، ولكن بسبب الضغط الذي يمارسه رفاقك، لم تعد ترغب في العمل معنا، لكنني أؤكد لك، على العكس؛ لن تكون الأمور سهلة ولن تمر بسلام، أنا أقصد بالنسبة لك لو قررت أن تأخذ صف رفاقك...
فهم "فينسينزيو" على الفور ما يشير إليه عمه وماذا يقصد من وراء تلميحاته هذه، وأخرج على الفور من درج المكتب مجموعة أوراق وسلمها لعمه. في لحظة، كان أمام "إجنازيو" كومة من الكمبيالات مستحقة الدفع المرتبة وفقاً للاسم والمبلغ، وجميع أسمائها مدونة فيها.
عقد "إجنازيو" ذراعيه وحملق بها جميعاً بقوة، في محاولة منه أن يفهموا ما يشير إليه وقال:
- حقيقي، هناك قواعد تحكم كل شيء يجب أن تحترم، كما أنه من الشرف أن تسددوا ديونكم، أليس كذلك؟

اخذت البسمة المتكلفة التي كان يرسمها "ساجوتو" على وجهه وحل محلها تكشيرة، وتتحى "بيتزيمنتي" خطوة للوراء واختفى في الظل، ونظر "جولي" لحذائه.
أطلق "فينزيو كانزونيري" تهيدة قوية:
- هذا صحيح.

بعد مرور عدة لحظات، كانوا جميعاً قد خرجوا من المتجر وهم يجرون أذيال الخيبة، لكن "كانزونيري" كان الوحيد الذي سار رافعاً رأسه لأعلى دون أن يتحدث لأحد. التقت "ساجوتو"، ليرى كلاً من "فينسينزيو" و"إجنازيو" وهما واقفان على عتبة باب متجرهما وعض على أنامله من الغيظ، ولم ينس أبداً ما حدث للتو.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



لحاء الشجر

يوليو 1820 - مايو 1828

“إن السنين أكثر الأشياء وطأة وأكثرها ثقل”

- مثل شعبي صقلي

تزايدت وتيرة الغضب الشعبي، وتنامت تجاه حكم أسرة “البوربون” بقيادة الطبقة الأرستقراطية داخل مدينة “باليرمو”، وتطورت عبر شبكة قوية من الجمعيات السرية، فالصقليون مؤمنون أن أسرة “البوربون” تقف وراء إجهاض مشروع حصول الصقليين على استقلالهم بسبب إصرارهم على حكم المملكتين - مملكة نابلس ومملكة صقلية - تحت لواء حكم أسرة “البوربون”، وإلغاء دستور 1812.

في الخامس عشر من شهر يونيو 1820، اندلعت المظاهرات مجددًا في جميع أنحاء مدينة “باليرمو”، وهو ما دفع الأمير “فرانشيسكو” إلى الهروب واللجوء لمملكة نابلس تحت وطأة التظاهرات، والسماح بتكوين البرلمان الصقلي الذي استعاد دستور 1812.

لكن رياح الثورة لم تهدأ، بل قويت حدتها وانتشرت لتطال كافة نواحي الجزيرة. وفي السابع من يوليو من العام نفسه، أجبر التمرد الذي قاده قوات الجنرال “جوجيليمو بيبي” الملك “فرديناند الأول” على قبول الدستور الذي كان قد سبق وأعلنه “فرديناند السابع” في شهر مارس.

إن روح الحكومة الصقلية الساعية لاستقلال مملكة صقلية لم تخمد، بل استمرت في التصادم مع حكام أسرة “البوربون”، الذين استغلوا الخلاف والصراع الأبدي القائم بين المدن الصقلية - وخاصة الخلاف القائم بين مدينة “باليرمو” ومدينة “ماسينا”، ومدينة “كاتانيا” - في إخماد الحراك الشعبي وحركة التمرد والعصيان، عن طريق اللجوء للعنف واستخدام القوة المفرطة وسفك الدماء، ونجحت أسرة “البوربون” بالفعل في استعادة الملكية، وعادت صقلية مرة أخرى تحت حكم الحكومة “النابولية”. وفي شهر مارس 1821، قرر التحالف المقدس المؤلف من بروسيا، وروسيا، والنمسا مساعدة “فرديناند الأول” الذي طلب منه العون لقمع حركة التمرد التي قامت ضد حكمه، وبالفعل استطاع التحالف إلحاق الهزيمة بالتمرديين والقضاء على حركة التمرد. وفي الرابع والعشرين من شهر مارس، تدخل النمساويون وزحفوا بجيوشهم تجاه مملكة نابلس، وأعادوا الملك مرة أخرى للمملكة وأجلسوه على العرش بالقوة، وبقوا هناك حتى عام 1827، حتى تمكن “فرديناند الأول”؛ ملك مملكة الصقليتين، ووريث عرش والده الملك “فرديناند السادس” في عام 1825، من إزاحتهم.

شعار آل “فلوريو” المرسوم على اللافتة المرفوعة فوق متجر العطارة “الأروماتوريا” هو عبارة عن لوحة فنية يظهر فيها صورة أسد جريح، يشرب من نبع ماء تمتد فيه جذور شجرة “الكيناوا” التي تطلق خصائصها الشافية في الماء، ليشرّب منه الأسد الجريح وتشفى جروحه، وصولاً إلى تمثال “بنديتو دي ليزي” المستقر خارج مقبرة الأسرة؛ في مقبرة “سانتا ماريا ديل جيزوا” في العاصمة “باليرمو”.

إن الشجرة التي مدت جذورها في الماء هي شجرة “الكيناوا”، ولحاؤها هو المادة التي تستخدم في شفاء الملايين من البشر، وتتميز هذه الشجرة بقدرات هائلة على الشفاء من الحمى والتي أثبتت فاعليتها، وكان أول من اكتشف قدراتها الكبيرة على الشفاء من الحمى هم قبائل “الأنبيوز” في بيرو

وبوليفيا، ولا ننسى بالطبع دور الطائفة اليسوعية "الجزويت" في نقل لحاء الشجر الشافي في صورته الجافة، وتعبئته في أجولة من تلك البلاد البعيدة، وإرسالها إلى إسبانيا ليباع في أهم موانئ أوروبا.

يطلقون عليها اسم "اللحاء"، لكن عندما أدرك الأوروبيون استخداماته المتعددة في حالته النقية، باعتباره عقارًا ناجحًا في مقاومة أعراض الحمى، قرروا إحضار أكبر قدر منه من بيرو. لكن مشكلة العقار أنه نادر الوجود، لا يمكن الحصول عليه إلا للصفوة بسبب غلو ثمنه، ويعود ارتفاع سعره إلى ندرته، إذ إنه يُنقل من أماكن بعيدة جدًا بكميات محدودة حتى يصل إلى يد العملاء والمستهلكين، ويحتاج للطحن باليد والتنقية، وعلى الرغم من أنه عقار ناجح في القضاء على الحمى، لكن تناول اللحاء على هيئة بودرة يضعف المريض ويسبب له الوهن، وهو الأمر الذي يرى عامة الشعب أنه أسوأ من الإصابة بالحمى نفسها.

لكن الأمور اختلفت في القرن التاسع عشر، وذلك بفضل التطور الكبير في مجال تصنيع الآلات التي من بينها الطاحونة الميكانيكية، والتي سهلت بدرجة كبيرة عملية طحن كميات كبيرة من لحاء الشجر الفاخر في وقت قصير، وهو ما أدى إلى توافره بكثرة وانخفاض سعره.

في عام 1817، نجح كل من العالمين "بيير جوزيف بيليتيه" و"جوزيف بيانيمي كافينتو" في استخراج مادة "الكينين" من اللحاء. في ذلك الوقت، لم يتم التوصل إلى أن هناك علاقة تربط ما بين الإصابة بمرض "الملاريا" والإصابة بالطفيليات، لكن في بداية القرن العشرين، عندما مات أكثر من 15 ألف إنسان في عام واحد بسبب الإصابة بمرض "الملاريا"، اضطرت الحكومة الإيطالية لاستيراد كميات كبيرة من لحاء الشجر، لاستخراج مادة "الكينين" وتوفيرها بكميات كبيرة حتى داخل متاجر بيع الملح والتبغ بالتجزئة، لعلاج المرض وخفض معدلات الوفاة داخل إيطاليا، وبالتالي ازداد الطلب بشكل كبير على لحاء الشجر، من أجل استخلاص مادة "الكينين" اللازمة لعلاج مرض "الملاريا".

- أسرع؛ يقولون إن السفن الإسبانية قد اقتربت من الميناء.
- لا لا، إنها ليست سفناً إسبانية؛ إنها سفن نابولية أحضرت الملك الهارب "فرديناند" من "نابلس"، لأن الأمور خرجت عن نطاق السيطرة هناك، بسبب انتشار حركات التمرد والعصيان والثورة ضد الملك البوربوني.

- إذا حضر الملك إلى هنا، فسنغرقه.
- قبل السماح له باللجوء إلى هنا، طلب الضباط النابوليون بعودة الدستور، واستجاب الملك لطلباتهم في مقابل السماح له باللجوء لصقلية.

- لقد منحهم الدستور ولم يمنحنا نحن، واحد يحكم لصالح البعض وليس الكل!
- لقد اضطر "فرديناند" أن يعيد العمل بالدستور الذي انتزعه منا في عام 1816 الذي سبق وأوقف العمل به، كي يلغي حق مملكة صقلية في الحصول على الاستقلال وضمها إلى مملكة نابلس، وتكوين ما يسمى المملكتين الصقليتين ووضعهما تحت لواء حكمه. فلتحيا مملكة صقلية!
- إنها الثورة! لقد اندلعت الثورة.

الرجال والعربات والأحصنة... اندلعت شرارة التمرد في العاصمة "باليرمو" منذ أمس، تزامناً مع الاحتفالات الخاصة بعيد القديسة "روزاليا"، وصارت شوارع وميادين "باليرمو" تعج بالضجيج، وبالأصوات المطالبة بطرد الملك البوربوني واستقلال صقلية.

التقطت أذن "إجنازيو" بعضًا من الصرخات الصادرة من الجموع الغفيرة، التي وصلت لضاحية "بيانو سان جياكومو".

- انتبه لنفسك!

دفع "إجنازيو" ابن أخيه بعيدًا قبل أن تدهسه إحدى العربات التي كانت تسير بسرعة جنونية. هؤلاء هم من تمكنوا من مغادرة "باليرمو"، وهناك آخرون يبحثون عن فرصة لكي يثبتوا أنفسهم ويشعلوا طاقة الغضب الكامنة في جموع الجماهير الغاضبة، ولا أحد يعلم ما ستؤول الأمور إليه بسبب تزايد وتيرة العصيان والتمرد. أراح "فينسينزيو" خصلة من شعره سقطت على جبهته وقال:

- علينا أن نقوي وندعم أبواب المخازن تحسبًا أن يُقرر البعض اجتياحها.

- إذا أرادوا أن ينهوا البلدة كلها، فلن يردعهم لوحان من الخشب. هيا بنا.

سار "فينسينزيو" و"إجنازيو" تجاه ضاحية "فيا دي ماتيريسي" عكس اتجاه التيار، توجه "إجنازيو" نحو متجر العطارة، كانت كل مصاريع المتجر مغلقة ما عدا باب واحد فقط هو المفتوح، ويقف عليه أحد العمال ليحرسه.

نظر "إجنازيو" حوله، لكن عقله حلق في مكان آخر بعيدًا في المكان والزمان؛ تذكر ما سبق وحدث في "بانيارا"، عندما كان يعيش هناك واندلعت موجة من المظاهرات الغاضبة ضد حكم "البوربون"، ما أدت إلى ميلاد الجمهورية "النابولية"، وانتشر الموت والقتل في كل أنحاء البلاد، ولكن الأهم أن تفجر هذه الفوضى وانتشارها كان هو الوقت المناسب لتسوية كل الخلافات الشخصية والعائلية، في ظل غياب الدولة والقانون وشيوع الفوضى في كل مكان. إن انتشار عمليات السلب والنهب وجرائم القتل ليس له أية علاقة بالدوافع السياسية للتمرد والعصيان، لكن الفوضى تمثل البيئة الخصبة لإجبار عدوك على دفع ثمن عدائه تجاهك، سواء كان هذا العدو قريبًا لك من بعيد أو كان فلاحًا مختلسًا، أو مرابيًّا ماكرًا وخبيثًا، أو قسًّا فرض عليك الكثير من ضرائب العشر في ظل غياب قبضة الدولة وانهيار دولة القانون.

لكن لا، هذه المرة تختلف عن المرة السابقة؛ كان الوضع في نابلس مختلفًا، فبعض من وحدات الجيش تمردت، وقررت الانضمام للمتظاهرين والمتمردين في الشوارع من حركة "كاربوناري" أو حركة "مشعلو الفحم"، وهو ما أوقع الملك "فرديناند" في مأزق كبير، وبدؤوا ياتمرون بأمر قادتها.

قبل اندلاع الثورة بعدة أيام قليلة، تم إجبار الملك "فرديناند" بإصدار ميثاق دستوري يعترف بحقوق الطبقة الأرستقراطية والشعب، وذهب بعيدًا إلى حد الموافقة على ميلاد برلمان جديد.

لم يقف الصقليون مكتوفي الأيدي، بل على العكس، لأن الإهانة التي وجهها الملك للصقليين، عندما قرر في عام 1816 محو اسم مملكة صقلية ووقف العمل بدستور 1812، من المستحيل أن تمحى من ذاكرة الصقليين. ففي الرابع من شهر يوليو 1820، وبينما كانت المدينة تمور بسبب الاحتفال بعيد القديسة "روزاليا"، اندلعت المظاهرات المناهضة لحكم أسرة "البوربون"، لأنه ما من أحد يرغب في العيش كمسجون في بلده، واستغل النبلاء والمفكرون والشعب الأزمة التي حدثت في نابلس ليعلنوا استقلال صقلية.

إن الشرارة الحقيقية التي أشعلت الثورة أتت على يد الأرستقراطيين، ففي عام 1799، تم الترحيب بالبوربوريين الهاربين من نيران الثورة في نابلس وتمت حمايتهم، وكيف كان رد الجميل من جانب "البوربون"؟ ما إن استتب لهم المقام في "باليرمو" إلا وجرّدوا الأرستقراطيين من كل امتيازاتهم،

ومن المكانة التي طالما كانوا يتمتعون بها؛ وهي حكم الصقليين للصقليين وأن يحكم النبلاء المزارعين.

إن صقلية بلد عجيب مملوء بالتناقضات، فلم يكن للملك حاشية أو حلفاء من طبقة النبلاء، على العكس تمامًا، لقد كان الأرستقراطيون يتنافسون مع الملك لأنه كان أجنبيًا فرض نفسه على الديار بسكانها الأصليين، بينما عاشت طبقة النبلاء في صقلية لأجيال عديدة، البعض منهم منذ عهد العرب والنورمانديين. إن النبلاء يرون أنهم هم أصحاب الأرض الأصليين، وهم من أنشؤوا كل الضواحي بقوتهم وشعائهم ودمهم وزيجاتهم التي اختلط فيها الماء بالملح والتراب ومياه البحر، ولهم قدرة رهيبية على السيطرة على الفلاحين البسطاء والفقراء كما يريدون، ولن يقبلوا مطلقًا بعد كل هذه السنوات، وبعد أن أضأوا شعلة النهضة والحدثة بالمكان، أن يتركوا صقلية لقمة سائغة لبعض الغرباء البائسين، كي يستولوا على كل شيء ويقضوا عليها.

قال "إجنازيو" لـ "فينسينزيو" بلهجة صقلية:

- لنرحل.

- أين؟

- إنهم يريدون احتجاز البضائع في مكتب الجمارك، لا أحد يعلم السبب، أشياء غير منطقية على الإطلاق، آنذاك.

- هذا يعني أن الشحنة الخاصة بنا...

- كل شيء متوقف، لقد أوقفوا كل الشحنات التي من المفترض أن تبخر. اللعنة! يقولون إنه تم تشكيل حكومة انتقالية، والجمارك الآن في حالة من الارتباك الشديد، لقد أخبرني "إنجهام" بهذا الأمر لتوه. أسرع؛ إنه بانتظارنا هناك.

سار "إجنازيو" بحزم وقوة بين الجموع الغاضبة التي اجتاحت الحارات، وصولاً للميادين الرئيسية والساحات الكبرى المؤدية لمكتب الجمارك، الذي كان يعج بالتجار والبحارة.

تم احتلال الساحة بعدد من الجنود المدججين بالسلاح لحراسة مكتب الجمارك، كان الجنود يتمنون أن يقفوا في أي مكان آخر بخلاف هذا المكان، كانوا يقومون بإبعاد البشر المتظاهرين أمام مكتب الجمارك بعيدًا عن المكتب، ويلوحون ببنادقهم ويصرخون بأعلى صوتهم أنهم سيطلقون النار على كل من تسول له نفسه الاقتراب من مكتب الجمارك، ولكن يبدو أن الناس لم يصغوا لهم.

- أصر على المرور لأن هذا حقنا!

إنه صوت "بنجامين إنجهام" الذي يستطيع أن يتعرف عليه "فينسينزيو" في أي مكان. انضم له "إجنازيو".

- السيد "إنجهام"، أليس كذلك؟ لديك سفينة على وشك الإبحار، وأوراق وملفات ومستندات الشحنة موجودة بالداخل هناك.

وأشار إلى مبنى أبيض خلف الجنود.

- إن لم تبخر السفينة في الموعد المحدد، فسنكبد خسائر كبيرة جراء ذلك.

أجاب أحد الجنود:

- لا يمكننا أن نسمح لك بالمرور يا سيدي، فمرورك لن يغير من الأمر شيئاً بعد إصدار المنشور العسكري بمنع كافة السفن من التحرك من الميناء.

- من المسؤول هنا؟ نريد أن نتحدث لأحد المسؤولين هنا لأننا نريد أن نطلع على المستندات.

- قرار من هذا؟

تبادل الجنود فيما بينهم نظرات مرعبة عندما حاول بعض الموظفين الهروب من مكتب المحاسبة، وتم استقبالهم من قبل الجموع بالصرخات، وحاول أحدهم أن يلقي الروث عليهم. حاول موظفو مكتب الجمارك الهروب، ولكن كل محاولاتهم باءت بالفشل، فقرروا أن يختبئوا في الروافع المرصوفة على طول الجدران التي يعود بناؤها للقرن الـ17، بينما تعالت صيحات الجموع بحثاً عن إجابات. في النهاية، تقدم أحد الموظفين الذي تتبعته رائحة العرق والخوف.

- ما من فائدة من وراء تجمهركم هكذا هنا؛ كل شيء تم إغلاقه، وإن لم ترحلوا فسيتم إغراق سفنكم بقذائف المدافع.

- ولكن لماذا؟

نظر "فينسينزيو" لـ "إنجهام" بدهشة كبيرة؛ كيف استطاع أن يسمع الآخرين صوته في وسط هذه الجلبة والابتزاز دون أن يرفع صوته؟ صرخ أحد الموظفين بصوت عالٍ، وقال:

- هذا ما أخبروه بنا! عودوا لبيوتكم، جميعكم.

- هل سمعتم هذا؟

أكد أحد الجنود على كلام الموظف ورفع بندقيته عاليًا في وجوه التجار، فتراجع بعض التجار بالفعل خطوة للخلف وآثروا السلامة، لكن "فينسينزيو" لم ييأس وتبع الموظف وأمسك بذراعه.

- لن أَرْضَى بهذا الهراء الذي تقوله؛ لم يكن هناك إفادة من أحد. وجذبه ناحيته، فلم يعد يفصل بينهما سوى بوصات قليلة، لدرجة أن كلاً منهما تمكن من شم رائحة عرق الآخر الناتجة عن التعب والإرهاق والغضب.

- ربما تستطيع خداع الآخرين، ولكن لا تستطيع فعل ذلك معي، لا يمكن لأحد أن يقرر أي شيء أيًا من كان.

حاول موظفو مكتب الجمارك التملص منهم.

- اتركني وإلا سوف أنادي الحرس.

- مقابل كم من المال؟

- ماذا؟ ما الذي تعنيه؟

أمسك "فينسينزيو" بعنقه باليد الثانية بقوة.

- كم تريد لتسمح للسفينة بالإبحار؟

تبعه "إنجهام" مع "إجنازيو"، ووقف إلى جوار الشاب الصغير وعيونهم مثبتة على الأرض.

- وأنا متضامن مع "فلوريو الأصغر".

وهمهم:

- كم تريد؟

تردد الرجل وقال:

- أنا...

- بحق السماء، أسرع!

هتف "إجنازيو" في نفس واحد أثناء اقتراب قبطان السفن.

رفع موظف الجمارك ذقنه وأشار للمخازن. كان هناك خوف وطمع في عينيه.

- اتبعني بعد قليل، عند الباب الخفي.
نظر إلى "فينسينزيو" ثم إلى "إنجهام":
- ثلاثتكم فقط.

في الحارة الموجودة خلف مكتب الجمارك، غابت الشمس، ومرت دقائق الانتظار كساعات، وباب "دوجانيلا" مغلق يحرسه مجموعة من الجنود.
شمس يوليو شديدة الحرارة تنهش الوجوه كوحش مفترس، ووجه "إنجهام" شديد الحمرة أصبح مغطى بالنمش، و"إجنازيو" يجفف عرقه بمنديل من شدة الحرارة والرطوبة.
فتح أحد الأبواب فجأة، وكان وجه موظف المكتب يبدو كنقطة بيضاء في عتمة الليل.
- تفضلوا.

تبادل الرجال الثلاثة النظرات، وتسللوا للداخل، وتحركوا خطوتين للأمام. رحمهم الظل الموجود بالداخل من الحرارة الشديدة بالخارج، ورائحة الرطوبة بدأت تطوقهم، فسأل موظف الجمارك:
- كم؟

شعر "فينسينزيو" بالشفقة تجاه الرجل، فالرجل ليس أكثر من إنسان مرتعد.
- لدي ثلاثة أبناء صغار أطعمهم، وأنا أضع نفسي وأضعهم على المحك من أجلكم.
ذهب "فينسينزيو" نحو الباب ليتأكد بنفسه أنه ما من أحد هناك. قدم "إنجهام" المبلغ وبقي الرجل يساوم، ولكنه قبل بما أعطاه إياه "إنجهام" في النهاية. سلم "إنجهام" كيساً من النقود للرجل الذي بدوره قام بتفحص النقود.

بعدها بلحظات أتى الموظف بالتصريح.

- صدر التصريح بتاريخ قديم، لذا ما من مشكلة. يجب أن تبحر السفينة الليلية بمجرد حلول المد مُطفاةً الأنوار وأشرعتها منخفضة. سيظل الميناء مغلقاً، وسأتأكد بنفسى أنه ما من جنود متواجدين في هذا الجزء من الميناء حتى لا يتم إفساد كل شيء.

بدت ضحكة "إنجهام" كسكين.

- أنا متأكد أنك ستحرص على إتمام كل شيء كما ينبغي وستهتم بكافة التفاصيل.

نادى "إجنازيو" على "فينسينزيو" وقال:

- لقد حصلنا على تصريح بالإبحار لسفينتنا وسفينة "إنجهام"، أسرع نحو السفينة، وسلمه للقبطان وشرح كل شيء له بالتفصيل، وتأكد أنك تتكلم معه على انفراد.

انسل "فينسينزيو"، وخلفه موظف مكتب الجمارك. سار كل من "إجنازيو" و"إنجهام" عبر الردهات، وصولاً إلى الساحة المهجورة التابعة للمخازن المستأجرة للعامة المغلقة والمحظورة.
كل شيء يبدو آمناً؛ أطلقاً تنهيدة تعبر عن الراحة.

في الخارج، كانت مدينة "باليرمو" تغرق في ثبات عميق؛ تركتها الحرارة الشديدة والحماسة مرهقة وفوضوية، وظلت المدينة نائمة في سلام بلا حراك حتى الظهيرة. سار الرجلان بجوار جدران "بورتا فليس"؛ الباب الوحيد الذي ما زال مشرعاً.

سار "إنجهام" بكسل ويداه في جيبيه.

- لقد تأثرت كثيراً ب"فينسينزيو" اليوم، لقد أبدى حضوراً ملحوظاً للعقل بالنسبة لشخص في مثل عمره؛ كان "براجماتياً" لأبعد الحدود، وحاضر الذهن في ظروف يصعب فيها استدعاء حضور الذهن والذكاء والفتنة.

- هذا صحيح.

شاهد الرجل الإنجليزي "فلوريو" بطرف عينه.

- ألم تكن سعيدًا به؟

- نعم بالطبع، أنا فخور جدًا به، لأنه كان يمتلك من الجرأة والشجاعة ما مكنه من القيام بهذا العمل الرائع.

وفجأة توقف "إجنازيو" لأنه لم يكن يعلم ما الذي يجب عليه أن يقوله؛ إن "فينسينزيو" يتمتع بنوع من الحزم والتحفظ لا يستطيع أن يفهمه بالكامل.

وصل "إجنازيو" و"إنجهام" لضاحية "لاكالا". علا صوت الرياح القادمة من جهة البحر وهي تجلجل بين الأشجار والسفن. ومن مسافة ليست بالبعيدة عن مدخل "الدوجانيللا"، ما زال هناك بقايا وآثار للاشتباكات التي دارت بين المحتجين والقوات النظامية النابولية المسلحة بالأمس، عالقة في الجو وآثارها بادية على الجدران وفي الشوارع. دفع الرجل الإنجليزي إحدى العربات المنقلبة من الطريق.

- لقد أصبح "فينسينزيو" حادًا ومن الصعب التعامل معه، أنت محق؛ لقد أصبح حازمًا بشكل لا يصدق.

رأى "إجنازيو" السفينة التي قاموا باستئجارها. كان ابن أخيه يتحدث مع عدد محدود من البحارة على المرسى.

- هل تعتقد ذلك؟

حلق "إنجهام" في وجه "فينسينزيو" وقال:

- نعم، بالطبع. أتعرف، لدي الكثير من أبناء الإخوة والأخوات هناك في إنجلترا، وهم أقوياء وأشداء وجادون، لكن ما من أحد منهم يمتلك هذه الحدة والغضب اللذين يمتلكهما ابن أخيك، لا تسيء فهمي؛ إنهما حدة وغضب طبيعيين، يذهبان بك بعيدًا.

استشعر "إجنازيو" شعورًا بالإعجاب في صوته، مختلطًا بالقليل من الحسد، ولكن هذه الحدة وهذا الغضب لا يُعجبان "إجنازيو" ولا يجعلانه يشعر بالسعادة.

بعد انتهاء هذه الأزمة واستقرار الأمور بعض الشيء، قرر "فينسينزيو" أن يسافر مرة أخرى إلى إنجلترا، وقد قضى تقريبًا كل الصيف هناك وعاد مؤخرًا، وأحضر معه هذه المرة صندوقًا كبيرًا مصنوعًا من الخشب، وكذلك حدادًا بريطانيًا ما من أحد يستطيع أن يتحدث معه سواه، وأغلق هو والحداد باب أحد المخازن الموجودة في ضاحية "بيانو سان جياكومو" لعدة أيام عليهما. وفي نهاية أحد هذه الأيام، بعد أن أسدل الليل ستاره وأنهى "فينسينزيو" والحداد عملهما، وجد "فينسينزيو" نفسه دون مقاومة منه يسير نحو بيت البارونة "إيزابيلا بيليتيري"، حاول أن يقنع نفسه أن الأمر أتى بمحض الصدفة، لكنه يعلم في قرارة نفسه أن الأمر لم يكن وليد الصدفة.

كان البيت فارغًا ونوافذه مغلقة؛ لقد سمع أن السيدتين اضطرتا إلى مغادرة البيت والخروج من "باليرمو"، لأن قريبيهما الذي كان قد سمح لهما بالبقاء في هذا البيت بدافع الشفقة، أخبرهما أنه لن يسمح لهما بالبقاء في البيت إلى الأبد، وأجبرهما على الرحيل، فما كان منهما إلا أن حزما حقيبتيهما بعد أن وضعا فيها حاجاتهما القليلة وحملها على عربة ورحلتا. أما بالنسبة لشقيقها، فقد أشيع بين الناس أنه سجل اسمه في صفوف الجيش النابولي، كي يحصل على القليل من المال لينفق منه على البيت ويبتعد عن بيوت الدعارة.

تسمرت عينه على الشرفة التي كانت تختبئ "إيزابيلا" خلف ستائرهما وتلوح له بيدها، والتي بدأت تتأثر بفعل الوقت والإهمال. فكر "فينسينزيو" في أن هناك عدالة إلهية تحكم هذا الكون، وأنها بطيئة وملتوية بعض الشيء لكنها في النهاية تتحقق؛ هي أقرب ما يكون بقانون غير مكتوب للقدر يقول: "إنك إن جرحت قلب وكبرياء شخص ما، فعاجلاً أم آجلاً ستشعر بالألم نفسه".

إنه نمط في التفكير يثير في النفس ذكريات مريرة، لكن التجربة المؤلمة التي مر بها "فينسينزيو" وحطمت قلبه البريء خلقت منه إنساناً جديداً مختلفاً تماماً عن الإنسان البسيط الساذج الطفولي، الذي سمح - تحت وطأة مشاعر الحب الجارفة - لامرأة أن تهين كرامته وكبرياءه ومشاعره الصادقة أمام العامة. وعلى الرغم من أنه صار رجلاً الآن، فإنه ما زال يشعر بوخزة الغضب والندم؛ الغضب لأن "إيزابيلا" لم تتصت له وهربت بعيداً لكون الدم أهم منها ومن رغباتها ومشاعرها، والندم لأن الرغبة في تشكيل عائلة معها ماتت واندثرت.

تسير المياه تحت الكوبري... لقد بلغ الخامسة والعشرين من عمره الآن، وعاجلاً أم آجلاً سوف يعثر على فتاة طيبة يتزوج منها ويؤسس أسرة وينجب القليل من الأبناء، ولكن ليس الآن؛ هذا أمر سابق لأوانه، فأخر شيء يرغب فيه الآن هو الانغماس في تعقيدات مع النساء أو الأسرة، لكن ما من شك في أن مستقبله العملي سيكون مزدهراً وسوف يصبح ثرياً؛ نعم، ثرياً بدرجة ستمحو تلك التعبيرات بالقلق من الدم والأصل من على وجوه البشر من أمثال البارونة "بيليتيري"، وتعلي من الاعتزاز بالنفس، سوف يصبح ثرياً لدرجة أنه لن تقابله أية مشكلة مستقبلية إذا ما أراد أن يتزوج من فتاة من أصول نبيلة وأرستقراطية، وعائلتها تتمتع بالعديد من الألقاب النبيلة.

امرأة نبيلة ستتخلى عن تلك الألقاب الشكلية ونمط التفكير الذي عفى عليه الزمن، لترتبط بشخص ينتمي للطبقة البرجوازية مثله.

فالمال لا يكذب، والممتلكات لا تقول شيئاً وتعني شيئاً آخر؛ البشر هم من يرتدون أفعنة، وأكثر شيء يمتعهم في الحياة أكثر من النساء اللاتي اعتاد على الاستمتاع بهن أثناء وجوده في إنجلترا، أو زجاجة نبيذ أو طعام جيد، هو عمله وتجارته ومكاسبه. أما بالنسبة للوضع الاجتماعي فلا يعنيه كم من الوقت عليه أن ينتظر، ففي النهاية سيحصل عليه.

في الليلة التالية، عاد "فينسينزيو" إلى البيت متعرقاً وملطخاً بالزيوت ولكنه كان سعيداً، وطلب من عمه أن يذهب معه في اليوم التالي، وأن يحضر معه "ريجيو" فضلاً عن عامل آخر ومعه جوال من لحاء الشجر، وعندما طلب منه عمه المزيد من التفاصيل، أجاب:

- سترى.

وقف "إجنازيو" وهو لا يكاد يصدق عينيه لما رأى.

إن صندوق الخشب الضخم الذي أحضره "فينسينزيو" معه في رحلته الأخيرة من إنجلترا كان يحتوي على آلة طحن ضخمة تتكون من درع حديدي ضخم يحدث صفيراً، وذراعين حديديين كبيرين يشكلان المطحنة المغلقة بغطاء محكم الغلق.

مد "إجنازيو" يده فوق الغطاء، ثم نظر إلى "فينسينزيو" - الذي كان ينتظر وهو مكتوف اليدين - لكي يراقب رد فعله، وبالقرب منه يقف "موريزيو ريجيو" مندهشاً. أشار "فينسينزيو" للعامل البريطاني بأن يوقف عمل الآلة. اقترب كل من "إجنازيو" و"موريزيو" من الآلة، فتح الغطاء برفق، وفجأة أحيط الاثنان بهذا الخفكان المظلم، وإذ برائحة لحاء الشجر المطحون تنتشر في كل مكان وتملأ

الغرفة؛ طحن لحاء الشجر وحُوّل بواسطة هذه الآلة الضخمة إلى مسحوق أسود في قوام الرماد نفسه، تراكم في الأسفل في الصحن المعدني. همس "إجنازيو" في أذن ابن أخيه وهو مندهش:

- لقد كتبت لي عن هذه الآلة، لكنني لم أتصور أبدًا أنها تعمل بهذه السرعة؛ إنها تطحن في نصف ساعة كميات أكبر بكثير مما يطحنه العاملون في ساعة كاملة.

ثم نظر مرة أخرى لابن أخيه، وسأله:

- هل هكذا يعمل الناس داخل إنجلترا؟

- نعم، فقط بهذه الآلات، ثم يقومون بتعبئتها وتصديرها للمستعمرات. انظر، إن المسحوق المطحون أنقى لأن الرواسب والقشور تتجمع في الأسفل، ولهذا فهي ليست بحاجة لعملية تصفية، وبهذا تكون جاهزة على التعبئة والبيع مباشرة للعملاء. أنت لست بحاجة على الإطلاق لنخلها؛ فقط قم بتعبئتها في عبوات من الزجاج.

غمس "موريزيو" إصبعه في المسحوق وقال:

- إنها ناعمة للغاية؛ هذا غير معقول!

ضحك "فينسينزيو" ضحكة قصيرة، وأغلق الغطاء مرة أخرى حتى لا تنتشر الرائحة في كل مكان، وأخبر العامل القادم من "باليرمو" بأن يحضر الجرار الزجاجية:

- بعد أن تنتهي من ملء الجرار، قم بإغلاق الغطاء بشكل محكم للغاية وضع عليه ختمنا الشمعي.

شكر "فينسينزيو" الحداد البريطاني باللغة الإنجليزية، وقال لعمه:

- سوف أطلب منه أن يقوم بتدريب عمالنا على استخدام هذه الآلة، لكي يتمكن من العودة إلى بلاده على أول سفينة متجهة لإنجلترا.

خرج الثلاثة ليسيروا في الهواء الطلق؛ إنه أحد الأيام التي ما زالت حرارة الشمس فيه ملتهبية بعض الشيء، ولكن ضوء الشمس لم يعد يعمي العيون كما كان منذ عدة أسابيع، وانتشرت في الهواء برودة خفيفة تحمل رائحة البحر.

أمسك "إجنازيو" بذراعي ابن أخيه بفخر واعتزاز؛ لقد صار "فينسينزيو" الصغير رجلاً بمعنى الكلمة، له شعر أبيه "باولو" المدبب وعينا أمه الواسعتان.

- لقد أفادتك زيارتك لإنجلترا كثيرًا، وخالقت منك إنسانًا جديدًا.

"جيوسبينا".

لقد كبرت زوجة أخيه كثيرًا وتقدم بها العمر مثله، لكنها ما زالت تحمل التعبيرات القوية والصلابة نفسها التي لطالما انجذب إليها منذ اللحظة الأولى التي عرفها فيها، لطالما كان إلى جوارها يعتني بها لسنوات طويلة؛ لم يكن أمامه خيار آخر، وما كان يستطيع أن يفعل غير ذلك.

مسح خاتم أمه بإصبعه. مات "باولو" منذ سنوات طويلة، والآن أصبح هو وابن أخيه مسؤولين عن العمل معًا.

كان يمكن أن يبحث عن زوجة له تغمره بالحب والحنان، ليكونا معًا أسرة سعيدة وينجبا الكثير من الأبناء ليعرف طعم السعادة كأبي إنسان عادي، لكنه ظل إلى جوار "جيوسبينا" و"فينسينزيو"؛ إنها حياته التي اختارها لنفسه، ولا يخجل من أن يعترف بهذا الأمر بصفاء وهدوء رجل سوى كل حساباته مع ماضيه.

قد يقول البعض إنه شخص حالم، لكن "إجنازيو" لا يدعي أو يفعل هذا بدافع الواجب، إذ ما يشعر به تجاه "جيوسبينا" ليس مجرد شعور عاطفي جارف، إنه شريط طويل مفعم بالذكريات؛ ذكرياتهما

معًا، والأمسيات الرائعة التي أمضيها معًا، والصيف والنشوة والانطلاق ومشاعر الشباب التي صارت جميعًا وراءهما، يتلوها خريف العمر الذي أصبح على الأبواب. وصلا إلى متجر العطارة مع حلول الظهيرة.

- عندما كتبت لي من لندن وأخبرتني أنك تخطط لشراء هذه الآلة، كنت أشعر بالارتباك، ولكن الآن وبعدهما رأيت بنفسني، زالت كل شكوكي في أنه قرار رائع.

كان "إجنازيو" كمن يفكر بصوت عالٍ.

- لو قمنا ببيع "الكينوا" المطحونة والمعبأة في الزجاجات التي تحمل ختمنا، فلن تقتصر مبيعاتنا من هذا الصنف الهام على "باليرمو"، بل سنتخطاها إلى كل أنحاء صقلية.

- وهذه هي خطتي يا عمي.

تقدم "موريزيو" ببضع خطوات ليفتح باب المتجر، لتنتشر رائحة التوابل المختلطة مع الهواء المعبأ برائحة البحر القادم من "لاكالا".

- لكنني أعتقد أن الوقت المناسب لم يحن بعد يا "فينسينزيو" للقيام بهذه الخطوة الكبيرة لعدة أسباب منطقية. أولها أننا لم نوسع قاعدة الوكلاء والموردين لنا في كل أنحاء صقلية، والسبب الثاني أن أصحاب الصيدليات هنا في "باليرمو" لن يكونوا سعداء بهذا الأمر.

هز "فينسينزيو" كتفيه بنوع من أنواع الاستهانة واللامبالاة بهؤلاء المهرجين.

- سوف يغيرون رأيهم لا محالة؛ إنها مسألة وقت لا أكثر.

تحدث الشاب بنوع من الثقة أثناء فتحه للبوابة التي تفصل ما بين خلفية المتجر وطاولة البيع.

- ولسوف نريهم بأسنا!

حيًا الزبائن، صافحهم "إجنازيو" وتوقف ليتحدث إلى موظفي المبيعات، ولكنه لم يستطع أن يصرف عنه ذكرى زحفت لعقله منذ أربع سنوات؛ عندما استطاع أن يحصل على تصريح من موظف الصحة المسؤول الخاص ببيع العقاقير والأدوية، وكذلك التنازلات وأصحاب الصيدليات الذين هبطوا فجأة على "الأروماتوريا" بلا سابق إنذار، مدفوعين بالغيظ والحقد والغضب ولم يخرسهم سوى الكمبيالات التي لم يسددوها... هل تغيرت الأمور حقًا؟ هل سيخضعون للوضع الجديد؟ بدأ يفكر في كل تلك التساؤلات وهو في طريقه إلى المكتب.

كان "فينسينزيو" مشغولًا بالحسابات والتغيرات في استطلاعات المبيعات:

- نحن بالفعل نمتلك تصريحًا من موظف الصحة المسؤول عن شؤون بيع المساحيق والعقاقير، ولن يستطيع أي من أصحاب متاجر العطارة أو أصحاب الصيدليات الاعتراض، فكل شيء يسير وفقًا للقانون؛ نحن لم نستخدم هذا التصريح حتى الآن، لكن...

مرر "إجنازيو" أطراف أصابعه في شعره الذي بدأ يكتسي باللون الرمادي:

- هل تعلم كمية "الكينوا" التي يشتريها منا أصحاب الصيدليات، وكم يجنون من أرباح ضخمة من وراء بيعها في متاجرهم؟ لك أن تتخيل كيف سيكون رد فعلهم إذا ما قمنا نحن ببيع لحاء الخشب المطحون والمنقى مباشرة، فبذلك سوف نقضي عليهم ونقصم ظهورهم، هل لك أن تتخيل كيف سيكون رد فعلهم؟

رفع ابن أخيه ذراعيه، وأطلق عليهم وابلاً من الشتائم واللعنات.

صمت "إجنازيو" للحظة ثم قال:

- لكن هناك حل قد يجلب لنا بعض الحظ.

بدأ "إجنازيو" يقرع أصابعه على الطاولة.

نادى على "موريزيو":

- علينا أن نقدم طلبًا لنائب الملك.

مرت الأيام... تمت صياغة الطلب بحرص شديد وعناية فائقة، وانتهى بـ "إجنازيو" وابن أخيه الأمر إلى ضرورة التوجه لمقابلة "بياترو أوجو ماركيز ديل فافرا"؛ نائب الملك في صقلية.

جلس "إجنازيو" وابن أخيه على أريكة مصنوعة من الديباج داخل حجرة ذات سقف عالٍ؛ في انتظار مقابلة نائب الملك مثلهم مثل الكثير من المتوسلين. يرمق الموظفون العاملون في القصر المتوسلين بنظرات فضولية مملوءة بالازدراء: ما الذي يريده هؤلاء العمال الذين يرتدون هذه الملابس المخملية؟ لماذا يريدون أن يتحدثوا بشكل شخصي مع نائب الملك؟

"إجنازيو" شخص جامد المشاعر، فهو لم يصبح حتى الآن أحد التجار المعروفين الراضخين، وحظهما الوحيد هو أن يكون لأحدهما أب كان يعمل خادماً في القصر.

لكن "فينسينزيو" على الجانب الآخر ظل يسير جيئةً وذهاباً ويدها على فخذه، وبدأ يشعر بالاستياء عندما رأى أناساً آخرين أو بعضهم وقد سُمح لهم بالدخول قبلهم، وساعت حالته أكثر عندما سُمح لأحد القساوسة بالدخول قبلهم. نظر "إجنازيو" بهدوء:

- اهدأ يا "فينسينزيو".

- لكن يا عمي...

رفع "إجنازيو" يده وقال:

- كفى.

عض "فينسينزيو" بأسنانه على شفثيه من الغيظ وجلس إلى جواره، وبقياً منتظرين بالخارج. بمرور الوقت، بدأ يختفي النهار في "باليرمو".

استقبلهما "بياترو أوجو" بعد الظهر، بعد أن أرشدهما أحد الخدم للطريق ثم عاد مرة أخرى ليمتزج مع بساط الحائط في حجرة الدراسة.

كان ذا شارب كبير وعينين لامعتين تحت جبهة بدت أعرض بسبب الصلح؛ جلس نائب الملك على مكتب مع تمثال سلحفاة وبعض المشغولات الفنية، ونظر لهما من أعلى لأسفل وركز على "إجنازيو"؛ تفحصه لبضع ثوانٍ قبل أن يقرر أن يسمح لهما بالجلوس.

تحدث "إجنازيو" برفق وظهره ممدود وأصابعه تشير لبعض المستندات، وبدأ في وصف الآلة وأوضح أنهم يمتلكون تصريحًا لبيع العقاقير.

- في هذه الحالة، ما الذي تريده إن كنت بالفعل تمتلك مستنداً رسمياً يسمح لك بالإتجار في العقاقير والأدوية؟

كان "بياترو أوجو" ينصت باهتمام لـ "إجنازيو".

- أقصد "الكينوا" تعتبر عقاراً، أليس كذلك؟ أليست مدرجة في سجل العقاقير الرسمية؟ نعم ولا شك حتى الآن! لأن بيع هذه المادة يعتبر حقاً شرعياً لأصحاب الصيدليات.

شبك "إجنازيو" يديه على فخذه.

- إنه أمر معقد بعض الشيء يا سيدي؛ نحن لا ندعي امتلاك مهارات طبية لا نمتلكها بالفعل، لأن استثمارنا وتجارنا اقتصادية بحتة، إن آخر ما نرغب فيه هو أن نجد أنفسنا مع آلة لا يمكننا أن نستخدمها بسبب العوائق البيروقراطية.

- الآن أتفهم الأمر؛ أنت ترغب في الحصول على تصريح ملكي.
وبدأ في دعك ذقنه المغطى بذقن رفيعة وعيناه تركزان على التفكير.

- حسناً، سأخبر سكرتيري بفحص الأمر و...

وضع "فينسينزيو" راحة يده على مكتب "الماركيز"، وتحدث بحماس شديد:

- كل ما نطلبه من سيادتك هو أن تحمي حقوقنا الشرعية في تجارة الأدوية والعقاقير الطبية، وأن نتمكن من أن نتاجر بأمان وبسلام، وهذه الآلة ستسمح لنا بالقيام بهذا بشكل إبداعي واحترافي. نحن لسنا عبيداً لأحد ولا نطلب معروفاً من أحد؛ كل ما نريده هو أن نمارس حقنا في العمل دون مشاكل وأن يتم الاعتراف به.

تراجع "الماركيز" بعض الشيء للخلف، كأنه قد فوجئ بوجود هذا الشاب الآن فقط، وكأنه لم ينتبه لوجوده من قبل:

- ومن تكون أنت؟

- "فينسينزيو فلوريو" يا سيدي.

- إنه ابن أخي.

تحدث آل "فلوريو" أمام "الماركيز" معاً بانسجام؛ أحدهما بحماسة وكبرياء والآخر بحرج وحياء.
كان نائب الملك يراقبهما وهما يتحدثان بشيء من المتعة، ويهمهم:

- الماء والنار.

ثم مال بجسده للخلف في الكرسي وركز نظره على الحافة المزخرفة للمكتب.

- أتعلمان أيها السيدان، لقد مر عليّ اليوم كل أنواع الالتماسات بداية من أناس يطلبون المال، وآخرين يطلبون المساعدة أو الحماية، وحتى أن أحد القساوسة حضر إلى هنا لكي يطالب ببناء أبرشية معينة.

ثم نظر نحو الأعلى وتغيرت نبرة صوته.

- لكنني لم ألتق بأحد من قبل يطلب مني الاعتراف بحقه في العمل، كما فعلتما أنتما الاثنان.

ووقف، وفعل مثله "إجنازيو" و"فينسينزيو"، وفجأة، وعلى خلاف العادة، مد يده ليصافحهما.

عندما رأى آل "فلوريو" أن الرجل لم يكن ينوي أن يقدم لهما يده كي يقبلاها ولكن ليصافحهما، أصيبا بالدهشة وترددا بعض الشيء في مصافحته، وبعدها تقدم الخادم لكي يصطحبهما إلى الخارج، وفي تلك اللحظة أضاف نائب الملك:

- سوف تسمعان أخباراً سارة بهذا الشأن قريباً.

ووصلت الأخبار السارة بالفعل في نهاية عام 1824.

قبل حلول أعياد الميلاد بقليل، وصلت ورقة تحمل الختم الملكي تؤكد على حق آل "فلوريو" في ممارسة تجارة العقاقير، وسُلمت لإدارة الحسابات العامة المسؤولة عن حقوق المبيعات.

انتشرت الأخبار سريعاً في جميع ضواحي "باليرمو"، لدرجة أنها وصلت إلى داخل غرف حفظ الدفاتر ومتاجر البقالة، واستقرت أخيراً في ضاحية "فيا دي ماتيريسي".

احتفل العاملون داخل المكتب بالخبر، لأن آل "فلوريو" سيتمكنون أخيراً من بيع بودرة "الكينوا" المستخرجة من لحاء الشجر، ليس فقط داخل "باليرمو"، ولكن في مقاطعات أخرى مثل "ليكاتا"،

"كانيكاتي"، "مارسالو"، "الكامو"، "جيرجنتي".

دارت كؤوس النبيذ بين العمال في مكتب الحسابات بمتجر آل "فلوريو" احتفالاً بالمناسبة السعيدة، وكان "موريزيو ريجيو" هو من يحمل زجاجة النبيذ ويوزعه على العاملين:

- في صحة آل "فلوريو" وكل العاملين هنا!
ضحك "إجنازيو" وشرب، إنه عام سعيد لأنه بدأ بتلك البشري الجميلة؛ بشرى الحصول على رخصة بيع العقاقير المختومة بالختم الملكي، وسبقها منذ عدة أشهر الحصول على حصة في ملكية أحد المراكب الشراعية "أسونتا".
أعلن "إجنازيو" وهو يحمل كأس النبيذ في يده، ويده الأخرى على خريطة الجزر المفروشة على مكتبه:

- سوف نستخدم المركب الشراعي "أسونتا" في توزيع وتسليم مسحوق "الكينوا" في كل أنحاء صقلية، سوف نوزع "الكينوا" المعبأة داخل عبوات زجاجية مغطاة بالشمع وعليها ختمنا مرة كل شهر.

اقترح "فينسينزيو" تناول نخب آخر بهذه المناسبة السعيدة، إلا إنه فجأة ودون سابق إنذار سُمع صوت تحطم بعد الزجاجات داخل المتجر، تلاها مباشرة سماع صوت صرخات عالية.
اندفع "إجنازيو" نحو "الأروماتوريا" يتبعه كل من "موريزو" وابن أخيه، شاهد "إجنازيو" سيدتين كانتا واقفتين على طاولة البيع وهما يهربان بسرعة، حتى دون أن يأخذا بضاعتها التي قامتا بشرائها من المتجر، وتركاهما على طاولة البيع من شدة الخوف.
- ما الأمر؟

- لصوص! أوغاد! رشوتما من هذه المرة لتحصلا على هذه الرخصة؟
إنه "كاميلو ساجوتو" كان يحطم المتجر، لكن "فرانشيسكو" كبير العاملين في المتجر حاول أن يوقفه ويدفعه بقوة بعيداً عن المتجر.

شعر "إجنازيو" بالزجاج المكسور يتحطم تحت قدميه، وبودرة "الكينوا" الذهبية منثورة على الأرض مختلطة ببقايا الزجاج المهشم، وشظايا إحدى جرار القرفة مبعثرة على الأرض.
صرخ "كاميلو ساجوتو" بأعلى صوته:

- ها أنتما هنا أيها الأوغاد المحتالون! هل أصبحتما فجأة خبراء في الصيدلة؟ أنتما تعلمان أنه يتوجب عليكم دراسة علوم الصيدلة قبل أن تحصلا على رخصة بيع العقاقير، ولكن الكل يعلم أنكما لم تفعلوا. هل تريدان حقاً بيع مسحوق لحاء الشجر؟ أخبراني بالحقيقة، هل اشتريتما تلك الرخصة؟
اقرب "إجنازيو" منه بحرص وتحدث بلطف:

- لقد سبق وحصلنا على الترخيص ببيع المساحيق الطبية منذ أربع سنوات، ألا تتذكر ذلك؟ نحن نمتلك رخصة بالفعل، وماذا في الأمر إذا؟

- "الكينوا" المطحونة! ولماذا إذاً أحضرتما هذه الآلة الملعونة؟ وما هذه الحضارة والإبداع الذي أحضره ابن أخيك نصف الإنجليزي الملعون من إنجلترا؟ لماذا؟
تقدم "فينسينزيو" نحو "ساجوتو"، لكن "إجنازيو" أوقفه.

- آه، ها هو كلب "كانزونيري" الصغير عاد لينبح من جديد.
ضحك "ساجوتو" ومسح بأكمام قميصه اللعاب الذي سال من فمه، ونظر إليهما بخبث وضاوارة بالغة:

- أنا لا أتذكر هذا الأمر، هل ما زلتما تحتفظان بالكمبيالات؟
لم يجبه "إجنازيو"، لكنه بدأ يشعر بابن أخيه "فينسينزيو" يغلي خلفه من شدة الغيظ، فأجابه "إجنازيو" وهو ما زال يحتفظ بهدوئه:

- إنها مجرد آلة طحن لا أكثر ولا أقل يا دون "ساجوتو"، إنها تقوم بما يقوم به العاملون باستخدام الهون، ولكن بشكل أسرع وأفضل.

كل ما كان يرغب فيه "إجنازيو" في هذه اللحظة أن يرحل "ساجوتو" بسلام دون أن تتصاعد الأمور بينه وبين "فينسينزيو" وتخرج عن نطاق السيطرة.

- قل هذا الكلام للبلهاء الذين سيقومون بشراء هذا الشيء منك، فالآلة ليس لها عيون، لذا فهي تطحن كل شيء بالطريقة نفسها. أتعلم شيئاً؟ فلنتعل ذلك، ولتذهب ولتبع هذا المسحوق اللعين، ولسوف يدمرك ويفلسك، لأنه بمجرد أن يلاحظ الجميع أي نوع من اللصوص الأوغاد المخادعين أنتما، لن يشتري أحد منكما هذا الروث فيما بعد.

وبصق في الأرض.

- فلتلتر ما أنتما الاثنان بما تجيدانه بالفعل.

أنزل "إجنازيو" يده التي كان يحجز بها ابن أخيه ويمنعه بها من الشجار مع هذا الكلب، وأجاب "إجنازيو" "ساجوتو" بنبرة حادة حتى يردعه وهو يشير إلى باب المتجر كي يرحل:

- لا يصح أن تقول هذا الكلام، فلتذهب إلى الخارج الآن.

ضحك "ساجوتو" بازدراء واحتقار، فدفعه "فرانشيسكو" إلى الخارج وقال:

- تعال!

لكن "ساجوتو" صرخ وهو يعدل ربطة عنقه التي انفكت، ما أثر على أناقته المفقودة:

- لا تلمسني أيها الكلب الحقير!

ركز "ساجوتو" نظراته الحادة على كل من "إجنازيو" و"فينسينزيو":

- سأرحل، نعم سأرحل، لكنني أريد أن أخبركما بشيء هام قبل أن أرحل، حتى لو امتلكتما كل أموال الأرض، فستظلان كما كنتما، وتصرفاتكما الحقيرة تثبت هذا الأمر.

قال "إجنازيو":

- قلت لك اذهب بعيداً عن هنا.

وقف "فينسينزيو" إلى جانب عمه ويدها على فخذه:

- لا لا، انتظر هنا، وكرر عليّ ما قلته مرة أخرى، ماذا كنا؟

قفز "ساجوتو" كالحشرة:

- لقد ولدتما عاملين وستتظلان وستنتهيان كعاملين، ما من شيء في هذا الكون قد يغير هذه الحقيقة.

ساد الغرفة صمت مطبق يشبه ذلك الصمت الخادع الذي يسبق العاصفة، وفجأة كسر "فينسينزيو" حاجز الصمت وبادر "ساجوتو" بلكمة قوية وسريعة وغير متوقعة، لدرجة أن "ساجوتو" لم يتمكن من أن يتفادها، وأصابته إصابة مباشرة في الأنف تحت العين مباشرة فأسقطته على الأرض، وعلى الفور أمسك به "فينسينزيو" من ياقة القميص وجره إلى خارج المتجر؛ إلى ساحة "فيا دي ماتيريسي" المقابلة للمتجر، وأوسع ضرباً بحرفية عالية وعنف وقوة، وهو مطبق على أسنانه دون ضجيج.

لم يتمكن "إجنازيو" و"فرانشيسكو" و"موريزيو" من الفصل بينهما، وضرب "فينسينزيو" "ساجوتو" مرة أخرى، فرد عليه الأخير بلكمة موجهة في عينيه جعلته يفقد توازنه.

لكن "فينسينزيو" شاب رشيق، نطح "ساجوتو" في معدته فأوقعه على الأرض لتتلطخ كل ملابسه بالطين.

وقف "إجنازيو" بين الاثنين - بينما نجح "فرانشيسكو" و"موريزيو" في سحب "فينسينزيو" بعيداً باتجاه المتجر - وصاح:

- كفى، هذا يكفي!

وأمر ابن أخيه، الذي كان معترضاً وهو يلهث ويرغب بالاستمرار في ضرب هذا الوغد "ساجوتو"، بالبقاء داخل المتجر.

ثم نادى على ذلك الكلب الحقير "ساجوتو"، الذي كان ملقى على الأرض وملابسه ملطخة بالوحل، وقد تمزق معطفه ليكشف عن بطانته الداخلية؛ لقد ضربه "فينسينزيو" ضرباً مبرحاً، وكاد أن يرديه قتيلاً من شدة الغيظ، لولا تدخل "إجنازيو" في الوقت المناسب... وقال:

- أنا لم أكمل ما بدأه ابن أخي؛ لا لشيء سوى أنني إنسان مهذب أحترم نفسي، أما أنت يا "ساجوتو" فالكل يشهد أنك كلب جبان، ما الذي تجنيه من وراء تلك الأفعال الحقيرة التي تقوم بها لصالح آل "كانزونيري"؟ لماذا كل هذا الحقد والكره ضدنا؟ منذ اللحظة الأولى التي وطأت فيها أقدامنا أرض "باليرمو"، وأنت وعائلة "كانزونيري" تبثون سمومكم الحقيرة نحونا وتهينونا وتسخرون منا نحن آل "فلوريو"، وتدبرون المؤامرات ضدنا وتتمنون لنا كل شر، ولكن الآن، وبعد ما حدث، فقد حان الوقت الذي نقول لكم فيه: كفى هراءً وحقداً، هل تسمعي؟ أقول لكم كفى! لقد انتهى هذا العهد الذي كنا نصمت فيه على حقايتكم واستهزائكم بنا وبكرامتنا وعزتنا. إن جرت أقدارنا أن نولد كعمال، فليكن كذلك، وما حيلتنا في ذلك! لكنني أنا وعائلي عملنا بجد واجتهاد وأمانة حتى وصلنا لما وصلنا إليه.

وأشار إلى المتجر.

- ولكن ماذا عنك أنت يا "ساجوتو" بحق الرب؟ ما الذي تغير بشأنك؟ لقد كنت دوماً وستظل كلب عائلة "كانزونيري" الوفي، الذي يقوم بالنيابة عنهم بكل الأعمال القذرة، أنت إنسان تافه وستظل كذلك إلى الأبد، والكل يشهد بذلك، والآن، فلنتذهب بعيداً عن هنا، ولا تعد أبداً إلى هذا المكان إلا إذا أردت أن تعتذر.

عاد "إجنازيو" إلى متجر العطاراة دون أن يبدي أي شكل من أشكال التعاطف مع "ساجوتو"، أو ينظر إلى جموع المتفرجين المتجمعين بنظرة مختلفة. أخذ نفساً عميقاً كي يهدأ لكن قلبه استمر في الخفقان بشدة ويدها ترتعشان.

وفجأة، رفع رأسه لتلتقي عيناه بنظرات الموظفين و"فرانشيسكو" المندهشة، وقال لهم وهو يلهث:

- عودوا جميعاً للعمل.

ثم عاد إلى مكتبه، حيث سمع مجموعة من اللعنات تتبعث من داخل المتجر. قام "موريزيو" بإجلاس "فينسينزيو"، وأمسك بقطعة من القماش المبلل ووضعها على عظمة وجهه المصابة. أوضح "موريزيو" أنه أرسل في طلب بعض الثلج من "فيا ديل أورو"، ثم أزال قطعة القماش واستبدلها بقطعه أخرى أبرد.

- يا له من وغد حقير! كيف سولت له نفسه الحضور إلى هنا والإقدام على إهانة أناس أمناء وشرفاء وكادحين مثلنا؟

ظل "إجنازيو" واقفاً في مكانه يتفحص ملامح وجه ابن أخيه الجالس بجوار المكتب، وقال بلغة امرأة:

- دعني أرى.

وإذا به يرى كدمة بين عين "فينسينزيو" وفكه دون أن يشكو من الألم أو يقول أي شيء، بل ظل يحملق في الفراغ وقد كسا وجهه بعض السواد؛ إنه ليس غيظاً أو غضباً بل هو شيء آخر عصي على الفهم وشديد الغموض.

- عد للمتجر يا "موريزيو"، سأبقى أنا هنا إلى جواره.

بُهِت "موريزيو" من نبرة صوت "إجنازيو" الباردة الحادة، التي لم يسبق له أن سمعه يتحدث بها من قبل، وتركهما معاً.

اقترب "إجنازيو" من "فينسينزيو" وهو يفتح يده ويغلقها، كأنما كان يستعد لكي يلممه على وجهه لظمة لم يلمها له طوال حياته، ولكنه بدلاً من ذلك تحدث إليه بصوت منخفض وغازب.

- لن أسمح لك بأن تفعل ذلك مرة أخرى، أسمعني؟ كان عليك ألا تظهر لهم أبداً أنك سهل الانسياق وراء إهاناتهم بهذه الطريقة الهمجية.

هدأت حدة السواد التي كانت تكسو وجه "فينسينزيو" منذ قليل، كان كبرميل بارود على وشك الانفجار، ثم اختفى شعوره بالغيظ وحل محله الشعور بالمرارة.

- لم أستطع يا عمي أن أتمالك نفسي أمام هذا السيل من الاتهامات الحقيرة التي صبها علينا ذلك الكلب؛ لقد استفزني بشدة وجعلني أشعر بالغيظ الشديد، وبعدها لم أشعر بنفسي إلا وأنا أكيل له اللكمات والركلات.

- هل تعتقد أنني لا أعرف ماذا يقولون علينا من وراء ظهورنا، وأنا مهتما حدث سنظل في عيونهم مجرد عمال؟

هزه "إجنازيو" بيديه وصاح، وهذا ليس من طبيعته، فمن المعروف عن "إجنازيو" أنه لم يفقد قدرته على التحكم بنفسه يوماً، فهو شخص هادئ ومترن، يزن كل شيء بمعايير ومقاييس المنطق.

- لطالما ظلوا يسخرون مني طيلة حياتي من وراء ظهري، وزادوا من صعوبة حياتي على مدار العشرين عاماً الماضية. قل لي على سبيل المثال: ما الذي تعرفه أنت عن البضائع التي يتم استبدالها في اللحظات الأخيرة، وعن الموظفين الذين يبقونك واقفا لساعات في طابور طويل بينما يقومون بتمرير بضائع الآخرين أولاً؟ لقد فعلوا بنا أنا وأبيك كل هذه الأفاعيل الشريرة، لأننا كنا في نظرهم مجرد حثالة وصعاليك ولم نلتفت لهم، ولأننا قررنا فيما بعد أن نتوسع في عملنا ونتاجر مع النبلاء والأمرء، تصوروا أننا قد كبرنا وتوسعنا بالحظ وليس لأن ظهورنا كانت تقسم كل يوم من كثرة العمل، هل تعتقد أنني ساذج لدرجة أنني لا أدري أننا بالنسبة لهم لا نسوي أكثر من حفنة من التراب أو الطين، وأنا مجرد حثالة؟ لكنني ورغم كل ذلك، ما من مرة تصرفت معهم بالأسلوب نفسه، لأنني ببساطة لست قذراً وحقيراً مثلهم، وأبداً لن أكون أنا وأنت في يوم من الأيام. إن الأمر صعب عليهم الآن، لأنهم بدؤوا في نشر شائعاتهم حولنا. أنصت إليّ جيداً يا "فينسينزيو"، كل هذا بسبب الحقد، فهم غاضبون، والحقد علينا والحسد والغيظ منا ومن نجاحاتنا التي نحققها يوماً بعد يوم كل هذا يأكل قلوبهم، لأنهم يخشوننا، لذا يجب علينا أن نركز في أن نسحقهم؛ ليس بالشجار والعراك، ولكن بالعمل وبالنجاح وبتحقيق المزيد من المكاسب، لأنها معيار فشلهم. لا شك أنهم يخططون لنا على المدى الطويل؛ يجب أن نتحدث إنجازاتنا عنا، وهذا أبلغ رد عليهم، تذكر ذلك جيداً.

وقف "فينسينزيو" فجأة، لكنه شعر بالدوار فقرر الجلوس مرة أخرى. لم يسبق لـ "إجنازيو" أن تحدث معه بشأن هذه الأمور من قبل.

- ولكن أنت الآن... أنت...

- اهدأ يا «فينسينزيو» ، لطالما تجاهلت سخافاتهم وسخريتهم لسنوات طويلة، لكنني لم أنسها يوماً .
لمس «إجنازيو» جبهة ابن أخيه.

- لقد دونت في رأسي كل شيء قاموا بفعله ولم أنس أي شيء فعلوه معي، لكن الغضب سيدفعك للقيام بأسوأ الأخطاء، فهؤلاء قوم يفكرون ببطونهم، ولكنك لست مثلهم؛ عليك دوماً أن تربى قروناً أمضى من قرون الثور ولا تلتفت لهم، بل تستمر في طريقك.
نظرا لبعضهما بعضاً.

- هل تفهمني؟ والآن فلنعد للعمل.

عاد «إجنازيو» إلى مكانه متجاهلاً الضغط الذي يشعر به وعدم القدرة على التنفس، التقط قلمًا وورقة ووضعها مرة أخرى، ونظر مرة أخرى لابن أخيه الذي كان يجلس ووجهه بين يديه.
لم يكن «فينسينزيو» ابنه من صلبه، ولكنه بخلاف ذلك كان بمثابة ابنه، والرجل يتمنى لو يستطيع أن يفديه ويتحمل عنه آلامه ومعاناته وخيبات الأمل، حتى وإن كان يعلم أنها ستساعده لكي ينضج وتجعله أقوى وأكثر خبرة، كما يقول المثل الشعبي الصقلي.

كان ينظر إليه ويكاد قلبه أن ينفطر من فرط حزنه عليه، ويتمنى لو يستطيع أن يحمل عنه بعضاً من حزنه وآلمه، ولكن هذا غير ممكن؛ إنه قانون الحياة المماثل لذلك القانون الذي ينظم دورة الأيام والفصول، وكل منهما يحمل علامات المعاناة الخاصة به.

على الجانب الآخر، كان «فينسينزيو» ممدداً على فراشه، ومستيقظاً ينظر للسقف الذي يضيئه نور القمر في الليل، وعظمة الوجنة التي لكمه «ساجوتو» فيها ترتجف وتؤلّمه. كانت الرياح تهب بقوة، لأنه كان يسمع صوت ارتطام أغطية الأسرة المنشورة بالشرفة بالحاجز المعدني. ظل يتقلب في فراشه طوال الليل دون أن يغفو من كثرة التفكير.
عامل؛ هذا ما أطلقه عليه «ساجوتو».

مرت بمخيلته للحظة صورة «إيزابيلا بيليتيري» التي أطلقت أمها اللعينة اللقب نفسه عليه، وها هو «ساجوتو» يأتي بمنتهى الغباء ليذكره بذلك الجرح الدامي.

ولهذا السبب فقد السيطرة على أعصابه أمام «ساجوتو»، يمكنه أن يعترف بذلك لنفسه، ولكنه في الوقت ذاته يشعر بالامتنان الحقيقي لعمه، الذي خلص الرجل من بين يديه قبل أن يفرغ عليه جام غضبه ويقضي عليه.

«إيزابيلا»، ذكرها لم تعد تسبب له ألماً كما كان من قبل، ولكن الشعور بالخزي والعار يأبى أن يغادر عقله وروحه، وكذلك الرغبة في الثأر، ولكن ليس بسببها، فقد أصبحت ذكرى؛ مجرد شبح فقد بين طيات فترة المراهقة التي طواها منذ زمن بعيد، عندما كان مجرد فتى مدلل وليس رجلاً ناضجاً كما هو الآن. منذ فترة، قرأ في إحدى الصحف أن البارونة «إيزابيلا» على وشك الارتباط بـ«ماركيز» الذي يكبرها بـ ٢١ عاماً.

لم يحدث ارتباطه بها، لأنه ببساطة ما كان له أن يحدث، وليس من المفترض أن يحدث.

ظل صوت «إجنازيو» يتردد في أذنه، ارتسمت على وجهه بعض التعبيرات الغريبة، وبدأ ظل الغسيل الذي تحركه الرياح وكأنه يجيب عن أسئلته التي كان يحتفظ بها في صدره لعدة سنوات، والتي ظل يرهاها وينميها كابنه داخل صدره. ساعة من البرق انطلقت قسمت الليل لنصفين، لتتذر أن السماء على وشك الإمطار.

إنه لا يشبه عمه لا من قريب ولا من بعيد في شيء، فعمه صبور، متحكم في انفعالاته وشجاع، أما هو فلا يعتقد أنه شجاع ولا هادئاً ولا متحكماً في انفعالاته. لمس «فينسينزيو» الكدمة الموجودة في وجهه؛ إنه شيء ما زال يعمل عليه.

لقد بلغ الآن الخامسة والعشرين من عمره وصار رجلاً، رغم أنه ما زال ينام في سريره القديم المصنوع من النحاس المدهون باللون الأخضر.

كان يعتقد أنه عندما يتلقى أفضل تعليم ويسافر عدة مرات إلى إنجلترا ويرتدي ملابس أنيقة... هذه الميزات قد تضيء عليه هو وأسرته هالة من الاحترام والتقدير، لكنه اكتشف أن هذا التصور غير صحيح؛ قد يحترمهم البعض ولكن ليس الكل، وليس كما يجب، وهذا بالضبط ما يثير حفيظته؛ أن يكتشف أن كل هذا ليس كافياً لجعل الناس تغير نظرتها إليهم وتراهم في لباسهم الجديد، بعيداً عن الصورة النمطية التقليدية التي كانوا يرسمونها لهم، وأن كل ما فعلوه وكل ما حققوه من نجاحات غير كافٍ ولن يغير من الواقع شيئاً مهما فعلوا، وسيظل يحمل نتائج الخطيئة التي ارتكبها غيره وليس له أي ذنب فيها.

يسكن آل «فلوريو» بضاحية «في دي ماتيراسي» في مقاطعة «كستيل أمار»، وهي ضاحية تضم في العادة أبناء الطبقة الوسطى؛ التجار المعروفين، تجار الجملة لمنتجات المقاطعات، ويشهد الجميع لآل «فلوريو» بأنهم أشخاص محترمون، يمكنك أن تذهب إليهم في أي وقت ليعاونوك ويقدموا لك النصيحة والمشورة المخلصة، بشأن شحنات البضائع المختلفة وخطابات الضمان دون مقابل.

لكن «باليرمو» في الأصل مدينة داخل مدينة، أو مدينة لها ظهران، فـ«باليرمو» الموجودة بجوار البحر تختلف كلياً وجزئياً عن «باليرمو» الأخرى الموجودة خلف خليج «كاسارو»، التي تتميز بطرقها الواسعة الكبيرة الأنيقة، والتي تحتوي على تقاطع «كواترو كانتي» مع «في ميكوادا» الذي أنشأه نواب الملوك الإسبان، والذي يقسم المدينة إلى أربعة مناطق رئيسية: «كالسا القديمة» التي تشتهر بوجود محاكم العدل، «ألبيرجيريا» حيث القصر الملكي، «مونتاديببانتيا» وأسواق «كابو»، وأخيراً «كاستيلا ماري» وضاحية «لوجي» القديمة حيث يعيش عليّة القوم.

خبط بيديه على الفراش، وفي الخارج بدأت الأمطار تهطل بشدة وتبلل النوافذ، وإذا بصراع ينشب داخل نفسه؛ جزء منه يدعو أن يؤثر السلامة ويخفض رأسه ويفتح الطريق أمام المارة، وجزء آخر يدعو ليفتخر بذاته ويرفع رأسه شامخاً لأعلى.

كان في العادة ينظر إلى الجانب المسالم، ولكنه لن يفعل ذلك مرة أخرى؛ سوف يسير ورأسه مرفوعة مثل عمه، الذي تحول لصخرة صلبة وقوية وشامخة تستطيع أن تستغني عن الجميع.

بداية من هذا اليوم، سوف يجعل «فينسينزيو» الجميع؛ سواء العامة من أمثال «ساجوتو»، أو الأرستقراطيين من أمثال البارون «بيليتيري»، يعضون الأنامل من الغيظ ويأكلون كبرياءهم وغطرستهم من الحقد، أقسم «فينسينزيو» على ذلك بينه وبين نفسه وختم على الوعد بغضبه، لكن عليه أن يتحلى بالصبر؛ بالصبر والعزم.

في الغرفة الأخرى، التي توجد على بعد باب واحد منه، وقف «إجنازيو» يشاهد العواصف الرعدية وهطول الأمطار، وسمع صوت طرق على الباب، فالتفت ليجد «جيوسبينا» واقفة على الباب وشعرها منسدل وعيناها منتفتحتان ومتورمتان.

- لولاك لكان «فينسينزيو» قد أوقع نفسه في مشاكل كبيرة لعدة مرات.

كانت تتحدث بصوت خافت بالكاد يُسمع بسبب صوت العاصفة.

- لقد ربيته كأنه ابنك ومن صلبك .
لم تستطع أن تحتفظ بكبريائها، وسالت دموعها غزيرة دون إرادة منها .
- ما كان «باولو» ليعامله بطريقة أفضل منك، وما كان ليغمره بقدر أكبر من العطف والحب الذي
تغمره به .

اندهش «إجنازيو»، وشعر بالذهول يدب داخل صدره الساكن، لم يكن يريد أن يحمل كلامها أكثر مما
يحتمل، فما زال الغضب يحتدم في صدر «جيو سبينا»، رغم مرور عشرات السنين على كل ما فعله
زوجها، والقدر الذي حط عليها، وربما سيظل .
والآن...

- أنا أحب «فينسينزيو» .
وعيناه تخبرها بما هو أكثر من ذلك .
- أنا هنا، وراءك بخطوة .
هزت رأسها . كانت تريد أن تفصح له عن المزيد مما بداخلها بالفعل ولكنها لم تفعل، لأن الامتعاض
والمراة وقفا كحجر، عثرة بين حلقتها وروحها، إنه أمانها، وعذرها لتبرير شعورها بعدم السعادة .

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حل الربيع بهوائه الدافئ حاملاً معه رائحة البحر والدم .
نظر «إجنازيو» إلى أسماك التونة التي تم إخراجها واحدة تلو الأخرى من قارب الصيد، ضحايا
مجزرة «متانزا»، التي تتبع الاحتفالات بالصلب المقدس للسيد المسيح في شهر مايو الجاري 1828،
وعيونها اللامعة تبدو مذهولة ومبهوتة مما وقع لها، وقشورها الفضية مشقوقة وممزقة بسبب
الحراب .

في قاع المركب الأسود، يوجد المزيد من سمك التونة والأسماك الأخرى التي يتم إخراجها، لتنتقل إلى
«التونارا» أو مصنع التونة، حيث سيتم تعليقها من الذيل حتى يتصفي ما فيها من دماء وغيرها من
السوائل، وتُخلى من الأحشاء الداخلية على مدار يومين على الأقل .

التقت كي يبحث عن «إجنازيو ماسينا»، فوجده يتحدث مع رئيس مصنع التونة . «إجنازيو ماسينا» هو
سكرتيره الخاص الذي تم تعيينه بعدما غادر «موريزيو ريجيو» منصبه، بعد أن أقر بنفسه أنه ما عاد
قادرًا صحيًا على متابعة العمل في مؤسسة «فلوريو» التي توسعت بشكل كبير . «إجنازيو» نفسه كان
يعلم أنه أصبح غير قادر على تحمل أعباء العمل، ولكنه ما كان يريد أن يبادر بفصله من العمل بعد
كل هذه السنين من الجهد والعطاء والوفاء والإخلاص، وأتت استقالته من منصبه راحة للجميع ورفعًا
للحرج، لأن حجم العمل في متجر «فلوريو» أصبح بحاجة لأناس يتمتعون بالخبرة والحماسة، وهو
شيء ما عاد «موريزيو» يقوى عليه .

لكن «إجنازيو ماسينا» - على الجانب الآخر - داهية، أعجب به «إجنازيو» من الوهلة الأولى، على
الرغم من أنه كبير في السن، لكنه مملوء بالطاقة، وفوق كل هذا، يمتلك زوجًا من العيون الذي قد
يبدو للوهلة الأولى هادئًا وساكنًا لكنه يخترقك بعمق .

انضم السكرتير إليه وقد بدت عليه السعادة .
- عملية الصيد الثانية سارت بشكل رائع، أخبرت «أليسيو» أن يحضر إلى المكتب غدًا كي يأخذ
نصيبه من المال هو وفريق العمل المعاون له .

همهم "إجنازيو":

- حسناً.

كان "إجنازيو" يحمي عينيه من أشعة الشمس بيده، وصيادو سمك التونة كانوا على وشك أن ينتهوا من إنزال التونة، البعض كان يحمل الطاولات لكي يغسل السمك ويصفيه من الدم، والبعض الآخر يسحب الحبال.

من جانب المركب، يستطيع "إجنازيو" أن يرى كامل الطريق وصولاً إلى جبال "مادونيا"، وفي الأسفل، تقف "لاكالا" و"باليرمو" بقبابهما المبلطة وجدرانهما الحمراء.

تذكر لحظة وصوله إلى "باليرمو"، وإلى أي مدى كان يحدوه الأمل والسعادة عندما وصل المركب لميناء "باليرمو"، وكيف كان يتصور أن المدينة كلها مصطفة في انتظار قدومه إليها لتحقيق له كل أحلامه، لأنها مدينة واعدة تنبئ بمستقبل زاهر لكل المجتهدين.

لقد تغير وجه الحياة، ونما العمل وراجت التجارة وكذلك "فينسينزيو"؛ لقد كانت السنوات كفيلة بتغيير كل شيء، حتى ألم فقد "باولو" ما عاد موجعاً مثلما كان من قبل، ولكنه تحول لشعور حزين كغصة تقف بين الحلق والصدر وتجعل المرء يبتهد.

كان يفنقه في بعض الأحيان؛ هذا حقيقي، ولكن بجانب ذلك، كان يشعر بندم شديد عندما كان يتذكر حاله في الماضي، وعدم قدرته على العودة لما كان عليه. كيف كان قوي البنية مفعماً بالأمال والأحلام، وحتى بمشاعر الحب دون أمل والتي كانت تجعله يشعر أنه ما زال على قيد الحياة. بعد أن تقدم به العمر وتغيرت الأحوال، أصبح يفتقد كل ما كان عليه.

أصبح يفتقد الجلوس على البحر. كان يعرف ذلك ويصاب بغصة ما بين معدته وقفصه الصدري، كان يشعر بالضياح عندما كان يستدعي صورة المركب وهو يدور تحت قدميه، وذلك الشعور بالحرية عندما حضر إلى "باليرمو" أول مرة على متن أحد القوارب الشراعية منذ أكثر من عشرين عاماً. أما الآن، وبعد أن كان شخصاً مخلوقاً من الريح، تم إجباره على النزول للأرض ليصبح من أبناءها، والألم الذي ما كان يعدو كونه امتعاضاً، تحول فجأة لقبضة قوية تطبق على رقبته وتمنعه من التنفس، فتدفق دمه إلى حلقه. أغلق عينيه ومال على ذراع "ماسينا"، إنها ليست المرة الأولى التي تداهمه فيها هذه النوبة.

- سيد "إجنازيو" ما الأمر؟

خفت القبضة بعض الشيء، وبدأ عقله يستعيد تركيزه شيئاً فشيئاً.

- أنا فقط متعب.

قالها بحركة رافضة.

- أنت ترهق نفسك كثيراً في العمل، وتمنح العمل روحك وبدنك دون راحة.

شعر السكرتير بالحزن عليه وبأنه معني بصحته:

- لقد صار ابن أخيك قادراً على التعامل مع الزبائن، وأنت تستطيع...

- هذا شأني.

قاطع "إجنازيو" الرجل بحدة أكثر من اللازم، فالنترم الصمت.

سار الرجلان ببطء حول جدار المنشأة، وقال:

- لطالما أحببت هذا المكان.

تحدث "إجنازيو" برفق وبلطف لتحمل كلماته الخفيفة رياح الربيع.

- لقد عملت على إدارة هذا المكان منذ أن كان لا شيء، ولم يكن هناك الكثير من عمليات الصيد، رحل البريطانيون ولم نكن نمتلك الكثير من المال، وخلال بضع سنوات فقط تغير كل شيء.
نظر السكرتير حوله:

- لم يكن التوقيت صائبًا، لكن البحر كان كريماً.
قرر الدخول إلى داخل المبنى، من المكان الذي يمكنهم فيه سماع الأصوات المختلفة، مثل صوت ارتطام الأسماك وصرير السلاسل.
- يمكننا أن نعالج الأمر ونعدله ونبيعه في الأسواق، هناك خلف الفنار.
- هذا تفكير سليم.

مال "إجنازيو" على الجدار الموجود تحته، حيث المياه السوداء والصخور أمامه وانعكاس الشمس. لطالما كانت حياته تمر بهذا الشكل، مثل البحر على هيئة مد وجزر، بين ما هو (التوقيت الصحيح) وما هو (التوقيت الخاطئ) وهو محصور بينهما يحاول أن يتكيف. ربما لهذا السبب أصبح ناجحًا بهذا الشكل، بالجد والاجتهاد من أجل أن يصبح شيئًا مختلفًا عما كان يريد.
- ابتعد عن الجدار.

- علينا أن نعود إلى "فيا دي ماتيريسي"، فلدي الكثير من الأمور لأنجزها.
- لكن يا سيد "إجنازيو" إنها الظهيرة، عندما نعود للبلدة سيكون قد حان موعد صلاة المساء.
سار "إجنازيو" للأمام، وقال:

- لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد، فضلاً عن أن "فينسينزيو" ينتظرنني كي نقوم بعمل بعض التحويلات.
ركب العربة، وألقى نظرة أخيرة على بحر "أرينيلا" قبل أن يرحل وقلبه مثقل بالرغبة والندم.
في صباح أحد أيام شهر مايو من عام 1828، استيقظ "إجنازيو" وفتح عينيه وأبصر ضوء الشمس وهو يتسلل عبر مصاريع النوافذ المطلة على ضاحية "فيا دي ماتيريسي"؛ ضوء قوي ينبئ بحلول فصل الصيف، كان طائر السنونو يغرد في الأعلى.

كان يشعر بالتعب الشديد والإرهاق لأنه لم يتم بشكل جيد ليلة أمس، ولديه بعض مشكلات في الهضم منذ فترة. كان يعاني من مشكلات الهضم لدرجة أنه قرر أن يعيش على تناول الخبز والفاكهة فقط.
لم يكن لديه رغبة في الاستيقاظ ولكنه مضطر، حاول أن يستند إلى دعائم السرير حتى يتمكن من النهوض، لكنه شعر فجأة بدوار شديد في الرأس أجبره على السقوط مرة أخرى على الوسائد، ثم بدأ يشعر بالألم شديد في ذراعه اليمنى، لكنه كان معتادًا على هذا الشعور لاعتياده النوم على الجانب الأيمن. بدأ يشعر بضيق شديد في التنفس جعله يلتقط أنفاسه بصعوبة وقرر أن ينتظر بعض الشيء.
لم يتمكن من الوقوف، وسقط فجأة مرة أخرى دون أن يلاحظ.

مرت ساعة الآن منذ استيقاظه، نادى على "أوليمبيا" الخادمة، ولكنها لم تهرع إليه بل سارت بخطوات بطيئة متثاقلة.

- ها أنا ذا يا سيدي في خدمتك.
قامت بفتح مصاريع النوافذ، ودفعت بها بعيداً لتسمح للضوء بدخول الغرفة، فتدفق ضوء الشمس إلى الغرفة ليضيء السرير غير المرتب.
- ما الأمر يا سيدي؟ يا إلهي! وجهك شاحب، ولونه مثل لون غطاء السرير.
كتم "إجنازيو" بيده سعاله وحاول أن يقف بصعوبة.

- لا شيء، أنا فقط لم أهضم بشكل جيد ما تناولته من طعام بالأمس. هلا أحضرت لي بعض الماء، وأضفت عليه بعض أوراق الغار وشرائح الليمون؟
وبدأ في تدليك صدره ومعدته تصدر أصواتاً.

التقطت "أوليمبيا" الملابس التي سقطت منه على الأرض بفوضى منذ ليلة أمس، لأنه كان مرهقاً فلم يتمكن من أن يرتبها.

قامت بطي ملابسه وهي تقول:

- ابن أخيك أتى هنا إلى غرفتك في الصباح واطمأن عليك وأنت نائم، لقد كان يشعر بالقلق الشديد عليك، وعندما وجدك نائماً لم يرد أن يوقظك وقرر أن يتركك لتستريح، إنه في المتجر الآن. أعطني دقيقة وسوف أحضر لك الماء المغلي بالغار وشرائح الليمون.
اختفت "أوليمبيا".

حاول أن يستند للطولة المجاورة للسريير، لأنه من الأسهل للتنفس أثناء الوقوف.

شرب الأعشاب المغلية مع الليمون، وذهب للحمام وحلق ذقنه وارتدى ملابسه.

نظر لنفسه في المرآة وقال: "لم أعد شاباً بعد الآن"، جفونه منتفخة وشعره قد اصطبغ بلون الشيب ويدها تهتزان، فالزمن هو أكبر مقرض، لكنه لا يقبل كمبيالات.

سمع صوت "جيوسبينا" قادماً من ناحية المطبخ؛ لا بد أنها قررت أن تذهب للسوق في الصباح الباكر، تقول إنه شيء تستمتع به كثيراً، لكن "إجنازيو" يعرف السبب الحقيقي وراء ذهابها للسوق؛ وهو أنها لا تثق بالخادמות.

كان يحاول بالكاد أن يضبط ربطة عنقه عندما وقفت الخادمة عند باب الغرفة، ووضعت يداً على رجليها والأخرى على المقبض.

- أنت لست بخير يا سيدي، عندما خرجنا أنا و "فينسينزيو" اعتقدنا أنك...
قاطعها "إجنازيو":

- أنا بخير.

ارتدى "إجنازيو" معطفه ولكن الحركة جعلته يئن، والألم الحاد في ذراعه زادت وتيرته، وفجأة بدأ يتقيأ ويترنح.

هرعت إليه "جيوسبينا"، وحاولت أن تسنده قبل أن يسقط منها على الأرض، لأول مرة منذ سنوات يقترب "إجنازيو" و "جيوسبينا" من بعضهما بعضاً، ليتمكن من شم عبيرها حتى ولو لآخر مرة، لقد أدركت إلى أي مدى هو مريض.

خفق قلبه بشدة تحت قفصه الصدري، تفجر الألم فجأة في صدره، انهارت "جيوسبينا" ولم تستطع أن توقفه، فهو ثقيل جداً بالنسبة لها فسقطت معه، وأثناء سقوطها، تحطم وعاء الماء وتناثرت على الأرض الماء وشظايا الوعاء، فصرخت "جيوسبينا":

- "أوليمبيا"، "أوليمبيا"!

هرعت "أوليمبيا" إليها ووضعت يدها على رأسها:

- سيد "إجنازيو"! أيتها العذراء الطاهرة! ما الذي حدث؟

- ساعديني في أن أعيده إلى الفراش.

ولكن "إجنازيو" عملياً فاقد للوعي وضحية للتشنجات.

- فلتحضري "فينسينزيو" على الفور! اذهبي على الفور للمتجر وأخبريه أن يحضر في التو.

صاحت "أوليمبيا":

- يا إلهي! يا لها من مأساة!

صرخاتها العالية تنبئ بالفعل عن وقوع كارثة.

كانت "جيوسبينا" على وشك الانخراط في البكاء وهي ترى وجه "إجنازيو" أبيض شاحبًا كالشمع ويتصبب عرقًا، ضمته لصدرها ومشطت شعره بيديها ورفعته عن وجهه، وفتحت زرّ ياقة القميص وفكت ربطة العنق.

- يا إلهي! ما الذي حدث له بحق السماء؟ أمن الممكن أن يموت؟ لا يمكنه أن يموت، إنه...

صاحت والدموع تملأ صوتها الحزين:

- "إجنازيو"، حبيبي "إجنازيو"!

وبدأت في البكاء والنحيب، فشعرت فجأة بر عشة في يد أخي زوجها.

استعاد "إجنازيو" بعضًا من وعيه المفقود ليفتح عينيه وينظر إليها، والتقت عيونهما للمرة الأخيرة، فتح أصابعه ولمس خدودها، وللحظة رأت "جيوسبينا" في عينيه كل شيء كان يشعر ويفكر فيه، واطلعت على كل ما في قلبه وعقله من أسرار، وأدركت إلى أي مدى ستصبح بائسة منذ هذه اللحظة فصاعدًا، وإلى أي مدى كانت محظوظة عندما كانت تحيا دون معرفة ما اكتشفته في هذه اللحظة الفارقة.

اندفع "فينسينزيو" إلى داخل الغرفة وصاح:

- عمي!

وألقى بنفسه على الأرض إلى جوار "إجنازيو"، وقال:

- ما الأمر يا عمي؟ ماذا حدث لك؟

وضع يده على صدره أثناء ضم أمه له إلى صدرها وهزتها إياه، ثم انفلتت من بين ذراعيها:

- عمي! لا!

ثم صرخ مرة أخرى:

- لا، لا يمكنك أن تموت بهذا الشكل، ليس أنت! كيف يمكنني أن أدير كل هذه الأشياء من دونك؟

بدا "إجنازيو" وكأنه ينظر إلى "فينسينزيو" للحظة، لدرجة أنه ارتسمت على وجهه ابتسامة واهنة، لتتوقف نبضات قلبه بعدها تمامًا.

تولى "إجنازيو ماسينا" إخبار الموظف (المُسجّل) بوفاة السيد "إجنازيو فلوريو"، وطلب من "سيريتا" الموثق أن يحضر إلى ضاحية "فيا دي ماتيريسي" في اليوم التالي للجنائز لكي يقرأ وصية الفقيد "إجنازيو".

ارتدى "فينسينزيو" ربطة العنق المعبرة عن الحداد، وانتظر واقفًا في الصالة الممتلئة عن آخرها بحشود من وفود المعزين القادمين من "بانيارا". وفي أحد الأركان، وقفت "جيوسبينا" هي الأخرى بملابس الحداد، وقد ارتسمت على وجهها فجأة ملامح الشيخوخة، كانت حزينة وبائسة وانطفأ نور عينيها. كانت دومًا امرأة قوية ومقاتلة، لكنها لم تستطع أن تتمالك نفسها، واستمرت في الذهاب لغرفة أخي زوجها على مدار اليومين الماضيين لكي تضع يدها على فراشه، وتتهد وتنتحب بمرارة ثم تخرج، ظلت هكذا طوال الوقت.

عندما حضر «سيريتا» الموثق، جلس الجميع - الموظفون والأقارب - حول المائدة ما عدا «فينسينزيو»، الذي بقي واقفًا ينظر من النافذة ويدها متشابكتان ومسدنتان على صدره. وقد بدت عليه

علامات التبدل والفتور.

انتشر ضوء النهار على جدران المنزل، وعلى نسيج «الفلمنك» الذي تم شراؤه منذ عام من القبطان الذي كان يتاجر مع الشرق. بينما كان «فينسينزيو» جالسًا على الأثاث المصنوع من الأبانوس والجوز، لاحظ لأول مرة أن «إجنازيو» انتقى كل ركن في المنزل، وبفضله، وعلى مدار ثلاثين عامًا من الجد والاجتهاد، استطاع «إجنازيو» أن يغير كل شيء ويحول متجر العطارة الصغير «بوتيا» إلى مشروع كبير ومؤسسة ضخمة، وكل ما وصلوا إليه من مجد وغنى كان في النهاية بفضله.

مجد عائلة «فلوريو» في «باليرمو».

هذا بالإضافة إلى صبره وعطفه وحلمه وحنانه؛ كل هذا جعل من «فينسينزيو» رجلًا حقيقيًا يعتمد عليه.

قرأ الموثق الأرقام كلها، ومشاركة الملكية، والموروثات، ومبلغًا من المال تم التوصية به لأبناء أخيه في «بانيارا»، ومبلغًا آخر من المال خصص لـ «ماتيا» وأبنائها. لم يغضب «فينسينزيو» أو ينطق بكلمة.

- سيد «فينسينزيو»، هل تسمعي؟ هل سمعت ما ذكرته؟

كل العيون مسلطة على سيد «فينسينزيو»، فقد صار الآن كبير العائلة.

تمهل «سيريتا» الموثق بعض الشيء، ثم أجاب «فينسينزيو»:

- نعم.

فإنه يعلم كل ما هو مكتوب في وصية عمه، فلقد قام كل منهما بكتابة وصيته منذ عدة سنوات وكل منهما جعل من الآخر وريثًا، ولكن «إجنازيو» أضاف فقرة أخرى مؤخرًا؛ إشارة أو رسالة قصيرة، عندما قرأ الموثق ملحق الوصية، كاد «فينسينزيو» يشعر بوجود «إجنازيو» الوثائق واللطيف بجواره، وأن العمل لا بد أن يستمر تحت اسم «إجنازيو وفينسينزيو فلوريو».

وقع بالموافقة على مستندات الإرث دون أن ينطق بكلمة واحدة، وصافح الموثق، وقبل رأس أمه الباكية، وذهب لـ «إجنازيو ماسينا» وقال:

- عليك أن تتولى أمر الأوراق وغيرها لحين عودتي، سأراك لاحقًا في المتجر.

سار بعزم ولكن برأس مُنكس كأنما يتهرب من المارة. وصل في النهاية إلى «لاكالا»، وذهب بعيدًا حتى نهاية الرصيف البحري وجلس على الأرض، تمامًا مثلما فعل عندما توفي والده منذ سنوات بعيدة.

تذكر «فينسينزيو» ما سبق وحدث بعد وفاة والده، وأنه بعدما جلس، أخبر عمه «إجنازيو»: «لقد أصبحت وحيدًا الآن».

لتسليل بعدها دمعة واحدة، واحدة فقط، على وجنته.



الكبريت

أبريل 1830- وحتى فبراير 1837

“من المحزن أن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه”.

- مثل شعبي صقلي

شهد عام 1830 جلوس الملك “فرديناند الثاني” على عرش مملكة الصقليتين، لكن الملك الجديد كان مختلفاً عن سابقه، لأنه منذ اللحظة الأولى لجلوسه على العرش وهو يعمل على تحقيق نهضة اقتصادية واجتماعية شاملة، تنقل مملكة صقلية نقلة نوعية وتضعها في صفوف الأمم المتحضرة. ومن هذا المنطلق، قام الملك باتخاذ عدة إجراءات، أهمها إعادة النظر في الأوضاع السياسية القائمة ونظام الضرائب المفروض، والأهم من ذلك كله تعزيز البنية التحتية بشكل كبير في كل أحياء صقلية.

كان توجه حكم “البوربون” بشكل عام يهدف إلى الاعتماد على التكنولوجيا الحديثة والعلوم التطبيقية على نطاق أوسع، فنهض بعلوم الهندسة والعمارة، وأنشأ خطوط السكك الحديدية ومصانع السفن الحربية ذات الهيكل المعدني، ووضع أول نظام للمعاشات في صقلية وأول شبكة إنارة في الشوارع، هذا بالإضافة إلى تحسين ظروف العمل بشكل عام في الحفرة البركانية لجبل “سولفاتارا”، والذي يلقي بالحمم البركانية وينفث الأدخنة الكبريتية، لكن هذا التوجه الحميد للحكم أدى إلى نشوب صراع مفتوح مع البريطانيين والفرنسيين، بسبب رغبتهم في شراء الكبريت الخام المستخرج من جبال صقلية بسعر أقل مما هو عليه في الأسواق.

على الجانب الآخر، شهد عام 1830 و1831 اندلاع بعض الحركات الثورية والمظاهرات الشعبية في كل من فرنسا للمطالبة بقدم “لويس فيليب دو أورليونز” كوريث للعرش، وإعلان الملكية الدستورية. وفي بلجيكا التي حصلت على استقلالها. وفي يوليو عام 1831، بدأت في «مارسي» بإيطاليا حركة «جيوسيب مازيني» - الذي أسس إيطاليا الحديثة - والتي تدعم مبدأ «الاستقلال بعيداً عن الغرباء»، و«الوحدة الوطنية» وتشكل ونمو دستور الجمهورية. لكن الحركات الثورية التي تم تنظيمها بواسطة داعمي «مازيني» عامي 1833 و 1834 انتهت بسفك الدماء.

والآن دعونا نعود إلى الكبريت، والذي يطلق عليه باللهجة الصقلية “سورفارو”، أو “ذهب الشيطان”، أو “الصخور التي تشعل النار”، أو “ثروة التجار البغيضة”.

فجأة ودون مقدمات، اكتشف ملاك الأراضي البور الموجودة حول فوهة بركان “سولفاتور”، أنهم يمتلكون تحت أقدامهم مخزوناً ضخماً من الكبريت الخام، بعد أن كانوا يلغنون هذه الأراضي البور لقرون لوجود الكبريت فيها، فلم تعد صالحة لا للزراعة ولا للرعي بسبب الانبعاثات الحرارية للكبريت...

ولكن الآن، وبعد اكتشاف الكبريت الخام، وبدء استخدامه كمدخل أساسي في العديد من الصناعات الحديثة، أنشأت الدولة العديد من الممرات المتعرجة تحت الأرض، ليصطف فيها العاملون من الرجال والأطفال في طابور طويل كالنمل، لحمل القفف والأجولة المملوءة بتلك الصخور الصفراء والتي تشوه ظهورهم، ليتم وزنها ووضعها داخل أجولة كبيرة وبيعها في صورة مواد خام في جميع موانئ أوروبا.

بمجرد الانتهاء من عملية ملء الأجوالة ووزنها، يسافر الكبريت من موانئ صقلية على متن سفن شحن ضخمة إلى باقي دول أوروبا، وتحظى كل من "فرنسا" وإنجلترا بنصيب الأسد من المنتج، ويتم نقل باقي خام الكبريت إلى بلدان أخرى كإيطاليا.

للاستفادة من الكبريت الأصفر، يتم حرقه داخل غرف كبيرة مصنوعة من الرصاص، وتحت تأثير الحرارة العالية وبخار الماء يتحول الكبريت الخام إلى زيت حامض الكبريتيك الثمين، الذي يُستخدم في تصنيع الصبغات، ولهذا فقد انتشرت مصانع تحويل الكبريت الخام إلى حامض الكبريتيك في جميع أنحاء أوروبا.

يستطيع "ذهب الشيطان" هذا أن يجعل من أي أحد شخصًا ثريًا ينعم بالعيش الرغد، وأن يوفر الآلاف من الوظائف للآلاف من العاملين في جميع أنحاء أوروبا ما عدا صقلية، لكن الصقليين لا يلاحظون هذا الشيء، على الأقل ليس جميعهم!

أشرفت شمس النهار لتوها، لتكسو الكون بضيائها ودفعها المعهود في فصل الربيع؛ نحن الآن في ربيع عام 1830، والأفكار المقترحة من قبل الملك للنهوض بالبنية التحتية للبلاد ما زالت قيد التنفيذ في ضاحية "فيا دي ماتيريسي".

جلست "جيوسبينا" في الصباح تتناول قطعة من كعكة "التريكوتو" المذابة في الحليب، والتي طفا بعض من فتاتها على سطح كوب الحليب الذي تشربه.

- هل ستحضر لتناول الغداء يا ولدي؟

لم يجبها "فينسينزيو"، لأنه كان مستغرقًا في التفكير في أمر هام.

كان "فينسينزيو" يرتدي كنزة غامقة وحذاء ذرقبة طويلة منمقًا، وقد ارتسمت الصرامة على وجهه، واستولى على تفكيره رسالة غامضة أحضرها له المرسال.

- هل سمعت ما قلته لك؟

أشار إليها أن تلتزم الصمت، وفجأة طوى قطعة الورق وألقى بها بعيدًا.

- اللعنة!

اقتربت منه "جيوسبينا" قائلة:

- ما الأمر يا بني؟ وما هذه الورقة؟

- لا شيء يا أمي، لا تعيري الأمر اهتمامًا.

جاءت "أوليمبيا" في هذه اللحظة غير المناسبة إلى حجرة الطعام لأخذ الأكواب، وقالت:

- هل انتهيتما؟ هل يمكنني أخذ الأكواب؟

طرحت السؤال بصوت جميل أقرب إلى الغناء، لكنها فجأة شعرت بالخجل واختفت الابتسامة من على وجهها عندما لاحظت أن سيدها متوتر وسيدتها قلقة، فأخذت الإناء الفخاري واختفت دون أن تتطرق بكلمة واحدة.

أصرت "جيوسبينا" أن يجيبها "فينسينزيو":

- ماذا حدث؟

تبع صوتها القلق "فينسينزيو" وهو يعد نفسه للخروج من المنزل، وثوبها الأسود يصدر صوتًا من خلفها كصوت الرمال على الشاطئ.

- قلت لك لا شيء.

التقط معطفه وقبلها وذهب.

- ولكن...

- لا تقلقي واهتمي بأمورك.

ظلت "جيوسبينا" واقفة لبعض الوقت، وقبضت على صدرها بقوة لشدة خوفها وقلقها عليه، فـ"فينسينزيو" لحمها ودمها، رغم أنها تعلم أنه ما عاد ينتمي إليها، بل أصبح ينتمي الآن إلى ذلك العالم الكبير؛ عالم الثروة والمال، وما من أحد يستطيع أن يفتحم عالمه الخاص هذا المكون من المال والرجال والبضائع. فالشخص الوحيد الذي كان يعتني بها قد مات منذ ما يقارب العامين، وأصبحت "جيوسبينا" من بعده مجرد امرأة عجوز.

وعندما فقدت الأمل في الحصول على إجابة، عادت لتجلس ببطء في مكانها وقلبها مثقل بالحزن والقلق.

فتح "فينسينزيو" المتجر كعادة عمه الفقيد، وبعدها بدقائق قليلة، بدأ العمال في التوافد على المتجر، ووصل "إجنازيو ماسينا" فيما بعد عائداً من "لاكالا" بأخر الأخبار.

كانت تحية "فينسينزيو" للعاملين أشبه ما تكون بالهمهمات، نادى على سكرتيره الخاص الذي حضر على الفور، وما إن نظر إليه للحظة حتى أدرك على الفور أن هناك شيئاً ما ليس على ما يرام. قال "ماسينا":

- ما الأمر يا سيد "فينسينزيو"؟

جلس على الكرسي نفسه الذي كان يجلس عليه عمه الفقيد وبدأ يتحدث:

- لقد استولى القراصنة على السفينة "أنا".

- يا إلهي! ما الذي تعنيه يا سيدي بهذا الكلام؟ ما الذي حدث؟

خبط السكرتير على جبهته من الدهول.

- لقد وصلتني رسالة صباح اليوم، مفادها أن السفينة كانت مراقبة من قبل القراصنة، وما إن غادرت ميناء البرازيل قبل ثلاثة أيام حتى تبعها القراصنة من الشاطئ، وهجموا عليها بمجرد أن سلكت طريقها نحو أوروبا.

- يا إلهي! وبالطبع سوف يطلب هؤلاء الأوغاد فدية كبيرة مقابل الإفراج عنها وما عليها من بضائع.

هل يوجد قتلى أو جرحى على متن السفينة؟

- وفقاً لأخر الأخبار التي وصلتني فإنه لا يوجد، على الأقل حتى الآن.

استرخى "فينسينزيو" على الكرسي وقال:

- أوغاد، هذه حقيقتهم! لأنها سفينة أوروبية وتبحر بلا حراسة، ولم يسبق لها أن أبحرت إلى هذه الموانئ البعيدة من قبل، التقطها هؤلاء الأوغاد على الفور وهاجموها.

- نعم، هذا في الغالب ما حدث. في الحقيقة، إن آخر ما نرغب فيه هو وقوع حادثة الاختطاف هذه، إذ سترتب عليها الكثير من الخسائر، ولكن دعنا ننظر إلى الجانب الإيجابي في الموضوع أو نصف الكوب الممتلئ كما يقولون، لقد أصبنا الاختيار عندما عيننا القبطان "ميلوريو" قائداً عاماً للسفينة، فهو رجل خبير ومتمرس، ويعرف بالضبط ما الذي يجب أن يفعله في مثل هذه المواقف، ويستحق ثقتنا التي أوليناها إياه.

مال "إجنازيو ماسينا" على كوعه المثبت على المكتب:

- والإنجاز الحقيقي الذي يجب ألا يغيب عن أذهاننا هو أن السفينة - تحت قيادة القبطان "ميلوريو" - استطاعت أن تبحر من "باليرمو" إلى البرازيل دون المرور بطرق السفن الشراعية المعتادة، ودون

الاستعانة بالوسيط البريطاني، ولهذا يا سيدي يمكنني أن أقول لك إن ما حدث رغم ما فيه من سوء، إلا أن الجانب الإيجابي فيه أكثر بكثير من الجانب السلبي.

- بالطبع، لا شك أن القبطان "ميلورو" رجل خبير بالملاحة البحرية وبمعرفة الرياح واتجاهاتها المختلفة والجدول والأنهار، وبالإضافة إلى ذلك فإنه دارس لعلوم الملاحة ومتمرس، وليس صبي سفينة مبتدئاً.

نقر بأنامله على الطاولة المفروش عليها خريطة المحيط الأطلسي.

- أنا لست قلقاً بشأن البضائع؛ إنها خسارة كبيرة حقاً، لكن البضاعة بأكملها مؤمن عليها، والأهم هو أننا أصبحنا الآن متأكدين أننا يمكننا أن نشترى السكر والقهوة من المستعمرات مباشرة دون الحاجة إلى معاونة البريطانيين أو الفرنسيين، والعودة بها إلى هنا لبيعها في الأسواق، وكذلك إدخال منتجاتنا من النبيذ والزيت إلى موانئ أمريكا بالطريقة نفسها.

تعكر صفو ابتسامة "فينسينزيو" وعَبَس وجهه فجأة، وعلى الرغم من كل ما حدث، فإن الجانب الإيجابي في الموضوع هو أن طريق التجارة إلى المستعمرات بأمريكا أصبح الآن ممهداً، وأصبح بإمكان "فينسينزيو" أن يقيم علاقات تجارية مباشرة مع الأمريكيين. هذا ليس كل ما في الأمر؛ بل أصبح قادراً على أن يصل بسفنه وببضائعه لسواحل أمريكا دون وسيط، تماماً مثل "بن إنجهام"، ذلك الإنجليزي الداهية الذي أصبح الآن يمتلك حصصاً في محطة السكك الحديدية، والتي تنقل البضائع من الساحل الشرقي للولايات المتحدة الأمريكية إلى الساحل الغربي.

أوماً "ماسينا" بفطرته ناحية الممر المؤدي إلى الخارج؛ يقصد بهذه الإشارة: "ماذا سيقول الناس بالخارج، وماذا عن الشائعات التي سنتطلق والقيل والقال والثرثرة الفارغة والنميمة، وكيف سيتعامل معها "فينسينزيو"؟".

- ولكن ماذا سنفعل عندما يكتشف الناس الأمر؟

وقف "فينسينزيو" ومسح على خاتم عمه "إجنازيو" وأداره بين أصابعه، هذا الخاتم الذي ينتمي في الأصل لجدته، والذي خلعه من إصبع عمه الفقيد بعد أن وُضع في الكفن. في تلك اللحظة، تخيل كم كان سيشعر عمه بالسعادة والرضا بهذه النتائج التي وصل إليها، وكيف كان سينظر إليه برصانة حتى يخفي حماسه بالنتائج التي حققها بهدوء ولا مبالاة. قال "فينسينزيو":

- عندما يكتشف الناس حقيقة ما حدث ويبدوون في الثرثرة والنميمة، سيأتي الأغبياء الحاقدون إلينا بسبب ما حدث، وسينظرون فقط لحجم الخسائر التي لحقت بنا، لكن الأكثر ذكاءً ودهاءً سيرى الأمر من منظور مختلف وسيحاول أن يحذو حذونا.

بعدما انتهى "فينسينزيو" من حديثه، توجه فجأة نحو باب الخروج وقال:

- لا تنس أن تقوم بعمل تقرير مفصل بالحادثة، وبيان بكل البضائع التي تم فقدانها، وإرساله إلى شركة التأمين في وقت لاحق، أما الآن فتعال معي.

- إلى أين يا سيدي؟

لقد كان "فينسينزيو" في عجلة من أمره، حتى إن السكرتير لم يجد الوقت الكافي كي يلتقط ملفاته ومستنداته ويتبعه. في بعض الأحيان، لا يستطيع "ماسينا" أن يواكب سرعة وحركة هذا الرجل، فهو في النهاية رجل عجوز.

- إلى سفينة صيد التونة.

لقد تحولت شركة "إجنازيو وفينسينزيو فلوريو" إلى كيان ضخم متعدد الأنشطة، وله سمعته الطيبة داخل وخارج "باليرمو"، فلم تعد تجارتهم قاصرة على التوابل وبضائع المستعمرات وحسب، بل امتدت لتشمل امتلاك حصص من شركات التأمين التي أسسها تجار أجانب وصقليون من داخل "باليرمو"، وحصص في العديد من البواخر وسفن الشحن، وحصص في سفن ومصانع صيد وتعليب التونة مثل سفينة "التونيرا"، ومصنع "سان نيكولو لارينا" للتونة، ومصنع "فيرجين ماريا"، ثم امتدت كذلك إلى الاستحواذ على استثمارات مصنع "إيزولا ديلا فامين"، والذي حقق على أيديهم أرباحًا كبيرة بعد أن مر بالعديد من السنوات العجاف.

يعلم "فينسينزيو" جيدًا أن مصنع التونة القائم في "أرينيلا"، هو أكثر الأشياء التي كان يحبها عمه "إجنازيو" وكان شغوفًا بها، وأصر على استجاره في الوقت الذي كانت فيه عملية صيد التونة في أسوأ وأحلك فتراتهما. قال "فينسينزيو":

- إنه نوع من أنواع الحب والشغف؛ (هكذا كان يقول عمي العزيز).

لقد وقع "فينسينزيو" في هوى المكان دون أن يدرك، وأصبح يشاق إليه شوق الرجل لجسد المرأة التي يحبها؛ نوع من الحب الذي يتسلل إلى داخلك ويتمكن منك بدرجة تجعل من المستحيل عليك الإفلات منه، نوع من الحب يبقى مقيمًا في القلب إلى أبد الأبد.

نزل "إجنازيو ماسينا" من العربة مستندًا على عصا، تجاوزه "فينسينزيو" بعدة خطوات واسعة، مرا على "ماريفارجيو"؛ المصنع الحقيقي المدهون باللون الأسود الداكن كبطن المركب، إلى أن وصلا في النهاية إلى حوض صناعة السفن، حيث ترسو السفن ليتم إصلاحها وتجهيزها للإبحار من جديد. في الداخل، يضج المكان بصوت العاملين في حوض السفن والرائحة الجافة للبحر والطحالب، وبعد جهد كبير أصبحت سفينة صيد التونة جاهزة للإبحار والصيد. ما إن رأى أحد العاملين "فينسينزيو" قادمًا، حتى صاح أحدهم وهروا ناحيته حافي القدمين ليتحدث إليه:

- سيد "فلوريو"، هناك رسالة لك من صاحب الفخامة؛ إنه ينتظرك هناك عند المنزلق في خيمته. - أشكرك.

أشار "فينسينزيو" لـ "إجنازيو ماسينا" ليتبعه.

تساءل "إجنازيو ماسينا" بارتباك:

- البارون؟

- نعم، البارون "ميركوريو ناسكا دي مونتيماجيور".

وفي طريقه للقاء البارون، مر "فينسينزيو" بمجموعة من الصيادين المشغولين بإصلاح الشباك استعدادًا للصيد. وصل أحد المنتفعين من صيد أسماك التونة كي يبحث عن رفيق له ومعاون.

- أليس البارون أحد المساهمين في سفينة صيد التونة، فضلًا عن حصته في دير "سان مارتينو ديل سكالو"؟

- نعم بالطبع، أعرف أنه أحد الملاك، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه: لماذا يريد فخامة البارون أن يلتقي بك في هذا المكان؟ من الغريب أن يتنازل ويلتقي شخصًا آخر من العامة داخل أحد سفن صيد التونة.

مر "فينسينزيو" و"ماسينا" بالعاملين في جلفنة السفن والمراكب، واشتما رائحة الزفت والقار التي تعبئ الهواء هناك.

- والآن يا "ماسينا"، حاول أن تخبرني: ما هو السبب من وجهة نظرك وراء تنازل البارون وحضوره إلى هنا، كي يلتقي تاجرًا من العامة مثلي؟
- شيء واحد فقط يا سيدي، ولا شيء غيره.
- بالضبط.

مال "فينسينزيو" برأسه على سكرتيره الخاص "ماسينا" وقال:
- لقد أرسل لي البارون "ناسكا دي مونتيماجيور" رسالة قبل عدة أيام يطلب فيها لقائي، ولكن خفية.
- نعم يا سيدي، هذا ما فهمته، وبهذا تكون الشائعات التي تدور عنه بين الناس حقيقية.
- صحيح، إنه يتعرض لضائقة مالية شديدة، رغم أنني بادرت بتخفيض بعض الديون المستحقة عليه لنا وهو يعلم ذلك، ولهذا السبب يريد أن يتحدث إليّ، فهو يأمل أن يقرضه أحد العامة الأثرياء بعض المال، كي يخرج من أزمتة الرهانة ويسدد ما عليه من ديون للدائنين.
داخل خيمة شديدة البياض يلمع بياضها في ضوء الشمس، منصوبة قبالة شاطئ البحر بزرقته، أسفل المنزل المملوء بالحصى، يجلس البارون على طاولة تشبه طاولات المعسكر. إنه في متوسط العمر، يرتدي ملابس تبدو في مجملها مبتذلة تعبر عن ذوق قديم عفا عليه الزمن، فالبارون كان يرتدي قميصًا ذا ياقة مزينة بالدانتيل، وسترة طويلة ذات حواف مزركشة، وخلفه يقف أحد الخدم مرتديًا سترة قديمة، وإلى جواره مباشرة، يقف رجل آخر ذو شكل مميز؛ ربما يكون خادمه الخاص، ويحيطهم مجموعة من المتفرقات الخاصة بالصيد؛ كالشباك وبعض المراسي القديمة التي تُركت لتصدأ.

- سيد "فلوريو"!
أنت نبرة صوت البارون كحاكم قد تكرم وتنازل كي يلتقي رعيته المتلهفة لرؤيته، وقدم يده لـ "فينسينزيو" كي يقبلها كما لو كان يتلقى البيعة منه، لكن "فينسينزيو" أثار أن يصافحه بضغطة خفيفة على كف يده، وهو ما دفع البارون إلى سحب يده بسرعة وتثبيتها على معدته.
ومن دون استئذان أو دعوة، جلس "فينسينزيو" على الطاولة، وطلب من الخادم أن يحضر كرسيًا آخر ليجلس عليه سكرتيره الخاص، فأجاب الخادم طلبه على الفور.
غطت قطرات العرق جبهة البارون، على الرغم من أن الجو ما زال لطيفًا كما هو معتاد في شهر أبريل. قال البارون:

- ماذا إذا؟
كان رد "فينسينزيو" فاترًا:
- ماذا؟

أسرّ التابع بشيء في أذن البارون، وقام الأخير بهز رأسه براحة بالغة، وأشار إليه كي يكمل:
- إن فخامته يرغب في تعاونك معه.
نطق الرجل الحروف الساكنة كما يفعل عامة الشعب في صقلية.
- لقد واجه البارون في الفترة الأخيرة بعض المصروفات غير المتوقعة بسبب الظروف الاقتصادية غير المواتية، فضلًا عن قيامه ببعض الإصلاحات في قصر "مونتاماجيور"، وبسبب هذه الإصلاحات أصبح وضع البارون المالي حرجًا، وهو الآن يجابه بعض المشاكل الآتية في السيولة.
- فهمتك؛ تريد أن تقول ببساطة إن البارون مفلس في الوقت الراهن!

وجه "فينسينزيو" خطابه للبارون بشكل مباشر، في تلك اللحظة، كان البارون مشيحًا بوجهه بعيدًا مثبتًا نظره على البحر.

- بالطبع، أتفهم موقف البارون جيدًا، كلنا معرضون في الحياة لهذه المواقف والهزات، وأنا كرجل أعمال أيضًا معرض للعديد من المخاطر الكبيرة، ولهذا فأنا أقدم تعاطفي الكامل للبارون.

محمم البارون، وتوالت من فمه بعض العبارات المتتالية:

- سأكون صريحًا معك يا سيد "فلوريو"؛ إنني في أمس الحاجة لقرض، هذا صحيح، ولهذا طلبت عقد هذا اللقاء التمهيدي معكم في هذا المكان، لأنه ليس من اللائق على الإطلاق أن نناقش هذا الأمر في قصرى.

لم يجب "فينسينزيو" عليه.

ساد الجلسة صمت مر وجاف، ثم سأل «ماسينا» بشكل مباشر:

- كم تريد؟

تردد الرجل التابع للبارون بعض الشيء، ثم قال:

- ثمانمائة أونشي على الأقل، مقابل حصة البارون في مركب صيد التونة.

أخرج التابع الخاص للبارون بعض الأوراق والمستندات، وقدمها له «إجنازيو ماسينا» الذي بدأ على الفور في قراءتها. قال «ماسينا» بعد أن انتهى من قراءة الأوراق والمستندات:

- نحن في حاجة إلى بضعة أيام، لكي نقيم موقفنا المالي وقيمة القرض المطلوب مقابل الضمانة التي تعرضونها علينا.

بمجرد أن انتهى «ماسينا» من كلامه، رد عليه البارون بنبرة صوت تنتسم بالخوف والخزي:

- أنا، أنا كما تعلم عليّ أن أسدد الكثير من المصروفات، وأخشى أن أقول لكم إنني بحاجة للوصول إلى قرار بحلول الغد على الأكثر.

- الغد!

بدأت علامات الدهشة على وجه «فينسينزيو» طبيعية وصادقة.

- لم أكن أدرك أن سيادتكم متورط في مشاكل كبيرة إلى هذا الحد.

ثم عاد إلى «ماسينا» الذي هز له رأسه مشيرًا إلى الأوراق:

- بالطبع، هذا الوقت غير كافٍ لنتخذ قرارًا، ونقيم قيمة الأصول التي قدمتها لنا كضمانة.

- أترى؟ حتى سكرتيري الخاص يقول إن الوقت غير كافٍ؛ الأمر يحتاج إلى أسبوع على الأقل لتقييم

الأصول التي قدمتها لنا كضمانة مقابل توفير المبلغ المطلوب.

لم ينتظر «فينسينزيو» البارون أن يعطيه الإذن بالذهاب ووقف:

- سوف تتلقى إجاباتي على طلبكم خلال أسبوع. إلى اللقاء أيها السادة.

حاول البارون اللحاق به، وقال:

- انتظر هنا.

أمسك بأكمام تابعه وجره، كان بالفعل يصيح:

- لا! بحق السماء! هذا كثير، أخبره!

حاول تابعه أن يهدئه، بينما بدأ «ماسينا» مرتبكًا، وقد التقط مجموعة الأوراق والمستندات، وانحنى

انحناء غريبة أمام البارون، وانصرف دون أن ينطق بكلمة.

لحق بـ«فينسينزيو» قبل أن يركب العربة، واختار ألا يحاول أن يرى طبيعة المشاعر المرسومة في عينيه.

- ولكن سيد «فينسينزيو»، ألا تعتقد أنك كنت بعض الشيء...
- لا، إن كان بالفعل يريد هذا المال، فسوف يفعل كل ما يُطلب منه أيًا ما كان ليحصل على هذا القرض، وسوف يحصل عليه ولكن بشروطي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- كضمان للقرض، عليك أن تقدم الأرض ومعدات البحر، وسلم السفينة الخارجي والخطاطيف والمراسي، وقطعة الأرض المقابلة للبحر، ومخزن سفينة الصيد «تونارا».
قرأ الموثق «ميشيل تاماجو» بصوت رتيب، كما لو كان يندن في سجل الموتى.
انغمس «فينسينزيو» في أفكاره الخفية، متجاهلاً الذبابة التي وقعت في الفخ واحتجرت داخل الغرفة، وصوت صفحات المستندات وصرير الكراسي.

من على بعد، حدق «البارون ميركوريو ناسكا دي مونتيماجيور» بكره في «فينسينزيو»، ووجنتاه محقتان بالدماء وجفونه ثقيلة. لو كانت النظرات تقتل، لسقط «فينسينزيو» صريعًا على الفور بسبب تلك النظرات.

التقت الموثق للبارون وقال:

- هذا كل شيء، هل ترغب بالفعل في التوقيع على ذلك؟

- لم يترك لي هذا المرابي خيارًا آخر.

كان صوته مفعمًا بالحزن والنقمة والاستياء.

في تلك اللحظة فقط، بدأ «فينسينزيو» ينتبه لوجوده:

- أنا مراب أيها البارون؟ في نهاية الأمر أنا لست مؤسسة خيرية.

- أنت تستغل احتياجي الشديد للمال.

لوى البارون فمه وقال:

- أنت ترغمني على البيع.

- هذا ليس صحيحًا أيها البارون، لا تكذب، أنا طلبت منك أسبوعًا كي أقيم الضمانة التي قدمتها لي، وفعلت، وقد اكتشفت أن معدات المصنع في حالة يرثى لها، وبالتالي، عرضت عليك أن أقوم بشراء حصتك في مركب صيد التونة «تونارا» لأساعدك، وأجبت أنك في حاجة ماسة للحصول على القرض لكي تسكت الدائنين، وحصلت على القرض. والآن، وبمنتهى الوقاحة تقول إنني لم أترك لك خيارًا آخر!

- أنت تتصرف بهذه الطريقة الحقيرة لأن عروقتك لا يجري فيها الدم الملكي! لهذا أنت شخص حقير ومثير للاشمئزاز وغير مهذب!

وهمس قائلاً بالفرنسية:

- أنت شخص وصولي حقير!

وها هو «فينسينزيو»، بعد أن أحضر الدواة والريشة كي يوقع على العقد، قد تجمدت الريشة في يده، فلم يتغير شيء على الرغم من مرور كل تلك السنوات، ورغم أن البارون أطلق إهاناته بالفرنسية بدلًا من الإيطالية، لأنه يعتقد أن «فينسينزيو» لا يفهم ما يقول، فالإهانة دومًا موجهة. فقال «فينسينزيو» ببرود شديد:

- لا بأس أيها البارون؛ يمكنك التراجع إن أردت.
ساد الغرفة صمت مطبق ثقيل، لم يخرقه سوى صوت طنين الذبابة المحتجزة في الغرفة، وقطرة من
الحبر سقطت على الأوراق.
الجميع بما فيهم الموثق يعلم أن البارون قد انتهى أمره، ولكن على الجانب الآخر يعلم «فينسينزيو»
جيداً أن البارون رجل يتمتع بنوع خاص من الكبرياء.
- الأمر يعود لسيادتك.

كسر «فينسينزيو» حاجز الصمت بهذه الكلمات المعبرة لينقذ الموقف.

- ما الذي ترغب في عمله؟ الأمر كله بين يديك.

لقد كان الإغراء قوياً.

ربما فكر البارون في تلك اللحظة البائسة أن يحاول التماسك بعض الشيء، ويرفض الصفقة والتوقيع
على عقود التنازل لـ «فينسينزيو» بعد هذه الإهانة، ويقوم ببيع ما تبقى من مجوهرات زوجته، ويمنح
حصته من مصنع التونة لقساوسة ورهبان دير «سان مارتينو ديلا سكالالا» الذين يمتلكون بالفعل
حصّة فيه، لكنه عاد وفكر، فالرهبان بخلاء ولا يفكرون كيس نقودهم بسهولة، وما بقي من مجوهرات
زوجته في الحقيقة لا يساوي شيئاً، فقرر ابتلاع الإهانة الموجهة وقال:

- فلنوقع، فلنوقع، وبعد أن ننتهي من التوقيع لا أريد أن أرى وجهك مرة أخرى في حياتي.

وقع «فينسينزيو» على العقد بزهو تحت توقيع البارون، وترك سكرتيره الخاص وسكرتير البارون
يعتنيان بباقي التفاصيل، وتتحى جانباً في الجانب الآخر من الغرفة، ويدها مطبقتان وحاجباه مقطوبان
كأنه هو الخاسر، أو المجني عليه. في النهاية، توجه «ماسينا» نحوه وقال:

- كان يمكنك أن تبقى جالساً في المكتب، فأنا لديّ توكيل، وما كان عليك أن تتابع هذا المشهد.

ولكن «فينسينزيو» ظل يحدق بـ «ناسكا دي مونتيماجيور».

- في المستقبل القريب ربما ولكن ليس الآن. أعطني الحقبة.

قالها وهو يفتح ذراعيه.

- ولكن...

تلقى نظرة لا تحمل سوى معنى واحد.

اقترب «فينسينزيو» من البارون الذي عاد ليجلس على الكرسي والحقبة على فخذيه، كان متلهفاً
لالتقاطها من يد «فينسينزيو»، للدرجة التي جعلت بعض العملات تسقط منها وتتناثر على الأرض.
خرج «فينسينزيو» من الغرفة تاركاً البارون جاثياً على قدميه، يللمم النقود بشكل مهين من على
الأرض.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- على مهل! ماذا تفعلون بحق السماء؟ أما كان أجدى بكم أن تكونوا أكثر حرصاً فيما يتعلق بممتلكات
الآخرين؟

كانت «جيوسبينا» مشغولة بإرشاد الحمالين إلى أماكن وضع الأثاث داخل ردهات منزلها الجديد.
يتألف المنزل الجديد من طابقين، ويقع في ضاحية «فيا دي ماتيريسي» ولكن في الشارع رقم 53،
اشتراه «فينسينزيو» من السيد «جيوسيب كاليبريس»، أحد جيرانه، ولكي نكون محددين، لقد أخذه
«فينسينزيو» نظير سداد بعض الديون المستحقة على السيد «كاليبريس» لعدم قدرته على الوفاء بها
في الوقت المقرر لها، هكذا هو العمل ولا مجال للعواطف أو الشرف في الأمر.

يتألف المنزل من شقتين تم ضمهما عن طريق هدم بعض الجدران والحوائط، وهو يطل على ضاحية "لاكالا" بامتدادها دون عائق، وفي خلفية المنزل تظهر المدينة والجبال، وبما أن "فينسينزيو" أحب المنظر، فقد قرر بناء شرفة كبيرة ليقتضي فيها هو وأمه أمسيات الصيف.

تركت "جيوسبينا" نفسها لتسقط على الكرسي من شدة التعب والإرهاق، واكتفت بالإشارة للحمالين بمكان الغرف التي يجب أن يضعوا بها الأثاث، لتتولى الخادمت بعد ذلك كنس الأرض وترتيب كل شيء فيما بعد. وقف "فينسينزيو" على عتبة المنزل وسأل أمه عن رأيها في المنزل الجديد:

- هل أحببتِ المنزل الجديد يا أمي؟

- بالطبع أحببته، فهو أكبر وأوسع، وتدخله الشمس والضوء من كل مكان.

لكنها تذكرت حياتها في ساحة وضاحية "بيانو سان جياكومو"، والأماكن الأخرى التي انتقلت إليها في "فيا دي ماتيريسي"، وموت "إجنازيو" داخل إحدى الشقق المستأجرة التي كانت ملائمة لطبقة العاملين. نظرت "جيوسبينا" حولها وهزت رأسها:

- يا لها من شقة جميلة!

خاصة بعد التعديلات التي أجراها عليها ابنها؛ لقد قام بتغيير أطر النوافذ، وقام بطلاء الجدران والسقف وزينها بالزهور والسموات الزرقاء، ولم ينس إضافة بعض النوافير وعيون المياه المنحدرة.

- بالتأكيد الهواء هنا لا يشبه الهواء في "بانيارا"، ولكن...

نظر "فينسينزيو" في المكان وقال:

- أما زلتِ يا أمي تفكرين في هذه الأماكن؟ أتمنى لو تتوقفين للحظة عن التفكير في هذه الأماكن وفي تلك القرى، فهذا هو بيتنا الذي يليق بنا وبوضعنا الاجتماعي الجديد، ما عاد هناك المزيد من الاستئجار أو تلك الأكواخ الموجودة في "كالابريا"، من الآن فصاعدًا هذا هو بيتنا، وهذه هي حياتنا، وهذا هو المكان الذي سنحيا فيه.

مرة أخرى، أجبرت "جيوسبينا" على خفض رأسها، فلم يكن لها أبدًا خيار في المكان الذي تعيش فيه. عندما سألت "فينسينزيو" إذا كانوا قادرين على سداد ثمن العيش في مثل هذه الشقة الفاخرة، توقف "فينسينزيو" عن النظر في أوراقه ونظر لأعلى نحو أمه بهدوء وسكينة وبقلق في الوقت ذاته:

- منذ متى وأنتِ تتدخلين في طريقة إنفاقي للمال يا أمي؟ بالطبع يمكننا أن نتحمل تكاليف العيش هنا، فنحن لم نعد بائعين في متجر بعد الآن. أقول لك، بالأمس فقط قمنا باستلام البضائع التي أتتتنا من "سان روزاليا" من مكتب الجمارك، وما إن قمنا بإزالة البضائع، حتى بدأ المزداد الخاص بالقطن.

مرت سنوات طويلة ظلت فيها ضحكة "فينسينزيو" جادة كالصربير، واليوم بلغ الثالثة والثلاثين من عمره وهو كما هو:

- نحن بحاجة لبيت يليق بنا، وأعدك بأنك لن تحتاجي لأي شيء ما دمتُ على قيد الحياة.

نادى أحد العاملين على "فينسينزيو"، فغادر معه.

وقفت مرة أخرى ونظرت من إحدى النوافذ لتستمع بمشاهدة كامل ساحة "فيا دي ماتيريسي" و"بيانو سان جياكومو".

لقد قطعوا شوطًا طويلًا بلا شك من "بانيارا" وصولًا إلى هنا؛ طريق مريب ومرهق، بدأه "بولو فلوريو" عندما قرر السفر إلى "باليرمو" بحثًا عن كسب المال وحياة مزدهرة، وسار فيه "إجنازيو فلوريو" حتى توفي، والآن حان دور "فينسينزيو فلوريو" ليكمل ما بدأه الاثنان.

أما هي، فلم يبق لها شيء من الماضي سوى الذكريات، حتى البغض والحقد وكل ما أوغر صدرها طوال تلك السنوات ذهب واختفى بموت "إجنازيو"، لم يبق لها سوى نفسها وذكرياتهما. أما ولدها؛ لحمها ودمها وسبب بقائها، فأصبح كجزيرة منغلقة على نفسها، تمامًا كما كانت هي منذ وقت طويل. والآن يجب أن تتحلى ببعض الصبر والشجاعة، لأن هناك شيئاً ما يقلقها ويؤرقها ويمنعها من النوم ليلاً؛ لقد بلغت الرابعة والخمسين ولم تعد صغيرة بعد الآن، وتعلم جيداً أن "فينسينزيو" لا يمكنه العيش وحيداً، فكل رجل يحتاج إلى امرأة تؤنسه في الحياة وتعتني به، تدفئ فراشه وترعاه، وتواسيه عندما يكون حزيناً أو في حالة مزاجية سيئة، وتملاً حياته بالبهجة والحب والأبناء والورثة، فهذا شيء تحتاجه عائلة "فلوريو" وإمبراطورية "فلوريو" في الوقت الراهن، فما بناه "إجنازيو" و"فينسينزيو" لا يمكن أن يُترك سدى تتلقفه الريح والأمطار، إنها تركة وميراث يجب أن ينتقل من وريث لوريث بأمان، ولهذا فهو بحاجة لأن يتزوج من امرأة من عائلة عريقة لتأتي له بدم جديد عريق، يكمل الطريق من بعد أبيه ويحافظ على هذه الإمبراطورية. لكن "فينسينزيو" بحاجة لامرأة من أصول نبيلة، كبرت وتربت كسيدات المجتمع الراقي، لأن ابنها الذي ستجبه من "فلوريو" سيرث هذه الإمبراطورية الثرية.

أطبقت "جيوسبينا" أسنانها على بعضها وهي تفكر بهذه الطريقة، لكن هذا هو الواقع، وعليها أن تتقبله هو وفكرة التتحي جانباً، لتفصح الطريق لامرأة أخرى تسعد ولدها وتقدم له ما لا تستطيع هي أن تقدمه، وعليها أن تسعى في هذا الأمر وبسرعة.

لم يتبق لها شيء سوى الواقع، الذي يخبرها كل يوم أنها أصبحت وحيدة، والشيء الآخر الأكثر مرارة وغموضاً وألماً أنها أضاعت حب عمرها وزهرة شبابها وسعادتها بسبب عنادها، والكره الذي ملأ قلبها، وشعور الغصة والغضب مما فعله بها "باولو".

أثناء العشاء، جلست "جيوسبينا" على الكرسي المقابل لابنها وحدهما، كما كانا يفعلان في بيتهما القديم، وقد غمر الضوء الصادر من أحد المصابيح مفرش السفرة وأيديهما والأواني الفخارية. أصبحت "أوليمبيا" عجوزاً وما عادت تقوى على العمل، هذا بجانب كونها من العامة ولم تعد مناسبة للخدمة داخل أحد بيوت "كازا فلوريو" الفاخرة، لذا تم استبدالها بفتاة شابة ذات وجه منمش وأما التي تترك لها الفتاة كل الأعمال الشاقة لتقوم بها وحدها.

بدأت "جيوسبينا" حديثها مع "فينسينزيو" بحذر:

- أريد أن أتحدث إليك يا "فينسينزيو" في أمر ما.

نظر إليها وقطب حاجبيه، كانت التجاعيد الموجودة في وجهه مليئة بالعمق:

- ما الأمر؟ هل توجد مشكلة ما؟

- لا، لا شيء، ولكن علينا أن نمنع حدوث أي مشكلة في المستقبل.

شعرت "جيوسبينا" وكأن هناك دودة تأكل لحمها من شدة الغيرة والحزن، ولكن على الرغم من ذلك، عليها أن تتحلى بالشجاعة وتتحدث معه في الأمر؛ إنه شيء أهم من حياتها وشعورها كأم، وعليها مواجهته.

- لقد تخطيت سن الثلاثين، أليس كذلك؟

توقفت عن الكلام برهة ثم أكملت:

- وأصبح لزاماً عليك أن تفكر في المستقبل، وليس في حياتك الآنية وحسب.

وضع "فينسينزيو" الملاعقة في الطبق وسألها دون أن ينظر:

- هل تتحدثين عن الزواج؟

أخذت «جيو سبينا» نفساً عميقاً وقالت:

- نعم، امرأة تشاركني هذا البيت، وتجلس معنا على المائدة نفسها وتنام في سريرك.
بالطبع لن يكون الأمر سهلاً. حمل «فينسينزيو» كوب النبيذ وارتشف رشفة، وحلت ذكرى عنق
«إيزابيلا بيليتيري» الساحرة أمام عينيها.

- هل تعلمين يا أمي؟ لقد مر بي وقت كنت آمل فيه أن أسمع منك هذه الكلمات، لكن هذه اللحظة قد
مرت.

حدقت عيناه اللتان تشبهان العقيق الأسود بعينيها البنيتين للحظة، ثم ما لبث أن قام من مكانه وقبلها.

- فلتعتني أنتِ بالأمر، فلتجدي لي زوجة مناسبة من عائلة عريقة ومهرها مقبول، ثم أخبريني بعد
ذلك بما توصلتِ إليه.

وقبل أن يغادر المنزل، أضاف:

- لا تنتظريني، فلديّ موعد.

- ستري؛ ستكون مفاجأة.

بقي القليل من العائلات في ضاحية «سان جيوفاني دي نابوليتاني»؛ أغلبهم من التجار الكالابريين أو
من أصول نابولية، هم وأبناؤهم، وأثروا البقاء معاً لأنهم من أبناء الطبقة نفسها ويعملون المهنة
نفسها، وهذا هو المكان الذي يعملون ويقيمون فيه، والسبب الرئيسي وراء مواظبة الغالبية العظمى
من المقيمين على حضور صلوات المساء في كنيسة الحي ليس أداء الصلوات في حد ذاته ولكن
ليلتقوا بعضهم بعضاً للحديث عن العمل وللنميمة. تتسم نظراتهم بالوقاحة، كأن صلوات الغروب لم
تؤثر على سلوكياتهم بأي شكل من الأشكال.

همهم حامي المقدسات داخل الكنيسة وقال:

- من الواضح أن هؤلاء الناس لديهم الكثير من الوقت ليضيعوه في النميمة والثرثرة.

لهذا يقوم حامي غرفة المقدسات داخل الكنيسة بغلق باب الكنيسة بعد انتهاء الصلوات مباشرة، ليقلل
من صوت الضوضاء التي يسببونها.

على غير عادته، وقف «فينسينزيو» يتحدث باهتمام مع رجل له فك مربع ويتحدث بلهجة مدينة
«كالابريه» الثقيلة، ويبدو من طريقة حديثهما أنهما صديقان حميمان، وبدأ يلفتان أنظار غيرهما من
التجار، لأنه من المعروف عن «فينسينزيو» أنه متحفظ ومن الصعب التعامل معه، بخلاف عمه
«إنجازيو» الذي كان دوماً شخصاً حلو المعشر ودوداً، ولكن اللعنة! فالجميع يعتقد أنه شخص حاد
وداهية.

لا شك أن «فينسينزيو» كان يسمع همهماتهم عنه وهذه الجلبة التي يتسببون فيها، وصدى الحسد
والحقد المختلط بالإعجاب الذي يتردد في أرجاء الحي، لكن بالرغم من كل ذلك بقي تركيزه منصباً
على الرجل الذي يقف أمامه.

- كما ترى، هناك جوقة كبيرة من التجار يتاجرون في هذه المواد هنا على الساحل، ولكنني لا أهتم
بشأنهم، فأنا أنظر لما هو أبعد من ذلك.

قال الرجل الآخر الذي كان يبدو أقصر وأضخم وينظر حوله:

- لقد ذكرت لي ذلك في أحد رسائلك، ماذا...؟

قد تلاحظ العين المتخصصة للرجلين أن لهما السمات الجسدية نفسها؛ جبهة عالية، يد قوية، بشرة داكنة، لكن الفتق الموجود في ملابس الرجل الآخر ولغة جسده توحي بأنه غير واثق من نفسه بدرجة كافية، وأن أحواله المالية ليست جيدة ومستقرة مثل «فينسينزيو». اصطحب «فينسينزيو» الرجل من تحت إبطه، وسار به نحو «بلازو ستيري»:

- هذا هو مكتب التخليص الجمركي، لكنه لم يكن كذلك في الماضي؛ لقد كان في الأصل قصرًا يمتلكه أحد النبلاء، ثم تحول لمحكمة، ثم إلى سجن لمن تثبت عليهم جريمة الهرطقة، وللقنلة واللصوص. ثم توقف فجأة، وبدأ يتأمل القصر. سيطر عليهم شكل الأحجار السوداء:

- لا أريد «قابيل» في منزلي. هل ما زلت مبتئسًا مني بسبب ما حدث ونحن أطفال؟ أجابه الرجل الثاني بمنتهى الأمانة:

- ربما، ولكن كان ذلك في الماضي، كل ما أتذكره عن تلك الفترة هو يأس وبؤس أمي؛ الجوع، والذل الذي كنا نشعر به عندما كنا نطلب بعض المال من أقاربنا، وبيعنا لبيتنا وانتقلنا إلى «مارسيلا»... لقد كنت أشعر بالغضب من والدك وعمك بكل تأكيد، ولكن جزئيًا، لأن الجميع تقريبًا كان يخبرنا أن أحوالكم المادية أصبحت أفضل وأنكم تحققون نجاحات كبيرة.

خفض «فينسينزيو» من صوته وهو يقول:

- ولكنكم بدأتُم بالفعل في تلقي بعض المساعدات المالية البسيطة، أليس كذلك؟ - لقد كان عمي «إجنازيو» هو من يرسل تلك الأموال دون أن يخبر أحدًا، لقد رأيت الأوراق الخاصة بالتحويلات التي كان يرسلها لكم في دفاتر الحسابات منذ سنين طويلة، وما زلت أتذكر عمتي «ماتيا» عندما حضرت إلى «باليرمو» لأن أبي كان يحتضر، لقد شعرت بدهشة شديدة عندما علمت أن لي عائلة. فكرت فيما بعد، كيف كانت ستسير الأمور إذا كنا قريبين من بعضنا بعضًا، ولكن لم يحدث هذا ولم تقررهِ الأقدار.

هز الرجل الآخر رأسه، وبدا عليه التفهم الكامل لكل ما يقوله «فينسينزيو»:

- كانت أمي تحبكم جميعًا، وتذكر أباك وعمك كثيرًا في صلواتها وتدعو لهما. أصاب «فينسينزيو» شعور بالمرارة والأسى بين المعدة والحلق، لكنه دفعه بعيدًا عن تفكيره وقال: - أنا لست كعمي «إجنازيو»، تذكر ذلك جيدًا، فأنا رجل لا أريد أن أقف عند ما حققته بالفعل. - وأنا كذلك.

بهذه الكلمات الحاسمة والنبرة الواثقة المملوءة بالعزم والحماس، تأكد «فينسينزيو» أنه عثر على ضالته.

- تعال إليّ غدًا في ضاحية «فيا دي ماتيريسي»، ولسوف أعرفك بسكرتيري الخاص «إجنازيو ماسينا»؛ هو كبير في السن بعض الشيء، ولكنه خبير وستحتاج أن تكون إلى جواره في الفترة القادمة.

أبعد «فينسينزيو» يده عن جسمه:

- وبعد أن تنتهي من لقائك مع «ماسينا»، تعال إلى البيت، فأني لا تعرف شيئًا عن الموضوع، وسوف تُسرُّ سرورًا عندما ترى أحد أبناء «ماتيا».

أخيرًا ابتسم «رافاييل باربيرو»؛ أحد أبناء «ماتيا فلوريو» و«باولو باربيرو».

ما زالت الشوارع الجانبية ضيقة، على الرغم من قربها الشديد من المدينة وجدرانها ومكتب التخليص الجمركي. تتألف ضاحية «فيا ديلا ريجيا» من مجموعة من المنازل الهادئة التي يقطنها في

الغالب صغار البائعين، وتطل جزئياً على ضاحية "فيا ديلا أورو"، وليس هناك رابط بينها وبين قصور الأرسنقراطيين المحيطة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما تم فحص الغرفة الموجودة بالدور الثاني، وجد أنها مظلمة. حل خريف عام 1832 بسرعة مقصراً اليوم ومصطحباً معه عواصف "ترامونتانا". أربعة رجال.

- تخيل شكل الصحراء في أفريقيا؛ إلى أي حد هي قاحلة ويائسة، وتخلو من كل صور الحياة إلا من تلك الواحات الغربية، التي تمتلئ ببحيرات المياه الصغيرة وشجرتي النخيل الملثوتين. الوضع هنا في "باليرمو" لا يختلف عن الوضع هناك، فمن النادر، بل من المستحيل، أن تجد مصانع، وعدد المصانع الموجودة يكاد يعد على أصابع اليد من قلته. فتح "فينسينزيو" يده وبدأ يعد على أطراف أصابعه:

- هناك القليل من مصانع القطن، ومصنع واحد لتصنيع البنادق القديمة، وآخر لتصنيع النحاس، وآخر للحديد، والباقي مجرد متاجر صغيرة لبيع العطارة والتوابل، ويكون لها في الغالب مالك واحد ويعمل فيها في أحسن الأحوال خمسة عشر عاملاً على أقصى تقدير، إن كانوا محظوظين. والعمل في "كازا فلوريو" لا يعتمد على المصانع، بل على التجارة، فأساس عملي هو أن أقوم بالجمع ما بين المصنّع والمشتري، باسمنا أو بالنيابة عن شخص آخر.

جلس "توماسو بورتالوبي" - أحد التجار الوافدين من مدينة "ميلان" إلى "باليرمو" منذ أشهر قليلة - قبالة مكتب "فينسينزيو" ينصت إليه بانتباه. يتميز الرجل بشعر خفيف على صدغه، وعينين بنيتين، وأنف مقوس زاد من منظره سوءاً وبعض الأوردة الداكنة التي تمر به، يجلس بجواره ولده "جيوفاني" الذي كان صورة مصغرة من أبيه. وضع "بورتالوبي" كوعه على المكتب:

- أنا أيضاً رجل متوسط العمر يا سيد "فلوريو"، وسبب مجيئي إلى مكتبك هو أنني كنت أبحث عن أفضل الموردين الموجودين في "باليرمو"، فعلمي هو أن أعثر على المواد الخام ليتم تصنيعها في مدينة "لومباردي". وأنا مهتم بتجارة النبيذ وزيت الزيتون والتونة المملحة والسماق والكبريت، والحقيقة أنني لا أربح في التعاون مع التجار البريطانيين، لأنهم ببساطة سيزودوني بما أحتاج من منتجاتهم، وأنا شخص لا أربح في التجارة في البضائع ذات الجودة المنخفضة، لقد حاول البعض أن يخذلني ويبيع لي مثل هذه البضائع، فأبي من تلك البضائع أنت قادر على أن تزودني بها، وبأية شروط؟

تبادل "فينسينزيو" النظرات مع ابن عمته "رافاييل"، واعتدل في جلسته قائلاً:

- يمكنني أن أزودك بكل ما ترغب فيه من المنتجات التي تنتجها صقلية؛ كل شيء تقريباً. قطع حديثهم صوت نقر على الزجاج، فتح الباب:

- هل يمكنني الدخول؟

دخلت عليهم فتاة صغيرة ترتدي ثوباً بني اللون، وهي تحمل طبقاً مملوءاً بالبسكويت تتبعث منه رائحة الفانيليا وتعبئ هواء الغرفة:

- طلبت مني أمي أن أقدم لك هذا الطبق من الحلوى، لقد خرجت لتوها من الفرن.

تراجعت خطوة للخلف ونظرت مباشرة إلى "فينسينزيو"، الذي كان قد تقبل كأساً من "الليكور" من "جيوفاني" ... التقت، ورآها.

لا بد أنها أحد أقارب "بورتالوبي"؛ ربما ابنة أخته أو ابنته لأنها تشبهه كثيرًا، فلون بشرتها يشبه لون بشرته، ولها نبرة الصوت نفسها، والأنف المحذب نفسه، خرجت بشكل مصطنع وهي تعود إلى الخلف. لم يكن "فينسينزيو" معتادًا على الوقوع كفريسة للسحر الأثوي، ولكن هذه الفتاة أثرت عليه بشكل ما بوجهها الجميل وقوامها الممشوق، فنساء "باليرمو" لا يتمتعن بتلك النظرات الواضحة الواثقة. ربّت "توماسو بورتالوبي" على كتفها وقال:
- شكرًا لك يا حبيبتي، والآن يمكنك أن تذهبي.
انتظر حتى تم إغلاق الباب قبل أن يكمل:
- الكبريت يا سيد "فلوريو"، الكبريت والنبيد.
عقد يديه وقال:

- بالطبع، ما هي كمية الكبريت التي ترغب في الحصول عليها، ومتى؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لاحظ "فينسينزيو" أن أمه منتبهة، وتعنتي به على العشاء بنفسها وتربت على كتفه، وتساءله عن أخبار العمل.

نظر إليها بشك، لقد كان يشعر بالتعب والإرهاق، فقرر أن يخلع معطفه وربطة عنقه، وفتح أزرار صدرته. كان شعره أشعث ومبعثرًا من شدة التعب، والآن، بعد انقضاء يوم عمل طويل وشاق، يستطيع أن يتحرر من قيود العمل ورسمياته ويصبح على طبيعته.
بعد فترة، دفعت «جيوسبينا» بطبقها بعيدًا:

- اسمعني يا ولدي، وجدت لك فتاة تتفق مع وضعنا ومتطلباتنا.

استخدامها لكلمة «متطلباتنا» لم تمر عليه دون انتباه، وكأن أمه هي الأخرى ستزوج معه، وهو ليس بحاجة إلى رفيقة أو ربة منزل، فهو يرغب في الزواج بفتاة تتجلب له ورثة أصحابًا بدنيًا وأقوياء، و«جيوسبينا» ستتولى باقي الأمور كالعادة.

- حقا يا أمي؟

- إنها فتاة طيبة من عائلة محترمة، نشأت على يد مجموعة من الراهبات، تتحمل المسؤولية وجديرة بالاحترام؛ وهذه هي السمات الأساسية التي جذبتني لها.

وضع «فينسينزيو» وجهه بين قبضتي يده المطبقتين:

- وما الذي يقلقك في الأمر؟ أنا أراك قلقة بعض الشيء.

فركت «جيوسبينا» أناملها المرتعدة في منشفة السفرة، وقالت:

- يعود نسب عائلتها لأمير «توربيرونا»، وهذا بالطبع نسب مشرف، وقد عبرت عائلتها عن سعادتها كونك ستصبح زوجًا لابنتهم. بالطبع هناك مشكلة في المهر، فهم لا يملكون الكثير بجانب أصلاتهم ونبيل نسبهم؛ مجرد مخزن واحد فقط بجوار «إينا» ومنزل واحد هنا في المدينة.

كانت «جيوسبينا» حريصة كل الحرص في انتقاء ألفاظها، وبدأ شعور «فينسينزيو» بالقلق يتزايد بشكل كبير:

- ليس هناك شيء لا يمكن حله ولكن...

لكنه كان يشعر بأن هناك شيئًا كبيرًا تخفيه أمه عنه؛ لقد شعر بهذا الأمر من طريقتها غير المعتادة في الكلام.

- لقد وضعوا شرطاً واحداً ليتم الزواج؛ أن تتوقف عن العمل وتوكل شئون العمل لأحد المقربين منك وتتوقف عن إدارة متجر العطاراة، لأن هذا شيء من شأنه أن يضر باسمهم وسمعتهم ولا يليق بهم. بعد أن أتمت «جيوسبينا» حديثها، دخلت في نوبة من الصمت في انتظار أي إيماة أو إشارة أو كلمة منه، ظل «فينسينزيو» ساكناً، وغطى وجهه بيديه، وتحدث بهدوء، كأنه لا يكاد يصدق أغلب ما سمعته أذناه:

- هل تريدني مني أن أترك عملي من أجل امرأة؟

- امرأة؟ هي ليست امرأة، إنها فتاة.

حاولت «جيوسبينا» أن تخفف من وطأة الموقف:

- اسمعني يا بني، حاول أن تظهر أمامهم أنك تقبل شروطهم، وبعد أن تتزوجها ستصبح أنت سيد الموقف. دعنا نفكر في الأمر؛ بمجرد إتمام زواجك منها، لن يتمكن أحد من معارضتك أو فرض إرادته عليك، لأنك من تملك المال.

أرجع «فينسينزيو» رأسه بعض الشيء إلى الخلف، وانخرط في نوبة من الضحك الصاخب، وخبط بيديه على المائدة:

- أتقولين لي هذا الكلام الآن؟

الشعور بالمرارة الذي غزا نبرة صوته بدأ يُشعر «جيوسبينا» بالقلق:

- هل تذكرين ما حدث عندما كنت شاباً يافعاً لم أبلغ بعد سن العشرين؟

نظر للأعلى وعيناه تطلق شراراً كأنهما جمرتان:

- هل تذكرين «إيزابيلا بيليتيري»؟ هل تذكرين عندما أخبرتني أنه يجب عليّ أن أنسى كل شيء يتعلق بها، لأنها كانت مفلسة؟ تتذكرين بالطبع، أليس كذلك؟

لقد توقعت «جيوسبينا» أي شيء منه إلا هذه.

قفزت من مكانها ووقفت على قدميها:

- وما شأن «إيزابيلا بيليتيري» بما نتحدث عنه الآن؟ فهي ابنة وأخت جماعة من الفاسقين، لا همّ لهم سوى السعي وراء المال.

- وماذا يريد هؤلاء الناس من وجهة نظرك؟

تبع أمه التي بدأت تتظف المائدة:

- إنهم لا يسعون فقط خلف ثروتي، ولكنهم يحاولون أن يُملوا شروطهم عليّ وأن يحددوا لي الطريقة التي أدير بها شئون حياتي.

- ما من أحد يستطيع أن يملي عليك أي شيء، والفتاة طاهرة وبريئة، ما زالت تجري وراء تنورات الراهبات، وسوف تطيعك في كل ما تقوله وتفعله وتؤيدك، فهذا نوع من أنواع التربية والنقوى. أنت رب البيت وزوجها والمسؤول عن كل شيء، وأنت صاحب المال وبالتالي فالسلطة في يدك، وكل ما تطلبه سيطاع.

أشار إليها «فينسينزيو» بإحدى أصابعه، وقال:

- إجابتي عن هذا الموضوع هي لا؛ لهم ولك. لقد طلبت منك أن تبحثي لي عن زوجة، وليس أن تزوجيني بعائلة من التعمساء الذين يشعرون أنهم أغنياء لمجرد أنهم يمتلكون أحد الألقاب، ويُملون عليّ شروطهم.

تمكن الغضب من «جيو سبينا»؛ لقد اعتبرت أن الأمر منتهياً، والآن... تركت الأطباق على المائدة وواجهته ويدها على فخذها:

- أما زلت تعاقبني على خطأ ارتكبته في حقك منذ خمسة عشر عاماً ولم تستطع أن تغفره لي أو تتغاضى عنه، على الرغم من أنني كنت خائفة عليك؟ كنت أحاول أن أفتح عينيك على الحقيقة المرة التي أعماك عنها حبك لـ «إزابيلا» وگرامك بجمالها الفتان. لقد كان من المفترض أن تشكرني، ولكنك الآن تؤنبني وتتهمني بأن الأمر كله كان خطئي. لقد أخبرني الناس بذلك المشهد البائس والمخزي الذي حدث لك في وسط الشارع. الحقيقة هي أنك لا تختلف عن عمك وأبيك وكل نسل عائلة «فلوريو»؛ كلكم انتقاميون وبلا قلب، ولا جدوى من الكلام معك، فهذا شيء يسري في دمائكم. لوت شفيتها بتجهم:

- ستعيشون وتموتون وأنتم هكذا، وسينتهي بك الحال وحيداً كالكلب. حاول «فينسينزيو» أن يسيطر على أعصابه، وألا يتمكن منه الشعور بالغضب ويضطره إلى تحطيم أحد الأشياء، لقد رأت «جيو سبينا» ذلك في عينيه الغاضبتين، فأثرت التراجع لخطوة أو خطوتين، لكنه أمسكها من ذراعها وتحدث لها مباشرة في وجهها:

- من الأفضل أن ينتهي بي الحال وحيداً ككلب أجرب بدلاً من أقضي بقية عمري أسعى وراء امرأة لا تحبني ولا تريدني.

ترك «فينسينزيو» ذراع أمه بعد أن انتهى من حديثه، وبدأ يترنح وتشبث بأحد الكراسي. لم تصدق «جيو سبينا» عينها، فـ «فينسينزيو» الذي تراه أمامها شخص آخر لا تعرفه ولم تره من قبل، فإنه ليس ابنها الذي أنجبته، ليس لحمها ودمها وقطعة من روحها. لقد تحول إلى شخص آخر مملوء بالعنف والغضب والوحشية. أغلقت عينها وفتحتها وهي تنظر إليه خلسة وتحاول ألا تبكي، لقد بقيت هكذا واجمة حتى بعد أن تركها وخرج من المنزل. لم تتمن في يوم من الأيام أن يكون «إنجازيو» إلى جوارها كما تمننت في ذلك اليوم الصعب، ولكن شعورها القاتل بالندم - لأنها كانت شديدة القسوة معه وهو يبادرها بكل حب وحنان وتضحية - يعتصر قلبها المحبوس بين ضلوعها، ويفجعها.

لقد أرادت أن تحول حياة زوجها إلى جحيم، عقاباً له على إجبارها على ترك المكان الوحيد الذي تحبه وتنتمي إليه، كما أن كرهها الشديد لآل «فلوريو» قد يبعتها عنهم، فاعتمدت على وجود سند لها وهو ابنها «فينسينزيو»، ولكنها اكتشفت أن لبنها، المختلط بالكرهية والغضب والرغبة في الانتقام، الذي كانت ترضعه إياه نتج عنه هذا السم الذي رآته اليوم. لقد تجرع الرضيع الكره مع حليب صدرها، وها هو قد أصبح مطبوغاً بداخله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تصافح بالأيدي تبعه صوت ارتطام الكؤوس. قدمت الخادمة شراب «الليكير» والحلوى للضيف.

- بعد أن سألنا عن أسعار الكبريت عند كل تجار «باليرمو»، اكتشفنا أن سعر الكبريت الذي قدمته لنا هو أكثر الأسعار تنافسية، وهو أفضل الأسعار التي قدمتها لنا، ويحقق أعلى قيمة مقابل المال.

دخل «جيو فاني بورتالوبي» في حوار مفعم بالحوية مع «فينسينزيو»، ونقر بأطراف أصابعه على العقد، وقال:

- سمعت أنك تمتلك أحد المحاجر.

- نعم، هذا صحيح؛ لقد حصلت على أحد محاجر البارون «موريلو».
- فهو يحب أن يتحدث مع الأشخاص الصريحين بوضوح.
- سيادة البارون لا يحب أن يلطخ يديه الناعمتين بالعمل، وفي الوقت نفسه هو في حاجة إلى المال الذي يدره إيجار المحجر ولهذا...
- هز «جيوفاني» كتفيه:
- انطبقت عليك حكمة الرومان؛ يليق بك تجارة الكبريت.
- بدؤوا جميعًا في الضحك.
- كان على وشك أن يكمل حوار ه، عندما استأذنت في الدخول عليهم امرأة في منتصف العمر، وهمست في أذن السيد «بورتالوبي»؛ كانت السيدة تتسم بملامح قوية وتعبيرات دافئة ومزيح غريب من القوة واللفظ. قال «جيوفاني»:
- أمي، اسمحي لي أن أقدم لك السيد «فينسينزيو فلوريو»، لقد وقعنا لتونا عقدًا لتوريد الكبريت مع السيد «فلوريو»، بموجبه سيتولى السيد «فلوريو» تزويدنا بكل ما نحتاجه من الكبريت الخام. سيد «فلوريو»، هذه أمي السيدة «أنطونيا».
- حياها «فينسينزيو» تحية رسمية:
- سيدتي.
- ثم حول نظره، حيث رأى وميضًا من الضوء يشع بنوره إلى جوارها؛ وميض يخطف الأبصار من جماله وجاذبيته، أشار برصانة وسأل:
- ومن تكون؟
- في البداية لم يفهم «جيوفاني» معنى السؤال، أو عما يسأل «فينسينزيو»، حتى التقت «جيوفاني» إلى حيث أشار «فينسينزيو»، ليرى شقيقته الكبرى تقف على عتبة الباب، ففي العادة لا يلتقت إليها أحد:
- إنها شقيقتي «جيوليا».
- التقت الفتاة عندما سمعت اسمها، فبالنسبة لبيت يديره رجال يعملون في مجال التجارة، ولا يتحدثون في العادة سوى عن البضائع والحسابات، لا يكون لها مكان في الغالب.
- نعم، أنت، تعالي إلى هنا.
- مد يده وأشار إليها، فانضمت إليهم.
- إنها شقيقتي الكبرى؛ «جيوليا».
- أدار «جيوفاني» رأسه، وقال:
- أقدم لك السيد «فينسينزيو فلوريو».
- رمقها «فينسينزيو» بنظرة سريعة، ثم عاد لينظر لأخيها:
- أحمقًا! ما كان لي أن أتصور أبدًا أنك شقيقته الكبرى.
- أكبر منه بعامين فقط، ليسا كافيين لأصبح أمًا له.
- ولكن لتكرهيه؛ كونه هو الصبي والأصغر منك عمرًا.
- ضحك «جيوفاني» وأكمل:
- ولأنني المفضل عند أمي.
- قالت «أنطونيا»:
- لا أفضل أحدًا على الآخر.

- وسحبت ابنتها من إبطها، وأبعدتها بلطف عن الرجلين.
- لطالما كانت "جيوليا" عنيدة، وشقيقتها جريئاً ومتهوراً، لم تكن تربية طفلين مثلهما بالأمر الهين.
- ظل "فينسينزيو" يحملق في "جيوليا":
- بالطبع، ولكنه أمر ممتع.
- تفحصت الفتاة أصابعها للحظة وقالت:
- لكننا كنا سعداء، وهذا هو كل ما كنت أرغب فيه.
- رفعت "جيوليا" رأسها ورمقته بنظرة حنونة:
- فذكريات الطفولة الجميلة أجمل هدية يمكن أن يقدمها الوالدان لأبنائهما عندما يكبران.
- بعد أن غادرت السيدتان الغرفة، شعرت "جيوليا" بشعور حلو مرّ ببطء. نظرت للخلف في الوقت الذي سبقتها أمها فيه للمطبخ. قالت "أنطونيا":
- ألا ترين أن السيد "فينسينزيو فلوريو" شخص غريب الأطوار بعض الشيء؟ فهو شاب صغير ولكنه شديد الثراء، لقد أخبرني أبوك أنه ذائع الصيت في جميع أنحاء "باليرمو" كأنه أحد المتمردين، يقول الناس إنه صنع ثروة ضخمة بسبب شراء الأراضي من الأرستقراطيين والنبلاء المتعثرين بأسعار زهيدة، والبعض الآخر يقول إنه كون ثروته من وراء إقراض الأموال مقابل فوائد باهظة.
- إن أبي لا يقيم علاقات تجارية مع أشخاص سيئي السمعة بالتأكيد.
- العمل والتجارة شأن من شئون الرجال يا ابنتي، وهي تتبع قواعد غريبة ليس من السهل علينا أن نفهمها.
- فجأة باغتت "أنطونيا" نوبة من السعال المستمر، أجبرتها على الجلوس؛ إنه الشتاء، على الرغم من كونه غير قارس هنا في صقلية، لكنه أصعب فصول السنة وأشدّها وطأةً على الأشخاص الذين يعانون من حساسية الصدر مثل «أنطونيا». وفتت «جيوليا» على الفور إلى جانبها:
- هل أنت بخير يا أمي؟
- هرع والدها إلى المطبخ عندما سمع صوت سعالها من الردهة وقال:
- "أنطونيا"، ماذا أصابك؟
- دعت السيدة صدرها لتطمئنه:
- أنا بخير، اطمئن.
- وربنت على وجه زوجها القلق لتطمئنه:
- منذ أن جئت إلى "باليرمو" وأنا أشعر بتحسن كبير، لقد كان الطبيب صادقاً، فالجو اللطيف جيد ومفيد.
- تتهد "توماسو بورتالوبي" وهمس في أذنها:
- طلبت من السيد "فلوريو" أن يبقى معنا على العشاء، فهو رجل ذو معارف كثيرة، شديد الثراء، ومشهور في المدينة، ونحن بحاجة لخدماته، ولكن إن كنت تشعرين أنك لست على ما يرام، فلا بأس، نؤجل الأمر.
- وضعت "جيوليا" يدها على ذراعه:
- لا تقلق يا أبي، سأتولى أمر كل شيء بمعاونة "أنطونيا"، فهي لم تغادر حتى الآن، أليس كذلك؟
- كست تعبيرات الندم وجه أبيها:
- أنا خائف، ففي الغالب ستضطرين إلى القيام بكل شيء بمفردك.

قبل والدها جبهتها:

- أعلم أنكِ قادرة على فعل المعجزات، لذا قومي بهذا.
تتهدت "جيوليا"؛ متى يجب أن تتعلم أن تبقى صامتة؟ لطالما فعلت كل ما في وسعها كي تبدو حنونة تجاه الجميع، لكن لطفها وعطفها كانا دوماً مصدر إزعاج لها.
توقفت أمها عن السعال وتشبثت بذراعها كي تتمكن من الوقوف. توجهت السيدتان نحو المطبخ.
تركت "أنطونيا" نفسها لتسقط على الكرسي وبدأت تنتهد.
ارتدت "جيوليا" ميدعة المطبخ وفتحت درف المطبخ، وبقيت تفكر بعض الشيء عما تُحضره من طعام للعشاء يليق بهذا الضيف المهم:

ماذا يمكن أن يحب؛ شيئاً قوي المذاق أم شيئاً جديداً؟ ولكن ماذا؟
تحركت بسرعة، وبدأت تبحث بين الجرار والأوعية داخل حجرة المون.
لاحظت وجود مقلاة بها بعض مما تبقى من يخنة الأمس.

توقفت عن البحث؛ الخينة، ما من أحد لا يحب الخينة، وهي عبارة عن فتات خبز، وبيض، وبعض التوابل، نعم. أوراق الملفوف الأبيض بدلاً من كرنب السلطة... لا يهم. ولا يوجد مرتديلا الكبد، فهذا الصنف على وجه الخصوص غير موجود هنا في «باليرمو». الناس هنا لا يعرفون ما هو، سوف تستبدله بقطع من السلامي الرقيقة...

راقبتها «أنطونيا» وهي تصنع كرات اللحم، فابنتها «جيوليا» ماهرة في الطهي. شعرت بذنب غامض بعض الشيء ناحية ابنتها؛ لقد تجاوزت العشرين من عمرها ولم تنزوج حتى الآن ولم تؤسس أسرة ولم تتجب أبناء، هذا بالإضافة لما تعانيه - «أنطونيا» - من مشاكل في الصدر، والتي تتطلب متابعة دائمة لحالتها الصحية حتى يتم شفاؤها، وكان تركها لمدينة «ميلانو» وتحقيق الأمان الاقتصادي للأسرة وبيتهم الجميل بالقرب من «نافيجيل» أمراً صعباً على الجميع، وكل هذا بسببها هي، فحالتها الصحية ساءت للحد الذي ما عاد من الممكن أن تتحمل مع مرضها برد وضباب «ميلان»، فهي في حاجة للضوء والشمس المشرقة كي تبقى على قيد الحياة.

تشعر «أنطونيا» بالذنب، لأنها - ودون قصد منها - قلبت حياة كل فرد من أفراد أسرته رأساً على عقب، واضطرتهم للانتقال إلى هذه المدينة الجميلة والصعبة في الوقت ذاته، حيث يحيا الفقر جنباً إلى جنب مع ثراء الأرسقراطيين الفاحش القاطنين في الساحات والميادين المبنية على الطراز الأوروبي. هي الأخرى تفتقد مدينة «ميلان» وجوها الهادئ، وشوارعها الممتلئة بالمحال التجارية والمباني ذات الطراز العظيم الموجودة في وسط المدينة، ورائحة المدينة، حتى ندى الصباح الذي يغطي الحواف الرقيقة، وليس الفخامة المفرطة في «باليرمو»، لكن جرت الأمور على هذا النحو، وأصبح على أولادها أن يتأقلموا مع الوضع الجديد.

من الطبيعي أن تبقى «جيوليا» طوال الوقت في البيت بجوار أمها وألا تخرج للترفيه، لأن «جيو فاني» مشغول طوال الوقت مع أبيها في العمل، وليس هناك من أحد ليعتني بها، ولكن أليس هذا ما يحدث للفتيات اللاتي فاتهن قطار الزواج؛ أن يرعين والديهن الطاعنين في السن والمرضى؟

هذا بالإضافة إلى المشاكل المتعددة التي تواجه كل من يحاول أن يبدأ العمل هنا في «باليرمو»؛ القليل من المعارف والكثير من التشكك، لأن العمل داخل «باليرمو» أشبه بالدائرة المغلقة التي لا يمتلك مفاتيحها وسبلها سوى هؤلاء الذين يعرفونها جيداً والممسكون بزمام الأمور فيها، ولهذا السبب دعا زوجها هذا الرجل لتناول العشاء معهم.

على العشاء، بدا "فينسينزيو" شخصًا ودودًا ومرحًا رغم قلة حديثه، فتحدث في الغالب عن العمل والتجارة مع السيد «توماسو» وولده «جيوفاني»، وفجأة وجه حديثه لـ«جيوليا»:

- أفهم من ذلك أنك أنت من توليت تحضير العشاء.

أخذت الفتاة من هذا السؤال المباشر المباغت:

- أتمنى أن يكون قد أعجبك!

ابتسم برقة، وقال:

- إنه رائع، ليس من السهل تنظيم عشاء فاخر ولذيذ في هذا الوقت القصير، فهذا أمر قد يربك العديد من النساء، فأمي على سبيل المثال... نحمد الله أن لدينا طبًاخًا يتولى هذه الأمور.

نظرت «جيوليا» للأسفل من شدة الخجل، وشكرته على إطرائه بابتسامة جميلة.

استمرت «جيوليا» في التبسم، ولكن ابتسامتها كانت مختلفة هذه المرة؛ تلك التي تنطلق عند الشعور بالقلق. لقد بقي «فلوريو» يراقبها طوال المساء ويختلس النظر إليها بسرعة، لم تتعدَّ نظراته حدود الأدب والاحترام، ولكنه كان يبالح، ويتوقف في الوقت المناسب قبل أن تقسر نظراته على أنها شيء معيب.

لم يكن عالم الرجال غريبًا على «جيوليا»، فهي تعيش فيه طوال الوقت، وتعلمت منذ أن صارت فتاة راشدة أن تحتفظ بمسافة مناسبة بينها وبين معارف أبيها وأصدقاء أخيها، ولكنها الآن مرتبكة، لأنه لم ينظر إليها أي شخص بهذه الطريقة من قبل... ظلت تتقلب في فراشها طوال الليل.

على الجانب الآخر من الجدار، بعد غرفة نوم «جيوفاني»، بقيت «أنطونيا بورتالوبي» تتقلب هي الأخرى في فراشها محاولة النوم دون جدوى، فالتفكير يؤرقها ويفلق نومها.

كانت تفكر في ضيفهم؛ كانت تصرفاته راقية ومهذبة وأخلاقه طيبة، ولكنه جعلها تشعر بعدم الارتياح حتى هذه اللحظة، بقيت تتأرجح بين النوم واليقظة، ولا تستطيع أن تحدد سبب شعورها بعدم الارتياح لهذا الرجل، وتشاركت مع زوجها مخاوفها بشأن السيد «فلوريو»، لكن «توماسو» لم يفعل شيئًا سوى أن هز كتفه ولم يُعزِّ مخاوفها أي اهتمام حقيقي، لأنها محض أحاسيس وليست وقائع.

- ليس هناك شيء غريب في تصرفاته، ففي النهاية «جيوليا» فتاة شديدة الجمال والجاذبية، ومن الطبيعي أن ينجذب إليها الرجال. إن بدأ في الاهتمام بها، فسيكون هذا أمرًا جيدًا بالنسبة لنا، وبفضلها قد نحصل على توريدات أفضل، هذا بالإضافة إلى أن «جيوليا» تعلم أن عليها أن ترعاه.

هواء البحر العليل الدافئ ينساب في دفقات بطيئة داخل الحارات، متسللاً داخل المنازل عبر الفتحات الموجودة في عضائد النوافذ والأبواب.

أوشك ضوء النهار أن يبرغ، و«فينسينزيو» ما زال في مكتبه في ضاحية «فيا دي ماتيريسي». أصبحت غرفة مكتبه صغيرة، وسوف يعمل على تأجير شقة جديدة ويحولها مقرًا لشركته، بالطريقة نفسها التي اتبعها «بن إنجهام».

إن التفكير في مغادرة هذا المكان له توابعه المتشابكة مع خريطة منجم الكبريت الخاص بالبارون «موريلو» المبسوطة أمامه.

تذكر كيف كان يقف بجوار هذا المكتب ولكن مع عمه «إجنازيو» الذي كان يجلس خلفه، وتذكر أنه رأى رجلًا يحتضن قبعته في يده ويجلس أمامه وقد بدت عليه علامات الفقر الشديد قائلاً:

- لا فائدة من هذا الحديث يا سيد «فلوريو»، فإنني لا أستطيع تسديد الكمبيالات التي وقعتها.

تنهد «إجنازيو»:

- ماذا عليّ أن أفعل غير ذلك يا سيد "سافريو"؟ لقد قمت بالفعل بمد فترة السداد، ولا يمكننا الاستمرار هكذا، أنت تعلم ذلك.

هز الرجل الآخر رأسه:

- لقد حضرت من "أجريجتو" خصيصًا لهذا السبب، فأنا أمتلك كمية كبيرة من الكبريت التي لا يمكنني بيعها، لأنني لا أمتلك أية وسيلة لنقلها عبر البحر، وأعرف من يمكنه القيام بذلك.

- ولم لا؟

- لأنهم يعرفون أنني لا أمتلك المال الكافي لكي أدفع لهم أجورهم.

- وكيف حصلت على الكبريت؟ ليس من السهل الحصول عليه.

فتح الرجل الآخر ذراعيه:

- إن الأرض التي ظهر بها الكبريت ملك لزوجتي، والكبريت موجود فيها بوفرة ويظهر على أعماق بسيطة، لدرجة أنك لو حفرت بكعب حذائك سيظهر أمامك على الفور، وهو ما يجعل الأرض غير صالحة للزراعة، لأن الماعز لو أكلت العشب الموجود هناك ستموت بسبب التسمم على الفور.

- هل الكبريت عالي الجودة؟

- بالتأكيد يا سيدي، إنه نوع نقي وعالي الجودة وقليل الشوائب. أصدقك القول يا سيدي، إنك إن رأيتَه ستشعر أنه قد اقتطع للتو من الجحيم.

ضم الرجل كفيّه معًا وتوسل إليه:

- أرجوك يا سيدي، أتوسل إليك ألا تقدم الكمبيالات للقاضي، لأنك لو قدمتها للمحكمة، سيتم سجنني.

تبادل ابن الأخ وعمه النظرات، وفكرا على الفور في شريكهما الفرنسي.

قال "فينسينزيو":

- سوف آتي وألقي نظرة على هذا الكبريت، إن كان جيدًا كما تدعي، سوف آخذه وأمزق الكمبيالات أمامك على الفور.

وهذا ما حدث بالفعل؛ قام "فينسينزيو" وعمه "إجنازيو" بإرسال شحنات من الكبريت لـ "مارسيلا" تعادل قيمة الكمبيالات المستحقة على الرجل ثلاث مرات، وبعد وفاة عمه، اشترى "فينسينزيو" هذه الأرض.

ومنذ ذلك الحين، أصبحت تجارة الكبريت واحدة من أهم الموارد في ميزانية "كازا فلوريو".

شردت به الأفكار وتداخلت في مخيلته مع بعضها بعضًا، وظل يفكر لبعض الوقت ويتأمل ويدير خاتم عمه «إجنازيو» في يده.

كان يفكر في عمه، وأمه، ويتساءل بينه وبين نفسه متعجبًا من إصرار أمه أن تجد له زوجة من بنات إحدى العائلات النبيلة بشرط أن تكون صغيرة السن وبالكاد أنهت مرحلة الطفولة، وتتنسب لعائلة نبيلة يتزوج فيها في العادة ابن العم من ابنة عمه أو ابنة خالته، ليحافظوا على الدم الملكي النقي ونسبهم الشريف غير المختلط بدم العامة، والذين - رغم ذلك - لم يُسمع أن أحدًا منهم قد لمع نجمه في مجال ما، أو تميز بالذكاء ولا حتى بالجمال.

- إن دماءهم عفنة كالآثاث الذي يجلسون عليه!

قالها «فينسينزيو».

استمر «فينسينزيو» غارقًا في أفكاره، لدرجة أنه لم يلاحظ وصول الموظفين للمكتب، ولا حتى «رافاييل» ابن عمته الذي لم يصل للمكتب وحسب، بل ويقف إلى جواره دون أن يشعر.

استفاق «فينسينزيو» فجأة ونظر إلى ابن عمته، الذي يقف إلى جواره منتظراً كي يذكره بشراء الأرض التي طلبها على ساحل «مارسيلا»، ليؤسس عليها مصنعاً ومخزناً للنبيد. بسط «رافاييل» خريطة ساحل «مارسيلا» القريب من منجم الكبريت بهدوء على المكتب أمام ابن خاله، لكي يحدد «فينسينزيو» بالضبط المكان الذي سيبنى عليه مصنع النبيد. قضى «فينسينزيو» وقتاً طويلاً في التفكير ودراسة الخريطة بنأً:

- في الواقع أنا بحاجة لقطعة أرض تقع مباشرةً أمام البحر، لأن الطرق هناك ضيقة ولا تسمح بمرور الشاحنات أو العربات الضخمة، وأنا بالطبع لا أريد أن أنفق أموالاً طائلة على استئجار العربات الكارو والحمالين، بل أريد أن تُنقل براميل النبيد مباشرةً من المخازن والمصنع إلى سفن الشحن الراسية في الميناء، ليتم شحنها مباشرة إلى الخارج. وفجأةً أشار لمنطقة بعينها على الخريطة وقال:

- هنا؛ سوف أبنى المصنع هنا، في المنطقة الواقعة بين مصانع «إنجهام» و«وود هاوس»، هذا المكان هو أكثر الأماكن ملاءمةً من وجهة نظري لبناء المصنع.

بحث «رافاييل» في دفتره ليتعرف على المنطقة التي أشار إليها «فينسينزيو»:

- أعني منطقة «كونترا إنفيرنو»؟ إن المنطقة التي أشرت إليها تتألف من قطعتين من الأرض تقعان خلف تلة طبيعية، يبيع أصحابها القطعة مقابل ستين أونشي، هذا بالإضافة إلى ضريبة يتم سدادها للبارون «سبانو»...

- ما هذا الهراء؟! فلنستحوذ عليها على الفور، وإذا طلبوا منك المزيد فلتعطيهم، لأن هناك اهتماماً كبيراً بنبيد «مارسيلا» في الوقت الراهن، ونحن لا نريد أن نضيع هذه الفرصة الذهبية لبناء مصنع ومخزن للنبيد في هذه المنطقة. فلننتظر ونرى، أنا أتوقع أن ترتفع أسعار الأراضي في هذه المنطقة بشكل كبير.

في تلك اللحظة، حضر إلى المتجر «جيوفاني بورتالوبي». حياه «رافاييل» وصافحه، بينما هز له «فينسينزيو» رأسه، وأشار له بالجلوس على أحد الكراسي.

- «بورتالوبي»، ما الذي يمكنني أن أقدمه لك؟

وضع «جيوفاني» قبعته على فخذه:

- إن الكبريت الذي زودتنا به حقق نجاحاً كبيراً مع عملائنا، ووالدي يرغب في شراء المزيد. وضع «فينسينزيو» ذقنه بين يديه:

- دعني أطلع على الكميات المتاحة والأسعار كي نناقشها.

تحدث «جيوفاني»، وترك «فينسينزيو» «رافاييل» ليرد عليه ويرتب معه الأمور، وفي النهاية توصل الرجلان لاتفاق سريع. بعد ذلك نظر «جيوفاني» لـ«فينسينزيو» وتساءل:

- هذا يعني أنه بعد أسبوع من الآن، سوف أنتظر منك إما أن تخبرني بأخر الأخبار الخاصة بتوفير الكمية المطلوبة من الكبريت أو لا، أليس كذلك؟

- بالتأكيد.

نهض «فينسينزيو» من مكانه، وسأل «جيوفاني»:

- بما أنك جديد هنا في المدينة، أردت أن أقترح عليك شيئاً؛ هل سبق لك أن ذهبت إلى مسرح «كارولينو»؟ إنه ليس ببعيد عن كنيسة «سان كاتالدو دي سانتا كاترينا» القريبة من «كواترو كانتى».

حرق «جيوفاني» فيه بعينه المرتبكتين:

- في الحقيقة لا، لم يسبق لي الذهاب إلى هناك، في الواقع...
- هناك عرض مسرحي جديد سيقام خلال بضعة أيام، وأنا أملك مقصورة صغيرة في المسرح، ويسرني أن أدعوك أنت وأختك بالطبع لحضور العرض الجديد.
صحيح أن "جيوفاني" شعر بالارتباك ولكنه ليس أحق، وفهم على الفور ما يشير إليه "فينسينزيو":
- أنا متأكد أن "جيوليا" ستكون في غاية السعادة، وسوف نتقابل هناك في أسرع وقت ممكن.
بمجرد خروجه من المكتب، صاح "رافاييل":
- عزيزي "فينسينزيو"، إنني ابن عمك العزيزة "ماتيا"، ومع ذلك لم يسبق لك أن دعوتني للذهاب معك إلى المسرح!

تحدث "رافاييل" بطريقة ساخرة وماكرة، انخرط بعدها الاثنان في الضحك.
- أنا لا أمانع في أن تحضر معي للمسرح يا عزيزي "رافاييل"، شريطة أن يكون لك ثدي! لكن لسوء الحظ أنت بلا ثدي. والآن، هيا بنا إلى الغرفة التجارية.
ما زال الشعور الذي يمتلكه ناحية "جيوليا" عندما رآها لأول مرة في بيت "بورتالوبي" كما هو، فهو منجذب إليها بشدة، ويرى أن "جيوليا بورتالوبي" هي الماء الذي سيطفئ لهيب روحه المضطربة.
بعد انتهاء العرض المسرحي في مسرح "كارولينو"، حاول "فينسينزيو" أن يخلق مناسبات أخرى كي يراها، والأمر لم يكن صعباً؛ فأخوها "جيوفاني"، كما هو واضح، شاب منفتح وعملي ومرن، تجمع شخصيته بين العقلية العملية والميل القوي للمتعة الدنيوية، وبالطبع لم يفت "فينسينزيو" أن يكافئه على إقناعه لـ "جيوليا" بالحضور، فقدمه لأعضاء الغرفة التجارية في "باليرمو"، ونصحته بالاستعانة بقبطان متمرس يعرفه "فينسينزيو" شخصياً، ليتولى الإبحار ببضائعهم على سفينة هو شريك فيها.

أما "جيوفاني"، فكان لا يتورع عن اصطحاب أخته في جميع المناسبات، وليس المناسبات التي تجمعهم بـ "فينسينزيو" فحسب، فعلى سبيل المثال، كان يصطحبها معه عند حضوره حفلات العشاء التي كان يُدعى إليها في بيوت التجار بحجة أنه غير متزوج، معللاً تصرفه هذا بأن أخته لم تتعرف على "باليرمو" بشكل جيد، وما زالت بلا أصدقاء، وليس لديها فرص للاندماج مع الآخرين خارج إطار العائلة. وكان لا يخجل في أن يصفها بلباقة أمام الناس بالعانس البائسة. لكن انطباع "فينسينزيو" عنها مختلف تماماً، فهو خبير في كل شيء حتى في شخصيات النساء، وأدرك على الفور طبيعة "جيوليا" الحقيقية، وبأنها امرأة مميزة وأنها أدكى بكثير من أخيها المدعي هذا.
كان ينتابه في بعض الأحيان شعور مؤكد أن "جيوفاني" شخص حقير وبلا شرف، لأنه عملياً يُلقى بأخته بين ذراعيه ويتاجر بها معه ومع غيره، والدليل هو أن هذا الشاب صاحب اللكنة الأجنبية لم يتردد في أن يجلسهما بجوار بعضهما بعضاً في المسرح، لدرجة أن "جيوليا" في بعض الأحيان كانت تستنكر تصرفاته الحمقاء هذه، وإهانته واستخفافه بها واستغلاله لها بهذه الطريقة المهينة. إن التفكير، مجرد التفكير في هذه التصرفات الشاذة لـ "جيوفاني" يجعله يضحك بسخرية وبخبت، فـ "جيوفاني" يعتقد أنه بهذه التصرفات الضحلة يستطيع أن يخدع "فينسينزيو"، ويستغل شغفه بشقيقته لمصلحته لكي يحصل منه على المزيد من المكاسب، مستغلاً في ذلك أخته لتغريه وتسحبه إلى دائرة "بورتالوبي".

بالطبع هي إستراتيجية حمقاء لا يجوز أن تطبق مع رجل بحنكة وذكاء وخبرة "فينسينزيو"، خاصة وأنه غير مهتم بمغازلة "جيوليا"، ولكن هناك خطط أخرى يعدها في رأسه، فهو يراها امرأة مثيرة.

والحقيقة أن ما يجذبه نحوها ليس جمالها، بل هو شيء آخر نادر لم يره في أي امرأة التقى بها من قبل، ألا وهو سلوكياتها العجيبة والعفوية. على سبيل المثال، فهي لا تنظر إلى الأرض أبدًا كي تتظاهر بالحياء والأدب عندما يتحدث إليها أي شخص، ولا تهمهم بتلاوة الصلوات على كل شيء تقريبًا كما تفعل غالبية النساء، ولا تتأى بنفسها عندما يتحدث الرجال في الأعمال التجارية، كما كانت تفعل أمه دومًا، بل على العكس، تتابع المناقشات والحوارات الدائرة بانتباه وشغف، وهذا شيء يقلقه، إنها امرأة تعرف قيمة وأهمية المال وتقدره، وتريد أن تعرف كيفية الحصول عليه، وكيف يملكها الغضب عندما تشعر بالجبن عندما تريد أن تقول شيئًا وترغم على الصمت. وفي بعض الأحيان، يشعر أن وجوده شخصيًا يشعرها بالتوتر وعدم الراحة بشكل عام. هذا أفضل بكثير.

لم يكن هناك وجود حقيقي لأي امرأة في حياة "فينسينزيو" منذ أن وقع في غرام النبيلة "إيزابيلا بيليتيري"، وانتهت قصة الحب التعيسة بمشهد ساحة "بيانو سان جياكومو" الشهير، الذي تلقى فيه "فينسينزيو" أكبر إهانة في حياته، اللهم إلا تلك النسوة اللاتي يرحبن به بين أذرعهن، إما للحصول على المتعة أو على المال، وهذا النوع من النسوة بالنسبة له مجرد أجساد بلا ملامح؛ صور بلا روح وبلا ذكريات. وحتى تلك اللحظة؛ لحظة انهماك أمه وبحثها الدائم عن زوجة مناسبة له تنتمي للطبقة الأرستقراطية، ذات حسب ونسب ومال وجمال وشرف، لم يئز الأمر بداخله أي رغبة أو فضول فطري لمعرفة ماهية العروس المحظوظة، التي وقع عليها اختيار أمه كي تكون زوجة له وأمًا لوريث إمبراطورية "فلوريو" المتنامية. كل ما يتخيله بهذا الشأن هو أنه يرى نفسه وهو يسير بفخر متوجهًا نحو أحد بيوت الأرستقراطيين ليخطبها، هو لا يعنيه كثيرًا التفاصيل، ولا يدري أهو حقًا يبحث عن زوجة أرستقراطية سعيًا وراء لقب اجتماعي كجزء من مهرها، يضيف على إمبراطوريته المالية الواجهة الاجتماعية المطلوبة، ويمسح به من ذاكرة الناس ماضيًا مرييرًا كان يُنظر له فيه ولعائلته أنهم مهما بلغوا من جاه سيظلون في أعين الناس مجرد بائعين وعمالًا أم لا؟

ولكن ها هي "جيوليا بورتالوبي" تقفز فجأة إلى داخل حياته وتربك كل حساباته، فهو لا يستطيع أن ينكر أنه منجذب بكل كيانه ومشاعره إليها، وأن ما قبل "جيوليا" لا يشبه ما بعدها؛ هو ليس منجذبًا لجمالها، فإنها في الواقع ليست شديدة الجمال كـ "إيزابيلا" على سبيل المثال، لكنها تستثير بشفتيها الخجولتين الممثلتين، وقبضتها المطبقة، وعينيها المعبرتين اللتين تتقلان كل ما يدور بداخلها وما يسيطر عليها من مشاعر مثل الازدراء، والإخلاص، واللوم، والمفاجأة، أو ببساطة الاهتمام، رغبة جامحة بداخله. فهي إنسانة واضحة، على النقيض من أخيها الأحمق الذي يحاول أن يظهر خلاف ذلك، لكنه في الحقيقة غبي. بقي "فينسينزيو" يلهو بتلك الأفكار وهو في طريقه للمنزل، ويدها في جيبيه، وعيناه تحدقان في صفحة السماء لكي تبحث عن النجوم الأولى للمساء.

بمجرد وصوله للبيت، تولت الخادمة مهمة تعليق قبعته ومعطفه، وأخبرته أن العشاء سيكون جاهزًا خلال وقت قصير. في الردهة، كانت تجلس أمه مشغولة بحياسة القطع الموجود في ملابسه. قبلها "فينسينزيو" وهو يسألها:

- هل تحيكن الملابس يا أمي؟

- حسنًا، قلبي لا يطاوعني أن أتركك تخرج بقمصانك وهي بهذه الحالة، فقررت أن أصلحها، وهل أستطيع؟ بجانب أن تلك الفتيات اللاتي قمت بتعيينهن لا يحكّن الملابس بشكل جيد.

أبعدت "جيوسينا" الملابس عن وجهها، إذ بدأت عيناها تؤلمانها، ولم تعد تستطيع أن ترى كما في الماضي.

- لقد كن يخدمن في البيوت الأرستقراطية يا أمي، وهن يحكن الملابس بشكل جيد، أنتِ فقط تبحثين عن أي شيء لتشتكي منه.

- الخادمت والفتيات في هذه الأيام لا يُجذُن أعمال المنزل، وليس لديهن أدنى فكرة عن العناية بالمنزل وأعبائه. لقد كنت أدعك سريري المصنوع من النحاس بالرمل عندما كنت في الخامسة عشرة من عمري، ولم أشتك ولم أهتم بالشقوق في يدي، مثلما تفعل تلك الفتيات. صدّق "فينسينزيو" على كلامها، وألقى بنفسه على أحد الكراسي ليستريح وأغلق عينيه، وفجأة، تخيل أمام عينيه يدين رقيقتين صغيرتين، وهما تصنعان بمهارة كرات اللحم الميلانية ذات الاسم الغريب والمذاق الرائع والنكهة القوية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقف "جيو فاني بورتالوبي" خارج المقصورة المملوكة لـ "فينسينزيو" في مسرح "تياترو كارولينو"، وبجواره أخته "جيوليا" تروّح على نفسها بالمروحة.

كان مشهد المسرح معبراً عن الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في "باليرمو"، فالكل موجود هناك؛ الكل حقاً، المسرح يعج بكل طبقات المجتمع من العامة والدهماء وحتى بالأرستقراطيين والنبلاء. مزيج كبير من البشر من كل الطبقات الاجتماعية المتناقضة التي تسكن "باليرمو". البعض يتناول الطعام، والبعض الآخر يقرأ لأحد الجدر الكف، والبعض يبيع الماء. قالت "جيوليا":

- ما كان لك أن تقبل دعوة دون "فلوريو" قبل أن تخبرني أولاً وتسالني إذا كنت أرغب في الذهاب أم لا، أنت دوماً تتجاهل رغباتي وأنا أكره هذا. غطت "جيوليا" أنفها بمنديل:

- الجو حار هنا والرائحة مقرزة، وأصبح وجودنا بالداخل غير محتمل.
- يا إلهي! ماذا دهالك اليوم؟ الكل يتسبب في شعورك بالضيق! إن المرة الأولى التي حضرت فيها إلى هنا بصحبة السيد "فلوريو" كنت لطيفة ومجاملة أكثر من هذا.
ظل "جيو فاني" يحدق في الجموع الغفيرة بحثاً عن "فينسينزيو":
- أنا متعجب! أين هو؟ العرض على وشك البدء.
أغلقت الفتاة مروحتها، ليست الحرارة ولا رائحة العرق ما يضايقها، بل تصرفات أخيها الحمقاء.
- بالضبط.

ولكن الذي يضايقها أكثر هو نظرات "فلوريو" الغريبة لها.
- عليك أن تكوني ممتنة أن شاباً بهذا الثراء يغازلك ويهتم بك، وأنتِ كما تعرفين لم تعودتي صغيرة، فأنتِ في الرابعة والعشرين، وأي فتاة في سنك تعتبر محظوظة أنها ما زالت تسترعي اهتمام رجل في مثل مكانته وثرائه، عليك أن تكوني ممتنة لذلك. وعندما نكون معه، عليك أن تشجعيه على مغازلتك أكثر، ليس أكثر مما ينبغي بالطبع، ولكن في حدود الأدب واللياقة، فهو رجل في متوسط العمر، وشخصية ممتازة وناجحة، وأبي سعيد بالتعامل معه.
أنتِ إجابة "جيوليا" ممتزجة بالغضب والإهانة:

- أنا أشعر بالخزي والعار لك! فأنا يا أخي العزيز لست شحنة من الكبريت، وليس لدي أي رغبة في دعم خطتك المجنونة، وإذا سمع أبي بهذه المحادثة سيغضب منك بشدة، وبالنسبة لي، فكوني قررت أن أضحي بنفسني ومستقبلي في أصبح زوجة وأماً وصاحبة بيت وحياة مستقلة، فلأنني كنت مشغولة

برعاية أمي، أم نسيت هذا الأمر؟ إضافة إلى أنني لا أحب صديقك الجديد هذا، إنه مرتشٍ وطماع وينظر للناس باعتبارهم سلعةً تباع وتشتري، ولكننا لسنا بضائع، فنحن بشر.

- هل أنت متأكدة مما تقولينه؟

أشار "جيوفاني" لامرأة ترتدي ثوبًا مصنوعًا من الحرير الصيني الملون، وتنتظر خارج المقصورة، وترتدي مدلاة حداد حول عنقها.

- انظري إلى هذه السيدة الواقفة هناك؛ إنها الدوقة "ألساندرا سبادافور"، أرملة، هجرها زوجها وتركها مفلسة بين ليلة وضحاها. رهنت مجوهرات عائلتها كي تسدد الديون المستحقة عليه لـ "إنجهام"، فعرض عليها أن تصبح عشيقته مقابل سداد ديونهم، فوافقت في نهاية المطاف أن تصبح عشيقته كي تخلص أبناءها من الفقر والحاجة.

- ماذا؟ ما الذي تعنيه بهذا الكلام؟

بدا "جيوفاني" مستمتعًا بتعبيراتها المصدومة:

- الحقيقة يا أختي العزيزة أن لكل شخص ثمنًا، حتى أنت؛ "جيوليا بورتالوبي" التي تتمنى أن تمضي بقية عمرها في قراءة الروايات الفرنسية، لكِ ثمن.

وفجأة، انتبه الاثنان لوجود "فينسينزيو" بجوارهما، يستمع بهدوء إلى ذلك الحوار الشيق الذي يدور بينهما دون أن يشعرا.

- أخيرًا ظهرت!

تصنع "جيوفاني" الابتسام عندما رأى "فينسينزيو" فجأة بجواره، ابتسامة أخفتها الأضواء الخافتة للمسرح.

- عندما تأخرت تصورت أنك ربما تكون قد غيرت رأيك، كان الوضع سيكون محررًا للغاية لو لم تحضر، خاصة أنك دعوتنا لمقصورتك.

- لقد تأخرت بسبب أمر هام في المتجر. هيا تعال.

أرشدتهما إلى السلم المؤدي إلى المقصورة، التي حصل عليها بأقل من قيمتها الحقيقية من أحد عملائه، نظير قرض لم يستطع أن يرده وفقًا للوقت المقرر، لكنه بالطبع لن يعترف بذلك علنًا. على الفور، قام "فينسينزيو" بإرشادهما لمقاعدهما، واقترب من الدرايزين.

- ما كل هذا الزحام؟! يبدو أن "باليرمو" بأسرها تحضر العرض.

- صحيح، ولكنهم سيبدوون العرض في وقت متأخر بعض الشيء، لأن هناك شجارًا دار داخل غرفة الملابس، وأحد المغنين سيقوم بدور النساء لبقية حياته.

ضحك "جيوفاني" و"فينسينزيو" بصوت عالٍ، بينما اختبأت "جيوليا" في الكرسي وغرقت في صمت رهيب. لقد صدقها "جيوفاني" هذه المرة، فهي ترغب بشدة في العودة للمنزل لتقرأ، وليس هنا؛ في هذا المكان الذي هو في الواقع أشبه بحظيرة الماشية منه للمسرح... أي متعة حقيقية هذه!

جلس "جيوفاني" على يسار أخته بينما جلس "فينسينزيو" على اليمين، وبدأ يعبث بأناملها المغطاة تحت القفاز المستندة لأذراع الكرسي، فسحبت يدها بعيدًا عنه.

سُمع صوت من المسرح وبدأت الستائر ترتفع إعلانًا عن بدء العرض. الأوبرا كَفَنٌ راقٍ، لا تخضع لأهواء ورغبات المشاهدين، فهي تعتمد على الصرخات العالية التي تجفف أصوات المغنين.

بدأت كؤوس الخمر تدور بين الحضور.

أشار "جيوفاني" للرواق وقال:

- لقد أصبح الجو غير محتمل، بدأت أشعر بالضيق، ما رأيك في أن نرحل من هنا؟
بدا "فينسينزيو" متفقاً مع "جيوفاني" في الرأي:
- أنا أيضًا أرى ذلك. هل تفضلان أن نتمشى قليلاً؟ إذا ما كانت أختك غير مرهقة، فالعربة تنتظرنني في الميدان خارج كاتدرائية "مورتورانا".
حاولت "جيوليا" أن تقول:
- أنا أفضل...
لكن "جيوفاني" لم ينصت إليها واختار أن يتجاهلها.
- رائع، دعنا نذهب، فالهواء هنا خانق.
خرج من المقصورة وترك "جيوليا" وحدها مع "فينسينزيو". لم تستطع "جيوليا" أن ترى النظرة الذكورية التي تبادلها الرجلان؛ نظرة معقدة، من رجل لرجل.
- انتظري يا "جيوفاني".
حاولت أن توقفه، ولكن أخاها كان بالفعل قد ذهب.
قدم "فينسينزيو" ذراعه ليصطحبها بدلاً من أخيها:
- هل تسمحين لي أن أصطحبك بالنيابة عن أخيك؟
شعرت "جيوليا" بالغضب الشديد، لأن أخاها قد تركها وحيدة مع شخص مثل "فلوريو"؛ رجل بالكاد تعرفه، ولا ترتاح لوجوده:
- أنا لا أفهم لماذا تركني أخي وحيدة وذهب؟ إنها عربتك أنت، وأنت من يحق له أن يطلب أن تجهز له وليس أخي.
- أنا لست خادماً مُتمكِّناً، رغم أن البعض ما زال يعتقد ذلك.
- وأخي ليس كذلك هو الآخر.
دارت "جيوليا" حول ذراع الكرسي لكي تخرج من المقصورة وسارت أمامه؛ كانت ترغب بشدة في الرحيل وكانت على وشك أن تنجح، لولا أن يد "فينسينزيو" امتدت ومنعتها عند المخرج، ووضع أصابعه على أكتافها العارية، كانت أصابعه خشنة. تعثرت "جيوليا" وتلعثمت ولكنها لم تستطع أن تتحدث. كان من المفترض في هذا الموقف أن تلتفت وتصرخ وتصفعه على وجهه جزاءً لما فعل، ولكنها لم تفعل، ليس لأنها خائفة منه ولكن لسبب آخر.
هذا التصرف شجع "فينسينزيو" على سحبها داخل أحد الأركان المظلمة بالمسرح بعيداً عن أعين المتطفلين، وغمر عنقها بالقبلات. ماذا كان شعور "جيوليا" عندما غمر "فينسينزيو" عنقها فجأة ومن دون مقدمات بوابل من القبلات، وبعد أن دفعته بالقوة لكي تبعده عنها، وعضت أسنانه على شفثيها؟
- لا، لا تفعل، أتوسل إليك ألا تفعل!
ولكن يدها ليست في قوة يده، فيداها رقيقتان ولم تستطع أن تدفعه بعيداً عنها، رغم أنها لم تكن ترغب فيما يفعله "فينسينزيو"، لقد لاحظت رغبته الشديدة في الحصول عليها، ولكنها لم تفهم لماذا يتصرف معها بهذه الطريقة الفجة، والآن لا تعرف ماذا تفعل، وهي تشعر بالخزي والخجل الشديد، لكون هذا قد بدأ رغماً عنها، وربما لدافع الرغبة تستجيب لقبلاته ومداعباته.
كان "فينسينزيو" المسيطر الحقيقي على الموقف، وقد أحكم قبضته القوية عليها، ويبدو أن ما من قوة على الأرض قادرة أن تقلتها من بين يديه إلا إذا تركها هو. فتح "فينسينزيو" فجأة ذراعيه ليحتضنها، ولكنها استغلت الفرصة ونجحت في أن تهرب منه، وتتجه بسرعة نحو الرواق الخاص بالمسرح.

- اسمحي لي.

سبقها "فينسينزيو" على السلم، بينما كان وجه "جيوليا" محتقناً، ونزلت وهي متشبثة بالدرابزين، ووصلا للعربة معاً حيث ينتظر "جيو فاني".

كانت تسير ورأسها مطأطأ من شدة الخجل، ولم تنطق بكلمة واحدة أمام أخيها، لكنها كانت تشعر وكأنها عارية ومكشوفة والعالم كله يراها ويعرف بما وقع بينهما، ومن هول الصدمة وشدة الخجل، لم تلاحظ ابتسامة أخيها هذه المرة أيضاً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اندفعت رياح "تراموناتانا" نحو الشوارع المطلة على البحر. على الجانب المقابل من ساحل "مارسيلا"، تقف مجموعة "الجزر العقادية" ككتل وأعمدة من الحديد الصلب في مواجهة السماء، وزخات الماء المالح تدنس نوافذ العربة.

هناك على ساحل "مارسيلا"، وقف "فينسينزيو" يراقب عشرات العمال وهم يعملون بجهد واجتهاد لإنهاء مشروع المصنع ومخزن النبيذ؛ البعض يبني الحوائط والجدران، والبعض الآخر يقف على السقالات التي تهتز مع كل دفقة من الرياح.

"فينسينزيو" رجل ناضج وحكيم، يعرف بالضبط ما الذي يريده ويسعى وراءه بكل عزم وقوة. استطاع أن يتخيل كيف سيكون شكل مصنع النبيذ والمخزن حتى قبل أن ينتهي. لم يكن يرغب في تأسيس مزرعة شبيهة بالعشرات من المزارع المنتشرة في جميع أنحاء الريف الصقلي، ولكنه كان يريد أن يؤسس مصنعاً كبيراً للنبيذ، يشبه المصانع البريطانية بساحة كبيرة مركزية ومخازن في كل مكان حوله.

- هل تم الانتهاء من إنشاء غرف التخزين؟

كان "رافاييل" يسير أمامه ناحية الساحة:

- تعال لترى بنفسك.

كان هناك الكثير من الطوب والبلاط وعمال البناء المنهمكين في خلط المونة والعديد من عروق الخشب، وأكوام من الحجارة التي كانت تجبرهم من أن لآخر على تغيير طريق سيرهم. وصلا الآن إلى المركز الرئيسي للمصنع الذي سيقم فيه مدير المصنع.

سار "فينسينزيو" بثقة ناحية المبنى الأول من المبنيين الجانبيين. كان النجارون منشغلين بإلقاء الدعائم الأرضية لعمل براميل تنقية النبيذ، لكنهم عندما رؤوا "فينسينزيو" وهو يمر بينهم ويراقب تطورات العمل، توقفوا على الفور وخلعوا قبعاتهم لتحيته، فأشار إليهم "فينسينزيو" بأن يستمروا في العمل، وتركهم ليستأنفوا عملهم وتوجه نحو منتصف الساحة. كان الضوء يغمر الساحة عبر الأبواب والمنافذ، وفي الأعلى سقف عالٍ جداً مرقم ذو أقواس مبنية من الرماد البركاني، ويتخلل الساحة الهواء القادم من البحر المحمل بالملح.

- سيصبح هذا مركز المصنع.

انضم إليه "رافاييل"، يعاني هو أيضاً من مشكلة عدم القدرة على اللحاق به ومتابعته، مثله مثل الآخرين.

- إن عملية شراء محصول الكروم سارت أفضل مما توقعنا، بالطبع، حصل "وود هاوس" و"إنجهام" على نصيب الأسد من المحصول، لكنني تمكنت من الحصول على كميات إضافية من نبيذ

العنب الأبيض، و"الجريلو" و"الديموشينو" المتوفرة في مدينة "علقمة". آه، وشحنة من "الكاتاراتو" لإكمال كل ما نحتاجه من الكروم، والنبيد الذي تخمر بالفعل سوف يتم نقله إلى هنا الأسبوع القادم. - هذا يعني أن كل شيء سار وفق توقعاتنا.

- نعم بالفعل، لقد تم التخطيط للأمر بشكل جيد، ولقد كنت محقاً؛ لقد ارتفعت أسعار الأراضي في هذه المنطقة بشكل دراماتيكي، وهذا ليس كل شيء، فالفلاحون قاموا بحصاد الحبوب لكي يمهدوا الأرض لزراعة كروم العنب، لأنهم يرغبون في جني المزيد من الأرباح إذا ما قاموا بزراعة هذه الأراضي الصخرية بالكروم وتوريده لمصانع النبيذ، التي بدأت في الانتشار على طول ساحل "مارسيلا".

- الكل يسعى وراء المال يا "رافاييل". على كل حال، براميل الخمر التي تحتاج لتتقىة سوف تصل الأسبوع القادم. آه، وأنا جهزت لك مذكرة مدون فيها أسماء بعض مصنعي البراميل في "باليرمو"، وأحدهم قد أبدى رغبته في نقل ورشته إلى هنا.

لمس "فينسينزيو" بيده أحد الجدران:

- عمل جيد.

وأزال التراب من يده، وأشار لـ"رافاييل" أن يتبعه، فهرول خلفه على الفور.

- لقد أبديت التزاماً كبيراً بالعمل، وبحلول سبتمبر القادم يمكن أن نوقع على الاتفاق.

- اتفاق؟ أي اتفاق تعني؟

غطت رياح الـ"ترامونتانا" على سؤال "رافاييل" المضطرب.

- اتفاق شراكة بين "رافاييل باربيرو" و"إيجازيو فلوريو".

تجمد الرجل في مكانه من هول الصدمة، فالمفاجأة كانت قوية، ووجد "فينسينزيو" نفسه مجبراً على التوقف والالتفاف ناحية "رافاييل" في هذه اللحظة.

- لا أريد شخصاً يرعى عملي وتجارتي وحسب، أريد شخصاً مثلك يشاركني في العمل والثروة والتجارة يتعامل معها وينميها كأنها ماله، بالإضافة إلى أنني ادخرت قدرًا من المال لشراء قطعة الأرض دون أن أخبرك؛ إنه نوع من أنواع الاستثمار في الطريق نفسه، ثلث لك والثلثان لي. "كازا فلوريو"، ما هو رأيك؟

عذب "رافاييل" لحيته الصغيرة التي رباها على مدار الشهور القليلة الماضية من كثرة التفكير، لأنه أدرك طبيعة "فينسينزيو" الحادة؛ إنه شخص صعب المراس وعملي، وذو خبرة كبيرة في العمل ولا يوزع الهبات والعطايا دون حساب، وهذا ما يجعله قلقاً ومترددًا بشأن الموافقة على هذا العرض المغربي والسخي. فهو يعتقد أن هناك غرضًا ما من وراء هذا العرض السخي، فـ"فينسينزيو" ليس بالأحمق، لكن العرض في النهاية عرض سخي ونادر، وسوف يجعل منه شخصاً مهمًا ومعروفًا في "مارسيلا"، لأن كل تجار "باليرمو" يعرفون عنه أنه ابن عم السيد "فلوريو" وتابعه المخلص. - حسنًا.

- كنت أعلم أنك ستوافق.

ربّت على ظهره، ثم أضاف:

- أنت تعرف أن عملية إدارة المصنع ليست بالأمر الهين، أليس كذلك؟

- بالطبع، خاصة في ظل وجود الإنجليز هنا، واعتبارهم هذا المكان ملكًا خاصًا لهم، فبالطبع لن يرغبوا في وجود كيان آخر يقاسمهم هذه الغنيمة الضخمة.

أزاح شعره من على عينيه:

- في الحقيقة، لم أتوقع أن تمنحني هذه الفرصة الكبيرة.

- لقد قلتها وأنا بلا شك أعنيها.

توجهنا معًا للمبنى الرئيسي لمصنع النبيذ.

“فينسينزيو” هنا، وهو المستقبل أيضًا؛ كانت الساحة الموجودة أمام المصنع مملوءة بالعربات والبراميل المرصوفة فوق بعضها كهرم كبير، والزجاجات المكتوب عليها اسم “فلوريو” جاهزة للاستخدام، رأى كل شيء أمامه وشعر أن حلمه سيتحقق، وسيصبح المصنع والمصدر الأول لأفضل أنواع النبيذ في صقلية.

- جودة منتجاتنا هي التي ستؤسس لنجاحنا وتوقفنا في هذا المجال، فالإنجليز ينتجون نبيذًا رخيص الثمن يباع في الغالب للجنود، والقليل من الأنواع عالية الجودة، بينما نحن سنركز على الجودة، وسنستهدف مستهلكًا مختلفًا وأسواقًا مختلفة؛ فرنسا على سبيل المثال، و”بيدمونت”.

قبل أن يهم بالرحيل ويترك “رافاييل” لمهمته الثقيلة والصعبة، وقف أمام كومة من مواد الطلاء:

- شيء آخر أريد أن أذكرك به يا “رافاييل”؛ العمال، لا تتسّ العمال، تحدث معهم وجهًا لوجه، وحاول أن تشرح لهم أن هذا المصنع ليس كأى مصنع آخر، فالعمل هنا شرف لأي إنسان، وعليهم أن يفهموا ذلك جيدًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عاد “فينسينزيو” إلى “باليرمو” في اليوم التالي. أول شيء التفت إليه كان هو وهو في عزلة العربية، أخرج من جيبه خطابًا تلقاه عبر الوسيط المشترك بينه وبين “جيوليا”؛ السيد “جوفاني” قبل أن يغادر “مارسيلا”. طريقة كتابة الخطاب أنثوية، فالخطاب مكتوب بخط رشيق وموقع بطريقة رقيقة. بدأ يقرأ الخطاب بهدوء:

“لا يمكنني قبول رسائل كالتي ترسلها لي”.

هكذا بدأت رسالتها، أما هو، فبعد أن قرأ أول سطر من الرسالة أفسح المجال لخياله، وتخيل أنها تقف أمامه وتحديثه بصوت ساخط ومرتعش ومملوء بمرارة الشعور بالعار. أكملت في رسالتها:

“لا يمكنني ذلك، لأنه ما من رابط رسمي يربط بيننا، فأنت أحد شركاء والدي في العمل، وليس لك أي شأن بي، وما كان لي أن أقرأ ما ترسله لي من رسائل، ولكنني فعلت وأفعل. إن تصرفاتك واهتمامك بي يتعدى حدود الأدب، وجزء من الخطأ يقع على عاتقي، لأنني لا أستطيع أن أمنعك أو أتجنب رغباتك التي ما زلت أجد نفسي عازفة عن الاعتراف بها، وفي الوقت ذاته لست زاهدة، وهذا لا يعني كذلك أنني فتاة منفتحة، وأؤكد لك أنني لست كذلك ولم أكن يومًا كذلك، وأن قربك مني هو مصدر توتر وإزعاج كبير لي.

أتوسل إليك! إن كنت بالفعل تكن لي مشاعر حب، لا تكتب لي رسائل تحتوي على نوعية الكلمات التي ذكرتها في خطابك الأخير، ولا تتواصل معي مرة أخرى ما لم تكن نواياك صادقة وحقيقية وشريفة، لا تستغل أدبي وتهذي، وإلا سأكون مضطرة إلى أن أخبر أبي بكل شيء، وأنا لا أريد أن تصل الأمور إلى هذا الحد. لو كانت نواياك خالصة وصادقة، ومشاعرك ناحيتي حقيقية وتطلع لعلاقة صداقة مخلص، فلا بأس بذلك”.

عند هذه الفقرة، انفجر “فينسينزيو” في نوبة من الضحك.

“ولكن لا تتعدّ الحدود، وإلا سأجد نفسي مضطرة أن أتوقف عن مراسلتك”.

التوقيع... “جيوليا”

وضع "فينسينزيو" كوعه عند باب العربية؛ لقد أدرك على الفور من خطابها أنها مرتبكة ومشوشة، فهي من ناحية ترغب فيه ولكنها في الوقت ذاته خائفة منه، وهذا الخطاب يؤكد على هذه الفكرة. ثم تساءل بينه وبين نفسه: "كم رجلاً رغب بها وأراد أن يتودد لها في الفترة الأخيرة؟ هل حاول أحدهم أن يكتشف حقيقة ما هو مخفي وراء تلك الوضعية الحادة التي تتخذها، ويدها المطبقة دائماً كنوع من أنواع الظهور بشكل قوي؟".

إن "جيوليا" ليس لديها أدنى فكرة عن معنى الرغبة والشهوة، ولم تختبرها من قبل، فإنها لا تعرف معنى الرغبة والشهوة عند المرأة ولا عند الرجل، ولهذا قرر "فينسينزيو" أنه لن يبذل جهداً في أن يستثيرها عندما يكتب لها في المرات القادمة، لن يفعل شيئاً سوى أن يخبرها عن تلك الرغبة القوية التي تثيرها بداخله، والتي تبقى مستيقظاً طوال الليل في فراشه يفكر فيها، وإلى أي مدى هو يرغب في أن يلمسها، وأن يرى خصلات شعرها وهي تتهدل على كتفيها العاريتين، سيخبرها لأنه يعلم جيداً أنها لن تخبر أحداً بذلك، ويعلم أنها ما عادت تستطيع أن تقاوم لذة الدوار الذي تشعر به عندما يقبلها، والذي أصبح متأكداً منه أنها أصبحت فريسة سهلة له؛ إنه شعور يعرفه جيداً، لأنه كان يشعر به عندما ينجح في وضع يده على بضاعة غالية، أو عندما ينجح في إتمام اتفاق معقد لصالحه بنجاح؛ كل الأمور تتشابه ما عدا شيء واحد، هو أنها ليست شحنة من السماق أو مخزناً للنبيد، لأن الشحنة في النهاية تباع ويُنتهى منها ويُنقل لشحنة جديدة... إلخ، والاتفاق نوقع عليه وننقل لغيره، ولكن الأمر بالنسبة لها مختلف، لأنه في الواقع أصبح غير قادر على الابتعاد عنها وعن الالتفات لغيرها، وأنه يكاد يفقد عقله بسبب شوقه إليها ورغبته في ضمها إليه، كنشوان ثمل.

إنه يتطلع بشدة إلى اللحظة التي يجدها معه في فراشه، اللعنة!

التقيا بعد ذلك عدة مرات، سواء في بيت "بورتالوبي"، أو في الشارع في ضاحية "كاسرو" عندما تكون بصحبة والدتها أو أخيها، لكنها تتراجع عن إبداء سعادتها برؤيته بسبب الخجل، وترمقه بنظرات فاترة حتى لا ينكشف أمرها، هذا بجانب عدد من اللقاءات الحقيقية التي جمعت بينهما، بخلاف لقائهما بالمسرح في شتاء عام 1833.

في ظهيرة يوم ما، عند الغسق، قرر "فينسينزيو" فجأة ودون سابق إنذار الذهاب لمنزل السيد "بورتالوبي"، بحجة مناقشته في بعض الأوراق والمستندات، لكنه في الحقيقة كان يريد أن يرى "جيوليا". كان "توماسو" مندهشاً بتلك الزيارة، ولم يكن يعرف ماذا يقول عندما فوجئ به أمام الباب، ولكنه في كل الأحوال رحب به وسمح له بالدخول إلى الصالون، وذهب ليحضر الإيصالات الخاصة بشحنات الكبريت من حجرة المكتب، ولأن "أنطونيتا" الخادمة عادت لمنزلها، فقد تم إرسال "جيوليا" لتقدم له عصير الليمون.

عندما رآته جالساً على الأريكة في الصالون مختبئاً في الركن شبه المظلم من الغرفة، اهتز كوب العصير والزجاجة التي كانت تحملها على صينية التقديم في يدها، وكادا أن يسقطا على الأرض بسبب الارتباك والمفاجأة. وقفت "جيوليا" ثابتة في مكانها على عتبة الغرفة بلا حراك، كانت ترتدي ثوباً نبيئاً محتشماً، وتبدو متجهمه وشفتها شبه مفتوحتين في تساؤل مكتوم، أخذ "فينسينزيو" الصينية من يديها حتى لا تسقط على الأرض، وأغلق الباب وراءها، ووضع يده على كتفيها، ثم مررها بسرعة على ذراعها، واقترب منها وقرب وجهه إلى وجهها.

- لقد كنت أبحث عنك.

في تلك اللحظة، لم تتوقف عن التحديق به، فرأى في عينيها رغبة واضحة مغلقة بنوع من الممانعة والمقاومة، ربما لأنها أرادت أن تبعد عنها ولكنها لم تستطع. رفع "فينسينزيو" يديه ونقر على شفيتها بسبابته، وداعب ذقنها الصغيرة الناعمة، وتمادى حتى أنه مر بيديه على عنقها، وأمسك بالزر العلوي لياقة ثوبها بين أصابعه وفتحه، ومنه إلى الزر الثاني. ولكن "جيوليا" أوقفته وأمسكت بمعصمه بقوة وأبعدته عنها، وهي تحاول أن تستنشق المزيد من الهواء.

- لا!

قالتها بكل قوة وعزم.

بعدها بلحظات، وصل "توماسو بورتالوبي" إلى الغرفة وطلب من ابنته أن تذهب، غادرت الغرفة وفي عينيها نظرة حادة، ويدها على عنقها، وكأنها تحاول أن تزيل آثار يده وتتأكد أن بقية الأزرار مربوطة.

عندما يتذكر "فينسينزيو" هذا المشهد، تشتعل نيران الرغبة والشوق في جسده، ويهز رأسه محاولاً أن يستوعب سبب هذه الرغبة الحميمة التي تدفعه نحو هذه المرأة وتجذبه بهذه القوة إليها، لدرجة أنه لا يستطيع أن يتوقف عن التفكير فيها ولو للحظة، محاولاً أن يقنع نفسه بأن "جيوليا" ليست فتاة صغيرة ولكنها امرأة مكتملة النضج والأثوثة، وهي غير مدركة لهذا الأمر ولا لوقعه الرهيب عليه، لأن "جيوليا" تمتلك نوعاً من الشهوانية الحسية لا يدركها سوى القليل من الناس، وهذا ما يجعلها تسبب خطراً، لأنها تتصرف بعفوية وهي غير مدركة لما تمارسه من تأثير عليه.

والآن، وقد أصبحنا على أبواب الربيع، سيصبح اليوم أطول وستدفع الشمس الشوارع الضيقة لمقاطعة "كاستيلا مار"، وسوف تتاح لـ "جيوليا" فرص أكثر للخروج وحدها بحريتها.

لكن "جيوليا" ما زالت خائفة منه وتقاومه، ومع ذلك فهو يدرك في النهاية أنها ستخضع له، لأنها في كل مرة كان يحتضنها وينظر في عينيها ويقبلها، كانت تقاومه في البداية لكنها كانت تخضع له في النهاية، وهي لا ترفض خطاباته العاطفية، على الرغم من أن الرسائل والردود التي ترسلها له تمتلئ بكلمات، في الظاهر تقول شيئاً وفي باطنها تعني شيئاً آخر مختلفاً. إن "جيوليا" التي تكتب له الردود فتاة طيبة ومن عائلة محترمة، وإنسانة خجولة تضع عينيها في الأرض وهي تتحدث مع الآخرين ولا ترحب باهتمامه الغاشم، ولكن هناك "جيوليا" أخرى بخلاف تلك المهذبة الهادئة، تظهر عندما تنظر إليه في عينيها مباشرة وتتهدد، فتجعل دمه كله يغلي ويفور، فهو يشعر حينئذ أنها تريده، ولكن ما يكبحها هو شعورها بالذنب، وعندما يكونان قريبين يشم رائحة خوفها ورغبتها معاً.

لم يلاحظ "جيو فاني بورتالوبي" أن أخته تخطت في علاقتها مع "فينسينزيو" مرحلة الطعام، وقد ارتسم العبس على وجه "فينسينزيو" استياءً منه، لأنه يستغل أخته بهذا الانحطاط والخسة كي ينال من "فينسينزيو" كل ما يريد، وهو و"جيوليا" ليسا من النوع الذي يحب أن يُستغل ويُستخدم لتحقيق غرض ما، بل على العكس؛ فـ "فينسينزيو" هو من يستغل الفرصة ويستغل تساهل "جيو فاني" معه، لأنه لأول مرة يفكر بجسده ورغباته الحسية وليس بعقله أو تحت وطأة الغضب، و"جيوليا" تشعر بالشيء نفسه، وهو يعلم، فكلاهما يريد هذا.

رحب "توماسو بورتالوبي" بحرارة بـ "فينسينزيو" في اليوم التالي لعودته من "مارسيلا"، لقد قام بنفسه بخدمته وصب كأساً من "الماديرا" له، ودعاه أن يستريح وكأنه في بيته، وجلس هو خلف مكتبه.

- والآن، ماذا عن عرضك بشأن الشحنة الجديدة من الكبريت؟

وضع "فينسينزيو" ساقاً على ساق وقال:

- لقد حجزت لك ربع الكمية، لديّ بالفعل العديد من وكلاء البيع في "نابلس" و"مارسيلا"، ولكنني أحب أن أحظى بتواصل حقيقي وتواجد حقيقي على الأرض في السوق الشمالي، كما في "بيدمونت" و"لومباردي".

- هناك بالفعل وفي الواقع العديد من المنافسين في السوق، والمنافسة ليست في مجال الكبريت وحسب، فأنت تمتلك إمراطورية من الأعمال التجارية المختلفة؛ لقد سمعت أنك تخطط لتكون أحد كبار منتجي النبيذ.

أجابه "فينسينزيو" بثبات:

- ما سمعته صحيح.

فتح "بورتالوبي" دفتر الجلد الموجود على مكتبه، وبدا مشغولاً بالبحث عن الكلمات المناسبة:

- بصراحة يا سيد "فلوريو"، أنا مندهش بقرارك الخاص بالدخول سوق "مارسيلا" لتجارة النبيذ في هذا التوقيت، والذي يبدو بالنسبة لي توقيتاً غير ملائم وفيه الكثير من المخاطرة، لأن البريطانيين عملياً يحتكرون الإنتاج والمبيعات.

- أنت لست الوحيد الذي يفكر بهذه الطريقة.

وقف "فينسينزيو" وخطا عدة خطوات داخل الغرفة:

- ولكن لديّ رؤيتي الخاصة والمختلفة للموضوع، فأنا أستهدف عميلاً مختلفاً وأسواقاً مختلفة، بخلاف تلك الأسواق التي يسيطر عليها رفاقي الأعراء "إنجهام" و"وود هاوس"، فأنا أفكر في إنتاج أنواع من النبيذ الراقى عالي الجودة، المناسب لذوق الطبقة الأرستقراطية وحتى موائد الملوك.

وقف "فينسينزيو" بجوار النافذة، ورأى منها جدران المدينة وما وراءها في ضاحية "لاكالا بلو":

- هل عبر لك عملاؤك عن رضاهم عن الكبريت الذي أرسلته لهم؟ فأنا لديّ أصحاب مدابغ مهمون في إنجلترا لا يشترون السماق إلا منا، وسوف يحدث الشيء نفسه مع نبيذنا.

- سنرى.

قالها "بورتالوبي" بنبرة صوت يشوبها التشاؤم:

- في نهاية الأمر، المال مالك وأنت صاحب القرار.

ودّعا بعضهما بعضاً، وأثناء خروجه من الباب، اصطدم بـ"جيوليا" وأمها عند الباب، فحياهما "فينسينزيو" بأدب، فشحب وجه "أنطونيا"، فهي ما زالت برداء النوم، أما "جيوليا" فكانت ترتدي حذاءها وقفازيها كأنها تستعد للخروج.

خرج "فينسينزيو" من منزل "بورتالوبي" ولكنه لم يذهب بعيداً، فلديه مجموعة من البضائع ليمررها عبر مكتب التخليص الجمركي، وضاحية "بلازو ستيري" قريبة من هنا، كان يمكنه أن يرسل مدير المتجر أو حتى سكرتيره الخاص، خاصة أن البضائع عبارة عن بعض العطارة والتوابل، لكن لا، قرر أن يذهب بنفسه اليوم.

ضحك، لأنه يعرف السبب الحقيقي لهذا الاستثناء، وهي ليست المرة الأولى التي يفعلها.

بخلاف الكثير من الفتيات في "باليرمو"، تخرج "جيوليا" في الغالب بمفردها، لأن أمها تبقى في المنزل بسبب حساسية الصدر التي تعاني منها، وتترك المهام المنزلية لتتولاها ابنتها "جيوليا". هذا التصرف الغريب قد رفع العديد من الحواجب تعجباً من هذه التصرفات الجديدة على عادات المجتمع في "باليرمو".. أن تسير وحدها في شوارع "باليرمو" دون خادمة تصحبها، يراه سكان "باليرمو" أمراً مستهجنًا وتوجّهًا خارجيًا غريبًا، وبالتالي، سيتمكن من أن يراها وحدها في الشارع إذا ما حالفه القليل من الحظ.

قضى "فينسينزيو" دقائق قليلة داخل مكتب التخليص الجمركي. كل ما في الأمر أن يشير بإصبعه، فيحضر أحد الموظفين على الفور ليقدم له خدماته وينهي له طلباته. قفز من الصف متجاهلاً مهمات الواقفين في الطابور منذ وقت طويل - بما فيهم ابن "ساجوتو" - وأشار إلى أجولة من التبغ، وطلب أن يتم حملها إلى متجره في ساحة "بيانو سان جياكومو"، ثم توجه بعد ذلك إلى "كاسارو"، لأنه متأكد من أنه سيجد "جيوليا" هناك بقبعته ذات اللون الأزرق الداكن ومشيتها المسرعة.

لمحته "جيوليا" حتى قبل أن يراها، كانت في طريق عودتها إلى البيت، وكانت تحمل سلة في يدها، حاولت أن تتجنب لقاءه، ولكنها في الوقت نفسه أبطأت الخطى كي تعطيه الفرصة ليلحق بها. قال لها "فينسينزيو":

- طاب يومك.

- سيد...

نظرت للأسفل وحاولت أن تتجاوزَه.

أخذ منها السلة وحملها:

- فلتسمحي لي.

وجدت "جيوليا" نفسها مضطرة للنظر لأعلى. تساءلت بتعجب:

- أسمح لك؟! لقد قمت عملياً بانتزاع السلة من يدي!

لكنها لم تتركها له وحاولت أن تحتفظ بالسلة في يدها.

هذا الشد والجذب للسلة بينهما قد لفت الكثير من الأنظار إليهما، فعبس وجه "جيوليا" وتركتهما. همهم "فينسينزيو":

- فتاة جيدة.

استمر في السير جنباً إلى جنب.

- في الواقع، أنتعجب من تصرفاتك، فأنت تتصرف بمنتهى الحرية والأريحية وكأن بيننا علاقة رسمية، أعتقد أنني سبق وقلت لك إن عملك مع أبي لا يعطيك الحق في أن تتصرف معي بهذه الطريقة.

- ما الذي فعلته لك؟ هل سبق وأجبرتكَ على فعل شيء لا ترغبين في القيام به؟

أوماً برأسه لأحد معارفه المارين في الشارع.

- فأنا لست من يكتب الرسائل ويطلب من أخيه أن يسلمها.

كست حمرة الخجل وجنتي "جيوليا"؛ إنه محق، لقد سلب منها راحة البال ويستثيرها، وكانت ضعيفة أمامه في كل المواقف:

- أنت شخص ظالم يا سيد "فلوريو"، وإذا كانت نواياك غير شريفة، فلا يحق لك أن تقوم بعمل ما

سبق وقمت به في الأسبوع الماضي، عندما...

- عندما قاطعنا أبوك ونحن في غرفة الصالون؟

حاولت "جيوليا" المهانة أن تحتفظ بهدوئها، فضاحية "ديلا زيكاريجيا" ليست ببعيدة، وهي على بعد دقائق قليلة من هنا وسوف تكون بأمان، ولن يجرؤ على تتبعها عبر الباب الأمامي.

- أنت غير ملزم باصطحابي إلى البيت.

حاولت أن تحتفظ بمسافة ما بينها وبينه.

- لن يلتفت أحد لما تفعلينه، بالإضافة إلى أنك معي.

- وهذه هي المشكلة؛ أشعر بالخوف لأنني معك.

وفجأة سُمع صوت صراخ وجلبة خلفه، كانت عربية ما قد اندفعت بكل سرعتها نحوهما، فما كان من

"فينسينزيو" إلا أن دفع "جيوليا" في عكس اتجاه درابزين الساحة، لكنه استمر في الضغط على ذراعيها بعد مرور العربية، وهمس في أذنها:

- تعالي معي.

اعترضت قائلة:

- سيد "فلوريو" أنت حقاً تختطفني.

الآن أصبأ بالفعل بالقرب من "فيا دي شيافتياري"، فتوسلت إليه قائلة:

- من فضلك!

- لا.

واستمر في السير، وهو يجرها بالفعل.

كانت "جيوليا" تشعر بالخوف والخزي، وضعت يدها على يده التي يجرها بها.

- من فضلك يا "فينسينزيو".

وفجأة توقف ونظر إليها وكأنه يراها لأول مرة، كانت تعبيراته حادة وصارمة، وصوته عميق ومملوء بالغضب، لأن "جيوليا" مستاءة من أفعاله.

- لا يمكنني مقاومة هذا الشيء، وأنت لا يحق لك أن تملي عليّ ما الذي يجب عليّ أن أفعله وما لا أفعله، ولا يمكنك كذلك أن تتوسلي إليّ، فأنا لست ذلك التمثال الرخامي للقديس، هذا الشيء...

وأضاف:

- ... هذا الشيء الذي يجري بيننا يجب أن يوضع له حد، ونضع له نهاية.

سارا بسرعة ناحية بيت "بورتالوبي"، دفع الباب الأمامي نصف المفتوح ليغرقا في ظلام الردهة، وأخذ من يدها السلة ونزع قبعتها وسحبها وبدأ في تقبيلها، حاولت أن تدفعه بعيداً عنها، ولكنها لم تتمكن من فعل أي شيء سوى أن تستسلم له، إن أسلوبه في تقبيلها أشبه بالبلطجة والإجبار. فجأة، ابتعد عنها ونظر إليها كأنها عدوته.

توجهت "جيوليا" الضالة لطريقها نحو السلم، لكنه دفعها ناحية الحائط:

- إلى أين تظنين نفسك ذاهبة؟

ثم دفعها مرة أخرى واندفع معها ناحية الحائط، وهمس في أذنيها:

- لقد أصبحت رغماً عني جزءاً مني وتسيرين في دمي، اللعنة! لم أتوقع أن يحدث هذا، والآن ما عدت أقوى على التحمل أكثر من ذلك أو أقوى على التراجع؛ إنها الشهوة، أتفهمين؟ أن تنتهي شيئاً ولا تحصل عليه أمر محزن.

حذق بها لأنه أرادها أن تسمعه جيداً، حتى لا يكون هناك أي سوء فهم:

- في الوقت ذاته أنت لا تصلحين أن تكوني زوجة لي، فأنت كبيرة في السن، ولست أرستقراطية، وأعتقد أنك تعرفين ذلك جيداً، ولكنني أرغب فيك وأشتهيك بشدة.

كانت "جيوليا" قادرة بالكاد أن تتنفس بسبب ضغطه عليها:

- ما الذي تعنيه بكلامك هذا؟ ما الذي تقوله؟

لا يمكن أن يكون "فينسينزيو" يعني ما يقول:

- هل تريدني أن...

لقد أخبرها أخوها أن هناك الكثير من النساء اللاتي يعشن مع الرجال دون زواج، نساء لا يختلفن عن العاهرات، ولكن...

- هل تقترح عليّ أن أصبح...

تساءلت وهي تتقرس ملامح وجهه بحثاً عن إجابة، وللأسف الشديد فما رأته في عينيه واضح ولا يحتمل التأويل.

- أليس هذا أفضل من أن تعيشي لبقية حياتك كعانس؟ ما الذي فعلته في حياتك حتى الآن؟ كل ما فعلته

هو أن تعنتني بوالدتك المريضة ولا شيء آخر، لا شيء، وحتى أخوك يستغلك، وليس لديه مانع أن يضعك - إن استطاع - في فراشي من أجل عقد جديد أوقعه معه. أعلم أنك إنسانة مهذبة، وأستطيع أن

أميز ذلك، ولست بحاجة لأن تخبريني بذلك، ولكنك ترغبين فيّ كما أرغب فيك، لا تتكري ذلك، أنت فقط تخشين أن تعترفي بذلك، أستطيع أن أشعر بها، لأن الجسد...

وضع إحدى يديه على صدرها، ثم أضاف:

- ... الجسد لا يكذب.

خدشت "جيوليا" بأظفارها الحائط:

- أفهم من ذلك أنك تريدني أن أصبح...

تمكن منها الشعور بالغضب وخيبة الأمل والرغبة.

- وما الذي يجعلك تعتقد أنني...؟

- لا تقومي بدور البلهاء المخدوعة، أعلم أنك تريدني كما أريدك.

رفعت إحدى يديها لتصفعه، لكنه كان أسرع وجرها من رسغها.

- اتركني.

كانت "جيوليا" تلهث وهي تحاول أن تدفعه بعيداً عنها، ولكنه ثقيل جداً بالنسبة لها فلم تستطع، ولكن وبعد قليل لم تعد ترغب في أن يتوقف؛ هذه هي الحقيقة، إن ما تفكر فيه الآن يعد خطيئة، ولكن أثناء تفكيرها اقتربت منه وجذبتة إليها بدلاً من أن تبعده عنها.

قبلها مرة أخرى في عنقها هذه المرة، ومزق الدانتيل الموجود على ثوبها، إنها قبلة أقرب ما تكون إلى العضة، ولم تستطع "جيوليا" أن تمنعه لأن "فينسينزيو" على حق، وقد خانها جسدها وسيطرت عليها الرغبة، فهي تريده بشدة من أعماق قلبها وروحها.

رحل "فينسينزيو"، ولكنها بقيت بعد رحيله لبعض الوقت واقفة مندهشة في ردهة المبنى وهي مستندة للحائط، تحاول أن تستجمع قواها وتلتقط أنفاسها. والآن، بعد كل ما حدث، عليها أن تذهب إلى أبيها وتخبره أن السيد "فينسينزيو" تصرف معها بشكل غير مهذب وغير لائق، لكن لا، فهي حتى لا تستطيع أن تتخيل أن بإمكانها القيام بذلك، لأنها ببساطة قد تموت من شدة الخجل، بالإضافة إلى أنها لا تريد، لأن كلماته ما زالت ترن في أذنيها.

ما من شك في أن أختها "جيوفاي" يستغلها بشكل حقير كما يقول "فينسينزيو"، وأن والديها ينظرون لها دائماً على أنها موضع ثقة، ولم يسألها يوماً عما تريده لأنها صامتة دائماً كقطعة من الأثاث.

عندما صعدت إلى الشقة، كانت هادئة تماماً إلا من صوت أمها القادم من الرواق.

- هل هذه أنت يا "جيوليا"؟ أنا في الفراش، وأبوك وأخوك قد رحلا. تعالي واجلسي معي، ألن تأتي؟

- أنا قادمة يا أمي.

رأت انعكاسها في المرأة؛ كانت عيناها حمراوين، وبشرتها شديدة الاحمرار، وهناك كدمة تتكون في انحناء عنقها.

- ساتي إليك على الفور.

لفت "جيوليا" نفسها بشال حتى لا يلاحظ أحد الكدمة التي في عنقها، وذهبت مسرعة كي تهدأ أمها، وبعد ذلك إلى المطبخ كي تساعد "أنطونيتا" في تحضير العشاء قبل أن ترحل. كانت تجلس على المائدة ولكن بالكاد تاكل، ولم تتناول أكثر من لقمة واحدة. إن ما حدث كان حقيقياً ولم يكن حلمًا. لمست عنقها، ونظرت إلى العلامة التي تركها على عنقها، فرأت كدمة سوداء بدت وكأنها ختم الملكية التجارية الخاص بـ "فينسينزيو فلوريو" الذي يطبعه على بضائعه، لقد كان أخوها المتخاذل على حق، فكل الأشياء بالنسبة لـ "فينسينزيو فلوريو" بضائع تباع وتشتري، وكل منها ثمن.

بعد مرور أسبوع واحد على هذه الحادثة، شوهد شبح ما ملفوف بمعطف أسود يسير بخطى مسرعة عبر شوارع "باليرمو" يلتفت من آن لآخر للخلف. كان الوقت متأخرًا والمحلات أغلقت أبوابها، وملاكها يؤكدون على إغلاقها بواسطة لوح عريض من الخشب، ويسرعون الخطى للعودة إلى منازلهم ليرتاحوا من عناء يوم طويل، وينالوا قسطًا من الراحة، بينما تنقل الشبح من ساحة "كاسارو" إلى ساحة "كاستيلاماري" عبر شوارع ضيقة كالوريد حتى لا يراه أحد، وأبطأ الخطى عندما وصل إلى ضاحية "بيانو سان جياكومو"، ثم توقف فجأة، إلا أنه استأنف السير مرة أخرى تجاه ضاحية "فيا دي ماتيريسي"، كان متجر "فلوريو" للمطاطة ما زال مضاءً.

طرقت يد الشبح المرتدي قفازًا على باب المتجر بشكل مستمر، كان "فينسينزيو" يجلس وحيدًا في المتجر بعدما رحل كل العاملين، رفع عينيه عن الإيصالات التي كان يتفحصها على ضوء اللمبة، وتساءل من الذي يطرق على أبواب المتجر في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل: "من يكون هذا يا ترى؟".

كان المتجر مغلقًا والوقت متأخرًا، من يكون هذا الشخص؟ ولكن يبدو من أسلوب طرقه على الباب أنه مصر على الدخول. توجه نحو الباب ورأى الشبح الملفوف بالمعطف، وفتح الباب قائلاً:
- أنت؟

نطق بها بعد عدة ثوانٍ من هول الصدمة؛ لم يصدق ما يراه.
- إنه أنا.

وقف في أحد الأركان وأغلق الباب جيداً وراه وعاد إلى مكتبه، متبوعاً بصوت ردائه يحتك بالأرض، أنزل غطاء الرأس ليكشف عن وجه امرأة؛ إنها "جيوليا بورتالوبي" بوجهها الشاحب. قال "فينسينزيو":

- لماذا جئتِ إلى هنا في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل؟

- أمي بحاجة إلى الدواء؛ تركيبة خاصة من الأعشاب، فالجو البارد أصابها بنوبة حادة من السعال، وبدأت تبصق الدماء.

أعطته الورقة التي كتبها الطبيب:

- هذه هي الأعشاب المطلوبة، مكتوبة هنا في هذه الورقة.

- ما كان لك أن تخرجي وحدك هكذا في مثل هذا الوقت من الليل، نحن تقريباً في منتصف الليل، أين أخوك؟ لماذا لم يحضر هو؟

خفضت رأسها:

- أنا من أردت أن تحضر، "جيوفاني" يعرف هذا ولم يمنعني.

رنت ضحكة "فينسينزيو" الساخرة في أرجاء المكتب:

- نعم، عزيزي "جيوفاني"! لقد سبق وأخبرتك بذلك، هل تتذكرين؟

- نعم، بالطبع أتذكر.

وأبقت يدها ممدودة له بالورقة في توسل، فأخذ "فينسينزيو" منها الورقة دون حتى أن ينظر إليها، ووضعها على الطاولة.

- ولكنك أتيتِ إلى هنا بكامل إرادتك.

- نعم، نعم نعم.

رددتها بصوت عالٍ، وكانت تكره نفسها أكثر كلما رددت هذه الكلمة، فوضع يديه حولها، فأغلقت عينيها واحتضنته بشدة. كانت "جيوليا" خائفة وتشعر بالخزي والعار، وهمست في أذنه:
- ماذا سيحدث لي؟ سأصبح محطمة.

أرادت أن تبكي، لكن جسدها ورغباتها الآن هي التي تسيطر عليها، وتتحكم بها وتحركها وتملي عليها ما يجب أن تقوم به:

- سوف أفقد شرفي وعفتي، من سير غب فيّ بعد ذلك وأنا ليس لي شرف؟

- أنا فقط من سير غب فيك، وستصبحين ملكي أنا وحدي.

همس بهذه الكلمات في أذنيها وهو يفك أزرار ثوبها، ثم فك مشد الخصر والأرداف الذي ترتديه، ونزع عنها تنورتها، ليسقطا بعدها معًا على الأرض وينغمسا في ممارسة الحب، لأن كل ما يشعر به "فينسينزيو" كان حقيقيًا، وأن الجسد لا يكذب والدماء لا يمكن كبحها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مرت أسابيع وشهور على تلك الليلة.

التقيا مجددًا في مساء أحد أيام شهر أكتوبر.

عندما ذهب كل من "جيو فاني" و"جيوليا" في جولة مع "فينسينزيو" حول المدينة جنوب "بالازو بوتيرا"، جلس الرجلان داخل عربة "فينسينزيو" يتحدثان عن العمل وصدافتها المتبادلة. كانت "جيوليا" جالسة إلى جوار "جيو فاني" وبالكاد تنظر إلى "فينسينزيو"، وإذ بها فجأة تشعر بحذائه يضغط على كاحل قدمها تحت تنورتها، ما جعلها ترتعد، وقد التفت "جيو فاني" فجأة ناحية عربة ما يجرها حصان، وتساءل:

- يا إلهي! هذا هو "سبيتالري" بائع الصوف بالجملة في ضاحية "بياتزا ماجيوني"، لدي بعض الأمور لكي أسويها معه.

مال بجسده خارج نافذة العربة كي يلفت نظره، وترك العربة و"جيوليا" وذهب ليلتقي التاجر المهم، وبمجرد اختفائه من المشهد، مال "فينسينزيو" للأمام واحتضنها.

- يا إلهي! تعالي إلى هنا.

أغلقت عينيها واحتضنته.

كانا في هذه اللحظة كالنار والقش، لا يهتم من النار ومن القش، وبدأ على الفور في ممارسة الحب داخل العربة، وفجأة عاد "جيو فاني" ليشاهدهما وهما في هذه الوضعية المخزية. عندما عاد إليهما فجأة وبشكل غير متوقع، رأى مشد "جيوليا" مفكوكًا، وتنورتها مرفوعة لأعلى فوق فخذيها، بينما كان "فينسينزيو" يلهث. نظر "جيو فاني" لأخته وهي تحاول أن تغطي نفسها، وقد تبعثرت خصلات شعرها بشكل غير منتظم، واكتست وجنتاها بالعار، ولكنه بدا مذهولًا من التعبيرات غير المُحرجة التي كانت تكسو وجه "فينسينزيو" رغم صعوبة الموقف. غطى عينيهِ بيده، وكأنه غير قادر على رؤية المزيد، وأراد أن يصرخ ويهينهما ويضربهما وهو يغتم:

- أنت! أنت! سمحت له أن... ما الذي فعلتماه أنتما الاثنان معًا؟

وضعت "جيوليا" يدها على فمه كي تسكته، وهمست له متوسلة:

- أتوسل إليك! لا ترفع صوتك، توقف عن ذلك.

لكن "فينسينزيو" بعدما انتهى من ارتداء ملابسه، سيطر على الموقف بسرعة وقال:

- احرص أيها الفتى، وادخل إلى العربة على الفور، سوف آتي لأتحدث مع أبيك غدًا بعد الظهر.

ما إن عادا إلى البيت، أخبر "جيوفاني" أهله بما وقع بين "جيوليا" و"فينسينزيو" في العربة، فجنّ جنونهم وصبوا جام غضبهم ولومهم عليها. لم تتكر "جيوليا" ما حدث، واعترفت بعلاقتها بـ"فينسينزيو" وبأنها سلمت نفسها له، صرخ أخوها "جيوفاني" في وجهها أمام الجميع، وظل يكرر قوله بأنه كان يعتقد أنها فتاة بريئة ومحترمة، ولم يتوقع منها أن تسلم نفسها لأول رجل اهتم بها. حاولت "جيوليا" أن تستجمع قواها رغم بكائها، لتفضحه أمام الجميع باعتباره شريكاً في هذا الخطأ، فهو الذي عرفها بـ"فينسينزيو" وكان يتعمد أن يجعلهما يجلسان جوار بعضهما ويتركهما معاً ويذهب بعيداً، ولكن "جيوفاني" وضع يده على فمها ليسكتها:

- لا نتحدثي بسخافات لا أساس لها من الصحة، لقد تجرأ وتذوق ما قدمته أنت له من الفاكهة المحرمة، فلا تلمين إلا نفسك.

ظلت أمها صامتة لبعض الوقت، وهي تسمع ما حدث بدهشة كبيرة وذهول أجمها لبعض الوقت وأفقدتها القدرة على الكلام، ولكنها في النهاية نطقت وقالت كلمتها:

- عار عليك!

واقتربت منها، وعلى غير العادة دبت فيها الحياة واستجمعت قواها، وصفعتها على وجهها صفعاً قوية، قبل أن تسقط على الأريكة تلهث وتسعل من جديد. أما "توماسو" فظل يجوب الغرفة جيئةً وذهاباً، متجاهلاً دموع ابنته وصعوبة التنفس التي تعاني منها زوجته، وقال بصوت عميق ومتوعد إنه سيقدر إذا ما كان سيعيدها إلى "ميلان"، أم سيحبسها داخل أحد الأديرة ليدفن عارها ولتتطهر من الذنب، ولكي ينقذ نفسه وسمعته من العار الذي وصمته به. هرولت "جيوليا" إلى غرفتها، وألقت بنفسها على السرير ودفنت رأسها تحت وسادتها كي تكتم نحيبها، وكانت تتمنى بينها وبين نفسها - رغم كل ما حدث - أن يوقع أهلها عليها أية عقوبة يقرونها مهما كانت قاسية، إلا أن يبعدها عن "فينسينزيو".

في ظهيرة اليوم التالي، حضر "فينسينزيو" إلى منزل "بورتالوبي" كما وعد للقاء الرجلين، وأغلق الثلاثة عليهم باب حجرة المكتب، ووقفت كل من "جيوليا" و"أنطونيا" في الردهة يحدقان في بعضهما بعضاً بصمت.

ولكن أعصاب "جيوليا" لم تحتل الموقف، فالثلاثة جالسون الآن في غرفة المكتب ليقرروا مستقبلها، دون أن يكلف أحدهم نفسه عناء أن يعرف ماذا تريد؛ أما هي فتريد أن تعرف بالضبط ما الذي سيقرونها بشأنها. وقفت، واقتربت بحذر من باب حجرة المكتب، وحملت في الخشب حتى حفرَ نموذجُ الدهان المتصدع صورةً أبدية في ذاكرتها، وحاولت أن تسترق السمع.

كان "فينسينزيو" هو من يتحدث، بدأ حديثه بسرد الحقائق المتعلقة بالموضوع بمنتهى الهدوء والتكبر، معلناً أنه لن يستطيع أن يتزوجها لأن زواجه بها سيتعارض مع خططه المستقبلية، لكنه في المقابل، أعرب عن رغبته في أن تحيا "جيوليا" تحت حمايته ورعايته، تاركاً الأمر لحكمتهم وتعقلهم ليقرروا. كان "فينسينزيو" يتحدث بنوع من الاعتزاز بالذات:

- وواقع الحال هو أنني معجب بأختك، وأنا من أغواها وأتحمل كامل المسؤولية فيما حدث، إن كان هذا ما تودون سماعه بما أن الضرر قد وقع، وطلبت أن ألتقيكم اليوم لأشرح لكم موقفي، وأنا من طرفي لن أهجر "جيوليا"، ولن أتركها أبداً لتلقى في الشارع، ولا أريدكم أن تفعلوا بها ذلك.

تصاعد غضب "توماسو بورتالوبي" بسبب ذهوله من رباطة جأش "فينسينزيو" وجرأته وتكبره، وانفجر بصرخة غضب وقال:

- أنت يا "فينسينزيو فلوريو" رجل بلا شرف! أنت أجبرت ابنتي أن تخضع لك لتدنس شرفها، والآن تطلب مني أن أجعل منها عاهرة لك إلى الأبد؟
تقدم "جيوفاني" خطوة إلى الأمام كي يطالب بتعويض مناسب عن شرف أخته الذي دنسه "فينسينزيو" بأفعاله، لكن "فينسينزيو" أوقفه في مكانه برده الصاعق والمباغت الذي أفحمه:
- لا تكن منافقاً يا "جيوفاني"، فأنت على علم بكل شيء منذ البداية، فلا ترتدِ عباءة الشرف أمام أبيك.
- لقد كنت أعتقد أنني بذلك أسعد قلب شقيقتي الكبرى العانس، وأصور لها أن هناك من يهتم بها ويحبها.

وقعت ضحكات "فينسينزيو" ردًا على كلام "جيوفاني" كصفعة قوية على وجهه:
- بل فعلت ذلك عن قصد، لقد تصورت أنه لو ازداد شغفي بشقيقتك، فستستطيع أن تحصل مني على المزيد من الميزات، أليس كذلك؟ أيها الغرُّ، كم مرة تركتنا بمفردنا؟ وكم مرة تغافلت عن علاقتنا ولقاءاتنا، وادعيت أنك لم تكن تعلم؟ أنت من قمت بالفعل بإلقائها في فراشي، وجعلت منها عشيقاً لي، وأنا أريدها هي، وليس مالك هو ما أسعى إليه.
- لقد سمحت...

كانت نبرة والد "جيوليا" الحنونة بمثابة الغصة في قلبها.
مرة أخرى، أجاب "فينسينزيو" بهدوء:
- أرجو أن تفكر في العرض الذي عرضته عليك يا سيد "بورتالوبي" بهدوء، وأنا في الحقيقة لا أدري إن كان "جيوفاني" تصرف بهذه الطريقة بناءً على تعليماتك بعد أن حصل على مباركتك أم لا، وإن كان يتركني أنا و"جيوليا" وحدنا بناءً على تعليماتك أم لا. لقد كان يبحث دائماً عن طريقة ما لكي يجلسني إلى جوارها دون أن أطلب منه. هل تعلم ما نقوله نحن الصقليون عن هذا الوضع؟ "إن وضعت القش إلى جوار النار، فكيف تندهب من اشتعال القش بالنار"، وهذا بالضبط ما حدث.
فجأة سُمع صوت وقوع أحد الكراسي على الأرض، فتراجعت "جيوليا" خطوة إلى الخلف كي لا ينكشف أمرها، وقد أدرك "جيوفاني" أن "جيوليا" تسمعهم من الخارج، فقرر أن يصرخ بصوت عالٍ كي يُسمعها:

- يكفينا هذا الهراء! دعونا لا نفكر فيما حدث، بل أن نحاول أن نرمم الضرر الذي وقع. الآن يا سيد "فينسينزيو"، عليك أن تصلح ما أفسدته وترد لها كرامتها وتزوجها كي تستعيد شرفها أمام الناس.
لم تصدق "جيوليا" نفسها، عندما سمعت العبارات الساخطة التي كان يستخدمها ضد "فينسينزيو" بسبب ما حدث، لقد أراد أن ينال من "فينسينزيو" لأنه فضح أفعاله المخزية أمام أبيه وأهانه، فأنت إجابة "فينسينزيو" قاطعة كلامه:
- لا، لن أتزوجها.

- في هذه الحالة، لن أتردد في تلوين سمعتك أمام الجميع، ولن تغلت بفعلتك الشنعاء هذه أبداً، وسوف أحرص بنفسني على أن ألوث اسمك وأن أضع سمعتك في الطين، وسأخبر الناس أنك تستغل الفتيات البريئات وتنال منهن، وأنت لا تريد حتى أن تصلح غلطتك وتتقد شرفها وتزوجها، وليعلم الجميع أي وغد ونذل أنت.

أجاب "فينسينزيو" على تطاول "جيوفاني" بصوت هامس حتى لا تسمع "جيوليا" ما يقوله:
- هل أنت حقاً تهددني؟
- نعم، بحق السماء! فعليك إذن أن تتصرف كرجل.

ساد صمت غريب وطويل.

تخيلت "جيوليا" أن "فينسينزيو" ينظر الآن إلى "جيوفاني"، حتى طأطأ الأخير رأسه ونظر في الأرض من شدة الخجل.

- أتعلم أيها الغر الصغير المتحذلق، أيها القواد، أن نصف تجار "باليرمو" مدينون لي؟ وليس هذا فحسب، بل إن النصف الثاني لم يسدد لي كمبيالاته حتى الآن؟ وهل تعلم أنني عضو في الغرفة التجارية، ولديّ حصص وأسهم في جميع السفن الكبرى الرئيسية التي تجوب "باليرمو"، وأن كلمة واحدة مني كفيلة بأن تركحك أنت وكل الناس أمامي، أتفهم ذلك؟

أجابه "جيوفاني" بقوة رغم أن صوته كان يرتعد:

- كذب، فأنت لست بمثل هذه القوة التي تدعيها.

- بل أستطيع بمالي ونفوذتي أن أفعل أي شيء، وأنا متأكد من أنك لا أنت ولا أباك تستطيع الإقدام على فعل أي شيء، أتعرف لماذا؟ لأنكما غريبان هنا، ولن يتعاون أحد مع غريب لا في "باليرمو" ولا في أي مكان آخر في صقلية، أتفهم؟

ساد الصمت الغرفة للمرة الثانية.

ما عادت "جيوليا" تعرف كيف تفكر بعدما سمعت ما سمعته من خلف الباب. في النهاية، تحدث "توماسو بورتالوبي" بصوت حازم وبارد:

- لقد فهمت ما تعنيه بشكل كامل يا سيد "فينسينزيو"؛ يبدو أن ما سمعته عنك كان حقيقياً؛ أنت شخص قاس وظالم لدرجة أنك قد تمشي فوق جنث أقاربك دون أن يرمش لك جفن لكي تصل لما تريد، فأنت بلا أخلاق أو احترام لأحد. لقد وضع قرارك ظهورنا للحائط، والآن دعني أقول رأيي فيك بمنتهى الصراحة، أنت رجل خبيث؛ استأمناك وأدخلناك بيتنا بحسن نية، فتسللت كالثعبان الأرقط ودمرت ابنتنا "جيوليا" إلى الأبد، فلم يعد من الممكن أن يقبل شخص آخر أن يتزوجها بعد أن فقدت شرفها على يديك. على الأقل كن أميناً وشريفاً وأخبرني؛ هل ستعنتي بها بحق؟ فأنا لا يمكنني أن أحتمل أنك قد تقرر في يوم من الأيام أن تهجرها، وتتركها وحيدة ومنبوذة ينهشها الفقر، بعد أن فقدت أغلى ما تملكه المرأة وأصبحت بلا شرف.

فأجابه "فينسينزيو" بنبرة صوت يملؤها الشعور بالشفقة والرحمة والحزن العميق بسبب الموقف البائس للأب:

- يمكنني أن أتخيل أن كلماتي لن تعني لك شيئاً، ولكن نعم، سأعنتي بها.

بعدما نطق "فينسينزيو" بهذه الكلمات، فوجئ الجميع بالباب يفتح على مصراعيه، لتدخل "جيوليا" وتراه واقفاً أمامها.

وضع وجهها بين يديه وقال بلطف وبرقة:

- أعدي نفسك وجهزي أغراضك، سأمر عليك بعد أسبوع من الآن لأخذك معي، وستتركين هذا المنزل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لقد كان هذا الأسبوع هو أسوأ أسبوع مر عليها في حياتها، فأما كانت بالكاد تتحدث معها، وكان أبوها يتجاهلها بشكل كامل إلا عندما يرمقها بنظرات تحمل شعوراً عميقاً بخيبة الأمل، فما كان يتوقع من "جيوليا" كل هذا، أما "جيوفاني" فأصبح يعاملها على أنها لا شيء وليس لها فائدة. كانت تأكل

وحدها في غرفتها كالمنبوذة، وتبتلع طعامها ممزوجة بدموعها. لقد شعرت بالراحة عندما حضر "فينسينزيو" في الموعد المتفق عليه كي يطلق سراحها من هذا السجن المر. استأجر لها شقة صغيرة في الضاحية نفسها التي يوجد فيها بيت "بورتالوبي"، وبعد أن أتم إخلاءها من سكانها، عمد إلى تجهيزها وتنظيفها وطلائها باللون الأبيض وفرشها، وبعد سبعة أيام أخرى، انتقلت "جيوليا" لتعيش في بيتها الجديد كمحظية للسيد "فينسينزيو فلوريو" لا كزوجة، وتبعها خادمة عينها "فينسينزيو" من أجل خدمتها والسهر على راحتها. في البداية، شعرت بالغربة والوحشة داخل الشقة الجديدة فضلاً عن شعورها الدائم بالذنب، ولكنها في الوقت ذاته كانت تشعر بالسعادة؛ سعادة مختلطة بالألم والمرارة.

لقد كان "فينسينزيو" صريحاً معها منذ البداية وأخبرها بأنه لن يتزوجها، ولكنها تحبه بشدة وجنون، وبغفوية الحب الأول وحمقه وعماه. ورغم شعورها الكامل بانعدام الأمل، فإنها تشعر بالعرفان بالجميل لهذا الحب الذي حولها من شخص مخفي لا قيمة له ولا يهتم بوجوده أحد إلى ابنة يشعرون بالخزي منها؛ من خادمة لعائلة "بورتالوبي" إلى محظية لـ "فينسينزيو فلوريو".

لقد عاشت بالفعل في بيت أبيها كفتاة محترمة، ولكن ماذا جنت من وراء ذلك؟ كانت حياتها راحة ومملة وفارغة من أي معنى. كانت تحيا كظل، كصدر حنون يلبي كل احتياجات الآخرين دون أن يلتفت أحد لرغباتها هي، كان الهدف الذي تتمحور حوله حياتها هو أن تعتني بأبها المريضة وعائلتها. والآن، انحدر بها الحال حتى صارت العشيق المخبية لأغنى تاجر بالمدينة، وليس حتى محظية لرجل نبيل من أصول أرستقراطية، فالمجتمع يقبل فكرة أن يكون لهؤلاء محظيات، ولكنها عشيقه لعامل متجر كما يطلقون عليه رغم نفوذه؛ أي أنها أصبحت أقرب ما تكون لعاهرة.

بالنسبة للكثيرين، "جيوليا" أقل مكانة من محظيات النبلاء، فغالبية من كن في الأصل من النبيلات قبل أن يحط من مكانتهن الفقر، صاحبات الأصول الأرستقراطية اللاتي اضطرهن الفقر والعوز إلى بيع أنفسهن لمن يستطيع أن يكفل لهن حياة كريمة، ولكن "فينسينزيو فلوريو" رغم غناه الفاحش، لا يعدو كونه مجرد محدث نعمة في نظر الناس، وعلى الرغم من أن الناس تخشاه بسبب أمواله ونفوذه، لكن ما من شيء على وجه الأرض قد يحميه من احتقارهم وازدراءهم، ويغير نظرتهم له ولها. وعلى الرغم من صعوبة ما مرت به، فإنه لا يساوي شيئاً أمام ما ينتظرها.

في صباح أحد أيام فصل الربيع من عام 1835 على وجه التحديد، انقسمت حياة "جيوليا" إلى ما قبل هذا التاريخ وما بعده. كانت "جيوليا" تجلس وحيدة داخل الشقة التي استأجرها لها "فينسينزيو"، لتتخفي عن أنظار العامة وتعيش كمحظية له، فقررت فجأة أن تذهب إلى الحمام، وهناك بدأت تتفحص جسدها في المرأة، فاكتشفت أن وجهها شاحب بعض الشيء، وهناك بعض الهالات السوداء تحت عينيها بسبب بقائها مستيقظة لليالٍ طويلة دون نوم. وفجأة، خلعت عنها رداء النوم ووقفت عارية أمام المرأة، وبدأت ترتعد؛ ليس من شدة البرد ولكن من شكل جسدها الذي بدأ يتغير.

في صباح ذلك اليوم نفسه لكن في المنزل رقم 43 بضاحية "فيا دي ماتيريسي"، فتحت الخادمة النافذة كي يغمر هواء الربيع الخفيف وضوء النهار غرفة الطعام. جلس "فينسينزيو" لكي يتناول وجبة الإفطار البسيط مرتدياً بنطالاً وقميصاً ذا أكمام، وهو ينظر في بعض النشرات الصادرة عن الغرفة التجارية التي هو أحد أعضائها. جبهته التي كانت عابسة دائماً أصبحت منبسطة وهادئة، ولكن رائحة "جيوليا" ما زالت عالقة في ملابسه منذ أمس. بمجرد انتهائه من تناول الطعام وقيامه من على المائدة، توجهت "جيوسبينا" نحوه وقالت:

- علينا أن نتحدث معًا لبعض الوقت.
- النقط "فينسينزيو" قطعة من كعكة "التريكوتو"، و التهمها أثناء توجهه نحو الباب:
- أنا مشغول الآن، وليس لدي وقت.
- بل لديك، هل تعلم أنني اليوم على موعد مع راهبات "سانتا كاترينا"؟ يرغبن في تقديم فتاة أخرى لي كي أتعرف عليها وأفكر إن كانت تصلح زوجة لك أم لا، فهي أخت لإحدى الراهبات المبتدئات بالدير، يُقَلَّن عنها إنها فتاة لطيفة وصغيرة. ماذا يجب عليّ أن أفعل الآن، هل أخبرهن أن لك محظية؟
- بل أن تعرفي منهم ما هي طلبات أقاربها، وتخبريني.
- خطت أمه عدة خطوات ووقفت أمامه:
- أرى أنك قد أمضيت ليلة أخرى مع هذه الفتاة، فما زالت رائحتها عالقة في ملابسك.
- مرر "فينسينزيو" أصابعه في خصلات شعره، وتضرع بينه وبين نفسه لكل القديسين أن يمنحوه الصبر حتى يتحمل مناقشة جديدة مع أمه:
- إن هذا الأمر لا يعينيك.
- بل يعينني، ما دمت تعيش معي تحت هذا السقف، فالأمر بلا شك يعينني. ألم أطلب منك أن تنسى أمر هذه الفتاة؟ فماذا لو - لا قدر الله - حملت منك وأنت لك بابن زنا؟ حينها لن تتمكن من الزواج بأية فتاة، خاصة الفتيات الأرستقراطيات والأميرات.
- أخذ نفسًا عميقًا لكي يهدأ، وقال:
- أمه، أنا رجل عادي ولست قديسًا، وهذا البيت بيتي وسيظل كذلك.
- وهل بلغ بك الحال أن تفضلها عليّ؟ تذكر كل ما فعلتموه بي.
- ما من أحد يمكن أن ينقذه من بين برائن "جيوسبينا" ومن الذم التي تريد أن توجهه له.
- هل ما زلت تفكرين في "بانيارا"؟ متى بحق السماء ستتوقفين عن ذلك؟
- لن أتوقف أبدًا، فقد كان بيتي وما كان لأبيك أن يفعل ذلك، لقد كان بيتي الذي بعتموه دون أن تأخذوا رأيي في شيء.
- كان صوتها مملوءًا بالمرارة والغل. تبعته "جيوسبينا" في الردهة حتى وصل لغرفة النوم:
- لقد سلبتmani أنت وأبوك كل شيء، وفي المقابل يجب عليّ أن أصمت وأبتلع نومك مع تلك العاهرة الميلانية كل ليلة في البيت الذي استأجرته لها.
- في تلك اللحظة، تجمد "فينسينزيو" في مكانه، وتحجرت عيناه وأمسك ببعض الملابس وألقى بها على الفراش وقال:
- فلتتوقفي الآن.
- لن أتوقف، هل تعرف إلى أي مدى أشعر بالخزي والخجل عندما تنظر إليّ النساء بتلك النظرات الحقيرة، حين أذهب كل مساء إلى صلاة الغروب في كنيسة "سان جياكومو"؟
- خلع كل ملابسه حتى أصبح عاريًا تمامًا أمامها:
- ما يعتقدہ الناس ليس مشكلتي.
- ماذا تفعل؟ لماذا تخلع عنك كل ملابسك بهذه الطريقة المقززة؟ هل علمتك تلك العاهرة هذه الأفعال؟
- أدارت "جيوسبينا" وجهها، واحمرت وجنتاها من شدة الخجل.
- أنت من ولدتني وربيتني وتعلمين كيف أبدو، فما المشكلة؟
- سمعت صوت الماء في الحوض، الحوض نفسه الذي كان "إجنازيو" يستخدمه:

- لو كان عمك حيًا، لما كان يسمح لك أن تفعل ذلك، بل ينصحك أن تتزوج من فتاة محترمة ومن عائلة محترمة، تستطيع أن تظهر بها أمام الناس في العلن بلا خجل، أما الآن فأنت تعيش في الخطيئة الحية.

توقفت حالة اللف والدوران. ارتدى "فينسينزيو" ملابسه وربط أزرار قميصه المصنوعة من اللؤلؤ، وتحدث دون أن ينظر لأمه:

- هذه أقل الذنوب التي سألقى الرب بها، وإن كان الأمر يضايقك لهذا الحد، فلتجدي لي زوجة وسوف أبيت في المنزل وأنام معها.

التقط معطفه وارتداه بسرعة، وأضاف:

- ولكن كوني متزوجًا من أخرى أم لا لن يجعلني أتخلى أبدًا عن "جيوليا"؛ هذا للعلم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أوشك الليل أن يسدل أستاره، انتهى "فينسينزيو" من عمله وتوجه إلى ساحة "فيا ديلا زيكا ريجيا". أثناء سيره، قرر النظر إلى النوافذ الموجودة في شقة "بورتالوبي"، ثم توجه نحو شقته في "مازينا" التي يتشاركها هو و"جيوليا"، حيث يمارسان "الخطيئة الحية" كما وصفها أمه، والتي هي كلام فارغ بالنسبة للنسوة اللاتي يحضرن قداس الغروب والقديسين.

ما العجب في الأمر؟ ولماذا تعقد أمه الأمور هكذا؟ أليس نصف الرجال الذين يعرفهم على الأقل لديهم محظيات؟ هذا إن لم تكن عائلة ثانية تمامًا مثل عائلته الرسمية، فهذا هو "إنجهام" واحد منهم ويعامل أبناء الدوقة "سبادافورا" كأبنائه، وعلاقات أخرى بدأت بالاهتمام ثم ما لبثت أن تحولت إلى علاقة حب، ولكنه لا يعيش أسير هذه الفكرة ولا يأمل في ذلك، فهو لا يفكر في الحب.

رن جرس الباب، ولكن لم يكن هناك أحد بالداخل ليفتح له الباب. فتح الباب بالمفتاح ودخل وخلع معطفه وسار في الردهة باحثًا عن "جيوليا"، ولكنها لم تكن موجودة، فقال بينه وبين نفسه: "ربما ذهبت لبيت عائلتها لتمضي معهم بعض الوقت".

بعد الذم الذي تبع اتخاذها لقرار أن تحيا بين الناس وأمام أعين العالم كمحظية له، أمضت "جيوليا" أيامًا وليالٍ محطمة بسبب شعورها بالذنب، ولكنها قررت مؤخرًا أن تستأنف زيارتها لبيت عائلتها، لعل الأوضاع تتغير وتسير نحو الأفضل. كان أبوها رجلًا عمليًا وسامحًا بسرعة، ولكن أمها ظلت تلومها على فعلتها الشنعاء، لتزيد من وطأة شعورها بخيبة الأمل والذنب وتوقع باللائمة عليها.

صب "فينسينزيو" لنفسه بعض "الليمونادة"، وجلس ليسلي نفسه بإنجاز بعض الأعمال حتى موعد عودتها. لم يشعر بمرور الوقت حتى بدأ ضوء اللمبة يرتعش أمامه بسبب رياح المساء. نهض من موضعه ونظر من نافذة شقته على منزل "بورتالوبي"، فرأى ظلًا وظلاً آخر يبدو أنه لكل من "جيوفاني" و"جيوليا" وهما يتجادلان. بعد مرور عدة ثوانٍ، نزلت "جيوليا" وسارت عبر شوارع الضاحية ورأسها مطاطًا حتى وصلت للبيت. فتح لها الباب، وكان قلقًا عليها أكثر بكثير مما يبديه. ها هي "جيوليا" تقف أمامه، شاحبة وكأنها تمثال مصنوع من المرمر، وضعت إحدى يديها على وجهه دون أن تتطرق بكلمة، لكنها بدت كما لو كانت مريضة، وقبلته قائلة:

- ماذا؟ ما الأمر؟

همهم "فينسينزيو"، فوضعت أصابعها على شفثيه لكي تمنعه من التساؤل.

- لا تثرثر، وتعال معي.

سحبته من يده وقد تبعها كطفل وديع دون اعتراض إلى غرفة النوم، ممتثلًا لتعليماتها.

استيقظا قبل الفجر بقليل، وقد أحاط بهما السقف الأبيض، كانت الستائر مغلقة والخزانة المصنوعة من خشب "الماهوجني" مغلقة لتحميها من الأعين المتلصصة والضوء.

في الخارج، بدأت المدينة تستعيد نشاطها شيئاً فشيئاً مع أول ضوء للنهار، حينها بدأ ينتبه لأنفاس "جيوليا" التي تدغدغ وجنته، احتضنها بكل حب في لحظة نادرة من السلام؛ لحظة قيمة وثرية. لطالما شعر أن النعومة الدافئة المنبعثة من جسدها هي ملجأه الدافئ والحنون. فتحت عينيها وكانت إحدى يديها مختبئة تحت الوسادة وقالت:

- "فينسينزيو فلوريو"، أنتظر قدوم طفلك.

للحظة، لم يفهم "فينسينزيو" ما تقوله.

- طفل؟ أي طفل؟

هل يعني هذا أن حياة جديدة تنمو عميقاً في داخلها؟

- طفل؟ طفلي؟

انترع ملاءة السرير من عليها وبدأ يتقرس جسدها بشكل عنيف، فبدأ يلاحظ بالفعل أن ثديها قد تورم بعض الشيء وانتفخ، وأن أردافها أصبحت أكثر امتلاء، وبطنها صار مستديرًا أكثر. يا إلهي! لم يسبق له أن لاحظ ذلك من قبل.

والآن؛ في تلك اللحظة، بدأت "جيوليا" تشعر بالخوف؛ كان هذا واضحاً في أسنانها التي كانت تعض بها على شفتها السفلية، ويديها الممسكة بقوة بالوسادة. طارت العبارات من على لسانه من الصدمة قبل أن يتمكن من أن يجمع شتات نفسه ويتكلم:

- هل هو حقاً طفلي؟

التفتت "جيوليا" لتتأمل على ظهرها؛ كانت تقريباً تبسّم، ربما لأنها كانت تتوقع هذا السؤال:

- لقد كنت الأول، وستظل الوحيد.

ما تقوله صحيح وهو يعلم ذلك جيداً.

لاحظ "فينسينزيو" فجأة أنه عارٍ، فأمسك بملاءة السرير وغطى فخذيه، بينما بقيت "جيوليا" كما كانت. كانت ترتعش من شدة البرد، وبدأ قلبها يوخزها من شدة الخوف، فهي لا تدري كيف سيكون رد فعل "فينسينزيو" على الخبر.

- منذ متى؟

- تأخر ميعاد الدورة الشهرية منذ ثلاثة أشهر.

ووضعت يدها على بطنها، وأضافت:

- قريباً سيلاحظ الجميع حملي.

مرر "فينسينزيو" يديه في شعره، كيف حدث ذلك؟ وكيف حملت؟ لقد حاول أن يكون حريصاً ولكنه لم يتمكن من فعل ذلك في بعض الأحيان، ولم لا، وقد كانا معاً يمارسان الحب منذ أكثر من عام؟ وفي النهاية، ها هو ابن الزنا قد أتى، كما توقعت أمه.

- لن أتزوجك، لا يمكنني ذلك، وأنتِ تعلمين، أليس كذلك؟

تحدث بفطرتة بشكل سريع، وإذ به وهو يتحدث يشعر بأنه مرتبك وغازب:

- فأنتِ لستِ الزوجة التي... هذا بالإضافة إلى أن أمي ما زالت تبحث لي عن زوجة مناسبة.

كان يريد من كلامه هذا أن يوضح لها ألا تفكر في يوم من الأيام أنها قد توقع به في فخ الزواج لأنها حامل وستتجب له طفلاً، وتتمكن من إفساد خططه.

- فلتخبري أبائك وأخاك على الفور إن كانت هناك طريقة كي...
- أعرف قبل أن تقولها، لأنني أتوقع أن تطلب مني ذلك، لن أتخلص من هذا الطفل لأنه طفلي وأنا أريده.

جلست "جيوليا" في منتصف السرير عارية وفخورة. كان جسدها الأبيض الناعم يضيء في نور النافذة. تراجع "فينسينزيو" لحافة السرير، فجذبتة من ذراعه مبينة قوة غير معتادة.
- أنصت إليّ جيّدًا يا "فينسينزيو"، أعلم أنه سيأتي يوم ما أعرف فيه أنك أنت وأمك قد وجدتما الفتاة التي تليق بك كزوجة وتزوجتها، وربما لن تعود بعدها إلى هنا مرة أخرى، لأنك قد مللت مني ولم تعد ترغب فيّ، حينها سوف يكون لديّ جزء منك يذكركني بك وببي عندما كنا معًا.
اهتز "فينسينزيو" بحرية:

- أليست الشقة والمال اللذان أعطيهما لك كافيًا؟ لماذا تريدان طفل الزنا هذا؟ هل تعتقدان بهذا الشكل أنك ستبتزيني لكي أمنحك المزيد من المال؟ لقد أخبرتك بالفعل، سوف أعتني بك حتى لو هجرتك.
تمنى في تلك اللحظة لو استطاع أن يهرب ويمحو كل شيء؛ ما هذا الكم من الارتباك الذي جعله غير قادر على التنفس بشكل جيد؟ إن هذا الشيء الصغير الذي ينمو بأحشاء امرأته يخطفها منه، لا يعرف ما معنى أن يكون لديه طفل، ولم يفكر يومًا في أن يصبح أبًا.
والآن، بدأت "جيوليا" تبكي بشكل جدي، وأخذت ملاءة السرير ولفت نفسها وظلت جالسة في منتصف السرير، كل ما استطاع "فينسينزيو" أن يفعله في هذا الموقف هو أن يرتدي ملابسه ويرحل، يتبعه بكاء "جيوليا" الحار وأنيبها حتى باب البيت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قالت "أنطونيا":

- ما العمل الآن، أينها التعيسة البائسة؟
صاحت "أنطونيا" بين نوبات السعال. كانت تتأرجح جيئة وذهابًا على الكرسي الهزاز، وعيناها مفتوحتان ودموعها المنهمرة لا تريحها أو تخفف من الألم.
- والآن هذا الطفل غير الشرعي، كيف سنتصرفين؟ ألم يكن ما حدث كافيًا؟ أليس هذا هو اختيارك؟
كانت ترتدي "جيوليا" ثوبًا داكنًا مزررًا حتى عنقها، وفي يدها منديل عذبتة من كثرة البكاء والنحيب حتى تتسل. كانت وحيدة حياة جديدة، رغم أنها بين أفراد أسرتها. لقد أنت لأمها كي تسمع منها بعض عبارات الدعم والمساندة والراحة، ولتضمها في حضنها وتحميها وتطمئننها، فالأم هي التي تحمي وتطمئن، ولكن ليست أمها العاجزة الواهنة، التي لا يعينها أي شيء سوى مرضها.
ظلت "أنطونيا" تبكي ولم تتوقف ولو للحظة عن البكاء، كأن دموعها بلا نهاية، إلا إنها قد توقفت عن البكاء بحلول المساء، وجلست بجوار "جيوليا" على الأريكة، وظلت تنظر إلى "توماسو" و"جيوفاي" اللذين عادا لتوهما إلى البيت. إن "أنطونيا" امرأة خبيرة وتعرف ما هو واجبها كأم، فبدأت تصرخ فيهما، وتساءلها عمّ هما فاعلان بعدما سمعا الخبر، ولهذا كانت تنتظر من زوجها أن يتوقف عن السير جيئة وذهابًا على البساط، ويده خلف ظهره ويخفض رأسه لأسفل، أما ولدها فظل يلعن "فينسينزيو" طوال الوقت. عندما حل الصمت ولم يجبها أحد، سعلت وغمغمت بأن هناك حلًا لتلك المعضلة...

- أعرف حكيمة كتومة يمكنها أن تأتي إلى هنا، وبمبلغ بسيط تخلصنا من تلك الفاجعة وتزيل آثار هذا العار، وبهذه الطريقة سيعود كل شيء لوضعه الطبيعي.

ثم نظرت إلى "جيوليا" وقالت:

- هل أنت متأكدة أنك لا تريدين...

أجابتها "جيوليا" بحزم وبعينين مكسورتين:

- لا.

فجأة وقفت "أنطونيا" في مكانها، وظلت تسعل حتى سقطت على الأريكة مرة أخرى:

- إذاً، يجب عليك أن ترحلي من هنا وعلى الفور، قبل أن ينكشف الأمر. سوف تعودين إلى "ميلان"، هناك عند خالتك "لورينا" التي تعيش خارج المدينة حتى تلدي، وبعد ذلك نرى ماذا يمكن أن نفعل.

هزت "جيوليا" رأسها وقالت:

- لا أريد أن أذهب إلى هناك.

كيف يمكنها أن تجعلهم يفهمون أنها لا يعينها ما يقوله الناس ولا إهانتهم لها، حتى لو نعتها الجميع بالعاهرة! تعلم جيداً حجم المصائب التي تجابهها، ولكنها تريد أن تبقى إلى جوار "فينسينزيو" مهما حدث ومهما كلفها الأمر، صحيح أنه من المجحف أن تتقبل فترات حياته، ولكنها ستستطيع أن تحيا بها سعيدة، ما الجديد في الأمر؟ فهذه حياتها منذ وقت طويل، لقد اعتادت على أن تتمسك بالقليل من الاهتمام والعناية اللذين كانت تحظى بهما من الآخرين، ولكن، كيف يمكنها أن تشرح لأبيها وأمها و"جيوفاي" هذا الأمر؟ فهي تريد أن تبقى في "باليرمو" مهما كلفها الأمر، ولا يعينها إلى أي مدى سيصبح الأمر مؤلماً وشاقاً عليها.

قالت "أنطونيا" بحزم:

- سترحلين!

انفجرت "جيوليا" في نوبة من البكاء الحار، فمنذ أن أصبحت حبلى وهي تبكي حتى أصبح البكاء إحدى عاداتها.

تبادلت "أنطونيا" و"جيوفاي" النظرات. ركع "جيوفاي" أمامها وأخذ بيدها:

- أنصتي إليّ يا "جيوليا"، ماذا تظنين أن يحدث لك إذا ما تزوج "فلوريو"؟ إنه حتى لن يتذكرك، ستطلب منه زوجته الجديدة أن تختفي من حياته، ولن يكون لك أي مكان في حياته.

بدأت "جيوليا" تستعيد كلمات "فينسينزيو" بينها وبين نفسها، ومعرفتها ببحث أمه الدؤوب عن زوجة له ولكنها أجابت:

- لا، لا أرب في الذهاب.

وكررت كلمة "لا" بحالة من الهوس والهيستيريا.

وظلت تكرر ها على مدار الأيام القليلة التالية، عندما أجبرتها أمها على حزم أسيائها سراً، وغمغت "أنطونيا" أن "فينسينزيو" لن يرغب فيها مرة أخرى ما دامت حبلى، لأن جسدها سيفقد جماله، فكل ما يبحث عنه هذا الوغد هو امرأة جميلة كي يستمتع بها.

- لقد سبق وأخبرتك أنه نذل وحقير، وأنت ساذجة وحمقاء ووثقت به. انظري إلى حالك الآن، وإلى ما وصلت إليه من بؤس وعار من وراء هيامك الأحمق به وسذاجتك.

بقيت تكرر هذه العبارات حتى تمكن "جيوفاي" من رسم الخطة. كانت "جيوليا" في حجرتها، ولكنه كان يتصرف وفقاً لمصلحته كأنها غير موجودة هناك؛ سوف يبحث عن مكان على متن إحدى السفن المتجهة إلى ميناء "جنوة"، وسيصطحبها إلى هناك كي يتأكد أن كل شيء صار على ما يرام حتى تصل إلى "ميلان" بسلام، وعندما يطمئن عليها هناك، سيعود إلى "باليرمو".

بالنسبة لـ "فينسينزيو"، فقد اختفى تمامًا من المشهد، كأن الأرض قد انشقت انشقاقًا وابتلعتة فجأة؛ لا كلمة ولا زيارة، بينما كان في الماضي يقضي الليل بطوله محتضناً إياها، أما الآن فبدا الأمر وكأنها غير موجودة ولم تكن يوماً موجودة في حياته، كأنها وهم أو شبح حلو مر بحياته وانتهى، ربما كان هذا هو الواقع، وربما كان كلام أهلها صحيحاً؛ ربما كان "فينسينزيو" نذلاً وحقيراً وهي حمقاء بائسة، وستتخذ الأمور هذا المنحى الحزين.

لكن وجود مكان شاغر أو اثنين على إحدى السفن المبحرة إلى "جنوة" أمر صعب ومعقد. فـ "بورتالوبي" وولده يعرفان جيداً أن وجود مكان شاغر على سفينة أحد القباطنة أمر صعب، فبعض القباطنة أنكروا تماماً نقله للمسافرين، والبعض الآخر ادعى أنه باع كل شيء في وقت سابق، البعض كان يخبرهم بهذا الأمر همساً أو بسخرية. مكان واحد ربما ممكن، أما مكانان فهذا غير ممكن، ولكن أن يرفض ثلاثة قباطنة الطلب فهذا ليس مصادفة. فهم "توماسو" الأمر؛ أن "فينسينزيو" هو من أمرهم بذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في مساء أحد الأيام، سُمع صوت طرق على الباب، تبادل أفراد عائلة "بورتالوبي" النظرات المتحيرة، فهم لا يتوقعون حضور أحد. كانت "جيوليا" تجلس على المائدة حزينة وشاحبة وشاردة الذهن، وقد سقطت ضحية للنوم الذي بدأ يداهما منذ عدة أيام، إذ بدت منعزلة عن كل شيء يدور حولها، كانت أمها تقول إن هذا بسبب الحمل، ولكنها تعلم أن هذه ليست الحقيقة. فتحت الخادمة الباب؛ إنه صوته، بالفعل صوته الذي أتى ليخرجها من كل هذا العناء الذي سقطت فيه طوال تلك الليالي والأيام.

- مساء الخير. لن آخذ من وقتكم الكثير، ما هي الإلضع كلمات وسأذهب على الفور.

سحب "فينسينزيو" أحد الكراسي وجلس ما بين "جيوليا" و"أنطونيا":

- منذ يومين أخبرني صديقي العزيز "إنجهام" أن السيد "بورتالوبي" يبحث عن مكان على أية سفينة متجهة لميناء "جنوة"، لم أكن مندهشاً من الخبر، لقد تصورت أنكم مسافرون في رحلة عمل.

نظر بعدها إلى وجه "توماسو":

- حتى اكتشفت أنكم تبحثون عن مكانين.

أزال "بورتالوبي" منشفة المائدة من على عنقه وأزاح الطعام من أمامه:

- هل من المفترض أن أعطيك خريطة بتحركاتي وأفعالي؟

- أحقاً ذلك؟ ألم أعدكم بأنني سأعتني بـ "جيوليا" تحت مظلة حمايتي، وهذا يعني بقاءها هنا في "باليرمو" معي؟

نظرت لأعلى، وكأن الدماء قد عادت لتجري في عروقها من جديد والحياة دبّت فيها مرة أخرى، خاصة في ظروفها الآنية، فهي لا تستطيع أن تحيا بين الناس وهي غير متزوجة وبطفل ليس له أب.

- هنا مكنم الخطأ يا سيدتي، فابنتك بليغة وفصيحة اللسان وعلى درجة عالية من الذكاء، ولن يغير خاتم أو قس من حقيقة علاقتنا.

لم يبتسم "فينسينزيو"، فالموقف ليس موقف نصر أو رضا.

- أما أنتم فحمقى! فقد كان عليكم أن تفهموا أنني لن أسمح لأحد منكم أن ينتزعها مني، ما لم...

في تلك اللحظة، قصر حديثه على "جيوليا" دون غيرها وقال:

- ... تكن تلك رغبتها، لأنه في تلك الحالة سوف أحترم رغبتها وقرارها وليس قراركم أنتم؛ قرار "جوليا" فقط.

ومد يده لها كأنه يتوسل لها أن تبقى، أراد أن يقولها ولكن لم يكن يعرف كيف، ولكن "جوليا" استطاعت أن تقرأها بجلاء في تعبيرات وجهه. لقد شعرت بالغضب والاستياء لما مرت به من وحدة، ومن هذه الأيام الطوال من الهجر والعزلة والألم والليالي التي أمضتها في فراشها البارد دون كلمة منه أو رسالة واحدة. من أجل كل ذلك، تحدثت "جوليا" لتقول كلمتها:
- لقد انتصف الليل، هيا بنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نامت "جوليا" في تلك الليلة و"فينسينزيو" إلى جوارها مرة أخرى أخيراً. أصبح جسدها الآن مستديرًا ككرة من الزبدة، حتى أن رائحتها قد تغيرت؛ فأصبحت طبيعية أكثر وتحمل رائحة اللبنة والليمون. كان "فينسينزيو" مستيقظًا بالفعل، ينصت لثرثرة "باليرمو" التي تتغذى على قصتهما، التي تهدم وتبني بواسطة سكانها، لكنه كان يفكر أكثر في عمله؛ في محصول العنب، والذهاب إلى الغرفة التجارية، والمشاكل القائمة بينه وبين مصنع "فيرجينيا ماريا" لتصنيع التونة، الذي لم يحكم قبضته بالكامل عليه والذي كان من بين أمانيه، والآن بدأ يتحول الأمر إلى خطة وواقع، لأنه مغرم بهذا المكان ويأمل في أن يحوله لمملكة حقيقية له.

تذكر صراخ أمه، مهددة بأن تلقي به خارج البيت إن عاد لـ "جوليا"، خاصة بعدما أصبح الجميع متأكدًا أنها حامل منه، لكن وجوده هنا يعني ببساطة بالنسبة له السكينة والسلام والهدوء والراحة. عندما كان يستمع لصوت أنفاس "جوليا"، كان يتخيل أنه يسمع صوتًا آخر يتنفس معها؛ الطفل. مرر يده بحنان من صدرها إلى أسفل ناحية بطنها المستدير، الآن بدأ يشعر بحركة الطفل، أخذت يده ووضعتها على مكان ما على بطنها ليحس بحركة الطفل، وبجانب تدفق عاطفة الأبوة في قلبه لأنه سيصبح أبًا، بدأ يعرف أن هناك مشاعر أخرى غير تلك التي عرفها طيلة حياته، وفوق كل شيء، هناك نوع من عدم الثقة يكافح كي يتخلص منه ويزيحه عن عاتقه، هذا الشيء؛ هذا الطفل الذي لم يُولد بعد سيسرق "جوليا" منه، فهي لن تكون ملكًا له وحده بعد أن يُولد هذا الطفل، إنه نوع غير مألوف من الغيرة التي تورقه، وفي الوقت ذاته، نوع من الأمل يشق طريقه؛ إنه طفل، وريث. تقلب على أحد جوانبه. احتضنته "جوليا"، ولصقت صدرها بظهره، بينما كان بطنها يضغط على الجزء السفلي من ظهره، حُضنها هذا باختصار هو موطنه وسكنه ما بين النوم واليقظة. بعد أن تعب من كثرة التفكير، غلبه النعاس وغرق في نوم عميق، لدرجة أنه لم يلاحظ ذلك الضوء الذي ينبعث من ذلك الطفل الذي بدأ يدق على باب الحياة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قد يكون الجو في شهر يناير في جزيرة صقلية لطيفًا، والسماء منيرة وصافية وكأننا في الربيع، إلا إن الرياح الشمالية بدأت تهب، مذكرة الجميع أن الشتاء ببرودته وعواصفه القارسة، سيبقى هو السيد المسيطر مهما بدا متسامحًا، ولن يستسلم لأحد. والبحر أكد على هذا الأمر، واصطف مع الشتاء في خندق واحد. البحر في "الأرنيليا" في فصل الربيع يكون هادئًا وعميقًا، لكنه يظهر بمظهر آخر معاكس في فصل الشتاء، فالمياه تصبح قاتمة وتقور من داخلها.

في شتاء عام 1837؛ وتحديداً في شهر يناير الذي يبدو مضيئاً ولامعاً بشكل مخادع، سار رجلان تحت جدران "التونيرا" محاولين تقادي رذاذ الأمواج الباردة:

- حسناً، هذا يعني أن المحكمة لم تقل كلمتها بعد؟

- استأنف أمير "كاسيل فورت" الحكم مرة أخرى. ابن العاهرة هذا لا يريد أن يذهب بسلام!

وضع "فينسينزيو" يده في جيبه، وارتعش عندما هبت الرياح ومر تيارها من تحت إبطه.

- كل ما أريده هو أن أحصل على حصته في "التونيرا" ليصبح المصنع كله ملكاً لي، حتى إن رئيس دير الرهبان "سانت مارتينو ديلا سكال" أكد لي، وطمأنني بشأن نيته في بيع المخازن لي، ولم يبق سوى هذا الشقي الملعون "باتيرنو"، الذي يعافر ويكابح ولا يريد أبداً أن يستسلم.

إن هذا الرجل الذي يسير إلى جواره هو أكثر إنسان على وجه الكرة الأرضية يثق فيه، وهو بالنسبة له أكثر من مجرد زميل؛ هذا الرجل يدعى "كارلو جياتشيري" بشعره المموج وشاربه الكث. فتح الرجل ذراعيه وقال:

- ما زالت القصة الخاصة بإرث زوجته قائمة، أليس كذلك؟

- لم يفكر يوماً في زوجته ولم يعطها شيئاً، الحقيقة هي أنه لا يريد أن تتم إهانته من قبل بائع في متجر مثلي.

- أو عامل في متجر، لا فرق.

كان "جياتشيري" يعطي لنفسه الحق بالتحدث بصراحة دون خوف. صوت مزلاج الباب.

لقد بدأت معرفتهما منذ حوالي عامين، قبل مولد ابنة "فينسينزيو" "أنجلينا" بوقت قصير، التقيا أولاً مرة على العشاء في بيت الدوق "سيراديفالكو"، حيث تجتمع مجموعة قليلة من الأرستقراطيين مع مجموعة من الضيوف الذين ينتمون إلى الطبقة المتوسطة بأعداد كبيرة، جنباً إلى جنب مع الفنانين والمفكرين والعلماء. كان "فينسينزيو" جذاباً بسبب سرعة بديهيته ولكنته الرومانية.

- في روما القديمة، كان الفن المعماري مزدهراً، وفي النهاية، علينا جميعاً أن نشكر "بونابرت" على فكرته الحكيمة بوضع الجبانات خارج أسوار المدينة.

أضاف الدوق، وهو مؤرخ متحمس:

- هناك الكثير من الأشياء التي يجب أن نشكر "نابليون بونابرت" عليها؛ ليس فقط لأنه سمح لنا بكشف أسرار الحضارة المصرية واليونانية المبهرة. بالطبع هو المسؤول عن إبادة جيوش بأكملها، ولكن انظر إلى كم الثقافة والمعرفة التي جلبها معه ووسع بها مداركنا وأثرى بها معارفنا.

ظل "فينسينزيو" يراقب الفنان المعماري الصغير وهو يتحدث بحماسة عن التجارة وعلاقتها بالفن، ورغبته في حدوث تجانس ما بين طراز بناء تلك المصانع والطراز المعماري للمناطق السكنية التي يتم إنشاؤها، وأضاف إلى حديثه دلائل من نماذج للصناعة الفرنسية والبريطانية.

- بالطبع، أنتم جميعاً مطلعون على الأنماط المعمارية البريطانية والفرنسية...

وقال:

- ... والتي تعكس فكرة أن المصنع ليس فقط مكاناً للإنتاج ولكن يجب أن يكون مُنَسَّقاً بأسلوب منطقي.

أوماً "كارلو" برأسه بحماس:

- صحيح، إنني قضيت شبابي متنقلاً ما بين باريس و"فينيتو"، لقد سافرت إلى هناك ورأيت بعيني، لهذا أعرف عما تتحدث، فالعمل لغرض محدد لا يعني أن ننشئ مبنى مؤلفاً من أربعة جدران ونضع فيها الآلات، ونقول إن هذا مصنع ونبدأ في العمل دون مراعاة البعد البيئي والاجتماعي، ومدى

التناسق بين بنية المصنع وهيئته وبين البيئة المحيطة به باعتباره جزءًا من هذا المكان، ويجب أن يتوافق مع طرازه المعماري، وإلا سيحدث نوع من التنافر والفساد العام في الذوق بينهما، كما يعتقد بعض ملاك المصانع. لا بأس أن تقوم ببناء مصنع في الريف بهذه الطريقة، ولكن الوضع في المدينة يختلف، فعليك أن تجتهد للتوصل إلى أين وكيف تبني مصنعك، ومن الذي سيعمل بداخله، فالمصانع أصبحت جزءًا من مدننا، وبالتالي أرى أن نبدأ في التفكير فيها من هذا المنطلق. في الواقع، أنا وأخي "لويجي" كرسنا حياتنا لهذا الأمر؛ لموضوع كيف تبني مصنعًا في الأماكن الجميلة والحيوية، وجعلها متناغمة مع الموقع ومع تصميم المكان الذي بنيت فيه وطبيعته.

بحلول موعد اللقاء الثاني، كانا قد تعارفا على بعضهما بعضًا بصورة أفضل، لدرجة أنهما أزالا الألقاب بينهما وأصبحا يتحدثان مع بعضهما بعضًا دون ألقاب، ومنذ ذلك الحين، وهما مستمران في مناقشتها ومجادلاتها. ومنذ أكثر من شهر، و"كارلو" يحاضر في جامعة "باليرمو" ويعمل بشكل مباشر مع "فينسينزيو"، وهو أكثر إنسان يثق فيه "فينسينزيو" في مجال العمل، ربما لأنه يشبهه تمامًا، فإنه أيضًا ليس من أبناء مدينة "باليرمو"، ولديه توكيل من "فينسينزيو" بالتصرف والقيام بشراء الممتلكات بموجب هذا التوكيل، وغير ذلك من الأعمال الهامة بالنيابة عن "فينسينزيو"، ولكنه فوق كل ذلك صديق "فينسينزيو".

ألقى "فينسينزيو" برأسه إلى الخلف واحتضن بذراعيه المباني بعين متشوقة لامتلاكها، فهو مثل عمه "إجنازيو" يحب هذه "التونارا" بكل كيانه.

- هل تعلم لماذا أتيت بك إلى هنا؟

قالها وهما مستمران في السير.

- في الواقع، لقد كنت أتساءل بيني وبين نفسي. لقد قضينا نصف الساعة الأخيرة فقط في السير حول هذا المبنى. كل ما أريده هو أن أبنى فيلا هنا.

التفت وأشار إلى أحد الجدران:

- هنا؛ في هذا المكان بالتحديد.

لماذا هنا؟ فالجدران تتساقط بسبب الهواء المالح، والمخازن منحوتة من الحجر البركاني، وهناك القليل من أشجار "الطرفاء" التي تميل بفعل الرياح.

نظر "كارلو" إلى المبنى وقال:

- لا أفهم.

أشار له "فينسينزيو" بأن يتبعه، فتبعه إلى محيط المبنى موضحًا:

- فلنسامحني يا "فينسينزيو"، ولكنني ما زلت غير مقتنع؛ لماذا هنا بالذات؟ إنها مجرد "تونيرا"،

يمكنك الحصول على فيلا في أي مكان آخر. أقصد إن أفضل الفيلات موجودة في ضاحيتي "باجيرا"

و"سان لورانزو"، فضلًا عن أنك منذ شهر تقريبًا كنت تقول إنك ترغب في شراء "أفيلون"؛ بيت

الموثق، هل غيرت رأيك؟

- لا لا، على الإطلاق، لكن هذا شيء وهذا شيء آخر، فيلا الموثق هي عملية استثمار.

أمسك بذراعه، وحاول أن يجعله يرى الأمر بعينه:

- لا أريد فيلا عادية بأعمدة وشرفات وتماثيل، أنا أريد شيئًا لم يتخيله أحد من قبل ولم يتخيل أن يبني،

وأريدها أن تعبر عن الطريقة التي نشأت بها، يجب أن تكون مختلفة ومميزة. لا أريد فيلا، ولكن أريد

فيلا لتصير فيما يلي بيتًا لي، فلنترك "جياتشيري" يرى بنفسه الأفق، بشكل مجازي وواقعي.

- البحر...

- هذا صحيح، البحر، والعالم من ورائه، والثروة والكنوز التي تخرج منه. لقد سافرت إلى جميع أنحاء أوروبا، وعشت في روما، ولكنك اخترت أن تأتي إلى هنا في النهاية، لأنك تعرف أن "باليرمو" هي وطنك ومستقرك، والآن أصبحت تعرف ما الذي أريده بالضبط، والآن قدمه لي وحوله من أفكار مجردة إلى واقع ملموس.

وكان العالم كله قد تم اختزاله في هذه الكلمات.

عندما ركبا العربة، نسيا ما كانا يتحدثان عنه منذ قليل بشأن حلم الفيلا، وتطرقا لموضوعات أخرى؛ على سبيل المثال مصنع القطن بـ"مارسالابو":

- لم أجد المكان المناسب حتى الآن. إدارة مصنع ومخزن النبيذ من قبل "رافاييل باربيرو".

- يمكنه أن يكون مربحًا بشكل أكبر، ولكنه يحتاج إلى المبادرة. وعن مجلس إدارة الغرفة التجارية، فهذا هو المكان الوحيد الذي يوافق من فيه على التعامل مع بائع متجر مثلي.

كان حديث "فينسينزيو" مزيجًا من الفخر والانعزال.

- ليس الكثير، ولكن البعض مثل الأمير "توربيرونا" والبارون "باتيفورا" لاحظوا مؤخرًا أن عليهما أن يلوثا يديهما بالتعامل معي ومصافحتي، إن لم يكونا راغبين في بيع كل شيء يمتلكانه بما فيه ألقابهما، وذلك عندما أيقنا أن هناك القليل من التجار وباعة المتاجر هم من يحركون بالفعل دائرة المال هنا في "باليرمو"، بالإضافة إلى القليل من الأرستقراطيين الذين هم على استعداد للتعامل معهم.

قال "كارلو":

- إن الذكاء سلعة نادرة، فهم لا يملكون القدرة العقلية على فهم أن العالم يتغير من حولهم.

ثم أخرج مفكرة من جيبه وبدأ يتلو رسائل التذكير الخاصة به:

- هل أستمر في التفاوض مع الدوق "كيوميا" بشأن فيلا "سان لورانزو"؟ إن الأرض التي بنيت عليها جيدة، ويمكنك أن تحقق بعض العوائد من ورائها.

حرق "فينسينزيو" في الطريق وهو قاطب جبهته بخطوط تجعله يبدو أكبر من سنه، وعندما نادى "جياتشيري" عليه، استفاق وقال:

- آسف، ماذا كنت تقول منذ لحظة؟

وضع "كارلو" يده على ذراعه:

- هذا المساء، أليس كذلك؟

قالها على الرغم من أنه يعلم أن "فينسينزيو" لا يجب التدخل في حياته الشخصية، ربما لهذا السبب بدأ بالسؤال:

- لماذا لا تذهب؟ ففي النهاية هي ابنتك.

- لا أدري.

لقد كان "فينسينزيو" ممزقًا أكثر مما يبدو عليه.

- ولن أعطيها اسمي

تحدث بنوع من أنواع الضيق والندم الواضح.

- طفلة مرة أخرى، أنا لا أتحدث عن الضرر الذي حدث، بل أتحدث عن السخرية منها.

أشار إلى الورقة الموجودة في يد "جياتشيري":

- دعنا نبدأ بالدوق "كيوميا"، فـ"أفيلوني" لا يريد أن يبيع لـ"فينسينزيو" بشكل مباشر، ولكنه لا يمانع في البيع لـ"كارلو".

وافق "كارلو":

- خاصة عندما يكون رئيس هيئة الشرطة، ولا أحد يقول لا لرئيس الشرطة.
- لماذا لا تذهب؟

ظل سؤال "كارلو" يطرق على باب ضميره.

أمضى "فينسينزيو" الظهيرة بأكملها في "الأروماتوريا"، حيث تم استدعاؤه على عجل لتوقيع أوراق بعض الطلبات، وكذلك في مكتبه في "كازا فلوريو".

لم يبق في "فيا دي ماتيريسي" سوى هو و"إنجهام"، وقد اقتسما الضاحية بينهما، لقد صار بعد وفاة عمه "إنجازيو" ثرياً وصاحب نفوذ واسع أكثر مما كان يتخيل. ولكن ما فائدة كل ذلك، إذا ما كان غير قادر على تحديد ما الذي سيفعله بحياته؟ لقد استقبل "فينسينزيو" خبر حمل "جيوليا" الثاني بهدوء وهو مدعن، بعد ميلاد ابنتهما الأولى "أنجلينا" أو "أنجيلا" كما يطلقون عليها، لم تعد علاقتهما غير الشرعية تثير حفيظة الناس أو تمثل مادة خصبة لحواراتهم ونميتهم، لكن بعض ناشري الفضائح كانوا لا يزالون يثيرون الموضوع من آن لآخر داخل الصالونات المنتشرة في المدينة، وحياتهما معاً الآن تثير البائسين والمحرومين فقط وأصحاب التوجه العقيم الأجوف.

لكن على الجانب الآخر، لم تستطع أمه أن تبتلع الخبر، ومن الصعب عليها أن تتفهم أنها كانت غير قادرة على إقناعه بالبعد عنها وعدم الزواج بها، وهي أمه التي لا يجوز له أن يتزوج من دون إذنها وموافقتها ومباركتها للزواج. لقد أوشك "فينسينزيو" على الأربعين؛ أي أنه أصبح بالفعل في العقد الخامس من عمره، ولكن... لا، "جيوسينا" لا تريد أن تتضح وتتوقف عن العناد وتتحدى ببعض الحكمة وتقبل الأمر الواقع.

في مساء أحد الأيام، ظهرت فجأة أمامه في المكتب، وكان لون وجهها رمادياً داكناً، تماماً مثل الثوب الذي ترتديه، وقد تملك منها الغضب الشديد:

- حسناً، يبدو أنك لم تتوقف عن التردد عليها، وها أنت جعلتها تحمل منك للمرة الثانية، أليس كذلك؟
وقف السكرتير على عتبة الباب وهو بائس ولسان حاله يقول: "أنا فقط لم أستطع أن أوقفها"، ثم خرج وأغلق الباب وراءه.

- مساء الخير يا أمي. نعم، "جيوليا" حبلت للمرة الثانية، وما المشكلة؟
وضعت يدها على وجهها، وقالت:

- يا لها من مصيبة! ألا تصاب هذه المرأة بالإجهاض أبداً؟ فأنا البائسة الوحيدة التي حدث معها ذلك.

وبقيت تهتز جيئةً وذهاباً وتتأرجح في الكرسي الذي غطست به.

- ألا تفهم هذه التعيسة أنك لن تتزوجها مهما حدث؟ وأنت ألا تعرف كيف...

- أمه، أرجوك لا تفكري حتى في إكمال هذه الجملة، أنتهمين؟

تحدث "فينسينزيو" ويده فوق فخذة:

- على كل حال، إن كان المولود ذكراً هذه المرة فسوف أتزوج بها، لكي يكون الأمر واضحاً.

قفزت من مكانها بشراسة وغضب:

- ما هذا الهراء؟! هل ستتزوج من هذه الخادمة؟ أجننت!؟

- لا، بل أنا رجل عملي، لقد بلغت السابعة والثلاثين وليس هناك من خيار آخر أمامي. في الواقع، أنا لا أريد أن أتزوج من امرأة أخرى، كنتك الأرملة التي يشبه وجهها وجه الكلب، التي اقترحتها عليّ منذ ثلاثة أشهر.

تلبست "جيوسينا" روح الأم الغاضبة:

- تتزوجها؟! تذكر أنك يجب أن تحصل على موافقتي ومباركتي لهذه الزيجة، ولن أقبل أبداً أن تأتي هذه المرأة لرؤيتي أو أن تبدي أي صورة من صور الاحترام لي، والآن تقول لي إنك ستتزوجها وتجعلها تتصرف كما لو كانت ربة هذا البيت!

- وكيف ذلك، وأنت لم تسمح لها بذلك؟

- أبداً لن أسمح لها.

ها هو الشعور بالضجر والحزن يتغلب عليه عندما يتجادل مع أمه بخصوص "جيوليا" وغيرها من النقاشات، ليس هناك شعور أسوأ من ذلك الشعور، ولا حالة أسوأ من حالة انعدام الراحة التي يشعر بها عندما يتحدث حول هذا الموضوع، لدرجة أنه يشعر وكأنه ممزق بين الاثنين؛ فكلتاهما تحاول أن تجذبه ناحيتها قدر طاقتها، وهو ممزق وليس أمامه أي خيار للخروج من هذه الأزمة. تدافعت أفكار "فينسينزيو" نحو اللحظة التي يسمع بها خبر الولادة هذا المساء، وبإعلان خبر أنه صار أباً للمرة الثانية؛ أباً لطفلة.

بعد الولادة مباشرة، طلبت منه "جيوليا" أن يتزوجها، في البداية طلبت منه بلطف ورقة أن يتزوجها، ولكن بعد ذلك بدأت تطلب منه الزواج بها بحزم، وكان جوابه في الحالتين واحد؛ الرفض، ثم شرد بفكره بعيداً.

بدأت حالة القلق تحتد، فـ"جيوليا" قد عانت من وراء هذا الحب كثيراً وتريد أن تستعيد شرفها وكرامتها المهترئة، وفي سبيل ذلك صارت حادة وصعبة المراس. نظر "فينسينزيو" إلى "جيوليا"، وبدأ يفكر في أنه قد وجد رفيقة حياة أكثر كبرياء منه. ظل يلهو بخاتم عمه أكثر من ذي قبل، وكأنه يطلب منه النصيحة. أخرج ساعة جيبه، وأمسك بمعطفه وخرج، فشقة "جيوليا" ليست بعيدة.

في الردهة الصغيرة الموجودة بالشقة، كانت "جيوليا بورتالوبي" واقفة وتحمل في يدها طفلة رضيعة، وهناك قس قد حضر كي يعمدها، وجوارها يقف أخوها "جيوفاني"؛ وخلفهم يبضع خطوات تقف الخادمة ومعها طفلة أخرى صغيرة، لقد مر على ولادة الطفلة الرضيعة أسبوع كامل، وليس من اللائق أن تبقى الطفلة أكثر من ذلك دون تعميد.

لقد مر أكثر من أسبوع على آخر مرة تجادلا فيها هي و"فينسينزيو" بشأن زواجه بها. بدأ القس مراسم التعميد بالخطو عدة خطوات داخل الغرفة، ولكنه كان يشعر بحالة من عدم الراحة ولا يدري ما الذي يجب عليه أن يفعله، ووضع "ميرون" الزيت المقدس على الطاولة وأضاء الشموع وهو يغمغم بالصلوات، بينما كانت "جيوليا" مشغولة الفكر ونادراً ما كانت تتابع تحركاته.

لقد حدث الشيء نفسه مع "أنجلينا"، وها هو يتكرر مع أختها الصغيرة، فهي معهما فحسب وما من أحد آخر، "فينسينزيو" لا يريد الاعتراف بها و"جيوليا" تكافح حتى تستطيع أن تتحمل هذه الحالة من الارتباك، فالعزلة والشعور المتنامي بالازدراء حمل ثقيل وصعب. والآن، مرة أخرى، هذه المراسم المختلصة بحضور القس على عجل، دون حتى خادم الهيكل لتأدية بعض المراسم المختلصة داخل المنزل، وبالطريقة نفسها التي تتم مع الأطفال غير الشرعيين، حتى إن والديها رفضا حضور حفل التعميد. نادت الفتاة الصغيرة على أمها بشكل غاضب:

- أمي!

ذهب إليها "جيوفاني" وحملها لكي تهدأ:

- اسكتي، أين فتاتي الصغيرة الجميلة؟ فلتهدئي قليلاً يا حبيبتي حتى تتمكن أمك من تعמיד أختك الصغيرة. أتعرفين شيئاً؟ إن جدتك أعدت لك بعض الحلوى اللذيذة.

عندما سمعت "جيوليا" "جيوفاني"، تنهدت بحرارة، لأنها كانت ترغب في حضور أمها مراسم التعميد، كنوع من أنواع الدعم والمساندة لها بدلاً من أن تغلق على نفسها الباب، وتصنع بعض الحلوى احتفاءً بمناسبة لم يحضرها أحد ولم يرها أحد.

بدأ الكاهن مراسم التعميد بترتيل بعض الصلوات باللغة اللاتينية، كان صوته الحاد يتردد في أرجاء المكان بين الأثاث والسقف:

- ما هو الاسم الذي ستطلقينه يا ابنتي على الطفلة الجديدة؟

كشفت "جيوليا" رأس الرضیعة وقالت:

- "جيوسبينا"؛ على اسم جدتها.

رمقها كاهن الأبرشية بنظرة مطولة من طرف عينه، فهو يعلم جيداً أن اسم والدته "جيوليا" هو "أنطونيا"، كما يعلم أن ذلك الوغد الملحد "فينسينزيو فلوريو" هو والد ابنتي الزنا هاتين، اللتين يفصل بينهما بالكاد عامان. تعجب كاهن الكنيسة من "جيوليا" التي كانت تتصرف بلا خجل وكأنها زوجته الشرعية، رغم أن الجميع يعلم بنذالته معها وبأنه رفض أن يتحمل ولو جزءاً ضئيلاً من المسؤولية، والآن تكافئه بأن تسمي الفتاة الصغرى باسم أمه!

في تلك اللحظة، سُمع صوت مفاتيح، وصريراً فتح الباب وغلقه بصوت ارتطام مكتوم، ليظهر خيال معطف غامق بجوار الباب توجه بعد دخوله نحو الردهة؛ إنه "فينسينزيو". توقف الكاهن عن تلاوة الصلوات للحظة، لتغرق الغرفة في حالة من الصمت المطبق. تجمدت "جيوليا" في مكانها، فلکم كانت تتمنى أن تجده واقفاً إلى جوارها، لكنه كالعادة خيب أملها، فنظرت للكاهن مرة أخرى وأشارت إليه أن يكمل. رآه "جيوفاني" أيضاً وهو قادم، فذهب لأخته يسألها:

- هل أطلب منه أن يذهب؟

- لا.

لقد كان هذا أكثر بكثير مما كانت تتوقع.

أنهى الكاهن مراسم التعميد بسرعة، ودهن صدر الفتاة بالزيت المقدس وبلل جبهتها بالماء المقدس. بكت الطفلة الصغيرة بصوت عالٍ وتألمت من شدة البرد. دوّن الكاهن اسم الفتاة في شهادة التعميد؛ "جيوسبينا بورتالوبي" ابنة "جيوليا بورتالوبي"، وكفيل المعمد هو "جيوفاني بورتالوبي"، وكفيلة المعمد هي "لوتشي" الخادمة، لأن أحداً من العائلتين لم يقبل أن يقوم بهذا الدور. بينما كان الكاهن يطفئ الشموع ويجمع أدواته، سار "فينسينزيو" نحو الغرفة ليرى المولودة الجديدة، ولكن "جيوفاني" اعترض طريقه:

- إلى أين أنت ذاهب؟

- أريد أن أرى ابنتي.

- إنها لا تحمل اسمك، ولا شقيقتها الكبرى "أنجلينا"، فأنت رفضت الاعتراف بكنيتهما، أتذكر ذلك؟

- أنا لست مديناً لك بأية تفسيرات.

وتجاوزته بحدة وهو يصب جام لعناته عليه.

جلست "جيوليا" على الأريكة كي تغير للفتاة الصغيرة ملابسها بعد انتهاء مراسم التعميد، إذ بدأت تتلوى وتتشنج من شدة البرد. حيثه "جيوليا" بابتسامة فاترة عند دخوله. جثا "فينسينزيو" على ركبتيه إلى جوارها:

- لقد سمعت بالاسم الذي اخترته لها، وأنا أشكركِ على ذلك.

حاول أن يمد يده كي يلمس الفتاة الصغيرة التي كانت تتحرك بتوتر بحثاً عن صدر أمها، فترجع بعض الشيء.

قالت وهي تلف الفتاة في شال:

- لقد تصورت أن تسميتها بهذا الاسم قد يحسن من الموقف ويصلح الأمور بعض الشيء، ولكن المحاولة لن تجدي، أليس كذلك؟
تتهد "فينسينزيو" بعجلة:

- لا.

كان كل من "أنجلينا" و"جيوفاني" يقفان خلفه؛ كان يشعر بهما وهما ينظران إلى ظهره.

- أريد أن أتحدث معكِ على انفراد.

انطلقت "أنجلينا" نحو أمها بدلاً من أبيها، واختبأت تحت ذراعها فهي لا تعرفه، ومن هذا الملجأ الآمن بدأت تنظر إلى "فينسينزيو" بارتياح، فهو بالنسبة لها شخص غير معروف.

حملت "جيوليا" "جيوسينا" قبالة صدرها كي ترضعها، وقالت:

- حسناً، على الرغم من علمي بذلك، فإنني أشعر بالأسف.

ودّعت "جيوليا" الكاهن، بينما قام "جيوفاني" بإعطائه بعض المال نظير حضوره، ولكن كتبرع لأيتام الأبرشية؛ قال له "جيوفاني":

- هذا المبلغ البسيط من أجل الأيتام.

هز الرجل رأسه بتعبيرات جادة، وأطبق أصابعه على النقود وخرج مسرعاً من البيت.

وضعت "جيوليا" يدها على ركبتيها ونظرت لأخيها:

- من فضلك يا "جيوفاني"، أريد أن أتحدث مع "فينسينزيو" على انفراد.

فقال "جيوفاني" مشيراً إلى الردهة:

- هل جننتِ؟! إنكِ إما أن تكوني مجنونة أو حمقاء، ما الذي تتوقعين أن يقوله لك؟ لماذا تُمعنين في إهانة نفسك؟ ماذا سيقول لك؟ لن تجني أي شيء جيد من وراء هذا الرجل، لن يمنحك لا أسرة ولا احتراماً وستظلين دوماً... ما أنتِ عليه.

تعلم "جيوليا" جيداً أن كلام أخيها صحيح، وأنها كان من المفترض أن تهرب إلى "ميلان" عندما علمت أنها حامل في "أنجلينا". والآن، فتحت الباب وأشارت إلى السلم:

- من فضلك يا "جيوفاني".

كانت مصرة على رأيها، وطلبها لم يلق معارضة منه، ففتح "جيوفاني" ذراعيه وقال:

- ليس هناك أسوأ من ذلك.

ثم نادى على "أنجلينا":

- سأخذها معي، فأنا لا أريد تلك الطفلة المسكينة أن تسمع جدالكم.

عضت "جيوليا" على شفتيها.

كانت الفتاة الصغيرة تنتظر لوالدها بارتياح، لأنها لا تعرفه، إلا إنها جرت نحو خالها وضحكت له ضحكة كبيرة عندما ضمها إلى صدره وحملها. تبعها "فينسينزيو" بعينيه حتى اختفت من المدخل، ليسمع بعد ذلك صوتها هي و"جيوفاني" وهما يضحكان معاً، لم تضحك "أنجلينا" له ولا معه من قبل، وعادت "جيوليا" إلى حجرتها وجلست برداء النوم ترضع الصغيرة التي كانت ترضع بنهم شديد من ثديها:

- هل لاحظت أن ابنتك الكبرى لا تعرفك وهي بالكاد تنتظر إليك، وأنت لم تكلف نفسك عناء معرفة السبب؟ كان يجب عليك أن تعرف لماذا.

حدثته بحدة، وأشارت إليه أن يتبعها. دخلت إلى حجرة النوم وجلست على سريرها حتى تتمكن من العناية بالطفلة. نظر إليها "فينسينزيو" بخجل لوقت طويل، فهو لم يلاحظ من قبل كيف قلل الحمل من حدة ملامحها، فهمس لها قائلاً:

- هل أنت متأكدة من أنك لست بحاجة لمرضعة؟ إن الرضاعة ستفسد شكل ثديك. هزت رأسها وقالت:

- لماذا عدت؟ لقد طلبت منك ألا تعود حتى نتحدث مع والدتك بشأن الزواج.

فك "فينسينزيو" أزرار معطفه وجلس على حافة السرير:

- لقد تحدثت معها ورفضت.

- وأنت بالطبع لا تريد أن تفاضل بيننا. أعتقد أنه ليس هناك المزيد لنقله. يا له من أمر مثير للسخرية! كيف يتحول السيد "فلوريو" التاجر العظيم الذي يهابه الجميع، والمعروف بين الناس بعنفه وقوته، إلى ولد مذعور أمام أمه؟!!

- إنها أمي يا "جيوليا"، أتقهمين؟ أمي وهي عجوز ووحيدة.

- وأنا "كيريكي" الأسطورة التي ورطتك وسحرتك، هل سبق وأخبرتها بحقيقة ما حدث؟ كيف أقنعتني حتى سلمت لك نفسي؟

- ولكنك وافقت.

وضعت "جيوليا" يدها على فمها كي تكبح جماح نفسها:

- معك كل الحق، فالغلطة غلطتي بالفعل.

همهمت "جيوليا" بحقد و غضب، وكأنها تتطرق بلعنة:

- اللعنة على قلبي، لأنه لم يحتمل البعد عنك!

أصبح "فينسينزيو" ضجرًا، ما إن يقف حتى يعود ليجلس مرة أخرى وهكذا:

- الأمر ليس بهذه البساطة التي تظنيتها.

- وليس بالنسبة لي أيضًا.

بعد أن أنهت الطفلة الرضاعة، وضعتها "جيوليا" على كتفها، وقالت:

- يمكنني أن أحتمل النسيمة والازدراء من أجل حبي لك، ولكن يا "فينسينزيو" لقد أصبح لدينا الآن طفلتان، وهما بحاجة إلى أب، وعلى أمك أن تتقبل الواقع، وكذلك أنت، وأن تتوقفا عن أحلام المجد الزائف هذه.

كل هذه الأمور يمكن أن يتم ترتيبها عندما يكون هناك ميزة في الأمر، فالناس تشعر بالسعادة عندما تتساهل وتتجاوز عن الأشياء. بدأ "فينسينزيو" يتأفف، لأنه يكره الوضع عندما تكون "جيوليا" قادرة على الزج به في أحد الأركان، فيفقد القدرة على الرد أو الهروب.

- على كل حال، فإن أمي لن تسمح بهذا الزواج ولن تباركه، ومن دون موافقتها لن أتمكن من الزواج بك، فهذا هو القانون.

- يتطلب القانون أن تقدم لها إشعار النوايا، لأنك قد تجاوزت الثلاثين من عمرك.
شعرت "جيوليا" وكأن الدموع كادت أن تخرق جفونها، لتتناسب على وجنتيها من شدة الحزن وهي تحاول جاهدة أن تكبها، ولكنها في النهاية ستنتصر وتكبحها، فوضعت "جيوسبينا" في مهدها وردت عليها الرضيعة بصوت غرغرة دليلاً على دخولها في النوم.
- إن لم تكن ترغب في الزواج مني، فعلى الأقل اعترف بالفتاتين، امنحهما فرصة الحصول على أب شرعي.

عض "فينسينزيو" على شفثيه من الغضب، وبدأت "جيوليا" تشعر أنه لن يمنحها هذه الفرصة أيضاً، فوقفت وأشارت إلى الباب:

- أنت شخص جبان، لا أريد أن أرى وجهك هنا مرة ثانية.
بقي جالساً لبعض الوقت، ثم أمسك بمعصمها:

- لا تطلبي مني أن أختار بينك وبين أمي.
لمعت فجأة فكرة ما في عقلها كملاحظة مرة وعنيفة، ولكنها لم تتراجع:

- آه، لقد فهمت الآن، لأنهما فتاتان، أنت لا تريد الاعتراف بهما، كن صريحاً معي ومع نفسك ولتقرر بالواقع، ولأنهما لن تكونا وريثتين لك ولثروتك وإمبراطوريتك.

أمسكت "جيوليا" بجبهتها وأضافت:

- هكذا هو الأمر إذاً، لكم كنت حمقاء! لهذا السبب ما زالت أمك تعارض زواجنا وأنت مستسلم لها. إن الأمر ليس له علاقة بالعرفان بالجميل ولأنها أمك وكبيرة ووحيدة، هذه مجرد حجج واهية.

أمسكت "جيوليا" بمعطفه وطرحته على كتفه وقالت:

- إذاً، فلنخرج من هنا.
أمسك "فينسينزيو" بالمعطف، وارتسمت على وجهه تعبيرات الحزن والغضب.

- إنه أنت من أصبحت ضجرة منذ أن عرفت أنك حامل بهذه الطفلة، لقد كنت أعتقد أن كلامي الذي قلته منذ عامين كان واضحاً للغاية ولا لبس فيه.

كان يأمل أن يجد "جيوليا" في حال أفضل، ولكن...
- تلك المخلوقة التي تطلق عليها "هذه" هي ابنتك واسمها "جيوسبينا".

وهرعت لفتح باب الشقة بقوة:
- بما أنك تفضل أمك عليّ، فلنذهب من هنا ولا تعد مرة أخرى.

قالتها وحلقها مستعر بالغضب والغل، وقبضتها مطبقة.

نظر إليها "فينسينزيو" وهي في هذه الحالة البائسة، وقد أضرمت نيران الرغبة بها في جسده. صحيح أن "جيوليا" تبدو مرهقة بعد الولادة وبطنها ما زال منقحاً بعض الشيء من أثر الحمل والولادة، ولكن هناك شيء ما فيها يجذبه إليها أكثر بكثير من الجسد. أدرك ذلك الآن في تلك اللحظة الصعبة، والذي يجعل من الصعب بل ومن المستحيل عليه أن يهجرها أو حتى يبتعد عنها، كان يرغب بشدة في أن يبقى معها، فهو يفتقدها حتى وهي إلى جواره، لكم أراد أن يغوص بداخلها في تلك اللحظة ولكنه لا يستطيع، لأنه لم يمر على ميلاد "جيوسبينا" سوى القليل من الوقت، ولا يمكن أن يعاشر الرجل امرأة في هذه الفترة.

طوى قبضته وخبط الباب بقوة من شدة الغضب، فتهشم وتخضبت عقلات إصبعه بالدماء من قوة الضربة. قفزت "جيوليا" وتراجعت للخلف خطوة، فالمعروف عن "فينسينزيو" أنه حاد المزاج، سريع الانفعال، ولكنه لم يكن ولو لمرة واحدة عنيفاً معها، لكنها كانت تشعر بالخوف الشديد منه. - إن الأمر لم ينته عند هذا الحد.

كان صوته مبحوحاً من الضيق والغضب، ثم اندفع خارجاً. بقيت "جيوليا" وحيدة، وانهارت خلف الباب المغلق ووضعت رأسها بين كفيها وبكت بشدة. زادت هشاشتها الجسدية من وحدتها وشعورها بالإنهاك، بسبب تربيتهما لطفلتين دون أب أو اسم يحميهما، ومهما بلغ حجم الأموال التي يتركها "فينسينزيو" في الخزانة ذات الأدراج الموجودة في غرفة النوم، إلا إنها لن تحل أبداً محل الدعم المعنوي والحماية التي يوفرها الأب لعائلته. عندما اختارت، أو بالأحرى قررت أن تتبعه، ما كان لها أن تتخيل حجم المشاكل التي وقعت فيها، ولم تضع موضوع الأطفال في الاعتبار، ولم يكن في مخيلتها شيء سوى البقاء مع "فينسينزيو". ولكن واقع الحال يقول إن هناك طفلتين صغيرتين مسكينتين، وهما بحاجة إلى أب يحميهما ويشعرهما بالأمان، ويكون سنداً ودعماً لهما. تساءلت بينها وبين نفسها: "والآن، ماذا هو فاعل؟ هل سيبحث لنفسه عن امرأة أخرى تدفئه بالليل، وتتقبله كما هو، ولا تطلب منه الاحترام الذي تسعى إليه "جيوليا"؟ أم ستجد له أمه فتاة أخرى ليتزوج بها؟".

وفجأة، اتخذ الخوف من فقدانه شكل موجة عاتية حطت عليها، وأغرقتها في بحر لحي من الخوف والقلق مما يحمله المستقبل ومن تبعات هذا الخلاف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مرت الأيام، كانت "جيوليا" تكافح حتى تتماثل سريعاً للشفاء بعد الولادة، لهذا السبب كانت تقضي "أنجلينا" وقتاً أطول عند جدتها "أنطونيا"، بينما كان "جيوفاني" يمضي أغلب ليلاته مع شقيقته، كي يسليها ويسري عنها بعضاً مما تعاني منه، ويحاول أن يحفزها للخروج للتنزه في المدينة، إلا إنه في إحدى المرات، وقف على مدخل الشقة وهو محرج، ونظر إليها وسلمها حقيبة. - لقد أرسل معي هذه الحقيبة، على الرغم من أنني أخبرته أننا نعتني بأسرته بشكل جيد، لكنه رمقني بنظرته الغريبة تلك... بالطبع أنت تعرفينها، وأصر أن آخذ الحقيبة وأوصلها لك. تنهدت "جيوليا"؛ كانت الحقيبة تحتوي على الطريقة الوحيدة التي يعرفها "فينسينزيو"، للتعبير عما يشعر به نحوها من حب وتعلق، فأخذت النقود وقالت قبل أن تغلق الباب خلفه: - أخبره أن يأتي ليرى ابنتيه على الأقل.

في الليلة التالية، عندما كانت الفتاتان نائمتين في فراشهما، وكانت هي على وشك الخلود للراحة، سمعت صوت طرق على الباب؛ دقات خفيفة لدرجة أنها كانت تتساءل بينها وبين نفسها إذا ما كان هذا الصوت حقيقياً أم أنها تتوهم ذلك، فوضعت رداء النوم عليها وذهبت لفتح الباب، ففوجئت بـ"فينسينزيو" واقفاً أمامها.

- كان يمكنك أن تستخدم مفاتيحك.

قالتها وهي تفتح له الباب.

- أنسيبت أنك ألقيت بي خارج المنزل؟

تنهدت بقوة كدليل على الضجر، وفتحت له الباب على مصراعيه:

- إنه بينك، وأنت من تدفع الفواتير.
تجاهل استفزازاتها، وتوجه مباشرة نحو غرفة النوم، حيث يعلم أنه سيجد مهد الرضیعة الصغيرة
"جیوسبينا".

أزاح غطاء السرير من "الفرال" الناعم عنها ونظر إليها:
- هل ما زلتِ ترضعینها؟
- نعم.

وقفت "جیولیا" إلى جوار ه وهي مشبکة ذراعیها على صدرها، وبدأت تنظر إليه:
- "أنجلینا" نائمة إلى جوار "لوتشي" في الغرفة المجاورة، لذا لا يمكنك أن تراها.
ابتعد قليلاً عن الصغيرة وقال:

- هل هما بخیر؟

هزت رأسها، فاقترب منها "فینسینزیو" وأزاح خصلة من شعرها بعيداً عن جبهتها.
تردد قليلاً قبل أن يقدم على التحدث إليها:

- أنتِ شاحبة وباهتة كملاءة السرير، هل تتركك "جیوسبينا" تتامین بشكل كافٍ؟ هل تأكلین ما يكفي
من اللحم؟

دفعت "جیولیا" يده بعيداً عنها، وتوجهت إلى الردهة:

- أنت تعلم أن الأمر لا يتعلق بالطعام.

وأطبقت يدها بشدة:

- هناك العديد من الأشياء الأخرى التي تبقيني مستيقظة بالليل، وهناك شيء واحد فقط قد يشعرنی
بالتحسن، مع التأكد من أنك ستقدمه لنا أنا وابنتيك، بدلاً من...

- لقد أرسلت لك بعض المال مع أخيك؛ ذلك الطفل الكبير.

بدأت أول شرارات الغضب تتطاير عبر صوته.

- أكل شيء بالنسبة لك إما أن يبدأ بالمال أو ينتهي عنده؟ ما عاد هذا يجدي الآن، لقد صرت أباً وصار
لديك أسرة.

- هذا الوصف غير صحيح، والوصف الحقيقي هو أنني لذيّ عشيقة أنجبت لي ابنتي زنا، هذا يختلف
عن ذلك.

تجمدت "جیولیا" عند سماعها لهذه الكلمات القاسية وحبست أنفاسها في صدرها، لكنها لم تبدِ ردة
فعل تجاه هذه الكلمات المؤلمة؛ وهكذا تبدو في عينيها؟ وهكذا يراها؟ مجرد محظية ورطته في ابنتي
زنا!

- يمكنك أن تغير كل شيء إن أردت ذلك.

همست بها بنبرة صوت مملوءة بالحسرة، فوقف وقد عقد ذراعیه:

- هذا كل ما يمكنني أن أعطيه لك.

- هذا لأنك جبان.

غطت وجهها بقبضتها، وأكملت:

- أنت لا تريد، لأن تلك الأفكار الملعونة تعشش في رأسك، ولأنك ستصرف ضد إرادة أمك التي
تعاملك كمراهق في الخامسة عشرة من عمرك، ولكن عاجلاً أم آجلاً ستضطر إلى أن تختار بيننا.

اقترب منها وطوق عنقها بيد واحدة، ولم يضغط عليها لدرجة أن يخنقها، بل كان يمنحها القليل كي تتنفس:

- ليس هناك خيارات ولا أي شيء.

فعلها للحظة واحدة، ولكنها كانت كافية لتنتزلق يده من على عنقها إلى الجزء الخلفي منها، وتحولت القبضة إلى مغازلة ومداعبة.

في النهاية تبادلوا القبلات الحارة، فكل منهما يرغب في الآخر، فلقد مرَّ وقت طويل منذ آخر مرة مارسا فيها الحب، فكل منهما لا يستطيع أن يبقى بعيدًا عن الآخر لوقت طويل.

كانت "جيوليا" تحتقر نفسها عندما كانت تعانقه وتسامحه رغم كل ما يفعله، لأنها ببساطة تحبه، وكانت تحتضنه بعد كل مشاجرة تحدث بينهما، فهي من دونه مجرد حطام، ومنذ أن عرفته وهي لا تشعر أنها صارت كافية بالنسبة لنفسها من دونه.

أبقى "فينسينزيو" عينيه مغلقتين لأنه كان يشعر بالاطمئنان، فعناق "جيوليا" وحُبها هو بيته وباقي العالم هو أرض الخيانة، و"جيوليا" هي بحر.

بعد أن انتهيا من ممارسة الحب، تملص "فينسينزيو" بهدوء من بين ذراعي "جيوليا" حتى لا يوقظها، بعد أن تأكد من أنها غارقة في النوم من شدة التعب والإرهاق، وارتدى ملابسه وخرج دون أن ينطق بكلمة لأنه ليس لديه ما يقوله لها؛ ربما كانت محقة عندما نعتته بالجبان، لكن "جيوليا" لم تكن نائمة بل كانت مستيقظة، وكان آخر شيء سمعته هو صوت باب الشقة و"فينسينزيو" يغلقه خلفه.

أضت الليلة و"جيوسبينا" إلى جوارها. بعد انطفاء نيران الحب، بدأت تشعر "جيوليا" بالوحشة، وبأن الفراش أصبح أوسع وأكثر برودة مما كان عليه عندما كان "فينسينزيو" بعيدًا، وبدأت الدموع تتهمر من عينيها بشدة؛ دموع الغضب التي هي أقوى من دموع الشوق، لأن غضبها كان أكبر بكثير من ندمها.

غداً هو يوم الأحد.

اختارت أفضل ثوب لديها وارتدته بعناية، صحيح أنه ما زال ضيقاً بعض الشيء من أثر الحمل والولادة، ولكن لا يهم، وألبست "جيوسبينا"، وطلبت من أمها أن تعتي بـ"أنجلينا" لحين عودتها، ووعدتها بأن تعود سريعاً.

ذهبت هي والرضيعة لحضور القداس الصباحي في كنيسة "سان جياكومو". كانت أغلبية الحضور من الرجال المنتمين لطبقة العمال ونسائهم، ممن لا يملكون رفاهية الوقت كي يحضروا القداس المسائي، وتقف بينهم بدافع العادة لا بدافع الضرورة "جيوسبينا سافوتي فلوريو".

شاهدتها "جيوليا" وهي قادمة، كان وجهها حاداً وشديد الصرامة، وقد لملت شعرها الرمادي داخل قلنسوة. بعد انتهاء القداس، تبعها "جيوليا"، وانتظرت حتى أصبحت بالفعل أمام باب بيتها في ضاحية "فيا دي ماتيريبي".

- دونا "فلوريو".

نادت عليها "جيوليا" وكررت النداء:

- دونا "فلوريو".

التقت "جيوسبينا" بشكل فطري ناحية الصوت، لمحتها ولكنها لم تتعرف عليها، ثم اشتعلت غضباً عندما رأت الطفلة الرضيعة، وأدارت لها ظهرها وانصرفت ناحية المنزل بشكل مباشر.

لكن "جيوليا" اندفعت نحوها:

- توقفي!

نظر البعض من نوافذ منازلهم، وأحد سائقي عربات الكارو، وبعض النسوة اللاتي خرجن للتو من الكنيسة بدأن يبطئن السير.

فاجأتها "جيوليا"، ووقفت أمامها تمامًا كي تسد عليها طريق المرور، فما كان أمام "جيوسبينا" من خيار إلا أن تتوقف.

كان صوت المرأة الصغيرة عاليًا، لكي تتأكد أن كل من في الحي يسمعها جيدًا.

- دونا "فلوريو"، ألا ترغبين في رؤية حفيدتك؟

بدأ الناس يحملقون ويستمعون.

أتى رد "جيوسبينا" عليها حادًا وسريعًا كالمبرد في الخشب:

- ليس لدي أحفاد.

- هل أنت متأكدة مما تقولينه؟ إنها تحمل اسمك.

- وما المشكلة؟ هناك الكثير ممن يحملون اسم "جيوسبينا".

- إلا هذه، فعيناها كعيني ابنك "فينسينزيو".

رغمًا عنها، نظرت "جيوسبينا" إلى الرضيعة، فاكتشفت أن الطفلة الصغيرة تشبه "فينسينزيو" كثيرًا؛ فأنفها يشبه أنفه تمامًا وحواجبها مرتفعة كحواجبه، وفجأة تراجعت خطوة للخلف.

- هذا غير مقبول، هذا غير صحيح، العاهرة لا تعرف ممن حملت، لأنها تنتقل بين الكثير من الكلاب.

ضمت "جيوليا" الصغيرة بقوة إلى صدرها وكأنها تحميها من شيء ما.

- هذا صحيح فيما يتعلق بالعاهرات اللاتي ليس لهن سيد، إن ولدك هو من يقيدني، ولم أكن أنا من أغويته، بل هو من انتز عني من بيت أهلي.

- بعض القيود يمكن أن تخنق.

كانت نبرة صوت "جيوسبينا" مملوءة بالكرهية.

- إذا تخيلت أنك ستجدين بفعلتك هكذا دون عقاب، فإنك أخطأت في حساباتك، فلا مكان لك هنا.

لم تتمكن "جيوليا" من إيجاد الرد المناسب على هذا الكلام القاسي.

تركبتها "جيوسبينا" وذهبت، بعد أن اعتقدت أنها أوقفتها عند حدها، أو هكذا تصورت. ما الذي كانت تعتقد أنها ستحققه بحضورها إلى هنا بهذا الشكل، وبتصرفاتها التي تشبه تصرفات غاسلات الأطباق؟ كل ما جنته من وراء هذا اللقاء أنها ظهرت أمام الناس على حقيقتها.

لقد وصلها رد "جيوليا" وهي على مدخل البيت:

- لم أختَر هذا القيد بسبب المال، وكيف لك أن تعرفي معنى الحب وأنت لم تجربيه يومًا؟

هرع "فينسينزيو" إلى نافذة حجرة الطعام وهو ما زال برداء النوم وحافي القدمين، ليرى ويسمع كل شيء. تبع "جيوليا" بعينيه حتى اختفت بعيدًا عن الأنظار خلف منحني الشارع، سمع بعد ذلك صوت خطوات "جيوسبينا" الغاضبة وهي تقترب:

- لقد رأيت وسمعت كل شيء، أليس كذلك؟ أي نوع من أنواع النساء هي؟ يا لها من حثالة! ولكنني أوقفتها عند حدها. ما الذي كانت تحاول أن تفعله؟ أن تتسبب في فضيحة لسكان هذا المنزل؟ كان

يجب عليها أن تبقى بعيدة عن الأنظار!

لم يتألف حولها كثيرًا.

لوقت طويل، كان يتساءل بينه وبين نفسه؛ لماذا كان يعود لـ"جيوليا" في كل مرة بعد كل مشاجرة كانت تدور بينهما؟ وأخيراً عرف السبب.

سألته أمه لماذا لا يرد عليها، وقد شاهدته وهو يذهب إلى حجرته ويرتدي ملابسه على عجل.

- ما الأمر؟ ما الذي تفعله الآن؟

- فلتذهبي يا أمي، وتتابعي الحياكة والرتق.

هذا بالضبط ما أخبر أمه به، تعامل معها على أنها امرأة عجوز خرفة، يجب أن تبقى في شئونها ولا تتدخل في شئون الآخرين.

تحول وجهها فجأة إلى كومة من الكبرياء المحطم والسخط والامتعاض.

- هل سنذهب إليها؟ إنها كالسم الأسود، شيطان متجسد في امرأة، ولها نتانة الكبريت نفسها. وماذا دهالك؟ هل ستتركني وحدي؟

ظلت تصيح من النافذة أثناء قطع "فينسينزيو" ضاحية "فيا دي ماتيريسي"، قبل أن ترصد عيونُ النسوة تلك الدراما القصيرة.

مرَّ "فينسينزيو" مسرعاً عبر الحارات الضيقة، وعبر المتاجر المغلقة.

لحق بـ"جيوليا"، إذ كانت لا تزال تسير في "كاسارو" ببطء بين الناس المرتدين ملابس يوم الأحد، ورأسها مَحْنِيٌّ على الطفلة، وهو يعرفها بشكل جيد ويعرف أنها تكافح كي لا تتفجر في البكاء. لقد تسبب لها هذا الموقف المشين في الكثير من الإهانة والإذلال.

لحق بها "فينسينزيو" وأمسك بذراعها واحتضنها أمام الجميع.

كانت "جيوليا" مندهشة.

- لكن...

- هيا بنا إلى البيت؛ إلى بيتنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الدانتيل

يونيو 1837- مايو 1849

نتجه الموازين ناحية الحمولة الأثقل.

- مثل شعبي صقلي

في شهر يونيو من عام 1837، اجتاح وباء الكوليرا أوروبا ووصل إلى جزيرة صقلية، وساعدت الظروف الصحية المتردية التي يعيش فيها أغلب الصقليين على انتشار المرض، والذي لم يُستأصل إلا بحلول شهر أكتوبر من العام نفسه. ويذكر المؤرخون المعاصرون أن الجائحة قضت على أكثر من ثلاثة وعشرين ألف شخص في مدينة "باليرمو" وحدها.

مرت الأعوام ما بين 1838 و 1847 هادئة بلا أية تداعيات، ولكن بدءًا من العام 1847، اندلعت العديد من الاحتجاجات في صقلية بسبب انتشار الفقر، والرغبة العارمة في الحصول على الاستقلال بسبب الصراعات الطبقية. وقد أشعلت جذوة الحرية التوجه القومي للملك "فرديناند الثاني" الذي أوج مشاعر الشعب، وهو ما مهد الطريق في الثاني عشر من شهر يناير 1848 أمام "جويسيب لا ماسا" و"روزولينو بيلو" لتنفيذ حركة عصيان ضد حكم "البوربون".

كانت "باليرمو" أول مدينة كبيرة في إيطاليا تعلن عن استقلالها عن السلطة المركزية، ليقود الحكومة الثورية الأدميرال "روجيو سيتيمو"، الذي حاول بمساعدة الأرستقراطيين والبرجوازيين استمالة الناس للمشاركة في عملية اتخاذ القرار. أقر "فرديناند" الدستور، وتبعته أغلب الأقطار الإيطالية. وفي الرابع من شهر مارس 1848، أقر "كارلو ألبرتو" القانون "الألبرتيني"؛ وفي 17 من شهر مارس، حان الدور على "فينيسيا" كي تنثور، وفي اليوم التالي، كانت "ميلان" على موعد مع الثورة، لتجتاح الشرارة الثورية أوروبا بأسرها بما في ذلك الدولة البابوية؛ وفي 24 نوفمبر 1848، تم إجبار البابا "بيوس التاسع" على الهروب إلى "جيتا"، وفي 9 فبراير 1849، أعلن ميلاد الجمهورية الرومانية، والتي حكمها الثلاثي ("كارو أرميليني"، و"جويسيب مازيني، و"أورليو سافي").

لكن مرة أخرى، نجحت قوات "البوربون" في قمع كافة الحركات الثورية، بعد أن طغت الطبيعة الخلاقية للساسنة الصقليين على المشهد، فـ"ماسينيا" و"باليرمو" على سبيل المثال عدوان لدودان، ومتباينتا الأفكار حول جذور التمرد، وقد أمل الأرستقراطيون والبرجوازيون أن يعودوا أثرياء بعد التمكن من الاستيلاء على ثروات الكنيسة، بينما كان الشعب يأمل في إعادة توزيع الأراضي التي نهبتها الدولة والكنيسة من الناس وتوزيعها توزيعًا عادلًا.

وفي مايو 1849، بعد أن تم إضعاف الثورة بسبب التباين والخلافات بين أطراف الثورة المختلفة، استغلت جحافل "البوربون" هذه النزاعات بين أبناء الثورة الواحدة، وانقضت على قوات الثورة حتى قررت الإدارة الثورية الاستسلام. وعندما عاد "فرديناند" ملكًا على عرش صقلية، أظهر بعض الرحمة والعطف، فلم يحكم على قادة التمرد بالموت ولكن بدلًا من ذلك، أرسلهم للمنفى، والأكثر، أنه منح عفوه لداعمي التمرد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خيوط القطن، الإبر، البكرات، الوسائد.

الدانتيل ليس نوعًا من القماش فحسب، بل هو بالأحرى فن من الفنون يحتاج إلى أيدي ثابتة؛ الصبر وحده من أجل الحصول على سنتيمترات قليلة من قماش الدانتيل، وتشابك الخيوط خيطًا وراء خيط، لتكوين قطعة فنية رائعة.

أول من عمل في مجال الدانتيل كان مجموعة "بورانو" لصناعة الدانتيل، الذين ساندوا الجزيرة الصغيرة لقرون بعملهم... يعرفون ذلك. لقد تم تصدير مهاراتهم ونقلها لفرنسا بفضل "كاترين ميدينشي"، التي أقنعت القليل من النساء الماهرات في هذا المجال بالانتقال إلى فرنسا، وتعليم أسرار فنونهن في الأديرة في قلب أوروبا، وتغير منذ ذلك الحين اسم هذا النوع من الفن إلى الدانتيل، ليزين أغلب ملابس أثرياء المملكة من الرجال والنساء، وفي الوقت نفسه، اتسعت رقعة العاملين في هذا المجال وتنامت، وانتقلت أشهر مدارس تعليم فن الدانتيل من إيطاليا إلى الشمال: فالنسيا، و"كاليه"، وبروكسل، وبراج.

أحب "نابليون" قماش الدانتيل كثيرًا، وجعله جزءًا أساسيًا إجباريًا من زي المحكمة. شهدت الثورة الصناعية في بدايتها الاهتمام بتصنيع الدانتيل في إنجلترا باستخدام الأقمشة الرقيقة، لدرجة أن الملكة "فيكتوريا" في حفل زفافها كانت تغطي وجهها بطرحة مصنوعة من قماش "التول"، ولكن هذا الفن الصعب لم يعد له مستقبل.

أما الدانتيل اليدوي، فلم يندثر أبدًا واستمر، ولقد تم تصنيع بكرات الخيط، التي كانت تمكن صناع الدانتيل اليدوي من إنجاز أعمالهم بسرعة فائقة باستخدام الحرير الملون. وتم تشجيع الفتيات الفقيرات على تعلم التجارة، ولكن هذا الفن القديم استغرق عدة سنوات حتى يستعيد مكانته ويصل إلى القمة في "فينيسيا"، ومن هناك لينتشر بعد ذلك في جميع أنحاء إيطاليا، ولقد أضحت لبس الدانتيل قاصرًا على قلة قليلة من العائلات الثرية؛ إنه نادر وقيم كالمجوهرات. كنز.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت درجة الحرارة لا تطاق، والشمس تقترس البشر بلهيبها وحرارتها المرتفعة، ومدينة "باليرمو" تموت بمعنى الكلمة. على طول الطريق الخاص ببلدة "كاسارو"، كانت العربات الكارو، التي تجر بواسطة عدد من الأحصنة الهزيلة، تمر في الشوارع وسائقو العربات ينادون: "هل من موتى لكي ندفنهم؟".

كان يشير بعض الناس إليهم، وبعد ذلك بوقت قصير، يلقون بإحدى جنث الموتى من النافذة. انتشرت المدينة الصاخبة بالسواد، وهي تشيع الآلاف من ضحايا الكوليرا الذين يموتون بشكل يومي بسبب الوباء، الذي اجتاح البلاد قادمًا من الأراضي الرئيسية لإيطاليا. وفي يونيو عام 1837، نجح الرجال فيما فشل في تحقيقه المرض.

بعد انتشار الوباء، أتى تمرد الناس بسبب المحرضين الذين استغلوا الكارثة، لكي يتهموا الملك بمسؤوليته عن انتشار المرض وعدم اتخاذ التدابير اللازمة للحد من انتشاره، لذا هتف الناس متهمين الملك بأنه مسؤول عن هذا، وأنه تم تلويث المياه لإهلاك أكبر عدد من الناس لتقليل عدد السكان.

تم غلق الواجهات المصنوعة من الحجر البركاني للمباني المزخرفة على الطراز الباروكي، والتي صارت كالجماجم المتروكة كي تخبز في الشمس، فالأرستقراطيون هجروها واقتحمها عامة الشعب وعاثوا فيها خرابًا وسلبًا ونهبًا، بحثًا عن الطعام والمال، ثم أضرموا النيران فيها وفي المتاجر، وكان الناس يتضورون جوعًا في الشوارع ويتوسلون من أجل الحصول على قطعة خبز؛ فالحبوب لم

تصل من الريف ليطمطحنها لصناعة الخبز، ولم يوقف انتشار العدوى عملية التطهير بالكور التي عبأت الحارات بالنفاذ لغاز الكلور، الذي يمتزج مع رائحة النيران المشتعلة في الشوارع والميادين التي تحرق فيها الفرش والأثاث. لم يبق في المدينة سوى القليل من الأطباء، جنبًا إلى جنب مع بعض الرهبان والقساوسة الذين يتنقلون من منزل لآخر، لكي يؤدوا القداس الأخير على روح الميت ويباركون روحه.

حتى البحر الواضح في خلفية ميناء "فيليش" يبدو كما لو كان غير حقيقي ولا يمكن الوصول إليه إلا من بعض السفن الراسية قبالة "لا كالا"، والكثير منها يرفع شعارات الحجر الصحي. كان "فينسينزيو" يسير خلف الجدار في "فيا ديجلي أوجنتيري"، لم يترك المدينة بعد ولكنه سيفعل قريبًا، وقام بركل كلب ضال برجله كان يفتش في النفايات. غطى وجهه بمنديل كي يحمي نفسه من الرائحة النتنة التي تتبعث من المجاري والمصارف؛ كل شيء في المدينة يحمل رائحة الموت الذي لا فرار منه.

في قمة "زيكا ريجيا"، تقف عربة ذات نوافذ معتمة يحرسها رجلان مسلحان يحملان بندقيتين. كانت ترتدي "جيوليا" قبعة ذات طرحة شفافة، واقفة بجوار العربة تبحث عنه في الشوارع، بمجرد رؤيتها له، وضعت يدها على صدرها وهزلت ناحيته.

- ستأتي معنا.

قالتها حتى قبل أن تلقي عليه التحية، فهز "فينسينزيو" رأسه، وقال لها إنه لا يستطيع الذهاب الآن.

- البيت ليس بعيدًا عن "مونريال" وهو مؤمن بشكل جيد، سوف يلحق بكم "جيوفاني" والديك الليلة. لا تخرجوا ولا تتواصلوا مع أحد لا تعرفونه.

كانت "جيوسبينا" تبكي بشدة، وصوت أئينها يمكن أن يسمع خارج العربة. أمسكت "جيوليا" بيديه، وقد استحوذ عليها الخوف والقلق:

- ستأتي سريعًا، أليس كذلك؟

- نعم، ساتي، والآن خذوا حرصكم جميعًا، لا تنسي غلي مفارش وأغطية الأسرة جيدًا. قبلته وكأنها لن تراه مرة أخرى، وأمسكت يده وتوسلت إليه:

- لا أريد أن أذهب، فلترسل الفتاتين بعيدًا وتسمح لي أن أبقى معك، من سيرعاك لو مرضت؟ هز رأسه، وقال لها إنه سيكون بخير وإنه ليس بحاجة لبقائها معه، وهي الأخرى يجب أن تكون في مأمن كي ترعى الفتاتين، وقام بالفعل بدفعها داخل العربة، بينما قامت "أنجلينا" بالقفز على فخذه.

- تعال سريعًا، لا تتركني وحدي.

كان "فينسينزيو" مجبرًا على النظر بعيدًا، لأنه لم يحتمل رؤيتهن وهن يذهبن، وهو يعلم أن المرض قد يفتك بهن بين ليلة وضحاها، قد تكون هذه آخر مرة يرون فيها بعضهم بعضًا، لأن الأطفال قد يقعون فريسة سهلة لهذا المرض الفتاك.

في اليوم السابق، استأجر عربة ماثلة، واصطحب أمه والخادمت إلى بوابات المدينة، لقد قام بإرسالهن إلى أحد الأماكن التي يمتلكها هناك في "مارسال" كي يكن بأمان.

لكن بالنسبة له، فالأمر يختلف، فهو لا يستطيع أن يغادر، إذ ما زال بحاجة لأن يتأكد أن المخازن ستكون بأمان، وأنه قد تم الاعتناء جيدًا بالشحنات الموردة، وأن يخبر الموردين الفرنسيين ألا يرسلوا بضائع لا يمكن مرورها من مكتب الجمارك، فالمدينة في حالة من الفوضى العارمة، ولا أحد موجود ليعدتي بمكتب الجمارك وينهي الإجراءات الخاصة بالشحنات الجديدة.

وفجأة، ظهر رجل وكأنه أتى من اللامكان، ونادى عليه؛ إنه "فرانشيسكو دي جيورجيو" المسؤول عن التجارة مع الأقاليم الصقلية، وقال له:

- سيد "فلوريو"، أخيراً عثرت عليك! لقد حدثت كارثة!

تحول قلق "فينسينزيو" إلى خوف حقيقي:

- هل تضررت الواردات بأي شكل؟

- لقد نُهبَت كل البضائع الموجودة بالمخازن؛ صبغة "الفالريان"، والفلفل، والهيل والنعناع والزيت الأساسية، كلها دمرت. عندما تركت المكان، كان هناك تجمع مريب من الناس فلم يرقني الوقوف خارج المتجر، بدا على الجميع اليأس، ومن الواضح أنهم قد أضرمو النيران فيه وسلبوا ونهبوا الصيدلية الموجودة في منطقة "تريبونالي". أما الوضع في الريف، فهو أسوأ، فقد وصل الحال بالناس إلى حد قتلهم للقساوسة، لأنهم يعتقدون أنهم المسؤولون عن نشر المرض للعين؛ الناس في حالة من الجنون!

- اللعنة!

هرع "فينسينزيو" إلى "الأروماتوريا"، وقد نُزعت النافورة الموجودة في ميدان "بياتزا ديل جارافيلو"، ورُسمت العلامة "X" باللون الأسود على بعض منها، ورائحة الجير الذي يستخدم كمطهر يفور ممزوجاً مع رائحة قذارة المراحيض.

في ضاحية "فيا دي ماتيريسي"، مرّاً بصف من البشر، وشاهداً "كارميلو كاراتوزولو"، مدير "الأروماتوريا"، يقف خارج باب المحل، رافعاً يديه:

- أقسم لكم أن كل شيء عندنا قد نفذ! فليس هناك سفن في الطريق، وبالتالي لا مزيد من البضائع المخزنة، لم نعد نملك أي شيء.

- ماذا تقصد بذلك؟ حتى صبغة الأفيون؟

وقف أمامه رجل يتوسل إليه في قطعة من الخبز، أو أي شيء يقيه من الموت جوعاً، ويدها منشابكتان.

- كيف يمكنني أن أعالج ما تعاني منه زوجتي من المرض؟ لقد تركتها تتلوى في الفراش من شدة الألم.

يليه شاب يافع أكبر بكثير من كونه صبيّاً، وقف يائساً لا يعرف ماذا يفعل:

- ولا حتى زجاجة صغيرة من "الفالريان"؟ من أجل ابنتي المسكينة، ابنتي الصغيرة البائسة!

ويليهم صف طويل من الرجال والنساء الفقراء البائسون يسبون ويلعنون، ويتدافعون كي يقتحموا المتجر بحثاً عن أي شيء يقيهم الجوع، ويعالج أفراد عائلتهم الذين يتلون من شدة الألم ولا يعرفون كيف يتصرفون معهم، وقد انسدت الأفق أمامهم وما عاد باليد حيلة وزادت فجيعة الجائحة فجيعة الجوع.

كان على "فينسينزيو" أن يندفع نحو الجموع البائسة وأن يدفعهم بعيداً عن متجره بكوعه. إن الرعب الذي يشوه وجوه هؤلاء البؤساء أكثر شراً من وباء الكوليرا نفسه، لقد كان يشعر به على جلده ولم يتمكن من الهروب بعيداً عنه أو تفاديه؛ وكأنه صار فجأة عاجزاً عن السير كالخنزير مربوط الأطراف.

صاح أحد العجائز وأمسك بأحد الأحجار وألقاها على نافذة المتجر:

- أنا لا أصدقك، لقد قمت بتكديس التوابل حتى تعطيتها لأصدقائك.

في تلك اللحظة، تحرك "فينسينزيو" بقوة وعنف بين الجموع المتحفزة وقفز إلى الأمام.
- لا، لا يمكنهم تدمير "الأروماتوريا"! فكل شيء قد بدأ من هنا؛ من هذا المكان، وسوف ينتهي هنا بين هذه الجدران المغلفة بالخشب.

لقد دخل أول مرة في حياته إلى هنا وهو في سن الحادية عشرة، عندما أخذه عمه "إجنازيو" إلى هناك، وقدم له اللافتة الخاصة بالمتجر المرسوم عليها الأسد الجريح، وبطريقة أو بأخرى لم يغادره منذ ذلك الحين. لقد تمنى وجود عمه "إجنازيو" إلى جواره في هذه اللحظة لينصحه ويسانده، أكثر من أي وقت آخر بصوته الواثق والمطمئن.
- لا!

صرخ، ولكن صوته لم يعلُ فوق زئير الجموع الغاضبة البائسة، فصاح شخص آخر:
- دعونا نأخذ كل شيء بأيدينا.

وقف "فينسينزيو" و"كاراتوزولو" بين الجموع البشرية وصرخ بكل ما يمتلك من قوة:
- توقفوا!

تجمد الناس في مكانهم.

نظر الجميع إليه بنظرات هي مزيج من الكراهية والأمل، وجثا شاب على ركبتيه:

- سيد "فلوريو"، أتوسل إليك أن تساعدنا!

التفت "فينسينزيو" إلى "كاراتوزولو"، ولكن الآخر ظل يهز رأسه والدموع تملأ عينيه، لأنه يرى هؤلاء المساكين ويتمنى أن يساعدهم، ولكن بالفعل ليس هناك ما يستطيع أن يقدمه لهم.

- سيد "فلوريو"، لقد نفذ كل ما لدينا من كل شيء!

رفع "فينسينزيو" لهم كفيه:

- أقسم لكم، فأنا أعرف الكثير منكم، أنت "فيتو"، أليس كذلك؟ أعلم أنك تعمل في سوق السمك، وأبوك هو "بياجيو" نجار سفن، ولديك طفلة صغيرة في عمر ابنتي نفسه، وأنت "بتينه" زوجة ملمع الرخام، وخفك يقف "بياترو" قاطع الأحجار، أعرفكم جميعًا لأنني أعيش هنا أيضًا بينكم، وقد أقسمت لكم أن ليس هناك من شيء في "الأروماتوريا" وعليكم أن تصدقوني.

صرخ شخص ما من آخر الصف وقال:

- كذب! لقد قمت بإخفاء كل التوابل، والآن فلنرحل من أمامنا وإلا سوف نزيلك بالقوة.

قامت الجموع الغاضبة بالغمجمة والتلويح والتدافع والضغط.

فتح "فينسينزيو" معطفه وفك جميع أزرار صدريته، وكشف عن صدره العاري، الذي بدأت تظهر فيه أولى الشعيرات البيضاء.

- إن أردتم قتلي فهذا أنا أمامكم، لكنني لن أترجع، ولكن إن قلت لكم إنه لم يعد هناك شيء، فهذا يعني أن لا شيء قد بقي بالفعل، وحتى لم يبق شيء لعائلتي.

انفجر قاطع الصخور في موجة من الغضب العارم:

- أنت تقول ذلك لأنك قمت بإخفاء كل شيء كي تبيعه لأصدقائك.

ضحك "فينسينزيو" من كثرة الغضب واليأس، وفتح ذراعيه وقال:

- ماذا قلت؟ أي أصدقاء؟ أترى أية عربات هنا، أو جنود؟

وجرَّ "كاراتوزولو" من ذراعه، وأضاف:

- لم يعد أحد هنا في "الأروماتوريا" سواي أنا وهذا الرجل المسكين البائس، أنا موجود هنا مثلك ومثل الجميع، إذا ما مرضت سأموت كالكلب تمامًا مثلك، وعندما أخبرك الآن وللمرة الثالثة أنه لا يوجد شيء داخل "الأروماتوريا"، فيجب عليك أن تصدقني، وأن الشحنات الموجودة في "بلازو ستيري" قد نفذت حتى يتم رفع الحظر الصحي، ولا شيء يمكنه أن يمر عبر مكتب الجمارك. وفتت "باتينا" في المقدمة وجرته من قميصه، لم يحتمل النظرات المتشككة المؤلمة المرسومة على وجهها، فأشار "فينسينزيو" إلى "الأروماتوريا" وقال:

- هل تريد أن تري بنفسك؟ إن كنت تريد فمرحبًا بك، فلتفضلني بالدخول. حل صمت مطبق على الساحة، للحظة لم يصرخ أحد، وببطء بدأ الحشد ينفذ شيئًا فشيئًا، ليُسمع بعد ذلك صرخات وتشنجات ونحيب مملوء باليأس.

في النهاية، لم يبق سوى الشاب الجاثي على ركبتيه في الشارع أمام "الأروماتوريا"، انحنى "فينسينزيو" فوقه، ووضع يده على ظهره ليواسيه وهمس في أذنه:
- اذهب للبيت يا بني، وصل للرب، هو الوحيد الذي يمكنه أن يساعدك.

انفجر "فيتو" في البكاء، دخلت دموعه تحت جلد "فينسينزيو"، لأن صوت بكاء الأب أصبح مختلفًا بالنسبة له، إذ بدأ يتخيل نفسه مكانه جاثيًا على ركبتيه على الأرض، في الطين، بائسًا وتعيسًا ومقهورًا، يبحث عن الدواء لـ "أنجلينا" أو "جيوسينا"، أو الأسوأ لـ "جيوليا".

ظل بكاء هذا الشاب البائس يطارد "فينسينزيو" حتى اليوم التالي، عندما وصل إلى بيته في "مونريال"، حيث كانت "جيوليا" والبنات باقيات في أمان. وما إن وصل، حتى حبس نفسه داخل حجرته حزناً في صمت تام. وفي الليل، على الرغم من كونه غير قادر على النوم، ذهب إلى الحجرة التي تنام فيها ابنتاه، وشعرهما منتشر على الوسائد، وفم كل منهما مفتوح جزئياً. جلس إلى جوارهما ليستمع إلى تنفسهما ليتأكد أنهما سليمتان وعلى قيد الحياة.

لا يعلم إن كان يستطيع أن يجزم الشيء نفسه بشأن ابنة "فيتو".

وقف "فينسينزيو فلوريو"، التاجر الأشهر في مدينة "باليرمو"، ورجل الصناعة، ومالك السفن الشراعية الكبرى ومناجم الكبريت ومخازن النبيذ الفاخر ومصانع التونة، وعضو الغرفة التجارية، وضامن السندات والوسيط المالي، مرتدياً نعله وقميصاً بكم طويل داخل مطبخه المتواضع في شقته البسيطة، في ضاحية "مازينين" في حي "فيا ديلا زيكاريجيا".

في شهر أكتوبر من عام 1837، تم القضاء على جائحة الكوليرا تمامًا في "باليرمو"، وعادت الأمور إلى طبيعتها بعد أن قضى الوباء على أكثر من عشرين ألف شخص داخل "باليرمو" وحدها، وكان "فينسينزيو" وعائلته من المحظوظين بكونهم ما زالوا على قيد الحياة، ولم يقتلهم الوباء كما قضى على عائلات بأكملها.

تناول "فينسينزيو" العشاء مع عائلته غير الشرعية؛ "جيوليا" وبناته. سيذهب غدًا لزيارة أمه في "فيا دي ماتيريسي"، فالحياة أخيرًا عادت لطبيعتها هناك.

ذهبت الطفلتان في سبات عميق، تراقبهما وتعتني بهما مربية الأطفال. لاحظ "فينسينزيو" كم أن الفتاتين لطيفتان، و"جيوليا" أحسنت تربيتهما وتهذيبهما، وتحدثت معهما باللغة الفرنسية، وتقرأ لهما القصص قبل النوم كل ليلة.

ما زالت "جيوليا" بسيطة وعملية كما كانت عندما التقى بها أول مرة. شاهدتها "فينسينزيو" وهي ترتب الغرفة وتضيف الفحم للمدفأة، وتغسل الخضروات وتحاول أن تفتح علبة التونة المملحة، التي

كانت من منتجات مصنع "أرنيل" للتونة المعلبة "التونارا"، التي يمتلكها بالمشاركة مع شريكه نصف الفرنسي "أوجوستو ميراي"، الذي انتقل للعيش في "باليرمو". أخذ منها العلبة وفتحها بالسكين ورفع الغطاء، فاندفع المحلول الملحي بعد الطقطقة المعدنية، رائحته التي تنتشر في الغرفة تذكره بطولته.

تداخلت الصور في مخيلته، وتخيل أنه عاد بالزمن إلى الوراء ويقف الآن داخل المطبخ في "بيانو سان جياكومو". رأي نفسه من الخلف، من ظهره، وهو يسحب قطع السمك من الوعاء المصنوع من الفخار المغلق بإحكام والمختوم بالشمع؛ هو "باولو"، أو العم "إجنازيو". التفت الشكل أو الشبح إليه؛ إنه أبوه بشاربه الكث وتعبيراته الحادة الصارمة، وقد تخيل وكأنه يراه وهو يغسل السمك تحت الماء الساخن كي يتخلص من الملح الزائد، وكأنه يقول شيئاً لأمه عن قدرتها في حفظ السمك لعدة أسابيع في زيت الزيتون.

يعلم "فينسينزيو" جيداً أن امرأته غيورة ومتقلبة المزاج ونضرة مثل الزهور ومجنونة، قد تقضي على نفسها في ليلة واحدة إذا استبد بها اليأس، فالمظاهر خداعة وتخفي الكثير من روح وصفات الإنسان الحقيقية وراء الظلال.

يعي "فينسينزيو" بشكل كامل هذا الظلام الكامن بداخلها ويعكس نفسه فيه كمرآة، ولكنه لا يستطيع أن يتغير، لأن ما تسامحه "جيوليا" عليه من أفعال شاذة وغير مقبولة لن يسامحه عليه المجتمع، لكن في النهاية، "باليرمو" مدينة منافقة لأنها ستستمر رغم كل شيء في حبه وحب آل "فلوريو"، ما داموا يأتون إليها بالأموال والرفاهية، فالمدينة تتعم هذه الأيام على غير العادة بحالة من الفضل والنعمة والسكينة الغامضة، وتزهو بالمزيد من الألوان، ومظاهر العمران والتشييد المنتشرة في كل مكان، وفي هذه الحالة من النمو والازدهار، تحتاج "باليرمو" لأمواله أو بالأحرى لأموال "كازا فلوريو". يلتزم "كارلو جياتشيري" الصمت في العادة، عندما تتتاب "فينسينزيو" هذه الحالة من الشرود في التفكير، لأنه يعرف أنه عندما تتلبسه هذه الحالة، فهذا يعني أنه يفكر في شيء هام بعقله وما عاد يستمع لأحد.

- "فينسينزيو"!

- ماذا؟ ما الأمر يا "جياتشيري"؟

- أين أنت يا صديقي؟ فأنا أتحدث إليك منذ فترة، هل كنت تسمعي؟ هل هو صوتي الذي يدفعك نحو هذه الحالة من الشرود، أم أن هناك شيئاً ما تفكر فيه وتريد أن تخبرني به؟ أشار "فينسينزيو" بيده بحركات تعبر عن اعتذاره لـ "كارلو" لأنه لم يكن منصتاً إليه.

- كلاهما في الواقع. ما الذي كنا نقوله؟

- كنت أقول لك إن راهبات "نوبا باديا" يشكين مر الشكوى من الضوضاء، التي تتسبب فيها أنوال مصنع القطن أثناء العمل.

- عجيب أمر هؤلاء الراهبات! لماذا يشكين من ضوضاء المصنع، والرهبان الذين يقيمون بجوار المصنع مباشرة لم يشتكوا؟ من يدري ما الذي يدور في رؤوسهن التافهة؟! وضع "فينسينزيو" ذقنه بين يديه المتشابكتين وقال:

- هذه هي صقلية يا عزيزي، وهؤلاء هم سكانها، فما إن تبدأ في عمل شيء جديد ومختلف، حتى يبدأ الجميع في البكاء والعيول، إما لأنك تزعجهم أو لأنهم كارهون لما تفعله، أو لأنهم يريدون أن يملوا عليك ما تفعله، أو لمجرد أن يتسببوا لك في الضيق والحرج وحسب.

قهقهه "كارلو" وقال:

- لقد فهمت ما تشير إليه. في الحقيقة كنت أفكر بالفعل في تغليف جدران المصنع ببعض كاتمات الأصوات كي تكتم الصوت نوعًا ما، ولكنني لا أدري إلى أي مدى ستتجح هذه الفكرة، وهن يشتكين كذلك من البخار المتصاعد من الآلات.

- إنها مغازل وأنوال، وهذا بخارها. في إنجلترا على سبيل المثال، تم استخدام البخار منذ أكثر من عشرين عامًا ومع ذلك لم يشتك أحد. فلنطلب منهم أن يقضوا المزيد من الوقت في تلاوة الصلوات، وأن يبقوا النوافذ مغلقة أثناء ذلك، بدلاً من قضاء الوقت في الإنصات إلى...

كان يبحث عن قصاصة من الورق على المكتب، فوجدها، ثم قرأها مرة أخرى لتزداد التجاعيد الموجودة بين حاجبيه عمقًا:

- فلتقرأ ذلك.

ارتدى "جياتشيري" نظارته، وبدأ يركز في الورقة التي سلمها له "فينسينزيو":

- هذه الورقة تقول بأن مبيعات التونة قد انخفضت بشكل كبير.

- في كل حلقات بيع التونة، في العالم بأسره، وليس في صقلية فحسب، وهناك انخفاض على طلبات توريد السردين والماكريل كذلك.

- هكذا...

أشار إليه "فينسينزيو" كي يكمل قراءة الورقة حتى النهاية:

- لماذا حدث ذلك من وجهة نظرك؟ هل لأنها تتسبب في الإصابة بمرض "الإسقربوط" كما يشيع الناس؟

- نعم، هذا سبب هام، ولقد بدأ الإنجليز في الانسحاب من أسواق التونة، وغيرهم من ملاك السفن شيئًا فشيئًا، ولكنني أعلم أن هذا غير صحيح، لأن عائلتي كانت تتاجر في التونة المملحة والمعلبة منذ سنوات، ولم يفقد أحد أسنانه كما يدعي الناس.

- من يعرف؟ إن هبوطًا مثل هذا... لا يمكن أن نقول حتى الآن أنه انهيار، ولكن قد يصبح كذلك في يوم ما؟

أشاح "فينسينزيو" بيديه كإشارة على القلق والتوتر:

- إن اللحم يتم حفظه بواسطة الثلج الذي يأتي من جبال "مادونيا"، ولكن التونة يتم حفظها بالتلميح، أليس كذلك؟

- نعم، أهذا يعني أنك تبحث عن طريقة جديدة لحفظ التونة؟ أهذا ما تريد أن تقوله؟ مثل التدخين على سبيل المثال، ولكنني لا أدري إن كانت هذه الطريقة ملائمة لحفظ التونة، أو...

كان "كارلو" مستغرقًا في أفكاره.

نقرة. بعدها نظر "فينسينزيو" لأعلى. ثم نقرة.

تذكر "فينسينزيو" أباه عندما كان صغيرًا؛ كان يراه وهو ينقع السمك في زيت الزيتون بعد أن يغسله جيدًا، لكي يتخلص من الملح لأن...

نقرة

خاص مرة أخرى بين أوراقه بحثًا عن التقويم:

- متى سيكون مهرجان صيد التونة الجديد؟

- خلال عشرة أيام من الآن، لذا...

راقبه "جياتشيرى" جيداً، فـ"فينسينزيو" رجل مفعم بالحوية والنشاط، ويتمتع بنهم وجنون، يجعله كل ذلك يبدو أصغر بكثير مما هو عليه.
سأل "فينسينزيو" رفيقه "كارلو" وهو واقف في مكانه:
- لماذا يتحلل اللحم ويفسد يا "كارلو"؟
لكنه لم ينتظر حتى تصله الإجابة، وأضاف:
- لأن الديدان والطفيليات تبدأ في التكاثر ثم التهام اللحم، ولكن، ماذا سيكون الوضع إذا ما قمنا بطهي اللحم؟ النتيجة هي أن اللحم ستقاوم التحلل والتعفن بدرجة أكبر، ولكن ما هي الطريقة التي تُحفظ بها اللحم لأطول وقت ممكن دون أن تتحلل؟
وقف "فينسينزيو" قبالة "كارلو" مباشرةً ومال عليه قليلاً:
- ماذا لو أردت أن تحفظ اللحم لفترة طويلة وليكن ستة أشهر أو سنة، أو حتى لفترات أطول، على سبيل المثال لتبقى صالحة للأكل طوال رحلة كاملة في المحيط؟ ما الذي يجب عليك أن تفعله؟
وهمس بالجواب في أذنيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في شهر مايو، وفي أوج دفء الربيع، بدأت أول عملية صيد جماعي لسماك التونة؛ لقد كان الرزق كبيراً ومنح البحر الصيادين والبحارة الكثير من الخيرات الوفيرة. شكر الصيادون والبحارة القديس "بيتر" والقديس "فرانسيس من باولا"، وسجدوا تضرعاً لهما وشكراً على هذا الصيد الوفير.
في شهر مايو، تمت تعبئة بعض قطع التونة في علب معدنية، والبعض الآخر في عبوات مصنوعة من الزجاج ومملوءة بزيت الزيتون، وتم تخزينها بأمان داخل خزانة المون الموجودة في بيت السيد "جياتشيرى"، وتحت مراقبة ومتابعة "كارولينا" زوجته المتحيرة.
إنهم هنا؛ في انتظار الفترة الصحيحة للمرور دون تحلل.
فترة الصلاحية المتوقعة بطريقة التخزين الجديدة هي عام.
تم إجراء التجربة قبل عام، وقبل أن تثبت محاولة "فينسينزيو" في طبخ التونة وحفظها في زيت الزيتون داخل حاوية قدرتها على البقاء صالحة للأكل دون تحلل أو فساد طوال رحلة بحرية كاملة في المحيط، أو حفظها بشكل عام دون تحلل لفترة طويلة، وبإصرار منه على إتمام التجربة بنجاح، وتحت سطوة فكرة أنه إن لم يأتِ بجديد في هذا المجال، فإن شيئاً لن يتغير على أرض الواقع، وسيستمر انخفاض الطلب على توريد سمك التونة المملح. وهو يحاول أن يسيطر على حياته.
في شهر يونيو، ترتفع درجة الحرارة بشدة وتصبح أشعة الشمس حارقة وقوية تنتشر بشكل كبير في كل مكان بدرجة تكاد تعمي العيون من شدتها، ويجف الغسيل على المناشر بسبب هبوب رياح "السيروكو" الشرقية. أخذت "جيوليا" "فينسينزيو" من يده وأخبرته بأنها حامل للمرة الثالثة.
وفي 18 من شهر ديسمبر عام 1838، عند الفجر، طرقت أحدهم على باب منزل آل "فلوريو" في ضاحية "فيا دي ماتيريسي"، وسرعان ما تحول النقر على الباب إلى طرق شديد.
سمعت "جيوسبينا" الضوضاء، ولكنها أوقفت الخادمة وهي في منتصف الطريق ومنعتها من فتح الباب ونادت:
- من الطارق؟
رأت خادمة "جيوليا" وهي تلهث وتقتحم المنزل وتقول:

- أبحث عن السيد "فلوريو"، فسيدتي "جيوليا" على وشك الولادة، إنها بالفعل تعاني الأم المخاض، وأخبرتني أن آتي إلى هنا كي أخبر السيد "فلوريو" بذلك.

دفعتها "جيوسبينا" إلى الخارج:

- ثم ماذا؟ ما المشكلة؟ فلتذهبي أنتِ وهي!

استيقظ "فينسينزيو" على صوت الطرق، وعيناه شبه مغلقتين، فهو ما زال غير واعٍ بشكل كامل، ولكنه فاق بمجرد وقوع عينيه على الخادمة.

- ما الأمر يا "نينيتا"؟

- السيدة "جيوليا" أرسلتني؛ إنها تلد وتعاني الآن من آلام الولادة، لقد حان الوقت يا سيد "فلوريو".

- يا إلهي! اليوم من بين كل الأيام، ما كان لها أن تختار يومًا أفضل من ذلك لتلد فيه؟!

ومرر يده في شعره.

- لديّ اليوم اجتماع هام متعلق بمصنع ومخازن النبيذ ولا يمكنني أن أفوته، وهي تعلم ذلك جيدًا. اذهبي الآن، وأخبري سيدتك أنني سأحضر في وقت لاحق، لكنني لا أستطيع الآن.

نزلت الفتاة مهرولة على السلام واختفت سريعًا. أغلقت "جيوسبينا" الباب خلفها وقد انتابتها موجة من الغضب.

- لقد أتت لتبحث عنك هنا؟

- لقد أمرتها بذلك.

قالت "جيوسبينا":

- إنها ليست حتى زوجتك، ما الذي تريده بالضبط؟ المزيد من المال؟

ارتدى "فينسينزيو" ملابسه على عجل، بينما كان عقله مشغولاً بغرفة النوم في منزله القاطن في ضاحية "فيا ديلا زيكاريجيا"، لأنه متأكد أن "جيوليا" تصرخ الآن من شدة الألم، وفي الوقت نفسه يتعجب كيف تحولت أمه إلى هذا الشخص متبلد المشاعر.

في السنوات الأخيرة، صارت "جيوليا" هزيلة ونحيلة، ووجهها الذي كان من المفترض أن يهدئ الحمل والولادة من حدته، أصبح على العكس أكثر حدة وصرامة وكأنها تعادي العالم كله.

هو أيضًا قد بدأت تبدو عليه ملامح الكبر، فقد غزا الشيب مفرق رأسه، وازدادت الخصل الرمادية في شعر رأسه، وأصبحت جفونه أثقل وممتلئة بالتجاعيد. قرر "فينسينزيو" التخلي عن فكرة الزواج بإحدى الفتيات الأرستقراطيات من ذوات الحسب والنسب والشرف منذ وقت طويل، فقد أصبح من الصعب عليه الآن أن يجد فتاة صغيرة جميلة، تقبل أن تتزوج من رجل على وشك بلوغ الأربعين من عمره ولديه ثلاثة أطفال زنا ليرعاهم. والأهم من كل ذلك، أنه يحب "جيوليا" ولا ينظر إليها باعتبارها زوجة فحسب بل رفيقة وداعمة، وهي الإنسانية الوحيدة القادرة على احتمال ذلك الجانب الأسود والمظلم من شخصيته، وستظل "جيوليا" تسعى وراء "كازا فلوريو" لأنها تحبه بالرغم من كل خطاياها، وقد قبلت به وبطموحه وغضبه وتحملت عناء الازدراء الاجتماعي لأجله، وفي المقابل منحته كل شيء؛ الحب والحنان والوفاء والحضن والسكن والإخلاص، ما عدا... لم يجرؤ على أن يكمل.

فجأة، أضاء شعاع من الضوء خاتم عمه "إيجازيو" الذي يرتديه في إصبعه، عندما تعلق فجأةً بربطة عنقه وهو يعدلها في طريقه للمكتب، حينها قرر "فينسينزيو" فجأةً أن يمر على كنيسة "القديس أجوستينو"، وأن يصلي فيها بصمت لـ "مريم العذراء" لأول مرة منذ عقود.

صلى من أجل أن تحدث المعجزة، ثم توجه بعد الانتهاء من الصلاة مباشرة لـ"الأروماتوريا"، وترك رسالة للمحاسب "لورينزو لوجارو"، ليذهب بعد ذلك لـ"فرانشيسكو دي جيوريجيو" في المخزن الموجود في ضاحية "بيانو سان جياكومو"، كي يناقش معه العقد الخاص بشحنة السماق. في نهاية اليوم، التقى ملاك عدد من مزارع العنب الواقعة بين "تراباني" و"باتشيكو". كان الرجل يرغب في أن يبيع له كميات كبيرة من عنب "النسونيكا" و"كاتاراتو" و"داماشينو"، التي يُصنع منها أرقى أنواع النبيذ الأبيض الفاخر، وفقاً للمعلومات التي زوده بها "رافاييل" مدير المصنع والمخازن هناك في "مارسالالا" وابن عمته "ماتيا".

- يقول الجميع عنك إنك رجل مهذب ومحترم، والآن، وبعدما التقينا بك، تأكد لدينا هذا المبدأ. إن السيد "رافاييل" ابن عمك رجل جيد، ولكنك تتميز عنه بأن لديك أفكاراً محددة وتعرف بالضبط ما الذي تريده، ولهذا شعرت برغبة قوية في التحدث إليك مباشرة، باعتبارك المالك الأصلي للمصنع في "مارسالالا".

اصطحبه "فينسينزيو" إلى داخل المكتب، ثم جلس ليفكر ملياً في كلمات الرجل، لأن أمر إدارة "رافاييل" للمصنع كان يؤرقه منذ فترة، فالوضع في مصنع ومخازن "مارسالالا" للنبيذ يقلقه بعض الشيء، لأن الأمور هناك لا تسير على النحو المرجو، فـ"رافاييل" بحاجة إلى التمتع بميزة المبادرة والمزيد من الجرأة والشجاعة، وسوف يتطرق لهذا الأمر في أسرع وقت ممكن ويجلس معه ليناقش كل تلك الأمور التي تؤرقه.

حان وقت الظهيرة، وانتهى "فينسينزيو" من أغلب مواعيده ولقاءاته الهامة، ويستطيع الآن التوجه لبيت "جيوليا" في ضاحية "فيا ديلا زيكاريجا"، ولم يبق سوى أن ينصت لـ"ليوجارو" الذي كان يتبعه، ليخبره بكل الشائعات التي تدور داخل الغرفة التجارية، وبين الأعضاء، وفي "لاكالا". قال "ليوجارو":

- احتكر الفرنسيون والإنجليز عملية نقل الكثير من البضائع، ولن يتراجعوا ويسلموا زمام المبادرة للبواخر الخاصة بشركة "نابلس"، وما من أحد قادر على الوقوف بوجههم وتثيهم عن هذا التوجه. سننظر في هذا الأمر ونرى ما الذي يمكن أن نقوم به.

لم يكن "فينسينزيو" قادراً على التفكير في أمر البواخر ولا غيرها في هذا الوقت، فخلف وجهه المتحجر هذا الذي يظهره للناس، هناك وجه آخر حنون أمضى اليوم بأكمله وهو يتخيل وجه "جيوليا" وهي تصرخ أمامه من شدة الألم، ووجهها مبلل بالعرق وجسدها يتمزق من شدة الألم. كان يأمل "فينسينزيو" في حدوث معجزة، وهو الشيء الوحيد الذي دفعه للذهاب للكنيسة كي يطلب من الرب أن يمن عليه به.

دخل "فينسينزيو" من الباب الأمامي، ولحق به "ليوجارو" بصعوبة. قفز على السلالم بسرعة، ووصل إلى الشقة ليجد كلاً من "جيوفاني" و"توماسو" واقفين على عتبة البيت ومعهما بعض المعارف، وقد حُشرت الكلمات في حلوقهم عندما رأوا "فينسينزيو". نظر الجميع إليه بحدة، وكأنهم يريدون أن يضربوه ويهشموا رأسه.

عندما راهم "فينسينزيو"، انتابته حالة من القلق والخوف والارتباك:

- ما الأمر؟ هل "جيوليا" بخير؟

لم يجبه أحد.

فتح "فينسينزيو" الباب على مصراعيه ودار في الغرف، ثم اندفع داخل غرفة "جيوليا" فوجدها حية، ولكن وجهها شاحب ومرهقة ونصف نائمة على السرير، والفتيات الصغيرات يثرثرن إلى جوارها. لملمت الممرضة وأمها القماش والجردل المملوء بالماء الملوث بالدماء. أمسك بالمسند ووضعها لها وقال:

- هل أنت بخير؟

قالت "أنطونيا" وهي تعنفه:

- ما الذي فعله هنا؟ فلنذهب بعيداً مع باقي الرجال، فـ"جيوليا" ما زالت مجهدة بعد الولادة وغير مهياًة.

ولكن "جيوليا" اعتدلت في جلستها على الفراش:

- لا بأس يا أمه، يمكنكم الخروج الآن، من فضلكن، فأنا أريد التحدث مع "فينسينزيو" على انفراد. تبادلت الأم والممرضة النظرات المتحيرة؛ ما زال الوقت مبكراً على هذا، ويجب أن تتعم المرأة بقسط من الراحة بعد الولادة مباشرة. هزت الممرضة كتفيها وكأن لسان حالها يقول ما دامت سعيدة، فلا بأس، وجمعت أغراضها وذهبت.

ترددت "أنطونيا" بعض الشيء، إلا إنها أمسكت ببعض المناشف المخضبة بالدماء، ودفعت "أنجلينا" و"جيوسبينا" أمامها إلى خارج الغرفة.

- تعاليا مع جدتكما، هيا، لنضع هذه الأشياء في سلة الغسيل.

أغلق "لويجارو" الباب خلفهما، وأصبحا بمفردهما.

لم يقوَ "فينسينزيو" على سؤال "جيوليا" عن نوع الطفل، لأنه كان يخشى الصدمة أن تكون فتاة أخرى، ففي هذه الغرفة، وأمام هذه الأمانة، تقف كل قوته وأمواله وثروته وتوابله وسفنه ونبيده ومصانع التونة ومناجم الكبريت بلا قيمة، وأتى صوته مجوحاً ورقيقاً:

- هل أنت بخير؟ هل...

- نعم.

تحدثا معاً في الوقت نفسه.

فجأة سمع صوت بكاء.

أشارت "جيوليا" للمهد المصنوع من الخيزران وقالت:

- انظر.

اقترب "فينسينزيو" من مهد الطفل، ونظر إلى وجهه المجعد وفمه الذي يتحرك بشكل عشوائي بحثاً عن ثدي أمه. مال على الطفل الرضيع المُقْمَط، وتفحص ملامحه بفضول كبير مصحوب بمزيج من الخوف والارتياح.

لم تقل "جيوليا" شيئاً، وفضلت الاستمتاع باللحظة الرائعة في مخيلاتها بكل تفاصيلها.

هز برفق ذلك الطفل النائم في مهده الصغير وهو مذهول:

- هل هو حقاً صبي؟

أجابته "جيوليا":

- أخيراً.

غطى "فينسينزيو" فمه بيده، وكبح شهقة الفرح وقال:

- شكراً للرب!

وكررها عدة مرات متتالية بهدوء حتى لا يسمعها أحد، وأخيراً أصبح لعمله وحياته هدف ومعنى، بالطريقة نفسها التي كان يمثلها هو بالنسبة لعمه "إجنازيو" وأبيه "بولو" الذي أصبح الآن ذكرى باهتة في مخيلته. لم يعد المستقبل مظلمًا بالنسبة له، بل أصبح له ذراعان وقدمان ورأس.

أراد أن يحتضن ولده، لم يحمل الفتاتين بين ذراعيه عندما وُلدتا، لكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من حمله، ووضع إحدى ذراعيه تحت رأسه والآخر تحت جسده:

- حقاً إنه ابني، دمي ولحمي، عزيزي، قلبي وروحي ونور حياتي.
كان الطفل خفيفاً للغاية، وبشرته صافية ناصعة البياض بسبب البرد الشديد في ديسمبر، له جبهة عريضة صلبة، ورائحة اللبن والنشا واللافندر تفوح منه.

حاولت "جيوليا" أن تتجاهل العطف والحنان الذي تشعر به وهي ترى الأب والابن معاً في هذه الحالة، وأن تتماسك قليلاً، على الرغم من أن قلبها كان واقفاً في حلقها من شدة الخوف، وكانت تجتاحها رغبة جارفة في أن تحتضنهما معاً، ولكن الواقع يفرض عليها أن تنتهز الفرصة وترغم نفسها على التحدث معه؛ أن تطلب منه في هذه اللحظة الحاسمة أن يعترف بعلاقتهما، فهي تعلم إما الآن وإلا فلا.

- لقد منحتك طفلاً ذكراً، والآن حان الوقت أن أستعيد شرفي، وأن تعترف بالطفلتين وتمنحهما اسمك، فأنت مدين لي بذلك.

نظر "فينسينزيو" لوجه الرضيع؛ كانت ملامحه واضحة، وله جبهة عالية وفك قوي. إنه من عائلة "فلوريو". ولكنه أخذ من "جيوليا" عينيها الواسعتين.

جلس على حافة السرير، وهو يحمل الرضيع بين يديه، وأمسك يدها وقال:

- أعدك بأنهم سيحملون اسمي، أقسم أمام الرب أنني سأمنحهم اسمي!
تتهددت "جيوليا" تهديداً تحمل الشعور بالراحة، بسبب موافقة "فينسينزيو" أخيراً على الاعتراف بأبوتها للبننتين والزواج بها، كي تسترد شرفها بعد كل هذه السنوات التي مرت بها من الإرهاق والمرارة والعناء، منذ اللحظة التي عرفته فيها وحتى هذه اللحظة. والآن، تستطيع أن تعود بظهرها للخلف لترتاح على الوسادة وهي تنظر إليه هو والطفل، وهما مجتمعان معاً في هذا الاحتواء الجميل الذي يبدو بالفعل كمعجزة حقيقية.

شعرت بدموع التحرر من هذا القيد المهيمن تنساب ساخنة على وجنتيها، لأن "فينسينزيو" وعدّها بالزواج، وأن لها أن ترفع رأسها أمام الناس الذين احتقروها، وتحمل لقب السيدة "فلوريو" الذي سينهي معاناتها ويمسح عنها عارها إلى الأبد، فما عاد هناك اختفاء وتستر بعد الآن، ولا وصم بالعار ولا ازدراء من المجتمع والأهل.

لقد تطلب الحصول على هذا الوعد أربع سنوات من العذاب المهيمن والشعور الدائم بالعار؛ أربع سنوات كاملة من الوحدة، والاحتقار والخزي من التقرب والاهتمام من طرف عائلتها التي كستها بالعار، وثلاثة أبناء زنا، وعلى الرغم من كل ذلك، كانوا دائماً معها وإلى جوارها دون سبب سوى المحبة والعطف.

تذكرت حالات الجدل والصراخ والفراق بينها وبين "فينسينزيو" حبيبتها، ومصالحتهما ورجوعهما لبعضهما مرة أخرى، وكذلك "جوسبينا" وإهانتها القاسية، وصمت "أنطونيا" القاتل والبذيء؛ كل هذا كي تصل لهذه اللحظة.

استمرت "جيوليا" في الإمساك بقوة بيده:

- هل ستسميه "باولو" على اسم والدك؟

فكر لبرهة:

- أبي؟ هل أسميه باسم الرجل الذي أتى بي لهذا العالم، أم على اسم الرجل الذي رباني، والذي علمني ورعاني حتى صرت ما أنا عليه الآن؟

أقلت "فينسينزيو" أصابعه من بين يديّ "جيوليا"، وهز وجه الصبي، وكسى الحزن عينيه:

- لا، بل سأسميه "إجنازيو".

أومات برأسها وكررت الاسم:

- "إجنازيو".

سوف يحملان إلى الأبد كل ما باحا به لبعضهما دون كلام إلى الأبد، حتى يأتي اليوم الذي سيخبر فيه "جيوليا" التي تمسك بيده إلى أي مدى أحبها دون أن يخبرها.

تدفق الضوء عبر النوافذ وفاض على السلام، حتى وصل إلى سقف البيت وسقط على الطاولة المصفوفة بشكل أنيق وفاخر، لينعكس على الكؤوس المصنوعة من زجاج "المورانو" فتتوهج بالضوء. تباطأ الضوء في خطاه ناحية أطباق "الكابوديمونت" الصينية ليضيأها. كان المنزل مضاءً كالنجوم المتلألئة.

أما "جيوليا"، فكانت جاهزة في انتظار حضور الضيوف، مرتدية ثوباً أزرق داكناً ورقيقاً يناسب المساء، وكانت أغلب الوقت منهمكة في تفقد كل شيء بنفسها، كي تتأكد أن كل شيء على ما يرام وما من شيء ناقص، وأن الخادמות يبدن نظيفات ومرتبات، وأن هناك وفرة من "الشمبانيا" تكفي الضيوف، وأن مفرش السفرة نظيف والفضة متلألئة ولامعة بشكل جيد، وأن الطعام الذي تم غرفه في الأواني ما زال دافئاً، وأن السجائر وشراب "الليكير" متوفرة على الأرفف، فهو العشاء الأهم في حياتها، لأنه أول عشاء تنظمه في بيت عائلة "فلوريو"، بعد أن ظهرت للعلن كزوجة شرعية للسيد "فينسينزيو فلوريو"، ولأن العشاء هو احتفاء بتوقيع عقد تأسيس أول شركة للسفن البخارية يمتلكها "فينسينزيو" ومجموعة من الشركاء المعروفين. قد يبدو الأمر غريباً بعض الشيء بالنسبة لها، فهي لم تعتد بعد على الظهور للعلن، ولم تعتد على لقب السيدة "فلوريو"، فقد اعتادت أن تعيش بين الظلال لوقت طويل، وتسلط الضوء عليها ما زال يخيفها ويربكها.

حفل العشاء هذا ليس ككل حفلات العشاء، فهو هام واستثنائي بالنسبة لـ "فينسينزيو"، إنه في الأساس عشاء عمل، وهو عملياً اجتماع عمل ذكوري يحضره لفيف من الضيوف الاستثنائيين من أهم رجال الأعمال في "باليرمو"، وليس هؤلاء فحسب، بل ومجموعة من أبناء الطبقة الأرستقراطية، وأشخاص من أصحاب الألقاب التي قد يصل طول بعضها لطول ذراعك، وحدث أي خطأ أو هفوة غير مقصودة أمر غير مقبول. لقد أصبحت الآن السيدة "فلوريو"، وهذه هي حصتها من المسؤولية، فهي الآن واحدة من آل "فلوريو".

لم تعتد بعد على لقبها الجديد، فالبيت بالنسبة لها سيظل دوماً تلك الشقة البسيطة الموجودة في ضاحية "فيا ديلا زيكاريجيا"، والتي كانت تجمعها بـ "فينسينزيو" بعيداً عن العالم، فهذه الشقة كانت وستظل في مخيلتها للأبد شقة أم "فينسينزيو"، والتي أتت إليها كزوجة في شهر يناير من عام 1840؛ أي بعد مرور عام كامل على مولد "إجنازيو".

بداية الغيث كانت اعتراف "فينسينزيو" بـ "إجنازيو" الصغير كابن شرعي له، تلاه الفتاتان "أنجلينا" و"جيوسبينا" كابنتين شرعيتين له، وتحملان اسمه واسم عائلة "فلوريو"، وتلا هذا الاعتراف

بأسبوعين الاعتراف بـ"جيوليا" نفسها كزوجة شرعية.

في الخامس عشر من شهر يناير 1840، تزوج "فينسينزيو فلوريو" من "جيوليا بورتالوبي" أمام الموظف العام في مراسم مدنية، ثم ذهب إلى الكنيسة في اليوم نفسه. وفي المساء، كان الحفل البهيج للإعلان عن خبر الزواج السعيد.

خلت مراسم الزفاف من أي حضور خارج إطار العائلة سوى موظفي "كازا فلوريو"، وقام بتأدية مراسم الزواج كاهن كنيسة "سانت ماريا ديلا بيتا" في "كالسا"، وهو بالمصادفة الكاهن نفسه الذي عمد الأطفال. لقد أصبح الكاهن عجوزًا تسكن الألام كل موضع من جسده المريض، وهو من أطلق تهيدة الخلاص عندما وقع "فينسينزيو" أخيرًا على وثيقة الزواج، وتمتم ببعض الكلمات ذات الدلالات العميقة:

- انظر، إن الأمر شديد البساطة والسهولة.

ابتسمت "جيوليا" عند سماع هذه الكلمات، لأن هذا الأمر البسيط قد كلفها أربع سنوات كاملة من العذاب وثلاثة أبناء زنا، إلى أن أنجبت طفلًا ذكرًا كي تصبح السيدة "فلوريو".

كانت تعبث طوال الوقت بأسورتها المصنوعة من الألماس واللؤلؤ التي أهداها إياها "فينسينزيو"، كي تسيطر على أعصابها. بعد ذلك، ذهبت لحجرة الأطفال لتتفحص أحوالهم؛ كان "إجنازيو" نائمًا كما هو الحال بالنسبة لـ"جيوسبينا" و"أنجلينا". جلست إلى جوار المربية الفرنسية الأنسة "بريجيت"، التي كانت تقرأ لهم قصة ما قبل النوم، وحيثها بقبلة وأغلقت الباب خلفها بهدوء. هذا أيضًا تغير جديد طرأ على حياتها، فلم تعد هي من يصطحب الأطفال إلى أسرتهم كي تحكي لهم قصة ما قبل النوم.

سارت مدبرة المنزل على حذر، واقتربت من "جيوليا" بخفة وهدوء حتى لا تزعجها:

- أرجو المعذرة يا سيدتي، فأنا لم أقصد أن أخيفك.

- لا بأس، ما الأمر؟

اسم مدبرة المنزل هو "لويزا"، وهي امرأة متوسطة العمر، اعتادت فيما سبق أن تخدم في إحدى بيوت العائلات النابولية.

تحدثت بتردد:

- سيدتي، السيدة والدة السيد "فلوريو" استمرت في إلقاء الأسئلة بشأن العشاء، وقالت إنها ليست على ما يرام، وإنها لن تحضر هذا العشاء ولن تستقبل الضيوف، ولن تتمكن من تناول هذا الطعام الذي قمت بطلبه.

دلكت "جيوليا" جبهتها:

- لا بأس، سوف أذهب للتحدث معها.

من الواضح أن "جيوسبينا" لن تتركها وشأنها حتى في هذه الليلة.

صعدت "جيوليا" السلم الداخلي، الذي يفصل جناح "جيوسبينا" عن باقي المنزل، والذي تقطنه باقي الأسرة. قبل حفل الزفاف بقليل، قرر "فينسينزيو" عمل تلك التعديلات حتى تتمكن "جيوليا" وحمايتها من العيش بسلام تحت سقف واحد. كان "فينسينزيو" حكيماً في قراره، عندما قرر تقسيم البيت إلى قسمين كي لا تتصارع السيدتان على إدارة المنزل، لكن هذا الأمر لم يجد نفعاً كثيراً.

عندما صعدت "جيوليا"، وجدت حمايتها جالسة إلى المكتب مرتدية ملابس البيت، وقد وضعت على رأسها غطاءً من الدانتيل، وترتدي فستاناً قديماً لونه رمادي ومصنوعاً من القطن.

انحنت "جيوليا" أمامها حتى لا يقال عنها إنها قليلة الاحترام، وقالت:

- سيدة "جيوسبينا"، لقد أخبرتني الأنسة "لويزا" أنك لست بخير.
- هذا صحيح، فأنا مرهقة بعض الشيء، ولا أشعر بالرغبة في النزول للأسفل، فضلاً عن أنك ستكونين هناك، أليس كذلك؟

تفحصت "جيوسبينا" الثوب الذي ترتديه "جيوليا" بنظرات حادة، وتوقفت عند فتحة الرقبة:
- ما كل هذا الدانتيل؟ لا بد أنه تكلف الكثير؛ ثوب بفتحة واسعة وشديد الأناقة، يبدو كثوب ملائم للذهاب للمسرح.

- لقد أهداه لي زوجي وطلب مني أن ارتديه.
أشارت "جيوسبينا" بحركات قلقة لكن بتعبيرات وجه توحى ما تقوله:
- لأنه يفكر كرجل، وهو يحب أن يبرز بعض الأشياء، وأنت كنت سخية معه دائماً وتسمحين له بذلك.
على أي حال...

محممت "جيوليا": "أيتها السماوات، كم أكره هذه السيدة!"، وحاولت أن تتغاضى عن إهاناتها وتلميحاتها البذيئة، ما دامت هذه المرأة موجودة فستظل تشعر دائماً أنها دخيلة على هذا البيت، لكن على أية حال، عليها أن تتكيف مع هذا الوضع حتى لا تغضب زوجها.

- ألا ترغبين حتى في النزول لبعض الوقت كي ترحبي بالضيوف، ثم تستأذنين بعد ذلك وتصعدين للأعلى؟ فسيحضر على حفل العشاء أمير "تريجوننا"، وأمير "دي تريبيا"، والبارون "شيارامونت بوردينارو"، والسيد "إنجهام"، والسيد "جيانشيري"، إن لم تحضري على الإطلاق، فسوف يستاء "فينسينزيو".

اقتربت "جيوليا" منها ورسمت على وجهها تعبيرات وديعة، على الرغم من الألم الذي يسكن معدتها المنقبضة بسبب إهانتها المتوالية.

- تعلمين بالطبع إلى أي مدى عمل "فينسينزيو" بكد كي يحصل على هذا العقد، وكم من الوقت استغرقه كي يقنع شركاءه بتأسيس شركة السفينة الشراعية. تعالي معي الآن، وقدمي هذه التضحية من أجله ومن أجل سعادته.

وأشارت "جيوليا" لخزينة الملابس:

- لو سمحت لي أن أساعدك في ارتداء ملابسك، فسوف تكونين جاهزة في وقت قصير جداً.
- توفقي عن ذلك؛ أخبرتك بأنني لن أحضر هذا العشاء، وبدلاً من ذلك، فلتحضري لي كوباً من حساء الدجاج.

كان هدوء "جيوليا" في مقابل هذا السيل من الإهانات يخفي بداخلها صوتاً كصوت تحطم الطناجر.

- هل أنت جاهزة، أم أنك ما زلت بحاجة لأن تمشطي شعرك؟ هل قمت بعمل كل شيء بشكل صحيح؟ فليس من السهل عليك تنظيم عشاء كهذا وأنت ليس لديك خبرة.

لمست "جيوليا" شعرها بغل فطري:

- لا أعتقد أنك قد سبق وقمت بتجهيز العديد من المناسبات أو حفلات العشاء لابنك.

- نعم، القليل، لكن على كل الأحوال أكثر منك، فليس من السهل عليك أن تكوني من آل "فلوريو"، يجب عليك أن تعرفي ذلك.

نظرت إلى أصابعها التي ترك الزمن عليها علامات الشيخوخة والعجز.

- فال "فلوريو" لا يضعون أحداً في حسابناهم، عندما يريدون تحقيق شيء ما، فهم يسعون وراءه ولا يهدؤون حتى يصلوا عليه، ولا يعترفون بالفشل أو الهزيمة.

حنت "جيوليا" رأسها، ولم تجد الرد المناسب عليها، فهي تكره نفسها عندما لا تستطيع أن تجد الجواب المناسب.

"اطمئني، فأنا لن أفشل ولن أخذل زوجي مهما حدث، وسوف أجعله فخوراً بي".

دار هذا الحديث المقتضب بخلد "جيوليا" وهي واقفة أمام "جيوسبينا".

- هل صنعتِ فطائر اللحم؟ أتمنى أن تكوني قد استخدمتِ الطقم الفضي الذي أحضره "فينسينزيو" من إنجلترا.

كانت نبرة "جيوسبينا" حادة.

- نعم، وحضرت المحفوظات والصلصات الباردة للحم المشوي، والتونة.

دارت "جيوسبينا" في كرسيها وخلعت غطاء الرأس:

- ماذا عن النبيذ الفرنسي؟ لا أفهم هوسك بهذه الأشياء الأجنبية. أعتقد أنك أتيت من الشمال، وأنتم أيها الشماليون لكم طرقكم الخاصة. لا شأن لك بي ولن يكون لي شأن بأي شيء.

تهدلت خصلات شعرها الرمادية الكثيفة على كتفيها:

- هيا اذهبي من هنا، وتأكدي من أن كل شيء يسير على ما يرام، فإن الخادمت إن لم يجدن أحداً يخبرهن بكيفية تقديم الأشياء، فسيقدمنها بطريقتهن الخاصة، وأخبريهن أن يحضرن لي على الفور حساء الدجاج، وأرسلني لي الخادمة كي تساعدني في ارتداء ملابسي.

عادت "جيوليا" للجناح الرئيسي، ووجنتها متوردتان من الخجل، ويدها ترتعشان. أوقفت إحدى الخادمت، وطلبت منها أن تجهز حساء الدجاج وترسله لـ "جيوسبينا" بالأعلى. فلندع هذه المرأة تساعد نفسها.

كانت "جيوليا" ترتجف من قسوة الإهانة.

قررت "جيوسبينا" ألا تحضر الحفل والسبب واضح لا لبس فيه؛ لا تريد أن تقع عليها اللائمة حول وقوع أي خطأ محتمل، وتريد لـ "جيوليا" أن تتحمل المسؤولية وحدها.

كانت "جيوليا" تشعر بالاختناق، فقررت أن تفتح إحدى النوافذ كي تستنشق بعض الهواء المنعش، لتريح تلك الانقباضة الحادة في معدتها، ونظرت لنفسها في المرأة؛ كانت ترتدي ثوباً من الحرير الأزرق الداكن المزين بخيوط من اللؤلؤ الطبيعي، وشالاً على كتفيها يغطي فتحة الرقبة مصنوعاً من أجود أنواع الدانتيل الفرنسي الفاخر، أحضره "فينسينزيو" خصيصاً لها من "مارسيليا" في آخر زيارة له إلى هناك بصحبة "أوجوستو ميرل"، والذي يبدو كهدية تليق بالأميرات. ولكن هذا غير كافٍ، فبعد ثلاث ولادات متتالية، لم تعد "جيوليا" تتمتع بمواصفات الرشاقة القديمة نفسها، وبذلك الخصر النحيل كما كانت، ولكنها ما زالت تعتني بنفسها بشكل جيد وتتمتع بسلوك راقٍ ومهذب، ولكن ماذا إذا لم تكن تتناسب "فينسينزيو" حقاً؟ تساءلت بينها وبين نفسها، ماذا إذا كانت السيدة "جيوسبينا" على حق، وأنها ستتسبب له في الإحراج أمام ضيوفه؟

حقاً، من الصعب أن تكوني زوجة لـ "فينسينزيو"، لأنها فجأة وجدت نفسها تعيش مع رجل يتمتع بحياة عامة واسعة، رجل من أهم الرجال في المملكة، واسمه معروف لدى الخاصة والعامة، وهي التي كانت تعيش في الخفاء طوال الوقت وهي تخشى من أن ترتكب أي خطأ.

سمعت "جيوليا" صوت عجلات العربة وهي تتحرك على الحصى الموجود في الشارع، معلنة عن بدء توافد الضيوف وانفتاح الأبواب، وأصوات الرجال، ليس هناك المزيد من الوقت كي تستمر في الشعور بالارتباك والقلق.

صعد أولاً "إنجهام" بصحبة "فينسينزيو" السلم بسرعة كبيرة، لقد اندهشا عندما دخلا من الحرارة، ولكنهما كانا مسرورين.

- أصدقائي الأعزاء، هذا يوم تاريخي، لقد طال صقليةً أخيراً بعضٌ من التمدن والحضارة! صحيح أن الأمر قد استغرق بضع سنوات ولكن...

قالت "جيوليا" وهي تقف عند الباب:

- مرحباً بكم، أتمنى أن يكون اجتماعكم مثمراً.

لم يتعجب "إنجهام" من مباشرتها ووضوحها غير المعتادين بالنسبة للنساء.

- لقد سارت الأمور على ما يرام، وكل الحصص تم سدادها؛ لقد أصبحت شركة البواخر حقيقة.

كان "فينسينزيو" متحمساً بشدة، وحياتها عن طريق تقبيل يديها.

- عزيزتي، أنتِ تبدين متألفة الليلة.

ومن ورائهما، وصلت الدوقة "أليساندرا سبادافورا" - دوقة "سانتا روزاليا" - بأناقتها وجمالها

الكلاسيكي، وبشعرها الأسود الطويل المعرق باللون الرمادي والعقد الألماس الذي يزين عنقها، إنها

المرأة نفسها التي رأتها "جيوليا" في المسرح منذ بضع سنوات وزوجة "إنجهام" منذ عام 1837،

التي تزوج "إنجهام" منها لكي يصبح من أبناء الطبقة الأرستقراطية.

حيثهم الدوقة بابتسامة صادقة وبسيطة، كانت مهذبة مع "فينسينزيو" وحنونة مع "جيوليا"، فكنتا

المرأتين كائنات في وقت ما محظيتين، وهذا يمثل رابطاً خفياً بينهما، لكن لا يوجد شيء آخر مشترك،

ف"جيوليا" ما زالت ابنة تاجر، بينما الدوقة قد وُلدت في وسط أرستقراطي، فزوجها الأول الذي

أنجبت منه الطفلين قبل أن يموت ويتركهم في ضائقة مالية كان ينتمي لنبلاء الجزيرة.

شكرتهم جميعاً.

أتى إليها "فينسينزيو" وسألها وهو يهمس:

- أين أمي؟ كان من المفترض أن تكون هنا.

- تحصنت داخل غرفة نومها، ورفضت النزول لحضور حفل العشاء، وطلبت من الخادمة أن تحضر

لها حساء الدجاج.

استمر الاثنان في الضحك واستقبال ضيوفهما الذين حضروا مباشرةً من مكتب الموثق، بعد التوقيع

على عقد تأسيس الشركة الجديدة.

- هل حاولت إقناعها بالحضور؟

أجابت "جيوليا" برفع حاجبيها لأعلى:

- من دون جدوى.

توافد المزيد من الحضور إلى البيت وتعالق الأصوات.

- يا له من بيت جميل حقاً! سيد "فلوريو"، كان من المفترض أن آتي إلى هنا منذ وقت طويل.

حضر "جابريل شيارامونت بوردونارو"، ولفت نظره على الفور خزانة مصنوعة من خشب

الأبانوس المنحوت.

- رائع! إنها صينية، أليس كذلك؟ هل هي من التحف؟

- إنها من "سيلون"، هل تسمح لي أن أقدم لك زوجتي؟

التقت "شيارامونت بوردونارو"، لم يكن قد لاحظ وجود "جيوليا" من قبل.

- آها، مساء الخير سيدة "فلوريو".

ثم ما لبس أن توجه لحجرة المعيشة.
بقي كل من "جيوليا" و"فينسينزيو" بجوار الباب، في شرف انتظار باقي الضيوف المتأخرين:
- هل هو بارون بحق؟
- لقد اشترى الأرض واللقب في الوقت نفسه، ولكن قبل ذلك كان مجرد مدير أعمال في هذه الأرض،
وقد صنع ثروة من إقراض الأموال بالربا.
سعل "فينسينزيو" في يده:
- ماذا تتوقعين أن يطلق عليه الناس؟ فإنهم يسمونني "كلب المانجي"، فلك أن تتخيلي بماذا يلقبونه،
ولكن الآن أصبح لديه شعار النبالة على مدخل بيته، لذا...
وصول المزيد من الضيوف منعه من إكمال باقي الحوار معها.
شعرت "جيوليا" بغصة بسبب العصبية والارتباك.
- السيد "فلوريو"؟ لا بد أنك السيدة "فلوريو".
انحناءات وتقبيل أيادي.
حضر إلى الحفل "جيوسيب لانزا دي ترايبيا"، وتبعه "روميالدو تريجوننا" أمير "سانتا إيليا"،
وزوجاتهما من ورائهما. حيثهم "جيوليا" بابتسامة مهذبة، وقبل "فينسينزيو" أيديهما وقدم لهما
"جيوليا".
"لانزا دي ترايبيا" رجل متعلم، وأمير واسع المعرفة، ويمتلك أجمل المنازل في "باليرمو":
- السيدة "جيوليا"، شكرًا على الدعوة الكريمة، فهذه مناسبة مميزة.
كان الأمير "ترايبيا" مشغولاً بتقييم كل قطعة أثاث في المنزل بنظرة واحدة، لكن لم يكن هناك ما هو
خيالي أو مبهر، وزوجته هي السيدة "برانسيפורتا"، ينتمي نسبها لأحد أعرق العائلات الأرستقراطية
في المدينة، وأبوها يُعتبر أحد مؤسسي المدينة، وقد شعرت "جيوليا" بنظراتها المسيئة لها، وحاولت
أن تتجاهلها برسم الابتسامة على وجهها كي تخفف من حدة حكمهم عليها.
أما الأميرة "شتيفانيا برانشيفورت"، وهي امرأة متقدمة في السن، فكانت في الأصل إحدى وصيفات
الملكة، وكانت ترتدي ثوبًا مصنوعًا من القטיפه الناعمة، ومجوهرات ثمينة توارثتها عائلتها النبيلة
على مدار أجيال، وقد أبقت عينيها إلى الأسفل ويديها على معدنتها، وبدأت تنظر في المكان وكأنها
تخشى أن تلمس الجدران أو الأثاث، وتلك النظرة المستهجنة التي رمقها بها زوجها لم تجد معها نفعًا.
شعرت "جيوليا" فجأة كم هي فقيرة وبائسة مقارنة بهؤلاء النسوة، والدانتيل الذي يزين شالها لا طائل
منه، ولا حتى فستانها الأنيق، ومالت بشكل فطري للنظر إلى "لورا نازيللي" زوجة الأمير
"تريجوننا"؛ كانت أصغر من أميرة "ترايبيا"، وذات شعر طويل مضرر بشكل رائع، كانت تقرأ في
عينيها الشعور نفسه بالكره والاحتقار.
كانوا ينظرون إليها وكأنهم لا يرونها، كما لو كانت شبحًا أو كيانًا شفافًا.
ها هي المرأة التي كانت محجوبة في الخفاء، بسبب ما تحمله من خزي وعار وما تعانيه من ازدراء
واحتقار، قد خرجت للعلن كي تمثل دور الزوجة؛ هكذا كانت تتطرق أعينهم الكارهة والمحتقرة، كانت
تتطرق بما لا تتطرق ألسنتهم به من ازدراء وحقد.
لقد سلمت نفسها لهذا البرجوازي الحقيير حتى تصبح ثرية، لكنهما سيبقيان برجوازيين مهما حدث
ومهما كان ثراؤهما وحجم أموالهما.

كانت تتحني لهن كما يتطلب الإتيكيت؛ فهن أميرات وهي ابنة تاجر من تجار "باليرمو"، وكل ما تمتلكه هو ماضٍ ملوث ومشين. حدقت المرأتان في الهواء المجاور لرأسها، وهزتا رأسيهما عندما حينهما، وسارتا نحو الصالون وهما تنظران حولهما.
تساءلت الأميرة "لورا":

- ألا تلاحظين أن أناقة المكان مبالغ فيها بعض الشيء؟ أناقة مصطنعة وليست حقيقية، لأنها غير نابعة من داخل أصحاب المكان.

- كل شيء مبالغ فيه؛ الملابس والأثاث...

هزت المرأة الأخرى يدها وفتحت مروحتها:

- نعم إنه كذلك، ادعاء؛ مجرد ادعاء.

شعرت "جيوليا" وكأن حجرًا قد ألقي في حلقها، ووجهها متوهج من الخجل والإحراج، والعرق يقطر بين ثدييها، وكأن كل ما قامت به ذهب أدراج الرياح.

على كل حال، زاد أم نقص، لن يكون أبدًا كافيًا، وأن كل أموال "فينسينزيو" لن تكون كافية لهؤلاء البشر كي يتقبلوه بينهم.

ذهبت لتقف بجوار زوجها، وهي تتبلع بصعوبة غضبها وإهانتها.

حياها الأمير "تريجونو" باهتمام:

- تشرفنا يا سيدتي.

ثم نظر بدقة لسقف المنزل، وقال:

- هذا بيت غير عادي من نواح مختلفة يا سيد "فلوريو".

تبادل النظرات مع أمير "ترايبيا" الذي كتم ضحكة ساخرة بداخله:

- الوقت يتغير يا صديقي، كل شيء يتغير؛ بدايةً من الوقت وانتهاءً بالناس.

أشار "فينسينزيو" للضيوف:

- هيا بنا، فسركاؤنا الآخرون وصلوا بالفعل، ويجلسون الآن في الصالون.

اقتربت الزوجات من أزواجهن، واندمجوا في حوار عميق، ولم يمنحوا حتى احتمالية أن تتحدث معهم.

رأى "فينسينزيو" وسمع كل شيء، وما من أحد لاحظ التوتر المفاجئ في ظهره سوى "جيوليا"، فهو يفهم كل شيء.

كانت الشمعدانات تضوي تحت السقف المزخرف للردهة. اصطف طقم الصيني على المائدة المغطاة بعناية بمفرش أنيق، والكؤوس المصنوعة من زجاج "المورانو" تنتظر مملأها بالنبيذ الفرنسي الفاخر، الذي تم الاحتفاظ به باردًا في الدلاء الفضية.

تبعت "جيوليا" "فينسينزيو"، الذي كان مشغولًا بالتحدث مع الضيوف، ويشعر بأكثر من رعشة من عدم الثقة، وقالت لنفسها: "هل ارتكبت خطأ ما؟ هل نجحت في تقدير التوقيت المناسب لكل شيء؟".

ترددت بعض الشيء، وحاولت أن تطلب العون من زوجها بالنظر إليه، لكن الأخير كان مستغرقًا في حوار مع "إنجهام".

إن التفكير في تلك النسوة المتكبرات النبيلات، هو ما أكسبها الشجاعة على الرد. رمت كتفيها للخلف ونظرت لنادل من النُدُل، فسحب على الفور كرسيًا لتجلس عليه، وفي نهاية المائدة من الناحية الأخرى، فعل "فينسينزيو" كما فعلت؛ إنها إشارة بدء العشاء.

أخذ كل ضيف من الضيوف موضعه على المائدة، وبإشارة من رأس "جيوليا"، بدأ الخدم في تقديم الأطباق للضيوف حتى يتسنى لهم الاختيار. بدأ العشاء بتقديم طبق اللحم بالجيلي والحساء، الطبقان الأول والثاني الرئيسيان كانا مزيجًا من اللحم والسمك.

تولى أحد الخدم تقديم النبيذ للضيوف، بينما قام الآخر بصب الماء من زجاجة مصنوعة من الكريستال. اقترب الخدم من الضيوف واحدًا تلو الآخر بأطباقهم المصنوعة من الفضة وأطباق لفائف اللحم، ولحم التونة على طريقة "جيوتا ترابانسي"، تبعها أطباق البطاطا والخضروات ولحم الضأن. تركز انتباه أميرة "ترابيا" على "جيوليا"، وفي يدها شوكة كانت تلتقط بها قطع لحم الضأن، كانت تبدو مندهشة، بل وحتى متوترة بعض الشيء. على الجانب الآخر، التقت عينا "أليساندرا سبادافورا" بعيني أميرة "ترابيا"، وبحركة مكررة رفعت لها كأس النبيذ، فشكرتها "جيوليا" بابتسامة أخفتها بمنديلها.

أما مدبرة المنزل، فكانت مشغولة تراقب حركة النذل بمنتهى العناية والحرص، وهي واقفة بجوار باب غرفة الطعام، وهناك خادمتان في المطبخ داخل غرفة غسل الأطباق منهنمكتين من رأسيهما لأخصي قديهما في غسل الأطباق وأدوات المائدة، حتى يتمتع الضيوف بغطاء مائدة نظيف ومرتب.

كانت "جيوليا" قلقة وبالكاد لمست الطعام؛ لم تتناول سوى رشفة من الماء، وما جربته من الطعام كان مطهيًا بشكل جيد، وتم تقديمه بالشكل اللائق وبدرجة الحرارة المطلوبة، وتم طهوه بمكونات من الدرجة الأولى.

كان الارتباك والعصبية يسيطران عليها بشكل كبير، لدرجة أنها لم تلاحظ النظرات العابرة لزوجها، الذي كان يجلس على قمة المائدة على الجهة المقابلة.

سمحت لنفسها بالتنفس بأريحية، عندما تم تقديم هرم الفاكهة الطازجة والمعلبة والحلوى. لم يعلق أحد على شيء، وفوق كل ذلك، أكل الجميع بشهية مفتوحة، بما في ذلك السيدتان النبيلتان اللتان جلستا بكبر وتكلف على المائدة طوال وقت العشاء.

ثم أمرت "جيوليا" بعد ذلك بإحضار نبيذ "الليكير" والسيجار على الطريقة الإنجليزية، وكانت على وشك دعوة السيدات للردهة المجاورة عندما لاحظت وجود حركة غريبة بينهن.

حدث كل شيء بسرعة؛ اقتربت مدبرة المنزل وهممت بشيء ما، فوقفت على الفور وذهبت لـ"فينسينزيو" وهمست ببعض الكلمات في أذنه، فضغط على معصمها، فهزت رأسها وذهبت وأغلقت خلفها باب غرفة الطعام.

دون أن تتحرك، راقبت المشهد من بعيد، كانت الأميرتان تجهزان نفسيهما استعدادًا للرحيل، تنهدتا وقالتا إنهما متعبتان ومرهقتان بشدة، لأن العشاء كان طويلًا وقد أثقلتا في العشاء بعض الشيء. بمجرد وصولهما لمنزلهما سوف يرسلان سائق العربة ليصطحب زوجيهما.

ولكن "جيوليا" لم تصدق تلك الكوميديا ولو للحظة؛ لقد وافقتنا على التنازل وحضور هذا العشاء بسبب الأعمال التجارية والمال، ولكن عندما حان الوقت الذي ستبدآن فيه بالتحدث معها، قررتا الرحيل حتى لا تضطرا لذلك، لأن فكرة الجلوس والتحدث معها ترعبهما.

"فلتذهبا، أو لتهربا للنميمة، لا شيء سيغير حقيقة أن "فينسينزيو" فخور بي، وكل من حضر اليوم أقر بأن آل "فلوريو" جهزوا الليلة عشاءً يليق بالملوك والأمراء".

وضعت "أليساندرا سبادافورا" يدها على ذراعها، وقالت:

- وأنا أيضًا يجب أن أرحل يا عزيزتي، فالوقت متأخر، وأنا ما عدت أقوى على السهر هكذا لوقت متأخر، فلم أعد في العشرينيات من عمري كي أسهر وأحتفل طوال الليل، ولكن هل تسمحين لي بأن أعبر لك عن امتناني بالعشاء وبكرم الضيافة؟ لقد كانت أمسية رائعة.
واقتربت منها.

- ستأتين لزيارتي في يوم ما، أليس كذلك؟ فنحن كما تعلمين جارتان وبيننا الكثير من الأشياء المشتركة.

وضعت "جوليا" يدها على يد الدوقة وأجابتها بصدق:

- بكل سرور!

غادرت أميرة "ترايبيا" بعد أن أومأت لها بإيماءة ملكية، بينما قامت زوجة "تريجوننا" بمصافحتها: - لقد كانت أمسية رائعة.

تحدثت بهمس، لأنها لم تجرؤ على الجهر بالمجاملة.

أشرفت عينا "جوليا" من شدة الفرح؛ لقد شعرت بأنها اجتازت الاختبار ولم تخيب ظن زوجها بها، وتحملت مسؤوليتها وأدت دورها على نحو جيد، والآن يمكنها أن تشعر بالراحة وتذهب لغرفة نومها لتستريح بعد كل هذا العناء، وتترك الرجال لحديثهم وشرابهم.

في اللحظة التي رحلت فيها الزوجتان، حضر "جياتشيري" والموثق "كالدرا"، وسأل الأخير "فينسينزيو" عن كان يقف على الباب:

- أنسيت شيئاً ما هنا؟

- أتقصد بعد العشاء؟ ما من أحد، فقط "شيارامونت بوردونارو" كان يتجول ويتنقل هنا وهناك، ويختبر بشكل قاسٍ صبر أمير "ترايبيا"، وقام بإطلاعه بشكل منفرد على مجموعته من الأنتيكات والتحف.

اصطحب "فينسينزيو" "جياتشيري" إلى البار، وطلباً بعضاً من "البراندي".

تناول "كارلو" كأساً من "ماديرا" وقال:

- لم يتمالك نفسه، عار على البارون "ريسو"! لقد كان من المثير للاهتمام أن يكون من بين المشاركين.

- يقولون إنه على وشك الوفاة، وأعتقد أن كل الشياطين الحمر يعدون الآن خطاياهم حتى يقدموا حساباً تفصيلياً بجرائمه وأثامه للخالق.

اقترب "إنجهام" منهما وطلب من النادل أن يصب له بعضاً من الخمر، فقام على الفور بتقديم كأس له:

- يا له من مسكين! لا يمكنني أن أتخيله وهو يموت في سريره، ربما حدث هذا بسبب كم اللعنات التي صبها عليه التُّرك عندما كان قرصاناً. لو كان أصغر بعشر سنوات فقط، لكننا وجدناه اليوم بينما يقود دفة الباخرة لأجل لقب "البارونية" الذي اشتراه لنفسه. سأطلب من القس أن يصلي من أجله.

- إنها ليست السفينة، إنها باخرة، باخرة الـ"باليرمو".

- ما الذي تتحدث عنه؟ باخرة!

تدخل "جابريل شيارامونت بوردونارو" في الحوار وأربكه. أمسك بزجاجة من "المارسال" وصب لنفسه بعضاً من الشراب:

- المشكلة - هذا بالضبط ما كنت أقوله لأمير "ترايبيا" - أن السفينة إذا أصابها العطب فلن نكون قادرين على إصلاحها، أنا لا أقول لك هذا كشريك ولكن كأمين صندوق. هل تعرف أي فني من إنجلترا يمكنه أن يصلح هذا المحرك لو تعطل يا "إنجهام"؟ هل يرسلون مع المحرك البخاري فنيًا متخصصًا في إصلاح الأعطاب؟ فكل من ستجدهم هنا هم نجارو سفن.
- بالطبع أعرف.

لم يفاجأ "إنجهام" بالموقف ولم يضطرب:

- سوف يأتي المحرك ومعه شخص متخصص يعلم ويدرب الموجودين هنا على كيفية إصلاح المحرك، وحتى كيفية عمل محرك جديد. إذا لم تطبق يدك بشجاعة على الأمل وتفكر فقط في المخاطر، فلا شيء في صقلية سيتغير، هذا بالإضافة إلى أنني وأنا والسيد "فلوريو" لسنا قلقين، رغم أننا أكبر مساهمين في الشركة، فلماذا أنت متوتر؟

تناول "شيارامونت" كأسًا من "الليكير":

- نحن التجار من نهتم بتلك الموضوعات، لأن ظهورنا ليست مغطاة بأسماء كبيرة أو أسر كبيرة.

خفض رأسه، وحدث في الكأس، وهز "فينسينزيو" رأسه، ثم انضم إليهم أمير "تريجوننا":

- تعال هنا يا "شيارامونت"، لا تكن مجحفًا.

كانت نبرة صوته هادئة، ولكنه كان يبدو متوترًا بعض الشيء.

- كلنا ملتزمون تجاه أعمالنا لأننا نعلم أن المستقبل لن ينتظرنا؛ التقاليد وكونك شخصًا حريصًا شيء جيد، ولكن يجب علينا أن نتطلع للمستقبل.

- ونحيا للمستقبل.

رفع "فينسينزيو" كأسه وقال:

- أيها السادة، نخب مشرو عنا؛ فلنشرب جميعًا نخب مشرو عنا.

وتصافح الرجال بالكؤوس.

هذه الكلمات ظلت عسيرة وصعبة في ذاكرة "فينسينزيو" قبل أن تقع في فراغ ضميره؛ المحركات، ورش العمل، الفنيون.

بذرة ستترعرع وستنتبت جذرًا.

في النهاية، عندما انخفضت الأصوات وبدأ الحاضرون يشعرون بالتعب، ظهرت زجاجات داكنة على الطاولة؛ البعض منها ما زال مغطى بطبقة خفيفة من التراب. التقط "فينسينزيو" إحدى الزجاجات بفخر واعتزاز وفتحها؛ إنها من ماركة "مارسالالا" التي ينتجها مصنعها، زجاجات من النبيذ المعتق الذي يقول إنه احتفظ بها للمناسبات الخاصة جدًا. اقترب الضيوف كي يتذوقوها، ثم ملء الكؤوس الصغيرة المصممة على شكل زهرة "التوليب".

إنه نبيذ جيد، وله مذاق حلو، ويدير الرأس، ولكنه خالٍ من ذلك المذاق السقيم، تستطيع أن تشم فيه رائحة عسل البحر والعنب المختمر، وحتى بعض الحدة النابغة من أحواض الملح.

قرر "إنجهام" أن يتحدث بعد رحيل بعض الضيوف، كان يتحدث والسيجار في فمه:

- هل تسمح لي أن أتكلم بمنتهى الصراحة؟

ضيق "فينسينزيو" حدقة عينيه، فـ"إنجهام" ليس من ذلك النوع من البشر الذي يأخذ الإذن بالحديث قبل أن يتحدث، وليست هذه الملامح المرسومة على وجهه ملامحه الطبيعية المعتادة.

هز "فينسينزيو" رأسه وطلب منه أن يكمل.

- عندما سمعت أنك ستتزوج بـ "جيوليا"، كنت متحيراً، لأنه على مدار تلك السنوات، كانت تعيش...
- كما كانت الدوقة "سبادافورا" بالنسبة لك؟

ضحك الرجل الإنجليزي:

- صحيح، لكن الاختلاف بينها وبين الدوقة هو أن زوجتك ليس لديها خبرة بالحياة الاجتماعية كما هو الحال بالنسبة للدوقة.

- أتفق معك في هذا.

أجاب "فينسينزيو" بجفاء وبسرعة، فحنى "بن" رأسه وظهرت على وجهه الصارم ابتسامة متسامحة:

- أعتقد يا "فينسينزيو" أنك أحسنت الاختيار. أتذكر بحثك الحثيث عن فتاة أرستقراطية لتتزوجها تكون ذات حسب ونسب واسم وعائلة، في الوقت الذي تمتلك فيه هذا الكنز الثمين بين يديك دون أن تدري، هذه المرأة جوهرة ثمينة يا "فينسينزيو".

هز رأسه، وتركزت عيناه على كأس "المارسالو"؛ لقد أصبح الخيار الإجباري هو أفضل الخيارات: - وهناك شيء آخر.

ضحك الرجل الإنجليزي بصوت عالٍ، وهذا أيضاً غير معتاد بالنسبة له، لأنه دوماً يظهر بمظهر الشخص المنضبط المتحفظ، ربما حدث هذا بسبب الشراب، أو ربما بسبب نشوة توقيع العقد.

- هل تعلم يا "فينسينزيو"؟ عندما شرعت في بناء مصنع النبيذ الخاص بك في "مارسالو"، اعتقدت أنه لن يأتي يوم وتتفوق عليّ؛ لا أنا ولا "وودهاوس"، ولكنك بالفعل تفوقت علينا.

وارتشف رشفة من الشراب وضحك:

- وفي تلك أيضاً كنت مخطئاً، أشهد الرب أنك أكبر أخطائي في التوقع.

أجابه "فينسينزيو" بصوت هامس:

- كتحفًا بكتف! أريد أن أبوح لك بشيء تذكرته الآن، عندما بدأنا العمل أنا وأنت وعمي "إنجازيو"، لم يكن هناك شيء؛ لا مصانع ولا شركات ولا شركات تأمين ولا عقبات، أو متنافسين أو أي شيء، لقد بدونا كالمجانين.

وأشار إلى الجمع الموجود في الغرفة المقابلة له.

- ولكن الآن؛ لقد تغير كل شيء؛ بعض الأشياء، ليس كل شيء.

نظر "إنجهام" كذلك للرجال الموجودين في الحجرة المقابلة؛ بعضهم ينتمي لأعرق وأنبل وأقدم عائلات صقلية، والبعض الآخر اشترى اللقب من مزادات الإفلاس.

قال "إنجهام" لنفسه: "القديم والحديث".

- هناك شيء يا "فينسينزيو" لم أخبرك به من قبل قد حدث منذ سنوات، عندما استحوذت على "إسكالو للعقارات"، وعرض عليّ شراء لقب بارون، صرت بارون! وعندما التقى بي عمك ذات يوم، نادى عليّ بهذا اللقب، كان لا يزال حينها على قيد الحياة، فأجبتته بأنني إن كنت بارون فإنه بالأحرى أمير، لأن كلينا يتمتع بسلوك أفضل وأكثر نبلاً من كثير من النبلاء.

ضحك الرجل ضحكة عالية وحادة.

- كان عمي رجلاً مهذباً بحق.

رد "فينسينزيو" وقد اكتسى صوته بنبرة الحزن والندم.

- أكثر من العديد من الأناس الموجودين هنا في هذه الغرفة.

أصبحت نبرة صوته أرق، ولكن للحظة واحدة.

- بالنسبة لي، لا يمكنني أن أنسى أبدًا الطريقة التي جنّت بها إلى هنا، لقد كنت شابًا تابعًا للجيش الإنجليزي، تم إرسالني إلى هنا من قبل عائلة تتاجر في الأقمشة، والتي فقدت كل ما تملك في سفينة تحطمت في عرض البحر. لقد راهنت على هذه الأرض منذ اللحظة الأولى لوصولي إلى هنا، حتى عندما غادر أبناء وطني بعد انتهاء الحرب وهزيمة الفرنسيين، وأقسم لك أن الشيء الوحيد الذي أبقاني متمسكًا طوال تلك الفترة كان التفكير في أنني سأستيقظ في صباح اليوم التالي لكي أواصل العمل، وشكرت الرب كثيرًا لأنه أبقاني حيًا. في الواقع، أشكر الرب كل ليلة قبل أن أضع رأسي على الوسادة. لقد عرفت هذا المكان جيدًا وعرفت أيضًا طبيعة أهله نِعَم المعرفة، وتعلمت بمرور السنين أن أحبهم وأحترقهم بالقدر نفسه. لست بحاجة لَصِيغَة أو قصر منيف كي أصبح "بن إنجهام"، فأنا اليوم صرت علمًا من أعلام الأعمال التجارية وأحد أهم رجال الأعمال في صقلية، الذين أبحروا لأمریکا واستثمروا في خط السكة الحديدية للعالم الجديد، الذي يربط ما بين شرق وغرب أمريكا. لم يجبه "فينسينزيو"، لأنه يعرف أن الأمر لا يتعلق لا بالمال ولا بالسلطة والقوة؛ إن الأمر يتعلق بشيء آخر أكثر غموضًا، إنه يتعلق بالرجوع خطوة للخلف وثني رأسك بإجلال واحترام لشخص آخر مثلك.

إن التفكير في هذا الأمر يؤلمه ولكنه لا يقول، وكأن هذه الأفكار مرتبطة بالتكوين العظمي لهؤلاء الناس، لا الثروة ولا الخبرة تكفيان. ليس كافيًا إن كنت لا تحمل لقبًا نبيلًا. القصر. الدم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- هذا الشيء، هذا الشيء الرائع والفريد!

كان "كارلو جياتشيري" يترقب ردة فعل "فينسينزيو" أثناء متابعته للمخطط الخاص بالفيلا التي يبنها له؛ تلك الفيلا المشعة بالضياء والبهاء والرقي من كل جانب، تلك الدرة المتفردة التي لا مثل لها في صقلية كلها، الممتلئة بالخضرة والمحاطة بالأشجار والحدائق الغناء. تتفس المعماري الماهر الصعداء، فليس من السهل إرضاء السيد "فلوريو". بعد أن انتهى "فينسينزيو" من الاطلاع على مخطط الفيلا، أشعل سيجارة وقدمها لـ "كارلو"، وجلس بهدوء على كرسي بمسند في أحد جوانب طاولة العمل.

- هل أنت سعيد يا سيدي؟

جلس "فينسينزيو" في الجهة المقابلة له.

- سعيد إلى حد كبير، لكنني لم أحضر إلى هنا لكي أتحدث عن هذا المشروع وحسب.

أراح "جياتشيري" قدميه من الوقوف، وقرر أن يمددهما قليلًا.

- آها، دعني أظن إحدًا؛ أنت هنا من أجل أن تتحدث بشأن مصنع تونة "فافيجيانا"، أليس كذلك؟ عندما قمت في العام الماضي باستئجارها من "بالافينشينيز" في "چنوة"، كنت أتساءل بيني وبين نفسي: هل أنت حقًا تلتهم من الطعام أكثر مما تستطيع أن تمضغ؟ ولماذا مصنع تونة "فافيجيانا"، وأنت بالفعل لديك ثلاثة مصانع لإنتاج التونة؟ "الأرنيللا" و"سانت إليا"، و"سولانتو"؟ لماذا؟

- هذا صحيح، لكن ما لا تعرفه هو أن "فافيجينانا" و"فورميكا" يمتلكان حصصًا في السوق أكبر من "الأرنيليا"، و"سانت إليا"، و"سولانتو" مجتمعة، ولهذا السبب اخترتهما لأحكام السيطرة تمامًا على سوق التونة بأكمله.

نظر كلاهما للآخر، وهز "فينسينزيو" رأسه:

- الواقع أنني قمت بالفعل بطلب زيت الزيتون والبراميل وهم في طريقهم لجزيرة "أجيديان"، وأنا على وشك الذهاب إلى هناك بنفسني كي أتفحص الأمر على أرض الواقع، وأريدك أن تذهب معي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في صباح اليوم التالي، كانا قد أعدنا كل شيء بالفعل، وسافرا عن طريق البحر دون أن يعلم أحد بوجهتهما. في البداية، دارت بهم السفينة البخارية حول خليج "كاستيلاماري"، ليبحرا بعد ذلك عبر رأس "سان فيتو"، وبعد ذلك مباشرة، بدأت جزر "أجيديان" تلوح في الأفق أمامهما.

عندما وصلا إلى هناك، تجمع الصيادون المقيمون في الجزيرة على الشاطئ، ليشاهدوا السفينة البخارية ذات الهيكل المعدني التي غزت الميناء، تغير لون بشرتهم بسبب لهيب الشمس والملح وصارت ملابسهم واسعة بشكل كبير، وبالقرب منهم، وقفت زوجاتهم نصف العاريات وأطفالهم الحفاة.

كانت الجزيرة جرداء وقاحلة، والبيوت أحسن حالًا بقليل من الأكواخ، والجزيرة كلها يسكنها من الصيادين البؤساء تجسيدًا حيًا للفقر.

تقدم رجل من بين الجموع ذو بنية بدنية قوية تشبه جذع الشجرة، بشعره المجعد ولحيته الممتدة إلى منتصف صدره. حتى رأسه كتحية لـ "فينسينزيو" وصديقه:

- مرحبًا بك يا سيدي، أنا "فيتو كوردوفا"، حارس المصنع.

تقرسه "فينسينزيو" لبرهة، ثم مد له يده اليمنى كي يصافحه:

- أنا السيد "فلوريو" المستأجر الجديد لـ "التونارا".

- سيادتكم؟

- نعم.

أغلق الصياد عينيه الضيقتين المحبوستين داخل شبكة من الأوردة والتجاعيد المحيطة بها نصف غلقة، ثم جفف يده الصلبة الممتلئة بالندبات في بنطاله، وصافح "فينسينزيو" بحذر شديد.

- فلتسامحني يا سيدي، فأنا لم أعتد أن يحضر الملاك أو المستأجرون إلى هنا، فما من أحد من

"چنوة" يأتي إلى هنا كثيرًا. هل أتى سيادتكم من مكان بعيد أم قريب من هنا؟

- أنا من "باليرمو". لقد قام "البالاتشيني" باستئجار "التونارا" منذ تسع سنين.

ملأت الدهشة وجه "كاردوفا" الذي يشبه لحاء الشجر، فالملاك هذه "التونارا" من "چنوة" لم يسبق لأحد منهم الحضور إلى هنا من قبل، بل كانوا يكتفون بإرسال مديري أعمالهم.

- ما الذي تريد أن تراه يا سيدي؟ أتريد أن ترى المراكب؟

- ربما، ماذا ترى؟

سبق "كاردوفا" "فينسينزيو" و"كارلو" بوضع خطوات، وأشار إلى المباني، ومن ورائهم سار كل سكان الجزيرة تقريبًا في موكب كبير، كانت خطواتهم من كثرتها تثير الغبار في الهواء، بينما كانت دفقات الرياح تدور في الهواء كنبنة "بوسيدون".

بُنِيَتْ "التونارا" في أكثر الأماكن المؤمنة والمحمية في الخليج، لكن أسقفها كانت مصنوعة من أعواد القصب الجافة والجدران متصدعة، وكانت محاطة بأكوام من الحبال المهملة في الشمس. مط "فينسينزيو" شفثيه وتحدث بلطف لـ "كارلو":

- أراد "بلافيتشيني" الحصول على ثلاثة آلاف أوتشي مقابل إيجار أعلى "تونارا" في صقلية، ولكن انظر إلى ما يقدمه مقابل هذا المبلغ.

- إنه لا يعيرها أي نوع من أنواع الاهتمام.

فجأة، سمع "فينسينزيو" صوتاً منبعثاً من الرجل الموجود على مدخل المبنى الغارق في كرسيه بلا ظهر.

- هو لا يهتم سوى بالمال.

تبادلا النظرات، وكانت تعبيرات وجه الرجل تتم عن اليأس والمرارة، وهو ما أثار فضول "فينسينزيو".

سار "فينسينزيو" ناحية المبنى يتبعه "كارلو"، ليكتشفا أن الرمال والتراب يملآن المكان، والصخور البركانية المستخدمة في بناء المبنى متشققة وتكاد تنهوى، والطوب متآكل بفعل ملح البحر، ورائحة البحر والطحالب تحيط بهم جنباً إلى جنب مع الرائحة القوية للملح المجفف، والكلاب تتسكع في الساحة وبين المراكب، والأطفال يحتشدون حولهم، ثم ما لبثوا أن هربوا منهم ليحتموا بأمهاتهم. لكن ما إن تقدموا في السير عبر حواجز الساحة، حتى قابلتهم رائحة كريهة ننتة لا تحتمل، ذكّرت "فينسينزيو" بالرائحة التي كانت تخيم على الأجواء في "باليرمو"، عندما اجتاحتها وباء الكوليرا.

- ما هذا المكان؟ هل هي مقبرة؟

أوضح "كارلو":

- نوعاً ما؛ إنها أكمة، ويوجد فيها بعض الحيوانات النافقة التي جفت دماؤها، وبعض مراكب "موتشياري" الصغيرة.

- بالطبع أنا أعرف ما الذي تعنيه بـ "موتشياري"، لأن أبي وعمي كليهما كانا بحارين. وما هذا الموجود هناك؟

راقبهم "كارلو" وهو متحير بدرجة ما، محاولاً أن يستوعب اللكنة الصقلية الثقيلة التي كانا يتحدثان بها.

- ما الذي تقولانه؟

كان الرجل يحاول أن يوضح لهم سبب هذه الرائحة الننتة، هناك، في هذه المنطقة التي يسمونها "بوسكو" أو الأيكة، والتي يتركون فيها التونة لتتلف حتى تُصَفَّى تماماً من الدماء، ويتركون فيها جثث الحيوانات النافقة لتتلف، بينما يوجد في الأمام "الموتشياري" أو مراكب الصيد الصغيرة. فجأة خرج رجل من المبنى، يرتدي بدلة مكرمشة وقبعة مصنوعة من القش تغطي جبهته المتوردة:

- ما الذي تفعله هنا؟ اخرج، هيا اخرج.

ترجع الجميع خطوة للوراء، ولكنهم لم يتفرقوا.

دفعهم الرجل بعيداً، وتوقفوا أمام "كوردوفا" وتحدث إليه بوقاحة.

- سيد "فيتو"، لماذا لم تخبرني كي أحضر وأستقبل ضيوفنا الأعزاء؟ أظلمت عين الصياد دون أن يخبر أحداً... ظهر فجأة.

التفت "فينسينزيو" ببطء.

- يعرف "كارلو" جيداً معنى هذا التعبير ، فضم ذراعيه وأطبقهما ووقف لينتظر .
- الرجل محق ، فلا أحد يعلم بحضوري . والآن أخبرني ، من تكون؟
- "سارو إيرنانديز" في خدمتك يا سيدي؛ أنا مسؤول الدفاتر والحسابات ، لا بد أنك السيد "فلوريو" ، احترامامي وتقديري لشخصكم الكريم .
- انحنى الرجل بإجلال واحترام لـ "فينسينزيو" .
- هل أتيت هكذا من تلقاء نفسك دون تجهيز أو تمهيد؛ فقط أنت وسكرتيرك الخاص؟
- لماذا؟ هل من مشكلة في ذلك؟ بالإضافة إلى أنه ليس سكرتيري الخاص؛ هذا هو السيد "كارلو جياتشيري" المهندس المعماري .
- بدا الارتباك على الرجل:
- بالطبع لا ، لكنني لم أتوقع حضورك بهذه السرعة؛ لقد أخبرونا... حسناً ، كنت أتوقع حضورك في وقت لاحق ، لم أفكر أيضاً أنك قد تأتي وحدك .
- والآن أنا هنا ، تعال ، أنا بحاجة لأن أتحدث إليك .
- كان المكتب الذي جلسا فيه مضاءً بأشعة الشمس التي تدخله من كل جانب ، ولا تتسرب إليه تلك الرائحة المقرزة المنبعثة من المصنع .
- قدم إليه "فيرنانديز" الملفات والسجلات والدفاتر الخاصة بالمصنع .
- حسناً ، لقد قمنا بصيد ما يقارب ثلاثة آلاف سمكة تونة حتى الآن .
- علق "فينسينزيو" على هذا الأمر سريعاً:
- أهكذا؟ نحن ما زلنا في شهر مايو ، لقد بدأ موسم الصيد لتوه ، وبالطبع ، سيكون هناك المزيد ، أليس كذلك؟
- بالطبع يا سيدي ، نحن نتوقع المزيد؛ لقد شاهدنا أسراباً من التونة بالقرب من الخليج... لم يدعه "فينسينزيو" يكمل ما بدأه ، وأدار عنه وجهه ونظر إلى كبير الصيادين "الرئيس" الذي كان يقف بجوار الباب:
- وماذا تظن أنت يا سيد "كوردوفا"؟
- هز الرجل رأسه وقال:
- هو كذلك ، وربما أكثر ، هذا بالإضافة إلى الكثير من السردين .
- قام المسؤول عن الدفاتر بتقديم مجموعة من الإيصالات بعصبية:
- نحن كذلك نستخدم الملح الذي يأتي من مؤسسة "دالي" ، الذي يُستخرج من أحواض "تراباني" للملح لتمليح التونة؛ نوع ممتاز و...
- رد "فينسينزيو" بسرعة:
- لست مهتماً بهذا الأمر . من الآن فصاعداً سنعمل وفقاً لنظام جديد ومختلف .
- سار "فينسينزيو" مع رئيس الصيادين الذي كان في طوله نفسه تقريباً وفي عمره نفسه ، على الرغم من أنه يبدو أكبر بكثير بسبب الفقر والبؤس:
- دعنا نغير التونة .
- فرد عليه "سارو إيرنانديز" وقد أمسك بالأوراق:
- نغير التونة! ما الذي تعنيه بذلك؟ أنا لا أفهم!
- نحن لن نقوم بتعليب التونة المملحة وحسب .

أوضح "فينسينزيو" وجهة نظره دون النظر إليه.
- لأنهم يقولون إن تناول التونة المملحة تتسبب في الإصابة بمرض "الإسقربوط"، ولهذا السبب انخفضت مبيعات التونة مؤخرًا، والكثير منها لم يتم بيعه، أليس كذلك؟ وقد توقفت شركات الشحن والبحارة عن ذلك لأنهم قلقون، لذا فإننا نتجه إلى عمل شيء جديد.

حَدَّقَ بَعِيْنِيْ كَبِيْرِ الصِيَادِيْنَ "الرئيس" السوداوين الواسعتين، وأخيرًا لمح فيهما شعاعًا من التعجب.
- إن العمال يقومون الآن بتفريغ كميات كبيرة من زيت الزيتون من على متن السفينة البخارية، كما سبق وأخبرتكم، الجديد هو أن التونة سوف يتم تقطيعها وسلقها في الماء المغلي، ثم تحفظ في زيت الزيتون وتوضع في براميل محكمة الغلق.

- لكنها ستتعبن، وحتى إن لم تتعبن، فهذا يعني أنها يجب أن تُؤكل بسرعة.
- لا؛ هذا غير صحيح، لقد قمت بتجربة طريقة الحفظ هذه لعدة سنوات مع التونة التي نصطادها من "الأرنيليا"، ومصنع "سان نيكول أرنيليا" بمعاونة السيد "جياتشيري".
همهم "إيرنانديز" ببعض العبارات، لكن "فينسينزيو" أسكته بنظرة أطلقها نحوه فجمدته على الفور في المكان.

- لقد عملنا على هذا المشروع لثلاث سنوات كاملة حتى الآن، وكانت النتائج مذهلة. سوف نقوم بتغيير هذا المبنى وتجديده؛ سوف ندعمه بمكان ما لغلي لحم التونة، وأماكن لإقامة العمالة المؤقتة. سوف نقوم بتشغيل عائلات بأكملها وليس الصيادين فقط.

اعترض الأخير:

- لكنَّ أحدًا لم يفعل ذلك من قبل، فالناس هنا غير قادرين على تنفيذ ما تقول، فهم في النهاية مجموعة من البؤساء والأشقياء.

- حسنًا، سنبدأ بأنفسنا أولاً وسيتعلمون منا؛ كل العائلات معًا.
التقت "فينسينزيو" لـ "الرئيس":

- ليس هذا فحسب، بل إننا سنقوم بسلق وتعليب التونة بالطريقة نفسها التي كان يتبعها الناس في الماضي، وستستخدم دهون التونة في صنع زيت المصابيح، وكذا هيكلها العظمي في تخصيب التربة.

ارتسمت على وجهه وشفتي كبير الصيادين المتهاكمة ابتسامة خفيفة:
- العائلات؟

- نعم، يمكنهم جميعًا العمل في المشروع الجديد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

النوارس تبكي، والرياح تهسهس، وحرارة الشمس تلهب الجميع.
عندما توقفت العربية، سمع "فينسينزيو" صوت تداخل موجات بحر "الأرنيليا". إن مصنعه "للتونة" هو عشقه وشغفه الكبير، وهو كذلك ذاكرة الأجداد، ونداء يضطرم بداخله كنوع من أنواع الانتماء الغامض.

جلست "جيوليا" إلى جواره:

- هل وصلنا؟

- ساعدها على النزول.

كان هناك عربة أخرى خلفهم تحمل الأطفال، و"جيوسبينا" التي تبلغ من العمر الآن خمسة وستين عامًا، والمربية.

التقت "فينسينزيو" نحو البحر، وترك الهواء المنعش يملأ رئتيه وروحه بالسعادة والرضا. أخيرًا تحول الحلم إلى حقيقة، والفيلا التي صممها له "جياتشيري" أصبحت حقيقة ماثلة أمامه بجوار "الأرنيليا"، ذلك المكان الذي أخذ لبه وقلبه من البداية.

- لطالما أحببت هذا المكان من البداية، أحببته من كل قلبي.

الجدران الطينية الملونة، والباب الخشبي الذي انفتح أمامه، و"كارلو جياتشيري" الذي كان ينتظره على المدخل ليسلمه مجموعة من المفاتيح:

- مرحبًا بك يا "فينسينزيو" في بيتك الجديد.

دخل "فينسينزيو" من الباب تتبعه "جيوليا" والأطفال، فالبيت الجديد مصمم بحيث تكون ساحة "التونارا" حديقة أمامية له، تغطيها تعريشة كبيرة وتظللها مجموعة من الأشجار والنباتات المزروعة داخل الأسيص، التي تكسر حدة اللون الرمادي للحصى. كل المباني المنخفضة تم رفعها وتحويلها لمنزل بنوافذ وشرفات تطل على مزلاج المركب، وبالقرب من البحر، يوجد برج مربع شامخ يبدو كما لو كان مغطى بالدانتيل الأبيض، له أربع قمم، وأربعة جوانب حجرية، ومنقوش عليه خطوط قوطية لا تقل جمالاً وفخامة عن تلك الموجودة في القلاع الإنجليزية، ونوافذ مفتحة على السماء مطعمة بقطع من الحجر المسامي، تمامًا مثل الدانتيل المزين بخطوط متعرجة، لكنها هنا منحوتة في الحجر.

شعر "فينسينزيو" بـ"جيوليا" ترتعش بجواره.

- ولكنه...

- رائع، أليس كذلك؟ نعم أعرف ذلك، لهذا لم أرغب في أن أريه إياك مبكرًا.

أخذها من يدها:

- تعالي.

ثم طلب من أمه والمربية أن يبقيا في مكانهما:

- فلتنتظرا هنا.

شاهدتهما "كارلو" وهما يدخلان المنزل، لم يرغب في أن يصطحبهما لأنه يعلم أنها لحظة خاصة جدًا.

لم تكتشف "جيوليا" حتى الآن سر ساحة البرج، الذي حلم به "فينسينزيو" منذ اللحظة التي أدرك فيها أنه سيصبح سيدها الوحيد.

صوت صدى خطاهما يُسمع وهما يسيران عبر الغرف المهجورة، وقد سبقتهما إليها خادمة كي تفتح لهما النوافذ، لتندفق الشمس بأشعتها الذهبية الدافئة داخل الغرف، وتنتشر ضيائها فوق الأرضيات المربعة كالشطرنج. صوت البحر يغطي على صوت حفيف التنانير وأصواتها الخافتة. أغلب الأثاث مصنوع من خشب "الماهوجني" الصلب وخشب الجوز، وتم تصميمه على هيئة عدة أشكال؛ منها الطاولات الكبيرة والصغيرة، والخزائن والأرائك الرائعة. لم يكن هناك حلي أو زخارف، ولكن "جيوليا" ستهتم بهذا الأمر، وعندما أخبرها بذلك، أشرق وجهها بالنور من شدة الفرح والسعادة.

سار "فينسينزيو" عبر ردهة أو ممر يطل على البحر، ووقف خارج أحد الأبواب ووضع يده على مقبض الباب، وقال:

- انظري.

لحقت به "جيوليا".

يوجد فوق رأسها مباشرةً سقف عالٍ، مصنوع من عقد رقيقة وعالية مطلية باللونين الأحمر والذهبي يتبعان بعضهما بعضًا، ويمتزجان داخل إطار النوافذ كما في الكنائس.

تعثرت أنفاسها داخل صدرها من الانبهار بجمال وروعة المنزل الجديد، وبدأت تتلفت حولها، وتلقي برأسها للخلف، وتضحك مثل فتاة صغيرة.

احتضنها من الخلف:

- هل أحببته حقًا؟ ما من أحد في "باليرمو" يمتلك مثل هذا المنزل.

لم تستطع أن تجيبه من شدة الفرح والسعادة، ففقد أجم جمال المنزل وبهاؤه لسانها.

اندفع الأطفال داخل الغرف في تلك اللحظة، وارتسمت على وجوههم علامات تعجب وانبهار، وصرخوا من هول وروعة المفاجأة، وأنوفهم جميعًا تشير نحو الأعلى، وتملأ الضحكات الجميلة وجوههم البريئة.

حملت "جيوليا" "إجنازيو"، الذي يبلغ من العمر الآن أربع سنوات، وهو يشير إلى النماذج الموجودة هنا وهناك، حتى "جيوستينا" التي كانت آخر من وصل إلى الغرفة، كانت تنظر حولها وهي مندهشة من روعة المكان وجماله، وكانت حقًا مسرورة.

وقف "فينسينزيو" يراقبهم من أحد أركان الغرفة؛ هذا المشهد الجميل هو بالضبط ما حلم به وما أراده، بيت حقيقي يليق به وبعائلته الجميلة.

ترك الغرفة وتوجه إلى الصالون الصغير، حيث كان "كارلو جياتشيرري" يشعل سيجارة وينتظره هناك.

- الكل مسرور.

- أليس هذا ما أردته؟ أن يعجز الكل عن الكلام من شدة جمال المكان وروعة تصميمه.

وقف "كارلو" بجانب النافذة، وأشار إلى غرف تخزين المركب.

- أنت رجل مجنون، وأنا كنت أجن منك عندما أنصت إليك، وما كان لي أبداً أن أتخيل أنه يمكنني أن أنشئ هذا البيت الرائع في خلفية "تونارا". أنت من أوحيت لي بذلك، وأين؟ هنا في "باليرمو"، من بين كل الأماكن في العالم.

- لقد تمنيت بعض الأحلام وعملت على أن أحقق العديد منها، لا شيء سوى ليقيني أنها ستتحقق. هل تذكر فكرة التونة المعلبة والمحفوظة في زيت الزيتون؟ فكرة لم يسبقنا إليها أحد، ومع ذلك كنت على يقين أنها ستجح، وها هي قد نجحت، وها نحن الآن نعبئها ونبيعها منذ أربع سنوات، والطلب عليها في تزايد مستمر.

تحدث "فينسينزيو" بلا تكبر ولكن بوعي وثقة.

- هذا ردي على كل من نعنتي بأني شخص "حالم"، فهذا هو الواقع يتحدث. الوضع نفسه ينطبق على مسبك المعادن الذي اشتريته من "سجيري برارز"، فقد أخبرني الجميع أن الورشة الموجودة هنا في "باليرمو" أمر غير مقبول وأخرق، لأن "البوتيا" أو العمال الفقراء هم من يسكنون هنا في العادة، لكنني أعلم أن هذا ليس هو الحال، وإذا لم يستطع الإنسان أن يبدأ في التفكير بجد، ستبقى هذه الجزيرة في وادٍ والعالم كله في وادٍ آخر. أتعلم ماذا يقول الناس عن هذا الأمر في "باليرمو"؟ قال الفأر لحبة المكسرات: "فقط امنحيني الوقت وسوف أسحقك". أنا لست من ذلك النوع من الناس الذي ييأس، أنت تعرف عني ذلك جيداً يا "كارلو". في الواقع، بمناسبة الحديث عن المسبك، أتمنى أن تذهب إلى موقع المبنى في "بورتا سان جيورجيو"، لأن العمل بالمكتب الرئيسي قد أبطأ. يعتقد الناس أنني مجنون وأخرق لأنني اشتريت المسبك، ولكن فلتنتظر حتى يتم الاعتماد على المعدن في بناء السفن وانتشار المحركات البخارية، ثم في هذه اللحظة تكتشف أن لديك بالفعل مسبك المعادن الخاص بك، ويعمل فقط لصالح سفنك، وهو ما سيقبل من تكلفة قطع الغيار وغيرها الكثير.

تذكر "فينسينزيو" المطحنة التي أتوا بها من إنجلترا لطحن لحاء الشجر، وحجم الإهانات التي نالها آل "فلوريو" جراء ذلك، والجرأة في بيع مسحوق "الكينو"، وتغيير القواعد بالكامل في المدينة.

- أنت مجنون، ولا تنس؛ وعامل.

ضحك "فينسينزيو" بمرارة صحبتها ابتسامة متكلفة، فبعض الأشياء لا يمكن تغييرها، خاصة عندما يفكر في الناس وهم يقذفونهم بجام الإهانات وما قالوه عن...

- أنا أشك في أنهم لن يستمروا في نعتك بهذه الأسماء حتى وفاتك، عليك أن تعتاد على ذلك.

الآن بدأ يتحدث "كارلو" بجدية.

- أنا بالفعل معتاد على ذلك.

تحرك "فينسينزيو" في أرجاء الغرفة ويده خلف ظهره:

- ولكنني لا أستطيع أن أكبح جماح نفسي، أنا فقط وببساطة لا أستطيع، من غير المنطقي أن أسمع أناساً مثل "فيلانجيري" يدعونني بـ "العامل"، وفي الوقت نفسه يرسل وكيله كي يطلب مني قرصاً ليسدد ديونه، ياله من كبر وعجرفة! هذا الافتقار إلى الكرامة هو ما يثير غضبي.

خرج "فينسينزيو" عن شعوره، وأطلق العنان لغضبه الذي ينحيه دوماً جانباً في العمل، ويراعيه كطفل حديث الولادة.

الأمير "كارلو فيلانجيري" أمير "ساتريانو" في ضائقة مالية شديدة؛ البعض يقول بسبب سوء إدارته لبعض الاستثمارات، والبعض الآخر يقول بسبب الرفاهية والبذخ الشديد الذي يعيش فيهما، وهو ما تسبب في عدم قدرته على السداد. طالبه الدائنون منذ وقت طويل بإعلان إفلاسه لأنه متورط لأذنيه في الديون، وهو إما أن ينجح في سداد ديونه ويخرج من تلك الضائقة، وإما أنه سيغرق في دوامة الدائنين والديون، و"فينسينزيو" هو الحبل الذي قد ينقذه من الغرق، أو طوق النجاة الذي قد يرده سالمًا للحياة ويصل به لبر الأمان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أتى المساء، حظوا جميعًا بعشاء عائلي راقٍ وفقًا للعادات والتقاليد؛ مكرونة بالصلصة وسمك مقلي. تم تقديم البطاطس والخضروات على روح من سبقوهم وطلب السماح واللفظ منهم، وشكرهم على استقبالهم المبهج. تبعت "جيوليا" المراسم بحواجب مرفوعة كامرأة شمالية، وافدة من شمال إيطاليا، فهي شخص متحفظ، وهي ترى أن محاولة التقرب للأرواح هو شيء مضحك وسخيف، ولكن هذا هو الحال.

في وقت متأخر من المساء، أخذ الزوجان أبناءهما إلى غرفهم وأسرتهم؛ تتشارك الفتاتان غرفة واحدة، أما "إجنازيو" فله غرفة مستقلة، وغرفة "جيوسينا" ليست بعيدة عن غرفتي الأطفال - في عمق الردهة المقابلة للخليج - وغرفة "فينسينزيو".

كان من الصعب على الجميع النوم، فالكل متحمس ومنتشٍ وسعيد بالبيت الجديد، حتى الخادمت لم يستطعن أن ينامن، وبقين يدرن في المنزل على أطراف أصابعهن مبهورات بجماله وروعة تصميمه، ومحاولات ألا يُحدثن ضوضاء.

بدأت "جيوسينا" وأنجلينا" في القفز على السرير، تبلغ الفتاتان الآن، الأولى ثماني سنوات والأخرى ست سنوات؛ ما زالتا طفلتين صغيرتين، ويبلغ "إجنازيو" أربع سنوات، يجري ويختبئ ولا حيلة للآنسة "بريجيت" في منعه وتهديته. لقد تطلب الأمر بعضًا من الحزم والشدة من جانب "فينسينزيو" قبل أن يذهب كل منهما تحت غطاءه لينام، ولكن من أين يأتي صوت الضحك المكتوم هذا؟ بعد ذلك، توجه "فينسينزيو" لغرفة أمه لكي يتقحص أحوالها؛ كانت تجلس على حافة السرير، وعيناها مغلفتان، وتحمل في يدها مسبحة وما زالت ترتدي غطاء الرأس:

- ألن تخلدي للنوم يا أمي؟

- يجب أن أصلي أولاً.

لقد أصبحت السيدة "جيوسينا" شديدة التدين والالتزام؛ لم يكن واضحًا بشكل جلي هل هذا تغير حقيقي وواقعي بداخلها، أم أنه خوف من المجهول بعد حياة حافلة بالقليل من السعادة؟ مال "فينسينزيو" عليها:

- هل يروق لك المنزل الجديد؟

هزت رأسها وتمتمت ببعض الصلوات بلهجة لاتينية مكسرة، ثم ثبتت رأسها وقالت:

- هذا المكان سلب قلب وروح وعقل "إجنازيو"، والآن أنت.

ساوت بيدها مفرش السرير.

- هل تريد أن تنتقل وتبقى هنا إلى الأبد؟ لا بأس، فالهواء هنا أنقى ويذكرني بهواء "بانيارا".

لم تذكر "كالابريا" بعد ذلك كثيرًا، وندمها الساخط الذي كان في يوم من الأيام يملأ قلبها ويأكله، ذهب بلا رجعة، ستبقى "بانيارا" عالقة في ذهنها وفي ذاكرتها حيث تخفي كل ذكرياتها وأحلامها

ورغباتها هناك إلى الأبد.

- لا، بل سنبقى هنا طوال فصل الصيف والربيع فقط، وسنقضي الخريف والشتاء في "باليرمو"، فضلاً عن أنني سأعود إلى "باليرمو" كثيراً لأتابع أعماله في المكتب، على الرغم من أنني أحتفظ بغرفة مكتب هنا، إلا أنني سأبقى بين هنا وهناك.

- أعرف.

حيا "فينسينزيو" والدته تحية المساء، واستأذنها وخرج عائداً لغرفته.

كانت "جيوليا" بانتظاره في غرفة نومها؛ وجدها وحدها باقية في انتظاره، شعرها منسدل على كتفيها وقد رسمت على وجهها ابتسامة امرأة حامل، تنتظر مولوداً من زوجها الذي تعشقه.

احتضنته بقوة، وقبلها "فينسينزيو" بدفء وحنان وعطف، وقال لها:

- أنا لا أشعر برغبة حقيقية في النوم، وأرغب في التمشية في الحديقة.

- وأنا سأبقى مستيقظة في انتظارك في الفراش حتى تعود.

بينما كان يسير في الردهة، ألقى "فينسينزيو" نظرة على أطفاله داخل غرفهم، لقد ناموا أخيراً.

مر بالصالون ونزل على السلام.

وصل "فينسينزيو" إلى مدخل المنزل، وخرج متجهاً نحو الساحة. كل شيء هادئ؛ كانت السماء صافية ومرصعة بالنجوم، والخليج أمامه، وبعيداً عنه هناك تظهر أضواء مدينة "باليرمو".

لمس الماء؛ كانت المياه دافئة بالنسبة لهذا الوقت من شهر أبريل.

سار "فينسينزيو" ويده في جيبه، وذهنه صافٍ تماماً من كل المشاغل والتوتر. لعقت إحدى الموجات قدمه. قال لنفسه: "متى كانت آخر مرة ذهبت فيها للسباحة في الخليج؟ ما الذي تفكر فيه؟ وكأنك ما زلت طفلاً صغيراً!". توقفت ضحكته، واستحالت إلى عقدة في حلقه.

تذكر أول مرة حاول فيها أن يسبح تحت الماء؛ كانت عيناه مفتوحتين، والملح يؤلم جفونه، والصمت يصم أذنه، برودة المياه، والشوق لالتقاط الأنفاس يتقاطع مع رغبته في البقاء تحت الماء، بلا وزن، منغمساً في الخضرة.

"يا إلهي! الحرية؛ يا لها من شعور جميل!".

تحولت رغبته إلى حاجة ملحة؛ تطلع "فينسينزيو" للشعور مرة أخرى بالحرية، ولو للحظة قصيرة.

بلا تردد، تسارعت يده نحو أزرار قميصه تفكها، وخلع صدريته وبنطاله والقميص، وخلع حذاءه.

كانت الرياح باردة، ومن شدة شعوره بالنشوة، كان بالكاد يشعر بالرياح وبرودتها.

نظر إلى صدره العريض، فهو ما زال في الأربعينيات من عمره، وقد بدأ يكتسب بعض الوزن الزائد في منطقة الخصر، ولم تعد أذرعته قوية كما كانت عندما كان شاباً يافعاً، لكنه ما زال يحتفظ بكل أسنانه، ولا يلهث عند صعود السلم.

خطوة وراء خطوة، احتضنه البحر ورحب به. عندما تبللت معدته بالمياه، صارت بشرته كجلد الإوزة، فجأة ظهر أمامه عمه "إجنازيو"، آه، صغيراً وشاباً بلحيته الخفيفة، وابتسامته الحزينة التي لم تقارق وجهه منذ موت شقيقه "باولو" بمرض السل وهو في أوج شبابه.

- تمهل يا "فينسينزيو"، تمهل، لا تسرع، فالبحر كالأم؛ سترحب بك دوماً مهما غبت عنها.

استحالت الذكرى إلى وجود حقيقي وواقعي:

المكان: جزيرة "مالطا"، الزمان: بعد عام من وفاة والده العزيز "باولو". اصطحبه "إجنازيو" معه لزيارة الجزيرة، والتقى هناك بعض التجار، واستنشق رائحة بعض التوابل غير المألوفة.

هناك، لاحظ عمه أن "فينسينزيو" لا يجيد السباحة، فشرع بالخزي لكون ابن البحارة لا يستطيع السباحة، وقرر أن يعلمه السباحة، فبحث عن شاطئ ما وقرر أن يعلمه؛ وغطسا هما الاثنان. كان "فينسينزيو" عارياً تماماً، وعمه "إجنازيو" قد لف وسطه وأردافه بقطعة من القماش، وألقيا بنفسيهما هكذا في حوض البحر الأزرق.

تذكر "فينسينزيو" في تلك اللحظة كمّ الضحك الذي ضحكاه معاً، وذراعا "إجنازيو" المفتوحة لاستقباله والترحيب به؛ ما زال "فينسينزيو" يشعر بالماء المالح وهو يغطي أنفه والسعال الذي تلا ذلك، رغم مرور كل تلك السنوات كما لو كان الآن.

وبعد ذلك؛ بعدما شرب الكثير من الماء المالح، وشعر بالاختناق والضحك، والمحاولات المتكررة للسباحة، تعلم "فينسينزيو" السباحة، لكنه لم يسبق له السباحة بالليل أبداً.

حسناً، حان الوقت لتجربة ذلك؛ غاص في الأعماق، مرت المياه بين خصلات شعره والتفت حول عنقه وذراعيه، صحيح؛ البحر مرحب، يرحب بكل القادمين.

عاد للسطح ليستنشق الهواء ويملاً رئتيه بالأكسجين ويتنفس، ولكن ماذا في ذلك؟ الشعور بالحرية والانطلاق والتخلص من كل الأعباء والقيود، التحرر الكامل من الحياة وأعبائها والعمل والرسميات ونفاق البشر وتكبرهم وتجبرهم، النور، الرغبة في الصراخ، لأنه على سبيل المثال، شعر بأن ظلام نفسه وسواد قلبه الذي حمله في صدره وبين ضلوعه طيلة حياته قد اختفى، أو على الأقل سار تحت سيطرته وإطار وعيه وضميره.

هذه هي لحظة الكشف والنور للفرحة غير المعتادة التي تفجرت بداخله وجعلته يضحك ويبيكي في الوقت ذاته.

لو هذه هي السعادة، فهي غريبة حقاً وعجيبة، لأنه لم يفكر يوماً أنها جميلة ومؤلمة لهذا الحد. عاد ليغوص في أعماق البحر الواسع من جديد، ثم عاد ليطفو على السطح مرة أخرى، وصرخ من فرط السعادة التي يشعر بها، وهو حر كطفل صغير بلا أعباء، بضحكة صافية وسريرة نقية مخلصاً؛ الشعور بالحرية. شعرَ بمغزى حياته الحقيقي وعرف السبب وراء كل ما حدث، وهذه الرحلة الطويلة من العمل والعناء والتفكير، كانت تهدف إلى الوصول إلى هنا في النهاية، كل شيء كان يقوده إلى هنا، وهذا صحيح، وما كان له ألا يهتم بالإهانات والحدق، لأنه هو نتاج ما أراد أن يكون عليه، وهذا هو طريقه في الحياة الذي اختاره لنفسه.

ضرب بيده عدة ضربات ثم عاد للنوم على ظهره، الآن يمكنه أن يرى "التونارا" من موضعه هذا، وأضواء المنزل وهي منعكسة على صفحة مياه الخليج. شيء واحد محدد فكر فيه؛ غرفة النوم، حيث تنتظره "جيوليا".

"كازا فلوريو"، "جيوليا"، منزله، حياته.

ظل مستلقياً على سطح الماء، وقد بصق بعض الماء المالح من فمه، وضحك.

"متى كانت آخر مرة شعر فيها بهذا الشعور بالحرية، والتحرر من كل شيء؟ هل سبق وشعر بمثل هذه الحرية من قبل؟".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الضياء هادئ في شهر أكتوبر، له ظلال تشبه لون حجر الياقوت الأصفر ونعومة ورقة النحاس، تسقط أشعته على البيوت المصنوعة من الأحجار البركانية في "الأرنيللا"، وتنتشر فوق البحر الذي

فقد ألوان الصيف الرائعة والمبهجة، واكتسى بألوان الشتاء وأشكاله، حتى الرمل أصبح باهتًا ولم يعد يتمتع بذلك الوميض، الذي يجبرك على أن تصبح أحول.

في ذلك الوقت، كان يبلغ "إجنازيو" السادسة من عمره، كان يجلس مستندًا إلى إطار الباب، ولم يحزم أمره؛ هل يذهب إلى الشاطئ أم يعود مرة أخرى ليلعب في الساحة؟ لكنه مال لفكرة الذهاب للشاطئ، وكأن البحر قد همس في أذنيه بصوت لم يفهمه بشكل كامل، كل ما يعرفه أنه كان أعلى من صوت حديث أخته "أنجلينا" و"جيوسينا"، وهما جالستان تحت المنصة الخشبية يطرزان أقمشة مع أمهما والمربية. أخذ خطوة نحو الأمام؛ كان البحر يناديه.

نظرت "جيوليا" للأعلى كي تبحث عنه ونادت عليه:

- "إجنازيو"؟ أين أنت يا "إجنازيو".

نادت عليه "جيوليا" بصوت عالٍ هو مزيج من التعنيف والعطف، وعندما سمع هذا الصوت، لم يستطع أن يقاومه، وعاد مرة أخرى إلى البيت.

وضعت "جيوليا" تطريزها داخل طية الفستان واحتضنته.

- هل انتهيت من الفروض المدرسية التي أعطاه لك المعلم؟

هز رأسه وقال:

- وانتهيت كذلك من رسم السفينة.

فكرت "جيوليا" ... ملست بيدها على شعره الناعم، وحرك الطفل الصغير خديه ليقترب من يدها: "بالطبع، ماذا قد يرسم غير ذلك؟".

يعتقد "إجنازيو" أنه ما من امرأة على وجه الأرض أجمل من أمه، ولا حتى الأنسة "بريجيت" بشعرها الأشقر الذهبي.

تعلم "جيوليا" جيدًا أن ما من أحد سينظر إليها، أو سوف ينظر إليها بعيون مملوءة بالحب كعيون ولدها.

فجأة، سُمع صوت جلجلة وطنونة متبوعة بصوت الأحصنة، ما دفعهم جميعًا إلى الاتجاه ناحية الباب الأمامي. فتح الحارس الباب على آخره لتدخل عربة كبيرة داكنة داخل المنزل، وتتجه نحو الجانب المقابل للتعريشة، لم تتوقف العربة حتى عندما قفز منها "فينسينزيو"، ومشى بخطوات مسرعة وواسعة بشكل عصبي نحو المدخل.

سارت "جيوليا" نحوه ونادت عليه:

- "فينسينزيو"!

ولكنه أشار إليها بإشارة سريعة، فهمت منها أنه يريد أن تبقى في مكانها أو أن تصمت.

- نحن لم نتوقع أن تحضر مبكرًا هكذا.

بينما وقفت الفتاتان والمربية وتمتمن بتحية ما، ورؤوسهن منحنية.

- لا شيء يا "جيوليا"، ولا تقمى نفسك في كل شيء.

واختفى عبر الباب المؤدي إلى السلم، ولم يتبق وراءه سوى صوت كعب حذائه، وهو ينقر على السلام المصنوعة من الحجر.

رأى "إجنازيو" أمه وقد ضمت يدها على صدرها وطأطأت رأسها.

كم مرة رأى فيها "إجنازيو" الصغير هذا المشهد البائس؟ كم مرة شعر فيها بالغضب تجاه أبيه بسبب تصرفاته السيئة مع أمه؟ كان غضبه بسبب أفعال أبيه أكثر بكثير من الخوف الذي يثيره بداخله،

فوالده دائماً غضبان ووجهه صارم على الدوام، وهو دائماً جاف وخشن في التعامل مع أمه، لماذا؟
"إجنازيو" لا يفهم. ذهب لأمه بصمت، ونظر إليها بعطف وحنان.

قالت "جيوليا" بهدوء ورقة:

- إن أباك ليس بالرجل السيئ يا "إجنازيو"، إنما هو رجل مهم وهو مشغول دائماً، وهذه هي طبيعته، وهذه هي أخلاقه وسلوكياته.

- ولكنه يجعلك تبكين.

ثم مد الطفل يده نحو وجه أمه الحزين، كما لو كان يريد أن يلملم الدموع الساخنة التي تجري من عيونها.

سُمع صوت "فينسينزيو" الغاضب، وصوت إغلاق الباب بقوة من الدور العلوي، الغريب في الأمر أن "جيوليا" ابتسمت عند سماعها لهذه الأصوات وقالت:

- لقد زرفت الكثير من الدمع فيما سبق، ودمعة أخرى لن تؤثر ولن تغير في الأمر شيء، فأنا أعرف أباك، أعرفه جيداً.

غطت "جيوليا" نفسها جيداً بشالها، ونظرت إلى البرج المربع:

- سوف أذهب لأرى ما الذي يحدث بالضبط، وأنت عليك أن تبقى هنا مع أختيك.

في الوقت الذي كان فيه الغضب يتفجر من صدر "فينسينزيو"، اختفت "جيوليا" في ظلام الردهة، وقد أصدرت تنورتها هسهسة وحفيفاً وهي تسير.

نظر "إجنازيو" حوله؛ كانت أختاه والمربية ملهيات في التطريز، وأصبح صوت والديه بعيداً، وعادته مرة أخرى همسات البحر، تحملها رياح "جريجال" التي تغريه بالتوجه نحوه ومحاولة الغوص فيه، مثل أبناء الصيادين.

تسلل الولد نحو الباب الأمامي وعبر من خلاله. أصبحت "الأرنيليا" أمامه بالضبط وما من أحد يراقبه، فالكل مشغول عنه.

انتهز "إجنازيو" الفرصة، فعلى مدار الأيام الماضية، وجه له والداه تعليمات صارمة بعدم الذهاب نحو الصخور الزلقة الموجودة أسفل البرج، وبعدم تسلق الركاب المجاور له، ولهذا السبب قضى الصيف كله في القفز حول المكان هناك، ولم تصدف مرة أن سقط أو انزلق، لدرجة أنه استحم في هذا المكان في مناسبة أو اثنتين، لكنه لم يكن يتمتع بالقدر نفسه من الشجاعة الذي يتمتع به أبناء الصيادين، الذين يغوصون عند "بلاطة" تلك الكومة من الأحجار والصخور الموجودة خلف الخليج، فضلاً عن أن والده قد وعده بأن يعلمه السباحة والقفز في الماء والغوص فيها الصيف القادم، فأل "فلوريو" عليهم أن يتعلموا السباحة لأن مياه البحر والدماء تجريان في عروقهم.

انطلق "إجنازيو" من ناحية جدار ذي اللون الترابي، وسار عبر الشاطئ وأخذ طريقه عبر الصخور، وفجأة ظهر أمامه سلطعون صغير خرج لتوه من نتوء مغطى بالطحالب الجافة، فلما رآه حاول أن يمسك به، ولكن الحيوان القشري كان أسرع منه وانطلق نحو الشقوق ليختبئ فيها مرة أخرى.

- لا.

تساءل وقد مال بجسده للأمام، فانزلق حذاؤه على الأعشاب البحرية، وفقد توازنه وترنح ثم سقط في الوحل وفي الماء الأسن، فبكى "إجنازيو" بصوت هادئ ونظر ليديه؛ فوجد كف يده قد اتسخ بالوحل، وعانى ليقف مرة أخرى على قدميه. كانت جراحه تنزف وتؤلّمه بسبب ملوحة البحر التي كانت

تلسعه، ولكن لم يكن هذا ما يهمه؛ كل ما كان يشغل باله أن ملابسه اتسخت بشدة ووالدته ستغضب منه.

“يا لك من سلطعون غبي! ما العمل الآن؟ وكيف يمكنني التخلص من هذه الفوضى؟”. اقترب من الماء بحرص لأنه يعلم أن البحر عميق في هذا المكان، إذ سبق أن رأى أبناء الصيادين وهم يغطسون في هذا المكان ويصعدون، ومعهم أكياس ممتلئة بالقنفاذ البحرية التي يخرجون بها ويأكلونها على الشاطئ.

بدأت معدته تؤلمه، وتسالت لجسده رعشة الخوف والارتباك. كانت الأمواج عالية وترش رذاذها عليه. تمسك بالصخور، وحاول أن يستعيد توازنه مرة أخرى بكلتا يديه، لكنه بدأ يتمايل. توقف قلبه في حلقه من شدة الخوف والرعب، وبدأ يحدق في البحر الذي أصبح فجأة أسود كالوحش، وما عاد السمك يقفز، ولا أزهار “شقائق النعمان” ترقص، ولا الطحالب تتمسك بالصخور، فقط أمواج عالية تزداد عتوًا وتنتهي بأن ترتطم بالصخور وتبلل ملابسه.

فكر الصبي: “إن أمي ستكون غاضبة مني بشدة وكذلك أبي، من الأفضل ألا أفكر في هذا الأمر”. عليه أن يعود. شعر “إجنازيو” بشيء ما خلف عظام صدره، ولكنه لم يستطع أن يعطيه اسمًا، فتمسك بأحد الصخور وحاول أن يستدير وأن يرفع قدميه، اللتين بدتا كما لو كانتا قد علقتا في البركة الصغيرة.

تمكنت منه الرياح وجعلته يفقد توازنه وسحبته للأسفل، وكانت النتيجة أن الماء البارد جدًا قد أفرغ رئتيه من الهواء، وكان أحدًا قد جثم على صدره. فتح عينيه، وحاول أن يقاوم الأمواج بذراعيه، وأن يرفع نفسه لأعلى حتى يلتقط أنفاسه، ولكن البحر أطبق عليه بأمواله العالية مرة أخرى، واحتضنه زبده احتضانه باردة، وشعر وكأن شخصًا قد قبض على قدميه وبدأ يجره نحو الأسفل، فظل يركل بقدميه ويصارع الأمواج، محاولًا في البداية أن يضرب بقدميه في الفراغات الموجودة في الماء ليصطدم بالصخور المغمورة، كان التأثير قويًا لدرجة أنه فقد حذاه. بدأ الخوف يتمكن منه وشعر برعب شديد، ففتح فاه وصرخ بأعلى صوته وبكل ما أوتي من عزم ونادى على أمه:

- أمي!

صرخ الفتى بكل قوة، وبكل الهواء الذي بقي في صدره بمجرد أن رفعته الأمواج لأعلى، وكأنها تهدده ثم تعود لتسحبه لأسفل.

- أمي!

استمر “إجنازيو” في الصراخ، وراح يبتلع المزيد من الماء المالح ويسعل.

- أمي!

كان يتوسل بلا أمل، وقد اكتسى كل شيء حوله باللون الأسود.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- هذا ما حدث، تمامًا كما أخبرتك؛ تم بناؤه هنا في صقلية، لكن بحق المسيح! طلبوا منا أن نورد لهم شحنة من المقالي والملاعق المعدنية، ونحن غير قادرين على الوفاء بهذه الشحنة خلال شهر واحد، والسبب أنه لا يوجد ما يكفي من الفحم. نحن بحاجة للمزيد ولا يوجد لدينا هنا أية فحم، لذا تحتم علي أن أطلب شحنة من فرنسا، والسفن التي تحمل الفحم لن تأتي، وإن لم يُرسل الفحم كي يتم توريد المعالق والمقالي، فسنكون مضطرين لدفع غرامة بسبب التأخير.

في مكتب "فينسينزيو"، في قلب البرج، يتم تبادل الملفات وتمر الأوراق من يدٍ لأخرى. وجد ملفاً كبيراً وأخرج منه ورقة، ثم أعادها مرةً أخرى. تابعت "جيوليا" حركاته المتشنجة. هممت "جيوليا":

- أنت تعلم أنه ليس من السهل إدارة مسبك هنا في "باليرمو"، حتى إن "بن إنجهام" تراجع عن هذا الأمر وقرر الخروج منه.

اقتربت "جيوليا" منه ووضعت يدها على ذراعه.

- ما من شيء سهل في هذه المدينة، لكن هذا لا يعني أننا لا يمكننا فعل أي شيء.

توقف "فينسينزيو" عن القلق والتوتر بمجرد أن لمست "جيوليا" ذراعه، وهدأ وأخذ نفساً عميقاً.

- لقد قرأت أنا و"جياتشيري" الفقرات الخاصة بتوقيع الغرامة المالية على الطرف المنوط بتسليم الطلبية المنصوص عليها في العقد، وفي حال فشلنا في تسليم الصفقة في الموعد المقرر فسندفع غرامة كبيرة، وأنا لا أريد أن أدفع هذه الغرامة، وأنا لديّ هنا بعض المستندات التي...

لكن "جيوليا" كانت في عالم آخر ولم تكن تسمعه؛ عبس وجهها، وأدارته ناحية النافذة؛ لقد تخيلت أنها سمعت... لقد تحركت بالفعل ناحية عتبة النافذة ونظرت منها.

- "أنجلينا"، "جيوسينا"، أين أخوكما؟

نظرت الفتاتان والمربية إليها:

- لقد كان هنا معنا...

أجابت الأنسة "بريجيت":

- نعم سيدتي، لقد كان بيننا هنا، منذ لحظات كان يتجول حولنا، أليس معكما يا سيدتي؟ وبدأت على الفور بالبحث عنه.

اندهشت "جيوليا" من هذا الكلام، ربما كانت مخطئة؛ نعم، لا بد أنها كذلك، ولكنها تكاد تقسم أنها سمعت صوت ابنها "إجنازيو" وهو ينادي عليها.

هرعت خارج الحجرة وهرولت نحو الأسفل وبدأت تتنادي:

- "إجنازيو".

لكن ما من مجيب.

- هل يمكن أن يكون مختبئاً؟ "إجنازيو"!

كررت النداء.

بحثت في الساحة وحولها وكررت النداء عليه، لقد أصبحت أكثر توترًا وقلقًا.

كان "فينسينزيو" ما زال في مكتبه يهز كتفيه، وقد استبد بـ"جيوليا" القلق على "إجنازيو"، ولم يكن أحد مهتمًا لأمره. لا بد أن "إجنازيو" يتسكع بجوار المراكب بين الزلاقات والمراكب الخشبية، أو يلقي الأحجار على الشاطئ، ماذا يمكن أن يكون قد حدث له؟

في السنوات القادمة، سيتذكر "فينسينزيو" دائمًا هذه اللحظة الفارقة، ولكنه سيكون غير قادر على تفسير السبب، الذي جعله يتوجه نحو النافذة المطلة على الصخور المقابلة للخليج؛ شعور فطري أو ربما فرصة للنجاة؟

هكذا بدأ الأمر، نظر نحو الصخور الموجودة تحت أصغر كومة، فرأى بالصدفة يدًا، ثم رجلاً؛ إنه جسد كامل طافٍ يتقلب، تتقاذفه الأمواج ويرتطم بالصخور وملفوف بالطحالب التي يبدو أنها تسحبه للأسفل.

شيء آخر لن يتذكره بشكل جيد، هل صرخ في تلك اللحظة أم لا؟ لكن ما فكر به في تلك اللحظة سيظل محفوراً في ذاكرته إلى الأبد، لا يمكن لهذا أن يحدث، ليس لابني. فوجئت به "جيوليا" وهو يمر بجوارها، ويعبر الساحة بسرعة ويخلع معطفه وصدريته، ويسرع الخطى نحو الصخور، فوضعت يدها على فمها من شدة الخوف والهلع وتبعته، وبمجرد أن وصل إلى البوابة الأمامية، خلع "فينسينزيو" حذائه وتوجه نحو البحر وغاص فيه. علفت الصورة بعينيها، وما عادت ترى شيئاً آخر من حولها، ونُقشت داخل عقلها وكأنها مصنوعة من البرونز.

- "إجنازيو"!

تسلقت الصخور ومزقت طرف ثوبها ومدت ذراعيها ونادت على ولدها مرة أخرى، ورأت "فينسينزيو" يطفو على السطح مرة أخرى، ثم يختفي مرة أخرى داخل الماء الأسود الداكن، هناك جسد ما يتقلب بين الطحالب، أم أن الأمواج هي من تحركه؟ "إنه ما زال على قيد الحياة، لا بد أنه كذلك، يا إلهي!".

ويقف خلفها كل من "أنجلينا" و"جيوسبينا" والمربية "بريجيت"، يصرخن ويبكين من شدة الخوف والرعب، وهن متشبثات ببعضهن بعضاً، والمربية تَنسُجُ وتصرخ بلغة هي مزيج من الفرنسية والصقلية، وتقول كيف لهذا أن يحدث؟ ولكن "جيوليا" لم تكن منصتة، وصرخت:

- "فينسينزيو"، "إجنازيو"!

ظهر "إجنازيو" أولاً قبل أن يظهر "فينسينزيو" وعيناه مغلقتان، ولونه شاحب كملاءة السرير، لكنه كان يرتعش ويسعل. انفجرت "جيوليا" في نوبة من البكاء الهستيرى:

- أشكرك يا إلهي! إنه يسعل! هذا يعني أنه ما زال على قيد الحياة!

ظهر "فينسينزيو" بعد ذلك مباشرة؛ كان يرتعش من شدة البرد، وقد غطت الجروح ذراعيه وقدميه ولكنه لم يكثرث، ووضع "إجنازيو" على الشاطئ ودفع "جيوليا" بعيداً عندما حاولت أن تضمه إليها.

- فلنتركيه! يجب علينا أن نضعه على جنبه كي يخرج كل ما ابتلعه من ماء مالح! وضربه بشدة على ظهره.

ارتجف "إجنازيو" تحت وطأة الضربات الشديدة لوالده، وبدأ يبكي وينتحب، وتقيأ كل ما في جوفه من ماء مالح وبعض بقايا الطعام التي كانت في معدته، وفتح عينيه للحظة ولم ير سوى وجه أمه المرتعد، وهمهم:

- أمي!

كان صوته مبوحاً من الصراخ الذي صرخه، ومن الماء المالح الذي ابتلعه.

بدأت "جيوليا" في البكاء بصوت عالٍ:

- طفلي الحبيب!

وخلعت عنها شالها ولفته به، بينما كان "إجنازيو" مستمراً في البكاء والنحيب والسعال والارتعاش.

رفعه "فينسينزيو" وحمله على ذراعيه وتوجه به مباشرة إلى البرج.

- أنتما الاثنان، أحضرا طبيباً، هيا تحركا!

ثم وجه نظره إلى المربية وكان صوته أقرب للزجرة الغاضبة:

- وأنت أيتها المرأة عديمة الفائدة، فلتعربي عن وجهي! لا أريد أن أراك هنا مرة أخرى، عليك أن ترحلي من هنا، الليلة! فولدي الحبيب كان على وشك الهلاك. لقد غاب عن عينيك ولم تلحظي غيابه

حتى! فليس هناك ما هو أعلى من هذا الكائن الصغير في العالم بالنسبة لي، فلتعربي عن وجهي!
تراجعت "بريجيت" خطوة للخلف، وانفجرت في البكاء وهرولت لغرفتها، ولكن "أنجلينا" سمعته
وقد ارتسم على وجهها الحزن والألم، والذي تشكل واستدار فلا هو وجه طفلة ولا هو وجه امرأة.
- هيا بنا نذهب.

جذبت "جيوسبينا" أختها من يدها، وطلبت منها أن تتوقف عن البكاء لأن "إجنازيو" بخير، لقد حدث
ما حدث لأنه مشاغب وسيصاب بالحمى الآن، لكن الفتاة لم تكن تدرك من أين يأتي كل هذا التوبيخ،
فهي تسمع الرمل، وقد جفف قلبها وروحها الملح الذي يئن تحت حذائها، وقد أغلق أبواب قلبها على
ألمها، وتلك الأفكار المخفية التي لن ترى النور يوماً ما، ولكنها تدرك تمامًا أن أباه يعني ما قاله،
وستتذكر ذلك لسنوات كثيرة قادمة.

في تلك الليلة الحزينة، قررت "جيوليا" النوم بجوار حبيبها وطفلها "إجنازيو" في غرفته، بعد أن
طمأنها الطبيب وأكد لها أنه بخير، وأنه على أسوأ تقدير قد يصاب بالحمى لبعض الوقت، وأن
الجروح والكدمات المنتشرة على ذراعيه وقدميه ستشفى مع الوقت، وهذا كل ما في الأمر، وقد
أعطاه بعضًا من العسل وشراب العرقسوس من أجل حلقة، وأوصاه بوضع قربة من الماء الساخن
على صدره.

ولكنها لم تصدقه، وقررت أن تبقى معه، فعقلها ما زال متوقفًا عند لحظة رؤيتها للصبي في الماء وأنه
ربما قد فارق الحياة، وأن أباه هو من انتزعه انتزاعًا من بين برائن الموت. وبالنسبة لـ "جيوليا"، فكل
ما حدث لا يمكن النظر إليه سوى أنه معجزة حقيقية وليس موقفًا عاديًا، فزوجها "فينسينزيو" هو من
أنقذ "إجنازيو" من بين أيدي الموت.

وفي خضم هذه العاصفة، لم ترَ "جيوليا" أي صورة من صور الخوف أو الارتباك أو اليأس في
عينيه ولا في وجهه؛ فقط القوة والتحدي والإصرار، وعزيمة بشرية غير عادية تعرفها جيدًا فلا تلتين.
لكن "فينسينزيو" لم يبقَ إلى جوار "إجنازيو"، منذ اللحظة التي أنقذه فيها وتأكد من كونه على قيد
الحياة، وأرقدته على جانبه، وأخرج الماء المالح من جوفه، وحمله إلى داخل البيت، بل اختفى هناك
في غرفة مكتبه أعلى البرج. كانت "جيوليا" هي من بقيت بجواره، وكانت تقدم له الحساء الدافئ كي
تتحسن صحته، وكانت تغير له ملابسه.

في لحظة ما، حضرت "جيوسبينا" الجدة إلى غرفته، كانت عيناها حمرًا من شدة البكاء، ويدها
ترتعثان من هول الصدمة، فقد كان وقع الصدمة عليها مدمرًا، وضمته إلى صدرها، وقبلته وربنت
على شعره الرطب، وهمست في أذنيه بكلمات بلهجة "كالابرية" غريبة لم تفهما "جيوليا"، كل ما
تعرفه "جيوليا" أن "إجنازيو" هو حفيدها الوحيد الذي تكن له كل المحبة والعطف. وبعد فترة، هدأ
الطفل ونام من شدة التعب والإرهاق هو وأمه المكلومة، على وسادة واحدة وأصابهما مشبكة مع
بعضهم بعضًا، وعندما كان الصغير يتلملم ويسعل، كانت "جيوليا" تضمه لصدرها، وفي النهاية
غرقا في سبات عميق من شدة التعب والإرهاق بعد كل الأحداث المريرة التي مرت بهم.

في منتصف الليل، استيقظ الولد من النوم على صوت صرير الباب وهو يفتح، تمسك الولد بذراع
أمه، وحاول أن يرى في الظلام من الذي يحاول دخول الغرفة؛ إنه أبوه وقد حضر إلى غرفته. جلس
على الكرسي ذي المسند، وكان وجهه منهكًا بسبب التوتر والقلق، وشعره غير مهنم، وقد ضم يديه
وقربهما من وجهه، وكان ينظر لـ "إجنازيو" بطريقة وجدها الولد غير مألوفة، فاندھش. كان وجه

أبيه يحمل تعبيرات الراحة والخوف والإرهاق والعطف والحنان في وقت واحد، لم يسبق أن نظر إليه بهذه الطريقة من قبل.

فهم الصبي على الفور أن والده شعر بالخوف، وهذه الفكرة قد أجزنته... الخوف عليه لأنه ربما - يحبه.

حاول أن يمد يديه نحوه، وأن يخبره أن يقترب منه أكثر فأكثر، ولكنه لم يستطع، لكن النعاس والتعب قد غلباه، وعاد للنوم وهو يشعر بالراحة والدفء لأن أمه إلى جواره، وقد تأكد أن والده يحبه من كل قلبه أكثر من أي شيء آخر في الحياة.

لم يستطع أن يرى، لم يتمكن من أن يرى في الظلام أن عيون والده كانت ممثلة بالدموع. في الأيام التالية للحادثة - هكذا أصرت "جيوليا" أن تسميها - بقي "إجنازيو" في فراشه، فقد بدأت أعراض الحمى تظهر عليه بسبب الصدمة والبرد. أمضى الصبي الظهرية في غرفته وحيداً، فالآنسة "بريجيت" تركت البيت على عجل، وأختاه الآن أصبحتا تدرسان مع والدتهما.

سحب قدميه تحته وعقصها داخل البطانية، وجلس يقلب في صفحات أحد الكتب الموجودة في مكتبة والده؛ إنه ليس كتاباً مخصصاً للأطفال ولكنه لم يكثر، المهم ألا يتذكر لحظات الرعب التي مر بها، وشعوره بأنه قد يموت وحيداً تحت جالونات من المياه التي تتدفق داخل رثتيه، وقد كان هذه - كان يعلم ويخبر نفسه - المرة الأولى في حياته التي يعرف فيها معنى الخوف من الموت، إنه شعور سوف يحمله بداخله لبقية حياته.

لهذا قرر أن يلهي نفسه بين صفحات الكتاب الموجود أمامه، ويقرأ بصوت عالٍ مقطوعاً منه وينظر إلى التوضيح، محاولاً نطق الكلمات غير المألوفة فيه ويستسيغها وكأنه يلوكها بلسانه: "السفن، الكثير منها".

هكذا وجد "فينسينزيو" عندما عاد من مصنع "أوريتا" لسبك المعادن، بعد أن قضى اليوم كله وهو يتحدث للعاملين، ويؤكد لهم أن الفحم والحديد سيصلان في موعدهما المحدد.

فتح الباب ووقف قليلاً على عتبة الباب وقال:

- ما الذي فعله؟ وما هذا الشيء الذي تنظر إليه؟

نظر "إجنازيو" لأعلى، ولم يستطع "فينسينزيو" أن يغض طرفه عن التشابه القوي بينه وبين أمه "جيوليا"، وفي الوقت نفسه هناك شيء ما فيه يذكره بعمه الفقيد "إجنازيو"، الذي رباه وعلمه كل شيء واعتنى به؛ إنه هدوءه وحزمه.

خرج الصبي من تحت البطانية، وانحنى انحناء خفيفة أمام والده دون أن ينطق بكلمة واحدة، وأعطى والده الكتاب.

"الوضع الجمركي الإحصائي الكوريوغرافي لصقلية"، بقلم "فرانشيسكو أرنشيو"، لم يتمالك "فينسينزيو" نفسه وانفجر في الضحك:

- هل تقرأ هذا الكتاب؟

اتسم السؤال بالدهشة بدلاً من السخرية، وشعر "إجنازيو" بذلك.

فسر "إجنازيو" وجهة نظره، مشيراً إلى الصفحات التي يقلبها أبوه في الكتاب:

- أحب النظر إلى الخرائط والسفن البخارية. انظر!

أشار إلى صفحة ما وأكمل:

- إنها "لاكالا"، التي تخبرك كيف تنتهي الأنهار بصب مياهها في البحار.

هز "فينسينزيو" رأسه ونظر بارتياب وتشكك إلى ولده الصغير، الذي كان يخبره بما يراه بين تلك الشبكة الكبرى من الخطوط المصفوفة والكلمات.

لقد كبر الصبي أمامه دون أن يلاحظ ذلك، وحان الوقت الذي يجب أن يشرع على الفور في الاعتناء به وتعليمه، فـ"جيوليا" في النهاية امرأة، ولن يبقى "إجنازيو" - مهما كان مدى تعلقه بأمه - متشبهاً بذيل تتورتها إلى الأبد.

- سنعود إلى "باليرمو" بعد غد، فالجو صار باردًا هنا.
أغلق "فينسينزيو" الكتاب وأعاد إليه.

ولكن هذا لم يكن هو السبب الوحيد للعودة؛ إن كان الصبي قادرًا على قراءة الخرائط في "الأطلس"، فإنه بالتبعية سيكون قادرًا على البدء في الدراسة والتعلم بإخلاص وتقان، لذا يجب عليه البدء على الفور دون إهدار للوقت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لكن في تمام الثامنة، من صباح اليوم الثاني عشر من شهر يناير عام 1848، تم إرباك هدوء اليوم وسكينته بطلقات المدفعية.

جلبة عالية جعلت ألواح زجاج النافذة تهتز من شدة الصوت، والخادمت داخل "كازا فلوريو" في ضاحية "فيا دي ماتيريسي" يصرخن من شدة الصوت.

احتضنت "أنجلينا" التي بلغت الآن الحادية عشرة من عمرها أختها "جيوسبينا"، التي بدأت في الصراخ، بينما كان "إجنازيو" جالسًا في منتصف السرير، وقد كست تعبيرات الخوف والرهبة والارتباك وجهه، الذي لم يزل يكسوه النعاس.

عند سماع دوي الانفجار الثاني، قفز "إجنازيو" من فراشه وجرى نحو أمه.
- أمي! أمي! ما الذي يحدث؟

جئت "جيوليا" على ركبتيها، وأخذت بوجهه بين يديها:
- ربما يتعلق الأمر بالاحتفال بعيد ميلاد الملك.

ولكنها لم تكن متأكدة، ورأى "إجنازيو" الخوف في عينيها وارتباكها.
- حقًا؟

أنت أختاه "جيوسبينا" و"أنجلينا" ممسكة إحداهما بالأخرى، ويقولان إنهما نظرا من النافذة ورأتا بعض الرجال المسلحين يهرولون في الشوارع.

انفجار آخر، وأصوات صرخات.

تمسك الأطفال بأهمهم، فالجدران بدأت تهتز، والخادمت بدأن في الصراخ من شدة الخوف والرعب. عندما توقفت الضوضاء وهدأت الأمور، سُمع صوت طرق، كان في هذه المرة أكثر غموضًا وأكثر سرعة وقوة؛ صوت إطلاق نيران بندق وطلقات رصاص.

هذه ليست احتفالات. تذكرت "جيوليا" فجأة الملاحظات في "فيا توليدو" التي مزقتها القوات النابولية الخرقاء؛ ملحوظات تحرض على التمرد والعصيان.

تذكرت "جيوليا" مشاهدتها لأخيها "جيوفاني"، الذي قام قبل أيام قليلة بإخبارها أن أهمها طريحة الفراش بسبب الحمى، وسألته عن تلك المنشورات التي ظهرت قبل وقت قصير، وأغرقت البلاد في الليل. هل يستحق الأمر أن يفلقوا؟

- إنها النار المشتعلة تحت الرماد. هل تذكرين تمرد عام 1837 في عام الكوليرا؟ لقد أخذت الأمور منحى متصاعداً منذ ذلك الحين. في البداية نُفي قادة التمرد وحكم عليهم بالإعدام، ثم أعطى الملك "فرديناند" تعليماته بأن يصبح كل قادة ومديري المدينة من النابوليين، وهذا الأمر لم يهدئ الشارع، بل أشعل الحقد في قلوب الصقليين الذين شعروا بالضعف. أنتِ بالطبع لا تشعرين بهذا الأمر لأنكِ تعيشين حياة منزلية مسالمة مستقرة.

وقد فتح ذراعيه ليؤكد على مدى رفاهية البيت في "فيادي ماتيري سي".

- ولكن في الخارج؛ خارج "كازا فلوريو"، هناك نسوة يعانين من ابتزاز وسوء معاملة وتحرش الضباط النابوليين بهن، وإذا اعترض أزواجهن، ينتهي بهم الأمر داخل سجن "فيساريا"، ناهيك عن فرض الضرائب المزدوجة على البذور، فإن "البوربون" لا يعينهم كثيراً أمر الشعوب التي يحكمونها، فمن الطبيعي أن يلجأ الناس لتغيير هذه الأوضاع الشاذة، حتى ولو اضطروا - وهم المسالمون بطبعهم - إلى اللجوء لاستخدام العنف إرضاءً لحقهم في الحياة. ما سمعته أن الأوضاع في "ميلان" في الشمال ليست أفضل حالاً مما هي عليه في صقلية في الجنوب، فالكل يعاني، لأن النمساويين يبقون المدينة على المحك والميلانيون يكرهونهم بشدة.

- ولكن صقلية ليست "ميلان"، ف"باليرمو" لا تضم هذه الدائرة من المفكرين والمستثمرين كما في "ميلان"؛ ما أعنيه هو...

أشاحت "جيوليا" بيديها بسرعة، وكأنها تصرف عنها فكرة ما سيئة قد جالت بخاطرها وترفضها، لأنها مخيفة ومقلقة بالنسبة لها، وخطرة على أسرتها.

- لأن طبقة النبلاء لم تنتشك يوماً واحداً في ميزاتهما، أو لم تفكر مجرد تفكير في التنازل عن جزء من أراضيهم لهؤلاء الحثالة، فالجميع هنا يفعل كل ما في وسعه لكي يحمي نفسه، وسيبقى الفقراء على حالهم، إذ لا يوجد من يفتح عيون الفقراء من العاملين في المصانع والفلاحين على حقيقة الأمور. هذا ما تعتقدينه أنتِ.

مال "جيو فاني" قليلاً نحو الأمام، وأبقى عينيه على الباب، فهو يعلم جيداً أن "فينسينزيو" لا يحب هذا النوع من الحوار، ولا يرى أي جدوى أو هدف من ورائه.

- ولكن هناك من يريد أن يغير الأوضاع في "باليرمو" أيضاً، فهناك مفكرون ومستثمرون من أبناء طبقة النبلاء، فضلاً عن أبناء الطبقة الوسطى، الذين يأملون في أن يقودوا أبناء هذا الوطن نحو الحرية، وأن يقرروا مصائرهم بأيديهم، ولكنهم قلة، القليل جداً منهم. أجابت "جيوليا":

- ولكن...

كانت عيناها مفتوحتين بقوة بدافع الدهشة أكثر منه بدافع الخوف.

تتهد "جيو فاني":

- تقي بي، أنا لا أدري بالضبط ما الذي سيحدث، ولكن هناك الكثير من الشائعات القوية تدور بين الناس. إن المنشورات المنتشرة في جميع أرجاء المدينة تحفز الناس على حمل السلاح، وأرى أن هذه هي الإشارة الأخيرة. بالطبع، قام الحرس الملكي بتمزيق هذه الإعلانات والدوس عليها بقسوة في الطين، والسخرية منها، ولسان حالهم يقول: "إذا ما قام الشعب في "باليرمو" بأي تمرد أو عصيان ضد النظام القائم، فإننا سنرد عليهم التحية بإطلاق الرصاص الحي عليهم من بنادقهم، وإن لم يكن هناك ما يكفي من المشانق، فإننا سنشققهم بإلقائهم من على الفرقاطات البحرية". لكن الأمر يختلف

هذه المرة، فأنتِ تستطيعين أن تشمي رائحة العاصفة القادمة في الهواء، فالناس أصبحوا ينظرون لرجال الشرطة والجنود بتحدٍ، ويصقون على الأرض عندما يمرون بها، فـ"باليرمو" عانت من دفع الضرائب ومن الظلم والطغيان، و"البوربون" قد ذهبوا بعيداً وتعذوا كل الحدود الحمراء في ظلم الناس وإذلالهم واحتقارهم.

غطت "جيوليا" فمها بيدها، لأنها أدركت الآن أن "جيوفاني" كان على حق وأن وقت التمرد قد حان. اليوم هو 12 من يناير 1848؛ عيد الميلاد الرسمي للملك... - فلتغلقوا كل النوافذ.

صاحت "جيوليا" في وجه كل الخادمت، ثم نظرت لأبنائها وازدادت مخاوفها.

- فلترتوا ملابسكم، كي نستعد للرحيل من هنا بسرعة.

أمرتهم بصوت يملأه الخوف والارتعاش.

كان "فينسينزيو" منذ الصباح الباكر موجوداً في المكتب المطل على ساحة "بيانو سان جياكومو"، وهو المبنى الجديد الذي استحوذ عليه والذي أسس فيه المقر المالي لشركته. رفع عينيه بعيداً عن الأوراق الموجودة أمامه على المكتب عند سماعه لصوت المدافع وإطلاق النار. كان "جيوفاني" كاروسو "سكرتيره الخاص واقفاً أمامه فتساءل:

- ما كان هذا؟ ما هذا الصوت؟

تبع صوت إطلاق الرصاص، صوت آخر قوي.

فتح "كاروسو" ذراعيه:

- لا أدري يا سيدي، ربما يتعلق الأمر بالاحتفال بعيد ميلاد الملك، أليس اليوم؟

- بلى، لكن... هناك صوت دوي انفجار، متبوعاً هذه المرة بوابل من الرصاص. ماذا؟ من البنادق؟

ذهب "فينسينزيو" ناحية النافذة لكي يرى بنفسه ما الذي يحدث، كان هناك عدد من الجنود يسيرون متوجهين ناحية "بورتا كاربوني"، ومنها إلى الميناء، البعض منهم مدجج بالسلاح. قال "كاروسو":

- لقد كانت اللافتات والمنشورات تملأ شوارع وجدران المدينة منذ عدة أيام، وتدعو الناس للمشاركة في تظاهرات شعبية ضد حكم "البوربون"، وكانت المنشورات تتحدث عن تمرد وتطالب الناس بالمشاركة... ولكنني لا أصدق أيّاً من هذه الأشياء، ربما هؤلاء هم الجماعة نفسها من المجانين الذين يحاولون...

صوت انفجار قذيفة مدفع؛ مجموعة من المدفعية هذه المرة.

- أتقول جماعة من المجانين، أليس كذلك؟

ضرب "فينسينزيو" بكفي يديه على المكتب.

كان صوت الصرخات في الشوارع يطغى على صوت الطلقات.

- إنه صوت المدفعية الموجودة عند منطقة "كاستيلو دي ماري"، إنهم يفتحون النيران على المدينة من البحر.

ذهب "كاروسو" ناحية النافذة... بالفعل، بالأصوات كلها قادمة من ناحية "لاكالا":

- يا إلهي! إن الأمر حقيقي، وليس هناك وقت لنضيعه. إن كان هناك بالفعل غضب شعبي وتمرد، فستنتشر عمليات السلب والنهب. من الأفضل الآن التأكد أن كل شيء مؤمن.

- تأكد من غلق كل شيء، واذهب على الفور للبيت أنت وكل الموظفين، أما أنا فساذهب للـ"أروماتوريا" كي أطمئن على الأحوال هناك، وسوف أرسل لك رسالة من هناك أخبرك فيها بما يجب عليك فعله.

- ولكنك لن تذهب إلى هناك وحدك، أليس كذلك يا سيد "فلوريو"؟ فلتنتظر؛ سأتي معك.
كان "فينسينزيو" قد خرج بالفعل وجرى نحو "الأروماتوريا" واقتحمها. كان الموظفون والعمال مختبئين جميعاً تحت الطاولات، كالحلزون في صدفته. استعار "فينسينزيو" معطفاً من معاطف الموظفين كي لا يكون مميزاً أو ملفتاً للأنظار، ثم خرج، واختفى بين جموع الناس في الشوارع، كي يصل لمصنع السبائك المعدنية "أوريتيا"، وأمر العمال قبل أن يذهب بإغلاق الأبواب بإحكام وإخفاء المواد المهمة والأدوات، حتى لا يستهدفها لا المتمردون ولا الجنود، لأنها ستصبح كارثة لو حدث ذلك، ولكن بمجرد وصوله لضاحية "فيا بامينا"، لم يكن هو وحده الذي عليه أن يتوقف.
كان هناك حاجز أمني، وعليه رجال يطلقون الرصاص على كتائب "البوربون"، وبجوارهم منشور يمكن قراءة ما به على الرغم من أنه ممزق، يقول المنشور:
"أيها الصقليون، لقد ضاع وقت الصلاة هدراً دون جدوى..."

إلى جيش وأبناء صقلية:

يجب أن نتكاتف جميعاً، ونقف صفاً واحداً يداً بيد وكتفاً بكتف، وأن نوحّد قوانا على قلب رجل واحد، كي يشهد بزوغ فجر 12 من يناير 1848 الحقبة الذهبية الجليّة لميلادنا العالمي".
صاح أحد المتمردين ولوح ببندقيته في الهواء:

- لو كان لديك سلاح، فلتتضم إلينا لتدافع عن أرضك. أو عد إلى بيتك واحتم به و...
تحول نداؤه إلى صرخة ألم: لأنه تم إطلاق النار عليه في ذراعه.

أجبر "فينسينزيو" على الالتفات للخلف، ورأسه منخفض للأسفل، وقلبه يرتجف من شدة الخوف والرعب، لأن المسبك "أوريتيا" - مصنعه - هو تحديه القائم، والذي بدأ كورشة لتصنيع المعادن، ولكنه الآن في طريقه لأن يصبح مصنعاً عظيماً لصناعة الحديد. ليس بعيداً عن أسوار المدينة بالقرب من "سانتيا بورتا سان جيورجيو"، والآن، ومع استمرار المعارك التي نشبت ربما في مالطا منذ أربع سنوات، قام ببناء المصنع الجديد المكتظ بالحديد والفحم، والمملوء بالمواد القابلة للاشتعال. لم يستطع حتى أن يتخيل...

- إنهم يقصفون القصر الملكي ويحاولون اجتياحه.

لقد نجح المتمردون بالفعل في إحراق الحواجز، وتم قتل بعض الجنود!
تعالّت أصوات المواطنين الصقليين في كل مكان حوله، تصفعه على وجهه. يقول الناس إن كل شيء بدأ في ضاحية "بياترا ديلا فيرافيشيا"، وهناك وقع أول الضحايا.
- وسيتوجه المتمردون الآن لحرق منازل الأرستقراطيين! لأنهم سئموا الحكم الملكي وظلمه، ويريدون إعلان الجمهورية.

- إلى السلاح، "باليرمو"!

تبع الجموع الغاضبة، وأنصت للأصوات، وحاول أن يلتقط منهم أكبر قدر من الأخبار التي سيحاول فيما بعد أن يحللها.

ذهب إلى "فيا بانتييليريا" ومنها إلى "فيا ديلا تافولا توندا"، وبمجرد وصوله إلى هناك، أصابه أول حجر تم إلقاءه من نوافذ أحد المنازل.

وجد أمه العجوز جالسة على كرسي له مسند في منتصف الغرفة، ممسكة بسبحتها الوردية، وتساءلت عندما رأتها:

- هل أنت بخير يا ولدي؟

- نعم، نعم، أنا بخير. أين الأولاد؟

- معها، عليك أن تعنتي بهم، وعلى وجه الخصوص "إجنازيو".

عندما وصل "فينسينزيو"، كانت "جيوليا" قد انتهت من إلباسهم ملابس ثقيلة، وارتدت هي الأخرى المعطف الخاص بالسفر، وما إن رأت "فينسينزيو" أمامها، حتى ذهب عنها الخوف وحلت محله الراحة والسكينة.

- يا إلهي! ماذا حدث؟ لقد كنت قلقة عليك.

احتضنه "إجنازيو" بقوة، فقد كان أول من حضر سريعاً إليه، ثم تلتها الفتاتان اللتان تعلقتا به من شدة الخوف.

- إن المدينة كلها تتسلح ضد الملك و"البوربون"، وهناك شائعات تقول إن الحامية قد سلمت سلاحها للمتمردين، والبعض الآخر يقول إن الجنرال "دي ماجو" وقواته قد حصنوا أنفسهم داخل القصر الملكي، والبعض الآخر يقول إن الملك على وشك الاستسلام؛ إنها فوضى عارمة... من الطبيعي أن يحدث هذا، فالجنود لم يتوقعوا حدوث هجوم منظم ضدهم بهذا الشكل، إنه عصيان موحد. إن المتمردين والثوار هذه المرة ليسوا مجموعة من الشباب الصغير المتهور، فمعظم المتمردين من هنا، لكنني سمعت لهجات أخرى من أقاليم مختلفة أنت لتشارك في الثورة ضد "البوربون"، والجميع تقريباً يحمل السلاح.

نظر "فينسينزيو" لكف يده، فلم يفكر يوماً في أن يحمل السلاح أو أن يتعلم كيفية استخدامه، لأنه يعلم أنه يمتلك أهم الأسلحة؛ ألا وهو سلاح المال، وهذا السلاح هو ما سيضطر لاستخدامه عند الضرورة. هناك بالفعل قتلى وجرحى في بعض الضواحي، وجنود الملك يتراجعون وينسحبون نحو ثكناتهم في "بلازو ديلا فينانزا" و"نوفيزياتو"، والقتال قائم في الشوارع، وقد سيطر الصقليون على بعض من بوابات المدينة بشكل كامل.

- هذا ما كنت أخشاه؛ لقد توقعت أن شيئاً مثل هذا قد يحدث عندما سمعت صوت إطلاق النار.

رفعت "جيوليا" يدها ووضعتها على فمها، وهممت ببعض العبارات:

- ما الذي سنفعله؟

- نحن على وشك ترك المدينة. خذي معك المال والمشغولات الفضية والذهبية والأشياء القيمة، ودعونا نطلق نحو بيتنا في ضاحية "فيلا دي كواترو بيزي"، إنها خارج أسوار المدينة، وأسهل في الدفاع عنها.

أعطت "جيوليا" التعليمات، وفتحت الخزانات المختلفة وأغلقت الصناديق. كن الخادمت يتحركن في كل مكان في المنزل، أما الفتاتان فكانتا مطيعتين دون اعتراض وخاصة "أنجلينا"، التي جمعت الشالات الغالية المصنوعة من الدانتيل وخبأتها في عمق الحقيبة.

كان "إجنازيو" يتبعها في كل مكان:

- هل يمكنني أن أحضر حصاني الخشبي والكتب؟

كان يلح في طلبه دون توقف، في اللحظة التي كانت فيها مدبرة المنزل تغلق النوافذ بإحكام وبالعوارض الخشبية، وكان الشخص الوحيد الذي بقي ساكناً في كرسيه ذي المسند يتمتم هو

“جيوسبينا” الجدة:

- هؤلاء الناس لا يخشون الله!

قام “فينسينزيو” سريعًا بكتابة العديد من الرسائل، وأخبر الخادم أن يحملهم لشركائه، وعلى وجه الخصوص “كارلو جياتشيرى”. أخذ المستندات وكيس النقود من مكتبه، فهو يعلم أنه سيكون بحاجة للمال كي يمر من الحواجز والتكثات والمتاريس.

صاحت إحدى الخادمت:

- العربات جاهزة للتحرك.

هرع الجميع على السلام؛ مع الحقائب والصناديق تتأرجح وتترنح. تأكدت “جيوليا” من أن كل شيء على ما يرام، ولم يسقط شيء على الأرض أو في أي مكان هنا أو هناك، ثم أخذت المجوهرات الثمينة التي أهداها إياها “فينسينزيو”، وخبأتها في جيب تنورتها الداخلية. كان زوجها ينتظرها على الباب الأمامي للمنزل؛ ركب العربية الأولى مع أمه ومدبرة المنزل، وركبت “جيوليا” في العربية الثانية مع الأطفال والحقائب.

السير للأمام عذاب؛ فالشوارع مكتظة بالعربات؛ عربات كارو، ووسائل نقل أخرى، تجبرهم على الإبطاء أو التوقف تمامًا بوتيرة مستمرة. الجثث منتشرة على الطريق. بدأت “جيوليا” تشعر بغصة في معدتها في كل مرة يتوقفون فيها، وكل ما كان يوسعها أن تفعله هو أن تحتضن بناتها الصغار المتعلقة بها.

كان “إجنازيو” على الجانب الآخر، ينظر من وراء ستارة النافذة بتعبيرات شخص ناضج، وبدافع الفضول أكثر منه بدافع الخوف، على الرغم من أنه يبلغ من العمر تسع سنوات فقط، إلا إن هناك رغبة ملحة تدفعه لفهم ما الذي يحدث له بالضبط، ولعائلته ولمدينته. أغلق الستائر ونظر لأمه؛ كانت أمه بطبيعة الحال مرعوبة، ولكنها لم تكن تنغمم بالصلوات أو منخرطة في البكاء، بل على النقيض من ذلك، كانت تعنف الفتيات عندما يبداً في النحيب. عندما ركب والده العربية مع جدته، كان وجهه هادئًا ولا يحمل تعبيرات خاصة.

إن كان والده قويين بشكل كافٍ، يجعلهما قادرين على إخفاء خوفهما لأنهما ناضجان، فنفسه تخبره أنه هو الآخر عليه أن يتحلى بالقوة والصبر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بقي “فينسينزيو” صامتًا، كان يجلس إلى جوار أمه التي كانت مستغرقة في نحيبها المكتوم. توقفت العربية فجأة؛ يبدو أنه تم الهجوم عليها من قبل جوقة من الأصوات المتحمسة، حاول “فينسينزيو” أن يسمع ما يقولونه:

- ما من أحد سيمر من هنا، هل هذا واضح؟

- منذ متى؟ فلتعرب عن وجهي وكل من هم وراؤك.

ظل سائق العربية يجادل مع المتمردين حتى يسمحوا للعربتين بالمرور. بعد ذلك مباشرة سُمع صوت شجار، ففتح “فينسينزيو” باب العربية، ووقف وجهًا لوجه مع فوهة البندقية المشهورة في وجهه.

- السيد “فلوريو”! تحياتي.

قال الشاب المسلح ذو اللحية الخفيفة.

يمكن للشخص أن يجزم من خلال ملابسه أنه ينتمي لأسرة كريمة وليس شخصًا بائسًا، أو يبدو هكذا.

بقي “فينسينزيو” ثابتًا في مكانه؛ كان خائفًا، وأجابته أخيرًا:

- فليكن الرب معك أنت أيضًا. لماذا تمنعوننا من المرور؟
- لأننا لا نستطيع، فالبلد بحاجة للأرستقراطيين والأثرياء.
- خرج "فينسينزيو" ببطء من العربة، وبسرعة كبيرة وجد نفسه محاطًا بمجموعة من الرجال من مختلف الأعمار، والذين أغلقوا الطريق المؤدي إلى "مونتا بيليجرينو". رأى "فينسينزيو" أكوامًا من الحقائب المترامية فوق بعضها؛ كأنها كانت لشخص ما تخلى عن كل ممتلكاته في مقابل الهروب.
- لماذا لا يُسمح لنا بالمرور؟ من الذي أصدر هذه الأوامر؟
- لن يدخل أو يخرج أحد من "باليرمو"، حتى تسقط المدينة بالكامل في يدينا.
- فهمت، ومن أنت، من فضلك؟
- أحد الصقليين الشرفاء والأحرار المحاربين من أجل استقلال أراضينا.
- بدأت تملأ الأصوات الخائفة من داخل العربة. برزت يد من قمرة المسافرين وأصوات حادة معترضة، ثم خرجت "جيوليا" بهدوء ورباطة جأش، وأنت كي تقف إلى جوار "فينسينزيو".
- أماه لا.
- تحدثت بقوة وبعنف، وبلغة جسد تعبر عن خصومة أجبرت المتمردين بشكل فطري أن يخفض سلاحه:
- ما الذي تريده بالضبط؟
- قال "فينسينزيو" أمرًا إياها:
- فلتعودي إلى العربة.
- لم تلتفت له ولم تعره اهتمامًا:
- هناك قتال يدور الآن في الشوارع، ونحن نريد أن نأخذ أبناءنا إلى مكان آمن، من فضلك دعنا نمر بسلام.
- ماذا عن أبناء الفقراء والمهمشين؟ من حقهم هم أيضًا أن يحموا أبناءهم، نحن جميعًا أبناء وبنات هذه المدينة، وعلينا أن نتكاتف ونتعاون مع بعضنا بعضًا. تعالي يا سيدتي، وعودي من فضلك إلى عربتك وبينك.
- كانت "جيوليا" الغاضبة والساخطة على وشك أن ترد عليه الرد المناسب، عندما وضع "فينسينزيو" يده على ذراعها.
- أنا لا أرى أن تبرعًا بسيطًا لصالح حركة المتمردين قد يحدث أي فارق.
- ضحك الشاب بغضب وازدراء واحتقار:
- أفهمكم جيدًا أيها الأثرياء، فأنتم تعتقدون أنكم تستطيعون الذهاب إلى أي مكان وتأمرون أي شخص لأنكم تملكون المال.
- اقتربت فوهة البندقية من صدر "فينسينزيو":
- عد إلى مكانك، هيا.
- في تلك اللحظة، سمع صوت حوافر الخيل وهي تتشخض على حصى الطريق، معلنة حضور المزيد من المتمردين المسلحين؛ كانت وجوههم مرهقة غبراء، وقد توقفوا ونزل أحدهم من على صهوة جواده واقترب.
- "ميشيل"! ما الذي يجري هنا؟ أهكذا تعامل الناس؛ مثل اللصوص أو قطاع الطرق؟
- أشار الشاب الصغير إلى "فينسينزيو"، ووضع مسدسه في حزام بنطاله:
- سيد "لماسا"، لقد أراد أن يهرب خارج المدينة هو وعائلته.

- وأنت تهدد مالك "كازا فلوريو"؟
للرجل شوارب عريضة، وعيون ضيقة تحت جبهته، وشعر خفيف.
قدم يده كي يصافح "فينسينزيو":
- السيد "فلوريو"، السيدة...! أنا "جيوسيب لاماسا" أحد الثوار الوطنيين، إنه لمن دواعي سروري أن
أتشرف بمعرفتكم.
تردد "فينسينزيو" في البداية في مصافحته. لقد سمع عن "لاماسا"، وشاهد صورته الشخصية في
العديد من الجرائد والصحف التي تصفه بمهيج الحشود وبالمتنرد؛ إنه أحد المشاهير وأحد أشهر
المطلوبين، باعتباره أحد أعداء حكومة "البوربون".
ردت "جيوليا" على تحيته ومصافحته قبل "فينسينزيو"، وقالت بعد أن هزت رأسها:
- السيد "لاماسا"، لقد سمعت عنك الكثير، ولحسن الحظ أن سنحت لي الفرصة أن أقرأ كتابك منذ
وقت طويل. في الواقع، إنه بيان رسمي أكثر منه كتاب، ولكنه كان مفيداً جداً.
التقت "فينسينزيو" لكي ينظر إليها؛ كان غاضباً أكثر منه مندهشاً.
- هل قرأت الكتاب حقاً؟ لا بد أنه ذلك الأبله "جيوفاني بورتالوبي" الذي فعل ذلك.
ردت "جيوليا" بنظرة حادة عليه، فيمكنهما أن يتناقشا بشأن هذا الأمر فيما بعد. تبع "فينسينزيو"
نموذج زوجته، وقدم يده كي يصافح السيد "لاماسا" ويرد عليه التحية.
- لو كنت وطنياً بالفعل كما تقول، هل يمكنك أن تفسر لي لماذا استوقفونا ومنعونا من الانتقال لبيتنا
في "الأرينيلا"؟
وضح "ميشيل" باحتقار:
- لقد قدم لنا المال على هيئة رشوة كي نسمح له بالمرور؛ حاول أن يرشينا! ما الفائدة التي ستعود
علينا من شخص يريد الفرار؟
انحرفت عينا "لاماسا" واقتربت إحداها من الأخرى، وتحولتا لتقبين صغيرين. لم يكن السخط
والضيق هما ما أثرا عليه ودمرا اهتماماته:
- حقاً؟
نظر الرجل تجاه "باليرمو"، فيما وراء الطريق، حيث ظهر خط الساحل بما عليه من مدافع وسحب
الدخان.
- نعم؛ إنهم يدمرون جدران المدينة، لم يعد لها فائدة.
ثم التقت ناحية "فينسينزيو" مرة أخرى.
- لأن المدينة صارت بصفنا، فالناس ملوا من كونهم مستغلين ومهانين من قبل هؤلاء النابوليين الذين
أتوا كي يتحكموا بنا هنا، ويستولوا على ثرواتنا، ويحكمونا بالحديد والنار، وإن لم تكن مهتماً إلى أي
مدى يقهروننا أو ينتقصون من حريتنا، فأنا أثق أنك - كونك تاجرًا - تدري إلى أي حد يفرضون علينا
الضرائب الباهظة.
التقت الرجل إلى "جيوليا" ونظر إليها عن عمد:
- سيدتي، هل تعلمين عدد السيدات الفضليات، والفتيات الصغيرات اللاتي فقدن شرفهن على يد جنود
"فرديناند"؟ الكثيرات، والبعض منهن ليسوا أكبر في العمر بكثير من بنتيك هاتين، فقد أجبرن على
الخشوع للرغبات الدنيئة والنزوات الحقيرة، لهؤلاء الجنود المتوحشين بمنتهى القسوة والوحشية

واللاإنسانية. إنهم يرسلون لنا أقدّر الجنود وأحطهم أخلاقاً، أما الملك فيعاملنا كما لو كنا عبيدًا له في المستعمرات وليس كشعبه.

كان الرجل يتحدث بحرارة وعاطفة جياشة، وحماس ممزوج بالمرارة، وشجاعة منقطعة النظير، وأشار للمدينة مرة أخرى:

- نحن الصقليون نستحق حياة أفضل من هذه بكثير، وليست "باليرمو" وحدها التي تعاني وتثور على الطاغية وتتمرد، بل الإقليم بأسره والجزيرة برمتها، فالكل في الظلم سواء، ويد الظالم المغتصب طالت الجميع.

شعر "فينسينزيو" بالقلق الشديد مما قرأه في عينيه وملامح وجهه الغاضبة، ونظر، فلم يجد أحدًا قد أنزل فوهة مسدسه، والرجال المعتلون صهوات الجياد أصبحوا يحيطون الآن بأبنائه من كل جانب. ضغط عليه "لاماسا" بشدة واقترب منه، وتحدث تقريبًا في وجهه:

- وأنت يا سيد "فلوريو" المتعلم المستنير، أحد رجال الأعمال القلائل على الجزيرة، سوف تتعاون معنا لتحقيق هذا الغرض، وستعاوننا على بناء عالمنا الجديد الحر، بأموالك ونفوذك وعلاقاتك وذكائك. يمكننا إذا تعاوننا معًا أن نصنع صقلية جديدة. ما رأيك يا سيدي؟ هل سنتعاون معنا؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يعطيك غروب الشمس في شهر مايو الشعور بالصيف، ولكنها لا تتوانى عن الظهور بوضوح وكأننا في الصيف. الشمس تبدو كالهارب الذي يفر من الجبال لكي يغوص في البحر، ليغرق العالم بأسره في التو في ليل مظلم.

مع مرور الوقت، اغتسلت "باليرمو" في حوض من الضوء الخفيف، الذي أظهر بجلاء حجم الدمار الذي تسبب فيه المتمردون؛ جدران المدينة المطلة على البحر قُصفت بالمدفعية ودُمرت، والحارات سُدت ببقايا المتاريس كي تحول دون تقدم جنود "البوربون"، دُمرت وخربت التكنات، كتلك الموجودة في منطقة "توفيزياتو"، وغطيت بكميات كبيرة من القماش الثقيل، كي تحجب مشهد البحر وتبادل الإشارات بين القصر الملكي وسفن "البوربون" في البحر. كما وقع المزيد من الأحداث في الشهور الأولى من عام 1848.

جلس "فينسينزيو" وحيدًا داخل مكتبه هو والموقد النحاسي المضاء والنافذة نصف المفتوحة، حينها فقط استطاع أن يلتقط أنفاسه بعد هذا اليوم العصيب.

فجأة، سمع صوت فتح الباب...

فتح الباب؛ ظهرت "جيوليا" أمامه في ملابس النوم والشبشب في قدميها:

- "فينسينزيو"، لقد أوشكنا على منتصف الليل.

دخلت وأغلقت الباب خلفها:

- أنت لم تأكل، وبالكَاد نمت، ما الأمر؟

هز رأسه؛ ها هو على أعتاب الخمسين من عمره، وقد بدأ يشعر بحجم المسؤولية وثقل أحمالها، وانبعجت قدماه تحت وطأتها:

- فلتذهبي إلى السرير يا "جيوليا"، ولا تقلقي، إنه ليس شأنًا من شؤون النساء.

ولكنها لم تتحرك من مكانها، وحدقت فيه، وهي تلوي فمها بتكشيرة اللوم:

- أعتقد أن ذلك بسبب قولي لك إنني قرأت كتاب "لاماسا". كوني امرأة لا يعني أن أكون غيبية، ولكن هذا الكتاب ساعدني كي أفهم الكثير من الأشياء، مثل "روزولينو بيلو" و"روجيرو ستيمو" اللذين

يحاولان أن يجعلوا صقلية دولة مستقلة. بالطبع، سواء نجحوا أم لم ينجحوا... لا يهم، هذا أمر مختلف... قد لا تتفق مع آرائهم يا "فينسينزيو"، ولكن لا يمكنك أن تتكر أنهم يمتلكون الرغبة والحماس، اللتين يريدون أن يحققوها على أرض الواقع. تحدث إلي، فأنا لست أمك أو إحدى بناتك، ما الذي يدور في رأسك؟ إن الأمر يتعلق بالحكومة الجديدة، أليس كذلك؟

بدأ "فينسينزيو" يتمشى داخل الحجرة جيئةً وذهاباً:

- نعم، لقد فعلت شيئاً اليوم، وهو أمر ربما سأندم عليه بقية عمري؛ لقد اشترت بالنيابة عن اللجنة الثورية شحنة كبيرة من البنادق مقابل أن يتوجه ويقعدوه على العرش. ولا حتى ابن "كارلو ألبرتو" دوق "جنوة" ولا أي شخص آخر سيتمكن من هذا لأن إنجلترا تقف ضد انفصال صقلية عن "البوربون". في شهر مارس الماضي، كانت هناك مسرحية متفق عليها حول الانتخابات البرلمانية، وانتقوا أربعة نبلاء ومجموعة من الأثرياء، وطالبوا بإعادة العمل بدستور ١٨١٢ مرة أخرى، إلا أننا ليس لدينا مرجعية، أترين؟ لا يوجد ملك يقبل بأن يجلس على عرش صقلية ويمثل دور الملك، لأنه لا أحد يرغب في أن تطأ قدماه أرض المملكة؛ هذا أمر جنوني!

غرق "فينسينزيو" في كرسيه ذي المسند، وكأن استحوذهم على السفن وإجبارهم على تقديم قروض للحكومة الثورية الجديدة ليس كافياً.

- إنها ثورة شعبية يا "فينسينزيو"، إنها فوضى وعلينا أن نتسم بالحصافة والحكمة.

توجهت "جيوليا" نحوه وداعبت وجهه، فقام "فينسينزيو" على الفور بالإمساك بيدها وتقبيل كفها، فنادراً ما يتورط في إظهار أية حركات عاطفية.

- على الجميع أن يقدم التوضيحات.

- أعرف ذلك وأقدره تمامًا، لكن مجرد التفكير في أنهم يشنون حرباً بنقودي يؤرقني؛ تلك النقود التي كلفتني عمراً كي أجمعها، هذه...

وأشار إلى المستندات الملقاة على المكتب.

- انخفضت معدلات التبادل التجاري إلى النصف منذ اندلاع التظاهرات والاحتجاجات، ماذا عن القروض التي تم أخذها من البنك، مصنع سبك المعادن، السفن؟ شركة السفن البخارية "الباليرمو" كانت تعمل بكامل طاقتها، إلى أن استولى عليها "روجيو سيتيمو" والحكم الثوري لنقل القوات، لقد كنت على حق عندما تحدثت عن الحماسة. "ستيمو" على سبيل المثال، كرئيس للحكومة الصقلية الجديدة، مؤمن بشكل قوي بما يفعله ويتبع قواعد العقل والمنطق، هو يعلم جيداً أن صقلية ليست مستعدة لحكم جمهوري حقيقي، لأن النبلاء أصحاب المال والثروة والنفوذ الحقيقي في البلاد لن يقبلوا بهذا الأمر، فهو يحاول أن يجنح للحلول الوسط وأن يجد حلولاً للمشكلات والأزمات. على الجانب الآخر، هذا الواعظ المسمى "باسكال كالفي" الذي هو أكثر عنداً من الجمهوريين أنفسهم... لقد سئمت، ولم أعد قادراً على إحصاء الضرر الذي تسببوا فيه لي، بسبب ادعاءاتهم أننا نحن أبناء الطبقة المتوسطة علينا أن ندعم الثورة، والآن...

- هل دفعوا لك على الأقل نظير تلك الخدمات؟

أدار عينيه في كل جوانب المكتب وقال:

- نعم بالطبع، دفعوا لي من مقتنيات الكنيسة الفضية التي استولوا عليها.

عند سماع "جيوليا" هذا الكلام، ضحكت رغماً عنها:

- هل تعني الكؤوس الفضية، والوعاء الذي يوضع فيه القربان المقدس والمباخر؟

- هذا صحيح، هذا أمر غير مضحك، ما لم أقم بإذابتهم، وهو الأمر الذي ما عاد باستطاعتي القيام به، ولا سبيل لديّ لتحويلهم لعملات.

- لو علمت أمك أنك ترغب في إذابة هذه المقتنيات الثمينة الخاصة بالكنيسة، لقامت بطردك. لم يبتسم "فينسينزيو" على ما قالت "جيوليا"، لكن بدلاً من ذلك قام بلف أحد الأربطة الموجودة في رداء النوم الخاص بـ"جيوليا" حول إصبعه وقال:

- حتى وإن كانت الحكومة الثورية في "باليرمو" تبدو صلبة و متماسكة، فهناك الكثير من الناس الذين يقفون في صف الملك والنابوليين. نحن على حافة الهاوية يا "جيوليا"، ولن يطول الأمر حتى نسقط جميعاً فيها.

- لكن الناس سعداء بإزاحة الملك وانهيار سلطته هو ورجاله، والحكومة الجديدة تفعل كل ما في وسعها...

نفخ الهواء في وجهها كعلامة على الضيق:

- الناس لا تكثر لمن يحكم إن لم يكن هناك طعام على الموائد. هل تريد حقاً أن تعرفي الحقيقة؟ إن ما حدث في واقع الأمر يصب في مصلحة النبلاء وحسب، فهم سعداء بسقوط حكم النابوليين وبرحيلهم إلى الأبد وبأنهم لن تطأ أقدامهم جزيرة صقلية مرة أخرى. بهذه الطريقة، سنبقى مصالحهم كما هي بلا مساس، وسيتمكنون من وضع يدهم وبسط سلطانهم ونفوذهم على أكثر المناطق رقياً وبهاء في المملكة، فهناك العديد من العائلات الثرية في الحكومة، كما تعلمين، إضافة إلى المثقفين، والذين سافروا للخارج بالطبع، وأصحاب الفضائل والمبادئ العليا. لكن الفقراء، لا يمكنهم أن يأكلوا أو يطعموا أبناءهم المبادئ والقيم على الإفطار؛ هذا هو ما يجب أن تفكر به الحكومة وتتحرك من أجله بسرعة وإلا... وبما أن الحكومة لا تمتلك المال، فستقع الطامة الكبرى على رأسي أنا و"شيارامونت بوردونير"، وأمثالنا هم من سيعلقون ككبش فداء على أعناق المشانق وأسنة الرماح. أغلقت "جيوليا" الملف الموجود على المكتب، وقالت:

- وأنت لن تحل كل تلك المشاكل وأنت جالس هنا تفكر دون أن تتناول طعام العشاء. يمكن لكؤوس الكنيسة أن تنتظر، والقروض سنبقى كما هي إلى الغد؛ لن يتغير شيء بجلستك هنا، دعنا ننتظر ونرى.

ومالت عليه وقبلته على جبهته وهمست في أذنه:

- هيا، تعال معي إلى الفراش.

نظر مرة أخيرة لأوراقه، ثم وجه كل انتباهه لثدي زوجته الأبيض البادي من تحت رداها القطني. لقد مر على لقائهما العديد من السنوات، ولكنه ما زال يرغب فيها بشدة.

فك "فينسينزيو" الشريط الموجود في رداها وقال:

- أنا قادم.

اخذت أصواتهما الخافتة في خضم الصمت الذي خيم على الفيلا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يقف برج "كوانتر بيزي" أمامه منغمساً في بدء شروق الشمس. جميع نوافذ الفيلا مغلقة، والبوابة الأمامية أيضاً مغلقة، وقرية "أرنيليا" تبدو كما لو كانت ميتة، فلا أحد في الشوارع ولا في المراكب.

أغلق "إجنازيو" التليسكوب الذي أعاره إياه أحد البحارة، واستنشق الهواء، وبدأ يشعر بخوف جديد، يختلف عن ذلك الذي شعر به عندما كان مشرفاً على الموت. كان عليه أن يكبر وينضج بسرعة،

فأحداث الأعوام الماضية أجبرت عائلته على الهروب أولاً من المنزل في ضاحية "فيا دي ماتيريسي"، ثم من "فيلا كواترو بيزي". في سن العاشرة، بدأ يدرك أن القدر يمكنه أن ينتزع منك كل ما تحبه وكل ما كنت تأخذه بثقة إلى حين؛ اليقين، الراحة، والعيش الكريم.

كان عام 1848 معقداً ومفعماً بالأحداث القوية، فهمه بشكل جيد. تمت الإطاحة بـ"البوربون"، وهناك حكومة جديدة قد تشكلت بالفعل، وأبوه ومجموعة من معارفه أصبحوا أحد أعضائها. خلال تلك الفترة، كانت السمة الأساسية لوالده هي التوتر والغضب أكثر من المعتاد، ولكن في عام 1849، لم يكن أحسن حالاً. سمع "إجنازيو" أن "تورمينا" و"كاتانيا" و"سيراكوزا" و"نوتو" قد أعلنوا استسلامهم، والدور القادم على "باليرمو"، لقد وجد هذه الأخبار مربكة بعض الشيء، ولكن لا أحد يفسر تلك الأشياء للأطفال.

تمت إعادة توطين العائلة بأكملها في "الإنديبننت"؛ السفينة البخارية التي اشتراها "فينسينزيو" قبل عدة أشهر من افتتاح شركة الشحن الجديدة "إجنازيو وفينسينزيو فلوريو"، والتي أكملت مجموعة السفن التابعة لجمعية السفن البخارية؛ مغامرة جديدة يتحمل مسؤوليتها بأكملها وحده، وهو من يجني أرباحها وحده. لقد لجؤوا لهذا المكان لأنه آمن وبعيد عن الأحداث؛ هذا ما سمعه من والده وهو يكرره على مسامع والدته للمرة الأخيرة ليلة أمس، فالعزف مصفوفة إلى جوار بعضها بعضاً، والجدران رقيقة تسمح بسماع الأصوات:

- لقد سبق وأخبرتكم ألا تقلقي، لأن سفينة "الإنديبننت" تم تسجيلها على أنها سفينة فرنسية، وأنا لم أغير العلم المرفوع عليها عندما اشتريتها، وهذا شيء رائع؛ فلا المتمردون ولا النابوليون سيجرؤون على مهاجمتها خشية من إثارة غضب الفرنسيين.

في صمت الليل، سمع "إجنازيو" صوت هسهسة ثوب أمه على الأرض. لا بد أنهما قد تعانقا الآن لأن كل شيء فجأة غرق في صمت عميق، لدرجة أنه كان يسمع صوت دقات قلبه مختلطة بصوت ارتطام الأمواج بالمرالكب والسفن.

ثم همست:

- كن على حذر غداً، لا يهم ما يحدث، تأكد فقط أن تحرص على حياتك. هذا النوع من الصلوات يشعره بالحزن، لأنه فجأة يعكس ذلك الخوف الجامح الذي تخفيه أمه بنجاح خلف عيونها المطمئنة، وأن ما كان غداً بالأمس، أصبح حاضراً اليوم.

جاء أحد اليخوت ليأخذ والده نحو الشاطئ، وإذ به - وهو يرى أباه يبتعد بالتدرج - يشعر بالخوف يطبق قبضته عليه ما بين معدته وقلبه.

سار بحارة سفينة "الإنديبننت" في الأرجاء بهدوء مهذب، وقد أمعنوا النظر إليه: من هذا الطفل الجاد الذي تساوى ملابسه أجورهم السنوية؟ نظروا إليه وتعجبوا كيف أنه لا يشبه والده على الإطلاق، فهو لا يتمتع بصلابته وحدته أو تهوره ونزقه.

شعر "إجنازيو" بفضولهم وحقدهم ودهشتهم، ولكنه لم يبد أية ردة فعل تجاههم، والتفت كي ينظر لأمه الواقفة عند مقدمة السفينة؛ كانت تشبه تمثالاً مصنوعاً من الألبستر وملفوفاً في معطف، في الوقت نفسه، لاحظ وجود هالات سوداء تحت عينيها، وبعض التجاعيد التي ظهرت مؤخراً حول فمها، وجبهتها قد امتلأت بالخطوط العريضة، لم يسبق له أن لاحظ وجود هذه الأشياء؛ كيف كبرت إلى هذا الحد، وبهذه السرعة؟ متى حدث ذلك؟ وماذا تعني الحياة للبشر؟ وكيف يترك مرورها هذه العلامات على بشرة الإنسان هكذا؟

الكثير من الأسئلة يطرحها طفل صغير في سنه؛ أسئلة ليس لها سوى إجابة واحدة فقط، وللأسف الشديد لا يستطيع أن يقدمها لنفسه، لأن وجه أمه في تلك اللحظة - ومنذ وقت - هو وجه مملوء بالخوف.

بعد أن فضحت أقدار الثورة، تقدم وفد من خيرة مواطني "باليرمو" للقاء قائد قوات "البوربون" لكي يسلمه قرار الاستسلام؛ استسلام المدينة، مدينة "باليرمو".

إلا إن الناس رفضوا الاستسلام، وثاروا، ووضعوا المتاريس في كل مكان ليحولوا دون دخول الجنود إلى شوارعهم وضواحيهم، وصرخ الجميع: "لا تنازل للبوربون أبداً، من المستحيل!"، ولا حتى الجوع قد يتغلب على كرههم للنابوليين.

إلا إن الناس قد طعنوا من الخلف، وتركوا وحدهم في الميدان في مواجهة وحشية جنود الـ"بوربون" لينهشهم، فكبار رجال الحكومة قد فروا إلى "ريجيو سيتيمو" و"جيوسيب لاماسا"، والأرستقراطيون هجروا مواقعهم داخل المدينة، وقرروا الفرار إلى فيلاتهم الحصينة وساحاتهم خارج المدينة، وتكروا القدر المدينة البائس، وصارت المدينة في حالة من الفوضى وعدم الاستقرار، جائعة ينهش أهلها الجوع، مرهقة ومدمرة، والنيران تشتعل بها.

لم يعرف "إجنازيو" هذه الأشياء، لكن أمه تعلم، ولم تكن خائفة يوماً على "فينسينزيو" حبيبها وزوجها مثلما كانت خائفة عليه اليوم، فقد عاد إلى "باليرمو" ليلتقي الملك على أمل أن يمنحهم عفواً عاماً كما وعدهم "فيلانجيرى".

ذهب إليها وأمسك بيدها، وقال لها:

- لا تحزني يا أمي، فإن أبي سيعود قريباً.

قالها برباطة جأش وشجاعة طفل صغير.

وقفت "جيوليا" وهي تحدق في المركب، وقد اقتربت عيناها إحداهما من الأخرى، وهي تراقب البحر:

- أتمنى ذلك يا "إجنازيو"!

قالتها في نفس واحد وضغطت على يده، ف شعر الفتى بقوة عزيمة شبيهة بالأمل.

- هذا بالتأكيد ما سيحدث.

احتضنها "إجنازيو" بقوة، وقال:

- نعم يا أمي.

- يا أميري الصغير!

ابتسمت له "جيوليا" واحتضنته.

لقد أحببت أميرها الصغير "إجنازيو" بكل ما أوتيت من قوة، فهو لا يشبه أباه، فـ"فينسينزيو" حاد، بينما "إجنازيو" هادئ الطبع وصافي السريرة، لقد أخذ الكثير منها ومن طباعها؛ تلك العيون الهادئة، أما الكرم فمن أبيه، وورث عن أبيه كذلك العزيمة والحزم، وهذا الذكاء الحاد الذي لا يُغلب، الذي يجعله يفهم أصعب الأشياء بسهولة، ثم يرغب في الشيء ويحصل عليه دون تسرع أو غضب، فهو ليس بحاجة إليهما.

في تلك اللحظة، ظهر وجه "جيوسبينا" من تحت سطح المركب، وقد لملت شعرها على هيئة كعكة تبرز وجهها الشاحب المثلث، كانت مرتدية هي أيضاً معطفاً يقيها من الرطوبة، لكن "أنجلينا" بقيت نائمة في قمرتها في السفينة معقوفة وظهرها للحائط.

- هل ذهب أبي حقا؟
- تساءلت "جيوسبينا"، فأجابتها "جيوليا" بالإيجاب، وأشارت إليها أن تقترب، ووضعت ذراعيها حول طفليها الصغيرين.
- علينا أن نصلي للرب، ونطلب منه أن يصدر الملك عفواً شاملاً عن أبيكما وعن الآخرين.
- نظرت "جيوسبينا" للأعلى إلى أمها:
- لم يبق أبي بفعل شيء لم يفعله الآخرون.
- اعترضت على ما حدث لأبيها، سيطر عليها عبوس الكبرياء وأبرز أنفها الكبير تماماً مثل أمها، فقبلت "جيوليا" جبهتها.
- أعلم يا عزيزتي، لكن أبائك مثله مثل البارون "شيارامونت" والبارون "ريسو" والبارون "توريسي"، جميعهم أثرياء وكانوا...
- ترددت بحثاً عن الكلمات المناسبة كي تفسر ما حدث.
- ... مجبرين على تمويل الحكومة الثورية، لكن الملك، بحاجة إلى المال، لذا لن أندش إذا عاقبهم جميعاً لتعاونهم مع الثوريين بطلب تعويضات منهم، أو الأسوأ بانتزاع جزء من ملكياتهم لكي يعوضوا خسائرهم في الحرب، ويملؤون الخزنة الفارغة للمملكة بالأموال.
- بينما كانت أخته تتذمر كي تعترض وتحتج، كان "إجنازيو" يفكر؛ لطالما سمع والديه وهما يتحدثان عن الأعمال التجارية، وهو يدرك أن الحكومة هي كيان يكرهه الجميع لكن على الجميع أن يخضع لسلطتها، فهي في كل الأحوال ليست صديقة لهم. سأل:
- لا تستطيعون أن ترفضوا، أليس كذلك؟
- أبوك يفضل أن يقتل على أن يُقتطع جزء من ملكيته، ويؤمّم لصالح الملك والمملكة، وأن يُقال إن آل "فلوريو" ليس لديهم شرف، وسوف يقوم بما يتحتم عليه القيام به، ولكن لن يفعل ذلك دون قتال.
- فكرت "جيوليا" بينها وبين نفسها وعيناها مثبتة على "باليرمو"، التي تظهر من بعيد من وراء ضباب البحر؛ بالنسبة له - أي لزوجها - الشرف هو المال، وكذلك المصانع التي يمتلكها والتوابل والسفن، ولن يسمح لأي شخص أن ينتزع منه ثروته التي كونها بعرقه وجهده ودموعه.
- عندما نزل "إجنازيو" من على سطح المركب، وجد أخته "أنجلينا" مستيقظة، تهنّدم شعرها، جلس على البطانية الموجودة على السرير.
- لقد ذهب بابا.
- لم تجبه، بل استمرت في حبك وتثبيت شعرها فوق رأسها.
- نهض الفتى ووقف بجوارها، ونظر إلى الأشياء الموجودة على تسريحتها، والتقط فرشاة الشعر المصنوعة من السيراميك الملون، وبدأ يلوح بيدها النحاسية، فقامت أخته بانتزاعها من يده:
- إنها ملكي، فلنأخذها لي.
- همهمت بصوت خافت مملوء بالحقد والضغينة:
- أنت دائماً تستحوذ على كل شيء، أليس كذلك؟
- كان "إجنازيو" متحيراً ومتضائفاً منها، فترجع خطوة للخلف ووضع يده في وسطه وقال:
- لماذا؟
- هل أنت بحاجة بالفعل لأن تسأل؟!!

خبطت "أنجلينا" الفرشاة بقوة على منضدة الزينة، ما أدى إلى تشقق السيراميك الموجود في ظهر الفرشاة. هز رأسه وتراجع أكثر.

- لولاك لكانا عدنا إلى بيتنا في "باليرمو"، ولكن لأن أباك يخشى عليك أكثر من أي شيء آخر في الحياة، فنحن هنا.

بدأت البقع الحمراء تظهر في وجه أخته كعلامة على الغيظ:

- هل حقاً ما زلت لا تفهم؟ نحن هنا ليس لأن أباك يكثرث لأمرى أو لأمر أختك أو لأمر أمك. وأشارت لصدره.

لم تكن كلمات "أنجلينا" هي ما يقلقه، ولكن قبضة يدها المطبقة هي التي أصابته بالدهشة والذعر. نظر إليها وشعر في يدها بعزم وحقد وضغينة لا يرى أنه يستحقها، لأنه لم يطلب شيئاً مطلقاً، ويرغب في العودة إلى "باليرمو" تماماً مثلما يرغبان في ذلك.

رفع يديه الصغيرتين ووضعهما على صدره، وهز رأسه:

- أنا أيضاً أريد العودة للبيت.

وإذ به - وهو يقول هذه الكلمات - يشعر بالدموع اللاذعة تنهمر من عينيه.

- إنه ليس خطئي؛ هناك الكثير من الجنود وأنا...

قفزت "أنجلينا" على قدميها، وأمسكت به وهزته بقوة:

- اسكت! ألا تعلم أن أباك على استعداد أن يموت كي يحميك؟ وهو لا يعنيه أمرنا في شيء، أنت فقط من يعنيه أمره؛ أنت، أتعرف لماذا؟ لأنك أنت من يحمل اسمه، وأنت من ستعمل معه وتعاونه في هذه الإمبراطورية الضخمة، لأنك صبي ونحن فتاتان.

ثم حررته، أو بالأحرى دفعته نحو الحائط، فاستند "إجنازيو" على ركبتيه حتى لا يقع على الأرض من شدة الدفعة.

- أنا و"جيوسينا" مجرد فتاتين، أما أنت فصبي.

حان دورها كي تبكي؛ دموع صغيره مملوءة بالغضب تنهمر من عيونها وتجفها بظهر يدها:

- حتى يوم ميلادك، ما كان ليتزوج بأمي... هذا صحيح، وقد قررت أن تبقى معه رغم أنه ما كان يرغب في الزواج منها، ولم يتقدم ليتزوجها إلا بعد ميلادك. ذهبت نحو الباب:

- نحن لا نساوي شيئاً بالنسبة له، ولا نعينه في شيء. قد نموت جميعاً دون أن يرق له جفن.

قالتها قبل أن تغادر الغرفة وتذهب بعيداً.

صار "إجنازيو" وحيداً الآن. ضرب بقدميه في الأرض وضم قدميه لصدره، صار الكثير من الأشياء أوضح بالنسبة له الآن، تماماً مثل بعض تلميحات الخادمت، مرارة أمه وتماسكها، نظرات "أنجلينا" الحادة ونظرات "جيوسينا" الحزينة، وقسوة والده وخشونته، وتوجه جدته المحافظة والغيورة.

في تلك اللحظة، تنامى وعيه بشكل كبير، والذي استمر للحظة، فهو ما زال صغيراً كي يفهم بالضبط المعنى الحقيقي لما قيل. انتابته رعشة جعلته ينتفض من مكانه، تسببت في حدوث انقباض في معدته، ولكنها اختفت في التو، وقد استغرق في العمق السحيق المرهق من ضميره، فحياته ليست ملكه.

كان "فينسينزيو فلوريو" ينتظر في مكتبه في ضاحية "فيا دي ماتيريسي"، ولا أحد يعلم أنه عاد منذ عدة ساعات. نزل في مكان قريب من المدينة "جيوفاني كاروسو" سكرتيرُه، كان ينتظره بعربة

وحراسة محدودة. مروا بالعديد من شوارع وضواحي المدينة، وسمح لهم الحرس بالمرور بعد أن دفعوا لهم رشوة.

تحمل الشوارع والحارات الجراح المفتوحة للخراب والدمار؛ المباني المهتمة، والبوابات الأمامية المنزوعة، والأثاث المستخدم في التدفئة، والأسلحة المهجورة، والدم، شعرت "باليرمو" بألم الخيانة، وسكانها متأكدون في قرارة أنفسهم أن الأرستقراطيين ومالكي المحال من التجار الكبار، باعوا استقلال الوطن من أجل أن ينقذوا ثروتهم وممتلكاتهم، والحقيقة هي أنهم على حق. هز "فينسينزيو" كتفيه. كان "جيوفاني" يهتز داخل العربة وهو جالس على المقعد المقابل له، مُظهِراً ولاءً وراء الواجب المحتوم.

بلغ "فينسينزيو" الخمسين من عمره، وبدأ يشعر بوطأة هذه السنوات عليه. حاول ألا يتورط بقوة، ولكن الظروف اضطرتته إلى أن يحصل على وظيفة مع الحرس الوطني، بعد أن هرب قادة الثورة وسقطت المدينة في حالة من الفوضى العارمة. لم يرغب في ذلك، ولكن لم يكن أمامه خيار لإبعاد نفسه عن أفعال الحكومة الثورية. لم يتخذ - قدر المستطاع - خطوة واحدة خاطئة في مجال عمله، على الأقل حتى الآن.

سار بهدوء بين الغرف، وصعد إلى الدور الثاني حيث تقيم والدته. لم ترغب والدته في الرحيل وترك المنزل. رآها وهي جالسة في الصالون ممسكة بمسبحتها ونائمة في مقعدها ذي المسند، وقد سقطت خصل من شعرها الأبيض من غطاء شعرها. صارت يدها نحيلة بفعل الزمن، وظهرت عليها بقع الشيخوخة. تذكر عندما كانتا قويتين، ومحمرتين بسبب برودة المياه، أو وهي منغمسة في الدقيق، أو مخضبة بالدماء، ولكنها ذاكرة مشوشة تحولت لشعور بالفراغ. كان يمكن أن يحظى بأخ أو أخت... وإذا عدنا خطوة للخلف، فإن خطوط الزمن التي بدت على وجه "جيوستينا" تنبئ عن قصة مرار؛ يعلم أنها تقتقد "إجنازيو" بشدة أكثر من والده، وشعر بالحزن والأسى من أجلها وبالعطف والرحمة عليها، بسبب السبعين ربيعاً المملوعين بالألم.

سار عبر الغرف، عبر الصالون، ذهب لغرفة نومه، ونام في سريره، باحثاً عن رائحة "جيوليا" ولكنه لم يجدها. تم تغيير ملاءات السرير التي تقوح منها رائحة الصابون.

أغلق عينيه وقد تغير الشعور بالفراغ إلى شعور عميق بالإرهاق الشديد، ثم القلق مرة أخرى. ماذا سيحدث الآن؟ تعجب؛ إلى أي حد سيكون الملك كريماً وإلى أي حد سيمتد عفوه؟ تقلب وأغلق عينيه، والشعور بالغضب والغصة مرراً لعبه في فمه.

قال لنفسه: "أعتقد أن أمير "ساتيريانو" سوف يخرجني من هذه المعضلة"، فقد قام "فينسينزيو" بإنقاذه من عار الإفلاس منذ ست سنوات؛ لقد أعطاه القرض على الرغم من أنه ناداه بكونه "عاملاً" في الواقع، كان هذا هو السبب الذي جعله يقرضه المال، لذا فهو سيتذكر أن شخصاً أقل منه هو من أنقذه من الانهيار.

بالإضافة إلى - هكذا اعتقد "فينسينزيو" - أنه من المفيد دوماً أن تكون لك صلاتك بدائرة الحكم والبلاط الملكي.

أخبره الأمير "فيلانجيري" أمير "ساتيريانو" عبر وسيط أن الملك قد أصدر عفواً ملكياً شاملاً عنه، وبموجب هذا العفو لن يكون مضطراً لدفع جزء من ثروته كعقاب له، بسبب دعمه ومساندته للمتمردين ضد الملك وقواته، خاصة بعد ذلك الحادث المؤسف الخاص بشرائه شحنه من البنادق

بالنيابة عن الحكومة الثورية، لكن بالطبع وفي المقابل، عليه أن يعيد الفضة التي نهبها الثوار من الكنائس، وهذا كل ما في الأمر.

لكن على الرغم من أن "فينسينزيو" قد خرج من هذا الموقف الصعب بأقل الخسائر، بسبب علاقته الوطيدة بالأمير "فيلانجيري"، إلا إنه تعلم الكثير من درس الثورة القاسي؛ وأول ما تعلمه أن يتذكر دومًا ألا يثق أبدًا في كلام السياسيين، فهم بطبيعتهم مثلونون، بل أن يستغلهم أو يسيطر عليهم إذا لزم الأمر، لأنه اكتشف أن لكل شخص ثمنًا، حتى السياسيين، وعليه ألا يثق بهم أبدًا بشكل مطلق. بعدما تواردت له هذه الأخبار السارة عبر الوسيط، شعر بأن توتره بدأ يتبدد شيئًا فشيئًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما أعلن ضوء الشمس بداية يوم جديد، استيقظ من نومه وغير ملابسه، وطلب من الخادم أن يطلب من "كاروسو" أن يحضر حتى يتناولوا معًا الإفطار. حضر السكرتير على عجل، وأشار "فينسينزيو" للمائدة وقال: - هيا، تناول وجبة فطورك.

كان يوجد على المائدة قهوة وبعض البسكويت.

تناول الرجل طعامه ببطء، ونظر إلى وجه مديره وقال:

- لا بد أن المبعوث الملكي قد وصل، فقد كنا نتوقع وصوله منذ مساء الأمس.

- نعم، وأنا أيضًا أعتقد ذلك.

وفجأة، شعر بغصة ما بين أسنانه وبالتوتر، وقال:

- إذا، دعنا نذهب للقصر الملكي لنلتقيه هناك.

قررا التتكر، كي لا يتعرف عليهم أحد من العامة، فلما نفسيهما في معطفين ليستترا عن الأنظار. وحل محل الصمت المخيم على الحارات صوت بلبله، وضجيج كانت تزداد وتيرته كلما اقتربا من القصر الملكي بالمدينة.

بدأت الشوارع تمتلئ بالناس. لاحظ "فينسينزيو" و"كاروسو" وقوع بعض الأشياء الغريبة فيما وراء "كوانتو كاتري"، فقد نُصبت هناك بعض المشانق، وتجمع حولها الآلاف من البشر وهم يصيحون. قرر "فينسينزيو" و"كاروسو" تغيير مسارهما، وانحرفا بعيدًا عن الشوارع الرئيسية، وواصلوا السير داخل الحارات الموازية لكنيسة ودير "سانتا كاترينا". لكن، بعد قليل، كانا مضطربين إلى شق طريقهما بصعوبة عبر الحشود، التي تفوح منها رائحة العرق ويسيطر عليها الغضب.

- هيا بنا، أسرع يا "كاروسو"، فلندخل إلى هنا؛ إن البقاء في هذا المكان خطر كبير.

هكذا أخبر "فينسينزيو" سكرتيه الخاص.

تعالت الأصوات والأصوات من داخل نوافذ الدهاليز والأروقة، وشوهد أحد الموظفين وهو يلقي ببعض المستندات في المحرقة، والبارون "توريسي" غارق في كرسيه يلهث ويدها متشابكتان.

ما إن رأى البارون "بياترو ريسو" "فينسينزيو" قادمًا، إلا ووقف في مكانه ليلتقي به، وتبعه البارون "جابريل شيارامونت بوردونارو" الذي بدا هادئًا كما هو واضح.

- لقد أصدر الملك عفوًا ملكيًا عامًا لنا جميعًا، وأصدر قرارًا بالنفى على الآخرين. الناس ثائرون بشكل عام، ولكنهم لا يدركون أن الأمور كانت من الممكن أن تصبح أسوأ من ذلك بكثير.

- نحمد الرب أنه لم تصدر قرارات بالإعدام، لكن الملك عندما تهدأ الأمور وتستقر لن يُعَدَم حيلةً في معاقبتنا.

همهم "كاروسو":

- نشكر الرب.

هز "فينسينزيو" رأسه، وسأل:

- من حُكم عليهم بالنفي؟

فتح "ريسا" يديه وقال:

- الذين كانوا في مقدمة الحراك الثوري وقادته؛ "روجيو سيتيمو" و"روزولينو بيلو" و"جيوسيب لاماسا" وأمير "بيوتيرا"، وأربعون آخرون. على كل حال، لقد انتهت الأمور على خير.

قال البارون "توريصي" وهو يحاول أن يهدئ من روعه:

- لقد انتهى كل شيء يا سيد "باسكال". أتفهم موقفك وشعورك بالإحباط، ولكن ما كان في الإمكان أكثر من ذلك.

- أنا لست البارون "توريصي"، لا أريد أحدًا أن يناديني بهذا اللقب الملعون؛ أنا السيد "باسكال كالفي" وحسب، وأعترف أن معتقداتي السياسية لا تقبل الألقاب النبيلة، وفي ظل وجودك ووجود أمثالك فلا أمل بالطبع في أن يتغير أي شيء.

حذق الرجل فيهم جميعًا بعيون مملوءة بالضغينة والكره:

- لقد حلمت أنا ورفاقي بصقلية حرة، بأرض مستقلة متحالفة مع الولايات الإيطالية الأخرى، لكن لم يؤمن أيُّ منكم حقًا بهذه المثل والقيم والأفكار. لا شيء! لقد حاربنا من أجل لا شيء، والآن وبسبب لامبالاتكم وخذلاتكم، علينا أن ندفع الثمن غاليًا ونُحرم من أوطاننا، فاسمي على قائمة الأشخاص المنفيين، ومجبر على مغادرة بلدي، أنا! نعم، فخوفكم وحرصكم على أموالكم وثرواتكم وعائلاتكم قد آذاني أنا والكثير من أبناء هذا الوطن المخلصين، الذين لقوا مصيري الأسود نفسه وحُرموا بالقوة من أوطانهم. لو كانت لديكم شجاعة، لو افقتم على تسليح الناس ومساندة قوى المقاومة، لو كنتم فضلتكم المصلحة العامة على مصالحكم الشخصية الضيقة ما كان النابوليين قد عادوا ليغتصبوا أرضنا وثرواتنا وحرّبتنا من جديد، وما كانوا ليقتحموا أبواب المدينة ويهزمونا بعد أن هزمناهم وأطنا بهم، وطهرنا ديارنا وأوطاننا من دنسهم.

لم يمنحه "فينسينزيو" الفرصة ليكمل، وقال:

- كفى ادعاءً وارتجالاً وخطبًا ومواعظ جوفاء يا سيد "كالفي"، فلتشكر الرب أنه لم توضع علامة خطأ بجوار اسمك، وإلا كنت الآن نزيلاً غير مكرم في حصن "أوشياردون"، وأنا بنفسى كنت سأصطحبك إلى هناك، يمكنني أن أؤكد لك ذلك.

تقدم "باسكال كالفي" خطوة للأمام ليقف في مواجهة "فينسينزيو" مباشرة؛ كان بأسه شديدًا ويغلي من شدة الغضب.

- يا لك من وقح! الآن وانتك الجرأة والشجاعة لتتكلّم؟ لماذا لم تتكلم عندما طلبت منك أنا و"روجيو سيتيمو" أن تدافع عن المدينة؟ تراجعك كالأخرين، ووقفت إلى جانب هؤلاء الكلاب الجالسين إلى جوارك، وإلى جوار "شيارامونت بوردينارو"، واستسلمت للخائن "فيلانجيرى". كلّمك جبناء، وخونة!

- هل تطلب منا أن نلقي بأنفسنا إلى التهلكة؟ فنحن لدينا حياتنا الخاصة التي نريد أن نحياها يا "كالفي"، ونريد أن نستثمر ونحيا، ألا تفهم أن باستسلامنا هذا قد تجنبنا نهرًا من الدماء؟! لكن "كالفي" لم يكن منصتًا:

- أنتم يا آل "فلوريو" مجرد حشرة متطفلة بروح يملأها الحقد والسواد، أنت كلب! كان عليك أن تدافع عن المدينة، وليس أن تسقط بنطالك مع أول تهديد من الملك من أجل مصالحك الشخصية الضيقة.

قال "فينسينزيو" بصوت عالٍ وغازب كزئير الأسد:

- هل لديك أدنى فكرة عن عدد الأفراد والموظفين الذين يعملون في "كازا فلوريو"؟ أتدري ما هي "كازا فلوريو"؟

دفعه الرجل بعيداً وصاح فيه:

- اللعنة عليك، وعلى "كازا فلوريو"! كم أتمنى أن تذهب إلى الجحيم أنت وأموالك ونسلك كله، وأن تبكي عليها بحسرة حتى آخر مليم! أتمنى أن تبكي كما أبكي أنا الآن!

التف قلب "فينسينزيو"، وشعر فجأة بظلام كبير يصعد في رأسه ويحجب عنه الرؤية:
- هل تحاول أن تلعنني؟

بدأ في فتح وإغلاق قبضة يده بشكل غازب.

- لأنه لو كان الأمر كذلك، فأنا جيد في إطلاق اللعنات، ولكن الفارق أن لعناتي تتحقق في التو.

أمسك به البارون "توريسي" وقال:

- كفى يا "كالفلي"، لقد انتهى الأمر. كيف كان يمكننا أن نقاوم، وقد سقطت "ماسينا" و"كتانيا"؟ بأية أسلحة، وبأية موارد؟ ما الذي يدور في رأسك؟ نصف مملكة؟ جمهورية بين أطلال المدينة؟ لم يكن هناك شيء لنقوم به، والعفو الملكي في حد ذاته هو صفقة جيدة.

نظر إليه "كالفلي" كما لو كان يراه لأول مرة، فمن الصعب تجاهل البؤس المرتسم على وجهه؛ بؤس وحزن رجل مغرم بتراب وطنه الجريح المطعون في خاصرته، بؤس رجل آمن - ولو في غفلة من الزمن - بكل كيانه في احتمالية وجود مستقبل مختلف، وكرس نفسه لخدمة مبادئه من كل قلبه، مضحياً في سبيل ذلك بحياته ومصالحه، ليجد نفسه بعد ذلك مجبراً على النفي.

- هل ذكرى ما فعلناه بتبقيك مستيقظاً طوال الليل؟ أتمنى أن يكبر أبناؤك الصغار يوماً، ويلعنوك على جبنك وتخاذلك الرخيص!

هرع إلى الخارج، حيث المدينة تضج بالهتافات والصرخات وطلقات الرصاص. رغب "توريسي" في إلقاء نظرة عليه من النافذة، ولكنه تردد وعاد مرة أخرى لمكانه.

- من الأفضل أن نرحل جميعاً من هنا، ويمكننا العودة عندما تهدأ الأمور والأحوال.

ودّعا بعضهما بعضاً بإيماءة بالرأس، وانسل كل واحد منهم وانخرط بين الموظفين والعاملين، وأغلقوا الأبواب خلفهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



تونة

“أنت لا تترك شخصًا ما أو تختار شخصًا ما لم يكن يشبهك”.

- مثل صقلي

بينما كانت بقية أوروبا غارقة في كفاح ما قبل الاستقلال كي تتوحد بعد انتفاضة عام 1848، كان الملك “فرديناند الثاني” مشغولًا باستعادة مملكة الصقليتين. لهذا السبب، اتخذ عدة قرارات غير معلنة؛ منها فرض دين قومي كبير على الصقليين، وتأجيل النظر حتى إشعار آخر في الدستور، والذي صدر بواسطة البرلمان الصقلي في مارس 1848. على الجانب الآخر، سئم الناس والإدارات المحلية من طول فترة عدم الاستقرار، ووافقوا على الضرائب الجديدة على مضض في سبيل استعادة الاستقرار، أما الأرستقراطيون فقد عزلوا أنفسهم ونؤوا بجانبهم بعيدًا عن أية محاولات للتمرد والعصيان، التي ما تتفك تظهر شراراتها من أن لآخر هنا أو هناك؛ حالات معزولة على صلة بالريف، ولكن ليس لها أية أصداء في المدن.

من ناحية أخرى، تمارس الحكومة البريطانية الضغوط على ملك “البوربون”، لتحتة على تغيير الصورة النمطية المعروفة عن القوى الرجعية، التي تسببت تصرفاتها في إحداث هذه الحالة من عدم الاستقرار داخل الوطن وفي العلاقات الدولية.

أما “فرانشيسكو الثاني”، ابن الملك “فرديناند الثاني”، فقد اعتلى العرش خلفًا لأبيه في عام 1859، والذي وجد نفسه فجأة محاطًا بشكل كبير بقوى الرجعية الأرستقراطية والجنود الحاقدين بمميزاتهم الواسعة، والذي لكي يتمكن من تثبيت نفسه على العرش، قرر عدم الخروج عن صف والده واستمر في سياسات والده القمعية الاستبدادية، حتى يتسنى له الاستقرار على العرش، والنتيجة كانت حرمان “فرانشيسكو” الجنوب من التمتع بأي تقدم اقتصادي أو اجتماعي.

في الوقت ذاته، ما زال الزخم الثوري والشعبي، الذي صاحب تمرد 1848، حاضرًا وبقوة في الكتابات المختلفة وتداخلاتها مع بعضها بعضًا، بما في ذلك كتابات ومقالات “جوسيب لاماسا”، و”روجيو سيتيمو”، وذلك المحامي الشاب المولع بالقتال القادم من “ريبيرا” القريبة من “أجريجنو”؛ “فرانشيسكو كريسبي”.

“على الجانب الآخر، تم إلقاء الشباك ومدها، إيدانًا ببدء موسم صيد التونة التي ستأتي في ليلة مقمرة لتملأها”.

هذا ما كتبه الفيلسوف “هيرودوت” في القرن الخامس قبل الميلاد، وهذا هو حالها كل عام على مدار قرون طويلة، وحتى يومنا هذا.

التونة هي حيوان مسالم ذو بشرة فضية لامعة، قادر على السباحة لعشرات الكيلومترات على ضفاف العديد من الشواطئ. كتل ضخمة من الأسماك المتجمعة في مجموعات تشعل البحر بحركتها، وتملأه بالرداذ والأصوات.

في فصل الربيع من كل عام، عندما تكون درجات الحرارة لطيفة، يسافر سمك التونة في رحلته السنوية من المحيط الأطلسي إلى البحر المتوسط، كي يتكاثر في مياهه الدافئة، فالتونة معروفة بلحمها كثير الدسم والدهن، وبأجسامها الضخمة الناضجة المستعدة للتراوح.

هذا هو بالضبط الوقت الذي تتم فيه عملية صيد التونة، وإنزال المراكب والشباك إلى المياه، فـ"التونارا" ليست مجرد مبنى يُستخدم في تجهيز وتعليب التونة فحسب، ولكنها كذلك مستودع كبير يضم عددًا ضخمًا من الشباك، وتتابع للعديد من الغرف، ووسيلة تم ابتكارها من جانب العرب ومنهم إلى الإسبان، والتي وصلت لأقصى مداها في صقلية.

فـ"التونارا" لها شعائرها وطقوسها، هي مكان ظلت تعشقه عائلات بأكملها لقرون؛ الرجال في البحر يبحثون عن الرزق والصيد الوفير، والنسوة في المصانع يعددن التونة، وفي الشتاء عندما تتوقف عمليات الصيد، تبدأ عمليات إصلاح السفن والشباك، أما الصيف والربيع فهما وقت المذبحة وإعداد عملية الصيد والتعبئة تمهيدًا للتخزين ثم البيع.

يطلق الناس على هذا الوحش الوديح "خنزير البحر"، لأن التونة كما الخنزير، تُستغل بأكملها ولا يترك منها شيء؛ ف لحمها الأحمر يُملح ويُعلب ويؤكل، أو يُخزّن في براميل ضخمة بكميات كبيرة، وجلدها وعظامها تجفف وتصحن وتقدم كمخصبات للتربة، ناهيك عن دهنها المستخدم في المصابيح للإنارة، وبيضها يتحول إلى طبق البطارخ الفاخر الذي يدفع فيه الأثرياء أثمانًا باهظة. إن "التونارا" قائمة وتعج بالحياة والصخب والنشاط والحركة، ما دامت التونة موجودة.

أما عن الملح والتونة، فهما وجهان لعملة واحدة ولا غنى لهما عن بعضهما بعضًا، فهما دومًا يسيران في الحياة جنبًا إلى جنب، وإن كانت التونة تظهر في شكل مختلف الآن، فلأنها لا يمكنها أن تعيش خارج البحر.

بفضل الإنجازات العسكرية الكبرى لجيش "البوربون"، بعد إعادة اجتياح صقلية في عام 1849، جلس "كارلو فيلانجيرى" - الملازم في الجيش الملكي لمملكة صقلية، وأمير "ساتريانو"، ودوق "تورمينا" - في مكتبه الأنيق بجدرانه المكسوة بقطع الخشب الراقي، والمزين بدرع جيش مدينة "باليرمو". فيما وراء نافذة مكتب "كارلو فيلانجيرى"، تنتشر أشعة شمس شهر أكتوبر فوق أسقف مدينة "باليرمو"، مشكلة ظلالاً على شكل دانتيل ومنعكسة على أسوار الكاتدرائية. أمامه على المكتب، مجموعة من الخطابات المملوءة بالعبارات القوية التي تقطر سمًا، وتتحدث عن معركة حامية الوطيس دائرة بين "فينسينزيو فلوريو" و"بياترو روسي".

منذ عامين تقريبًا، وتحديدًا في عام 1850، أراد "فيلانجيرى" أن يدخل صديقه "فينسينزيو" في دائرة رجال الملك المقربين، وأن يحتل موقع قائد المفاوضات في البنك الملكي "للممتلكات الملكية فيما وراء الفنار"؛ أي صقلية. لقد كان متأكدًا أن "فلوريو" يريد الذهاب إلى ما هو أبعد من دائرة الأنشطة التجارية، فرجل داهية وفطن مثله سيكون مفيدًا جدًا في إدارة المملكة.

داعب "فيلانجيرى" شواربه، ومسح على خصلات ذقنه التي تمتد نحو الأسفل؛ هذا جنون حقيقي. إن رئيس البنك الملكي الحالي هو "بياترو روسي"، وهو رجل قوي ومقرب جدًا من الملك، ومهذب ومحترم، وموسوس في كثير من الأحيان وغير مرن بالمرّة، ويطلب تصحيحًا دقيقًا من كل شخص، وشخصٌ بهذه المواصفات الصعبة وعلى هذه الدرجة من العند لن يتوافق مع "فلوريو" الذي يتوقف ليبدأ من جديد، فالأخير شخص يحمل العمل على عاتقه ولا يصدره أبدًا لغيره، ولا يهتم سوى بأن يصبح أكثر ثراءً.

"إن أعلى سقف لهذا العامل هو أن يصبح بائعًا في متجر، ما شأنه إذا والبنك الملكي؟ فلتتركه لتجارته ومراكبه وسفنه، ولتترك السياسة لمن لديهم كفاءة ومقدرة حقيقية على خدمة الناس". أخبر "روسي" "فيلانجيرى" بهذا الأمر منذ فترة.

وبعد أقل من أسبوع، قدم دليلاً دامغاً لـ "فيلانجيري" على أن "فينسينزيو" لم يرق بمهام عمله الجديد كمدير تجاري بشكل نموذجي كما ينبغي، لأنه غاب عن أغلب الاجتماعات، ولم يحضر مراسم التسجيل وأنشطته المختلفة دون توضيح أو عذر. في نهاية الرسالة، وحتى الآن لا مفر من إزاحته من منصبه، فهو ليس الرجل المناسب لهذا المكان.

لن يُقدّم "فيلانجيري" أبداً على عمل كهذا دون أن ينذر "فينسينزيو"، لذا، قام "فيلانجيري" باستدعاء "فينسينزيو" وأوضح له الموقف، وشرح له شكوكه، لأن "فلوريو" كان مختفياً لبعض الوقت. قال "فينسينزيو" رداً على ادعاءات "روسي":

- سوف أدمر هذا الحثالة، إنه يشوه سمعتي ويشهر بي أمام الوزير والمدير المالي، هنا في صقلية وأمامك.

- فلتأت إليّ الآن يا سيد "فلوريو"، ولتشارك في الأنشطة الخاصة بالبنك الملكي أكثر من ذلك، على الأقل لتواظب على حضور الاجتماعات. في النهاية، أعتقد أنك لديك الكثير من الشركاء، ومن المحتمل هناك بعض الثقات القادرين على مساندتك وتيسير شؤون العمل إبان غيابك، وإلا فالبديل سيكون أن تتنحى عن هذا المنصب، الذي لن يعود عليك لا بالنفع المادي ولا بالمكانة الاجتماعية، فلماذا تريد أن تصعب من حياتك؟

- أشكرك على اهتمامك، ولكنني أعرف كيف أدير "كازا فلوريو"، والأشياء تتطور فقط إذا ما كنت دوماً مراعيًا لها.

ثم أجابه "فينسينزيو" بتعبيرات متجهمة:

- حتى يأتي شخص مثل "روسي" ليعلمني كيف أدير عملي! إنها لإهانة كبيرة حقاً لي، فالمعروف عني أنني رجل كادح ومجتهد، وهناك العشرات من العائلات التي تحصل على رواتبها ودخولها من وراء عملها في شركاتي، وهو يعتقد أنني يجب أن أجلس في مكاني، ليأتي الوكلاء والمفوضون إليّ بالإيصالات والفواتير الخاصة بالحمولات والشحنات؛ بعبارة أخرى، هو يريدني أن أتحوّل لمجرد واجهة دون فائدة حقيقية. حاول أن تتقهم أسبابي ووجهة نظري، هناك بعض الأشياء التي تحتاج إدارة... من الداخل. من يبقى في هذا المكان هو من لديه أصدقاء يساندونه.

وفتح ذراعيه وأشار إلى المبنى وأكمل:

- ربما أصحاب الأموال. أنت صديق حقيقي، وأنا ممتن لك، ولكنني لا يعنيني المال الذي يجلبه لي هذا المكان، فكل ما يهمني هو العمل.

نظر إليه من أسفل لأعلى. كانت عيناه مرهقتين ولكن مملوءتين بالعزم.

- يجب عليك أن تساعدني أيها الأمير.

بلل "فيلانجيري" شفثيه وجفف يديه المتعرقتين في فخذيه. لم يكن "فينسينزيو" يطلب منه حقاً أن يعاونه، ولكنه كان في الواقع يأمره أن يسخر قدراته وموضعه كي يساعده.

- أنت تعرف يا سيد "فلوريو" أن الأمر ليس بهذه السهولة؛ لقد اتهمك بالإهمال والتقصير وأقم المدير في الأمر، وأنا مضطر لأن أرفع هذا الطلب لـ...

قاطعته "فينسينزيو":

- ترفعه؟ أتقصد أن ترسله للمدير، هكذا؟ أنا لا أتمنى بالطبع أن أضعك في موقف سيئ، ولكنني أريد أن أذكرك، أنني كما يمكنني أن أكون ممتناً لأصدقائي، فأنا أيضاً شخص سيئ جداً مع أعدائي، وأنت تعلم كيف أعبّر عن امتناني لأصدقائي، وإلى أي مدى يكون امتناني سخياً.

لم يجبه "فيلانجيرى"، ولكنه فقط حلق به، فطالما كان "فلوريو" هو شبكة الحماية والأمان له، فعندما كانت تتخطى نفقاته موارده ويكون على وشك أن تسحقه الديون وشبح الإفلاس، يحوم حوله أكثر من ذي قبل، وفي تلك اللحظات الصعبة، كان "فلوريو" دومًا موجودًا إلى جواره لينقذه، ولكن "فيلانجيرى" هو الآخر كان قد مد له يد العون في أحلك الظروف، ظروف ما بعد الثورة وتورطه مع الثوار في شراء صفقات سلاح ونقل قوات، كما استطاع "فيلانجيرى" أن يقنع الملك أن يخرج بهفو ملكي عام ولم يُعاقب بأي صورة من الصور، ولكن هذا لا يُقارن بما كان "فينسينزيو" يقدمه له عندما كانت ظروفه المالية سيئة.

لم يكن أمام "فيلانجيرى" خيار ولا بديل عن إرسال رسالة "روسي" لمدير القسم المالي للحاكم العام لصقلية، ولكنه أضاف أن الادعاء مشكوك فيه، ويفضل البحث عن حل آخر، وليس هناك من داعٍ لأن يتصرف "روسي" بمثل هذه الخشونة والحدة.

صدر القرار بعدم الموافقة على طلب "روسي"، لكن "روسي" لم ييأس، ولا "فينسينزيو" كذلك. تتهدد "فيلانجيرى". أيًا كان ما يحدث وما سيحدث، فهذا العمل بالتأكيد لن يسير بشكل جيد. جمع الأوراق والمستندات وجلس بأريحية في كرسيه الوثير، وقرر أن يتحدث لمدير القسم المالي بالبنك الملكي. لقد كان هذا العمل مستمرًا بهذه الطريقة منذ وقت طويل، وهو يدير المخاطرة الخاصة بتواز مع أنشطة البنك الملكي، وسوف يضيف أنه ليس من مصلحة أحد الوقوف في وجه رجل مثل السيد "فلوريو".

على طول الطريق المؤدي إلى "مارسال"، كانت العربة التي يحرسها اثنان من الفرسان تتأرجح بفعل الريح في الطريق، لتصل في النهاية إلى ساحة منزل "فلوريو" وتمر عبر البوابات، وتتوقف مع إحداث صوت صرير لتطلق الأحصنة صهيلًا مرهقًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تبدو سماء نوفمبر كبطانية دون ألوان، والبحر الهائج يموج ويزمجر بصوت مرعب لا يمكن مقاطعته، والغيوم قد انتشرت لدرجة أنها حجبت جزر "أجاديان" التي بدت كنقاط باهتة في الفضاء، فشتاء عام 1852 أتى دون سابق إنذار، جالبًا معه أيامًا مغموسة في الثلج الذي يجفف التربة.

رحب "جيوفاني بورتالوبي" بزوج أخته وصافحه:

- مرحبًا.

- أشكرك.

كانت تحية "فينسينزيو" جافه وخشنة:

- يا له من يوم غبي! لا شيء فيه سوى الرياح والعواصف والسحب؛ لو أنها تمطر فقط!

دون أن يضيف شيئًا آخر، مر بجانب "جيوفاني" ولم يعرّه انتباهًا، وتوجه للمنزل الرئيسي.

خرج شاب من العربة طويل وبدين بعض الشيء، وملفوف في معطف طويل يخفي جسده، وذهب ناحية "بورتالوبي" وصافحه:

- كيف حالك يا سيدي؟

- أنا بخير، أشكرك. وماذا عن أهلك؟

- ليس سيئًا، نحمد الرب، لقد أثر البقاء في "باليرمو" في مكتب "كازا فلوريو".

أخرج "فينسينزيو كاروسو" ابن "جيوفاني" بعض الرسائل من حقيبة الكمان:

- إنها من أختك؛ لقد أرسلت لك تحياتها.

- أشكر، كيف حالها؟
- قوية و عطوفة كالعادة، و الفتيات يبقينها مشغولة طوال الوقت، وهناك أيضًا "إجازيو".
- في تلك الأثناء، وقف "فينسينزيو" وصاح فيهما بغضب وتبادلا النظرات فيما بينهما.
- تساءل "بورتالوبي":
- هل تحمل الرسائل أخبارًا سيئة؟
- هز الشاب رأسه وقال:
- سأخبرك في وقت لاحق، دعنا لا نتركه ينتظر.
- في وقت متأخر، انتهوا من فحص الدفاتر والسجلات الخاصة بالحسابات والمبيعات والطلبات والأرباح والخسائر، حان الوقت لكي يفصح لـ "جيوفاني" عن فحوى الرسائل.
- يفوح المنزل برائحة الخشب والنبيد، وبشذا العسل الدافئ اللاذع الذي يملأ أيام الشتاء القارس، وذلك عندما ينخفض منسوب الخمائر في البراميل إلى النصف، ليتم إكمالها بالنبيد الجديد. انتقل الرجال الثلاثة إلى غرفة الطعام لكي يتناولوا وجبة العشاء.
- بالطبع، نحن لا نملك الحصة التي يمتلكها "إنجهام" في سوق النبيد، ولكن حصتنا مساوية تقريبًا لحصة "وودهاوس"، والإنتاج في حالة تزايد على الرغم من الضرائب البريطانية.
- جلس "كاروسو" على المائدة ووضع الفوطة على فخذه استعدادًا لتناول الطعام.
- نحمد الرب على السوق الفرنسي.
- صب "جيوفاني بورتالوبي" المزيد من النبيد.
- فلنجرّب نبيد "الكاتاروتو" الأبيض؛ إنه من آخر عمليات الشراء التي قمنا بها، وقررت الاحتفاظ ببرميل كامل منه لكي أتناول منه كما أشاء مع الوجبات.
- حرك "فينسينزيو" لسانه وقال:
- إنه جيد، وذو رائحة جميلة.
- لقد صنّع في مصنع ومخمرة "ألكامو"، وهو إقليم رائع لإنتاج النبيد الأبيض.
- ضم "جيوفاني" وجهه بين قبضتيه.
- لقد وعدتكم بأجود أنواع النبيد الأبيض، وها هي أمامك.
- لقد أكد على فكرة كبريائه ولكن ليس كجدل.
- نظر إليه "فينسينزيو" بارتياح وقال:
- وقمت بعمل جيد، أقر لك بذلك. بعد التجربة التي خضتها مع ابن عمتي "رافاييل"، كنت مترددًا في ضم أي من أعضاء عائلتي لدائرة العمل، لكن الأرباح الأولية والثمار الأولى للنجاح الحقيقي أنت على يدك.
- لم يتحدث عن "جيوليا" على الإطلاق، ليس بعد كل ما حدث، ولكنها "جيوليا" هي التي أقتعت زوجها بأن يوكل أمر مصنع نبيد "مارسال" إلى أخيها "جيوفاني"، وطلبت من "جيوفاني" أن يعمل بكل جد واجتهاد وألا يألو جهدًا في هذا المشروع.
- ومن هذه البيانات والإحصاءات والنتائج، نستنتج أن الطلبات المتوقعة للعام الجديد تقدر بنحو 1300 برميل.
- استمر "كاروسو" في حديثه:
- كم عدد العمالة الدائمة؟

- سبعون شخصًا، بالإضافة إلى الأطفال؛ كل هذا بفضل المحركات البخارية التي جعلتنا نستعيض بها عن العمالة البشرية، فضلًا عن أن "وودهاوس" على الرغم من أنه ينتج عددًا أكبر من البراميل، لكنه يستعين في هذا الأمر بعدد أكبر من العمالة الدائمة.

حضر أحد الخدم ليقدم لهم وجبة العشاء؛ حساء سمك ثقيل ودسم، انتشرت رائحته الذكية في كل أنحاء الغرفة، ووضع الرجال أوراقهم وملاحظاتهم وشرعوا في تناول الطعام.

- إن أسلوب إنتاجهم للنيبيذ قديم وقد عفا عليه الزمن. عليك أن تجري المقارنات مع "إنجهام"، ونظام الإنتاج الـ"كازا بيانكا" التي تستخدم المخارط التي تعمل بالمحركات البخارية.

جفف "فينسينزيو" فمه برفق بعد أن انتهى من تناول طعام العشاء.

- إن "إنجهام" صديق وشريك، ولكنه لن يتوانى عن إطلاق الشائعات السلبية عن نيبيذنا، لأنه في النهاية ينظر إلينا في هذا المضمار على أننا منافسون له؛ أعرف ذلك من ممثلنا في "ماسينا".

تتهد "جيوفاني" بعمق:

- إن "إنجهام" في النهاية مجرد فرقاطة بالنسبة لنا، أما نحن فمركب شراعي ضخم بصاريين.

- لكن المركب الشراعي أخف وأسرع. قد يكون إنتاجنا أقل، لكن جودتنا أعلى؛ بمعنى أننا خارج نطاق المنافسة من ناحية الجودة.

ارتسمت ابتسامة خفيفة على وجه زوج أخته لأول مرة منذ بداية هذا اليوم.

بعد العشاء، وبعد أن شبعوا وارتاحوا لبعض الوقت، سأل "جيوفاني بورتالوبي":

- كيف تسير أحوال العمل مع "بياترو روسي"؟

- ليست على ما يرام.

ألقي "فينسينزيو" بفوطة السفرة المجددة على المائدة:

- القذر! طلب مني حضور أحد الاجتماعات، في اليوم نفسه الذي سافرت فيه إلى "مارسال" الشهر الماضي. لقد أراد أن يجعلني أستقبل من إدارة أعماله بأية وسيلة مهما كلفه الأمر، وأن أقرغ تمامًا

للعمل بالبنك الملكي والالتزام الكامل بحضور اجتماعاته وأنشطته.

ضم "جيوفاني" أطراف أصابعه:

- ولكنك حضرت الاجتماعات، وقمت بكافة الواجبات المطلوبة منك، أليس كذلك؟

محم "كاروسو" ونظر في الفراغ أمامه بلا تحديد، كان "فينسينزيو" يلهو بقطعه من الخبز، وأجاب:

- لقد قاموا عن عمد بتحديد مواعيد العمل والاجتماعات الخاصة بي تزامنًا مع وصول السفن البخارية والمراكب، وطبيعي ألا أتمكن من الحضور؛ إنه نوع من أنواع الدفاع، يبدو كما لو كان اعترافًا ضمنيًا.

- ولكن أنت أيضًا لديك رجالك.

رفع كأس الخمر عاليًا، وأشار إلى "كاروسو" الذي شكره بنخب آخر:

- هذه ليست المشكلة، ما كان لي أن أختارك لو لم أكن أثق بك.

- أنت فقط لا تستطيع أن تقاوم نفسك، فأنت بحاجة دائمة لمتابعة ومراقبة كل صغيرة وكبيرة بنفسك، والسيطرة على كل القرارات والمواقف، وأن تراقب وتتابع كل شيء؛ لا يمكنك أن تتحول لشخص

آخر، أليس كذلك؟

رفع "جيوفاني" حاجبيه.

كان ينوه ليس فقط إلى طبيعة "فينسينزيو" في العمل، ولكن في بيته وفي حياته الشخصية والعائلية.
هز "فينسينزيو" كتفيه:

- هكذا أنا، ولن أغير.

قالها بوضوح، لأنه بالفعل لا يستطيع أن يقوم بشيء آخر.

صب "جيوفاني بورتالوبي" لنفسه المزيد من النبيذ وهز رأسه وضحك:

- أنت بالتأكيد شخص مجنون!

- لا، أنا لست كذلك على الإطلاق، وعليك أن تقنع الآخرين بأنه لا سبيل أمامهم لعدم احترامك، وبهذا فلن تخاف منهم. هل يعتقد "روسي" أنه سيخيفني بشكوته الخرقاء هذه؟ تأكد أن أعدائك سينتصرون عليك لو اشتموا فقط رائحة خوفك منهم.

ثم توقف للحظة وأردف:

- وأنا بالطبع لست خائفاً منه، وعليك أن تعلمه بذلك اليوم.

رفع "كاروسو" جانباً من جوانب فمه لأعلى، وغطت وجهه تكشيرة غامضة:

- لقد أرسل زوج أختك رسالة خطية لأمير "ساتريانو"، يطلب فيها منه أن يرغم "روسي" على أن يدفع له الراتب المقرر، للقيام بالأنشطة المطلوبة منه في البنك والتي رفض القيام بها من الأساس.

أضاف "فينسينزيو":

- وقد أوضحت له أن اختيار التوقيت الخاص باجتماعات المجلس في توقيت وصول السفن البخارية نفسه الخاصة بي لم يكن وليد الصدفة. إن كل ما أورده في الرسالة حقيقي وواقعي، وليس من نسج الخيال.

قال "جيوفاني" ساخرًا:

- والآن، من المفترض أن أتخيل حالتك وأنت في هذا الموقف المحرج، وكيف قمت بتوضيح هذا الأمر للأمير.

ضحك الجميع، وطلب "جيوفاني" من الخادم أن ينظف المائدة، وقرر "كاروسو" الرحيل، لأنه مرهق وبحاجة ماسة لأن ينال قسطاً من الراحة، وبالمثل فعل "جيوفاني"، إذ يعلم أنه سيضطر للاستيقاظ في الفجر ليتواءم مع عادات "فينسينزيو".

بقي "فينسينزيو" وحيداً في غرفة الطعام، غارقاً في صمته الذي سيغشاه من أن لآخر مع صوت ارتطام الريح بالنوافذ.

كان مستغرقاً في التفكير. في المرة الأولى التي حضر فيها إلى "مارسال"، وشاهد بنفسه هذه الأرض البكر المقابلة لساحل البحر، وتذكر كذلك أول شحنة من النبيذ، وحجم الرعب الذي شعر به والسفينة تستعد للتوجه بالشحنة إلى فرنسا، كانت علاقته بـ"رافاييل" في ذلك الوقت... وكانا يتحدثان فيما بينهما بلفظة الأصدقاء وليس بأبناء العمومة، والآن صار لا يعرف حتى أين هو.

إن الكبر والغرور والعزة أضحوا كمزيج من المرارة والعزلة والحقد والضغينة، كيف صار هذا الآن، وأصبح واقعاً بئساً بعد أن كان عكس ذلك منذ خمسة عشر عاماً؟

لقد كانا هنا، في هذه الغرفة نفسها، وبين هذه الجدران، ولكنها كانت بسيطة وغير مزينة؛ فقط الأثاث الأساسي وطاولة، وكان الوقت نهراً.

وقف "رافاييل" أمامه:

- ولكن أنا... لماذا تتهمني بعدم العناية بالمصنع؟ لقد كرست نفسي وحياتي بالكامل له؛ مثلك وربما أكثر، وأعطيت كياني كله للعمل، كيف تقول إنني لم أقم بالجهد المطلوب، وإنني لم أكن على قدر المسؤولية؟

وفتح ذراعيه في أداء مسرحي مؤسف. كانت تعبيرات وجهه ما زالت هادئة، وقد غلب عليها الشعور بالدهشة وعدم القدرة على التصدي. بدا وجهه شاحباً من كثرة العمل:

- متى أخطأت يا "فينسينزيو"؟ لأنني أعتقد أنني قمت بكل شيء أستطيع فعله من أجل النهوض بهذا المكان، وهل هذا هو الجزاء الذي أستحقه؟
لم يكثر "فينسينزيو" كثيراً لاعتراض "رافاييل":

- إن الأمر لا يتعلق بالتقاني والإخلاص في العمل يا "رافاييل"، فأنا ليس لدي أي شك في ذلك، أعلم أنك بذلت كل جهدك، ولكنه غير كافٍ وليس ما تحتاجه "كازا فلوريو".

حاول أن يكون مهذباً، حتى عندما بدأ يشعر بموجة من الحموضة الشديدة في معدته بسبب هذا الموقف البائس. لماذا لم يتقبل "رافاييل" قراره ويرحل بهدوء؟ لماذا اختار أن يتصرف بهذه الطريقة وبهذا التوسل والتضرع؟

ولكن ابن العمة أصر؛ لقد كان عاطفياً، بل ربما أبله بعض الشيء، وبدا وكأن "فينسينزيو" قد سلبه شيئاً ما، ولم يستوعب فكرة أن المصنع والمخزن ملك له، وأنه ليس لديه أدنى رغبة في مشاركته، وأنه قد أتى به كي يديره فقط ليحفزه على بذل المزيد من الجهد، وهو شيء لم يكن "رافاييل" أهلاً له. أضاف هذا المشهد إلى سابقه المزيد من التوتر. حاول "فينسينزيو" أن يبدو صبوراً وبذل جهداً كبيراً في سبيل ذلك، ولكن جهوده كانت بلا جدوى، وفقد السيطرة على أعصابه:

- كفى! ليس هناك شيء آخر لتضيفه. لقد اتخذت قراراً وانتهى الأمر يا "رافاييل"، وكنت أتمنى أن تكون ردة فعلك مختلفة؛ أقصد أكثر نشاطاً وحيوية. لقد حاولت وبذلت كل جهدي معك، وكتبت لك بشكل متوالٍ، ولكنك كنت في كل مرة تتصرف ككاهن القرية الذي يتعامل مع مجموعة من الماشية. لقد اتخذت قراراً، وليس هناك سبيل لمناقشة الأمر أكثر من ذلك.

ارتسمت على وجه "رافاييل" تعبيرات أخرى:

- ما الذي تقصده بذلك؛ بأنك قد اتخذت قرارك؟

وبدأ الغضب يظهر على وجهه أكثر فأكثر.

- لقد طلبت منك أن تكون جريئاً وعملياً ومغامراً، أتذكر ذلك؟ لا تتكر، ولا طائل من قولك إنك لا تفهم، وقد طلبت منك في عدة مناسبات أن تفتح عينيك وتكون جريئاً ومقداماً، ولا يمكنك أن تضع قدمًا واحدة للأمام وتترك الأخرى في هذا العالم هكذا وتكتفي، وكيف لك بهذا، وأنت دومًا تطلب مني الإذن؟!!

علت نبرة صوت "فينسينزيو" وانحنى بعض الشيء، وبدأت على وجهه علامات الغضب.

- أنا لا أحتمل الشكوى والتوسل، لقد قررت أن أشتري حصتك في المصنع والمخزن، وانتهى الأمر، أما أنت فلك الحق أن تأخذ حصتك وتفعل بها ما تشاء.

ولكن "رافاييل" بدأ يهز رأسه، وامتنع وجهه وعلا صوته:

- لا، هذه ليست الحقيقة كلها.

وتمسك بظهر الكرسي والمسند:

- أنت فقط لا تريد أن تثق بأقاربك.

وخطب على صدره وأكمل:

- لم أخطك أو أخطك يوماً، وأرى أن كل ما تحتاجه هو خدم وعبيد.
بدأ "فينسينزيو" يشعر أن وجنتيه سقطتا، كأن "رافاييل" بدأ في الذوبان:
- أنا مؤمن بهذا المصنع وهذه المخمرية، لقد كرست لهما قلبي وعقلي وروحي وكياني كله، وأنت الآن تخبرني أنك ستنتزعهم مني، هكذا بمنتهى البساطة؟! أنا لا أستحق هذه المعاملة.
أنهى حديثه وجفف دموعه؛ كانت هذه الحركة هي القشة التي قسمت ظهر البعير، وجعلت "فينسينزيو" ينفجر في وجهه:

- والآن، لا تبدأ في النحيب مثل الأطفال، نحن ناضجان ونحدث بشأن العمل. كنت تدير إحدى شركاتي وأنا لا أحب الطريقة التي تدير بها الأمور، ولهذا قررت أن أشتري حصتك في العمل، وهذا كل ما في الأمر، وسأعيد الأمور لما كانت عليه.

للحظات قصيرة، بدأت الغرفة وكأنها قد امتلأت بتهديدات "رافاييل" الحزينة البائسة، ثم رفع رأسه:
- بع حصتي، فأنا لا أريدها، وأعطني فقط نسبتي على المبيعات، واطرني نائباً لك ومديرًا لأعمالك هنا، فأنا أستمتع بالعمل، وأعرف كل شيء عن العمال.
أصبح صوته حزينا ومنخفضاً.

- لقد كان الناس على حق عندما نصحوني بعدم الثقة فيك، فأنت نسخة من أبيك.
- أيًا من كان من أخبرك بهذا، فهو لا يعرف شيئاً عن العمل. لا يمكنني أن أكون حريصاً مثلك؛ وإلا فإن "إنجهام" و"وودهاوس" سينقضان عليّ ويفترسانني، فهما حوتان كبيران، وسيكونان قادرين على انتزاع القليل الذي اختطفته منهم بشق الأنفس، وأنت تقول دومًا: "من فضلك، وأنا آسف". عليك أن تنتزع الأشياء بقوة وعنف، وتمزقها بأسنانك ومخالبك دون رحمة أو شفقة. هناك وقت للحرص ووقت للمخاطرة، وأنت غير قادر على معرفة التوقيت المناسب لهذا أو لذلك، وعليّ دومًا أن أتابعك وأراقبك.

- والآن أصبحت ضعيفاً لأنني لم أجعلك تخاطر؟ وأنت تعاليري بأنني كنت أعتمد عليك، بدلاً من أن تشكرني على عدم غمسك في ديون لا جدوى منها، يا له من رد رائع للجميل! يا لها من مكافأة!

تراجع "رافاييل" خطوة للخلف، وصرخ "فينسينزيو" في وجهه:
- ألا تفهم؟! أنا لا أريد سكرتيراً هنا، أريد شريكاً حقيقياً، وأنت غير قادر على القيام بما أريده منك، لأنك لا تمتلك هذا الأمر بداخلك، لذا فلتقبل الواقع وتريحني وتريح نفسك.

تراجع "رافاييل" للخلف بعض الشيء كما لو كان قد صُفَع على وجهه:
- على الإنسان ألا يضع في العمل قلبه وماله فقط، بل الحب والشغف أيضاً، ولكن ما الذي تعرفه أنت عن الحب والشغف؟ أنت كلب حقيقي.

فك رابطة عنقه بعض الشيء، كي يستطيع أن يتنفس وهز رأسه ببطء:
- فلتعطني حصتي؛ كلها، والآن، ولا أريد أن تربطني بك أية رابطة بعد الآن.
وهكذا اختفى "رافاييل" إلى الأبد من حياته، ولم يطالب بأي شيء أكثر من حقه، حتى هناك، في هذا الموقف، لم يتمتع بالشجاعة والثقة الكافية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد ذلك بفترة، سمع "فينسينزيو" من بعض معارفه أن "رافاييل" بدأ في ممارسة التجارة كرجل متوسط، وبدأ يدير إحدى الترسانات البحرية، واختار أن يبقى هنا في "مارسال"، ورأى أن هذا

أفضل بالنسبة له.

وبعد ذلك بعدة أشهر، بدأ "فينسينزيو" يشعر بخواء غير مسبوق وصعب وصفه، بنوع غير معتاد من الوحدة، فبعد كل شيء، كان بعض مما قاله لـ"رافاييل" حقيقياً؛ عليك أن تكون قادراً على الثقة بالناس. وبطريقة أو بأخرى، وثق "فينسينزيو" في ابن عمته، ولكنه لم يكن جريئاً ومقداماً بما يكفي، رغم كونه شخصاً موضع ثقة ويُعتمد عليه، ولم يكن له أية أصدقاء بخلاف "كارلو جياتشيري" و"إنجهام".

بدأ يشعر بالوحدة بشكل متزايد. رحلت عمته "ماتيا" وعمه "باولو باربييري" منذ سنوات عديدة، وطلبت منه أمه عدة مرات أن يأخذها كي تزور قبر أخت زوجها، ولكنه استمر في التأجيل والمماطلة، فهو لا يحب زيارة المقابر، وعائلته التي أتت من "بانيارا" قد اختفت تقريباً، ولم يعد هناك المزيد له من الجذور، وليس هناك ما يربطه بقوة بهذا المكان، لكن... توقف عن التفكير ورفع كأسه وارتشف المزيد من النبيذ بصمت.

ينتهي الحال دوماً بمن حوله بخذلانه، فجذوره الحقيقية هي شركاته وأمواله والجذع هو "كازا فلوريو"، وقد تضاعفت ثروته بشكل كبير ولكنه غير كافٍ بالنسبة له.

والآن...

ما زال هناك شخص واحد متعلق به؛ الوحيد الذي يثق به حقاً في السراء والضراء، حتى وإن أصبحت مجرد شبح وعاهرة في نظر عائلتها، لكنها ظلت تقاوم، حتى عندما رفضها وهجرها رحبت به مرة أخرى وهو لا يستحق ذلك، ولم تهجره يوماً، أبداً؛ إنها "جيوليا".

عاد "فينسينزيو" مرة أخرى لـ"فيا دي ماتيرييسي" قبل يوم الأحد، لكي يصطحب عائلته إلى الكنيسة، ويلتقي بعض رجال الأعمال الذين تربطه بهم علاقات عمل.

قرر في هذا المساء، بعد أن انتهى من الحسابات والعمل، وبعد أن ترك كل الموظفين أعمالهم وعادوا إلى منازلهم، أن يصعد عند عودته إلى الشقة العلوية حيث تقيم أمه. كانت والدته توجه الرسائل لتمثال "العذراء مريم" الطاهرة الموجود أمام المبخرة النحاس، وكانت نافذة حجرتها مفتوحة للنصف، حتى يُسمح للدخان الناتج عن الاحتراق أن يخرج، ويسمح بالدخول لصوت الأمطار المنهمرة، والتي تملأ مياها الميزاب بالطين.

قبلها على جبهتها وقال:

- هل أنت بخير؟

هزت رأسها وقالت:

- وماذا عنك أنت؟ هل أنت بخير؟

ومسحت على وجهه بحركات لم تتغير منذ أن كان طفلاً صغيراً وهي تحميه في الحوض.

- تبدو مرهقاً، هل تطعمك زوجتك ما يكفي من الطعام؟

- بالطبع يا أمي، لكن المشكلة أنني في الفترة الأخيرة كنت أعمل بشكل مستمر ولوقت طويل، فضلاً عن أن زوجتي لا تطهو، ألا تتذكرين؟ فنحن لدينا خادمت وطباخ.

أشارت "جيوسبينا" بيدها إشارة تعبر عن القلق والتوتر:

- على الزوجة أن تراقب عن كثب ما تقوم به الخادمت وإلا سيَعْشُشُنَهَا، وألا تهدر وقتها في قراءة الكتب المكتوبة باللغات الأجنبية التي تجيدها. والآن، فلتأتِ معي إلى غرفة نومي.

تجاهل "فينسينزيو" تعليقاتها السلبية على "جيوليا"، وساعدها على الوقوف. لم يبق في جسدها أي من القوة والصلابة التي كانت تتمتع بها في الماضي، فقد محى الزمن قوتها، ولكنه ما زال يراها كما كانت فيما مضى، قوية وصلبة وقادرة على مطاردته في الحارات، كما كانت تفعل وهو طفل صغير، وتذكر كذلك نظرات الحب والعطف والحنان التي كانت تغمره بها وهو صغير.

وصلا إلى غرفة نومها. لاحظ أن جهاز عرسها وخزانتها كانا الجهاز والخزانة نفسيهما اللذين أنت بهما من "بانيارا"، والوعاء والإبريق هما الوعاء والإبريق نفساهما اللذان أحضرتهما عندما تزوجت من "باولو"، وصليب من المرجان معلق على الحائط، وشال على حافة السرير، وتلك التذكارات التي كانت موجودة منذ أن كان "فينسينزيو" طفلاً صغيراً.

- هل ما زلت تحتفظين بهذا الشال يا أمي؟

تساءل وهو يلتقط الشال من على حافة السرير، ولكنه بدا أصغر ورثاً بفعل الوقت والزمن وما عاد كما كان في الماضي.

- هناك الكثير من الأشياء التي ما كنت لأتخلى عنها في مقابل كل الأموال التي ربحتها أنت وعمك وأحضرتماها إلى هذا البيت؛ عندما نكبر نتمنى أن يسير الوقت ببطء، لكن الوقت لا يتوقف عن الدوران، لذا فإنك في المقابل تتمسك ببعض الأشياء، لأنها ما دامت موجودة، تشعر كأنك موجود، فأنت لا تستطيع أو لا ترغب في أن ترى الحياة وهي تتحسر من حولك.

جلست "جيوسبينا" على حافة الفراش وضمت الشال بقوة لصدرها. تملكها شعور بالمرارة والندم اللذين كوّنا عقدة في معدتها، وهمست له:

- نسميها ذكريات، ولكننا نكذب، فأشياء مثل هذا الشال، والخاتم الذي ترتديه في إصبعك..

نظرت إلى خاتم "إجنازيو" المطروق وأكملت:

-.. هي الحقيقة الوحيدة الباقية في هذه الحياة الخاطفة.

عندما وصل "فينسينزيو" للغرفة الرئيسية، وجد "جيوليا" نائمة في سريرها، وعلى النقيض من "جيوسبينا"، كانت الحياة كريمة معها بعض الشيء، فهي ما زالت جميلة، حتى بعدما بدأت تعاني مؤخراً من آلام في الظهر ومشاكل في الهضم. ألقى بملابسه على الكرسي وبنفسه على الفراش، ونام إلى جوار زوجته واحتضنها من الخلف، فأمسكت بيده وضغطت عليها وضمتها إلى صدرها وثبتتها عند قلبها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دخلت الباخرة إلى ميناء "فافيجينانا" ببطء شديد مصدرة أصواتاً عالية ومجلجلة، ووقفت تحت الشمس. كانت منازل القرية صغيرة وأكبر بقليل من الأكواخ، مصنوعة من الجدران الصلبة والأحجار البركانية وتزينها بعض الرسومات البسيطة، كأن من رسمها طفل صغير.

وصلت باخرة صغيرة، كانت تسير بعيداً عن السفينة إلى الرصيف البحري لميناء "فورتا دي سان ليوناردو"؛ وهو الحصن القديم الذي كان يحرس الميناء. خرج منها - أي السفينة - عدد قليل من الأطفال والرجال ومروا بجوار القرية وتوجهوا ناحية اليمين، حيث المخازن الكبيرة المطلة على البحر. كانت البوابات تبدو كأفواه مفتوحة، ومغلقة ببوابات تشبه الأسنان المغروزة في مياه البحر.

مشي "فينسينزيو" بنشاط وحيوية مستمتعاً بحرارة الشمس، و"إجنازيو" ابنه البالغ من العمر أربعة عشر عاماً بجواره.

إنها أول مرة يأتي به لمصنع "فافيجينانا" للتونة. لقد أمضى عشرة أعوام كاملة في إدارته ونجح في النهاية أن يحوله إلى تحفة فنية فريدة، لم يكن الأمر سهلاً، فالإيجار كان وما زال غالياً. كان عليه أن يؤسس شبكة من المتخصصين ليقدرُوا أخطار طريقة الحفظ الجديدة للتونة، والآن حققت التونة المحفوظة في الزيت انتشاراً واسعاً في جميع أنحاء البحر المتوسط.

ابتسم لنفسه؛ فنظر إليه "إجنازيو" بعينين متسائلتين. قال "فينسينزيو":

- كنت فقط أحاول أن أتذكر شيئاً ما. ستري كل شيء خلال دقائق.

اعتاد الفتى أن يذهب معه إلى المكتب، وعادة إلى مصنع ومخزن "مارسالالا" للنبيد، ولكن لم يسبق له أن أحضره والده إلى الجزيرة من قبل.

إذا ما شعر "إجنازيو" بالإثارة، فهو بالتأكيد لن يبديها. كان يسير بجانب والده بخطوات واسعة ومرنة، لم يتمكن من الرؤية بعض الشيء بسبب وهج الشمس.

قال "إجنازيو":

- يا له من مكان جميل! هواء نقي، وهدوء، على العكس من "باليرمو".

- هذا بسبب اتجاه الرياح. انتظر حتى تصل إلى المصنع.

في الواقع، ما إن مرّوا بـ"فورتا دي سان ليوناردو" وبالالتواءة التي تفصل القرية عن مصنع التونة، حتى اجتاحتهم رائحة ننتة جعلتهم يشعرون بالغثيان؛ رائحة عفن ونتاجة وتحلل وموت، لم يتحمل البعض مثل "كاروسو" على سبيل المثال الرائحة وقد غطى أنفه بمنديل، ولكن "فينسينزيو" لم يفعل.

نظر "إجنازيو" إليه وكبت شعوره بالاشمئزاز، وتنفس عبر فمه وتجاهل الرائحة الننتة؛ إذا كان والده يستطيع، فهو يستطيع. كان يتمتع ببنية أبيه البدنية وملامحه نفسيهما، ولما كبر، أصبحت ملامحهما المتشابهة تظهر بجلاء، ولكن عينيه ما زالت تحمل رقة وعطف "جيوليا".

- إن بقايا عملية تصنيع التونة تترك في الشمس لتجف وتتحلل، ولهذا تتبعث منها هذه الرائحة الكريهة.

وأشار "فينسينزيو" إلى بقعة واسعة؛ إنها "بوسكو"، أو مقبرة التونة هناك؛ في تلك المنطقة الكبيرة الموجودة خلف المخازن.

- إنها هناك، هل تراها؟ يقوم العمال بنقرغ المخلفات هناك ويتركونها كي تجف.

هز الشاب الصغير رأسه وقال:

- ماذا عن المراكب؟ أين المراكب؟

- في البحر.

أجاب "كاروسو" وهو يقترب:

- إننا الآن في شهر مايو؛ إنه موعد صيد التونة.

ساروا جميعاً إلى داخل المبنى.

في الساحة، وعبر الأشجار التي توفر لهم القليل من الظل، يوجد ممر حجري. أصبح الخلاء المقابل للبحر مملوءاً بالشباك والمعدات الخاصة بصيد التونة. كان الرجال منهمكين في إصلاح شباك التصفية المحطمة.

في الوقت الذي توجه فيه "كاروسو" إلى المكاتب متبوعاً بالمحاسبين، أخذ "فينسينزيو" ابنه من يده، وسارا معاً عبر الساحة نحو مقر المراكب "تيزانا". تلقى "إجنازيو" حركته بحذر ودهشة؛ لم يتذكر أن أباه قد سبق وأمسك به بهذا القرب من قبل.

في الأسفل، كان صوت أمواج البحر يشبه صوت ارتطام البحر بجدران الكهف.

توقف "فينسينزيو" ورسم ابتسامة على وجهه، وقال:

- إن المرة الأولى التي أتيت فيها إلى هنا كنت بصحبة "كارلو جياتشيري"، كان كل شيء متهاك وبأس، والمكان عبارة عن قطعة من القذارة، لم نقض الليل حتى على الجزيرة، لأنه لم يكن هناك مكان نظيف ومجهز لنقضي ليلتنا به. وفي اليوم التالي...

ابتسم مرة أخرى، و التقت لينظر إلى المبنى الموجود خلفه:

- أرسلت رسالة إلى "باليرمو" أطلب فيها نجاري سفن وبنائين لكي يجهزوا المكان، وفي الوقت ذاته، كنت أقضي أغلب الوقت في تعليم الناس كيفية إنتاج التونة المحفوظة في الزيت. خلعت معطفي، وشمرت ساعدي...

كان "إجنازيو" يراقبه وهو يكرر الحركات نفسها مرة أخرى، ويخلع معطفه وغيره من الملابس ولم يترك سوى القميص، وقام كذلك بتشمير الأكمام، وقال:

- جمعت كل أرباب العائلات وزوجاتهم، لكي أريهم أنني لا أخشى من أن تتسخ يداي. وضغط على كتفيه وهزهما بحنان وعطف:

- تعلم أنه عندما يعمل الناس لديك، عليك أن تجعلهم يشعرون أنهم جزء من شيء عظيم. ثم توقف فجأة، لأن الشمس ضربت خاتم "إجنازيو":

- لقد سبق وأخبرتكم أن عمي؛ الذي علمني كل شيء، والذي سميتك على اسمه، كان يصر أن أبقى واقفاً خلف طاولة البيع في "متجر العطارة"، رغم كرهه الشديد لهذا الأمر، واكتشفت الآن أهمية ذلك وعرفت أنه كان شيئاً هاماً جداً وضرورياً، لتفهم طبيعة الناس وتجيد التعامل معهم. نعم، لكي تتعرف عليهم بشكل أفضل، فتتعلم عندما يسألك شخص على شيء ما أن تعرف ما الذي يريده بالضبط؛ هل يبحثون عن عشب لكي يجعلهم يشعرون بتحسن، أم ليعالج مرضاً وألماً حقيقياً يشعرون به ويريدون أن يبرؤوا منه؟ وهل هم يسعون وراء الحصول على نبيذ فحسب؛ أم نبيذ، أم أنهم يسعون وراء القيمة والجودة والمكانة الاجتماعية المرتبطة به؟ وهل يسعون وراء الحصول على المال من أجل امتلاك أسباب القوة، أم بسبب مرورهم بضوائق مالية؟

فهم "إجنازيو" ما يشير إليه أبوه وفكر فيه، وبقي يفكر فيه ملياً كلما أتى إلى الجزيرة وحده، أثناء وجود والده في اجتماع مع العملاء الجنوبيين. غمر ضوء الشمس الناصع شوارع وحارات "باليرمو" الضيقة، ولم تعد التونة المغموسة في الزيت بدعة. لقد أصبحت الشوارع اليوم المؤدية إلى خارج الكنيسة مبلطة. وفر والده معلمين لكل من أراد أن يتعلم القراءة والكتابة كما يفعلون في إنجلترا، والمحاجر المنتشرة في وديان القرية غرقت في الأرض.

فكر "إجنازيو" أن "فافيجينانا" جرف من الصخور البركانية، وكل ما عليك هو أن تخذش السطح، حتى تكتشف تلك الطبقات الكثيفة من الكبريت الأصفر المرقطة بالصدف، والتربة مملوءة بالحصى ولا يوجد بها سوى القليل من الحقائق والبقع المزروعة بالخضروات، التي تم تمهيدها بقوة في أراضي المحاجر البركانية التي تتسرب إليها المياه المالحة الطينية.

بمجرد اعتيادك على رائحة تصنيع التونة، ترى البحر بالفعل وكأنه بقعة زرقاء واسعة وغازبية ومتوحشة وعنيفة وحيوية، وأن الثروات تأتي من البحر.

إنها جزيرة الريح والصمت، و"إجنازيو" هو الآخر يتمنى أن يعيش في مكان مثل هذا، ينتمي إليه ويشعر به داخله كقطعة من لحمه أو عظمه، ليصبح في يوم من الأيام سيد الجزيرة وابنها، وهو لا

يعلم أن هذا سيحدث في الواقع.
فجأة، سُمع صوت إغلاق أحد الأبواب بالدور العلوي بعنف، وصوت خطى غاضبة، وصيحات عالية. نَحَّت "جيوليا" القماش الذي تطرزه جانبًا، ورفعت رأسها وحاجبها لأعلى وقالت:
- ما الأمر؟

هزت "جيوسبينا" كتفيها:

- أعتقد أنه أبي.

وتبادلا النظرات:

- ويبدو أنه غاضب.

وضعتا القماش المطرز جانبًا، وهرعتا إلى الغرف التي انطلق منها الصوت.
كانت "جيوسبينا" فتاة رشيقة ممشوقة القوام تشبه عود الخيزران، وتبلغ من العمر ستة عشر عامًا، وهذه هي السمة الوحيدة الجميلة والمميزة الموجودة في وجهها الغريب، ولكنها في المجمل فتاة رشيقة وصبورة.

عندما اقتربت "جيوليا" من مصدر الصوت، اكتشفت أنه صوت صياح زوجها وهو صادر من غرفة الطعام، فدخلت لتجد "أنجلينا" جالسة على مقعد ذي مسند، غاضبة، ويدها مطبقتان، ووالدها واقف أمامها كشجرة عالية.

- ما الأمر؟

نظر إليها "فينسينزيو" نظرة جمدها في مكانها، لكن "جيوليا" كررت سؤالها:

- ما الأمر يا "فينسينزيو"، من فضلك؟ ماذا حدث بالضبط؟

انطلق رد "أنجلينا" على سؤال أمها كالسهم المسموم:

- إن أبي يتهمني بعرقلة خطته الخاصة بزواجي. لقد طلب مني أن أجهز نفسي لكي ألتقي زوج المستقبل، وهو يعنفني لأنني لا أبدو جذابة بالشكل الكافي، وكأن هناك شخصين آخرين غيركما قد أتيا بي في هذا العالم.

التقت "جيوليا" ونظرت لابنتها:

- ما الذي تقصدينه بهذا الكلام؟ وما طريقة كلامك هذه؟ إياك أن تتحدثي مرة أخرى بهذه الطريقة غير المهذبة!

هكذا هي "أنجلينا"، دائمًا حادة وغازبة، فهي فتاة ذات شخصية قوية، لا تقبل أن تترك نفسها كورقة في الفضاء تحملها الريح، لا هي ولا "جيوسبينا" شقيقتها، ولكن هذه المرة، وجدت "جيوليا" نفسها مجبرة على الاعتراف أن الفتاة على حق، فلسوء الحظ، لم يكن القدر سخيًا معهما فيما يتعلق بالجمال. ذهبت شقيقتها "جيوسبينا" إليها، وضمتها بحنان لصدرها كشكل من أشكال التضامن والتشجيع، لإعطائها الإحساس بالطمأنينة.

قال "فينسينزيو":

- لدي اجتماع شراكة الآن مع البارون "شيارامونت بوردينارو"، وقد لَمَّحت له أنني مرحب بفكرة توحيد عائلتنا معًا برباط المصاهرة والزواج، فـ"أنجلينا" ابنتي الكبرى تبلغ من العمر ثمانية عشر عامًا الآن.

برزت عروق الغضب الموجودة في جبهة "فينسينزيو":

- ولكن من الواضح أن هذا الأمر صعب، لأن ابنتينا لا تتمتعان بالفقر الكافي من الجمال، ولا تقومان بفعل ما يلزم حتى تبدوان في صورة أجمل وأكثر إثارة.

نظرت إليه "أنجلينا" بعينين نصف مغلقتين، لأنها تعلم أنها تبدو غير جذابة لأنها تشبه عائلة أبيها، وخاصة جدتها "جيوسينا":

- لا أنا ولا أختي قد سبق أن تمت دعوتنا لحضور أي حفل خارج هذه الجدران الأربعة، فنحن بالكاد نعرف القليل من الفتيات من عمرنا نفسه، والناس تنتظر إلينا كما لو كنا خادمتين ترتديان ملابس سيدتهما. نحن بالفعل ليس لدينا أي أصدقاء، بينما أخونا يسير كالتاوس وهو محاط دائماً بكوكبة من الأصدقاء، وتتم دعوته لكل التجمعات، ويذهب لركوب الخيل في "فافوريتا" مع أبناء النبلاء، وتأخذه لكل مكان تذهب إليه معك، وحتى في لقاءاتك مع التجار الآخرين، وتقدمه للناس كما لو كان طفلاً وحيداً بلا أخوة أو أخوات. والآن تقول لي إنك غير قادر على أن تجد زوجاً لي؟ هل سبق وسألت نفسك غطة من هذه؟

قالت "جيوسينا":

- ههش! فلتصمتي يا عزيزتي.

وداعبت وجهها، وحاولت أن تصرف عنها هذا الشعور بالغضب والغيط:

- لا يمكنك أن تتحدثي مع أبينا بهذه الطريقة.

- آه، هذا صحيح، أنا لا أستطيع، لأنه سيد هذا البيت! ومن نحن؟ نحن يا "جيوسينا" أقل من أي شيء هنا! ألسنا بناته أيضاً؟ ولكن بالنسبة له، لا يوجد سوى "إجنازيو"؛ "إجنازيو"، "إجنازيو"!

رأت "جيوليا" ابنتها وعينيها ممثلتتين بالدموع، وشرارة الغضب والغيرة والحزن تتصاعد من عينيها. أغلق "فينسينزيو" قبضته وفتحها، واقترب منها:

- ما الذي تقصدينه بهذا الكلام؟

- يكفي هذا الآن.

نادراً ما ترفع "جيوليا" صوتها، ولكنها عندما تفعل، تخرس الجميع، وأشارت بإصبعها إلى بناتها:

- اذهبا أنتما الاثنتان إلى غرفتيكما، هيا.

ثم وضعت يدها على فخذيهما، وأشارت لزوجها بأن يلحق بها في غرفة المكتب.

- وأنت يا "فينسينزيو"، من فضلك إلى مكتبك، هيا بنا.

مشت دون أن تنتظر أن يتبعها أحد.

لقد كان الموقف يحمل أكثر من الغضب والتنفس السريع اللاهث، لكنها بمجرد أن سمعت صوت غلق باب غرفة المكتب، استدارت "جيوليا" وقالت لـ "فينسينزيو":

- كيف تقوم بعمل شيء كهذا دون أن تخبرني؟

صاحت فيه "جيوليا". كان غضبها عارماً، أقوى من أي وقت مضى، كانت تتألم بشدة كمن تقطعت أجزاء من لحمه وهو حي، ولا سبيل لبرئه دون ألم:

- إنهما فتاتان محترمتان ومهذبتان، ربما ليستا فائقتي الجمال، ولكنهما عطوفتان وحنونتان ومهذبتان. بالطبع، ليست طريقة تربيتهما هي التي جعلتهما غير مرحب بهما كزوجات، ولكنه شيء آخر مختلف.

- أنت أيضاً؟ لا تتعمدي التضليل في الحديث، فهما في النهاية فتاتان، وسوف تحصلان على مهر رائع، وليس هناك شيء آخر ليقال، وهذا ما يبحث عنه الرجال الآن.

كان "فينسينزيو" قلقاً ومتوترًا:

- لا يمكنهما أن تتزوجا أي شخص وهما تحملان اسمي.
- وها أنت اكتشفت أن المال والاسم غير كافيين، حتى الآن! هذا ليس شكًا، ولكنه تصريح.
غرق "فينسينزيو" في صمت تام، لأن زوجته كانت على حق. عاد إلى مكتبه وجلس خلفه، ودفن وجهه بين قبضتيه.

كان الأمر مجرد شكوك في البداية، حملها بداخله لعدة أشهر منذ اللحظة التي قرر فيها أن يعلن أن له ابنتين، وأنهما في سن الزواج، ولكن شكوكه أصبحت يقينًا، و"جابريلي شيارامونت بوردونارو" هو من ألقى هذه الشكوك في وجهه كالفذيفة المدوية، بوضوحه وموضوعيته وصراعته المعروفة عنه. فقد قال "بوردونارو":

- أنت تعلم يا "فينسينزيو" أنني رجل صريح وواضح، ولا أجيد التلاعب في الحديث خاصة في المواقف الجادة، ولكي أكون صريحًا معك؛ أنا لا أرغب في أن أزوج أيًا من أقاربي بأي من بناتك، وهذا ليس لأنهما ليستا فتاتين لطيفتين، أو لأنني لا أحترمك؛ إن كان هذا هو الحال، فما كنت لأعمل معك من الأساس، لكن على النقيض من ذلك، فإن ثروتك تجعل منك حتمًا ممتازًا ومرغوبًا في مصاهرته، ولكنني أعلم أنني لست بحاجة لأن أخبرك أن العمل شيء والعائلة شيء آخر، وأن ابنتيك قد ولدتا في... حسنًا، في ظروف معينة.

ألجمت العبارات القاسية التي أطلقها "بوردونارو" "فينسينزيو"، وجعلته غير قادر على النطق. لم يمتلكه هذا الشعور بالعار منذ سنوات. وقف في مكانه؛ ربما كي يفكر وهو يسير في الغرفة جيئة وذهابًا، ويوجه الحوار لزوجته. كان بحاجة لأن يزور شبابه، كي يشعر بوخز الإهانة لكل كبريائه مرة أخرى.

- هذا صحيح؛ غير كافٍ.

كان صوت "فينسينزيو" منخفضًا ومملوءًا بالمرارة:

- ما زالت ابنتانا غير كافيتين، وما زال كل ما حققته، و"كازا فلوريو" ... ما زالوا جميعًا غير كافيين؛ نحن ما زلنا غير كافيين.

وإذ به يسير في شوارع "باليرمو"، حيث تغمره شمس أكتوبر، ولم يلحظ أن "جيوليا" كانت غارقة في دموعها. قالت:

- أنت تريد أن تناسب عائلات أرستقراطية من أجل مصلحتك، وليس لمصلحتهما، لتثبت لنفسك أن الرؤوس قد تساوت؛ هم بأصالة نسبهم وأنت بأموالك.

كانت تتحدث بلطف، وتخشى أن يفلت منها نشيجها ليعيد آلامها القديمة إلى السطح.

- هذا ما لم تكن قادرًا أن تفعله لنفسك، أليس كذلك؟

رأت زوجها يتردد، ويتراجع خطوة للخلف، وقد خانته أصابعه وتجدت في كف يده.

تذكرت "جيوليا" كل ما حدث وقد امتلأ حلقها بالمرارة، وكيف تحملت رؤية الأصابع وهي تشير لكل من "أنجلينا" و"جيوسبينا" على أنهما غير شرعيتين، وأنه لم يعترف بهما سوى بعد ميلاد أخيه "إنجازيو"، الوريث الشرعي لـ "كازا فلوريو"، وكيف تم تعميدهما بعد ولادتهما في السر ومن دون احتفال، أو حتى نخب داخل المنزل، وذلك في ظل غياب أبيهم وبحضور أمهما فقط وأخيها والخادمة، ودون حضور أي من أفراد العائلتين.

قالت "جيوليا":

- في هذه الأمور، لا يهتم على الإطلاق ما تملكه الفتاتان من مهر يثير حقد ورثة العائلات النبيلة، ولا يهتم أنهما تتحدثان اللغة الفرنسية بطلاقة، ولا أنهما ترتديان المجوهرات الثمينة، أو أن أغطية رأسيهما ووجهيهما التي ترتديانها وهما ذاهبتان إلى الكنيسة يوم الأحد مصنوعة من أرقى أنواع الدانتيل، ورغم كل ذلك، سنظان في عيون الناس في النهاية ابنتي زنا، مهما كبر مهرهما وزادت ثروتها، فقد حكمت عليهما بذلك.

أما هي، فما زالت في عيون الناس وذاكرتهم مجرد محظية، على الرغم من أن "فينيسينزيو" تزوجها بعد مولد "إجنازيو".

لا شك في أن بعض الذكريات تترك وراءها مرارة وأثراً لا يمكن أن يُحى بشكل كامل، وهذه الذكريات الأليمة دائماً ما تتجح في أن تتخذ طريقها لتطفو من جديد على السطح، لتتسبب في الشعور بالألم، فهناك أنواع من الألم لا يمكن أن تنتهي، وجروح لا يمكن أن تتدمل. ولكن "فينيسينزيو" غير قادر على استيعاب ذلك، وغير قادر على تقبل فكرة أن هناك من يمكن أن ينكره ويرفض نسبه. خيم الغضب على أفقه ليمنعه من الشعور بالألم ومرارة "جيوليا".

- حاول أن تفهم، فلترجع بالذاكرة للوراء بعض الشيء.

توقف، وبدأ يطلب منها العون والمساعدة؛ نوعاً من المساعدة لا تريد أن تقدمه له، ليس بعد الآن: - اعتدت أن تفعل كل ما تريد دون أن يمنعك أحد أو شيء، وتدمر في سبيل ذلك كل شيء يقف في طريقك، وأنت لم تعند يوماً أن تضع أي شخص في اعتبارك وأنت تسعى وراء هدفك. لسنوات طوال، عشت مع أولادنا دون حقوق، وفي خوف دائم من أنك في أية لحظة قد تلقي بي على قارعة الطريق، حتى تتمكن من الزواج بفتاة أخرى من أصول نبيلة تختارها لك والدتك.

شعرت "جيوليا" بمرارة شديدة وبأن صوتها مبجوح ولكنها استجمعت قواها، فهناك شيء بعد كل هذه السنوات يجب أن يقال، شيء حملته بداخلها لسنوات وحان وقت إخراجه:

- لطالما كانت لديك حياتك التي عشتها بالطريقة التي تريدها، ولك طريق رسمته لنفسك ومشيت فيه.

لوحت بيدها في الهواء، وبدأ صوتها يرتعش:

- لا، الآن عليك أن تنصت إليّ! لن أحتمل أن تمر "أنجلينا" و"جيوسبينا" ابنتانا بما مررت به أنا من ألم، ولا أريدهما أن يشعرا بالقدر نفسه من الإهانة التي شعرت بها، ولا أن تتزوجا بأشخاص يحقرونهما حتى تتمكن أنت من حماية مصالحك ومصالح "كازا فلوريو".

تراجع "فينيسينزيو" في كرسيه:

- لكنني في النهاية تزوجتك يا "جيوليا".

ونظر إليها من أسفل لأعلى، وكأنه يطلب منها هدنة.

- لقد قررت أن تتزوجني من أجل ولدك، لأنك كنت بحاجة لأن تمنحه الشرعية كي يرث إمبراطورية "كازا فلوريو". لو كنت أنجبت لك فتاة أخرى، لكنت ربما ما زلت موجودة في "فيا ديلا زيكاريجيا"، وربما تزوجت من فتاة تصغرنى بعشر سنوات، والتي ربما كانت لتتجح في أن تأتي لك بوريت شرعي لـ "كازا فلوريو".

حملت هذه الكلمات القليلة الخوف الرهيب الذي كانت تشعر به "جيوليا" دوماً من أنها ليست كافية بالنسبة له، وبأنها أعمق شعور بالندم شعر به في حياته، وبأنها صورة من صور الفشل في حياته.

وقف "فينيسينزيو" ووضع يده على كتفيها:

- لا ونعم.

وضع ذراعيه حولها وهمس في أذنها:

- لأنه لو كنت قد وجدتها، ما كنت لأسمح لها أبدًا أن تتحدث معي بهذه الطريقة. واحتضنها بقوة.

شعرت "جيوليا" بالدهشة وربما بالخوف. تخشبت في مكانها ولكن بعد لحظة مالت على صدره، وبدأت أصابعها تبحث عن نبضات قلبه تحت صدريته، ولكنها رغم ذلك بقيت تشعر بالضجر والعصبية.

قال "فينسينزيو":

- أنا أعمل على تحقيق كل الخير لعائلتي.

نظرت للأعلى وقالت:

- أنت تبحث عن الأفضل لصالح "كازا فلوريو" يا "فينسينزيو".

لم ترغب في أن تخفي غضبها:

- وأرى أن من الأفضل بالنسبة لك أن تبحث عن زوجة من أصول نبيلة لابنك "إجنازيو" ينتمي أبوها لطبقة النبلاء، لكي يضيفي الواجهة على اسم عائلة "فلوريو"، ولكن الفتاتين قد وُلدتا خارج إطار النكاح الشرعي رغمًا أنهما ابنتاك، ولن يقبل أي أرستقراطي بالطبع مهما كان مهرهما أن يتزوج بأي منهما.

كانت "جيوليا" تضرب بقسوة، وتتعمد أن تذكر زوجها بأنه مهما حصد من أموال وكس من ثروات، فسيظل في عيون الناس وذاكرتهم "عاملاً"؛ مجرد عامل متجر، وحفيد أحد القرويين في "بانيار". أخذت بيده اليسرى، وأشارت إلى خاتم عمه "إجنازيو" الذي ما زال يرتديه في إصبعه وقالت:

- إن "أنجلينا" على حق في كل ما قالته، فهما لا تدعوان إلى الحفلات الاجتماعية مع الفتيات من عمرهما نفسه، كما أنهما تجلسان بعيدًا في الحفلات الراقصة. لا شك في أن الفتاتين قد رُبيتا تربية جيدة لا تقل عن الفتيات الأرستقراطيات من ذوات الأصول النبيلة، ولكن هذا غير كافٍ.

- لكنهما سترثان مهرًا كبيرًا.

أجابها بعند، وقد سحب يده بعيدًا:

- وستكون أموالهما هي نسبهما وأصلهما الشريف، اللذان سيغريان النبلاء على التخلي عن معتقداتهم البالية ويتزوجوا بهما.

قالت "جيوليا":

- لا، إن أردت حقًا أن تحقق مستقبلًا مزدهرًا لـ "كازا فلوريو"، فلتفكر في "إجنازيو"، ولتحاول أن تبحث له عن فتاة من أصول نبيلة ليتزوجها، فهو الشخص الذي يجب أن يُحسن له الاختيار، وأن تجد له زوجة تليق به، و عليك أن تركز عليه ولتتسّر أمر الفتاتين.

فكر "فينسينزيو" في كلامها مليًا أثناء بقاءه في مكتبه؛ إن "جيوليا" على حق. تأمل مكتبته، والأغلفة المصنوعة من الجلد، والأشرطة الذهبية، والأرفف، والأبواب الزجاجية؛ كل شيء يتعلق بحياته، كل الكتب الإنجليزية التي قرأها والأعمال العلمية، والمجلدات التي تتحدث عن الهندسة الميكانيكية. فبالنسبة له، الإنتاج يعني البناء.

قال "فينسينزيو" وهو يسأل نفسه:

- هل كان كل ما قمتَ به في حياتي هباء من أجل لا شيء؟ هل كان كل شيء بلا مغزى؟ ألم يكن كل هذا العمل وكل هذا الكفاح كافيًا؟ هل كان خلق إمبراطورية مالية من لا شيء تقريبًا، ونجاحي في القيام بما لم يقم به شخص في صقلية.. كل هذا ليس له أي قيمة أو اعتبار؟ أجابته:

- لا، ليس كافيًا ليقنع الناس ويجعلهم يرونك بعيون أخرى.
- إنهم يريدون درعًا يوضع أمام بوابة المنزل، ودماء نبيلة تجري في عقولهم، واحترامًا.
نطق بتلك الكلمات الأخيرة وضحك لنفسه ضحكة قاسية، انتهت بزمجرة؛ لقد اعتقد أنه نسي الطعم المر للإهانة منذ وقت طويل.

اتخذ غضبه شكل موجة عاتية، لكنه كظم صراخه بداخله، وبدلاً من الصراخ، أطاح بالأوراق والملفات ودفاتر الحسابات، حتى دواة الحبر الموجودة على المكتب، وتلقى سطح المكتب المصنوع من الجوز ضربة قوية من قبضته الغاضبة، فانسكب الحبر وتناثر في كل مكان، وتحديداً على النسخة الأخيرة من خطابه الموجه للأمير "فيلانجيرى" أمير "ساتريانو"، وبقي اسم واحد مقروء وواضح؛ هو اسم "بياترو روسي". أضاف هذا الأمر المزيد من الغضب لغضبه الكامن، وشعر "فينسينزيو" وكأن هناك من يسخر منه في وجهه.

- هذا الحثالة، المصنوع من الطين والقذارة!
صاح "فينسينزيو" وكرمش الورقة في يده، فلطخ الحبر يديه وأصابعه الذي تساقط كالدّم الأسود من يديه، وهو يحاول أن يهدئ من غضبه قليلاً.

هذا الـ"بياترو روسي" رئيس "بانكو ريجيو"، الذي دأب على تعذيبه بطلبات ليس لها معنى، وحاول أن يصمه بالعار بكل الطرق، ويدفعه نحو الاستقالة، والذي قرر ألا يدفع له نظير عمله كمدير تجاري بالبنك، وهو الأمر الذي حاول مراراً وتكراراً أن يتجاهله، ولكن صبره قد نفذ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد مرور أيام قليلة، ذهب "فينسينزيو" إلى "بانكو ريجيو"؛ لقد أتى دوره كي يجمع أموال الضرائب من أصحاب البواخر الكبيرة، وتسجيلها في الدفاتر وصرفها، ودفع كل المستحقات والضرائب المقررة عليه.

مرت ساعة، ثم أخرى، ولم يأت أحد.
قبل موعد الغداء بقليل، استسلم "فينسينزيو" لعدم الاستقرار والتوتر، وأمسك بمعطفه وقبعته وقرر التوجه نحو السلم كي يرحل، وهناك التقى "بياترو روسي" الذي سأله دون أن يلقي عليه التحية:
- إلى أين أنت ذاهب؟

- إلى "فيا دي ماتيريسي"؛ لقد أمضيت هنا ثلاث ساعات كاملة، وليس لدي نية لإضاعة المزيد من الوقت هنا.

وقف "روسي"؛ ذلك الرجل النحيل الطويل ذو الشارب المتخشب:
- عفواً؛ إنه عمالك وواجبك، وستبقى هنا حتى الثالثة.

- لقد أهدرت بالفعل النهار كله تحت رحمة هوسك يا سيد "روسي" ولم يأت شخص واحد، والأهم من ذلك أنك مدين لي بشهادات خدمة يعود تاريخها لشهر مارس من العام الماضي، ولا يمكن أن يتم تسديد الأموال لي من دونها.

فتح "روسي" عينيه الواسعتين وضحك في وجهه:

- هل تريد أن يتم دفع راتب لك؟ مقابل ماذا بالضبط؟
تحدث "روسي" في اللحظة نفسها التي كان يقوم فيها أحد الموظفين بالنزول على السلالم، والذي قد أبطأ الخطى حتى يسمع كل كلمة يقول لأنها ليحولها لنميمة. نظر إليه "فينسينزيو" نظرة حقيرة ما دفع الرجل للابتعاد عنه مسرعاً.

- كمدير تجاري للبنك الملكي، يحق لي الحصول على راتب يقدر بستة أونشي في الشهر، مقابل الحصول على خدماتي وفي مقابل معاونتي في عمليات التسجيل.
قالها بنبرة ساخرة كما لو كان يشرح شيئاً ما لشخص ساذج.

- ولن أحصل عليها إلا إذا تكرمت ووقعت على هذه المستندات، هل كلامي واضح بالنسبة لك، أم تحب أن أرسمه لك؟

بعد أن كان "روسي" متأخراً عنه بسلمتين، صعد الدرج كي يصبح في مواجهته مباشرة وقال:
- انس الأمر.

نزلت الكلمات على "فينسينزيو" كالطمة قوية أفقدته القدرة على النطق. همس "روسي" في أذنيه:
- أنت ببساطة ليس لديك أدنى فكرة عن معنى أن تكون المدير التجاري للبنك الملكي، قد تكون أغنى رجل على وجه الأرض، ولكنك لا تعرف كيف تعمل لدى الحكومة أو في إحدى مؤسساتها، فكل ما تهتم به هو الأعمال التجارية، والحكومة بالنسبة لك تكون مفيدة طالما لا تصطدم بمصالحك التجارية.
أنا لا ألوكم في الحقيقة، ولكن لا تصر على القيام بشيء أنت لست أهلاً له.
وأشار بإصبعه له:

- دعني أقول لك شيئاً، إن العالم لا يدور في فلك "فيا دي ماتيريسي"، أو سفنك البخارية الضخمة، أو قروضك.

دفع "فينسينزيو" بإصبعه بعيداً عن وجهه:

- أفعّل ذلك لأنني أعرف كيف أفعّل ذلك، ومن أنت بحق الجحيم حتى تخبرني بما يجب عليّ القيام به؟ أنظن أنني لا ألاحظ كل شيء؟ وكيف أنك تتعمد أن تعطيني نوبات العمل في الوقت الذي تصل فيه سفني البخارية إلى الميناء، فأكون مضطراً لأن أكون حينها في مكنتي أتابع الأمور، وأنتك تدعو لاجتماعات عندما أكون موجوداً في "مارسالو"؟

- لطالما استخدمت هذا العذر القبيح لسنوات، ولكن كلانا يعرف الحقيقة.

قالها "روسي" وهو ينزل سلمة أخرى ووقف جانباً، وكأنه على وشك الرحيل.

- لديك من يعتني بك لأنك تمتلك المال، ولكن الأمر بالنسبة لي مختلف، فأنا أقوم بهذا العمل لأنه مصدر فخري وعزتي؛ أشياء لا يفهمها أمثالك.

- أنا أقوم بعمل، وعليك أن تدفع لي نظير ذلك العمل.

نظر إليه "روسي" بهدوء:

- لا، لن أفعّل.

تركه وذهب.

وبقي "فينسينزيو" صامتاً في مكانه لأول مرة في حياته منذ سنوات.

بدأ في كتابة الخطاب الذي كرمشه بيديه لاحقاً، ولكنه لم يجد العبارات المناسبة لينهيها، إما لأن عباراته كانت تأتي أطول من اللازم أو أقصر من اللازم. كان قد ذكر فيه استيائه وامتعاضه، وطالب بالاعتراف بوضعه وكيانه كمدير تجاري للبنك، كما ذكر أنه ليس هناك سوى كلمة واحدة صحيحة

تتطبق على هذا الموقف البائس؛ الكره، نعم، الكره، الكره الموجه من جانب هؤلاء الذين ما زالوا ينظرون إليه كشخص تافه وحقير وفض. يبدو أن "فينسينزيو" أصبح يستمتع بكونه شخصًا غير مقبول، وبهذا يؤكد على تحاملهم، ولكنهم مهما حدث فلن يتغيروا، مهما حاول معهم. ولكن كيف يمكنه أن يصف لشخص غريب عنه وليس من طبقتة شعوره بالغضب والانزعاج اليوم؟ ولماذا عاد إليه وبقوة بعد كل ما وصل إليه من شعور بعدم الراحة؟ وكيف يفسر له وجود كتلة الظلام تلك داخل قلبه، والتي تدفعه الآن ودائمًا إلى أن يكس ويُنمّي ويكتشف مشروعات جديدة؟ لأنه ببساطة قد ولد ثريًا، وبالتالي لن يتمكن أبدًا من فهمه.

على الرغم من حبه الشديد لـ "باليرمو"، وشعوره في بعض الأحيان أنها تعتبره ابنها، لكن هذا لا ينفى حقيقة أن "باليرمو" ما زالت تعامله كغريب. حاول مرارًا وتكرارًا أن يكون مقبولًا اجتماعيًا، وعلى الرغم من أنه كسب وغاص في الثروة تارةً وفي المال تارةً أخرى، وأوجد العديد من الوظائف لأبنائها، وأتى لها بالرفاهية والرخاء والراحة، لكنها لم تسامحه، ربما بسبب حجم العمل والنجاح الذي حققه، وبما أصبح يتمتع به من القوة والسطوة على الرغم من أنه غريب، وبينما كانت عيناه مفتحتين على العالم، حرصت "باليرمو" بشدة أن تبقىها مغلقتين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هكذا وجده "إجنازيو"، شاردًا وقبضة يده مطبقة تحت فمه، ووجهه مسحوب لأسفل، ونظراته حادة. طرق الفتى الباب بحذر، وبقي أمام الباب منتظرًا الإذن بالدخول. قال "إجنازيو":
- هلا سمحت لي بالدخول؟

هز والده رأسه، ودخل الشاب الصغير بتردد، ونظر إلى الحبر الذي لطح الأرضية، والأوراق المتناثرة في كل مكان في الغرفة. انحنى الفتى كي يلملمها، لكن والده أشار له سريعًا بأن يتركها دون حتى أن يرفع نظره لأعلى.
- فلتتركها للخادما ليلتقطنها فيما بعد.

قام "إجنازيو" بترتيب ما التقطه من أوراق ووضعها على المكتب، وذهب ناحية الكرسي الموجود أمام المكتب وجلس، ونظر إلى أبيه بصمت لوقت طويل.
نطق "إجنازيو" أخيرًا:

- إن أمي تريد أن تعرف هل ستأتي لتناول الطعام معنا أم لا.
هز "فينسينزيو" كتفه، وفجأة حدق في "إجنازيو" وكأنه لاحظ وجوده الآن فقط، وتذكر كلمات "جيوليا". قال:

- إنهم لا يسيئون إليك رغم أنك ابني، ولا يتحدثون بسوء عنك أبدًا.
فقد صوته نبرة الغضب التي اعتلته منذ فترة وأصبح أكثر هدوءًا، وتقريبًا عاد كشخص لطيف ومهذب.

استمع "إجنازيو" إلى التجذيف والذم. يعلم سبب غضب أمه، ولقد لاحظ منذ وقت طويل أن أقرانه يعاملونه بمنتهى الاحترام والإجلال، اللذين لا يقدمانها لأختيه، وعلى وجه الخصوص "جيوسبينا". قال "إجنازيو":

- أنا صبي يا والدي.

قالها بحرص:

- لا أحد يجرو على ذلك.

هناك وجه من وجوه الحقيقة في كلامه، الحقيقة الوحيدة الباقية تقريباً، أنه وريث "كازا فلوريو". ارتفعت جوانب فم "فينسينزيو" بجرأة وأطلقت ابتسامة حاقدة. وقف "فينسينزيو"، ثم جلس على الكرسي المقابل له:

- ذات مرة، عندما كنت صغيراً، وجدتك جالساً تنظر إلى الأطلس الجغرافي، الذي كان في ذلك الوقت أكبر من حجمك، كنت تقرأ عن الموانئ والمراكب التي ترسو بها. أوماً "إجنازيو" بإشارة تؤكد أنه يندكر أن ذلك الأمر وقع بعد حادثة "الأرنيللا" بقليل، عندما أوشك على الغرق هناك. أردف "فينسينزيو":

- منذ تلك اللحظة، أخذت على عاتقي ألا أعلمك اللغة اللاتينية ومعلومات من التي يقدمها القساوسة، بل أن أعلمك اللغتين الإنجليزية والفرنسية والإتيكيت. لقد حرصت على تعليمك كأبناء النبلاء لا كابن تاجر.

ابتسم "إجنازيو"، وتذكر دروس ركوب الخيل والإتيكيت مع شقيقته، وخاصة دروس الرقص مع مدرس الموسيقى، وكيف كان يراقص أمه ويجعلها تدور في الهواء وتضحك بسعادة. لم يسبق لـ "جيوليا" أن تعلمت الرقص بشكل صحيح، ولكن والده انتزعه فجأة من أحلام اليقظة التي استغرق فيها بضغطة على كتفه. قال "فينسينزيو":

- أندري يا عزيزي "إجنازيو" أنني لم يتسن لي أن أحظى بما حظيت أنت به، ولا أيّاً منه، لكنني بطبيعة الحال، تلقيت تعليمي العادي، وكان عمي "إجنازيو" يصر أن يغدق عليّ بالكتب، وأن أقرأها كلها تماماً كما كانت تخبرك جدتك وما زالت، ولكنني على سبيل المثال لم أتعلم الرقص أو ركوب الخيل، ولم أفعل، لأنني لم أحتج إليهما في عملي بمتجر العطارة "الأروماتوريا".

نظر إلى يديه الملطختين بالحبر، ووضع كوعه فوق ركبته، على الرغم من بلوغه الخامسة والخمسين من عمره، فإنه ما زال يحتفظ بذراعين قويتين ويدين قويتين، حتى ولو بدت عليهما مظاهر الكدح والعمل، لكن كل هذا ليس كافياً. فكر مرة أخرى: "أن تعمل حتى تسقط من شدة الإعياء على الأرض، وتلعن نفسك، لم يكن أيّ منها كافياً لأنال قبول ورضا من في أيديهم السلطة في "باليرمو"؛ أقصد هنا القوة السياسية، التي يجب أن يحسب لها ألف حساب".

- لكن أنت لديك فرصة حقيقية في أن تصل إلى ما لم أتمكن من الوصول إليه. قالها بهدوء، لدرجة أن "إجنازيو" تشكك في أنه قد سمعها من الأساس. ومال عليه حتى كادت رأساهما تلتقيان.

- فلو أن ركوبك الخيل وتعلمك الرقص سوف يمكنك من السفر ورؤية العالم من حولك، فليكن، لأن صقلية لن تكون كافية بالنسبة لك؛ هذا ما يفعله الأرستقراطيون، هؤلاء أصحاب الرداء العسكري الذي يزينون به بوابات منازلهم، وهذا ما أنت بحاجة للوصول إليه، هل تفهمني؟ سيفتحون أبوابهم، لأنك تستطيع أن تشتري الكثير من الأشياء منهم، بكامل هيئتهم وصورهم، فأنت من تملك القوة لأنك من تملك المال، أنت لست مثلي، لأنني بدأت من حيث انتهى عمي وكان لزاماً عليّ أن أكمل ما بدأه، وما زالت الفرصة سانحة أمامك لتجعل "باليرمو" كلها تقر بأن آل "فلوريو" ليسوا أقل شأنًا من أي شخص.

شعر "إجنازيو" بالحيرة:

- ولكن "أنجلينا" و "جيوسينا" هما الأخريان لديهما...

أشار "فينسينزيو" بسرعة وقال:

- فلتنسى أمرهما، فهما في النهاية امرأتان.

وقف "فينسينزيو"، ما دفع ولده للقيام بالشيء نفسه.

- هل تعلم ما الذي اعتادوا أن يقولوه عني؟ عامل، أنا عامل.

ضحك "فينسينزيو" ضحكاً أشبه بالبكاء ممزوجاً بالمرارة والحزن والحقد والضعينة، في تلك اللحظة، شعر "إجنازيو" بحجم الألم وعمق الجرح، الذي ما زال - رغم كل تلك السنوات - ينزف بشدة بداخله، وهو ما دفع والده إلى التصرف كنمر جريح؛ إنه أمر كسر خاطره.

قال "فينسينزيو":

- أوكد لك، كل الذين بادروني بالازدراء والاحتقار، أتوا إليّ فرداً تلو الآخر راكعين وأذلاء.

وأخذ برأس ابنه بين يديه وهدق في عينيه:

- عليك أن تنتزع منهم كل ما سلبوني إياه، عليهم أن يعطوه لك وهم صاغرون، وإن لم يفعلوا فعليك أن تنتزع منهم بالقوة، والقوة هي كيس النقود الذي تلوح به أمامهم ليركعوا على الفور تحت قدميك، و عليك أن تثبت ذلك لكل من اعتقد كذباً وبهتاناً أنه أفضل منك، على الناس أن يظهروا علامات التبجيل عندما يرونك، هل تعي ما أقوله لك؟

شعر "إجنازيو" بالارتباك والحيرة، فهو ما زال شاباً يافعاً في الخامسة عشرة من عمره، وهذه الكلمات الثقال جعلته يشعر بالقلق والارتباك، فلم يسبق لأبيه أن تحدث معه بهذه الطريقة من قبل، ولم يكن يسمح له بأن ينظر عبر أسوار وجهه العابس والمتجهماً دائماً.

قال "إجنازيو":

- لماذا تخبرني بكل ذلك؟

وكل ما استطاع أن يفعله هو أن يتلعثم بسؤال آخر:

- ولكن، أليس من الأفضل أن يحترمني الناس، بدلاً من أن يركعوا لي لأنهم يخشونني ويطمعون في أموالي؟ فالرجل الخائف لا يمكن أن يكون مخلصاً.

أجاب "فينسينزيو":

- الناس يخلصون رغماً عنهم لمن يملك المال والقوة يا "إجنازيو"، لأنهم يعلمون أنهم قد يقعون في المشاكل إذا لم يفعلوا ذلك، والمال هو أحد طرق القوة. لهذا أخبرك؛ احتفظ بكل كروتك بالقرب من صدرك ولا تكشف أيّاً منها للآخرين، ولا تثق أبداً بأحد ثقةً عمياء ومطلقة، ولتحتفظ بأهل الشورى، وركز على نفسك وعلى إنقاذ نفسك مهما كلف الأمر.

تردد "إجنازيو" في الإجابة، فهو لا يريد أن يخشاه الناس بالطريقة نفسها التي يتصرفون بها مع أبيه، فما من مرة دخل فيها "فينسينزيو فلوريو" إلا وتجد أناساً خائفين منه، والبعض الآخر ينظر إليه بإجلال وتعظيم.

لقد أراد "إجنازيو" أن يحترمه الناس لشخصه، وليس لما يملكه من أموال أو أراضٍ. حاول أن يشرح هذا الأمر لو والده، ولكن كل ما تلقاه في المقابل هو ضحكات عالية ساخرة ممزوجة بالمرارة.

وقف "فينسينزيو" وسار نحو الباب:

- إن حديثك هذا هو نتاج طبيعي للحياة المنعمة التي حظيت بها يا بني، لأنني قمت وحدي بالفعل ببناء كل ما تملك، وأنت لا تدري، وليس لديك أدنى فكرة ماذا كلفني ذلك.

هز رأسه ونظر حوله وقال:

- آه، لو أن هذه الجدران تنطق، لباحت لك بالكثير. هذا يكفي لليوم، هيا بنا نذهب لنتناول الطعام.
لاحظ "إجنازيو" بحزن أن شعر والده أصبح رمادياً. راقبه وهو يسير بعيداً حتى اختفى فيما وراء الباب، ومرر يده على المكتب ليجد تلك العبارات مكتوبة عليه:
"أنت لا تدري، وليس لديك أدنى فكرة ماذا كلفني هذا الأمر."
منذ تلك اللحظة، لم تغادر تلك الكلمات مخيلة "إجنازيو"، كأنها طُبعت في رأسه، وأطبق عليها بأسنانه وتركها لتسقط في غيابات معدته.

لم يكن يدري "إجنازيو" - ولم يخبره أحد - كيف كان والده قبل أن يأتي هو لهذا العالم، كيف كان هذا الرجل قبل أن ترزقه السماء بصبي ظل لغزاً، والذي قرر الأب أن يحتفظ به لنفسه ولا يكشف عنه لأي كائن حي. هناك بالطبع رابطة واضحة لا انفصام لها بين ما فات وما هو آتٍ. و"إجنازيو"، ذلك الشاب اليافع الآن، لم يدرك بعد ما الذي يعنيه أن ترزقك السماء بصبي، وإلى أي مدى غيرت تلك الهبة والده.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- ماذا نحن فاعلون سيادتكم؟

سأل "فينسينزيو"، بعد أن قدم له الخادم فنجاناً من القهوة.

- أنت بالطبع على علم بما يفعله بي "روسي"، وأنت لا تحرك ساكناً في هذا الشأن.
نظر الوزير "فينسينزيو كاسيسي" - ذلك الرجل النحيل ذو الوجه النحيل والشوارب العريضة - بريية وشك لـ"كارلو فيلانجيري"، وكأنه هو المسؤول عن هذا الانفجار، وانخرط في ابتسامة ساخرة قصيرة.

حاول "فينسينزيو" أن يحل نزاعاته مع "روسي"، عن طريق الذهاب لـ"نابلس" مطالباً بتدخل "كافاليري كاسيسي"، الذي كان يعمل وزيراً للشئون الصقلية لعقد كامل من الزمن، وتم تحديد موعد عاجل مع الوزير، بفضل أمير "فيلانجيري" صديق "فينسينزيو" المقرب من البلاط الملكي.
هز الوزير كتفيه:

- وما الذي تفعله أنت يا سيد "فلوريو"؟ هل كنت حريصاً على أداء واجباتك كما ينبغي؟

ضحك "فينسينزيو" ضحكة مريرة محملة بالسخرية:

- أنا؟ وما شأني؟

تدخل "فيلانجيري" بلطف في الحوار وقال:

- هذه هي المشكلة سيادتكم.

قاطعته "فينسينزيو":

- لم أقم وحسب بكافة مهامتي وواجباتي الحكومية، رغم أنني لست شخصاً كسولاً محاطاً بمجموعة من النواب والوكلاء المهتمين بكل الأشياء؛ أنت تفهمني، أليس كذلك؟
مال "فينسينزيو" إلى الأمام، وكان على وشك لمس ذراع الوزير، لكن الوزير "كاسيسي" جذب ذراعه بعيداً عنه باضطراب قبل أن يلمسه.

- أنت تعلم يا سيدي أنني أدفع ضرائب أكثر من أي شخص آخر في المدينة، وأنا أضمن الرفاهية والثراء للمدينة بأسرها بسبب ما أستورده من بضائع، وما أزود الجيش به من الأدوية والمعدات

الطبية والكبريت اللازم لعمل البارود، وأنت تضعني على المحك هكذا. لقد قمت حتى باسترداد كل الفضة التي كافأنتي بها حكومة المتمردين على سبيل السداد في عام 1848. توقف "فينسينزيو" لبعض الوقت وأخذ نفساً عميقاً. صمت وتناول رشفة من قهوته، فنظر الرجلان أحدهما للآخر بتعجب، ولم ينطق أيُّ منهما. أنهى "فينسينزيو" كلامه:

- إن الدولة والحكومة تدينان لي بالكثير، وأنتما الاثنان على وجه التحديد تدينان لي بالكثير والكثير. وقف الوزير بحركة خاطفة في مكانه، محاولاً إبعاد نفسه عن هذا الرجل الصفيق:
- هذا كثير يا سيد "فلوريو"! أنت فقط لم تدعم المتمردين ضد الملك، ولكنك تتجرأ وتطلب السداد بهذه النبذة! كان "روسي" على حق عندما طالب بعزلك من منصبك.
لم يطرف لـ "فينسينزيو" جفن، ولم يكثرث لكلام الوزير:
- ربما لأنني أمتلك الجرأة والقدرة على القيام بذلك.
ارتخى "فينسينزيو" في كرسيه أكثر، وتشابكت أصابعه على صدره:

- ماذا سيكون مصير حكم "البوربون" دون "كازا فلوريو"؟ فكر فقط في أسطولي، والخدمات التي أقدمها للعرش والتاج، وكل السنين التي عملت فيها كوسيط ما بين الموظفين والبنوك الكبيرة، لأن الملك كان في موقف مالي صعب وكنتم بحاجة ماسة إلى قرض كبير. والآن أخبرني: ماذا فعل "روسي" لكم مقابل ذلك؟

تراجع الوزير "كاسيسي" خطوة أخرى للخلف. لم يستطع "فيلانجيرى" أن يخفي حزنه وبؤسه هذه المرة لما نطق به "فينسينزيو". عاد الوزير "كاسيسي" ليجلس على كرسيه وراء مكتبه، ويحتم دون أن ينطق بكلمة. استخدم "فينسينزيو" هذا الصمت، كي يخفف من وطأة كلماته على الرجال، ويدفعهما إلى حيث يرغب. فقال "كاسيسي":
- وعليه؟

- أريد أن أطلب من سيادتك ثلاثة أشياء.

رفع "فينسينزيو" إصبعه:

- اطلب الأول، أريد من "روسي" أن يتركني وشأني، ليس لأنني بحاجة إلى الراتب المخصص لي باعتباري المدير التجاري بالبنك، ولكن لأنني ما أنا عليه، أما هو فليس أكثر من شخص بلا فائدة، وهو لا يمثل شيئاً بالنسبة لي، ولكنني يجب أن أكون موضع احترام وتقدير بالنسبة له. وقد كان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- تهانينا للعروسين الجديدين! تهانينا!

عزفت الأوركسترا الصغيرة الألمان معلنة بدء الحفل الراقص، وقد صاحبتهما تهليلات الحضور العالية.

مشى الزوجان الشابان جنباً إلى جنب؛ العريس هو "لودجي دي باتشي"، ابن أحد ملاك السفن الأثرياء في "باليرمو" وأحد شركاء آل "فلوريو"، وقد حيا الحضور، وتقبل التعليقات السخيفة من بعض الضيوف بود وتبادلها معهم. أما العروس فهي "أنجلينا فلوريو"؛ الابنة الكبرى لرجل الأعمال الأشهر "فينسينزيو فلوريو"، والتي بدت صغيرة وخجولة، وتعبيرات وجهها هادئة. كانت ترتدي فستاناً جميلاً مصنوعاً من الستان، وغطاء رأس مصنوعاً من الدانتيل، أحضره والدها خصيصاً من

“فالنسيا”، بعد أن تم تصنيعه يدويًا على يد الفالانسيين، وأختها “جيوسبينا” تقف إلى جوارها تعدل من طرحتها وتحتضنها.

كانت “جيوليا” تنظر لابنتها الكبرى وهي في قمة سعادتها وفخورة بها، ولكنها نوعًا ما كانت حزينة. لقد حظيت “أنجلينا” ابنتها بما لم تحظ به هي؛ وهو حفل زفاف حقيقي، احتفال جميل، مهر، ولكنها تخلت عن كل ذلك من أجل “فينسينزيو”، وحتى بعدما تزوجا، لم يسجل أي شيء من ممتلكاته باسمها، ولو حتى دبوًا صغيرًا، ولكن ما يهم الآن هو أن ابنتها سعيدة. قالت “جيوليا”:

- إن “أنجلينا” سعيدة، وترتدي غطاء رأس يليق بملكة.

كانت “جيوليا” حزينة وسعيدة في الوقت ذاته، لأن فرح ابنتها الكبرى قد ذكرها بحقوقها المسلوبة، لأنها اختارت أن تحب “فينسينزيو” وترتبط به، فنالها ما نالها من العار، وتنازلت عن كل حقوقها، وحتى مراسم الزفاف لم تحظ بها.

لم يكن من السهل إقناع “فينسينزيو” بهذا الزفاف وهذه المصاهرة. لقد كانت والدته “لوجي” هي من طلبت أن تلقىها لتناول الشاي والحديث معها، وبعد تناول الشاي والثرثرة لبعض الوقت، قالت السيدة النحيلة ذات الحواجب الكثيرة والأيدي القصيرة والبدنية:

- هل لي أن أطلب منك بشكل مباشر يا سيدة “جيوليا” شيئًا ما؟

- بكل تأكيد.

- لقد سمع زوجي أن السيد “فينسينزيو” يرغب في تزويج بنتيه، هل هذا صحيح؟

زاد شعور “جيوليا” بالقلق:

- هذا صحيح.

ضمت المرأة الأخرى يدها فوق معدتها، وتفحصتها بتجهم وعبوس:

- إن ولدنا “لوجي” شاب طيب وجاد ومهذب ومجتهد، وسوف يعتني بابنتكما الكبرى “أنجلينا” أيما عناية، وسيعاملها كما لو كانت بارونة. هل من الممكن أن تخبري السيد “فلوريو” برغبتنا في مصاهرته؟

ناقشت “جيوليا” الأمر لوقت طويل ولكن ليس طويلاً جداً مع “فينسينزيو”.

قد يكون عنيدًا بعض الشيء ولكنه عملي، فعائلة “دي باتشي” عائلة ثرية، ويمتلكون العديد من السفن، وشبكة واسعة من التجارة والأعمال، إنهم ليسوا بالطبع في ثراء آل “فلوريو” نفسه، ولكنهم يمتلكون روح العمل والابتكار التي يقدرها “فينسينزيو” فوق كل شيء آخر، وبالتالي، وبعد مرور القليل من الوقت والكثير من الإقناع، وقع الاتفاق على مهر محدد وتحديد موعد للزفاف.

أشارت “جيوليا” لنفسها؛ إن “أنجلينا” قد وجدت أخيرًا الرجل المناسب الذي سيعتني بها ويسعدها، صحيح أن “لوجي” قد تعدى الثلاثين من عمره، ولكنه يبدو شخصًا طيبًا وعطوفًا وصبورًا، وقدم لها مجموعة من المجوهرات المصنوعة من الذهب والألماس كهدية رائعة للزفاف.

هناك غيمة واحدة فقط تحلق حول هذا الزفاف؛ كما نما لعلم “جيوليا”. قبل الزفاف بعدة أيام، كانت “أنجلينا” تجري التجربة النهائية على فستان الزفاف، وبعد أن انتهت، خلعت بمساعدة الخادمة بعدما قامت بتجربته للمرة الأخيرة. كانت “جيوليا” تراقبها في المرأة، وتتابع حركاتها بحب، محاولة أن تحتفظ بها للأبد في ذاكرتها، لأن هذه هي آخر أيام ابنتها الأعز في البيت. رأت الفتاة نظرات قلق في عيون أمها وهي تلمع بالدموع:

- ما الأمر يا أمي؟

لوحث "جيوليا" بيدها كما لو كانت تحاول أن تصرف عن ابنتها شعورًا ما بالقلق:

- لا شيء يا حبيبتي. أنت جميلة، لقد صرتِ امرأة ناضجة و...

وابتلعت لعابها، وقالت:

- كنت أفكر في كيف كنت أراقبك، وأنت تكبرين أمامي يومًا بعد يوم، وكيف كنت صغيرة جدًا عندما وُلدتِ، وكيف كنت متعلقة بطرف تنورتي طوال الوقت أينما ذهبت، والآن، أنت على وشك الزواج والانتقال لبيت آخر جديد بعيدًا عني.

أمسكت "أنجلينا" بثوبها وارتدتته على الفور، وكأنها محرجة:

- أذكر ذلك الوقت جيدًا، لقد كنت دائمًا متعلقة بذيل ثوبك لأن أبي لم يكن دائمًا موجودًا، وأينما تواجد، كان يدفعني دومًا بعيدًا عنه؛ لقد كنت بالكاد أعرفه.

كانت الفتاة تتحدث دون أن تنتظر إليها:

- أنا و"جيوسبينا" كنا دومًا لا نعني له شيئًا على الإطلاق.

اندفعت "جيوليا" نحوها كي تحتضنها:

- لا، لا تقولي هذا! أنت تعلمين أن أبائك مزاجه سيئ، وهو عصبي طوال الوقت بسبب ضغوط العمل، ولكنه كان دومًا يحبكما ومستعدًا لأن يضحي بحياته من أجلكما.

وضعت "أنجلينا" يدها فوق ذراعها:

- إن أبي يحب المال يا أمي، وربما أنت يا أمي، ولكن ليس أنا و"جيوسبينا"، فهناك شخص واحد فقط هو العزيز عليه؛ وهو "إجنازيو".

لم تحمل نبرة صوتها الشعور بالندم، ولكن تقبلًا لحقيقة لا يمكن تغييرها:

- وإن أردت الصراحة كاملة...

أضافت بتهيدة:

- أريد أن أتزوج كي أحظى بعائلة وأبناء يحبونني لشخصي، هكذا كما أنا.

هربت البسمة من على وجه "جيوليا" عندما تذكرت هذا الأمر، فهي تعلم أن "أنجلينا" قبلت الزواج من "لوجي" لتترك البيت، لقد تاجرت في الحب من أجل الحصول على حياة أفضل.

والآن.. نظرت إلى العروسين الجديدين؛ كان "لوجي" لطيفًا وأعطى "أنجلينا" كأسًا من "الشمبانيا"، ولم يترك يدها ولو للحظة، كانت تضحك في أمان، ولاحظت "جيوليا" أن العلاقة بينهما سيسودها العطف والحنان، وليس الحب، ولكن الحب سيتولد بينهما بعد الزواج، وسيصبحان رفيقين متحابين وسيتمتعان بحياة رائعة؛ كانت تخبر نفسها وتطمئن نفسها وتأمل في أن تتحقق توقعاتها.

تلفتت حولها بحثًا عن زوجها؛ كان يتمتع بمزاج سيئ طوال الأيام السابقة للزفاف، وقد وجدته منغمسًا في حوار في أحد الأركان مع بعض الضيوف في الساحة؛ بالطبع يتحدثان في الأعمال التجارية، بلا شك.

أشارت إلى مدبرة المنزل أن تدعو الضيوف للدخول إلى داخل الفيلا، لتناول وليمة الزفاف. يجب أن يكون كل شيء على ما يرام دون خطأ كالعادة.

كان "إجنازيو" البالغ من العمر الآن 16 عامًا يراقب أخته وزوج أخته، ويرفع كأسه المملوءة لنصفها بالنبيذ في تحية رقيقة، وردت عليه أخته بابتسامة جميلة وأرسلت له قبلة على أطراف

أصابها. يأمل أن تكون سعيدة، ويرجو لها السعادة من كل قلبه. كانت "أنجلينا" دومًا تشعر بالغيرة منه، فلطالما كانت غاضبة وناقمة وحزينة لوقت طويل، لوقت طويل جدًا.

تمنى لها كل سعادة وحب، وأن يصير زوجها شريكًا جيدًا لهم في "كازا فلوريو"، كما كان والده المحترم، تمنى لها كل تلك الأمنيات الحلوة بعينه.

تناول رشفة أخرى من النبيذ الفرنسي، الذي اشترى السيد "دونيه" صناديق منه؛ رجل أبيه المؤتمن في فرنسا. كانت هناك سلال من زهور السوسن الأبيض والورود الجميلة في كل مكان، وشجيرة "الفرانجيبيني" التي ترمز بالفعل لـ "باليرمو" تزين كل ركن من أركان الصالون، ممتدة زينتها بطول الرواق المؤدي إلى الغرف، ولها رائحة جميلة مميزة وعطرة.

كانت الآنية الفضية تلمع وتشع بالحياة والجمال داخل بوفيه العرس المعد داخل الصالون، وكان الخدم والنُدل متواجدين في كل مكان على استعداد لصب المزيد من النبيذ طوال الوقت؛ لقد أنفق آل "فلوريو" الكثير من الأموال على هذا العرس. قال "فينسينزيو" بينما كانت "جيوليا" مشغولة بإعداد قائمة المدعوين والضيوف:

- أريد أن يتحدث الناس عن هذا العرس وفخامته لشهور. يجب أن يظهر عرس آل "فلوريو" بشكل أسطوري.

ومرة أخرى، شعر "إجنازيو" بالحقد والضغينة في نغمة صوت أبيه المنتصرة.

لم يلاحظ تقريبًا وجود "كارلو جياتشيري" وهو قادم ليلقي عليه التحية:

- مرحبًا بك يا "إجنازيو" لأول مرة في حياة أبيك.

لم يأبه بالتكاليف وتصافحا، فهذا الرجل ذو الصوت الأجش والعينان القويتان الناقدتان، يعد حضوره مادة ثابتة في حياة والده، ويعتبر الشخص الوحيد الذي يمكن أن نطلق عليه صديقًا له، فـ "فينسينزيو" لديه العديد من شركاء العمل ولكن ليس لديه أصدقاء، وهو شيء عرفه "إجنازيو" منذ وقت طويل، فأبوه يحب أن تكون الأمور إما رائعة، وإلا فلا.

سارا عبر الغرف وهما يتحدثان عن الضيوف، وعن مصنع السماق الجديد الذي بناه "فينسينزيو" خلف "التونارا". ضحك "جياتشيري":

- أبوك الوحيد على سطح هذا الكوكب الذي يستطيع أن ينشئ مصنعًا للسماق أو مصنعًا للثونة بجوار "ونارا"، فـ "كازا فلوريو" تأتي بالنسبة له في المقام الأول.

صحيح أن وجود مصنع السماق في هذا المكان يضرب مثالًا واضحًا على التنافر في منطقة الخليج، فلا أحد يريد. تبدأ حدود المصنع من مساكن العاملين في "الأرنيليا"، وينتهي عند المنزل حيث توجد "جيوليا"، والتي تكره السماق بشدة، وكذا الرذاذ المنبعث من المصنع إلى داخل البيت. ولكن وبعناد شديد يصل لحد الغضب، أنشأ والده هذا المصنع، فلطالما كان والده مفعمًا بالغيظ، بل وحتى الآن.

فحص وجهه وملامحه... لا؛ هكذا كان يعتقد، وهو يصحح وجهات نظره، ويعض على شفثيه من الغيظ، كان محببًا؛ كان يرى هذا مرتسمًا على وجهه، وفي التجميعات الموجودة بين حاجبيه، وشفثيه المتمددة في تجعد متصلب.. لقد تزوجت "أنجلينا" بالفعل من شاب جاد وطيب ومناسب، لكنه لم يكن أفضل الخيارات، فلقد تزوجت "أنجلينا" بمباركته.

لطالما حصل والده على كل ما يريد، ولكنه لم يحقق ولو لمرة واحدة أيًا مما كان يطمح إليه. سار بعيدًا عن النافذة التي كان واقفًا ينظر منها، وفي يده كأس من "الشمبانيا" وتوجه نحو البحر

والصخور؛ كان يبحث عن بعض العزلة والهدوء بعيداً عن الضيوف، ورغم أنه في النهاية من آل “فلوريو” وشقيق العروس، ولكنه أثر أن يحتفظ ببعض الحرية لنفسه.

لقد كان شاردًا في تفكيره، لدرجة منعه من سماع خطوات أخته “جيوسبينا” عندما حضرت لتنادي عليه:

- “إجنازيو”.

وهي ترفع طرف ثوبها الحريري المزركش لتتجنب إفساده.

- إن أمي تبحث عنك، فهي تريد أن تعرف ما الأمر، لأن الرقص مع العروسين على وشك أن يبدأ. لم يلتفت لها أخوها، ولهذا وضعت يدها على ذراعه:

- ما الأمر؟ هل أنت بخير؟

هز “إجنازيو” رأسه، فسقطت إحدى خصل شعره على جبهته وقال:

- لا شيء يا “جيوسبينا”، فقط المكان هناك مزدحم والضوضاء عالية، فأردت أن أفرد بنفسني لبعض الوقت لأحظى ببعض الهدوء.

لكن “جيوسبينا” لم تكن مقتنعة بما قاله، ونظرت إليه بتمعن.

لقد كانا في الطول نفسه تقريباً، وعيونهما بدت كالمرآيا وكل منهما يقرأ الآخر.

- لطالما كنت أتساءل بيني وبين نفسي: كيف كانت ستبدو علاقتنا لو كانت حياتنا مختلفة؟ وهمهم وهو يشير إلى البرج الموجود خلفه:

- لو لم تكن نمتلك كل هذا، وبدلاً من ذلك، أجبرنا على العيش بهذه الطريقة مع الناس.

أطلقت “جيوسبينا” سراح طرف فستانها وأطلقت لنفسها العنان، فاتسخت طرف ثوبها بمياه البحر والتراب، وأجابته برقة وهدوء:

- ما كنا أصبحنا آل “فلوريو”.

نظرت إلى يديها المرصعتين بالمجوهرات؛ كانت ترتدي قرطين من المرجان أهدتها إياهما جدتها منذ عدة أسابيع، وقالت لها إن جدها “باولو” قد أهداها إياهما منذ أكثر من خمسين عاماً، هما في الواقع ليسا غاليين، ولكنهما يعنيان لها الكثير:

- ولكننا أفقر، وما كان أبوانا قد التقيا وتزوجا، لكننا أفقر، ولاحتفلنا بزفاف “أنجلينا” بزجاجة خمر واحدة عادية، بدلاً من “الشمبانيا” الفرنسية.

ألقي “إجنازيو” بما تبقى من “الشمبانيا” في البحر:

- لقد اختار والدنا أن يفعل ما يريد وما أراد أن يكون، وفعل كل شيء بطريقته الخاصة بقوة وعزم لم يسلم منهما أحد، وقد أجبرنا - لأننا أبناؤه - على أن نسير في الدرب نفسه الذي رسمه وحدد ملامحه لنا، وأن نكون كما أراد لنا أن نكون، ولقد فعلنا جميعنا ذلك، بدءاً من أمنا العزيزة.

لم تجد “جيوسبينا” ما تقوله، وهي تشاهد أخاها وهو يفرغ كأسه في البحر، وتتفحص وجهه الوسيم وترى ذلك الحزن الغريب في عينيه، وكأنه يراقب مشهداً مرعباً وهو غير قادر على التدخل فيه. ذاك الضوء البائس الساكن في عينيه، وطعم كل ما لم يعيشه من حزن دفين، قد يحولان الكلمات غير

المباحة إلى تهديدات مكتومة.

مر “فينسينزيو” من ضيف لضيف دون أن يحظى بلحظة واحدة من الراحة. إنه عرس رائع وسخي، باركته شمس أبريل الذهبية بغطاء من أشعتها الممتدة في الأول من عام 1854.

حيا "البوجورس" شركاءه الجدد في الشحن؛ "أوغسطس مارلو" وعائلته، و"شيارامونت بوردونير"، و"إنجهام" الذي أحضر معه ابن أخيه "جوزيف ويتيكر". مزح معهم جميعاً، وشكرهم على الحضور، وتناول نخباً مع أصدقائه و"سالفاتوري دي باتشي" ليتحدثوا عن السفن وتجارة الأعمال والضرائب.

كان هناك لفيف من الضيوف الواقفين في تباعد، وقد طلب من الخدم أن يخدموهم أولاً، وكان عليه أن يحييهم بنفسه، فهم لا يختلطون مع غيرهم وتعبيرات وجوههم مملوءة بالتجهم والظلام، ولم يشاركون في المناقشات الحامية على المائدة ما لم يتم توجيه الحديث إليهم بشكل شخصي. كل شيء يتعلق بسلوكياتهم وإجاباتهم المراوغة، حتى حركات رؤوسهم ترجح شعورهم بحالة من القلق. تفحصوا حتى انحناءة ردة "كواترو بيتري" وتأملوا الأثاث وقدروا سعره، وكانوا غير قادرين على إخفاء حقدهم وإعجابهم في الوقت نفسه وقلقهم، حتى لو نجحوا في إخفاء ذلك بمهارة، ولكن "فينسينزيو" كان دائماً قارئاً جيداً لما بداخل الناس؛ رأى كل شيء بوضوح. واليوم، الغضب والانتصار لهما المذاق نفسه.

كان يراقبهم من طرف عينيه، وهم ينظرون إلى ذلك الحفل الأسطوري غير مصدقين لحجم الترف والبهاء مفكراً: "لا يمكنهم أن يقدرُوا حجم المجهود الذي بذلته حتى أصل لهذا الوضع، ولا يدركون كيف وصلت لهذا الوضع وهذا الثراء والبهاء، وكيف يتسنى لهم أن يفهموا؟! فهم ينتمون للطبقة الأرستقراطية، ويتمتعون بالعديد من الامتيازات الاجتماعية التي توارثوها دون عناء جيلاً عن جيل؛ أصحابُ الدم الملكي الذين لا يستتفون عن الانخراط مع من أصبحوا أثرياء بالكد والعمل في مجال التجارة والأعمال مثلي، ولكنهم لا يستطيعون النظر إليّ بشكل مختلف على الرغم من كل ما وصلت إليه، وهم بالطبع لا يدركون أن كل هذا لم يأت من فراغ، لأنني لم أتوقف ولو للحظة عن التفكير في البحر والسفن والتونة والسماق والكبريت والحريز والتوابل، أو في "كازا فلوريو". أمر الخدم بإنزال المزيد من "الشمبانيا".

على الرغم من كل تلك الألقاب التي قد يصل طول الواحد منها لطول الذراع، والدروع التي يزينون بها واجهات منازلهم، فإنهم لا يمتلكون ما يمتلكه من عقل وإرادة وعزم. ولكنه لم يتوقف للحظة عن التفكير فيما يمتلكونه، وما لا يمكن له بكل أمواله أن يمتلكه مهما سعى وكد في الحياة، فهو لم يعد بحاجة إليه بالنسبة لليوم. إن الظلام الذي يحلق حوله ويسكن عميقاً في روحه، يجب أن يستمر ولحد بعيد.

بعد ذلك بقليل، اقترب الأمير "جيوسيب لانزا دي ترابيا" منه، الذي أصبح عجوزاً الآن، والذي أراد أن يتمشى في المكان لبعض الوقت، وقال بصوت هادئ:
- إنه عرس رائع حقاً سيد "فينسينزيو"، يجب على أن أهنئك.
رد "فينسينزيو":

- إنه لا شيء، حاولت فقط أن أسعد ابنتي الحبيبة وزوجها وشريكي القادم في "كازا فلوريو". ورفع كأسه أثناء قيام العروسين بالرقص في منتصف الساحة، كعلامة على المحبة والترابط الذي بدأ يتشكل بينهما، وليسمح للقليل من الضيوف بمشاركتها الفرحة والسعادة، ويفعلون مثلها.
قال أمير "ترابيا" وهو يحدق في كأسه:

- لقد نجحت في الحصول على زواج ومصاهرة رائعة حقاً؛ مصاهرة رائعة ومتوائمة، ولسوف يصبح زواجاً ناجحاً.

خرجت الكلمات من فاه كقطرات السم من شدة الغيظ والحقد.
محمم الرجل الآخر، وقال:

- كيف هي أحوال العمل في مصنع النبيذ في شركتك الجديدة؟
- على ما يرام.

انتظر "فينسينزيو"، لأنه يعلم أن الأمراء لا يطلقون الأسئلة على أعنتها دون هدف من ورائها.
- لقد أثبتت قدرتك على استشراق المستقبل، لأنك رتبت بنفسك الأشياء بحذق، وقمت بتأسيس شركة الشحن الخاصة بك بعد ضربة الحظ السيئة التي منيت بها شركة "باليرمو".
- الحظ لا يمثل بالنسبة لي سوى القليل. لقد غرقت السفن بسبب الصراعات بين "النابوليين". إذا ما قامت الحكومة الثورية بالاستيلاء عليها.. حسناً، لا يهم الآن، فما حدث قد حدث، ولا شيء نستطيع أن نقوم به حيال ذلك.
- ولكنك ما زلت الوحيد الذي يمتلك أسطولاً من السفن الخشبية والبخارية.
كانت نظراته تحمل الكثير من المعاني.

- أنت لست من ذلك النوع من الرجال الذي يحجم عن الشيء من أول صدمة أو عقبة، إذ قمت بعدها بشراء سفينة بخارية في "جلاسجو"، إن لم أكن مخطئاً اسمها "كوريير سيسيليانو"، أليس كذلك؟ لقد سمعت الكثير من الأشياء الجيدة عنها، و"نابلس" كلها تضع عينها عليها، فأنت تمتلك الآن أسطولاً كبيراً وممتداً في البحر المتوسط، ويوصل الشحنات المختلفة في موعدها المتفق عليه في العقود دون تأخير، وهو شيء لا تقدر عليه سفن "النابوليين" في الغالب؛ بمعنى آخر، أنت الشخص الوحيد الذي استطاع أن يبرم اتفاقاً مع الخدمات البريادية.
التقت "فينسينزيو" حوله ببطء:

- هل تعني حق الاحتكار؟

فجأة، تمنى "فينسينزيو" لو كانوا في مكان آخر أكثر هدوءاً بعيداً عن الصخب والضوضاء، حيث يستطيع أن يتحدث بحرية، وليس داخل تلك الغرف المغلقة التي تعج بالضوضاء والأحاديث الجانبية.
أوما أمير "ترايبيا" برأسه:

- في رحلتي الأخيرة إلى البلاط الملكي في "نابلس"، سمعت أن الملك ما عاد قادراً على أن يقدم الخدمات بشكل جيد، ولم يعد قادراً على ضمان وصول الشحنات المختلفة في موعدها، وإلى جزيرتنا على وجه الخصوص لذا..

أخرج أمير "ترايبيا" ساعة فرنسية الصنع من جيبه، وقد بدت في يده كقطعة فنية فريدة من نوعها.
نظر الأمير إليها ومسح الجزء الأملس منها المصنوع من مادة المينا وقال:

- أريدك أن تتصت إليّ جيداً يا سيد "فينسينزيو"، وتعي جيداً كل ما أقوله. لقد وقع عليك اختياري كي أطلعك على هذا الأمر الهام، لأنه كما سبق وذكرت، ليس هناك أناس كثيرون مثلك قادرين على القيام بهذه المغامرة هنا في صقلية، وفوق كل شيء، فأنا لا أريد أن ينتهي هذا النوع من العقود في يد "النابوليين"، لأن خسارة "باليرمو" ستكون فادحة بوجه خاص، وكذلك صقلية بشكل عام، وسينتهي بنا الحال أن نتعم "نابلس" بهذه الأموال ولا تتال "باليرمو" منها شيئاً، لكنني واثق أنها بفضلك ستتقل إلى "باليرمو" لننتقم نحن بها، ونخلق المزيد من فرص العمل للناس ونحسن ظروف الحياة، وفوق كل شيء، سنقلل من الاعتماد على خدمات نقل رديئة تأتي بنتائج سلبية، وقد تضع الجزيرة في موقع أكثر هامشية. هل تفهمني؟

- أنا بكل تأكيد أفهمك، وأعي جيداً ما تقوله.
- حسناً.

رفع أمير "ترايبيا" رأسه لأعلى، وأبدى إعجابه بالقصر وجدرانه المزركشة، وقال:
- يا له من قصر رائع! أهنئك على تشييدك لهذا القصر العظيم يا سيد "فلوريو"؛ قد لا تكون أحد النبلاء، ولكن هذا القصر المنيف يليق بملك.
وضغط على ذراعه:

- فكر فيما قلته لك جيداً، واتخذ الخطوات اللازمة.
غادر أمير "ترايبيا" الحفل مباشرةً بعدما انتهى من كلامه مع "فينسينزيو"، وذهب بعيداً بعد أن مر وسط جموع الجالسين المستندين إلى الجدران وجموع الراقصين.
وضع "فينسينزيو" يده فوق شفثيه وتوجه نحو النافذة، وبدأ يفكر بشأن العرض الذي قدمه له أمير "ترايبيا"، وفي شائعة احتكاره للخدمات البريدية التي بدأت تدور في الأركان، وتتناقلها الألسنة هنا وهناك، لكن الشواهد تقول حتى الآن إنها مجرد شائعة.
ولكن.. ظل "فينسينزيو" يتابع الأمير بعينيه إلى أن وصل إلى عربته وركبها ورحل، ثم استغرق بعد ذلك في التفكير بشكل عميق فيما عرضه عليه الأمير، بينما كانت الموسيقى تعزف والكؤوس ترتفع، والكل مشغول بطلب المزيد من الشراب داخل قصر "كواترو بيتزي" المزركش، الذي يجمع بين جوانبه الجميع.

ظل "فينسينزيو" يفكر في كلام أمير "ترايبيا" ويقول في نفسه إن تقديم خدمات بريدية حصرية اعتماداً على أسطوله من السفن يعني تأسيس علاقة مباشرة مع البلاط الملكي، ولا داعي لذكر حجم الأرباح التي ستدرها عليه هذه التجارة.
بتوقيعه لهذا العقد، تكون "كازا فلوريو" قد امتلكت كل أسباب القوة والسلطة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الرمل

مايو 1860 - أبريل 1866

"مائة سنة من الحب، تضيّعها لحظة واحدة من الغضب".

- مثل صقلي

سادت حالة عدم الاستقرار المجتمعي الصقلي بسبب اندلاع ثورة 1848، والتي سحقها القبضة الحديدية لـ"البوربون"، لكنها بقيت كامنة في النفوس كالنار تحت الرماد إلى حين، في انتظار حدوث أية حركة شعبية خفية متبوعة ببعض محاولات التمرد الفاشلة، التي قد تقضي في النهاية إلى وقوع انتفاضة شعبية كبيرة مبدعة. لكنّ النبلاء الأذكي والمفكرين والمستنيرين من أبناء الطبقة الوسطى كانوا يميلون لفكرة الزج بملك "سردينيا"؛ الملك "فيكتور إيمانويل الثاني"، في أتون الوضع السياسي القائم في صقلية، من أجل تحريرها من قبضة "البوربون" و"النابوليين"، والتخلص من هيمنتهم السادية على الجزيرة الأسيرة.

وقد ساعد في تحقيق ذلك العام الماضي المناضل الثوري "فرانشيسكو كريسبي"، الذي قرر أن يجمع كل تلك الخيوط والعناصر في بوتقة واحدة، وفي سبيل تحقيق ذلك، اقترح على الجنرال "جيوسيبي جاريبالدي" تنفيذ تمرد وعصيان مسلح ضد "البوربون" بمساندة ودعم المتمردين الصقليين، لهدف أسمي وهو توحيد ممالك إيطاليا المختلفة في دولة واحدة، وبالطبع سيتطلب تحقيق هذا الهدف تحرير صقلية وغيرها من الولايات الأخرى من سطوة "البوربون"، ولكي يقنعه بجدوى هذه الفكرة، أخبره أن حركة التمرد المسلح قد بدأت بالفعل في مدينة "باليرمو"؛ (تمرد "جنিকা"، الذي اندلع على يد المناضل "جيوسيبي كريسبي" في الرابع من شهر أبريل، واستمر حتى اليوم الثامن عشر من الشهر نفسه في عام 1860). ومن دون دعم مباشر من جانب الملك، أبحرت سفن الجنرال "جاريبالدي" من ميناء "كواترو" في رحلة استكشافية، في الخامس من شهر مايو عام 1860، وعلى متنها الآلاف من المناضلين والمتطوعين الثوريين والمقاتلين المرتدين للقمصان الحمر، إلى أن استقرت قواتهم في ميناء ومدينة "مارساللا" في الحادي عشر من الشهر نفسه، ودخلت قوات الجنرال في اشتباكات وصراعات كثيرة مع "البوربون"، لكنها في النهاية نجحت في الاستيلاء على مدينة "ساليبي" في الرابع عشر من شهر مايو، التي أعلن منها الجنرال "جاريبالدي" نفسه ديكتاتوراً على صقلية، وعن تبعيته للملك "فيكتور إيمانويل الثاني"، وقد قام بعد ذلك بالزحف على مدينة "باليرمو"، وذلك في الثامن والعشرين من شهر مايو، حيث وجد كل الترحيب بقواته وكل الدعم من قبل الأحرار هناك، حتى وصلوا جميعاً إلى سواحل مملكة "نابلس" معقل "البوربون"، في السابع من سبتمبر من العام نفسه، وهناك عقد أول لقاء رسمي معلى، يجمع بين "جاريبالدي" وملك "سردينيا" الملك "فيكتور إيمانويل الثاني"، في السادس والعشرين من أكتوبر في مدينة "تيانو"، التي شهدت تدشين مملكة إيطاليا الموحدة.

لكن بعد إتمام الوحدة، نقلت مملكة "سردينيا" رسمياً كل أنظمتها التشريعية والاقتصادية والتجارية والمالية لجنوب إيطاليا وصقلية دون تمهيد، ورفضت أي وسيط يتدخل في هذا الأمر، وكانت النتيجة هي انتشار حالة من التذمر بين النبلاء، لأن النظم التشريعية الجديدة قد أفقدتهم معظم امتيازاتهم الاجتماعية، وتم تجريد الجزيرة من هويتها الثقافية، واستمرت معاناة الناس بسبب الاقتصاد المتعثر

في ظل هذه الظروف الصعبة، واختفاء أية بارقة أمل في التحسن في الوقت الراهن، لتعود صقلية مرة أخرى تحت حكم الجنرال إلى أرض محتلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يتألف الساحل الغربي لصقلية من مزيج من الشواطئ الصخرية الرملية، ما أكسبها نظامًا بيئيًا متنوعًا وغنيًا، وذا بنية متغيرة وموقعًا جغرافيًا ثريًا.

ما عدا سواحل "مارسال"، كانت بقية شواطئ صقلية مستقيمة وجيدة، والرمال التي كان البحر يدفع بها عبر ممر "سان تيودورو" أمام "إيزولا لونجا" ناعمة وذات جمال أخاذ.

بالقرب من سواحل "مارسال"، في منطقة "دينا ستاجيونا"، توجد إحدى أغنى البحيرات على الجزيرة، والتي كانت في الماضي ميناءً فينيقيًا ومأوى يونانيًا، ثم سوقًا رومانيًا معروفًا.

تنتشر أحواض الملح على طول شاطئ "مارسال" في نظام دقيق، والذي يتألف من مجموعة كبيرة من الأحواض التي تستخدم في تكرار وتنقية ملح البحر عن طريق التبخير، وهو ما كان له أبلغ الأثر في جعل المناخ في مدينة "ستاجونو" ثابتًا ومستقرًا طوال العام، ودرجة ملوحة ماء البحر ثابتة.

لذا، لم يكن من العجب أن تنمو وتترعرع مصانع ومخازن النبيذ بالقرب من هذه الشواطئ المنخفضة، وأن تتدفق الرمال داخل الساحات المحيطة بالمصانع والمخازن، وتغزو مخازن النبيذ وتتجمع فوق براميل تخزينه.

كان للبحر، والحجر الجيري الموجود في الرمل، ودرجة الحرارة الثابتة طوال العام، أثر على زيادة جودة هذا النبيذ وجعله أكثر كثافة؛ نبيذ تكوّن بالصدفة البحتة وبمعاونة قوى الطبيعة وصار مذاقه حديث المرحلة، لأن الرمل الذي يدور بين الزجاجات المرصوصة في عمق المخازن، ويحمل معه بلورات الملح ورائحة البحر، هو الرمل نفسه الذي يستقر على البلاط الطيني الذي يغطي الملح، والمعروف بأنه نوع ممتاز من الرمل، وهو المسؤول الرئيسي عن إعطاء هذا النبيذ ذلك المذاق الجاف، وعن هذا الشعور الغامض والمربك لطعمه، وعن مذاقه الفريد الممزوج بروح البحر ورائحته ورماله، ولولا توافر هذه الظروف الطبيعية لصار مثل أي نبيذ حلو آخر.

وقف "إجنازيو" في مواجهة والده "فينسينزيو"، وتبادلا النظرات فيما بينهما بصمت. كان الوالد يجلس على الكرسي خلف المكتب، بينما ظل الشاب واقفًا، والليل ما زال يلف المكان، وضوء النهار لم يبرز بعد، ووقفت "جيوليا" إلى جوارهما.

قالت "جيوليا" بنبرة استرضاء:

- إنها فكرة جيدة يا "إجنازيو"؛ قد يكون من الأفضل لك أن تغادر "باليرمو" لبعض الوقت حتى تستقر الأوضاع، وأختك "جيوسينا" ستمتن لك كثيرًا لو قررت أن تبقى معها لبعض الوقت، فضلًا عن أنني أتذكر بشكل جيد كيف كنت متحمسًا وسعيديًا بعد زيارتك لـ "مارسال".

ولكن "إجنازيو" نظر للأسفل وهز رأسه وقال:

- لقد كانت "جيوسينا" وزوجها كريمين جدًّا معي، ولكن يا أمي أنا قررت ألا أغادر "باليرمو"؛ لقد قررت البقاء معكما أنت وأبي هنا في "باليرمو"؛ إنه واجبي، و"كازا فلوريو" بحاجة إليّ أكثر من أي وقت مضى.

فقط في هذه اللحظة، قرر "فينسينزيو" أن يتدخل ويخرج عن صمته وسكونه؛ لقد بلغ الحادي والستين من عمره الآن وقد ظهرت عليه آثار السنين ووطأتها، خاصةً ذلك التورم الموجود تحت عينيه، بسبب السهر لليل طويلاً جعلته يبدو أكبر سنًا مما هو عليه:

- فليكن، ونحن كذلك سنبقى هنا معك أنا و"جيوليا".

أخذت "جيوليا" بيده وحملتها بين يديها.

تعلمت "جيوليا" على مدار السنوات الماضية أن تدعن فحسب، وأن تتقبل ما يقوله آل "فلوريو" دون نقاش؛ بمعنى آخر، لو قرر واحد من آل "فلوريو" وعقد العزم على القيام بشيء ما، فإنه لن يغير رأيه مهما حدث، ولن يغير أي شيء آخر رأيه، فهم متفاخرون بأصلهم وعنيدون بشكل كبير. استأذن "إنجازيو" للرحيل، وتركهم وحدهم. كان "فينسينزيو" غارقاً في أفكاره، ويداعب ذقنه التي نبتت بها بعض الشعيرات الرمادية. الحقيقة هي أنه يفتقر إلى الشجاعة اللازمة للاعتراف بأنه خائف؛ ليس على نفسه بالطبع، ولكن على ابنه الشاب.

يدور الزمن دورته حول نفسه، ليعود وينطلق كالسهم من جديد نحو مستقبل مجهول غير واضحة ملامحه. في الوقت ذاته، تغلف الهواء في "باليرمو" سحابة عجيبة من القلق العجيب والمبهم والمتصاعد، وقد امتلأت نفوس سكان "باليرمو" بموجة من الشك وعدم اليقين، والخوف غير المفهوم من المستقبل القادم.

لقد بدأت هذه الغيمة السوداء من الخوف والشك تخيم على المدينة منذ شهر تقريباً، بدءاً من مطلع شهر أبريل من عام ١٨٤٠. لسنوات طويلة، ظلت الأرواح تلهب بكرامية مكبوحة لـ"البوربون" وحكمهم الفاسد الظالم، القائم على سوء استغلال السلطة، وفرض الضرائب الباهظة، والقبض العشوائي على أصحاب الرأي والفكر، والمحاکمات الهزلية.

ظهرت العديد من الإشارات والهزات السابقة على وقوع الكارثة وحلول الطوفان، لكنّ أحدًا لم يلتفت إليها؛ كانت البداية حركة التمرد التي اندلعت في "بوكاديفالكو"، وبعدها بيومين فقط التمرد في "جنتشيا" داخل دير "الفرنسيسكان" الكبير، في قلب العاصمة "باليرمو".

حاول الرهبان "الفرنسيسكان" أن يوفروا مأوى آمناً للثوار، بعيداً عن كلاب الملك من الجنود "النابوليين"، لكن أحد الرهبان الجبناء وشى بهم للجنود، فما كان من الجنود إلا أن فرضوا حصاراً حول الكنيسة والدير وسدوا كل سبل الهروب أمام الثوار، وانتهت المجزرة بمقتل عشرين من الشباب الثائرين والقبض على ثلاثة عشر منهم أحياء، وتحول قرع الأجراس إلى دعوة صريحة وعلنية للناس بأن يثوروا على هؤلاء المستبدين ويهبوا لنجدة هؤلاء الثوار النبلاء من بين برائتهم القذرة، لكن لم يكن هناك جدوى، وتحول صوت قرع الأجراس إلى نواقيس للموت. لم ينبج من المذبحة سوى ثائرين اثنين فقط من جملة الثوار، نجحوا في الهرب والنجاة بحياتهما من كتيبة الإعدام التي كانت تلاحقهما، واختفيا لعدة أيام بين الجثث في أحد السرايب السرية الموجودة داخل الدير، وفي النهاية، نجحوا في التسلل عبر فتحة أو شق في جدار الكنيسة، بمساعدة بعض النسوة المحليات اللاتي عملن على تشتيت انتباه الجنود، باختلاق حوار ما معهم حتى تمكنا من الفرار.

هل كان هذا آخر إرهابات التمرد والثورة، أم كان تمهيداً لحدوث ما هو أكبر؟ ما من أحد يعلم على وجه اليقين. أما الوضع في المدينة، فقد كان كالتالي: البعض قرر وضع ممتلكاته الخاصة في خزائن للحفاظ عليها، وإرسال عائلته إلى خارج البلاد بعيداً عن "باليرمو"، بينما بقي البعض ينتظر ما سيحل على المدينة ببساطة، وبقي شيء واحد أجمع الكل عليه؛ وهو أنه ما عاد أحد يحتمل استمرار حكم "البوربون" للبلاد أكثر من ذلك.

وقف "فينسينزيو" وسار ناحية زوجته. ما كان بحاجة لأن يعبر عما يشعر به من خوف وقلق، لأنها ببساطة كانت تقرأ كل ما يدور في عقله وروحه.

قالت "جيوليا" بصوت يملؤه القلق والتوتر:

- لقد كنت سأشعر بالراحة والسعادة البالغة لو قرر أن يرحل عن هنا، فالأمور غير مستقرة ولا أحد يدري ماذا سيحدث غداً، وأنا قلقة جداً عليه.

هز "فينسينزيو" رأسه ببطء وقال:

- أعرف، لقد أمضيت وقتاً طويلاً في التفكير في ذلك الفتى الذي قتلوه بهذا الشكل البشع أثناء وقوع أحداث التمرد.

ضغطت "جيوليا" على ذراعه وقالت:

- هل تعني "سيباستيانو كاماروني"؛ الذي نجا من الفصيلة العسكرية؟
أوماً برأسه دليلاً على الإيجاب.

- بعد مرور عدة أيام على فشل الانتفاضة، ولكي يتضح أمام الجميع ما هو مصير كل من تسول له نفسه أن يعارض حكم "البوربون"، قامت القوات العسكرية بالقبض على الكثيرين، وكان أغلبهم صبيةً صغاراً لم يبلغوا سن الشباب بعد، وأطلق الرصاص عليهم في الساحات والبيادين، وعلى مرأى ومسمع من عائلاتهم ومن الجميع، ولكن "سيباستيانو كاماروني" نجا بمعجزة من أيدي هؤلاء الوحوش، لكنه جرح، إلا إنه بقي في النهاية على قيد الحياة.

أخبر "فينسينزيو" أن والدته الشاب الجريح ظلت تتوسل للجنود أن يتركوا ولدها حياً، وذهبت إلى القصر الملكي كي تطلب العفو والسماح عن ولدها من الملك بصوت عالٍ، فالقانون يقر أن أي شخص ينجو من الفصيل العسكري يتم الإعفاء عنه. وبدلاً من أن يفرجوا عنه وفقاً للقانون، أطلقوا عليه الرصاص في الوجه، فأردوه قتيلاً وسط توسلات أمه وذهول الناس.

وفي النهاية، قام الجنود بتكديس القتلى الأربعة، ووضعوهم في أربعة أكفان، وساروا بهم في شوارع المدينة كي يكونوا عبرة. العجيب في الأمر أن الناس تركوا الشوارع التي سالت فيها دماء هؤلاء الشباب من عربة الموتى، عند نقلهم إلى المقابر الجماعية كما هي دون تنظيف، لتبقى آثار دمائهم النقية الداكنة في الأرض.

همس "فينسينزيو":

- لا يمكنني أن أفكر أكثر من ذلك في الأمر، لقد كان الشاب كأحد أبنائنا؛ شاب يافع وذكي ومتعلم، وقد قتله أبناء العاهرات هؤلاء بدم بارد دون ضمير أو رحمة.

ليس من السهل استثارة "فينسينزيو" عاطفياً، فهو رجل عملي بشكل كبير، ولكن تلك الفاجعة جعلت الاشمئزاز يخلق خرقاً في شعوره الدائم بالفطور واللامبالاة بأي شيء سوى أعماله وتجارته. غطت "جيوليا" وجهها بيديها:

- كلاب! لقد قضيت وقتاً طويلاً في تصور كيف كان شعور أمه بعد فجيعتها في ولدها وفلذة كبدها، ولهذا السبب أردت أن يرحل "إنجازيو" في هذه الفترة بعيداً عن "باليرمو"، فأنا أخشى عليه بشدة، ببساطة لا ندري ما الذي سيحدث غداً.

التفتت ونظرت للباب:

- لقد عشنا حياتنا، ولكن هو..

وضع زوجها ذراعه حول كتفيها وقبل جبهتها:

- نعم، أعلم ذلك، ولكن القرار في النهاية قراره.

تتهددت "جيوليا" بسبب الشعور بالحنق والغضب:

- الحقيقة أن "إجنازيو" قد ورث عنك العند وتصلب الرأي؛ هذا أمر مؤكد.
ما إن سمع هذا التعليق إلا وقرر فجأة التحرر من حزن "جيوليا" وذهب لغرفته ليعيد نفسه، وأرسل رسالة لابنه يطلب فيها منه أن يسرع بالحضور، وطلب من الولد الذي يعمل في الإسطنبول أن يؤكد على وجود عدد من الخدم المسلحين ليحرسوا العربية.
مع بزوغ أول شعاع للفجر، غادرت العربية التي تقلهم من "فيلا دي كواترو بيتري" متجهة إلى "باليرمو" مرة أخرى. قرر "فينسينزيو" أن يبقى هناك بدلاً من البقاء في "فيلا دي ماتيريبيسي"، لأن الفيلا بجدرانها العالية ومقابلتها لساحل البحر ستكون أسهل في التأمين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تدفق الهواء القوي المنبعث من البحر عبر معطفي الرجلين، ما جعلهما يشعران بالارتعاش. جلس "فينسينزيو" في الكرسي المقابل لابنه، وراقبه وتخصص ملامح وجهه وجبهته العالية، وكان "إجنازيو" يشبه إلى حد كبير جده "باولو" في الشكل، فقد ورث عنه هذين الفكين القويين، لكنه بالطبع لا يتمتع بشخصيته نفسها، فشخصيته المهذبة والجذابة سمحت له بالانضمام لكازينو السيدات والسادة من أبناء الطبقة الراقية، وهو الفلوري الوحيد الذي تم تقبله ودمجه في دائرة الأرستقراطيين الحصرية، رغم أنه ليس من أبناء النبلاء، وهو شاب ذكي، ويعرف ما الذي يجب عليه أن يفعله، ويتسم بصفات السمو والرقة والعطف التي ورثها عن والدته "جيوليا"، ولكن أكثر صفة يحبها "فينسينزيو" فيه ويراها كميزة فائقة هي ذلك الهدوء اللطيف الذي يغلب على كافة تصرفاته.

دفع "فينسينزيو" الستائر التي تغطي نافذة العربية بأطراف أصابعه وقال:

- إن والدتك تشعر بالقلق الشديد عليك، وأنا أرى أنها محقة في ذلك. لقد كنت صبيًا في الحادي عشر من عمرك عندما اندلعت شرارة الثورة الأولى في عام ١٨٤٨، وأنا شخصيًا علقت في منتصف الطريق ما بين "فيلا دي ماتيريبيسي" و"الأرنيليا" ولم أستطع أن أتحرك، وأرى أنه من الأفضل بالنسبة لك أن تذهب إلى "مارسالالا"، وتبقى بها لبعض الوقت حتى تتضح الرؤية هنا في "باليرمو"، وأنا شخصيًا سوف أشعر بالراحة والأمان لكونك بعيدًا عن هنا في ظل الأيام الصعبة هذه، فالأمور غير واضحة للمرة، ونحن لا ندري بالضبط ما الذي سيحدث غدًا.

قال "إجنازيو" وقد اكتسى وجهه بالعزم والإصرار:

- ولكنني أفضل البقاء هنا يا أبي، فأنت بحاجة لمن يساعدك في إدارة أمور العمل، وأنا لذي مجموعة من المعارف الذين سيطلعونني على ما قد يحدث خلال الساعات القادمة.

استراح "فينسينزيو" في مقعده وشبك أصابعه فوق ركبته وقال:

- أنت ما زلت في الحادي والعشرين من عمرك، وبالفعل تعرف ما الذي ستفعله وكيف ستتعرف. لقد تصورت أنك سترحب بالاقتراح الخاص بالسفر لفرنسا لبعض الوقت، وخاصة الآن، ولكنك.. لقد تصورت أن الاقتراح سيروق لك، لتذهب وتجد لنفسك حناء فرنسية تقضي معها بعض الوقت الممتع، بينما تتفجر الأمور هنا، لم أتخيل أبدًا أن شخصًا مثلك قد يفضل الجلوس عند أخته في "مارسالالا"، والحملقة في عيون صديقات أختيك.

فجأة احمر وجه "إجنازيو" من شدة الخجل. لم يلاحظ والده شفثيه وهما مزمومتان وترتعدان، أو نفسه المكبوت الذي يملأ صدره.

هو الوحيد الذي يعرف حجم المعاناة التي سيتسبب فيها رفضه لعرض الذهاب إلى فرنسا؛ ذكريات حادة كحرف الزجاج ستنزل تعذبه، ذكريات عن جمال مذهل، وخصلات شعر ذهبية وبراقة، ويدين

محفوظتين داخل قفازيها، ورأس منحنٍ ليداري بعض دموع الرحيل الحزينة، ثم خطابات ورسائل عديدة تدور. إن ما حدث في "مارسالالا" لا يجب أن يعلمه أحد، ويجب أن يبقى طي الكتمان، خاصة عن والده.

والده الذي يحتاج إليه بشدة أكثر من أي وقت مضى في هذه الأيام، والده الذي زاد وزنه وتعبه وسنه بشكل كبير وملحوظ، ولا يحق لوريث "كازا فلوريو" أن يهمل في واجباته أو أن يتقاعس عن أدائها أو أن يخيب ظن أبيه فيه، فهذا أمر غير متوقع منه. لاحظ "فينسينزيو" حمرة الخجل التي كست وجنتي "إجنازيو"، عندما أتى على ذكر رحلته لفرنسا، لكنه أرجعه لشعوره ربما بالخجل والكسوف، فـ"إجنازيو" متحفظ فيما يتعلق بعلاقاته النسائية وبصديقاته من الفتيات.

رفع "فينسينزيو" حاجبيه لأعلى كمتواطيء، وقال:

- أعرف أن النساء غارقات في حبك، ولم لا وأنت شاب مهذب وثرى وجذاب. أجبر "إجنازيو" على الإيماء برأسه.

- حسناً، فلننسى أمر النساء ولنركز على أنفسنا. والآن، أنصت إليّ، هذا ما يجب علينا فعله. في تلك اللحظة، وضع الابن ذكرياته جانباً، كما كان يفعل دائماً، ونظر إلى والده وأنصت إليه جيداً. أردف "فينسينزيو":

- لقد مررنا بفترة سابقة من الركود وسوء الأحوال الاقتصادية، أثناء اندلاع الثورة الأولى في ١٨٤٨؛ كان هناك حظر على التجارة، وكسادٌ عام قد حل على البلاد، وفرض "النابوليون" العديد من الضرائب الباهظة على الناس، وكادوا أن يدمروا الاقتصاد بشكل كلي، أما المصالح ولعبة المصالح فقد أصبحت الآن أكثر تعقيداً. في الواقع، تم إرسال مبعوثين إلى الدوائر المحيطة بالنبلاء وعائلات التجار الكبار، وحاولوا التواصل معي، ولكنني فضلت عدم الالتقاء بهم، في الوقت الراهن على الأقل. لقد أردت أن أمنح نفسي فرصة فهم ما الذي يحدث من حولي أولاً، قبل أن أقرر أي شيء، فالفوضى عارمة وستعم قريباً كل جزء من البلاد، وقوات "البوربون" تتجمع في منطقة "بورتا كارينين"، فليس هناك ما يمكننا القيام به سوى الانتظار حتى يزول الغبار وتتضح الرؤية. أعتقد أن "البوربون" يتوقعون وصول قوات الجنرال "جاريبالدي" واقتحامها للبلاد من ناحية البحر، والمدينة - كما تعرف - واقعة تحت الحصار، وعلينا أن نكون منتبهين ويقظين، لنرى في أي اتجاه ستهب الريح، وأن نكون مستعدين لاستغلال أي موقف من المواقف التي تظهر على السطح، ونساند من تميل الكافة ناحيته، فالأمر ليس بيد الصقليين الآن، فـ"السافيون" يريدون أن يضعوا أيديهم على جزيرة صقلية وكل أجزاء المملكة، وسوف يتمكنون هذه المرة من بسط نفوذهم على الجزيرة، لأن هناك من سيساندهم ويدعمهم من داخل الجزيرة طمعاً في التخلص من حكم "البوربون" و"النابوليين"، فلديهم بالفعل "توسكاني" و"إميليا"، ولكنهما لا يعلمان بالضبط ما ينتظرهما هنا في "باليرمو". الجو مضرب بشكل كبير، وما من شيء يقيني، والمواجهة حتمية، وهناك الكثير من المصالح.

نظر "إجنازيو" من نافذة العربة مرة أخرى وقال:

- سوف نفعل كل ما من شأنه أن يحمي مصالح "كازا فلوريو". وهذا بالضبط ما أراد "فينسينزيو" أن يسمعه من ولده.

هناك في الفيلا، كانت "جيوليا" باقية مع الخدم وحماتها، كانت قلقة ومضطربة. أمسكت بمذيلها في يد وفي اليد الأخرى المفاتيح، سارت عبر الغرف حتى وصلت لغرفة حماتها "جيوسبينا". كانت هناك خادمة جالسة خارج باب الغرفة، فقالت لها "جيوليا":

- هل هي موجودة؟

كانت الخادمة صغيرة في السن لكن بنيتها البدنية قوية، تركت الحياكة عندما وجهت لها "جيوليا" الحديث. أجابتها بلهجة تدل على أنها قادمة من جبال "مادونيا"، وبشرتها حمراء بسبب تعرضها لوقت طويل لأشعة الشمس هناك:

- نعم يا سيدتي، تناولت طعامها دون ضجيج، وعادت لتجلس على كرسيها ذي المسند هناك كالعادة. كانت "جيوسبينا" جالسة على كرسيها ذي المسند وفمها نصف مفتوح، وتغني إحدى الأغنيات غير المفهومة المملوءة بعبارات "كالبيرية" ثقيلة. منذ أسابيع وهي تنتقل ما بين لحظات الصفاء والأيام التي انقلب فيها العالم، وبدأت أشباح الماضي تعود إليها مرة أخرى، وتصبح حقيقية وماثلة أمامها وتستطيع أن تتحدث إليها.

كانت إحدى عينيها بيضاء تمامًا، فقدت القدرة على الإبصار بها، ولم يجد لها الأطباء علاجًا، فليس هناك علاج للشيخوخة.

ابتلعت "جيوليا" كتلة من اللعاب مصحوبة بشعور بالارتباك، وتصاعد قلقها وشعورها بالتوتر. حاولت أن تداعبها، ولكنها أبعدت يدها في آخر لحظة. كانت "جيوسبينا" مستغرقة في أحلامها ومُسْتَحْوَذًا عليها، كسيحة تستحق العطف والشفقة.

- سيدة "جيوسبينا"، هل ترغبين في الذهاب إلى الخارج؟

نهضت "جيوسبينا" من مقعدها بصعوبة، وقد حنى المرض والشيخوخة ظهرها. وضعت الخادمة سألًا على كتفيها، وأخذتها "جيوليا" من تحت ذراعها كي تسندها.

سارتا معًا عبر أروقة الفيلا ببطء، شردت "جيوليا" بأفكارها وهي تقول إن الموت لا يمحو كل الذنوب ولا يطهر الذكريات، بل المرض. وبطريقة ما، كانت رؤية حماتها تتقدم في العمر تعويضًا لها عن كل الأذى والألم الذي تلقته في حياتها، وقد علمتها الرحمة والعطف، ولم يعد يسكن داخل قلبها أية رغبة في الانتقام منها لما فعلته بها ولإهانتها لها. يقول الناس "إن هناك عدالة خفية في كل شيء، وتوازنًا يتبع القوانين غير المعروفة".

نزلا جميعًا إلى الساحة، حيث وضع "فينسينزيو" طاولة وبعض الكراسي المريحة، وكان البحر يشكل خلفية رائعة ولطيفة لها.

اعتادت "جيوليا" أن تكتب لابنتها "جيوسبينا" التي تعيش مع زوجها "فرانشيسكو أغسطس ميريل" في "مارسالالا"، "فرانشيسكو" هو ابن "أغسطس ميريل"؛ شريك "فينسينزيو" الأثير في تجارة الأعمال. كانت زيجتها مثل زيجة أختها "أنجيلا"، زيجة رائعة وهادئة وثرية. لقد صارت "أنجيلا" أمًا ولديها ثلاثة أبناء، بينما وضعت "جيوسبينا" طفلها الثاني منذ أسابيع قليلة. على الرغم من أن خطابات ابنتها تحمل الكثير من الاشتياق إلى "باليرمو" وعائلتها، لكنها تعلم أنها سعيدة وراضية في زيجتها وحياتها بشكل عام في "مارسالالا".

ولكنها قلقة على "إنجازيو" الذي بدأ يبدو كشخص خاضع وحاد، كانت تتساءل بينها وبين نفسها: ما الذي حل بـ"أميرها الصغير"؟ ذلك الصبي الفضولي المتحمس تجاه كل شيء، المفعم بالحيوية والحب والانطلاق، كيف تحول إلى ذلك الشاب الهادئ المهذب صاحب الروح الصارمة، ربما أكثر

من والده نفسه؟ وكأنه يحاول أن ينصاع لقدر محتوم؛ كتب عليه هذا القدر المحتوم يوم ولد، وصار شاباً الآن ومسؤولاً عن شركة والده وثروته، وفوق كل شيء "كازا فلوريو". كان "إجنازيو" فوق كل شيء حاداً وصارماً مع نفسه، وهذا ما يقلق "جيوليا" ويثير مخاوفها؛ تلك الصرامة. واصلت الخادمة حياتها، بينما كانت "جيوسبينا" تتعس، وبين الحين والآخر، تُخرج أصواتاً غريبة أو تتنطق ببعض العبارات غير المترابطة. فجأةً، أمسكت بيد "جيوليا"، ما جعل القلم الموجود في يدها يضخ المزيد من الحبر، فطخ الورقة وشكل عليها بقعه من الحبر، والتي كانت ستكتب عليها رسالة لابنتها "جيوسبينا"، وقالت:

- عليك أن تخبري "إجنازيو" أنني ارتكبت خطأ فادحاً، فأنا لا أملك سوى حياة واحدة، ستخبرينه، أليس كذلك؟

لم تفهم "جيوليا" من هو "إجنازيو" الذي تعنيه "جيوسبينا"؛ هل هو حفيدها "إجنازيو"، أم ذلك العم الطيب الذي لم تلتقه أبداً، ولكنها تسمع عنه الكثير؟ ثم رأت عينيَّ حماتها وقد بللتها الدموع:

- لقد أحببته بكل كياني، لقد كان هو من يجب أن أتزوج؛ عرفت ذلك الآن. لطالما أحببته من كل قلبي وروحي، ولكنني لم أخبره بذلك لأنه كان شقيق زوجي، والآن أريده أن يفهم أن الإنسان لا يجب أن يتزوج من أجل المال، بل من أجل..

انفجرت في النحيب والصراخ والنزاع، ولم تستطع إرضاءها ولا تهدئتها، وسقط غطاء الشعر الذي كان يمسك شعرها ويغطيه، وارتعشت شفتاها فوق أسنانها. احتضنتها "جيوليا" بقوة وهمست لها في أذنها:

- لا تقلقي، فهو يعلم.

شعرت "جيوليا" بالدموع الساخنة المنهمرة من عيني "جيوسبينا" تحرق جفونها. إن القصة التي كان يرويها "فينسينزيو" عن ذلك الحب العجيب والفريد من نوعه، الذي كان يربط بين الأخ وزوجة أخيه، تأكدت لديها الآن. ساعدتها "جيوليا" على النهوض من مكانها بلطف، وجففت دموعها، وأعادتها لحجرتها مرةً أخرى، ووضعنها في فراشها، وأعطت تعليماتها بأن يلتزم الجميع السكون والهدوء، لتتعم السيدة "جيوسبينا" بالراحة والسكينة.

كانت آخر فكرة دارت بخلدتها وهي تغلق الباب خلفها هي أنها قد اتخذت القرار السليم مع "فينسينزيو"، على الرغم من أنها كانت مضطرةً للانتظار سنوات طويلة، حتى تتمتع بشرعية هذا الحب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على طول جدران المدينة، وفي وسط الطرقات والشوارع المطلة على "كاسارو"، وفيما وراء المعازل التي اخترقتها المدافع، تجمد الزمن في مكانه، ودار في الهواء نسيم قادم من البحر ومن الجبال المحيطة بـ"باليرمو"، يحمل رائحة الطحالب المجففة، وطرّ زهور البرتقال الجميلة. وكأن "باليرمو" قد وافقت بملء إرادتها الحرة على كل ما حدث وما يحدث وما قد يحدث لها في المستقبل، وعلى أن تجلس في صفوف المتفرجين لتشاهد نفسها. لكنّ "باليرمو" في الواقع نائمة، وتحت رمالها وبشرتها الصخرية يكمن جسم نابض، تدفق من الدم والأسرار، وأفكار ترتجف من جانب لآخر.

هذه الأفكار أصبح لها اسم الآن؛ "جاريبالدي". باسم الملك "فيكتور إيمانويل الثاني"، أعلن "جاريبالدي" نفسه ديكتاتوراً على "باليرمو" وإيطاليا بأسرها، ودعا سكان المدينة "باليرمو" لحمل السلاح، وقد نجح بالفعل في الاستيلاء على "الكامو" و"باترينيتشو".

ولكن جرح معركة "جانينشيا" ما زال يَخز ويلدغ، والأدهى من ذلك أن "روزولينو بيلو" الذي هرع لمساعدة "جاريبالدي"، قد مات في القتال الدائر في "مارتينو ديلي سكالالا"، على بعد أقل من عشرين كيلومترًا من العاصمة "باليرمو".

ليس لدى "فينسينزيو" أية وسيلة لاستشرف ما يمكن أن يحدث، ولكنه ذهب إلى مكاتب "البنك الملكي" وبيده حقيبة، وفي رأسه قرار أراد أن ينفذه بكل عزم وإصرار، قبيل سقوط المدينة في يد "جاريبالدي"، ترك "إجنازيو" في "فيا دي ماتيريسي"، لأنه لا يريده أن يتورط في هذا الأمر. معركة السلام.

يسيطر "فينسينزيو" - بموجب منصبه الهام كمدير تجاري للبنك الملكي - على كافة المعلومات المتعلقة بالبنك، وحجم ودائع الذهب والأموال فيه، وحجم التعاملات وغيرها الكثير، وقد أمر أن يتم تحويل كل الأموال السائلة إلى خزينة البنك، مصحوبة بالدفاتر والسجلات، وبمجرد انجلاء الأزمة واتضح الأمور وانفشاع تلك الغيمة من الضبابية، واستقرار الأمور، سيتم الإفراج عن كافة الأموال لكي تعود للتداول بين الناس، أو ليتم تحويلها للعملة الجديدة للمملكة.

ليس هناك المزيد الذي يمكن القيام به بشأن السبائك الذهبية الموجودة داخل صناديق الخزنة، ولكن سوف يأتي سريعًا - فالأمر مسألة وقت - رجال "جاريبالدي" للانقضاض على الذهب، الذي هو أمر هام وأساسي، والرب وحده الذي يعلم إلى أين ستذهب كل تلك السبائك الذهبية، وفي يد من ستقع في النهاية.

لقد كان تصرفه حكيماً عندما قرر الاستمرار في منصبه كمدير تجاري للبنك، ولم ينصع ويستسلم لرغبة "روسي"، الذي حاول بكل السبل أن يجبره على الاستقالة.

ومع بداية وضوح الرؤية وتبدد الغيوم بلفظ الدولة القديمة أنفاسها الأخيرة وانهيائها، كان يعلم أنه قادر على القيام بما أراد القيام به. التخط الأوراق الهامة للبنك ورتبها في داخل الحقيبة، فهذه الأوراق ستكون معبر "كازا فلوريو" الوحيد للمستقبل بسلام.

كانت "باليرمو" تنتفس رياح "السيروكو" وتنتظر، والجنرال "جاريبالدي" ورجاله على بعد ١٠ كيلومترات فقط من المدينة، والتي تنتظره وتخشاه في الوقت ذاته، وقلقة وغير متيقنة؛ هل تهرع للقاء أصحاب القمصان الحمر، والفلاحين الذين انضموا لـ "جاريبالدي" وساعده في حسم نتائج معاركه، كما هو الحال في معركة "كالاتافيمي"، رغم عدم معرفتهم بفنون القتال، وتحصنهم بشكل خائب في شوارع المدينة؟

انقسمت الأسر إلى قسمين، وانشقت المدينة إلى صفيين؛ البعض آثر التحصن داخل منزله فأغلقوا البيوت بأعواد الخشب والنوافذ، والسيدات بقين يتلون صلواتهن، والرجال يرتجفون وراء النوافذ المغلقة، في حين العديد من الشباب على الجانب الآخر قد حملوا السلاح واستعدوا للانقضاض على العدو.

في الثالث والعشرين من شهر مايو، أصبح الجنرال "جاريبالدي" ورجاله على أبواب المدينة، ليس عن طريق البحر كما توقع "النابوليون"، ولكنهم قرروا اقتحام المدينة من الجبال. بقي سكان "باليرمو" في منازلهم يراقبون ويسمعون أصوات الاشتباكات العنيفة، ويشاهدون غبار المعارك المنبعث من القتال، ويسمعون دوي قذائف المدفعية، وبعد أربعة أيام من القتال والقصف المتواصل للمدينة، استسلمت قوات "النابوليين" المرابطين في "باليرمو" لقوات الجنرال "جاريبالدي"، نائب ملك "سردينيا" "إيمانويل الثاني"، وتم استهداف مدخل المدينة بواسطة مجموعة من الشجعان، ثم

قررت قوات "البوربون" استهداف المدينة كلها بالمدفعية الثقيلة من البحر ردًا على الهجوم، ولكن سبق السيف العزل، فبعد اشتباكات قوية دارت رحاها بين الطرفين في ضاحية "فيا ماكويدا"، تم غزو المدينة والاستيلاء عليها بالكامل، لتسقط مدينة "باليرمو" بعد ذلك في يد أصحاب القمصان الحمر بقيادة الجنرال "جاريبالدي".

انتشرت ميليشيات القمصان الحمر في جميع أرجاء المدينة، وعلى طول "بورتا تيرميني"، قرر الشباب الانضمام كمتطوعين لميليشيات أصحاب القمصان الحمر، الذين يتحدثون الإيطالية بلهجاتها المختلفة والمتنوعة. كان استقبال أهل "باليرمو" لقوات "جاريبالدي" متفاوتًا، ما بين أحضان المرحبين بالمخلصين الجدد من سطوة "البوربون"، والمنشككين في نوايا الغزاة الجدد، فالبعض يلوح من نوافذ منزله بالأعلام، والبعض الآخر يخفي مجوهراته في مكان آمن. كانت الشوارع مغلقة بالأثاث الذي تم تكديسه كمتاريس، وتم فتحها لتكشف عن مقدمة المباني. ليرى "الببيدمونتيون" و"الفيينسيون" و"الرومان" و"الإيميليون" بأعينهم الجمال الحسي، وازدهار المدينة العريقة التي سمعوا عنها من رفاقهم المنفيين؛ الكاتدرائية، القباب المستدقة المغربية، القصر الملكي وما يحويه من فسيفساء "النورمانيين"، التي تقف إلى جوار قصور "الباروك" الفاخرة ذات الشرفات الكبيرة المننقخة، وأكواخ الصيادين الممتزجة مع المباني المقحمة عليها كفيلا أمير "بيوترا"، يالها من مدينة غريبة وعجيبة كما يقولون! فهي فقيرة وقذرة من ناحية، ومن ناحية أخرى فخمة وأنيقة. لم يستطع الغزاة الجدد أن يرفعوا أعينهم عن الألوان الزاهية التي تكسو الجدران، التي تبدو كما لو كانت تعكس أشعة الشمس، ولم يستطيعوا أن يفهموا بالضبط كيف تمتزج رائحة المجاري والصرف الصحي العفنة مع رائحة أزهار البرتقال المزدهرة، وأزهار الياسمين التي تزين نوافذ قصور الأرسقراطيين. لكن، بينما كان الجنود مأخوذون بجمال المدينة وهم يتلفتون حولهم، كان "جاريبالدي" يعلن أنه لا يمكنهم التوقف الآن عن القتال، حتى يطهروا المدينة بأكملها من قوات "البوربون"، وفي تلك الأثناء، كان البعض مشغولًا بتوقيع بعض العقود والاتفاقيات الختامية، وتمركزت الحكومة الإقليمية في مدينة "بلازو بريتوريو"؛ "بالازو دي سيتا" نفسها التي تجمع فيها متمرذو عام 1848.

والآن، وبعد مرور أحد عشر يومًا على هذه الحادثة التاريخية الضخمة، لم يعد سوى القليل من هؤلاء المتمردين، وكل من عاد منهم كان أكبر في السن وأكثر تشككًا، ولكن ليس أقل عزمًا وتصميمًا على إحداث التغيير.

كان لدى العديد من الناس الكثير من الأعمال التجارية المعلقة ليعتني بها، أو معاهدات جديدة ليبرمها، وهذا المكان المزدهم ليس ملائمًا لهذه الأمور، ومن الأفضل أن تنتقل الحكومة الإقليمية إلى مكان آخر أكثر هدوءًا، بعيدًا عن الزحام والأعين المتطفلة.

على طول شوارع "بورتا تيرميني"، وفيما وراء "البلازو أجوتا ميكروستي"، وقبل الوصول إلى "ماجيني كلويسترز"، كان هناك مبنى مهيب وصارم. كانت هناك عربات تسير من دون علامات وهرج ومرج، والعديد من الناس الواقفون خارج البوابات وفي داخل الساحات والميادين.

وفي الداخل، كانت هناك غرفة يتم فحصها كل برهة من وراء الستائر، يجلس فيها أحد قادة التمرد الكبار مع "فينسينزيو" وولده "إنجازيو فلوريو"، بينما يقف جنديان لمراقبة الباب، وكان على كل من يمر بجوار هذا المكان أن يخفض صوته.

كان الأب وابنه واقفين في مكانهما، ووجوههما لا تحمل أية تعبيرات أو مشاعر محددة. بقي "إنجازيو" يراقب والده وحركاته في صمت؛ كان الرجل ينتظر في هدوء.

تحدث "فينسينزيو" دون أي تشدد:

- أنا أكشف عن نفسي بشكل ملحوظ عندما أقدم لك تلك المعلومات الهامة.
ونقر على حقيبتة التي يضعها على فخذة؛ الحقيبة نفسها التي كان يحملها معه عندما كان ذاهبًا للبنك الملكي منذ بضعة أيام.

كل كلمة كانت بمثابة قطرة تكسر جدار الصمت.

- إنه عرض سخّي سأطّلع الجنرال "جاريبالدي" عليه، وسوف ينظر بعين الاعتبار لمساهمتك في إنتاج المدافع، لصالح "أصحاب القمصان الحمر" في "مصنع أوريتا".

- هذا واجبي كصقلي، فضلًا عن أن العمال عندما علموا أن هذه المدافع سوف تُستخدم ضد قوات "البوربون"، لم يهتموا بكم العمل ولا لساعاته الشاقة والطويلة.

- أنت تمتلك بصيرة نافذة، وقدرة على قراءة الأحداث بشكل جيد، والصبر لمعرفة لمن ستميل كفة النزاع.

- نعم، بشكل صحيح.

توقف الرجل عن الكلام لبرهة، وبدأ ينقر بأطراف أصابعه على المكتب. كان يتمتع بلكنة أهل "باليرمو" مختلطة قليلاً باللكنة الأجنبية.

- على كل حال، لقد وضعت أعمالك التجارية في خدمة الثورة، وسأكون أول شخص يضع هذا الأمر في الحساب. لقد أوكل إليّ أمر التفاوض بشأن الاستيلاء على البنك الملكي، ومعلوماتك السرية سوف تعطينا نظرة شاملة وتقييمًا عامًا للموقف، ومسؤوليتك ستقف عند هذا الحد.

أغض "فينسينزيو" عينيه.

أشعل الرجل سيجارًا وهز عود النقباب في الهواء كي يطفئه. كان شاربه أصفر من كثرة تدخين التبغ، ويعتز بسعادة وهو يستنشق الدخان الدافئ. كان ينتفس ويطفئ العادم في مطفأة السجائر، وهناك مسدس بجواره؛ المسدس نفسه الذي استخدمه في تهديد حراس "البوربون" منذ عدة أيام، عندما كان يقود إحدى تشكيلات قوات الجنرال "جاريبالدي"، التي اجتاحت شوارع المدينة.

حلق بـ"فينسينزيو" لبعض الوقت، كأنه يقرأ أفكاره وقال في النهاية:

- تمامًا كما كنت أفكر.

- بالضبط.

سادت فترة من الصمت.

كان "إجنازيو" يراقب في دهشة الثبات الرائع للرجلين؛ كانت مبارزة عقلية ومنطقية بدون عدائية أو اعتداء.

سأل الرجل:

- ماذا؟

- على السلطة أن تقوم بتأسيس مؤسسة ائتمانية على غرار البنك الملكي، لتلبية متطلبات التجارة هنا في صقلية.

ضم "فينسينزيو" ذراعيه على صدره الواسع:

- إذا ما قام "السافويون" بالاستحواذ على "بانكو ريجيو"، فسنكون - نحن التجار - بحاجة لتمويل أنفسنا بطريقة أخرى.

تحولت ستارة دخان السيجار إلى حجاب، يراقب الطرفان أحدهما الآخر من خلاله، أو إلى شبكة تلتقط كل الكلمات المسكوت عنها.

- أنت حقاً رجل غريب الأطوار يا سيد "فلوريو"؛ في البداية قمت بتأجير سفنك البخارية لـ"البوربون" كي يحرسوا الساحل، والآن أنت هنا كي تقدم لنا بعض المعلومات الهامة عن البنك الملكي لـ"السافويين".

حرك الرجل يده، وهو ما أسقط غبار السيجارة على الأرض وجعلها تنتشر على البلاط.
- أنت بالطبع لا تقتقر للانتهازية.

- حسناً. في تلك اللحظة قام الجنرال "جاريبالدي" بالاستحواذ على كل سفني، ولم يعد لدي المزيد. بالنسبة للبقية - وأنا متأكد أنك ستقدر ذلك - فلم أكن في موضع يخولني برفض أي شيء يريدك الملك. على كل حال، أنت لم تحاول أن تتواصل معي في وقت سابق، كما فعلت مع الكثيرين في العام الماضي.

فترة أخرى من الصمت، سادتها الدهشة والحذر:

- آه يا "باليرمو"! كنت أعتقد أنها قادرة على الاحتفاظ بالسر، لكن..

- إن الأمر يتعلق بمعرفة من الذي يجب عليك أن تسأله ومن..

تحرك شارب الرجل الكبير، ليكشف عن التواءات للقم تعبر عن التجهم والازدراء.

- أنت و"كازا فلوريو" تملكان القدرة على رفض أي شيء يُطلب منكما من أي شخص، إن أردت ذلك يا سيد "فينسينزيو"، فأنت تحنكر البريد والنقل في المملكة بالفعل، دون أن تدفع أية ضريبة بفضل التخفيضات التي يكفلها لك الملك. كان يمكنك أن تساعد التمرد منذ أكثر من اثني عشر عاماً، ولكنك أردت ظهرك للثورة، أتذكر؟ لقد كنت هناك، كلانا يعلم، فلا فائدة من إنكار ذلك. لا عليك، هذا أمر عادي، والآن أنت تتحدث بلغة تجارة الأعمال معي أو أنا أرد عليك، وأنا أعتقد أن هذا ما نحن مهتمان به في الأساس.

لاحظ "إجنازيو" أن قبضة يد أبيه بدأت تضيق، وبدأت تبدو عليه علامات الضيق والتوتر، وخاتم العم "إجنازيو" الذي لم يفارق إصبعه ولو لمرة واحدة، بدأ يشع نوراً كالإندازار.

- أنا لا أحب إضاعة الوقت؛ أنا أريد إجابة إما بنعم أو بلا.

تلمس الرجل الثنيات غير الموجودة بالأساس في بنطاله.

- ستحصل على مؤسستك الائتمانية مقابل المعلومات الهامة التي ستقدمها لنا عن البنك الملكي. المشكلة الوحيدة التي قد تقف أمامنا هي عدم موافقة "جاريبالدي"، ولكنني لا أعتقد ذلك. أما بالنسبة للبقية، فاتركها لي.

فتح "فينسينزيو" ذراعيه:

- ستجد بابي مفتوحاً دوماً أمامك.

قام "فينسينزيو" من مقعده، وتحرك "إجنازيو" ليقف إلى جواره:

- سوف أخبرك بما نحتاجه، فلنساعدنا، وسنصبح حلفاءك. فلنعتني ضماناً أن عمالك لن تترتب عليه أية نتائج سلبية، وأن سفني سوف تعود إليّ سليمة كما كانت؛ هذا كل ما هو مطلوب بالنسبة لليوم. ربما سنقوم في المستقبل بمناقشة اتفاقية البريد مع.. من هم في "تورين". هل يمكنك القيام بذلك؟

قدم الرجل يده لـ"فينسينزيو" كي يتصافحا، فقال "فينسينزيو":

- سأساندك وأقدم لك كل الدعم في هذا الأمر، فضلاً عن غيره من الموضوعات.

وقد أشار برأسه نحو حقيبة المستندات.

- إن صقلية ستنزل دوماً بحاجة إلى رجال مثلك، من أصحاب الأكتاف العريضة، من أجل مواجهة المستقبل الذي ينتظرها. أنا أقول هذا من موقعي كسكرتير عام للدولة الجديدة.
للمرة الأولى، تجرأ "إيجازيو" على الكلام، وقال بلطف وهدوء:
- وأنت ستبقى دوماً دعماً لنا وسنداً كمحام، ورجل أفعال لا أقوال.
لم يكن ما قاله "إيجازيو" طلباً، بل أمر مؤكّد، حقيقة وواقع.
كان صوته أجش مثل صوت والده، ونبرة صوته لا تحمل أي فروق جوهرية عن نبرة صوت أبيه.
أردف "إيجازيو":

- آل "فلوريو" لا ينسون هؤلاء المخلصين الذين وقفوا في صفهم وساندوهم. في "باليرمو"، نحن نستطيع أن نعتمد على أي شخص أيّاً من كان، سواءً من "البوربون" أم من "السافوي"، وأنت تعلم بالضبط ما أعنيه بذلك.

وقدم له يده كي يصافحه، فصافحه الرجل ثم صافح "فينسينزيو".
لم تكن لديهم أية وسيلة ليعرفوا أن هذا الرجل - "فرانشيسكو كريسيبي" أحد المتمردين السابقين - أحد أتباع "مازيني" السابقين المشتبه بهم في الاغتيالات السياسية، والذي سيكون في المستقبل رئيس الوزراء ووزير الخارجية، ووزير داخلية مملكة إيطاليا.. سوف يصبح محامياً لـ"كازا فلوريو".
بدا اليوم كيوم عادي، تواصلت الحياة في "باليرمو" بعد انتهاء المعارك واستسلام المدينة لـ"السافويين".
وصلت طلائع السفن المحملة بالبضائع المختلفة إلى "لاكالا"، لكي تفرغ شحنة من التوابل والأقمشة والأخشاب والسماق، والعربات الكارو المتراصة والمحملة بالكبريت والمالح واقفة على رصيف الميناء، تنتظر ليتم تفريغها وتعبئتها من جديد. من على بعد، يمكن سماع صوت أجراس الكنيسة معلنة موعد صلاة الغروب، الذي ينقطع مع صوت مخالب أول طائر "سنونو" يحك في أحجارها، وفيما وراء ذلك، يمكننا أن نسمع صوت المطارق والمكابس داخل مصنع "أوريتي".
في الشوارع؛ ما بين الصخور البركانية والجدران الحجرية، يذهب أهل "باليرمو" ويجيئون بعيونهم السوداء، وأيديهم التي تشبه النحاس، وشعرهم الأحمر وبشرتهم البيضاء كالحليب، أناس مختلطون يرحبون بأناس آخرين.

مروراً بـ"كاستلامارا"، بدأت تتشكل هناك مدينة جديدة، فيلات وبيوت الطبقة الثرية الجديدة، والصاعدة وسط المناطق المزروعة بالخضروات وبساتين الزيتون؛ مجموعة جديدة من المنازل الأنيقة التي بنيت على أطلال "بلاززي" القديمة وبداية حياة جديدة. كانت المدينة محاطة بالحدائق المزينة بالنباتات الغريبة المستوردة من المستعمرات البريطانية والفرنسية.

هناك، سيثيد "إيجازيو فلوريو" قصر "أوليفوزا"، وهناك سيولد "إيجازيو" و"فينسينزيو" آخران، وهناك سيتم بناء فيلا "وينكر"، ولكن ما زال من السابق لأوانه أن نروي هذه القصص، أو كيف.
هناك أيضاً ستشيد أكواخ "أرت نوفو" أو "الفن الجديد"، والتي ستتم إزالتها لصالح بناء العمارات الخرسانية القميئة. لا، ما زال الوقت مبكراً على القيام بذلك. حتى الآن، ما زالت "باليرمو" ثمة وغير واعية بما يحدث بشكل كامل، تقف على عتبة مستقبل مملوء بالغموض وعدم الوضوح؛ منتظرة لتكتشف ما يريده الحكام الجدد، الذين وصلوا كمحررين للبلاد من ظلم وعدوان وفساد "البوربون"، والمدينة تسودها حالة من عدم الثقة في الوافد الجديد إليها، إذ قد أتى عليها العديد من الغزاة. فـ"باليرمو" كالمحظية التي تبيع نفسها للجميع بحثاً عن الاستقرار والعيش الهادي، ولكنها في

النهاية تنتمي لنفسها وحسب، وهذه المدينة التي تختلط فيها رائحة الروث برائحة الياسمين، قد تلقت أخبارًا محزنة وغير متوقعة.

"فينسينزيو" و"إجنازيو" موجودان الآن داخل مكتب البنك الوطني الجديد؛ "فينسينزيو" كرئيس للفرع الموجود في "باليرمو"، ويعاونه ابنه "إجنازيو" ويعمل معه، وهما الآن يتحدثان عن استيراد نبيذ "مارسالالا"، لأن نبيذ "مارسالالا" الذي يخرج من مصانع آل "فلوريو" نال في "معرض فلورنسا" جائزة النبيذ الأكثر مبيعًا لعام ١٨٦١ في إيطاليا، وباعتباره أحد أفخر أنواع النبيذ في فرنسا، فاز هناك أيضًا بميدالية أخرى.

لم يضيع "إجنازيو" الوقت سدى عندما عينه والده مديرًا لمصنع النبيذ هناك: - وبالطبع يا والدي، كنت أفكر في خلق طريقة جديدة لحفظ النبيذ جانبًا، استعدادًا للمعارض العالمية التالية، فحصل نبيذ "مارسالالا" على جائزة أفضل نبيذ والأكثر مبيعًا في إيطاليا لا يجب أن يمر هكذا مرور الكرام..

قبل أن يكمل "إجنازيو" كلمته، فوجئ الجميع بقدم أحد الموظفين وهو يلهث، وعندما رأى "فينسينزيو"، انحنى أمامه على الفور وقال: - السيد "فلوريو"، هناك رسالة لك من الدوقة "سبادافورا".
أمسك "فينسينزيو" بالخطاب؛ كان سميكًا، والورق مصنوعًا من خامة فاخرة، وبه ورقة بيضاء كتب عليها بيد مهترزة اسمه. همهم "فينسينزيو":
- إنها زوجة "بن"؛ ماذا تريد يا ترى؟

نظر "فينسينزيو" مرة أخرى للرجل اللاهث وتردد في فتح الخطاب، فجأةً، شعر بأن الجواب ثقيل جدًا في يده، وكأنه كان يعلم أنه يحوي خبرًا محزنًا بالنسبة له، ثم فتحه وبدأ يقرأ ما فيه.
كان منزل "بن إنجهام" يعج بالوافدين، لدرجة أن الناس من شدة الزحام كانت تقف على الدرج وفي الشوارع المجاورة للمنزل، ويتدافعون نحو البوابة الأمامية للمنزل. عندما وصل "فينسينزيو" إلى البيت، وجد حشدًا من الموظفين والبحارة وملاك السفن والتجار، يفسحون له الطريق كي يمر إلى الداخل.

شاهد "إجنازيو" والده وهو يتجه نحو غرفة النوم الخاصة بـ"إنجهام" بخطوات متناقلة وبطيئة، ورأى كتفه ورأسه وهو محني، ووضع يده على كتفه. نظر "إجنازيو" هو الآخر.
كان جسد "إنجهام" مسجى على سريره، وهو مرتدٍ لملابسه المحاكة على الطراز الإنجليزي، وقد وضعت الشموع على حافة السرير، وأحد القساوسة الإنجلييين يرتل بعض الصلوات، وبجواره مجموعة من المخلصين وقد جنوا على ركبهم بجوار الجنان يصلون، لظالما كان "بن" رجلًا متدينًا. كانت الدوقة "سبادافورا" جالسة في أحد الأركان على كرسي بمسند بجوار جنان زوجها، وبدت كما لو كان هناك من لطمها على وجهها؛ كان وجهها منتفخًا ومصابة بالدوار، وظلت تعبت بخاتم زواجها من "بن"، إذ تزوجها "بن" في النهاية، وأصبغ على علاقتهما الشرعية رغم معارضة ابن أخيه لهذه الخطوة.

وبعيدًا، وقف "وينكر" وزوجته "صوفيا" إلى جواره، وابنهما الثالث من بين اثني عشر طفلًا، يحيون من يقدمون واجب العزاء في "بن إنجهام"، وإلى جوار الدوقة يقف "جابريل شيارامونت بوردونارو" وقبعته في يده؛ كانوا ينظرون إلى الفراش وهم غير مصدقين لما حدث.

عندما رأت "أليساندرا سبادافورا" "فينسينزيو"، ووقفت في مكانها مندهشة، وبدت كمن أصابها الدوار وعلى وشك السقوط، فاحتضنها بكلتا يديه، فكلهما يتيم، ولكن كل بطريقته.
قال "فينسينزيو":

- كيف حدث ذلك؟

سألها وهو يساعدها على العودة مرة أخرى إلى كرسيها، فأجابته:
- حمى مفاجئة أصابته ليلة أمس؛ أصبح وجهه فجأةً شديد الاحمرار، ولم يستطع أن يتنفس.
حاولت أن تقترب من "بن" وتقلب وجهه؛ لقد ارتخت تجاعيد وجهه وبدأ هادئاً كأنه يرقد في سلام، ثم لفتت نظره لعلامة سوداء في جسده وأردفت:

- يقول الطبيب إن هناك وريداً قد انفجر في رأسه، وقبل أن يصل الطبيب، كان قد..
لم تستطع أن تتطرق بالكلمة ولا أن تتمالك نفسها، وانفجرت في البكاء وتشبثت بذراع "فينسينزيو".
كانت هناك غصة في حلق "فينسينزيو" منعه من الكلام، ولم يستطع أن ينظر إلى الجثمان ولسان حاله يقول لا ليس هو، وكبح دموعه بكل ما يملك من قوة.

"بن"، الذي هناه على قرار زواجه من "جيوليا"، "بن" الذي لطالما كان يعامله كمنافس ولكن ليس كعدو وخصم، "بن" الذي كان صديقاً لعمه "إجنازيو" واصطحبه في إحدى البواخر التي كان على وشك السفر بها إلى إنجلترا، "بن" الذي منحه فرصة رؤية الريف الإنجليزي والتمتع بجماله ونقائه، "بن" الذي سبق وقدمه لترزيه.. "بن إنجهام" باختصار هو الأخ والصديق والمنافس والشريك والمرشد والناصح.

من أجل كل ذلك، يجب على "فينسينزيو" أن ينطق بكلمات الوداع، لقد أصبح وحيداً في هذا العالم المجنون أكثر فأكثر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تمتد حدائق وبساتين الموالح أمام ناظري "جيوليا" على تلال "سان لورنزو" المقابلة. لقد كانت السماء تمطر منذ برهة. أوراق الشجر تلمع بسبب مياه الأمطار، تلمع في شمس الظهرية، وريح من الرطوبة وجد طمأنينة تصعد من الأرض.

هذا ليس بالوقت المناسب، فمزاج "فينسينزيو" سيئ للغاية، فهو غاضب من الموقف السياسي الذي ظهر بعد إلحاق صقلية بمملكة "السافوي"، ومن "السافويين" الذين أصبحوا يتصرفون ليس كملوك ولكن مثل الأسياد، فهم يزجون بقوانينهم وموظفيهم في كل مفصل من مفاصل الجزيرة، ولا يصغون لنصيحة أصحاب الخبرة الأوسع والدراية الأكبر بأحسن الطرق، للتعامل مع الصقليين الذين يمتلكهم شعور بعدم الثقة في الحاكم الجديد، ولكن في الوقت نفسه قد يقدم لهم الصقليون العالم بأسره تحت أقدامهم إذا منحوهم القليل، ولكن بدلاً من ذلك، يأتي هؤلاء الوافدون الغرباء ويضعون القوانين الغشيمة المجحفة، دون أن ينصتوا لنصيحة أهل الخبرة والرشاد، وبلا وعي وبلا فهم.

كان "إجنازيو" مستغرقاً في العمل، و"جيوليا" وحيدة ليس لديها الآن من تعتني به؛ فـ"أنجلينا" و"جيوسبينا" أصبحتا لديهما عائلات، وحماتها لديها خادمتان ترعيانها ليل نهار ولا تتركانها طرفة عين.

شعرت شعوراً عميقاً بلدغة العزلة والوحدة، بعد أن كان البيت يعج بالصخب والحركة؛ أصبح ساكناً وفارغاً من الحياة، ولكن ما يقلقها أكثر من أي شيء آخر هو "فينسينزيو"؛ الذي تشعر أنه قد فقد شغفه بها، وفي كل ما تريد وتحلم به، وأن الشجار الذي دار بينهما دليل على ذلك، ومجرد التفكير في

هذا الأمر يثيرها ويجعل الدماء تغلي في عروقها؛ كيف سولت له نفسه أن يخرسها بهذه الطريقة القاسية والمهينة؟ ولماذا قال لها هذه الأشياء القبيحة التي خرجت من فمه؟ "جيوليا" لا تحب العيش في هذا البيت، فهو ضخم ويتألف من طابقين، وغرفة واسعة للرقص، وركن للزوار، وإسطبلات للخيول، ومزرعة. اشتراه "فينسينزيو" منذ أكثر من عشرين عامًا قبل أن يتزوجها. بالطبع هو مكان أنيق ورائع، يليق بالأرستقراطيين. في الواقع، تقع بجوار فيلا الأمير "لامبيدوزا" وبيت الصيد الخاص بـ"البوربون"؛ "بلازينا سينيز"، إنه موقع ممتاز ومبهج ورائع يعج ببساتين الموالح، وبه طريق تصطف على جانبيه الأشجار يؤدي في النهاية إلى البحر و"الموناديلو"، ويقسم "فافوريتا" إسنيتا لنصفين.

"فينسينزيو" و"إجنازيو" خصوصًا يفضلانه على "كواترو بينتزي" في فصل الصيف، ولكن قلبها وذكرياتها عالقة في الشباك التي تحيط بـ"الأرنيليا" أو "التونارا"، فهو جزء من حياتها وبطريقة معيشتها؛ فقط لو استطاعت، لحزمت حقائبها وتركت الرجلين، وعادت إلى ذلك المكان السعيد. مالت "جيوليا" على حجر "التوف" المسامي المحازي للشرفة المدعومة من قبل الأعمدة. ظهر أحد الخدم خلفها وقال:

- سيدة "جيوليا"، هل تفضلين الكرسي ذا المسند؟

- لا، أشكرك يا "فيتوريو".

شعر الرجل بحاجتها للعزلة وقضاء بعض الوقت بمفردها، فقرر الرحيل.

لم يهدأ غضبها، بل على العكس، كانت تتأجج وتتصلب وتمتلئ بالضغينة والحقد.

سمعت "جيوليا" صوت النافذة الفرنسية وهي تُفتح من ورائها، وصوت خطوات أحدهم قادم. بعد ذلك بقليل، ظهرت يدا "فينسينزيو" بجوار يدها. وقفا صامتين، بكبر، كل منهما ينتظر أن يبادر الآخر بالاعتذار.

بقي "فينسينزيو" منتظرًا خلف الباب الزجاجي المؤدي إلى بستان الموالح. يعلم أنه قد أخطأ بشكل كبير، وقال لحبيبته ورفيقة عمره "جيوليا" كلامًا ما كان له أن يُقال، لكن ما أثار حفيظته هو ما قالتها "جيوليا"؛ فمنذ متى وهي ترغب في أن تتحدث في شؤون السياسة والاقتصاد كندُّ له؟ صحيح أنها تعلم الكثير والكثير من خلال قراءتها للكثير من الكتب، وهو ما جعلها تعرف أكثر من كثير من الرجال، ولكنها في نهاية المطاف امرأة.

بدأ الأمر كله على الغداء؛ كان "فينسينزيو" و"إجنازيو" يتحدثان عن الموضوع الذي ظهر بقوة خلال فترة الاحتلال المسعورة لـ"جاريالدي"، عندما تم الاستيلاء على سفن "كازا فلوريو" بواسطة "البوربون".

- لقد قررت حكومة "السافوي" الاحتفاظ بثلاث من الخمس بواخر التي نمتلكها، بحجة الاستعانة بها في نقل القوات، ولكن الآن، وبعد مرور عام كامل على انتهاء الحرب، يشكون من أن خدمات توزيع البريد تم وقفها، والأدهى أنهم يطلبون مني دفع غرامة بسبب الخدمة المقطوعة، وكأن خدمة توزيع البريد متوقفة بسببي أنا، وليس بسبب احتجازهم لبواخرنا.

وضع "فينسينزيو" شوكته بقوة على المائدة من شدة الغضب، لدرجة أنها سقطت على الأرض. أردد "فينسينزيو":

- أسوأ ما في الأمر أنهم لم يكتفوا بإغراق إحدى بواخري، ولكنهم وبكل فجاجة يطالبونني بدفع غرامة!

بينما كان أحد الخدم النشطين يحضر شوكة بديلة لـ"فينسينزيو" عن تلك التي سقطت على الأرض ليكمل طعامه، كان "إجنازيو" قد جفف فمه بفوطه المائدة، وقال:

- لا شك في أن الاتفاقية التي عقدناها مع حكومة "البوربون" كانت على وجه التحديد مربحة جدًا بالنسبة لنا يا أبي. إن المشكلة الحقيقية التي يشتكون منها هي أن أنماط النماذج الرسمية والطابع لم تصل في الوقت المتوقع عليه، ولم يعد أحد يكثر بالرسائل.
تساءل "فينسينزيو":

- وهل سيحاولون أيضًا غزو الساحل؟ إنها الخدمات البريدية، ونحن تحت إمرة حكم جديد. نحن من عانينا من جراء تلك الحرب اللعينة، ثم من الذي أعطاهم الحق بفرض الغرامات علينا؟
تدخلت "جيوليا" على غير المتوقع في الحوار وقالت:

- كان يمكنك أن تستأجر بعض السفن الأخرى؛ أنا أقصد أنك قد عقدت اتفاقًا عليك أن تقي بالتزاماتك، أليس كذلك؟

عندما سمع الرجلان هذا الكلام، ارتبكا أكثر من كونهما صُدما، والتفتا ونظرا إلى "جيوليا" بتعجب شديد. أكملت "جيوليا":

- عندما يوقع أحدهم عقدًا، عليه أن..

أجابها "إجنازيو" بهدوء، وهو ينظر إلى طبقه الفارغ حتى لا يفقد أعصابه، وليخفف في الوقت ذاته من وطأة الموقف، لأن والده كان غاضبًا جدًا مما قالت أمه ويخشى عليها من ردة فعله:

- إن الأمر لا يستحق عناء أن نضع السفن وطاقمها في خطر. لقد أرسلنا بعض السفن المبحرة الخاصة بالشركات التي تعمل معنا، ولكن ليس بالطبع البواخر.
أضاف "فينسينزيو":

- الوضع خطير بالفعل، لأن "باليرمو" وصقلية بأسرها قد تم اجتياحهما من قبل قوات "جاريبالدي"، و"البيدمونتيين" كمحتلين جدد للجزيرة يؤدون أداءً أسوأ بكثير من "البوربون"، على الأقل حتى الآن، والأخطر أنهم لا يستمعون لصوت العقل ولا لمشورة أو نصيحة مخلص، وكل ما فعلوه أنهم أتوا إلى هنا وغيروا كل شيء، وفرضوا علينا طريقتهم في العمل فحسب، دون مراعاة للمكان وظروفه وطبيعة أهله، ونحن بالطبع لا يمكننا أن نضع باخرة بأكملها في أتون الخطر، كي نوصل الرسائل والخطابات التي يتبادلها العم "بيبينو" والسيدة "ماريانا" فيما بينهما. يمكنني أن أنقهم أمر النماذج المتأخرة، لكن البقية..

ثم أكمل "فينسينزيو":

- الحقيقة أنك أوقعت نفسك في الخطأ، عندما تدخلت دون علم أو معرفة في هذا الأمر.

تدخل "إجنازيو" كي يحاول أن يكبح ردة فعل أبيه على ما قالت "جيوليا":

- سوف أشرح لك كل شيء خلال الأيام القليلة القادمة يا أمي، فالموقف أكثر تعقيدًا مما يبدو، والأهم هو أن الأمر لا يتعلق فقط بمصالحنا الشخصية المعطلة، ولكن بمصالح هؤلاء الناس الذين يعملون معنا، لهذا قررنا أن نؤسس في العام الماضي هيئة النقل البحري للبريد.

وقف "إجنازيو" وقال:

- والآن، أستميحكما عذراً، فيجب عليّ أن أذهب الآن إلى الطابق العلوي يا أبي، كي أتابع بعض الأعمال.

أشار "فينسينزيو" للطابق العلوي كعلامة على السماح له بالصعود إلى الأعلى، حيث تنتظره التقارير الطويلة الخاصة بمسبك "أورتيا"، الذي يعمل على خدمة البواخر.
قال "فينسينزيو":

- وأنا سأنضم إليك في وقت لاحق.
بعد أن تركهما وحدهما، تبادل هو و"جيوليا" بعض النظرات المنزعجة.
- لقد استطاع ابننا أن يسكتك دون أن يظهر أية بادرة من عدم الاحترام؛ أنا أكره ذلك!
- إذا لم تلاحظ، "إجنازيو" يتمتع بحساسية ولباقة أكثر منك.
طلب من الخادم أن يحضر له بعضًا من شراب الهضم، فأخذ أصبح تناول الطعام والهضم مؤخرًا بالنسبة له عملية طويلة ومؤلمة جدًا.
- لا، الحقيقة هي أنك رفضت تقبل ما يحدث الآن من تغيرات، لقد أخبرتني أكثر من مرة أن صقلية لا يمكنها التحرك بعيدًا معتمدة على نفسها، ونحن بحاجة لما يشبه الحماية البريطانية أو شيئًا من هذا القبيل، والآن..
قاطعها "فينسينزيو":

- وماذا تظنين في "البيدمونتيين"؟ هل تعتقدين أنهم شيء مختلف عن الحماية البريطانية في شيء؟ إنهم لم يفعلوا شيئًا لنا على أرض الواقع سوى أنهم حوّلوا صقلية إلى واحدة من مستعمراتهم، وفوق كل هذا، استولوا على ثروات "البوربون" وأرسلوها لـ"بيدمونت"، لكي يسددوا نفقات حملة التوسع والضم. الإلحاق، هل تسمعينني جيدًا؟ إنها مسرحية هزلية، كذبة قام بتمثيلها ملوك "نابلس" والمحتلون الجدد القادمون من "تورين" معًا، وهذه مجرد بداية!
ردت "جيوليا":

- مشكلتك الحقيقية هي أنك لا تحتمل أن يُملى عليك ما الذي يتوجب عليك أن تفعله، لطالما كنت وستظل هكذا، أليس كذلك؟ معي، ومع أولادك، وفي أعمالك التجارية، وستظل كذلك إلى الأبد؛ تقوم بالأشياء بالطريقة التي تريدها. لماذا لا تحاول بدلًا من ذلك أن ترى الخير الذي قد يأتي من كوننا قد أصبحنا أمة موحدة، من جبال الألب وحتى "مارسال"؟ ألا يعني لك هذا شيئًا؟ وماذا لديك لتقوله بشأن هؤلاء الذين ضحوا بأنفسهم من أجل تلك الأفكار والمبادئ السامية؟
وقف "فينسينزيو" فجأة في مكانه، وقد بدت على وجهه علامات الغضب والضييق وبدأ صبره ينفد.
مال "فينسينزيو" عليها، وقد اكتسى وجهه بحمرة الغضب، وتحدث إليها مباشرة:
- حتى لو حكّمنا يا "جيوليا" قيصر روسيا، فلن أتغير، هل تفهمين ذلك؟ "كازا فلوريو" لا تقف عند حدود "ماسينا"، وما أريده هو لي وحدي، وليس من حق أحد على هذا الكوكب أن يعتدي على عالمي، وكل ما يحاولون فعله هو أن..
ووضع إحدى يديه على فمه، كي لا يتلفظ بألفاظ حادة أو شتائم.
"ليس معها"، هكذا قال لنفسه.

اعتدل مرة أخرى بشكل مستقيم، واستمر في الكلام بنبرته الحادة والباردة نفسها:
- لقد أخبروني أنه يجب عليّ أن أغير سفن نقل البريد لكي تصبح أسرع، وإلا فسيستردون العقود مني مرة أخرى؛ عقودي، ويسلمونها لشركات "الجنوبيين". هذا هو ما يريدونه، وأنا سوف أعطيها لهم، ولكن عليهم أن يدفعوا لي نظير ذلك، لأنهم يعلمون جيدًا أنني الوحيد القادر على تغطية الخط الساحلي الذي يطلبون تغطيته، ولن أسمح لهم أبدًا بأن ينتزعوا مني ما حصلت عليه بكدي وتعبي

هكذا ببساطة، حتى لو اضطررت لأن أتعامل مع بعض المهرجين والمتباهين، الذين يتحدثون بتلك اللكنة الملتوية، وليكن ما يكون بعد ذلك، ولكن يجب عليّ أن أحمي مصالحي وكل ما قمت ببنائه بكل ما أوتيت من قوة، وأبدأ، لن أتكلم على شخص آخر أو أي شيء آخر، فـ"كازا فلوريو" هي ملك لي ولابني من بعدي، وهذا شيء، حتى أنت؛ التي تشبهينهم في طريقة التفكير، عليك أن تعيه جيداً، أو أن تكوني قد فهمته منذ وقت طويل.

وقفت "جيوليا" في مكانها؛ كان وجهها شاحباً لطريقة كلام "فينسينزيو" معها، ودون أن تلتفت إليه، تركت الغرفة وانسحبت من الحوار.

- ماذا الآن؟

تساءل "فينسينزيو".

اقترب منها بحرص ونادى عليها، فلم تجبه وتصلبت في مكانها، "جيوليا" بطبيعتها عنيدة ومتصلبة الرأي، رغم أن السنين والعشرة الطويلة قد خففت من حدتها بعض الشيء، ولكن هناك شيء بداخلها لم يستطع الزمن أن يكسره، فهي تشبه شجرة "الدراسينا" التي تلقي بظلالها على سقف الفيلا؛ خضراء ومضيئة ولكن غير مرنة.

والحقيقة هي أنه لا يستطيع أن يعيش دون "جيوليا"، ليس في هذه الحياة ولا في ألف حياة أخرى تالية لها.

قالت "جيوليا":

- لا تقم بفعل ذلك مرة ثانية أبداً، أفهمت!؟

نظقت "جيوليا" كل كلمة تقولها ببطء ووضوح، وبلكنتها الميلانية التي طغت على السطح، كما هي عاداتها عندما تكون غاضبة.

وأضافت:

- لا تتجراً وتتنصرف معي بهذه الطريقة الفجة والمحرجة، وكأنني غبية مرة أخرى!

- وأنت أيضاً لا تُقديني أعصابي، ولا تخرجيني عن شعوري بأقوالك وأفعالك الغريبة.

- لقد أمضينا معاً أكثر من ثلاثين عاماً، ومع ذلك ما زلت تعتبرني غريبة، وماذا عنك أنت؟ فلنتذكر من كنت ومن أين أتيت، فأنت أحد أبناء "الكاليريبيين" الفقراء الذين أتوا إلى "باليرمو" بينطالات مرقة، أتذكر ذلك؟

صاحت بصوت عالٍ، وأشارت بأحد أصابعها نحو صدره.

- هذا ما لا أطيق أن أحتمله منك، لأنك لا تلاحظ أننا متماثلان، فلماذا تعاملني هكذا؟

إنهما متماثلان؛ هذا حقيقي، وهو يعرف ذلك، ولكنه أبداً لن يعترف به لها، فالرجل لا يمكنه أن يعتذر لامرأة.

وقف صامتاً في مكانه دون أن يجيب عليها، امتلأت جبهته بالخطوط والتجاعيد، وملاً عينيه مزيج من التحفظ والصبر والاحتمال، فعلى مدار ثلاثين عاماً - نعم ثلاثون عاماً - لم يتمكن من ترويضها، وهذه هي طريقته في الاعتذار؛ الطريقة الوحيدة التي يعرفها للاعتذار.

نظر إلى السماء، وأمسك بيدها، فحاولت أن تقلتها لكنه لم يسمح لها.

دفعته "جيوليا" بعيداً وقالت:

- كان يمكنني أن أطرده عندما أحضرك أخي إلى البيت، فأنا لم أرَ من بعد أن عرفتك سوى البؤس والشقاء.

- هذا غير صحيح.
- لا، بل صحيح.
- ما تقولينه غير صحيح.
كررها على مسامعها مرةً أخرى، وقد سحبها من معصمها.
- ما من أحد قد أعطاك ما أعطيته أنا لك، وما كان لأحد أن يفعل.
هزت "جيوليا" رأسها، وحاولت أن تحرر معصمها من قبضته بكل ما أوتيت من قوة.
- أنت لم تمنحني الاحترام الكافي يومًا يا "فينسينزيو"، أبدًا، وإن لم أكافح من أجل الحصول عليه
لكنك قد أخرستني للأبد.
ابتعدت عنه تاركة إياه يقف وحيدًا تحت أشعة الشمس البرونزية، التي كانت في طريقها للغروب
خلف الأشجار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- أغلقي النوافذ يا "ماروذا"، فالليلة شديدة البرودة.
تحركت الخادמות بسرعة لملء المدفأة بالكثير من الفحم، فتصاعد منها شريط من الدخان، الذي
سرعان ما تبدد بسبب تيار الهواء البارد الذي تسلل إلى الداخل عبر النافذة. كان عام 1862 عامًا
باردًا، إذ بدأ بالأطمار والبرد والعواصف؛ إنه فبراير باردٌ جدًا.
شكر "فينسينزيو" الخادمة وأشار إلى الباب كي تذهب. كان يجلس وحيدًا وهو ينظر إلى المرأة
النائمة تحت الغطاء، كانت دقائق قلب أمه ضعيفة، دقة بدقة، فسنوات العناء والغضب والندم والقليل
من الحب الذي حظيت به قد فعلت فعلتها معها.
في وقت مبكر، وبعد انتهاء الطقوس الأخيرة، التي قام بها كاهن الأبرشية "سان دومينيكو"، خرجت
"جيوليا"، وقد أخبرته أن يناديها إذا ازدادت الأمور سوءًا، كما لو أن الأمور لم تسوء بالفعل لأقصى
حد ممكن.
كان النفس يكافح كي يجد له مدخلًا داخل هذا الجسد المنهك، ليفقد قوته ويتحول في النهاية إلى تمتمة.
على ملاءة السرير، تمددت يداها كقطعتين من الشمع والعظم.
صحيح أن أمه ما زالت على قيد الحياة، ولكن لأمد قصير سرعان ما سينقضي، فمنذ عدة أيام كانت
تتقلب ما بين الغيبوبة واليقظة الصعبة، لا تنام نومًا معهودًا، ولكنها تنزلق إلى حالة اللاوعي التي
باتت تطول في كل مرة.
شعر "فينسينزيو" بحالة من عدم القدرة على التنفس في صدره، وتعجب في حيرة؛ لماذا يجب على
الإنسان أن يعاني كل تلك المعاناة؟ لماذا لا يرفق الموت بالإنسان، ويقبض روحه في هدوء وبساطة،
دون أن يلحق الضرر به؟ لماذا يجب أن يكون الرحيل للقاء الرب بألم الولادة نفسه؟ هكذا الأمر؛
معاناة طويلة يعانيتها الإنسان مرةً أخرى، عندما يحين الأجل ويعود ليقف بين يدي الرب مرةً أخرى
أو من ينوب عنه، هكذا يقولون.
ارتخى في كرسيه وتمدد، وعاد بظهره للخلف ليسترخ، وأغلق عينيه. تذكر لحظة وفاة عمه
"إجنازيو"، وفهم الآن إلى أي حد كان القدر رحيماً معه.
غفا دون أن يدري، إلى أن سمع صوت هسهسة ملابس.. أيقظته فجأة من غفوته، فقال:
- أمي!

صاح وقفز ووقف على قدميه، وهرع نحوها متجاهلاً حالة الدوخة وعدم الاتزان التي تسببت فيها تلك الاستفاقة السريعة.

كانت "جيوسبينا" تتلمس الغطاء، فرفعها بكلتا يديه وأقعدتها كي تتمكن من التنفس بشكل أسهل. قال "فينسينزيو":

- كيف حالك الآن؟ هل ترغبين في بعض الحساء؟

كان فمها نصف مفتوح في التواءة، وأشارت بيدها بنعم.

كانت تتبعث من جسدها رائحة غريبة هي مزيج من بودرة التلك والكولونيا والبول والعرق، ورائحة الشبخوخة التي تخفي تلك الرائحة الجميلة الحلوة التي كانت تتمتع بها عندما كانت شابة؛ رائحة أمه الحقيقية.

فكر للحظة أن ينادي على إحدى الخاديمات كي تغير لها على الفور، ولكنه عدل عن الفكرة وقرر أن يؤجلها إلى حين حتى ينفرد بها لوقت أطول، ويقضي معها وقتاً أطول على انفراد.

مسح على جبهتها بيديه، وسرح بيديه خصلات الشعر التي هربت من جرائلها، وقال لها:

- كيف حالك؟

قالت "جيوسبينا":

- كل شيء يؤلمني، كأن مجموعة من الكلاب المفترسة تنهش في كل قطعة من جسدي.

بللت الدموع الساخنة جفونها، فجففهما بيديه، وقال:

- إن كنت تعتقدين أنك قادرة على الابتلاع، فسأعطيك بعض الدواء المسكن الذي قد يريحك.

وأشار إلى صف كامل من زجاجات الأدوية، والمساحيق المرصوفة على الطاولة المجاورة للسريير. لكن "جيوسبينا" هزت رأسها، ونظرت فيما وراء الشمس، لتبحث عن ضوءها، ولكنها لم تجده.

- هل نحن بالليل؟

- نعم.

- و"إجنازيو"، أين حبيبي "إجنازيو"؟

- بالخارج، لقد خرج.

لا داعي لإخبارها أن "إجنازيو" حفيدها المفضل مشغول الآن بمسؤوليات "كازا فلوريو"، ويدير في الوقت ذاته مصنعاً ومخزن نبيذ "مارسالالا"، حيث يقضي معظم وقته هناك، وأنه في هذه اللحظة في اجتماع خاص مع مجموعة من أعضاء البرلمان الصقليين، ومن بينهم المحامي الجديد والمناضل القديم "فرانشيسكو كريسبي".

أشارت أمه لزجاجة الماء، فصب لها بعضاً منه وساعدها على الشرب، فتناولت رشفة بسيطة بالكاد بللت شفثيها.

- شكراً لك يا حبيبي.

أغلقت "جيوسبينا" عينيها بدافع الإرهاق أكثر منه بدافع التعب والرضا، واستسلمت للنوم.

فكر "فينسينزيو" كيف أن أشياء بسيطة مثل رشفة من الماء، وملءات نظيفة، وضغطة على اليد بحنان، وبعض الماء البارد، كافية لأن يشعر الإنسان بالسعادة.

قالت "جيوسبينا":

- فلتبق إلى جوارى لبعض الوقت.

أطاعها "فينسينزيو" كطفل صغير، وبقي إلى جوارها. في تلك اللحظة، شعر كأنه عاد طفلاً صغيراً خائفاً من أن يُترك وحده بعيداً عن أمه، ليعاني ألم ومرارة غياب أمه. حزن حمله في صدره، حين لاحظ أن والده "باولو" على وشك الموت، وقد مات "بن" هو الآخر؛ هذه الخسارة مريرة وصعبة التقبل، وبعد قليل تنتظره الخسارة الكبرى. بالطبع، ستبقى "جيوليا" و"إجنازيو" دوماً إلى جواره، ولن يتركاه أبداً، لكن أمه هي أكثر عضو في العائلة بقي معه وإلى جواره. للحظة، تمنى أن يعود صغيراً مرةً أخرى كما كان، وأن يتخلى عن كل شيء حققه في مقابل أن يعود صغيراً مرةً أخرى، لكي تقوم أمه بتدليله وتهدهه بين ذراعيها. وكان "جيوسبينا" قد قرأت أفكاره، قالت له:

- لا تتركني وحدي.

وقد امتلأ صوتها المبحوح بالخوف.

قَبَل "فينسينزيو" جبهتها واحتضنها، وهمس في أذنيها بكل شيء لم يكن قادراً فيما سبق أن يخبرها به، وسامحها على كل الأخطاء التي لاحظ أن أي أم قد ترتكبها. تلمست "جيوسبينا" وجهه:

- أنا أتساءل بيني وبين نفسي في بعض الأحيان، كيف كانت الأمور ستسير بيننا لو أن أباك "باولو" بقي على قيد الحياة، وأن الطفل الآخر قد ولد؟

بدأ يبكي ويرتفع صوت نحيبه. لم يكن يعلم، لكنه همس في أذنيها، فهو بالكاد يتذكر "باولو"، ولكنها لم تكن منصتة إليه، ونظرت نحو مسند القدم وقالت:

- أعلم أن الرب سيحضر من أجلي لأنه يعلم ما في قلبي، وأتمنى أن يسامحني على كل أفكاري الشريرة التي حملتها في صدري وقلبي.

- بالتأكيد الرب يعلم كل ما في قلبك، وبالطبع سيسامحك عليه.

ثم حاول أن يطمئنها:

- لا تفكري فقط في الأمر.

أمالت أمه رأسها، وارتخت بشرتها بينما بقيت على لونها الأبيض الشاحب نفسه وهمست له:

- إن لحمي ودمي..

أطبقت عليها الغفوة مثل الموجه وأغرقتها. صار جسدها ساخناً كما لو أن الحمى قد أصابتها فجأةً، وبدأ تنفسها يتباطأ شيئاً فشيئاً، ربما أكثر من الأول، وأصبح أقل بكثير من مجرد نسيم خفيف. رقد "فينسينزيو" إلى جوارها وأغلق عينيه.

عندما أفاق بعدها بلحظات قليلة، كانت "جيوسبينا سافايوتي فلوريو"؛ أمه الحبيبة، قد فارقت الحياة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد انقضاء عيد ميلاد عام 1856 بقليل، سار "إجنازيو" عبر غرف المنزل الكائن في ضاحية "فيا دي ماتيريسي". كان المكان كله مغطى بالتراب والطين الذي غطى حذاءه. تعكس الأرضية اللهب الآمن الذي يخرج من لمبة الجاز، التي كان قد أشعلها منذ قليل.

كان قد أخبر والده برغبته في شراء بيت جديد بدلاً من هذا البيت القديم، لأن غرفه صارت صغيرة ومظلمة ولا تليق بعائلته.

نظر "فينسينزيو" إليه من أسفل لأعلى وهو غاضب، وامتدت يده على ورقة بيضاء.

- فلتبحث عن واحد، ولتعلمني بما توصلت إليه.

إن والده يثق به، لكن "إجنازيو" ما زال يخشاه، كما كان يخشاه وهو صغير.
قال "إجنازيو": "لا".

أصلح عباراته وهو يفتح باب غرفة المعيشة الخاصة بأمه.
إنه ليس الخوف، إنها عدم ثقة، إنه شق؛ لا تجارة الأعمال ولا الثقة التي تراكمت على مدار سنوات طويلة استطاعت أن تدواياه في نفسه.

نعم، الثقة. ليس عندما يتعلق الأمر بالمشاعر والكلمات التي تُلقى لكسر حاجز الصمت، وأن تقول الكثير من خلال القليل من الكلمات؛ هذا الأمر يتركه لوالدته.

وها هو قد وجدها جالسة على كرسي خشبي بمسند، منحوت عليه من الخلف صورة أسد، كانت تبرز قطعة من الدانتيل ربما على وسادة، ولكنها كانت تتوقف كثيرًا، فنظرها لم يعد قويًا كما كان من قبل، وعيناها صارتا تُرَهقان بسرعة. كانت ترتدي نظارة على شكل نصف قمر، ذات إطار على هيئة قرن، وكانت دومًا ما تخلعه لكي تدلك أنفها.

اقترب منها "إجنازيو"، فتركت ما في يدها وتوقفت عن التطريز.
قالت له "جيوليا":

- فلتجلس هنا يا حبيبي.

وأشارت إلى أحد المجالس الموجودة أمام طاولة كبيرة والمغطى بالخياط و.. هكذا كانت أمه دومًا، محافظة وهادئة وصامته وقوية.

- أريد أن أتحدث معك يا أمي.

أومأت "جيوليا" برأسها وأغلقت إحدى العرّاز، ونظرت لأعلى. بدأت الخصلات البيضاء تغزو مفرقها، الذي كان يومًا ما أسود كالليل.

- ها، فلتخبرني.

والآن بعدما أصبح معها، تردد، ولكنه يعلم أن ما سيخبرها به لا يمكن السكوت عنه بعد الآن، ولكنه كان يتمنى أن يؤجل هذه الخطوة لأطول وقت ممكن، ولكنه ليس جبانًا، وإن كان هناك ما يجب أن يفعله فمن الأفضل أن يفعله الآن وفي التو.

قال "إجنازيو":

- هناك فتاة تنتمي بشكل جزئي إلى عائلة "تريجوننا"؛ تلك العائلة الأرستقراطية العريقة، التي يعود أصلها النبيل إلى ثلاثة أجيال كاملة.. اسمها هو "جيو فانيا".

توقف لبرهة عن الكلام، وحاول أن يتقرس أطراف سجادة "القازوين" القيمة، التي أحضرها والده أثناء رحلته إلى فرنسا منذ فترة. توقف للحظة، لأن الكلمات الأخيرة كانت الأصعب والأشق على النطق بها.

- يمكنها أن تصير زوجتي.

طأطأ رأسه لعدة لحظات، ثم عاد ورفع من جديد، لتلتقي عيناه بعيني أمه الحنونة المشرقة القلقة.
ردت "جيوليا":

- هل أنت متأكد يا ولدي الحبيب من رغبتك تلك؟

"بالطبع، أنا لست متأكدًا"، أراد أن يقول ذلك.. ولكنه بدلًا من ذلك أومأ برأسه:

- إنها فتاة مهيبة، وتنتمي لعائلة متدينة، ليست شديدة الثراء ولكن لديها أصل نبيل وعائلة وأصول عريقة ولقب اجتماعي، وتعرف كيف تتصرف بلباقة في المجتمعات، وأمها - هذه الإنسانة التي

تستحق العطف - سميحة جدًا، لكن ابنتها لو رأيتها يا أمي ستشعرين كما لو كانت بلسماً.

وضعت "جيوليا" ما كانت تقوم به جانباً وقالت:

- أنا أعرف من تكون؛ إنها "جيو فانا دو إنديز"، أليس كذلك؟

- نعم يا أمي، هي.

أخذت "جيوليا" بيده واحتضنتها بين يديها بقوة:

- في هذه الحالة، سأخبرك مرة أخرى يا حبيبي "إجنازيو"، لأنني أريدك أن تفكر في هذا الأمر جيداً. فلتتصت إليّ، لقد اخترتُ العار على الشرف لسنوات لأنني كنت أحب والدك وأريده، ولم أندم يوماً على ذلك، أبداً.

تجمعت الدموع في عينيها وبللت جفنيها، كانت تبدو كاللألى، وكأن وجهها قد صغر عشرات السنوات. كانت تتحدث وكأنها تعرف قصتها مع الجميع، فكر "إجنازيو" فيما قالت أمه، وشعر فجأة بارتعاشة في جسده من شدة الإحراج.

- لو أن هناك شخصاً ما تشعر أنه سبب بقائك في هذه الحياة، إذاً فلن يكون هناك أي شيء لا يمكننا أن نتناوله بالنقاش، ولكنك لو كنت تعيش مع شخص ما بدافع الإكراه، أو ما هو أسوأ من ذلك؛ بدافع واجب عليك أن تؤديه، فلا يجب عليك القيام بذلك أبداً مهما كانت الأسباب، ستأتي عليكما أيام لن تتمكننا فيها من التواصل، وسوف تتجادلان كثيراً وتختلفان كثيراً، وسينتهي بكما الحال وكلاكما يكره الآخر، وإن لم يكن هناك ما يربطكما بحق.

ولمست صدره.

أضافت "جيوليا" وهي تلمس جبهته:

- وهنا، إن لم تجدا شيئاً حقيقياً يربطكما معاً، فتأكد من أنك لن تشعر بالسعادة أبداً، وأنا لا أقصد هنا الاحترام المتبادل أو القبلات الحارة، وإنما العاطفة والمحبة، وأن هناك يدًا محبة يمكنك أن تحتضنها كل ليلة على الجانب الآخر من الفراش.

لم يقل "إجنازيو" شيئاً، لأنه لم يكن قادراً بعد كل ما سمعه من أمه أن يقول شيئاً، وبدا من شدة الخجل كمن كان يجري لمسافة طويلة ويلهث، وهو فاقد القدرة على الكلام. شعر بأن جسده ثقيل جداً، كان واعياً ومنتبهاً لرائحة "اللافندر" و"الزهور" التي تفوح من رداء أمه، ما كان يتوقع أن تتحدث معه بكل هذه الثقة والوضوح والصرامة.

وضعت "جيوليا" يدها على خديه:

- هل أنت واثق أنها الزوجة المناسبة لك؟ وأنا هنا لا أشير لحقيقة أنها ستصبح سيده هذا المكان كله.

أوضحت "جيوليا" هذا وهي تشير إلى كافة الغرف المحيطة.

- أنا أقصد هنا أن تكون زوجتك ومليكة قلبك.

ابتعد "إجنازيو" قليلاً عن أمه وقال:

- إنها أكثر امرأة مناسبة لي من عدة جوانب، من بينها أنها تنتمي لإحدى الأسر الأرستقراطية.

- أرجوك يا حبيبي، توقف عن النظر والتعامل مع الزواج على أنه تجارة أعمال.

ثم انفجرت "جيوليا" في وجهه:

- لا تكن مثل أبيك!

وقفت من مجلسها، وتمشت في الحجرة وقد وضعت يديها على فخذيها:

- بالمناسبة، هل أخبرتك والدك في المقام الأول؟ بالتأكيد لم تفعل، أليس كذلك؟

- لا، لم أخبره.

- أنا سعيدة بذلك، لأنني أعلم بالفعل كيف ستكون ردة فعله، وأنا أتخيل أنه سيذهب للتحدث لوالدها على الفور، ونحتفل بحفل خطوبتك عليها.

غضبت ونظرت لولدها الذي رد عليها بنظرة.

- أرجوك، كن أميناً مع نفسك. هل ستكون.. إذا لم تصبح سعيداً، فعلى الأقل تكون ممتناً وتشعر بالرضا مع تلك الفتاة، إذ من المفترض ألا تسير في خطوات الزواج بأخرى بينما عقلك وقلبك وذكرياتك في مكان آخر، ثم ينتهي بك المطاف وأنت تظلمها وتظلم أناساً آخرين، وتظلم نفسك معها.

تجمد "إيجازيو" في مكانه، فمن الواضح أن أمه تعرف الحقيقة. كانت تعرف الكثير عنها في "مارسالالا". كيف اكتشفت الأمر؟ ليس من الخطابات التي تلقاها في "مارسالالا"، لا، هذا مستحيل، لكن الإجابة أتته بشكل صادم؛ لا بد أنها "جيو سيبينا" شقيقته، فهي تعرف ذلك الأمر.

كان مجبراً على أن يخفض رأسه، لأن مشكلته كبيرة، فـ"إيجازيو" غير قادر على أن يخفي مشاعره الحقيقية بعيداً عن أمه.

- لا أمل يا أمي! بالنسبة لي، أنا لذي الآن العديد من المسؤوليات نحوك ونحو أبي ونحو "كازا فلوريو" ..

- فليذهب المال إلى الجحيم ونحن معه؛ والداك. هل تعرف ما الذي قالته عني جدتك عندما كنت محظية والدك؟

زادت حمرة "جيوليا"، وازداد غضبها، وهو ما ليس جيداً بالنسبة لها.

- لقد ابتلعت الكثير من الإهانات، وأنا الآن على استعداد لأن أقوم بعمل كل هذا مرة أخرى من جديد من أجله آلاف المرات. لهذا أنا أسألك للمرة الأخيرة، وإن كانت الإجابة بنعم، فسوف أذهب لبيت "أدونيز" بنفسني، وأتحدث مع والدتها. هل أنت واثق من قرارك؟

مال "إيجازيو" على الكرسي، لم يكن يدري ما الذي يجب أن يقوله، وكأن الجنة بين يديه وفي متناول يده، وهو قادر على أن يمد أطراف أصابعه ويقطف التفاحة من شجرة معرفة الخير والشر. أما بالنسبة لأمه فهي إلى جواره وسوف تسانده بقوة، ولكن والده.. ماذا عن والده؟ إن والده سيحزن كثيراً، ولن يقبل بضياع كل شيء من أجله هكذا بسبب هفوة ونزوة. لقد فعل الكثير من أجله، و"إيجازيو" على وعي كبير بما هو مدين له به، وهو كثير، وقد حان وقت رد الجميل، أن تكون مقبولاً في المجتمع في "باليرمو"، وأن تحصل على تذكرة مرور لحجرة المعيشة الخاصة بالأرستقراطيين، وأن تصبح الأقوى بين الأقوى، وإلا فستخضع وتستسلم للفكر الذي ظل يؤرقك لسنوات؛ أن يستيقظ كل يوم من نومه ويجد نفسه إلى جوار المرأة التي يحبها. بالطريقة نفسها التي حدثت بالفعل.

ولكن ما حدث قد حدث في الماضي، وهناك يجب أن تبقى الذكريات وترقد في سلام بين باقي الذكريات، وألا يدور الزمن دورته من جديد ويسلط سهامه عليه.

أغلق عينيه وضغط على جفنيه، الطموح قد يخدع الذاكرة بأصابعه الدخانية، ما زالت هناك ذكرى واحدة تحاول أن تهرب؛ ذكرى قبلة بطعم الدموع والعسل، سُرقت في حديقة منزل على أطراف "مارسالالا"، هكذا ستسير بك الأمور؛ تبدأ وحدك لتعود وتموت وحدك في النهاية.

سارت "جيوليا" عبر جوانب البيت في "فيا دي ماتيري سي"، ومرت عبر الصالون ووصلت لغرفة حمامها، التي تمت إعادة تجهيزها كي تعيش فيها هي و"فينسينزيو". ذهبت بعيداً لأعلى، نحو السقيفة

التي بنى فيها "فينسينزيو" شرفة قبل عدة سنوات. في النهاية، حصل والده على اللقب الذي يرغب فيه، والزوجة الأرستقراطية التي طالما حلم بها لولده؛ الدم الأزرق لابنه ولأحفاده ولـ"كازا فلوريو". أما بالنسبة للفتاة الصغيرة، فلقد أحببتها "جيوليا" على الفور، وأطلق الجميع عليها اسم "جيو فانيا"، بسبب رقتها وجمالها وحسن خلقها وصغر حجمها، فهي شديدة النحافة. إن أرادت أن تحظى باحترام ولدها فعليها أن تستخدم مخالبتها، كما فعلت هي مع "فينسينزيو"، وهي ستفعل، فخلف هذه التعبيرات الرقيقة، تخفي "جيو فانيا" صلابة الحديد، وهي واثقة من ذلك. تمنى أن تكون زوجة ابن مناسبة وطيبة، ومن قلبها كانت تترجو أن يكون ولدها قد اتخذ القرار السليم، فهي لا تستطيع أن تحتمل فكرة كونه غير سعيد. نظرت لبعيد؛ نحو البحر، فقد ذهب العروسان لقضاء رحلة شهر عسل قصير في إيطاليا، وستحظى "جيو فانيا" على فرصة أكبر للتعرف على "إجنازيو"، وسيبدأ في الكبر معًا. سمعت صوت خطوات على الدرج فالتفتت؛ إن زوجها هنا، خلفها تمامًا. - أخبرتني الخادمة أنك هنا.

سقط "فينسينزيو" فجأة على الكرسي؛ إنه مرهق، مرهق جدًا. شعر بالقلق الشديد والاضطراب، وهو ما تحمله تعبيرات وجهه المتوترة، أشار لها برأسه قائلاً: - لم أعد أتذكر كيف كان الوضع، عندما كنا أنا وأنت فقط وحدنا. أصدرت "جيوليا" صوتًا ما بين الضحكة والتهيدة المرة: - أنا أعرف، إما داخل العربة أو في مكان ما مختبئ فيهما، حتى كشفنا أحي. فجأة شرد خيالها بعيدًا، وبدأت تفكر في والديها اللذين توفيَا منذ عدة سنوات. فكرت في أمها التي لم تُرح عن وجهها ولو لمرة تعبيرات خيبة الأمل، التي أصابتها منذ أن تعلق "جيوليا" بحب "فينسينزيو"، ووالدها "توماسو بورتالوبي" الذي - وعلى الجانب الآخر - سامحها على الفور. - لم يكن من السهل البقاء معك، أنت تعرف ذلك جيدًا. لم تلاحظ أنها قالتها، إلا عندما رد عليها زوجها ببعض العبارات والكلمات المفهومة، التي كانت أقرب ما تكون للاعتراف. - ولكنك رغم كل شيء بقيت معي.

نظرت "جيوليا" لأيديهما المتشابكة. لم يعد خاتم العم "إجنازيو" موجودًا في يده؛ لقد أعطاه لولده "إجنازيو" في يوم عرسه بعد أن قوّاه ودعمه وقال له حينها: "لأن هذا الخاتم ينتمي الآن لـ"إجنازيو" آخر، غير الذي كان يومًا ما أبًا لي، ومن حقك أن تحصل عليه الآن، وأن تسلمه لأبنائك من بعدك". قال هذه العبارات وهو يعطي الخاتم لولده. حاول "فينسينزيو" كبح جماح مشاعره المتدفقة دون ابتسامة، فأخذه ولده من كفه ووضعها في إصبعه فوق خاتم زفافه. والآن نظر "فينسينزيو" لزوجته، رفيقة عمره وشريكة دربه في السراء والضراء. - نعم.

أجابته ببساطة، ومالت على جبهته وقبلت خصلات شعره الرمادية، وقد ضغط على ذراعيها وأسند رأسه إليها. تذكرت "جيوليا" كل مشاجراتهما معًا ومجادلتها وأطفالهما غير الشرعيين، تذكرت كيف كانت تفكر في الهروب بعد أن اكتشفت أنها حامل للمرة الأولى، وتذكرت العار والخزي الذي حملته لسنوات واحتقار وازدراء المجتمع لها.

- نعم، بقيت إلى جوارك يا حبيبي.
وما كان باستطاعتها أن تفعل غير ذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الختام

سبتمبر 1868

“في الكف الأولى الموت وفي الثاني القدر”.

- مثل صقلي قديم

ملاً الهواءَ عطرٌ كثيف، برائحة العسل والزهور والفواكه والزيتون الناضج، والعنب الذي تُرك ليجمد في الهواء، كأنه الربيع، ياله من سبتمبر لطيف وعطر ورقيق! غاص المبنى في وسط الخضرة الكثيفة للمباني الكثيرة المنتشرة في المكان؛ إنها “فيلا ديلا أوليفوزا”، التي ستصبح فيما بعد “ريجيا دي فلوريو”. ترتفع الخطوط القوطية الطويلة التي تخرج من الأرضيات مكونة البوابة المقوسة، وجزءاً من النوافذ المقوسة المغطاة بالستائر البيضاء. هناك نحل كثير يطن بين جنبات المكان وراء الأقمشة البيضاء، والشمس قد فقدت أشعة الصيف الحامية، وتحولت لشمس لطيفة.

الغرفة الموجودة في الطابق الثاني من الجناح الأيمن في أهدأ جزء في البيت أُنشئت بشكل رائع؛ بها نافذتان علويتان تطلان على الحديقة، وكراسٍ من القטיפيّة، وسجاد فارسي، ومنضدة زينة مصنوعة من خشب “الماهوجني”، وسرير كبير بألواح أمامية مقوسة. بالأسفل، وفي الجانب المخصص لسكن الخدم، يمكنك أن تسمع صوت الغسالات الخادمت وهي تقوم بعملها. كانت إحداهن تغني.

استرخى “فينسينزيو” قليلاً على إحدى الوسائد، وعلى الرغم من أن الجو دافئ، فقد كان يرتدي سترة ثقيلة ويضع بطانية على قدميه، وعيناه نصف مفتوحتان تحمقان في الفضاء، كانت إحدى يديه مستقرة على سطح الملاءة والأخرى تبحث عن الحافة بشكل هستيري، تمسك بها وخربش بأطراف أظفاره فيها من شدة الألم. نظرت “جيوليا” إليه وقد وقع قلبها في قدميها من شدة الخوف. كانت تجلس على كرسيها ذي المسند بجواره، وقد جفت عيناها من شدة البكاء؛ ما عادت تستطيع أن تبكي أكثر من ذلك، ولكنها تعلم أن الدموع ستأتي من أي مصدر أياً ما كان، فهي تعلم ذلك بكل تأكيد. “لا تذهب”؛ هكذا كانت تفكر طوال الوقت، كانت تقولها وتهمس بها أحياناً حتى في أذنيه، رغم أنها تعلم أنه ما عاد يستطيع أن يسمعها.

لا، لا يجب أن تفكر في هذا الأمر، فهو ما زال هنا معها. كانت تصرخ من داخلها، حتى عندما يأتي الموت ليختطفه من بين يديها، فسوف تدافع عنه. ارتسم على وجهها وفي أعماق نفسها عزم وتحدي وإصرار تولد بفعل اليأس.

بحثت عن سلة الخيط والتطريز الخاصة بها، وأخذت الإبرة والخيط واستكملت العمل في تطريز رداء تعميد الطفل، الذي وعدت به ولدها وزوجته، فسوف يأتيهما طفل أو طفلة قريباً؛ لا يهم جنسه، ما دامت هي وهو بخير وبصحة جيدة. “فينسينزيو” صغير جديد سيدخل عامه الأول الآن. كانت تبتسم رغماً عنها. لطالما كان ولدها “إجنازيو” فتى طيباً وعطوفاً ومهذباً، وقد أنجب وريثاً لإمبراطورية “فلوريو” على الفور، وسماه على اسم أبيه، ليظل اسماً “فينسينزيو” و“إجنازيو” باقيين أبد الدهر في “كازا فلوريو”.

وها هو "فينسينزيو" حبيبها ورفيق عمرها وحياتها، قد رآه وحمله بين يديه، وكان لا يزال قادرًا على القيام بذلك حتى نهاية شهر مايو المنصرم بعدما انتقلوا مباشرة لهذه الفيلا، التي تعود في الأصل إلى الأميرة "بيوتيرا"، عندما حدث له ما حدث ورقد على فراش المرض. لقد حدث كل شيء منذ أربعة أشهر تقريبًا؛ كانا بالفعل في فراشهما، في هذه الغرفة نفسها، وسمعته وهو يتلوى من شدة الألم تحت الغطاء، ونادى عليها:

- "جيوليا"، أنا مريض، أنا أشعر بأنني لست على ما يرام!
قالها فجأة، وبدا صوته كمن أصابه الدوار.

قفزت من الفراش وبحثت عن مفتاح الكهرباء؛ تلك الحادثة التي أدخلها "إجنازيو" بمجرد شرائه للفيلا.

رأت وجهه المريض والمنهك على الفور، وعينيه الزائغتين وفمه الملوي، ففهمت على الفور. هرعت لتنادي على مدبرة المنزل كي تحضر الطبيب. حضر الطبيب على الفور، وطلب بعض الأدوية. تجمدت الالتواءة على وجهه، وبقي صوته مبحوحًا. منذ تلك اللحظة، تغير شيء ما في زوجها.

قرر أن يسلم كل أعماله لابنه "إجنازيو"؛ ما كان له أن يعترف أبدًا بذلك فيما سبق، ولكن جسده ما عاد قادرًا على أن يواكب طموحه في العمل، وما عاد يقوى أن يعينه، فلقد أنهكته سنوات العمل المستمر. لقد بلغ السبعين من عمره، سنوات خائته وما عاد له أن يثق بها، فقد أثبتت خياناتها له وسرقتها لصحته وقوته شيئًا فشيئًا.

والأهم، أنه منذ عدة أيام، طلب "فينسينزيو" حضور "كواتروتشي" الموثق لكي يكتب وصيته.

- لماذا؟

سألته "جيوليا" بنوع من القلق بعد أن غادر الموثق، وهو جالس على كرسي مكتب الدراسة، ونظر إليها بنظرة غريبة وحادة وهو قلق، ولكن قال بلطف:

- لأن الرب ساعدني هذه المرة، ولا أدري ما قد يحدث في المرة المقبلة، وأنا لا أريد أن أترك أي شيء غير مرتب خلفي.

مالت عليه وقبلت جبهته:

- لن تترك أي شيء لأنك ستتحسن، أنت فقط بحاجة للراحة. لقد صرت عجوزًا يا "فينسينزيو" مثلي، وهذا أمر طبيعي، وسنجلس معًا وأنا وأنت أكثر فيما يلي.

- نعم.

عوج شفثيه.

- على مهلك.

أضاف برقة وهذوء وبمرارة:

- ما كنت أتصور أبدًا أن هذا قد يحدث لي، ولكن ها هو الواقع يقول ذلك، وها هي الحقيقة الوحيدة الباقية.

وتعانقا.

شعرت "جيوليا" بخوفه كطعنة اخترقت منتصف صدرها تمامًا، وأفقدتها قوتها، إذ بينت لها كم سيكون المستقبل مخيفًا وصعب التصور، وأنها ستبقى وحيدة في هذا العالم من دونه.

لم يكن "فينسينزيو" يوماً جباناً أو خائفاً، فلطالما كان دوماً قوياً ومقداماً. أه لو كان الأمر بيده، لهزم الموت بكلتا يديه، لكنها أقدار.

والآن، بدأت حالته تسوء أكثر فأكثر، ربما لأن المرض قد هاجم الأجزاء نفسها التي سبق وداهمها في المرة السابقة، لقد صار بالكاد يتكلم ويأكل. ولا حتى فكرة الجد الوشيك للمرة الثانية قد هزته ببساطة، وما عاد قادراً على فعل المزيد، فسنوات الإرهاق والعمل، والاستيقاظ كل يوم مبكراً، والعمل بشكل مستمر حتى وقت متأخر من الليل، والتوتر والقلق والغضب، بدأت تدق ناقوس الخطر الآن.

وهي، التي أحبته وتحبه كما لم تفعل امرأة من قبل، تعلم أنه قد توقف عن القتال، فما عادت لديه رغبة في خوض المزيد من المعارك، وقد أصبح مرهقاً وغير قادر على التعافي من جديد، وهذه الحياة لا تتاسبه، ولهذا قرر الرحيل، فلطالما كان "فينسينزيو" نشيطاً مثل رياح البحر وعواصفها، ولا يمكنه العيش محبوساً في فراشه.

ولكن "فينسينزيو" لم يكن غير واع، بل على العكس، هو يتذكر.

منذ عامين تقريباً، عندما أحضره والده ليرى بنفسه المنزل المحاط بتلك الحديقة الضخمة المملوءة بأشجار النخيل، و"الدراسينا" والزهور والورود، فجأة شعر برغبة تجتاح جسده، وطلب من سائق العربة أن يأخذه في جولة على طول الطريق المؤدي إلى الطريق الرئيسي، المغلق جزئياً بأشجار الزيتون.

هناك، وجد بيتاً مهجوراً وخرباً، تحيط به أغصان أشجار الليمون التي تمتد بشكل بري نحو نافذة من دون إطار.

نزل من العربة وتمشى بضع خطوات في المكان نحو الباب المخلوع:

- نعم هي.

قالها بصوت مرتعش وبجذع في حلقه، ووراءه يقف "إجنازيو" يراقبه وهو مرتبك وربما خائف حتى:

- ما الأمر يا أبي؟ ما هذا؟

استنشق المزيد من الهواء، والتف للحظة، ورغم انتشار الأشجار في كل مكان، شعر أنه رأى عمه "إجنازيو" وهو يمد يده لطفل صغير.

- هنا، مات أبي "باولو".

نظر "إجنازيو" إلى الأطلال بحزن وأسى. لا بد أنه كان بيتاً عامراً، ولكنه تحول اليوم إلى كوخ مهدم، إلى مجرد هيكل لبيت كان يوماً عامراً يعج بالحياة في هذا المكان.

شعر "فينسينزيو" برغبة خرجت من الأرض وأمسكت به، كأنها بشرى أكثر منها رغبة، كان يعلم أن كل شيء سينتهي هنا في المكان نفسه الذي بدأ منه كل شيء، سينتهي حتماً كما بدأ، لأن كل شيء في الحياة يدور في دائرة، والدائرة ستدور عليه حتماً، وسيأتي عليه الدور في يوم من الأيام. لقد تحولت الضحكة التي كبحتها إلى مزيج من اللعاب والغضب اللذين ابتلعهما رغماً عنه، وضرب بيده السليمة على الملاءة. هكذا أصبح، مجرد قطعة من اللحم التي يتم غسلها وتطهيرها، وهو ينظر لتعبيرات وجه "جيوليا" المملوءة بالحزن والمرارة والخوف، لأنها لم تكن قادرة على إخفاء أي شيء، لا الآن ولا فيما سبق، ورأى العطف والشفقة والرحمة في عيني زوجة ابنه بعد أن كانت ترتعد منه في البداية.

كل شيء كان يرتعد منه، والآن صار نصف رجل!
أدار عينيه في السقف بحثاً عن الصليب العاجي، لأن عينه الأخرى أصبحت غير مبصرة، ولم تستجب له. لا فائدة الآن من ذلك:

- أيها المخلص، فلننته من الأمر بسرعة.
همس، ولكن صوته لم يكن مسموعاً، لقد كان أكثر بكثير من مجرد تراتيل شخص أصابه الدوار. أنت
"جيوليا" على الفور لتبقى إلى جواره، وقد سقطت منها سلة الخيط والإبر، وانتشر الخيط في كل
مكان على السجاد:

- هل حالتك سيئة؟ "فينسينزيو" أجبني!
التقت إليها بصعوبة، لقد أحبها حباً جماً. فشل ولم تكن عقاباً أو خيبة أمل أو صورة من صور الفشل،
ولكنها كانت منحة إلهية وهبة من الرب، فمن دون صبرها وحبها ما كان قد نجح في القيام بأي شيء
في حياته؛ لا شيء، ما لم ير النار المشتعلة نفسها عنده وعندها.

بمجهود كبير، جر يده إلى جوار يدها، وأخذ إصبعها الصغيرة المجددة وقال لها:
- هل أعطيتك ما يكفي؟

سألها بصعوبة.

كان يكافح كي يتحدث بوضوح، ولكنه شعر وكأنما لسانه قد تحول إلى قطعة لحم ميتة.

- هل أعطيتك كل ما تريدينه؟ هل أعطيتك كل شيء؟

فهمت "جيوليا" ما الذي قصده بالضبط، فهي الوحيدة التي كانت تفهم كلماته الغامضة وتعرف
معناها.

تبللت عيناها بالدموع، فهي تعرف جيداً أنه لا يعرف كلمات الحب ولا يجيد التحدث بها، وهذه هي
طريقته في التعبير عن حبه، وكان دوماً يترك لها هذا الأمر لتتحدث به نيابةً عنه وعنهما، فهو لن
يخبرها أبداً بكلمات الحب.

جلست في مواجهته، بالطريقة نفسها التي جلس بها عندما ولد "إجنازيو"، ونطقت بالكلمات التي ما
كانت تجرأ أن تنطق بها أمامه، بينما كان لحمها يتمزق وقلبها محطم:
- نعم يا عزيزي، لقد أحببتني بما يكفي.

بعد مرور بضع ساعات، حضر إلى البيت أحد الخدم العاملين في "فيا دي ماتيريسي"، وأخبرهم أن
زوجة "إجنازيو" قد أنجبت صبياً آخر، وأنهم سوف يسمونه "إجنازيو الصغير"، لكي يمتد سلسل آل
"فلوريو" جيلاً بعد جيل، ويؤمن مستقبل "كازا فلوريو" إلى الأبد.

نجح "فينسينزيو" بالكاد في التقاط الأخبار، والدم الموجود في مخه بدأ يواجه عقبات تمنعه من التدفق
عبر الأوردة والشرايين، وكان يعود إلى المخ محملاً بالقليل من الأكسجين، ويتوقف بين الرئة
والقلب. دخل "فينسينزيو" فيما يشبه الحلم، لكنه في الواقع غيبوبة، وتخيل أنه موجود في "الأرنيليا"
عند ساحة "فيلا دي كواترو بينتري"، وأنه استرد عنفوانه كما لو كان في الثلاثين من عمره، وبصره
قد صار حاداً، وأصبح قادراً على رؤية كل المحيطين به بشكل واضح، كان الوقت ليلاً ولكن الظلام
فجأة أضاء، وصار قادراً على رؤية كل المحيطين به في الليل.

ربما هي ذكرى؛ وقت السباحة بالليل عندما ترك الحياة كلها تتدفق من خلاله. نزع عنه ملابسه،
وغاص في البحر المفتوح، والآن قد صارت الشمس تغطي بأشعتها القوية سطح البحر بكثافة، وبدأت
تؤدي عينيه. بدأ يشعر بأنه خفيف وقوي كطفل بعد التعميد، وصار صوت تلاطم الموج هو الصوت

الوحيد الذي يسمعه، ورأى نافذة غرفة نوم "جيوليا"، وعرف أنها كانت تنتظره، ولكن خلفه في البحر المفتوح، كان هناك مركب صغير يسبح عكس التيار.. إنه مركب شراعي. إنها البداية؛ كان والده "باولو" واقفاً على عجلة القيادة، وعلى جانب المركب يقف عمه "إجنازيو" على استعداد أن يمد له يده لكي يلتقطه، مشيراً إليه أن يقترب حتى يمسك به، وكان يضحك وينادي عليه.

التفت "فينسينزيو"؛ ما زالت "جيوليا" في انتظاره في البيت، ولا يمكنه أن يجرحها بهذا الشكل المؤلم والمهين، كان يشعر بمعاناتها. ولكن اليد الممتدة كانت أقوى، فجذبتة أكثر من أي شيء آخر في العالم.

- تعال يا "فينسينزيو".

كان عمه ينادي عليه، ضحك "فينسينزيو"، وشعر أنه عاد صغيراً مثلما كان، عندما ذهباً معاً إلى جزيرة مالطا وقال له:

- هيا، تعال.

وبالتالي، قام بالاختيار وذهب معه، وسبح بقوة ناحية المركب، وضرب بذراعيه بمنتهى القوة والعزم حتى يصل.

كانت "جيوليا" تعرف، وسوف تسامحه كالعادة، وستذهب إليه سريعاً فيما بعد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



متميزون للكتب النصية



لينك الانضمام الى الجروب - Group Link

لينك القتاة - Link

الفهرس..

الإهداء..

مقدمة

التوابل والبهارات

الحرير

لحاء الشجر

الكبريت

الدانتيل

تونة

الرمل

الختام